

الناشــر : منشأة المعارف ، جلال حزى وشركاه

٤٤ شارع سعد زغلول — محطة الرمل — ت/ف : ٤٨٧ ٣٣٠٣ — ٤٨٥٣٠٥٥ الأسكندرية

٣٢ شارع دكتور مصطفى مشرفة — سوتير — ت : ٤٨٤٣٦٦٢ — ٤٨٥٤٢٣٨ الأسكندرية

الإدارة : ٢٤ شارع ابراهيم سيد احمد — محرم بك — ت/ف : ٣٩٢٢١٦٤ الأسكندرية

Email : monchaa@maktoob.com

الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية :

تاريخ المغرب العربي جـ ٥ — د / سعد زغلول عبد الحميد

رقم الايداع : ١٥٢٠٧/٠٠ — ISBN 9 – 0650 – 03 – 977

التجهيزات الفنية :

كتابة كمبيوتر وتصميم غلاف : سلطان كمبيوتر ت : ٥٤٤٥٦١٤

طبـــــــاعـة : مطبعة عصام جابر

تاريخ المغرب العربى

الجزء الخامس

الموحدون : مصامدة السوس الجباليون
ورثة المرابطين
تأسيس الدولة وقيامها
(٥٠٠ - ٥٥٨ هـ / ١١٠٠ - ١١٦٣ م)
علي عهدي

شهاب الدين
محمد بن تومرت الهرغي

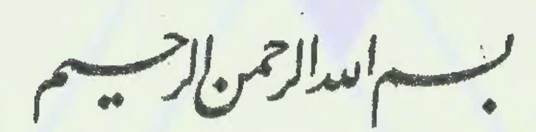
و

سراج الموحدين
عبد المؤمن بن علي الكومي

الدكتور
سعد زغلول عبد الحميد

الناشر / منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه





﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾

قرآن کریم : سورة یوسف

آیه ۱۱۱


A S R

التقديم

وبعد خمس سنوات أخرى قضيناها في التفكير المضني والعمل الشاق، نقدم الجزء الخامس من كتابنا في تاريخ المغرب العربي، وهو في القسم الأول من تاريخ الموحدين، عصر تأسيس الدولة وقيامها، على أن يتلوه القسم الثاني - إن شاء الله في عهد العظمة : بداية الانحلال - حسب مقولة ابن خلدون.

إنني أفهم بعمق مقولة الماوردي - في أدب الدنيا والدين - إن العلم لا يتطلب الرغبة فقط وإمكانات التعليم، بل وأيضاً طول العمر. هذا، ولو أنني أعرف أيضاً أن مسار العلم لا يتوقف، وأن ما بدأه الآباء والأساتذة يستكمله الأبناء والتلاميذ.

أنني أتذكر آخر سنوات الدراسة وما كنا نأمله من بداية حياتنا العملية وكسب الرزق، وأفكر فيما كان يدور بخلد بعضنا من مواصلة الدراسة والبحث. وفي ذلك اتذكر مقولة فقيدنا الصديق «الأستاذ الدكتور / عبد المنعم ماجد» زميل الدراسة والشباب، وهو يقول عن شهادة الليسانس الممتازة بأنها جواز المرور إلي البعثة والسفر إلي الخارج، وأتأمل في الظروف التي هيأت لنا وقتئذ تحقيق هذه الأمنية - عقب نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة.

لقد تحقق الحلم بفضل إخلاص أساتذتنا، شيوخاً وشباباً، فالشيوخ كانوا نعم الآباء المربين ، والشباب كانوا نعم الإخوة المخلصين والأصدقاء.

إنني أتذكر في موقفي هذا، الأساتذة : العبادي وسوريال وفكري وشعيرة والشيال وصفوت وحسن عثمان - رحم الله الجميع. إننا نستكمل عملهم، كما يكمل تلاميذنا أعمالنا.

إنني أرجو أن استكمل تاريخ الموحدين بالجزء السادس - بمشيئة الله، عما

قريب، وأوجه الشكر إلي كل من ساعدني في إنجاز هذا العمل ، من : الزملاء الأفاضل والتلاميذ النجباء.

وفي النهاية أوجه الشكر إلي الناشر السكندري : جلال حزي ، والعاملين معه في منشأة المعارف بالاسكندرية.

سعد زغلول عبد الحميد

٢٥ سبتمبر ٢٠٠٠

الفهرس

الخرائط والأشكال

محتويات الكتاب

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

التمهيد

فى أهمية الموضوع ومصادره:

الأهميـــة : إذا كانت دولة صنهاجة الصحراء المرابطية (ج٤) تمثل أول دولة مغربية كبرى تقوم فى ظلّ الإسلام على أكتاف أهل البلاد من البربر الذين ربطوا فى النصف الثانى من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، إقليم المغرب الأقصى ، مابين السودان الغربى جنوبا وبلاد الأندلس شمالا ، عبر أقاليم الصحراء الأفريقيــة الكبرى، فجعلوا من تلك الصحراء همزة الوصل بين تلك البلاد ، بعد أن كانت جغرافيا ، بمثابة حاجز الفصل ، فهو الأمر الذى لا يدانيه إلا توحيد كل بلاد الشمال الإفريقى (المغاربية) كما يقال الآن ، والأندلس ، جميعا ، تحت رايات الفتوح الإسلامية ، قبل ذلك بأربعة قرون . وإذا كان قيام الدولة المرابطية يعتبر أهم انجازات أهل الصحراء الإفريقيــة (من الملثمين) ، فإن قيام الدّولة المُوحديّة فى المقابل ، يعتبر معجزة أهل جبال درن (أطلس) المغربية (من المصامدة) الذين نجحوا لأول مرة - كما يظهر - فى الربّط (سياسيا وثقافيا) بين سلاسل جبال المغرب الممتدة كالهيكل العظمى الذى يربط البلاد الممتدّة على طول شواطئ المحيط الأطلسى الشمالية الغربية، والذى يسير عبر مضيق الزقاق نحو الشرق على طول امتداد سواحل الجزائر والبلاد التونسية ، وحتى جبل ليبيا الأخضر الذي يعتبرنهاية طبيعية لجبال درن ، عند منطقة «رأس أوثان» فى الطريق إلى الاسكندرية.

والمهم أن كلا من الدولتين المغربيتين الكبيـرتين : الصحراوية (المرابطية)، والجبلاوية (الموحدية) تشتركان في عدد من السمات المميزة . فقد أخذت كل منهما شكل الدولة العظمى التى عرفت فى الإسلام باسم الخلافة، أو امارة المسلمين، وهى الأمبراطورية بمعنى اتحاد الممالك فى المصطلح الحديث ، وان كانت الدولة الموحدية قد حققت وحدة بلاد الشمال الافريقى (المغاربية) من حدود مصر شرقا حتى مورطانيا والسنغال غربا ، وذلك لأول مرة ، ولآخر مرة أيضا فى التاريخ حتى وقتنا الحاضر - وهو الأمر الذى يحسب لمؤسسيها من غير شك.

ولكن ماهو أهم من ذلك أن كلا من الدولتين المغربيتين الكبيرتين لم تعش الا لمدة قرن واحد من الزمان تقريبا ، مع الأخذ فى الاعتبار فترة «حرب المطاولة» وهى حرب الصراع من أجل البقاء عند قيام وسقوط كل من الدولتين .

وهنا لا بأس أن يكون ابن خلدون قد استنبط نظريته فى عمر الدولة فى عالم الإسلام ، مما يقدره بـ ٣ (ثلاثة) أجيال أى ١٢٠ (مائة وعشرين) سنة ، وربما قياسا على عمر امبراطورتى الشرق الإسلامى الأولين ، وهما : الأموية (التى عاشت حوالى القرن)، والعباسية التى يقسم عمرها إلى مراحل (كالعصر الفارسى ، والعصر التركى الأول ، والعصر التركى الثانى) يبلغ طول كل منها حوالي القرن من الزمان . ومثل هذا يقال أيضا عن دولتي المغرب العظميين المتأخرتين : (المرابطية والموحدية)، حيث عاشت كل منهما حوالى قرن من الزمان ، مع الأخذ فى الاعتبار فترة «المطاولة» . وهنا لابأس من الإشارة إلى أنه إذا وصفت الدولة المرابطية بأنها صحراوية (قارية) ، وأن الدولة الموحدية جبلية محيطية - متوسطية (أى بحرية) ، فإن الوصف الأخير ينطبق هو الآخر على الدولة الأموية التى توصف بأنها دولة شامية - بحرية ، بينما توصف الدولة العباسية بأنها عراقية - قارية.

والمهم من تلك المقابلة بين أمبراطوريتى الاسلام الأولين فى المشرق ، وأمبراطوريتي المغرب المتأخرتين أنها يمكن أن تعنى أن بلاد المغرب بعد أن عرفت فترات من التفتت الطائفى فى العصر العباسى (عصر الدويلات) ، تنبهت إلى التجربة الإسلامية الوحدوية الأولى ، وبدأت تعمل على تطبيقها فى الغرب الإسلامى بشكل عام.

فإذا كانت الخلافة العباسية قد وقعت أسيرة سلاطين المشرق من الديلم ثم السلاجقة، فإن حركة التوحيد الإسلامية المغربية نجحت، على العكس من ذلك فى تحقيق الوحدة السياسية في المغرب والأندلس ، الأمر الذى صاحبته نهضة ثقافية مبنية على نهضة المشرق العلمية والثقافية فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، الأمر الذى ظهرت بشائره على عهد المرابطين والموحدين، وهو أيضا الأمر الذى يؤكد

تلازم النهضة السياسية والثقافية ، فكل منهما يرفد الآخر بقوته أو ضعفه ، وهو مايماثل التفتح والاستنارة فى مقابل العكس من ذلك مما يتمثل فى الانغلاق والتعصب.

إن ما بشرت به الصحراء المغربية الكبري بقيام الدولة المرابطية ، وما قام به أهل جبال أطلس المغربية (درن) من وراثة التركة الصحراوية المغربية الأندلسية التى ظهرت وكأنها تبشر بعصر نهضة مغربية قد يعدّل من الأوضاع السياسية والثقافية في المغرب والأندلس لصالح الإسلام ، لم يلبث بَعْدَ قرنين من الجد والاجتهاد والعمل والجهاد أن أتى بغير المرجو منه من الثمار - فكانت العودة إلى الطائفية انتظاراً للمعجزة التى لايعمل الناس على تحقيقها بأيديهم وعرقهم حتى الآن - وهذا ما نحاول بيانه فى هذا الدراسة.

المصادر وأسلوب الدراسة:

مصادر تاريخ دولة الموحدين فى المغرب والأندلس - على عهد المهدى بن تومرت وعبد المؤمن بن على - لها خصوصيتها المميزة ، تماما كما هو الحال بالنسبة لفترات التاريخ الإسلامى ذات الاتجاهات السياسية والمذهبية الخاصة ، مما هو معروف بالنسبة لدول الخوارج أو الشيعة ، كما هو الحال بالنسبة للدولة الفاطمية مثلا.

فالدولة الموحدية فى المغرب قامت على مذهب التوحيد التومرتى الذى يدعو الي لمّ شمل المذاهب الإسلامية المختلفة ، من : سنية وشيعية وكلامية، تحت مظلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبتوجيه من الرئيس أو المرشد الذى لايخطئ بفضل الهداية الربانية. وعلى هذا الأساس سار مهدى الموحدين ، محمد بن تومرت، على نهج الرسول ، فهو عندما كان ينظر فى تجديد الإسلام ، كان يتخذ السيرة النبوية نبراسا يهتدى به.

وهكذا كانت لحركة التجديد الموحدية مصادرها التاريخية الأولية ، التى تنبنى عليها فكرة الدولة المتجددة من حيث التنظير والتنظيم ، والتى تقتدى فى مسيرتها

بالسيرة النبوية ، وعصر الخلفاء الراشدين : متممي عصر النبوة ، كما سيكون الحال بالنسبة لعبد المؤمن (الخليفة) على الأقل.

ومن هنا تمثلت مصادر الدعوة الموحدية الأولية فى انتاج محمد بن تومرت صاحب الدعوه التى تتبنى عليها نظرية التجديد الإسلامى الموحدية ، والتى توجد فى مؤلفه المشهور باسم «أعز ما يطلب» ، وهى الجملة التى تمثل مطلع الكتاب، والذى يحتوى - أساساً - على قسمين ، أولهما فى : العقيدة بمعنى أصول الدين ، والثانى فى : المرشدة بمعنى التطبيق العملى للتكاليف . وهذا يعنى أن الكتاب هو المصدر الأول لدراسة تاريخ الموحدين الذى نحن بصدده - فى عصره الأول.

ابن تومرت - أعز ما يطلب : نشر عمار الطالبى ، الجزائر ١٩٨٥

أهم تواليف محمد بن تومرت الذى كتبه فى بلدته ايجليز فى رباط هرغة ،سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ، عندما اعتكف في الغار على ما نظن، والذى كتبه باللغتين: العربية والمغربية (البربرية)، وأملي حفظه على أتباعه البسطاء، من بربر مصمودة، فكأنه دستورهم (كتابهم) فى الإسلام الجديد، أو المتجدد(١)، وأول الكتاب: «أعز ما يطلب ، وأفضل مايكتسب ، وأنفس ما يدّخر ، وأحسن مايعمل:

الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير»، وهو يشتمل على كل التعاليق التى أملاها ابن تومرت، ثم أملاها بعده عبد المؤمن بن على.

ويبدأ «أعز ما يطلب» بالتعريف بالعلم، والمنهج العلمى فى الدراسة ، ويستخدم فى ذلك المصطلحات الكلامية ، ويعرف بالمسلمات . أما أهم موضوعاته فى العقيدة : فهى التوحيد فى إنكار الصفات ، والمرشدة فى تنظيم المعاملات والعبادات ، ومن ثم الإمامة : أهم النظم فهى رأس المذهب من حيث أنها مرادفة

(١) انظر ص ١٤- حيث النص : وفيه باللسان الغربى : السبعة أحزاب : الدوائر، وهو الطهارة، علامة المنافقين :"امحانت أكوصف تازاكوت أن تينار نوفنا دران يا العالمين" - وغير ذلك التعاليق المفيدة.

لإمارة المؤمنين أو الخلافة ، وهى فى الحقيقة أصل عقيدة التوحيد من حيث العصمة التى تجعل من الإمام مرشداً لايخطئ ، كما هو الحال فى الفكر الشيعى - هذا إلى جانب ما يلحق بكل ذلك من الأوامر الدينية والأحاديث النبوية (٢).

البيدق : أبو بكر الصنهاجى

- ويأتى بعد كتاب ابن تومرت : أعز ما يطلب ، كتاب أخبار المهدى محمد بن تومرت ، وهو كتاب خادمه وصاحبه الأمين : أبو بكر بن على الصنهاجى ، المعروف بالبيدق - وهو بتقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات -ط٢-الجزائر ١٩٨٦ .

وصاحب الفضل فى اكتشاف هذا الكتاب هو الاستاذ أ.ليفى-بروفنسال ، وكان كشفا رئيسيا بالنسبة لدراسة حركة ابن تومرت الدينية ، وقيام الدولة الموحدية . وأهم مايتميز به هذا الكتاب المعاصر لقيام حركة التوحيد التومرتية هو أنه يعتبر واحداً من المصادر الوثائقية الأولى التى وصلتنا دون أن يصيبها التغيير أو الكثير من التحريف.

والكتاب الذى ينتهى بالإشارة إلى وفاة عبد المؤمن، وولاية ابنه يوسف فى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م يمكن أن يكون منتهيا فعلا فى آخر تاريخ مذكور فيه (قبل ذلك) وهو سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٣ م ، بمعنى أن مايأتى بعد ذلك هو إضافات محتملة لمن وضع الكتاب فى شكله الأخير ، وتتمثل فى الصفحات الأخيرة ، والملاحق الخاصة بإحصائيات الثوار والحصون التى بناها المرابطون ، ومن ثم الحوليات المستمرة بعد ذلك.

ورغم الأهمية المرجعية لهذا المصدر بالنسبة للفترة المبكرة من تاريخ الموحدين على عصرى كل من المهدى (ابن تومرت) والخليفة (عبد المؤمن) ، والأهمية البالغة لكثير من المعلومات التفصيلية الخاصة بالأشخاص فرديا ، والأحوال بعامة ، فلا

---

(٢) أنظر ما يأتى : عن الإمامة، ص ٢١١ . وما بعدها.

شك أن النص العتيق قد انتابته عدة من الآفات ، من : أخطاء النُّساخ وتحريفاتهم ، إلى جانب إضافة بعض المعلومات الفلكلورية أو الاسطورية الشعبية ، والتي عادة ما تكون لها أهداف منقبية تربوية، ممايتمثل عادة في سير كبار رجال الدول ، من : عظماء السّاسة وكبار الأبطال.

وهكذا يضفي البيدق بصفته شاهد عيان ، قريب من كل من ابن تومرت وعبد المؤمن ، الكثير من الأصالة على بطلى التنظير والتأسيس الأولين للدولة الموحدية، ويعرّف بتنظيم جماعة الموحدين فى ذلك الوقت المبكر من نشأتها ، بل ويعطى التفصيلات المرهقة فى مراحل الصراع الأولية بين الموحدين والمرابطين ، كما يعرف بأسلوب الترغيب والترهيب الذى كان يطبقه كل من ابن تومرت وعبد المؤمن بن على ، وذلك ما يظهر بصفة خاصة فى نظام التطهير الذي عرف (بنظام) التمييز.

الرسائل الموحدية :

مجموع رسائل موحدية - إصدار أ. ليفى - بروفنسال - رباط الفتح - ١٩٤١

ويضم إلى المصدرين الوثائقيين السابقين ، بالنسبة لفترة تأسيس الدولة الموحدية وقيامها ، مجموعة الوثائق من الرسائل والكتب الرسمية التى يرجع الفضل فى اكتشافها، ومن ثم التعريف بها إلى الاستاذ أ. ليفى - بروفنسال ، وهى الـ ٣٧ (سبع وثلاثون) رسالة والتى يهمنا منها بالنسبة لفترة المهدى وعبد المؤمن وهي الرسائل الـ ٢٣ (الثلاثة والعشرون) الأولى ، ومعظمها من كتابة الوزير ، الكاتب الشهير : أبى جعفر أحمد بن عطية . وهى الرسائل التالية ، حسب ترقيمها الأصلى:

١- الرسالة الصادرة من حضرة مراكش إلى طلبة سبتة ، والتى تشير إلى غزوة تم القيام بها من أجل إطفاء الفتنة، وقطع دابر المجرمين - ويمكن تأريخها بسنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧م بصدد توفى الثائر الماسى (الماستى) قبل ثورة القاضى عياض

بسبتة ، بتحريض من يحى الصحراوى (النص ، ص ١ - ٣ ، والدراسة ص٢١).

٢- .... من حضرة مراكش إلى الشيخ الفقية القاضى (قاضى قرطبة) : أبى القاسم محمد بن الحاج . الموضوع : الإفادة بوصول أخى المخاطب الشيخ الجليل أبو محمد ، وابنه أبو الحسن ، وصاحبه الشيخ الكاتب أبو عبد عبد الله بن زرقون . أما سبب البعثة فهو تقديم البيعة بعد دخول قرطبة فى طاعة الموحدين - على يدى الوالى : يحيى بن على بن عايشة سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م (أنظر النص ص ٣-٤ ، والدراسة ، ص ٤).

٣- ...... من حضرة مراكش إلى طلبة صنهاجة تاشغرت . والموضوع زيارة عبد المؤمن للحضرة العلية بتينملل ، نسخه بتاريخ ٢٧ ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ/ ١٧ أغسطس ١١٤٨ م. والظاهر أن هذه الرحلة لم تسجل من قبل المؤرخين ، كما يرى بروفنسال (النص ٥-٦ ، الدراسة ، ص ٢٣).

٤- .... من حضرة مراكش إلى الشيخ الأجلّ أبى زكريا يحيى بن على (ابن غانية) . وموضوعها دعوة ابن غانية إلى الخضوع بناء على ماظهر من محبته وصفائه - بعد خلاف مع الفونسو الـ ٧ - بالنسبة للموحدين ، وكذلك الأمر بالنسبة لقبيلة مسوفة ، وكذلك الشيخ أبو زكريا يحيى بن اسحق بن ابراهيم - بتاريخ ٩ ربيع الآخر ٥٤٣ هـ/ ٢٧ أغسطس ١١٤٨ م (النص ص ٦-٩، والدراسة ص٢٣).

٥- ..... من حضرة مراكش الى طلبة سبتة ، وموضوعها غارة بحرية على المرية، وهى مهمة من حيث أنها تبين أن هذا الحدث التاريخى وقع سنة ٥٤٦ هـ/ ١١٥٠ م ، بمعنى أنه مخالف لأحداث تحرير المرية من الاحتلال الاجنبى (الفرنجى - الاسبانى) التى وقعت ، كما هو معروف فى سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م (النص ص ١١ - ١٣، الدراسة ص ٢٥-٢٦ ، وفيما بعد ص ٥٠٢) .

٦- .... من حضرة مراكش إلى جماعة المشيخة بقرطبة ، بتاريخ ٢١ صفر

سنة ٥٤٤ هـ/ ١١يونيه ١١٤٩ م . والموضوع هو عودة قرطبة للخضوع للموحدين بعد رفع حصار الفونسو الـ٧ عنها (النص ص ١٣ ، والموضوع ص ٢٧ - حيث نفس أشخاص المبايعين في الرسالة ٢ لسنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م).

٧- ...... من حضرة بجاية ، فى ٢٤ جمادى الأولى ٥٤٧ هـ / ٢٧ أغسطس ١١٥٢ م ، إلى الشيوخ والأعيان وجميع من بقسنطينة . وموضوعها فتح البلاد الشرقية ، وطلب الخضوع من أهلها للموحدين مع وعد بالامتيازات المادية والمعنوية التى سيلقونها . مع التعريف بخضوع القائد: أبو محمد ميمون بن على بن حمدون فى منطقة بجاية ، والذى أصبح وأخوه الفقيه : أبو عبد الله محمد بن على بن حمدون وأتباعهما وأقاربهما فى مناصب سامية . مع الافادة بما كان يعانيه أهل البلاد من : القبالات والمكوس والمغارم بينما لا تتطلب تعاليم المهدى الا إقامة السنة السمحة (النص ص ١٧ -٢٢ ، والدراسة ص ٢٦).

٨- ...... من حضرة بجاية إلى طلبة تلمسان ، وجميع من فيها من الموحدين ، فى ١٠ شعبان سنة ٥٤٧ هـ/ ١٠ نوفمبر ١١٥٢ م . والموضوع فى التعريف بفتح تلك البلاد ، وخضوع يحيى ابن العزيز بن المنصور بن الناصر وجميع إخوته وقرابته وخؤوله لأمر الله المبارك ، واللجوء إلى بلد قسنطينة بجهة القلعة - حرسها الله - واتفاقهم على إرسال جماعة منهم إلى بجاية فيهم : أخو أبى زكريا يحيى وشيوخ صنهاجة وقسنطينة مستسلمين . وفتحوا أبواب المدينة المذكورة مستظلين بظلال هذه الدعوة المحيطة الجامعة (النص ص ٢٢ - ٢٦ ، الدراسة ص ٢٨).

٩- ...... من حضرة تلمسان ، فى مستهل ربيع الأخر سنة ٥٤٨ هـ / ٢٦ يونيه ١١٥٣ م ، إلى الشيخ أبى محمد وسنار ، وجماعة أصحابه الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة من أهل مراكش . والموضوع فى تتابع فتح البلاد الشرقية ، وما حدث فيها من الجلاء والخراب بسبب الأعراب المفسدين فى صحرائها ، وكيفية الإيقاع بهم فى جهة سطيف - عَمَّرها الله - ونحن إذ ذاك بمتيجة - عمرها الله.

مع بيان ما كابده العرب من الهول ، حيث اختلطوا بمواشيهم وأنعامهم . ثم متابعة الموحدين لهم لمسافة ٤ (أربعة) أيام ، يغزونهم ويغنمونهم من السبى والخيل والسلاح (النص ص ٢٦ - ٣٤ ، الدراسة ص٢٩).

١٠- .... من حضرة مراكش ، فى ١٦ جمادي الآخرة سنة ٥٤٨ هـ / ٩ سبتمبر ١١٥٣ م ، إلى الشيخ أبى عبد الله محمد بن سعد (ابن مردنيش) . والموضوع: تحريض ابن مردنيش على التمسك بأمر المهدى ، وهو ما ظهر منه تمسك أهل بلنسية بكلمة التوحيد ، ثم ما ظهر من إخلاص أهل لورقة ..... والأصل فى «موالاة هذه الطائفة المباركة» (ص٣٥ - ٣٧، الدراسة ص ٣١).

١١- .... من حضرة مراكش - دون معرفة المرسل إليهم بسبب البتر - أما الموضوع فهو عن أخوى المهدى وأصحابهما من أصحاب النفوس الخبيثة حيث قابلوا حسن الرعاية بأعمال الشقاوة حتى انتهى الأمر باعتقالهم اعتقالا جميلا فى فاس ، ولكنهم لم ينتهوا عن مخالطة الأوباش حتى انتهى بهم الأمر إلى محاولة الغدر بمراكش ، حيث قتلوا نائب عبد المؤمن بقلعتها ، وهو القائد أبو حفص عمر بن تفراجين ، الأمر الذي أدّى بالعامة إلى قتلهم . ومن ثم تتبع عبد المؤمن أعوانهم الأشقياء المنافقين ، الأمر الذي تطلب حركة تطهير وتمييز (النص ٣٨-٤٦ ، الدراسة ص ٣٢ وانظر فيما يأتى ص ٤٨٤)

١٢- .... من حضرة مراكش إلى طلبة تلمسان . والموضوع هو اهتمام الدولة الموحدية بتنظيم المجتمع بما يؤدى إلى تحقيق مصلحته الدينية والدنيوية ، وذلك عن طريق أشتغال أهل التوخيد بنفوسهم، والعكوف على قراءة توحيدهم . وهكذا استدعيت مختلف القبائل ، وأخذوا بالقراءة والتعليم، ومدارسة التوحيد . وبناء على هذا الاختبار ابتدئ بتنظيم الناس على طبقات ٣ (ثلاث) ، هى : ١- السابقون الأولون ، ٢- من دخل الحزب من بعد البحيرة إلى فتح وهران، ٣- من دخل الحزب من فتح وهران إلى هلم جرا (النص ص٤٧-٥٥ ، الدراسة ص ٣٣-٣٤،

حيث تحديد عام الاعتراف الذى تم فيه ذلك بسنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م - وقارن الرسالة ١٥).

١٣- .... من رباط الفتح إلى طلبة سبتة وطنجة وجميع من بهما من الموحدين والأشياخ والأعيان والخاصة والعامة . والموضوع هو ترشيح السيد/أبى عبد الله محمد (ابن الخليفة :عبد المؤمن) لولاية العهد ، من قبل : العشائر العربية الهلالية ، والقبائل الشرقية والصنهاجية ..هذا إلى جانب توليه لبلادهم وإنفاذه معهم . وهذا الأمر تطلب عقد اجتماع للمشايخ ، وأخذ رأى الشيخ الأجلّ أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى الذى رحب بتقديم محمد . هذا، مع الإشارة إلى أن الخليفة لم يكن قد نظر فى ذلك ولا فكّرفيه ، ولكنه تقّبل ماتم الاجماعُ عليه ، وهو تعيين محمد وليا للعهد ، وحاكما للمشرق (النص ٥٥-٦٠، الدراسة ص ٣٥، حيث اقتراح تاريخ الرسالة بأوائل سنة ٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م - كما يستشف من حوليات ابن الأثير).

١٤- .... من رباط الفتح ، فى ١٢ ربيع الأول ٥٥١ هـ/ ٥ مايه ١١٥٦م، إلى طلبة سبتة والأعيان والكافة. والموضوع : اجماع الموحدين على البيعة لمحمد بن عبد المؤمن ولياً للعهد. مع التأكيد على أن ذلك «لم يكن له عندنا (أمير المؤمنين) قصد متقدم ولاهم متوهم، ولكنه أمر أراده الله» وأنه أتى عن طريق العشائر الهلالية والوفود المشرقية مع الرغبة أيضا فى استصحاب أحد أخوته. وبعد المذاكرة رؤى جعل منطقة المجاز، من : غمارة وسبتة ولاية رابطة بالعدوتين مع طنجة والجزيرتين ومالقة ، حيث يكون ارتباط البر بالبحر . وبعد المدارسة تقرر أن يكون مع كل أحد من الأخوين من يعينهما ، من : كبار الطلبة والحفاظ وأعيان الفقهاء والقضاة ، ونخبة من الأمناء والثقاة من يعينهم فى مهامهم المختلفة (النص ص ٦١-٦٦، الدراسة ص ٣٧-٣٨ حيث تولية أبناء عبد المؤمن الولايات المختلفة).

١٥- .... من حضرة مراكش إلى طلبة سبتة والأشياخ والأعيان والكافة . وموضوع الرسالة هو إرشاد الناس إلى طريق الخير باللجوء إلى التوبة والتمسك بالأخلاق الكريمة ، من : الصدق ودفع النميمة والذميمة . ومعاهدة الله على ذلك حتى عَمت المغفرة وانجابت عن الناس ظلمة التوحش . مع تكرار الدعوة الى التصافح والتغافر والتحلي بالآداب الكرام (النص ٦٧-٧١، الدراسة ص ٣٨ - حيث النص على القرابة مع الرسالة رقم ١٢ الخاصة بطبقات الموحدين).

١٦- .... من حضرة مراكش ، في العشر الأول من شعبان سنة ٥٥٢ هـ/ أوائل سبتمبر ١١٥٧ م ، إلى طلبة بجاية والأشياخ والأعيان والكافة . والموضوع هو فتح المرية وبياسة وأبذه ، وموت السليطين (الفونس الـ٧) القشتالى . وتبدأ الرسالة بالنص على أن بلاد الأندلس كانت تستدعى من الدولة المزيد من العناية بسبب خطر العدو الأسبانى . أما عن اختيار تحرير المرية فبسبب موقعها الاستراتيجى بين كل من الجهات الشرقية والغربية والرابط بين البلاد البرية والبحرية. وكانت المبادرة من طلبة غرناطة الذين اقتحموا أبواب المرية ، وتيسر لهم فتح المدينة باستثناء القصبة التى ضرب عليها الموحدون الحصار . وعندئذ استصرخ ابن مردنيش بملك قشتالة السليطين ، ولكن الهزيمة التامة لحقت بالأشقياء ، وتم سقوط القصبة ، وكانت نتيجة الهزيمة الموت كمدا بالنسبة للسليطين ، بالقرب من بياسة التى سار اليها الموحدون واستولوا عليها ، كما تبعوا الغازى منها إلى آبذة واستولوا عليها أيضا . وبذلك تنص الرسالة على استراحة بلاد الأندلس من دائها العضال (النص ص ٧١-٨١، الدراسة ص٣٩-٤١ ، حيث تقرر أن تلك الرسالة كانت المصدر الذى استقى منه ابن الأثير روايته).

١٧- .... من حضرة مراكش ، فى ٢٨ رمضان ٥٥٢هـ / ١٣ اكتوبر ١١٥٧ م ، إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة - دون ذكر الجهة وأنظارها. والموضوع :جولة تفتيشية فى بلاد الموحدين لتجديد الذكرى والموعظة ببلاد قبائل:

جدميوة ، وجلمودة ، وجنفيسة ورجراجة وحاحة. وكان الوصول إلى تارودانت في شهر رمضان /أكتوبر نوفمبر ١١٥٧م ، ومنها كانت زيارة ضريح المهدى في تينملل حيث الاقامة فيه بضعة أيام تبركا ، وللنظر في تحسين الأوضاع في التربة المقدسة، من : نصب باب على مدخل الغار يقي من شدة الهواء ، والنظر في إقامة قبّة تغطي أرجاءه مع تسوير أرضه - الأمر الذى تم انجازه بفضل العمل الدائب نهاراً وليلاً . هذا ، كما تم اللقاء بشيوخ هرغة وأعيانهم حيث أعلن الصفح عنهم - ربما بسبب مسألة أخوى المهدى وقريبهم يصلاسن، على ما نظن ومن هرغة كان المسير في قمم الجبال العالية إلى أنسا حيث قبائل تينملل وهنتاتة، والإقامة عند قبائل الجنوب من صنهاجة وهسكورة حتى نهاية الخريف ، حيث كانت العودة وسط ترحيب القبائل على طول الطريق ، حيث النص على نجاح الجولة ، وتجديد البيعة ، وإعلان التمسك بالدعوة الموحدية ، وإعراب الكثيرين ، وخاصة من قبائل الكوست عن الرغبة «في الإسلام» ، وهم يتوسلون بحرمة ذلك المقام . وفي مقام المهدى قيل، كما قيل في الروضة النبوية المشرفة : «مابين قبره المنعم ومسجده المكرم ، روضة من رياض الجنة » (النص ص ٨١-٩١ ، الدراسة ، ص ٤١-٤٣ حيث الإشارة إلى زيارات عبد المؤمن المختلفة مع المقارنة مع رواية البيدق).

١٨- .... من حضرة مراكش ، في ١٤ رجب من ٥٥٣ هـ / ١٣ أغسطس ١١٥٨ م والموضوع إشارة إلى انتصار تحقق على العدو الاسبانى ، مع تحريض المرسل إليهم على المناكر والانفاق في الكثير والقليل من الاعمال (النص ص ٩٣-٩٥ ، الدراسة ص ٤٣ - حيث النص على عدم معرفة الحدث في المصادر).

١٩- .... من منزل الموحدين بظاهر المهدية ، في ٢٠ من ذى القعدة سنة ٥٥٤ هـ / ١٤ ديسمبر ١١٥٩ م إلى طلبة غرناطة والموحدين بها . والموضوع هو الاهتمام بالبلاد الشرقية ، مع الانشغال بأحوال العدوة الأندلسية ، والنظر فعلا في

اختطاط «مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق ... «مجمع البحرين، والقطب الآخذ بأطراف البرين» . ولقد سير عبد المؤمن إلى هناك الشيخ بُراز بن محمد (المسوفى) والحاج يعيش (المهندس) لتنفيذ العمل . هذا مع إخطار الشيخ الأجلّ أبى حفص ليصل إلى المكان ، وكذلك القايد أبى محمد عبد الله بن حيار الجَيانى حيث المذاكرة فى تلك المسألة . هذا ، مع الإشارة إلى فتح قفصة ، ومخاطبة عرب قابس (النص ص ٩٥ - ٩٩ الدراسة ، ص ٤٣ - حيث الإشارة إلى تأكيد بناء جبل طارق قبل سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م).

٢- .... من داخل قفصة إلى طلبة قرطبة والموحدين والاشياخ والأعيان . والموضوع عن استيلاء الموحدين على مدينة قفصة ومشاركة الأعراب وأوباش الأكراد فى الثورة والفساد بسبب حصانة الموضع، والمسير اليها فى طريق غير معهود ثم الالتفاف حولها فى غروس وبناءات وعرة المسالك . أما عن الحصار فكان شديدا ، مع نصب المجانيق التى هدمت أسوارهم ودورهم . ومع ذلك فقد استمرت المقاومة حتى عرض عليهم الموحدون الأمان نظير الاستسلام، ولكنهم تمادوا فى المقاومة . وهكذا تطلب الأمر الاستمرار فى الرمى بالحجارة، وقاموا بردم الخندق، واقتحام الستارة، ودخول المدينه عنوه، وبالتالى استباحتها.

وعندئذ طلب القفصيون الأمان وأعلنوا التوبة فقبل منهم وهكذا «خرج زعيمهم عن البلد صاغراً مع «ذعار اللصوص وأباق العبيد».

أما عن العرب فى المنطقة فإنهم وافقوا تعويض زللهم بالغزو فى جزيرة الأندلس (النص ص ٩٩-١١٢ ، الدراسة . ص٤٥-٤٧ - حيث تقرير أن المعلومات صحيحة عن فتح قفصة).

٢١- .... من أمير المؤمنين (عبد المؤمن) فى ٢٤ من ربيع الآخر سنة ٥٥٥ هـ / ٢٣ ابريل ١١٦٠ م ، إلى طلبة فاس والشيوخ والأعيان والكافة . والموضوع تكملة غزو أفريقية التى هى فى حوزة قبيلة رياح ، حيث الإشارة إلى ظفر

العساكر بالسبايا والغنائم ، مما غصّ به الفضاء ، ودخول العرب فى سلك أهل التوحيد ، والموافقة على الهجرة إلى بلاد الموحدين ، وكذلك قبيلة جشم والفخذ المحمدى منها . هذا كما أظهر الأثبج وزغبة الطاعة (النص ص ١١٣ - ١٢١ ، الدراسة ، ص ٤٨ - حيث الإشارة إلى كتابة الرسالة فى فحص متيجة ، والمقارنة مع ابن الأثير).

٢٣- والرسالة هذه ، هى المعروفة باسم «الفصول» ، وهى صادرة من رباط الفتح ، فى ٣ ربيع الأول سنة ٥٥٦ هـ / ٢ مارس ١١٦١ م ، من أمير المؤمنين عبد المؤمن إلى أهل بجاية ، وهي من رسائل الدعاية الموحدية التي كانت ترسل إلى جماعة الموحدين ما بين الحين والآخر ، وهى تعرّف بأصول مذهب التوحيد - الذى ينبغى أن يقرأ باللسان الغربى (البربرى) لمن يفهمونه - من أوله إلى آخره بعناصره المختلفة ، مثل : العقيدة والمرشدة ، وجهاد المجسمين (الأصل ص ١٢٦ - ١٣٨ ، الدراسة ، ص ٤٩ - حيث النص على أنها لابن عطية ، وترجع إلى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨ م ، وانها استخدمت فيما بعد مع تغيير التاريخ).

المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة :

تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين «المن بالإمامة» - السفر الثانى - تأليف عبد الملك بن صاحب الصلاة - تحقيق عبد الهادى التازى - بيروت ١٩٦٤ .

وابن صاحب الصلاة : المؤلف ، هو: أبو مروان عبد الملك بن محمد بن احمد ، الباجى ، المعروف بصاحب «التاريخ» ، «وتاريخ ثورة المريدين بالأندلس» (ص١٣). واذا كان كل من ابن الأبار وعبد الواحد المراكشي لايقدم شيئا عن حياته، فقد عرف المؤلف بنفسه فى عدد من المواضع فى ذلك السفر، واذا كان الباحثون المحدثون يجعلون وفاته فى ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م (ص٢٥ - فإن المحقق يقترح أن تكون وفاته بعد سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٨ (ص٢٦).

والسفر الثانى يعالج فترة ١٥ (خمسة عشر) عاما من تاريخ الموحدين (مابين ٥٥٤ / ١١٤٧ م - ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م . أما عن الدراسة التى قام بها د. عبد الهادى التازى لهذا السفر فهى دراسة شاملة ، عالج فيها أسانيد المؤلف ، وطريقة الحوليات التى أتبعها (ص٤٤) ، كما وضح أنه مرجع اساس لكل من ابن القطان وابن عذارى.

وفيما يتعلق بالفترة موضوع دراستنا فإن ابن صاحب الصلاة يعالجها فى سنوات ٥٥٤هـ / ١١٥٩ م - حيث منازلة ابن مرنيش مدينة جيّان ومحاصرة قرطبة (ص١١٥) ، وحيث ورود الكتابين (الرسالتين) المبشرين بالفتوح من ظاهر المهدية، وفتح المهدية نفسها فى يوم عاشوراء، واتصال فتوح افريقية ، وطوع العرب ثم ارتدادهم (ص١٢١) .

ومن أهم الرسائل الرسمية التى يشير اليها ابن صاحب الصلاة فى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م : كتاب فتح المهدية المرسل إلى اشبيلية (ص١٢٦) ، والخطاب بفتح قفصة ، ومخاطبة بنى سليم بالتوحيد (ص١٢٩) وكتاب الايقاع بالوزير عبد السلام الكومى (ص١٣٦) ، وكتاب بناء مدينة جبل طارق (ص١٣٨) . وفى أول سنة ٥٥٦ هـ / آخر سنة ١١٦٠ م كان انصراف عبد المؤمن من جبل الفتح إلى مراكش (ص١٧٢) . وفى سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م كانت حركة عبد المؤمن إلى رباط الفتح بقصد الغزو ، ووصول أنباء هزيمة مرج الرقاد بغرناطة ، ومن ثمّ الثأر في موقعة حدارُه (ص٢٠٣) . أما عن سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م فهى سنة وفاة عبد المؤمن وإسقاط ولاية العهد نهائيا عن محمد ، وتثبيتها ليوسف.

نظم الجمان لابن القطان :

ويأتى فى المرتبة التالية لكتاب المن بالإمامة - بالنسبة لتاريخ الموحدين - كتاب نظم الجمان لابن القطان : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط ، تحقيق د. محمود على مكى - بمساهمة المركز الجامعى

للبحث العلمي وتحت اشراف معهد مولاى الحسن للبحوث (٣).

المؤلــف مابين الأب والابــن:

كان من المتفق عليه قبل نشر تلك القطعة من نظم الجمال أن مؤلف الكتاب هو أبو الحسن على بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامى الفاسي، والمعروف بابن القطان، والمتوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م . ولكنه لما كان ابن القطان المؤلف قد

---

(٣) وهذه القطعة من نظم الجمان كانت إلى قبيل سنة ١٩٥١ ملكا للعالم المغربى الجليل سيدى عبد الحى الكتانى، وإنه أهداها قريب ذلك الوقت لأستاذنا أ.ليفى - بروفنسال.هذا ما قاله لى «مولاى» عبد الحى عندما زرته فى داره العامرة فى ربيع سنة ١٩٥١ (قارن تقديم المحقق، صV-IV) بمدينة فاس - المحروسة-وهويطلعنى، فى حضور مجلسه الشاب الأديب، على ذخائر خزانته من المصاحف الأثرية الثمينة. وهنا لا بأس من الإشارة إلى أنه فى ذلك الوقت كان من الصعوبة بمكان أن يسمح لمثلى- بصفتى مواطنا مصريا- بدخول أراضى المملكة المغربية الشريفة، حيث كانت الأزمة السياسية بين السلطان محمد الخامس وفرنسا قد بلغت الذروة، وتخطت الحدود المعروفة بين الدول. وهنا أقول انه لولا تزكية الأستاذ بروفنسال لى- بصفتى تلميذه المصرى- لما تمكنت وقتئذ من دخول "المغرب".

وبهذه المناسبة أحب أن أسجل أن الأستاذ بروفنسال كان يقول لى فى ذلك الحين إنه يقف إلى جانب السلطان محمد الخامس ويؤيده. كما أرى أنه من المناسب أن أسجل اننى عندما ذهبت فى رحلتى العلمية هذه إلى مدينة مراكش، وعرف الطلبة المغاربة بوجودى- وكان منهم الصديق الأستاذ محمد بن شريفه - كما عرفت مؤخراً-رتبوا لى لقاء خاصا معهم، تم فى فناء بعض الدور، حيث تحدثنا عن الظروف الصعبة التى كانت تمر بها البلاد وقتئذ،وأذكر أننى تمنيت وقتئذ أن تسمح لى الظروف، فى وقت قريب، باللقاء معهم فى العلن - فى ساحة الفناء - وليس فى الستر كما كان الحال.

هذا، كما أشير الي مادار بيني وبين رجال التفتيش الجمركي وهم يفتشون كتبى تحت إشراف المسؤلين من رجال الجمرك الفرنسيين، فأذكر أننى قلت لهم- غاضبا- إننى سوف أعود قريبا دون أن يكون هناك من يشرف على التفتيش أحد من غير المغاربة، بل سأعفي من التفتيش تماما. وهذا ما تحقق لى فعلا - والحمد لله - عند زيارتى الثانية للمغرب، وان كان فى سنة ١٩٨٨، وفى جمرك مطار الرباط، بفضل شهامة رجاله الكرام.



فاس : الزاوية الكتانية الكبري

أدرك الخليفة الموحدى المرتضى - كما يفهم من نص لابن عذارى - الذى حكم مابين ٦٤٦ - ٦٦٥ هـ / ١٢٤٨ - ١٢٥٧ م ، حق للمحقق د. مكى أن يرجح أن يكون أبو الحسن المذكور ، والمتوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ، هو الأب ، بينما يكون المؤلف هو الابن ، وهو ابو على الحسن (حسين أصلا) بن القطان الكتامى مؤلف «نظام الجمان» كما يرد فى كتاب مفاخر البربر - وان لم يعرف تاريخ مولده أو تاريخ وفاته (٤).

والذى نراه أنه لما كان المؤلف الابن من كتّاب الدولة الموحدية ، وأن الأب كان من الدعاة الموحدين المتحمسين (ص : ص ، ف) فلا بأس أن يكون الأب مشاركا للابن بطريقة أو بأخري فى تأليف الكتاب : كأنْ يكون هو الذى بدأ بتدوين التاريخ الذى استكمله الابن بعده ، وهو الأمر المقبول .

أما عن عنوان الكتاب فهو «نظم الجمان لترتيب ماسلف من أخبار الزمان»، يعنى أن الكتاب موسوعة من نوع كتب التاريخ العالم ، كالطبرى وابن الأثير ، الأمر الذى يعنى أن القطعة المنشورة ليست إلا جزءا صغيرا منه . وهى الحقيقة لاتتناول إلا ٣٣ (ثلاثة وثلاثين) سنة ، ابتداء من سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م إلى سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م ، فهو اذن من المصادر الأساسية بالنسبة لعهدى المهدى وعبد المؤمن . والكتاب يستقى معلوماته من كتب تاريخ المغرب الضائعة، مثل : فضائل المهدى لأبى القاسم المؤمن المصرى وابن الراعي واليسع ، والموجود منها مثل : كتب البيدق وابن صاحب الصلاة ، هذا إلى جانب الرسائل الموحدية التى كانت واسعة الانتشار ، من : رسمية أو دعائية - الأمر الذى وثّق تاريخ الموحدين ، رغم ما أصابه من حكايات شعبية فلكورية أو حكومية منقبية.

وهكذا يعتبر نظم الجمان لابن القطان من مصادر التاريخ الموحدى الرئيسية ،

---

(٤) أنظر المقدمة ، ص . ط (الأب ، ص . ن (الابن).

رغم مافيه من اضطراب أو خروم ، والأمل في العثور على نسخ أو قطع أوفى مما بين أيدينا ، لاينقطع بطبيعة الحال.

المعجب لعبد الواحد المراكشي:

ومن الكتب المصدرية أيضا بالنسبة لتاريخ الموحدين ، يذكر أيضا : كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، الذي ألف بمعرفة عبد الواحد المراكشي المتوفى سنة ٦٢١ هـ / ١١٢٤ م بالمشرق أثناء إقامته هناك .

والحقيقة أن الكتاب الذى يظهر فى القسم الأول منه وكأنه كتاب عام فى تاريخ المغرب والأندلس ، يتحول في القسم الثاني منه إلى كتاب مرجعى أصيل بالنسبة لتاريخ الموحدين ، من حيث إن المؤلف موحدى أصيل له صلات ببعض السادة (من الأمراء) الموحدين ، وله علاقات حميمة بعدد من كتاب الدواوين.

والكتاب يبدأ ذلك القسم (فى ص١٧٨) بذكر ظهور محمد بن تومرت المتسمى بالمهدى ، وقيامه بالأمر بالمعروف، ومن ثم بداية الدعوة الموحدية والصراع مع المرابطين ، كتمهيد لولاية عبد المؤمن ، وبداية تكوين الامبراطورية الموحدية ، بدأ بفتح المشرق ومن ثم العبور إلى الأندلس.

ومن المهم الإشارة إلى أن عبد الواحد أديب يحب الأدب ، ويتذوق الشعر ويعرِّف بالكثير من الشعراء. والمعجب فى الحقيقة كتاب سياسة وثقافة واجتماع ، وساعد المؤلف على توجهه تلك الوجهة العامة أنه كان يكتب في المشرق بعيداً عن مصادره الأساسية ، ولو أنه يشير فى كثير من المواضع إلى أنه كان يأخذ أخباره عن الأمير يحيى من أولاد ابى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (ص ل).

وإذا كانت أخبار عبد الواحد تنقصها الدقة فى بعض الأحيان ، فإنها على وجه الإجمال تعطى فكرة معتبرة بفضل معاصرة المؤلف ومركزه الاجتماعى والثقافى المتميز.

البيان المغرب لابن عذارى:

أما عن كتاب ابن عذارى الموسوم بالبيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب. فهو يعتبر عمدة تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامى وحتى أوائل القرن الثامن الهجري (١٤ م) . والمؤلف الذى له دراية متعمقة بكل مصادر تاريخ المغرب، التى يعرضها بإسهاب فى مقدمة الكتاب ، يعتبر من عمالقة مؤرخى الإسلام الموهوبين ، من حيث المقدرة على حسن اختيار المصادر الخاصة بعهود دول المغرب المختلفة ، والموهبة فى التقاط الأحداث الهامة ، وبالتالى الوصول إلى الهدف مباشرة ، دونما خروج عن صلب الموضوع ، مع المقدرة على بيان ترابط الأحداث فى شكل طبيعي دون افتعال - الأمر الذى يذكر بابن الاثير فى كامله.

وهنا لابد من الإشارة إلى جهود الأستاذ أمبروزيوهويثى ميراندا فى الكشف عن القسم الثالث من البيان المغرب ، وهو الخاص بالموحدين ، والذى وفق بعد جهود مضنية فى نشره ، ومن ثم فى استخدامه فى كتابه عن الموحدين . وهذا القسم الخاص بالموحدين ، من منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس ، وثم اخراجه تحت إشراف معهد مولاى الحسن بتطوان ، بمعرفة هويثي ، وبمشاركة محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتانى - تطوان - ١٩٦٣ (٥) ونكتفى هنا بالإشارة إلى أن مصدر ابن عذارى الرئيسى فى القسم الخاص بالموحدين هو ابن صاحب الصلاة فى المن بالامامة.

---

(٥) هذا ،كما نذكر مساهمة الأستاذ عبد القادر زمامه، فى إلقاء الضوء على قطعة مكتشفة من ابن عذارى تلقى مزيداً من الضوء على جواز القاضى عياض إلى ابن غانيه والوفد الناهض من اشبيليه إلى عبد المؤمن وتلخيص دخول الموحدين للأندلس، وما حدث على أهل اشبيلية عند فتح الموحدين لها- انظر مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد ٢٠ (٧٩-١٩٨٠)، ص ١٠٣ - ١١٢]

الكامل لابن الأثير:

وكامل ابن الأثير ، ط. أوربا فى ١٢ ج + ١ج للمحتوى ، يعتبر من مصادر تاريخ المغرب والأندلس على مرّ العصور - كما هو عمدة تاريخ المشرق . والحقيقة أن ابن الأثير فى كتابه الكامل مؤرخ موهوب يعرف أصول المنهج العلمى الصحيح فى التاريخ ، والذي يعتمد على التوثيق المعتبر . وهو ما يظهر في تاريخ الموحدين بشكل خاص من حيث أخذه من الرسائل الحكومية والمنشورات الرسمية للدولة الموحدية - وهو الأمر الذى أشار اليه الاستاذ بروفنسال أكثر من مرة فى مجموع رسائله الموحدية (انظر ماسبق ، ص ١٥ - الرسالة ١٦)

صلة ابن الأبار وحلته السيراء:

وإلى جانب ابن الأثير ينفرد ابن الأبار بمكانة خاصة بالنسبة لتاريخ الموحدين ، وذلك فى كتابيه : الصلة الذى استفدنا منه فى التاريخ الثقافى للأندلس على أواخر أيام المرابطين وبداية عصر الموحدين ، وكذلك الأمر بالنسبة لكتاب الحلة السيراء الذى ألقى بكثير من الأضواء السياسية والاجتماعية على فتن الطوائف فى الأندلس فى الفترة موضوع الدراسة.

عبر ابن خلدون:

وفى خضم أحوال الطوائف والصراعات بين المرابطين والموحدين ينفرد ابن خلدون فى كثير من المواضع ، بمعلومات أصليه عن كثير من الأحداث ، وإن لم يُشِر إلى مصادرها.

أما عن وفيات ابن خلكان وأعمال ابن الخطيب ونفح المقرى فلها قيمتها المصدرية فى كثير من المواضع أما عن الأعمال الحديثة فنذكر منها امبراطورية الموحدين لهويثى ميراندا ، وتاريخ المرابطين والموحدين لعنان ، إلى جانب الدراسات الحديثة لشباب الباحثين الجامعيين.

وفيما يتعلق بأسلوب الدراسة والبحث الذى التزمنا به ، فيتلخص فى تمسكنا بتقديم المصادر حسب أصالتها من الناحيتين الزمنية والموضوعية ، وهو الأمر الذى تطلب الكثير من الصبر والمعاناة في إمعان النظر في النصوص الأصلية ، مما كشف عنه حديثنا فى شكل قطع متناثرة ، ربما لاتصلح أوضاعها فى عدة مواضع - رغم الجهد فى التحقيق . هذا مع محاولة إلقاء بعض الضوء على ما درسناه من تاريخ الموحدين .

وعلى الله التوفيق.

الفصل الأول
البلاد والسكان


A S R

البـــلاد

البلاد

مهد الدولة الموحدية هو بلاد المغرب الأقصى ، التى عرفت منذ العصر الموحدى باسم البلاد المراكشية ، نسبة إلى مدينة مراكش العاصمة وقتئذ . ومراكش بناها المرابطون ، ومصّرها الموحدون ، فجعلوا منها وريثة لقرطبة ، أى مقراً لخلافة جديدة ، منافسة لخلافة بغداد العباسية ، هى خلافة الموحدين ، خلفاء محمد بن تومرت : المهدى وعبد المؤمن بن علي الكومي . والحقيقة أن مراكش أصبحت على عهد الموحدين مدينة عالمية ، حق لها أن تعطى اسمها لكل بلاد المغرب الأقصى التى صارت تعرف باسم مراكش ، أى البلاد «المراكشية» ، كما عرفت إفريقية التونسية من قبل باسم «بلاد القيروان» نسبة إلى عاصمتها الأولى ، مدينة عقبة بن نافع.

وهكذا فإذا كانت «المملكة المغربية» مازالت ، حاليا ، تحمل اسم مراكش فى صيغته الأوربية ، سواء فى شكل (Marruecos) الإسبانية أو موروكو (Morocco) الإنجليزية أو ماروك (Maroc) الفرنسية ، فإنّ العودة حديثا إلى اسم «المغرب» الحالى بمعنى «المغرب الأقصى» الذى لامغرب بعده ، هى فى الحقيقة عودة إلى التّسمية التاريخية الإسلامية الأولى ، الأمر الذى يكرّس شخصية تلك البلاد حقّا ، من حيث أنها مغرب لكل الشمال الافريقى ، وليست مشرقا بالنسبة لأى من وحداته السياسية المعاصرة.

وتتمثل الشخصية المراكشية - حقيقة - فيما يضفيه عليها الموقع الجغرافى من صفات مميزة ، قد لاتتوفر لغير المغرب الأقصى من بلاد المغرب الأوسط الجزائرى أو افريقية التونسية : بلاد القيروان القديمة. فالمغرب الأقصى يتميز عن بقية الشمال الافريقى بواجهتيه البحريتين : المتوسطية فى شرق مضيق جبل طارق ، باستقامة

حتى ولاية وهران ، على امتداد حوالى ٥٠٠ ك . م فى مواجهة الشواطئ الاسبانية ، والأطلنطية من طنجة إلى رأس سبارتل على امتداد اكثر من ٨٠٠ ك م .

السواحل البحرية :

١- المتوسطية :

وهى شواطئ وعرة تقطعها خلجان جميلة على شكل أقواس الدائرة ، كما هو الحال بالنسبة للخلجان المتوسطية فى الشرق ، وهى عادة ليست مكنونة من الأنواء بما فيه الكفاية ، كما أنها صعبة الاتصال بالداخل . ومضيق جبل طارق يعتبر النقطة الأساسية فى العبور من المحيط الاطلسى إلى البحر المتوسط ، وعلى المضيق تقع مدينتا طنجة وسبتة ، ومن هذه الأخيرة ، أو بالقرب منها يكون التأهب للعبور من العدوة المغربية إلى العدوة الأندلسية (١). وإلى الشرق تقع خلجان: بادس ، والحسيمى ، ومليلة ، وغير بعيد من حدود وهران تتقدم رأس الماء ، والتى تتواصل بجميعها جزائر الظفارين (٢) .

٢- الأطلسية :

وهى شواطئ تمتد ابتداء من رأس سبارتل (بطنجة) فى اتجاه شمالى خفيف ، ثم جنوبى غربى على امتداد أكثر من ٨٠٠ ك . م . حتى موجادور ، وهى على نمط واحد ، واطئ ، وتنقصه الموانى الطبيعية المكنونة . ،وهذه السواحل الأطلنطية قليلة الارتفاع ، ودائما ما تضربها الأمواج.

---

(١) ريكار، مراكش،المرشد الأزرق بالفرنسية، ص٤ -حيث تعرف كل من جبل طارق وطنجة بأعمدة هرقل - انظر P.Ricard,Maroc, les guides bleus, Paris..1950 .

(٢)ريكار، مراكش،المرشد الأزرق،ص٤.

وهى فى بعض المواضع تتكون من رمال آتية من تفتت الحصى الهش ، ويلى ذلك تشكيل من المستنقعات المنتظم (٣) .

ووصف الادريسي لميناء سلاومدينة سلايبين تلك الحقيقة . فسلا القديمة وهى شالة تقع على بعد ٢ ميل من البحر (٤) بمعنى أن ميناءها كان فى داخل فم النهر (أسير) ، وليس على شاطئ البحر. أما سلا الحديثة فهى منيعة من جانب البحر، لايقدر أحد من أهل المراكب من الوصول اليها من جهته ، وذلك أن «المراكب الواردة عليها لاترسى متها في شئ من البحر ، لأنّ مرساها مكشوف ، وإنما ترسى المراكب بها في الوادى» (الذى تقدم ذكره) ، هذا إلى جانب النص على أنه «تجوز المراكب على فوهته بدليل ، لأن فم الوادى أحجار وتروش ينكسرُ عليها المراكب .. والمدّ والجزر مرتين فى اليوم تدخل به المراكب وتخرج» (٥) وفى مسافة لأخرى تظهر بعض الرؤوس البحرية . مثل · الرأس الأبيض فى جنوب مزاجان ورأس كانتين شمال صافى ، ورأس غير (Guir) شمال أغادير . ورأس درعة عند مصب الوادى الذى يحمل نفس الاسم (٦).

الجبـــال:

وإلى جانب الامتداد الساحلى الذى يناهز ١٣ ك.م. يتميز المغرب الأقصى بسلاسل جبال الأطلسى ، التى تعرف عند الكتاب العرب باسم جبال درن ، وهى الكلمة البربرية (درن Dren) ، التى تعنى جبل الجبال ، أو جبل الزئير : رنير

---

(٣)ريكار، مراكش،المرشد الأزرق،ص٤.

(٤)نزهة المشتاق، ص٢٣٨

(٥)نزهة المشتاق، ص٢٣٨-٢٣٩.

(٦)ريكار، مراكش،المرشد الأزرق،ص٤.

الأسود(٧).والحقيقة أن جبال درن (أطلس) فى شمال الصحراء (الكبرى) الأفريقية، أشبه ماتكون بالهيكل العظمى الذى يشد أوصال بلاد المغرب الحضرية من شرق بلاد افريقية المتوسطية - حيث يبدأ محورها- وحتى نهاية بلاد المغرب الأقصى الأطلنطية- عند نول لمطة - فكأنها وحدة طبيعية واحدة ، تتصف بالصلابة والقوة ، فى مقابل الصحراء الكبري الشبيهة ببحر هائل من الرمال السائلة من الشرق والبحر المحيط الذى لانهاية لأمواجه الدافقة من الغرب ، حتي عرف فى المصطلح ببحر الظلمات (٨) .

وهكذا كان للبحر والجبل اللذين يرسمان الحدود الطبيعية أثرهما فى تكوين

---

(٧) انظر الادريسي، نزهة المشتاق، ١٩٩٤،ص٢٢٩-حيث التسمية :"جبل درن الأعظم الذى ليس مثله إلا القليل فى السمو ..وطول المسافة، وانظر ديفيردان(G.Deverdun)، مراكش (بالفرنسية).ص٢ وهـ ٣- حيث جبال أطلس، وهى درن (dren)القديمة، من البربرية: ادرار. ن : جبل الجبال، وانظر تاريخنا، ج ٤ ص ٢٩- ح ٤ ص ٦٨و هـ ٢٩-حيث الإشارة إلى ابن خلدون، درش (J.dresch) :وتعليق لاوست (E.Laoust) على خريطة درش لجبال أطلس العليا (درن)، مجلة الدراسات الإسلامية، سنة١٩٣٩، كراسة ٣-٤ ، ص٢٠١عن تسمية أطلس العليا (درن)، مجلة الدراسات الإسلامية، سنة ١٩٣٩، كراسة ٣ - ٤ ، ص ٢٠١ عن تسمية اطلس العليا ب ادرارن درن، وقارن ، ريكار، مراكش، المرشد الأزرق (بالفرنسية) ص١٥٤.

(٨) الادريسي، نزهة المشتاق،ج١ ص١٧-حيث البحر الغربى، وبحر الظلمات، الذى توجد فيه جزيرتان تسميان الخالدات، لايعلم شئ من المعمور خلفها، ص١٠٣- حيث اسم الجزيرتين : مسغهان و لغوص، وأنهما أكبر جزيرتين فى مجموعة من ٦ (ست) جزر، وتسمي بالخالدات، ومنها يبدأ بطليموس بالتعديل، ص٢١٧- حيث توجد بالبحر المحيط جزيرة ساده، وجزيرة السعالى التى يوجد بها رجال كالنساء لهم أنياب بادية (كناية عن الشكل المخوف)، ولغتهم لا تفهم، وأنهم "يحاربون الدواب البحرية" (كناية عن صيد الأسماك الكبيرة الحجم بالحراب). هذا إلى جانب جزيرة الغور، وجزيرة الأخوين الساحرين اللذين كانا يقطعان على المراكب، فمسخ الله بهما ، وبقيا حجرين(حسب المعتقدات الشعبية القديمة، والتى تعبر بتلك المقولة عن اتقان صناعة التماثيل قديما) على ضفة البحر، فى مقابل مدينة آسفى.

الشخصية المغربية من حيث أنه كان لكل منهما تأثيره فى الآخر، وبالتالى فى تشكل البيئة الطبيعية والمحيط الإنساني.

الجبل : درن (هـ ٧ ص٣٢)

نظرية الجغرافية العربية - المتأثرة بجغرافية بطليموس - ترى أن جبل درن الأعظم يمتد من الغرب إلى الشرق ، حيث يكون مبدؤه من البحر المحيط في أقصى بلاد السوس ، لكى يمر بعد ذلك مستقيما نحو الشرق حتى يصل إلى جبل نفوسة أو جبال طرابس ، ثم أنه يدق هناك ويختفى أثره - حسبما ينص الادريسي (٩) . وأن كانت هناك بعض الآراء التي تقول بأن جبال درن تستمر في مسيرتها شرقا بعد ذلك نحو برقة وأرض مصر حيث يظهر غير بعيد من الأسكندرية ، فيما يعرف هناك باسم رأس أوثان التى ربما قصد بها ما عرف باسم «العقبة الصغرى» ، وهى عقبة السلوم الحالية ، كما نرى (١٠). وهكذا تعتبر سلاسل الجبال الممتدة نحو الشرق فى المغرب الأوسط وافريقية التونسية من توابع جبل درن ، مثل جبل أوراس

---

(٩) نزهة المشتاق، ج١ ص٢٢٩ .

(١٠) نزهة المشتاق، ج١ ص٢٢٩- حيث النص على أنه "وحكى غير واحد أن طرف هذا الجبل (درن) يصل إلى البحر حيث الطرف المسمى أوثان، وقارن الاستبصار، ص١٦٣- حيث اعتبار جبل أوراس بمثابة جبل درن (أطلس)، وأنه يشق بلاد المغرب وافريقية، فيكون طرفه الغربى فى ايغيران يطوف (حيث انتهى عقبه بن نافع) بينما يكون طرفه الشرقى بقرب الإسكندرية، وهو المسمي بطرف أوثان، الذى إذا عبرته المراكب (نحو الإسكندرية) استبشرت بالسلامة، وانظر ايضا، ص٢١١. عن مدينة فروجة (أو آفروجى) على مرحلة من مراكش، من حيث يرقى إلى جبل درن، حيث النص علي أنه أكبر جبال الدنيا، وانه يتصل بجبل المقطم الذى ببلاد مصر. وقارن الحسن الوزان ، الترجمة، ص٨٢، حيث النص على أن جبال أطلس تمتد من المحيط غربا نحو الشرق حتى قرب مصر، وأيضا ص٢١١- حيث القول إن جبل درن الذى يعتبر أكبر جبال الدنيا، يتصل بجبل المقطم الذى ببلاد مصر الأمر الذى يبين ان الوزان عرف كتاب الاستبصار ونقل منه.


المغرب (مراكش)
رسم الجبال ومجاري الماء
بحر المحيط
(المحيط الأطلسي)
بحر الروم
(البحر المتوسط)
الجزائر
مراكش
أطلس
الشاوية
وهران
تلمسان
وادي درعة
كيلومترات

(١١) الذى يناهز ارتفاعه ٢٣٠٠ م (١٢) ، أو جبل ونشريش الذى يوصف بشدة الارتفاع (١٣) ، وجبل طرابلس المعروف بجبل نفوسة ، وكذلك جبل برقة (المعروف بالجبل الاخضر) (١٤).

وفى مقابل النظرية العربية ، يرى البحث الحديث أن محور جبال أطلس يسير من الشرق متدرجا فى الارتفاع نحو الغرب ابتداء من برقة إلى طرابلس وافريقية التونسية ثم الجزائر فى المغرب الأوسط حيث تعظم السلسلة فى جبل أوراس ، قبل أن يصل إلى الارتفاعات الكبيرة فى سلسلة جبال الريف ، ثم الارتفعات السامية ، ومن ثم الذروة فى أطلس العليا : جبل درن الأعظم (١٥).

هذا ، ويقسم البحث الحديث جبال الأطلس بشكل عام إلى سلسلتين مختلفتى النشأة ، هما :

١- جبال الريف فى الشمال (المتوسطى).

٢- جبال أطلس فى الجنوب -الغربى (الأطلنطى).

---

(١١) نزهة المشتاق، ج١ ص ٢٦٤- حيث النص على أن أوراس الذى يقع على بعد مرحلة من مدينة نقاوس، هو فى الحقيقة قطعة متصلة من جبل درن المغرب، وقارن، الاستبصار، ص ١٦٣-حيث اسم اوراس أيضا، جبل جزولة، وأنه كان يعرف عند الجزوليين باسم جبل تكسيت.

(١٢) سيليرييه، مراكش، ص١٤- حيث الإشارة إلى جبل جرجورة من جبال الجزائر أيضا الذى يصل إلى نفس الارتفاع.

(١٣) الحسن الوزان، الترجمة، ص ٤١٦-حيث اعتباره من جبال مملكة تلمسان، والإشارة إلى أن اسمه القديم هو : ورستيس التى تحولت إلى ونشريش.

(١٤) الاستبصار، ص ١٤٣.

(١٥) ديفيردان، مراكش، ص٢ - حيث الإشارة إلى أن سهل مراكش يتجه محوره شرقا بغرب تقريبا.

وتنقسم جبال أطلس بدورها إلى ٣ (ثلاثة) أقسام متباينة ، هي :

أ- أطلس العليا في الجنوب (المراكشي).

ب- أطلس الوسطى.

جـ- أطلس الجنوبية الصحراوية ، وهي :

سلسلة الجبال المعترضة لجبال أطلس (Anti Atlas) (١٦) .

وهكذا تنتظم جبال المغرب (المراكشي) في ٥ (خمس) مجموعات كالآتي:

١- جبال الريف في الشمال (المتوسطى) :

وهي ترتسم في شكل قوس مركزى على شاطئ البحر المتوسط ، يجعل تلك الجبال في وضع متسلط على ذلك البحر . وجبال الريف التي تعتبر مع جبال أطلس الهيكل العظمى للبلاد ، وهي في الحقيقة جزء من جبال الأندلس الجنوبية ، انفصلت عن القارة الأوروبية، وانضمت إلى الشمال المراكشي في العصور الجيولوجية القديمة . وهكذا كان التشابه في الوضع الجغرافي بين جنوب ايبرية (الأندلس) وشمال المغرب (بلاد الريف) ، إلى جانب عدم تجاوز مضيق جبل طارق ١٥ ك.م بفضل اندفاع رأس طنجة نحو الشمال ، من الأمور التي سهلت العبور بين الشاطئ الأوروبي والإفريقي ، حتى أصبح المضيق همزة وصل بين العدوتين أكثر منه فاصلاً (١٧).

٢- جبال أطلس العليا في الجنوب (المراكشي) :

وهي جبال أطلس بالامتياز ، والتي جعلت منها جبل الجبال : جبل زئير الأسود

---

(١٦) سيليرييه، مراكش، ص١٠-١٣.

(١٧) قارن، سيليرييه، مراكش، ص١٠، وانظر، ريكار،مراكش، ص١٠-حيث وصف جبال الريف بأنها نسق من جبال الألب، والحسن الوزان، ص٣٢٦-حيث الريف من مملكةفاس، وانها تمتد من تخوم أعمدة هرقل شرقا حتى نهر النكور- حوالي ١٤٠ميلا.

المخوف . وتنتصب أطلس العليا ابتداء من الشاطئ الأطلنطى ، عند رأس ايغيران يطوف فى بلاد السوس ، لكى تتجه شرقا نحو الحدود الجزائرية في شكل حاجز قوى، يكاد يفصل مابين شواطئ المحيط ، وظلماته وبرودته ، وبين سخونة الصحراء التى تتقيأ لهبا ، كما يقول كوريبوس (١٨).

٣- أطلس الوسطى :

جبال الأطلس هى سلسلة فرعية ، تبدأ فى جبال خَيان (٣٠٠٠م) وتنتشر فى الاتجاه الجنوبى الغربى والجنوبى - الشرقى حتى جبل تازكا فى جنوب تازا بعد أن تكون قد ارتفعت فى جبل يوربيلاما إلى ٣,٢٠٠ م ،وفى جبل موسى أو صلاح إلى ٣٢١٩ م ، لكى تقف بعد ذلك فى الشرق ، من حيث تمتد فى اتجاه غربى جنوبى غربى يسمى بـ جبيلات (١٩) وهكذا تفصل جبال أطلس الوسطى المغرب الأقصى إلى قسمين : أحدهما شرقى مرتبطا طبيعيا بإقليم وهران (الجزائرى) ، والآخر غربى يتميز بصفاته الأطلسية أى البحرية المحيطية . وهنا يلاحظ انه إذا كانت جبال أطلس الوسطى تلتحم بأطلس العليا في الجنوب ، فإنها لاتنفصل أيضا عن جبال الريف فى الشمال إلا بممر تازا الضيق (٢٠).

٤- أطلس المعترضة (الجنوبية)

وهى تأخذ اتجاها شماليا شرقيا معترضا بالنسبة لسلاسل الأطلس والريف . وهذا الاعتراض يفصل ما بين جبال أطلس العليا ، وجبال أطلس الوسطى ، ويجعل الاتصال بالسوس من الداخل من الأمور الصعبة ، حيث تنتهى السلسة الجبلية هناك فجأة فى شكل انكسارات عميقة.

---

(١٨) الحسن الوزان، (الترجمة) ص ٨٣ - ٨٦ ، وكوريبوس من رجال القرن السادس م .

(١٩) ريكارد، مراكش، بالفرنسية، ص١ ، وأنظر سيلبريبه، مراكش، ص١٤، ص ١٦.

(٢٠) سيليريبه، ص١٤، ص١٩ .

والحقيقة أن هذه الوديان هي سبيل المواصلات إلى الهضبة ، والماء قليل على الطرق ، وهو يوجد في الآبار ، كما في سفح السوس ووادي ماست (٢١).

٥- أطلس الجنوبية الصحراوية:

وهي تسير مطلة على الصحراء ، محاذية لسلسلة الجبال المتوسطية ثم المحيطية . وامتدادتها هي المعروفة باسم السرهو (Sarrho) وبذلك تكوّن جبال أطلس المراكشية ٥ (خمس) سلاسل من الجبال تتوالى محاورها الشرقية الغربية من الشمال إلى الجنوب كالآتى :

الريف المتوسطية شرقا ، تليها جنوبا بغرب أطلس العليا ثم أطلس الوسطى ، وفيما بين هذه الأخيرة وبين العليا تنتصب الجبال المعترضة (Anti Atlas) ، وأخيرا تأتي أطلس الجنوبية ، وهي الصحراوية ، لكي تقف سداً منيعا ما بين مراكش البحرية اللطيفة الطقس الباردة ، وبين مراكش الصحراوية القارية الساخنة . والمهم أن هذه الجبال كانت معروفة ، طبيعيا ، بأنها جبال درن ، رغم ماكانت تحمله من أسماء محلية : عنصرية كانت أم وصفية فنية.

التضاريس :

والمهم أن سلاسل الجبال تلك تحصر فيما بينها ، وعلى طول امتدادتها الشاسعة نظاما من الهضاب والسهول الذى يتصف بالتدرج (٢٢).

منطقة الريف :

منطقة سلاسل جبال الريف التى تنتسب إلى امتداد نسق جبال الألب ، وإن لم

---

(٢١) ريكارد، مراكش، ص٢١٣ .

(٢٢) سيلبرييه، مراكش، ص١٠ .

تكن منها (٢٣) ، والممتدة على طول ساحل البحر المتوسط ، من جبل طارق شرقا إلى وادي الملوية ، وجنوبا حتى وادى سبو(٢٤) . ويحد السلسلة من جهة الغرب جبل موسي الذى يرتفع إلى ٨٥٦ م ، وهو عمود هرقل الثاني ، الذى يشرف على سبتة ، فى مقابل العمود الأول وهو جبل طارق (٢٥).

ورغم الارتفاعات المعتبرة لجبال الريف التى تصل فى بعض المواضع إلى ٢,٤٥٠م ، كما فى جبل بيديغين فى الشرق ، فإنها لاتجارى من غير شك قمم الأطلسى (الجبل الأغظم) التى تفوق الـ ٣,٠٠٠م ، بل والتى تناهز ، بل وتزيد على الـ ٤,٠٠٠ متر ، كما فى «أبو كريم» ، وايفرداان ، ومجوتا (٢٦) ولكن يعوض فارق الارتفاع هذا فى بلاد الريف شدة التكسيرات الالتوائية التى تظهر أكثر عنفا فى الجزء الغربى من شبه الجزيرة الطنجية بين البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، وهى منطقة جبل طارق (٢٧) . أما فى المنطقة الوسطى التى تبدأ من عند جبل أماتراس (فى بنى درقول) فالسفح جيرى مفتوح على الشاطئ ، كمركز للصيادين (٢٨) أما المنطقة الشرقية من الريف ، والتى تدخل فى وادى كرت

---

(٢٣) انظر ريكار، مراكش، بالفرنسية،ص ٢ ، وقارن ، ص٦ لسليربيه،مراكش، ص.١٠-حيث النص على أن جبال الريف جزء من جبال الأندلس- وهذا لا يمنع من أن تكون على نسق امتداد جبال الألب.

(٢٤) الاستبصار، ص.١٩٠- حيث طولها ٦ أيام، وعرضها ٣ أيام .

(٢٥) ريكار، مراكش، بالفرنسية،ص ٢، وقابل : الحسن الوزان (ليون الافريقى)، الترجمة العربية، ص٣٢٦، حيث النص على أن "الريف" من مملكة فاس، من تخوم أعمدة هرقل شرقا حتى نهر النكور على طول مسافة ٤أيام، حوالى ١٤٠ميلا، شمالاً الي المتوسط، وجنوبا إلى جبال نهر الورغة فى منطقة فاس.

(٢٦) سيليربيه، مراكش،بالفرنسة ص١٤ .

(٢٧) سيليربيه، مراكش، ص١٦ .

(٢٨) سيليربيه، ص١٧ .

(Kert) ووادى الملوية فلها شكل مختلف فى الشمال حيث تتصل السلسلة بالالتواءات الكثيفة ، بينما تأخذ شكلا مختلفا في الجنوب والشرق من حيث الالتواءات المرتفعة والمتكتلة (٢٩).

ويعتبر وادى سبو قلب بلاد الريف ، وهو حوض منخفض ، مقارنة بهضبة مراكش الوسطى ، وذلك بفضل جبال الريف التى تعتبر السبب فى نظام الرى العظيم والمتقدم فى وادي سبو (٣٠)

أما عن المنخفض الواقع بين بلاد الريف والمرتفعات الشمالية لجبال أطلس الوسطى فقد كان مغمورا بذراع من الماء ف العصور الچيولوچية القديمة ، وهو الآن يتمثل فى المضيق الواقع فى جنوب بلاد الريف ، والذى يصبح أضيق مايكون بالقرب من مدينة تازا . وفى هذه النقطة من ممر تازا يبدأ المنخفض فى الاتساع شرقا فى شكل وادى ملوية ، وفى سهول مراكش الشرقية (بالمغرب الأقصى) . كما يتسع الممر غربا فى شكل السهل المعروف بـ «الغرب» والذى يقصد به البلاد الواقعة إلى الشمال أكثر من ذلك ، فى مثلث :طنجة - الرباط - فاس ، ونهرها المهم هو وادى سبو.

منطقة أطلس العليا : جبل درن الأعظم :

منطقة «جبل درن الأعظم» حسب تسمية الادريسى ، «أكبر جبال الدنيا» ، كما يقال عند صاحب كتاب الاستبصار (ماسبق ، ص ٣٢، ٣٣ والهوامش) فكأنه يضاهى هضبة «پامير» ، الشهيرة فى أواسط آسيا ، والتى تعنى «سقف العالم» ، وهى منطقة المغرب الأقصى ، منطقة مراكش : عاصمة المغرب الجنوبية ، قلب بلاد المصامدة : قبائل الموحدين حقا.

وترتفع جبال أطلس العليا هذه إلى مايجاوز الـ ٣ آلاف والـ ٤ آلاف مترا ،

(٢٩) سيليرييه، مراكش، ص١٧ .

(٣٠) سيليرييه، ص١٨.

ويأتي ذلك الارتفاع الشاهق نتيجة التواء أرض أساسي ، يرفع القاعدة بشكل غير متوازن . وعن هذا الطريق يأتي المنخفض العرضي لمنطقتي «جلاوة» و «تل تلوت » ، وهو الممر التاريخي الذي كان يعرف باسم «باب درن» أو «باب السودان» ، ليفصل بين مظهرين من مظاهر السلسلة الجبلية ، هما : القسم الغربي وهو مراكش ، والقسم الشرقي وهو الأوسط (٣١).

وفي المنطقة الغربية تتدرج سلاسل الجبال وخطوط الأودية . وفي المنطقة المرتفعة من مراكش تكون رؤوس الجبال مكسوة بالثلج خلال فترة طويلة من السنة ، وهي تشرف على الهضاب والسهول من مرتفعة وواطئة ، وهي تمدها بما ينفث الحياة في أرجائها من الماء (٣٢). واذا كانت قمم جبال عيّاش ، ومْجون ، وتوبكال تتميز بارتفاعاتها القياسية ، بين ٣,٥٠٠ م و ٤,٠٠٠ (٣٣) ، فإن الجبال بالنسبة لتاريخ الموحدين أكثر من غيرها هي جبال تينمل (تينملل) ، وجدميوة ، وهنتاته ، وجزولة (هْلالة) ، ثم جبل السوس (٣٤).

فجبل درن الأعظم ، كما وصفه الادريسي في منتصف القرن الخامس الهجري ، ١١م ، كان جبل الحصون المنيعة ، فقد كان يحوي مايزيد على ٧٠ (سبعين)حصنا ، أشهرها حصانة وأهمها تاريخيا ، بلدة تينمل حيث ضريح المهدي محمد بن تومرت، التي توصف بأنها حصن الحصون (٣٥) أما عن المنطقة الغربية من أطلس العليا

---

(٣١) سيلبرييه، مراكش، ص٢٠. ٢١.

(٣٢) سيلبرييه، ص١٣.

(٣٣) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص١.

(٣٤) الحسن الوزان، الترجمة، ص١٥٣-١٥٦.

(٣٥) الادريسي، نزهة المشتاق، ص٢٢٩، حيث توصف بـ"الحصن المنيع القليل مثله في حصون الأرض، بنية، وتحصينا ومنعة، وهو الجبل". والدليل على : حصانته وثقافة مكانه ان ٤(اربعة) رجال يمسكونه، ويمنعون من الصعود إليه، لأن الصعود إليه على مكان ضيّق، وعر المرتقى، لأنه يشبه البرج الحرج. ولا ترقى إليه دابة البتة إلا بعد جهد ومشقة.

والوسطى والريف وإقليم الجبالة ، والساحل الأطلنطى فهى منطقة فسيحة منبسطة ، وتسمى عند الجغرافيين بالميزيتا (الهضبة) المراكشية ، تشبيها لها بسهول الهضبة الايبيرية الوسطى ، وهى تشتمل على بلاد جبال زاير ، والشاوية (تامسنا) ، ودكالة ، وعبدة ، وحوز مراكش (المدينة).

وهذه الهضبة الغربية يصل ارتفاعها ما بين ١٥٠ م و ٢٠٠ م فى المناطق الساحلية ، ويمكن أن يصل ارتفاعها إلى مابين ٣٠٠ و ٧٠٠ م فى المناطق الداخلية (أى القريبة من قواعد الجبال) . أما البلاد الواقعة أكثر من ذلك إلى الشمال ، فى مثلث : طنجة - الرباط - فاس ، فهى التى تعرف بـ «الغرب» ، ونهرها المهم هو وادى سبو(٣٦) ، حيث الأرض الرسوبية الجيدة الخصب.

أما منخفض السوس فيمتد على طول مسافة ٢٠٠ ك . م تقريبا ، وبعرض ٤٠ ك . م . وهو محصور ما بين الأجزاء الغربية لجبال أطلس العليا الغربية ، وجبال أطلس المعترضة (Anti Atlas) (٣٧).

الطقس والمناخ :

رغم التنوع الإقليمى فى بلاد المغرب المراكشية ما بين اقليم المتوسط فى الشمال، والأطلسى فى الغرب ، وشبه الصحراوى والصحرواى فى الجنوب ، الأمر الذى يقضى بتنوع الطقس تبعا لطبيعة الوضع الجغرافى ، فالمعروف أن الطابع المحيطى الجبلى الأطلنطى ، هو الغالب على الطقس ، رغم التأثيرات الصحراوية . اذ الحقيقة أن سياج جبال أطلس المعمارى الشكل لايمنع من تسلل الطقس شبه الصحرواى عبر عدد من الممرات الواصلة بين الصحراء الكبرى والبحر الأعظم (المحيط).

(٣٦) زيكار، مراكش، المرشد الأزرق، بالفرنسية، ص٢ .

(٣٧) زيكار، مراكش، ص٢ .

وهكذا يمكن إجمال ذلك الطقس في حقيقة عميقة وإن بدت غريبة من حيث الشكل ، وهي : أن مراكش بلد بارد وحار في نفس الوقت - وهي في الحقيقة طبيعة الجبل مابين القاعدة والقمة ، وخاصة اذا ما سطعت الشمس (٣٨) .

والحقيقة أن تغير الطقس في البلاد الجبلية يتأثر بالارتفاع ، الأمر الذي يظهر واضحا للعيان في القمم الشاهقة حيث تكون كسوة الجليد معرضة لسطوع الشمس ، وخاصة في فصل الصيف ، وإن كان مصدر الحرارة الرئيسي الذي يعكر الطقس المحيطي الأطلسي ، هو الوافد حقا من الأقاليم شبه الصحراوية الجنوبية . وهنا يبعث البحر السحب التي تلطف الجو ، وبطبيعة الحال فإن تأثير البحر المتوسط (في الشمال) غير محسوس بالنسبة لتأثير المحيط (في الغرب).

هذا ويتضح تأثير المحيط في تأكيد عامل البرودة أو تلطيف الجو ، في ظاهرة التيارات المائية الباردة - التي يأتي بها على طول الساحل المحيطي من رأس سبارتل (طنجة) وحتى السنغال . وهذا التيار المائي البارد - بالنسبة لحرارة المياه في أعالي البحر على نفس المستوى - أشبه مايكون بحزام من الماء البارد ، غير العريض ، والذي يتحرك حركة بطيئة من الشرق إلى الجنوب ، وهو الذي يعرف باسم تيار الكناري ، وهو في بعض الأحيان أبرد في الصيف منه في الشتاء (٣٩).

وفي مقابل تناقض البرودة والحرارة ، يقف تبادل الرطوبة والجفاف . ففي بعض

---

(٣٨) انظر سيليرييه، مراكش، ص٢٥ ، وقارن ريكار، مراكش (المرشد الأزرق)، ص٢-حيث النص على أنه معتدل مع الإشارة إلى النمط المتوسطي والاطلنطي والصحراوي، ثم تخصيص المغرب الأقصى، بأنه "حار جدا، بارد جداً، شديد الرطوبة من ناحية وشديد الجفاف من ناحية أخرى. وديفيردان، مراكش، ص٥-حيث القول :إن الطقس :بحر متوسط، شبه قاري.

(٣٩) سيليرييه، مراكش، ص٢٥-٢٦ ، وانظر ريكار، مراكش، ص٢-حيث النص على أنه يظهر في مضيق جبل طارق أثر التيار البحري البارد نسبيا ، والمعروف باسم الكناري. كما تتأثر سائر المنطقة بالتقلبات ما بين المتوسط والأطلنطي.

الأقاليم الرطبة قد لايسقط المطر أبداً (٤٠) هذا كما أن ريح «الشرقى» تهب حارة جافة من سهوب وهران ، وتفعل الأفاعيل ، من : تجفيف الهواء ، ورفع درجة الحرارة (٤١) - هذا كما تثور العواصف فى الانقلاب الصيفى الشتوى فى منطقة مراكش ، بدون أن يسقط المطر ، فتسخن الهواء (٤٢) ؛ وكما يتوقف المطر على ارتفاع الجبال والهضاب ، فهو يتوقف أيضا على اتجاه الرياح . فالرياح الشمالية والشمالية الغربية تأتى بالمطر وتحسن الجو ، بينما الرياح الشرقية تأتى بالحرارة والجفاف.والفصل المطير يمتد من أكتوبر إلى إبريل ، مع ذروتين فى شهرى مارس ونوفمبر (٤٣).

والارتفاع فى مراكش يتوافق مع حركة الرياح الدائمة المضادة للعواصف ، والتى تعرف بالأزورس ، ومن حيث تنطلق تيارات الهواء المنتظمة المعروفة بالإليزيه ، والتى يخضع لها الطقس المغربى (المراكش) ، وهى الإليزيه الشمالية الشرقية ، وهى عادة جافة ، وكذلك الأمر بالنسبة للإليزيه المضادة لها فى الارتفاع ، وهى الجنوبية الغربية.

وهكذا يصبح الجفاف آفة فى البلاد المراكشية ، وهو فى نفس الوقت ميزتها الكبرى ، كما هو الحال فى بلاد البحر المتوسط (٤٤) ويترتب على الارتفاع ، فوق ذلك أن تصبح مراكش الجنوبية أو الصحراوية فى مواجهة مع مراكش الشرقية أو المتوسطية ، بينما يجعل المحيط مراكش الغربية - ذات الطقس المحيطى - فى

---

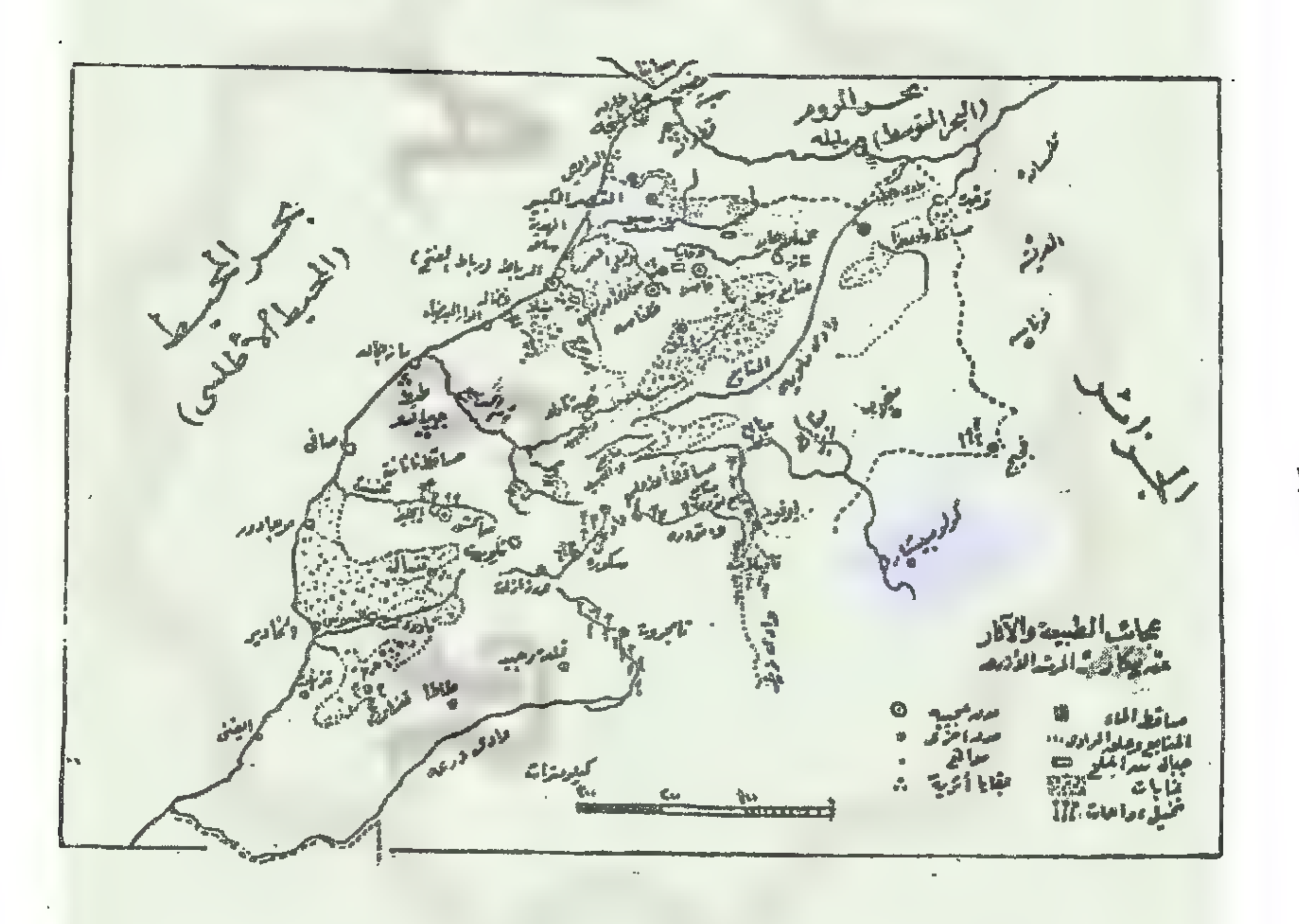
(٤٠) سيليرييه، مراكش، ص٢٥. وقارن،ريكار، مراكش، ص٢- حيث النص على أن المغرب الأقصى شديد الرطوبة، شديد الجفاف من ناحية أخرى.

(٤١) سيليرييه، مراكش، ص٢ .

(٤٢) ديفيردان، مراكش،ص٦ .

(٤٣) ديفيردان، مراكش، ص٧، ٨ .

(٤٤) سيليرييه، مراكش، ص٢٧ .


بحر المحيط
(المحيط الأطلسي)
بحر الروم
(البحر المتوسط)
الجزائر
عجائب الطبيعة والآثار
مساقط الماء
غابات
نخيل وواحات
بقايا أثرية
كيلومترات

مواجهة مع مراكش الشرقية ذات الطقس القاري العنيف . ولما كان الطرفان الغربى والشرقى مرتبطان ببعضهما عن طريق منطقة وسطية ، فإن هذا يؤدى إلى تقسيم البلاد المراكشية إلى مناطق رأسية ، وإن كان هذا التقسيم الرباعى - الهندسى يخفف من شدة التأثيرات التضاريسية المحلية (٤٥)

والمناطق الأكثر مطراً هى السفوح الجبلية المواجهة للمحيط فى غرب بلاد الريف أو منطقة الجبّالة ، حيث متوسط الارتفاع ٨٠٠ م ، ويكون ذلك تبعا للارتفاع والقرب من المحيط.

وفى الجبال العالية يكون تراكم الثلج فوق القمم بكميات كبيرة أفضل من سقوطه فى شكل أمطار ، إذ يصبح الجليد احتياطيا من الماء لمدة أطول (٤٦) .

تقسيمات الطقس فى المناطق المغربية :

لما كان الارتفاع بالنسبة لسطح البحر ، وحركة الرياح ونسبة الرطوبة هى العوامل الأساسية فى تحديد نوعية الطقس والتضاريس بالنسبة لمنطقة من المناطق ، فيمكن عن هذا الطريق تقسيم الطقس فى المغرب إلى ٦ (ستة) أصناف نوعية أو أنماط - حسب الارتفاع والقرب أو البعد من البحر بصفتهما أهم العوامل ، وهى :

١- النمط شبه الصحراوى :

وهو الاقليم الممتد من الجنوب حيث أطلس الداخلية ، وأطلس العليا الشرقية ،

---

(٤٥) سبليربيه، مراكش، ص٢٦ .

(٤٦) سبليربيه، مراكش، ص٣٢، وقارن ريكار، مراكش (المرشد الأزرق)، ص٣-حيث الإشارة إلى سقوط الثلج فى بعض الأحيان على المرتفعات ما بين ٦٠٠م و١٠٠٠م لعدة أيام أو عدة أسابيع، أما على الارتفاع ما بين ١٠٠٠م و٢٠٠٠م فقد يسقط لفترة ما بين ٦ أشهر أو ٩ أشهر (من أكتوبر إلى يونيه)، أما على الارتفاع أكثر من ٢٠٠٠م فيكّون الثلج طبقات متوالية أو ألواح متراصة، وقارن الحسن الوزان، ليون الإفريقى، الترجمة، ص٨٢-حيث النص على أن ساحل البربر منطقة تميل للبرد ويسقط فيها الثلج.

ويستمر شمالا تبعا للبعد من المحيط حتى قرب الجزائر.

ومعدل المطر فيه أقل من ١٥٠ م .م . ، ويمكن أن يصل إلى مستوى الصفر نتيجة للجفاف الذي تؤدى اليه التغييرات الحرارية مابين الشتاء والصيف ، والليل والنهار.

والمظهر النباتي يتمثل فى القليل من شجر الأكاسيا الشوكى ، والطلح فى مكان الحمادة ، حيث الرمال الرطبة ، والأثل ، وكذلك فى منطقة العرق حيث ملفوف الصحراء ، وفى التلال حيث النباتات التى تتوافق مع المياه المالحة ، والشمس المحرقة . وكذلك الأمر بالنسبة للواحات حيث ينمو النخل ويكثر التمر ، وهى تهئ الظل الظليل والطعام للانسان والحيوان (٤٧).

٢- النمط الجاف (القارى) :

ويشمل هذا الطراز الإقليمى ٣ (ثلاث) مناطق هى :

أ- أطلس الجنوبية الشرقية والسرهو (Serrho) حيث منطقة أعشاب الحلفا ، والأرض ذات الملوحة ، والأمطار أقل من ٣٠٠ م . م . ، ولكنها تتوزع حسب التغيرات الفصلية بشكل متباين ، حيث التنوع القارى الذى يؤدى إلى تغير هام فى درجات الحرارة إلى جانب عملية البخر القوى . وفى الشتاء تهبط الحرارة إلى أقل من درجة الصفر.

ب- السهول القارية المجاورة للمتوسط فى مراكش الشرقية (فى أنجاد ونفرارتا) ،والسهول الداخلية العالية لمراكش الأطلنطية (فى الحوز وتادلا) . وتتميز بالأعشاب الشوكية والغابة المفتوحة ، حيث أعشاب السفانا ، ومياه الجبل الكثيرة

---

(٤٧) سيلبريبه، مراكش، ص٢٤، ص٣٤، ريكار، مراكش، ص٣-حيث : وهى منطقة قليلة الرطوبة (أقل من ٢٠٠م.م) وهى تكون شتويا جزيرة ما بين مراكش وصافى، وتحوي الأقاليم الصحراوية والعشبية من رأس نون ووذنيب، وولد الحاج وجادة دبدو، ويرغنت.

والسقيا الغزيرة.

ج- والمنطقة الأطلنطية ، وتتمثل فى الشريط الساحلى فى الجنوب الغربى ، بين مصب وادى تنسيفت ووادى نون . وتتميز بانتظام الحرارة ، وغياب الجليد تماما ، إلى جانب كثرة بخر الماء الذى يتضاءل مع ضعف زخات المطر.

والمسرح النباتي هناك يأخذ شكل السفانا العشبية ، من : كثيفة وخفيفة ، إلى جانب شجر الهرجان الذى يستخرج من بذوره الزيت (٤٨) .

٢- النمط الأطلنطى الضعيف المطر:

ويشمل السهول والهضاب الراطئة بمراكش الواقعة تحت تأثير الأطلنطى فى شمال وادى تنسيفت . وتتميز المنطقة بالمطر الضعيف الذي يصل منسوبه مابين ٣٠٠م.م. و ٥٠٠ م.م. ، كما تتميز باعتدال الحرارة التى لاتنزل ، الا فيما ندر ، إلى درجة الصفر.

أما عن المنظر الطبيعى فيتمثل فى الغابة الخفيفة ذات الأشجار الجافة ، من: العرعر ، والدعر الأحمر ، والصنوبر الحلبى أو البلوط (الفلليني) فى المواطن الرطبة(٤٩) .

(٤٨) سيليرييه، مراكش، ص٣٢-٣٣، وقارن ريكار، مراكش، ص٢-٣-حيث منطقة رطبة إلى حد ما، متوسط المطر فيها أكثر من ٢٠٠م، وتعادل القسم الجنوبى من السهول المراكشية الغربية، والقسم الشمالى من البلاد المراكشية الشرقية، على السفوح الجنوبية الشرقيه لأطلس الوسطى، وأطلس الداخلية، وعن شجر الهرجان الذى يستخرج منه الزيت انظر ج ٤ ص٨٨ هـ ٦٨.

(٤٩) هذه الغابة اضمحلت الآن، وتحولت إلى أرض بور من الشيست، والنخيل القزم، كما تحولت الاماكن الأكثر جفافاً إلى أرض عشب تجف صيفا ، فلا يبقى فيها الا أطراف النخيل القزم. وبفضل النباتات التى تضمحل كل عام صارت الأرض خصبة صالحة لزراعة الحبوب كالذرة التى تنبت فى الربيع دون سقيا ، وذلك فى الأرض الساحلية الخفيفة، بفضل رطوبة الهواء- سيليرييه، مراكش، ص٣٥.

٤- النمط المطير:

ويشمل المنطقة فى شمال غرب مراكش ، والهضاب القريبة من الريف ، وعلى السفوح السفلى للريف والدير (Dir) الأطلسى . وزيادة الأمطار تكون طرديا مع الصعود شمالاً ، إلى جانب المزيد من الارتفاع ، حيث يصل منسوب المطر إلى مابين ٥٠٠م.م. و ٦٠٠م.م (وهو معدل منسوب مسطح باريس) . أما الحرارة فتتغير تبعا للارتفاع ، وتبعا للقرب والبعد من البحر أيضا.

أما عن التشكيل الخضرى فهو يتأثر بصفة خاصة فى السفوح المعرضة للشمس والحرارة تماما ، الأمر الذى يساعد على تكوين تشجير كثيف وإنْ كان قليل الطول ، وذلك من نوع الأعشاب المعروف بالكورسيكى ، وهو الذى يوجد تحت جلدته خشب عطرى ، إلى جانب نباتات عطرية أخرى من السنبل (الناردين) والنعناع والسعتر وغيرها من أنواع النبات من العقاقير التى تنصرف فى العلاجات الرفيعة (٥٠). هذا إلى جانب النباتات العدسية ، من :الزيتون الوحشى ، الكثير الانتشار. كما يبدأ الأرز الأخضر فى الظهور بأوراقه الحادة فى كل مكان (٥١).

٥- النمط الجبلى أو المطير جداً :

ومجالاته فى الجبال المرتفعة ، حيث يشمل كل منطقة الجبّالة والريف الأوسط ، والكتل الأطلسية فيما فوق ٣,٠٠٠ م ، حيث تستقبل المطر بمنسوب أكثر من

---

(٥٠) الاستبصار، ص١٨٧-عن جبل فازاز.

(٥١) المهم أن الأعشاب قد انهارت تماما، كما هو الحال بالنسبة للغابة، من حيث أن الموضع أفضل مكان لسكنى الإنسان-سيليريبه، مراكش، ص٣٦، وقارن ريكار، مراكش، المرشد الأزرق ، ص٦-حيث النباتات الصخرية والفطرية، ص٢-حيث منطقة متوسطة الرطوبة، تستقبل أكثر من ٤٠ سم١٢(٤٠٠م.م) وهى التى تحوى القسم الشمالى من السهول المراكشية الغربية، وأقاليم تازا، وفاس، ومكناسة، وكذلك النواحى المرتفعة من أطلس العليا الوسطى الغربية.

٦٠٠م.م ، ويسقط معظمها في شكل ثلج مندوف يغطى القمة مع مرور الوقت في شكل كسوة من الجليد.

إنه منطقة الغابة الكثيفة المتدرجة من الأفقى إلى الأعلى ، حيث الأشجار الضخمة من الأرز الأخضر من خشب الزان أو البلوط والسنديان وهى أشجار خشب القطع والاستثمار ، من أرز الزان والأرز النقى مما يوجد في جباله ، وتحت اشعاعات الضوء تتفتق أنواع ، من : الجرمشق والدردار ، والسرو أو الشربين ، وشجرة الغبيراء . ويتأكد ذلك في الظلّ حيث أشجار الظل الرطبة ، من : القصب والشجيرات الملتفة مما يكون غابة تحتية متداخلة.

إنها ليست الغابة المتوسطية ذات التهوية ، وذات الإضاءة أو النوافذ المطلة من السماء بين الأشجار ، بل إنها الغابة الشمالية . الغامضة بظلها ورائحة الأرض الزراعية . إنها عالم معادل للارتفاع المغربى(المراكشى) . وفى المساحات المضيئة (الفارغة) ، والمنخفضات الرطبة ، كما في مسكدال أو تيسروين أطلس الوسطى أو على الهضاب العالية ، من : الأدوار الأحمر (المسن الأحمر) في أطلس العليا ، كما في ياجور وتوشكا مما يشير الخاطر بالنسبة لجبال الألب (٥٢).

٦- النمط البارد في الجبل الشاهق :

ويشمل قسم جبال الأطلس المتوسطة والعالية التى تناهز الـ ٣,٠٠٠ متر وأكثر. فمع الارتفاع الشديد تقل الرطوبة ، ويصبح الجو أكثر جفافاً . ولكن الثلج يبقى فوق القمة لفترة طويلة من السنة في شكل كسوة من الجليد . ويأتى سطوع الشمس الشديد بعد فترة من البرودة القاسية . ولكن الأرض يمكن أن تبقى باردة بعد ذلك

---

(٥٢) سيليريبه، مراكش، ص٣٦-٣٧، وقارن، ريكار، مراكش، ص٢-حيث : منطقة غزيرة الأمطار، تستقبل أكثر من ٨٠سم٢ (٨٠٠ م.م.)، وهى تحوى الزاوية الشمالية لمنطقة البطائح الساحلية وأقاليم أطلس الوسطى والعليا المتعرضة للرياح الغربيّة الرطبة. ص ٦ – حيث الغابة.

لفترة من الصيف ، ورغم الحرارة على السطح.

وهكذا تكون أرض العشب فى المناطق الباردة ذات آفاق كثيرة متغيرة ، فقد يوجد تجمع خفيف من النباتات ، فى طبقات شوكية ، وأخيرا بعض النباتات شديدة القصر ، ذات الجذور القوية . وبطبيعةالحال فليس هذا مكان استقرار الإنسان ، وحتى رعاة قطعان الماشية قلما يأتون إلى تلك المواضع (٥٣).

وهكذا تتعدد الأنماط المناخية ، وبالتالى طرز البيئة المختلفة فى البلاد المراكشية. والحقيقة أن تنوع المناظر الطبيعية المتوالية على طريق الصعود من القاعدة إلى القمة ، عبر السهول والهضاب وسفوح الجبال ، هى التى تعطى بلاد المغرب خصوصيتها الأصيلة ، وتؤكد شخصيتها الجبلية المميزة.

الأراضى الخصبة :

والمقصود بالأراضى الخصبة هى مناطق التجمعات الأنسانية ، من الهضاب والسهول الرطبة ، من حيث تنبع الأنهار ، أومجاريها على طول الطريق إلى المصب، أو ما يلحق بها من الروافد ، وحتى انتهاء حوض النهر في المصب ، سواء فى البحر كما هو المعتاد أو فى البر ، كما فى الأقاليم شبه الصحراوية.

وأهم مناطق السهول هى الأطلسية ، التى تتواصل على طول ساحل الأطلنطى من موجادور جنوبيا إلى رأس سبارتل فى طنجة شمالا ، وهى عريضة أيضا ، وإن بشكل متباين . وهذه السهول الرطبة ذات الطقس اللطيف والخصبة تمتد كذلك فى الداخل ، ابتداء من رحاب بفضل أحواض سبو ، وايناون ، وممر تازا ، وحتى وادى ملوية . أما عن الأرض السوداء القوية الخصوبة حاليا ، والتى تتشقق عند الجفاف (وتسمى تير Tirs) فهى تمتد فى شكل بقع سوداء كبيرة أو صغيرة بين وادى بورجرج (ابو الرقراق) ووادى تنسيفت (نهر مراكش) ، على طول ٣٠٠ ك.م ،

(٥٣) سيليرييه، مراكش، ص٣٧، فارن ريكار، مراكش، ص٣ .

وعرض مابين ٦٠و١٠٠ك.م وهى تكون الاقاليم التى تسمى : زاير وشاوية ، وعبدة، ودكّالة (٥٤)

وأهم أماكن التجمعات الإنسانية بالمغرب (المراكشى) ، ٦ (ستة) مواضع هى: بلاد الريف ، وحوض نهر سبو ، والسهول والهضاب الغربية ، وسلاسل الأطسى ، والإقليم شبه الصحراوى ، ثم السهول والهضاب الشرقية (٥٥).

الـريف :

تتمثل منطقة الريف المعمورة فى السهول المرتفعة فوق جبال الأطلس (درن) غربا ، حيث تنتشر فى اقاليم تامسنا (الشاوية) ودكالة وعبدة على طول الساحل مع هضاب تلول مغطاة بطبقة خصبة من الأرض السوداء (٥٦) ومن ناحية الشرق تمتد السهول بين السلاسل الجبلية الممتدة على طول المتوسط من جبل طارق إلى وادى ملوية ، كما تمتد أيضا جنوبا حتى وادى سبو (٥٧) . أما المنطقة الوسطى فتبدأ عند جبل أما تراس فى بنى أرقول ، حيث السطح الجيرى المنفتح على الشاطئ

---

(٥٤) ريكار، مراكش، ص٦- حيث الإشارة إلى أن تلك الأراضى تحتاج إلى الجص أحيانا. وأنه في مقابل أرض التير الخصبة هذه والمنتجة للحبوب، توجد أرض "الحمرى" (أو الحمراء)، وهى خفيفة رملية، وعادة ما تكون غنية بالجير، وحامض الفسفوريك، ولكنها تجف سريعا. فالرمل الدقيق والخفيف والذى قد يتحرك أحيانا يؤدى إلى الجفاف، وكذلك الدهس الصلصالى والحروشة (الخشونة) فى الأرض ذات الحصى، ص١٠٩-حيث الأرض الصلصالي الشديدة الخصوبة بفضل احتوائها على الأوزوت والبوتاس بكثرة والتى تسمى حديثا "بالتير"، كما تشبه بالأرض الروسية السوداء أو الرملية الحمرا بفضل أكسيد الحديد الغنى بالجير والفوسفور.

(٥٥) سيليربيه، مراكش، ص١٤ . ١٥ ،وانظر ريكار، مراكش، ص٢١٧، دائرة معارف ليكسيكون (Lexicon) ج١٣ ص٥٨٤ .

(٥٦) سيليربيه، مراكش، ص١٦ .

(٥٧) سيليربيه، مراكش، ص١٦ .

كمركز لصيد البحر (٥٨).

والمهم أن بلاد الريف عرفت بسهول جبالها الخصبة . وهكذا عرّف جبل غمارة ، وقبائل الريف ، عند الجغرافيين العرب المعاصرين بأنه أخصب جبال المغرب فهو:«بسائط للحرث ، ولمدن قديمة ، وآثار للأول تبين أن عمارته قديمة أزلية» (٥٩). ومدينة سبتة تعتبر قاعدة بلاد الريف التى تسيطر على العدوة من حيث يكون العبور الي الاندلس ، وتوصف بانها مدينة حصينة فى شرقها جبل كبير فى شعراء كثيفة يسمي جبل الميناء * فكأنه بعض أعمدة هرقل التى تحرس المضيق.

السهول الغـربية :

والسهول الغربية متواصلة وإن كانت ذات عرض متباين ، مابين موجادور جنوبا وطنجة (رأسل سبارتل) شمالاً ، محاذية لساحل الأطلنطى . وهى سهول خصبة ، رطبة ، ذات طقس لطيف ، وهى تمتد أيضا فى الداخل ابتداء من رحاب ، وذلك بفضل حوض وادى سبو (٦٠).

والنموذج للسهول المرتفعة الجيدة التربة هو الهضبة الغربية ، الشبيهة بهضبة الميزيتا الايبيرية ، وتقع بين جبال اطلس العليا ، واطلس الوسطى ، وبلاد الريف ، واقليم الجبالة ، والساحل الأطلنطى. فهى عبارة عن مجموعات من السهول والهضاب المكونة من طبقات رسوبية خصيبة (٦١).

---

(٥٨) سيلبريبه، مراكش، ص١٧.

(٥٩) الاستبصار، ص١٩٠-١٩١، هذا إلى جانب حصرنه الكثيرة إلى تمتنع فيها غمارة وتنافق على الولاة، وهو ما يركز عليه الإدريسي أكثر من غيره، قارن نزهة المشتاق، ج١ ص٢٤٩ .

*(الاستبصار ، ص ١٣٧)

(٦٠) سيليريبه، مراكش، ص١٤.

(٦١) سيلبريبه، مراكش، ص١٧، ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص٢.

ومنطقة مدينة مراكش ، التى تعرف بالحوز ، تشبه بطست غير عميق ، ينحدر برقة عند قدم جبال أطلس . وهذا السهل الذي يتجه محوره شمالاً بشرق تقريبا ، يمتد بطول يصل مابين ١٥٠ك.م و ١٧٥ ك.م ، وبعرض يبلغ فى المتوسط ٣٠ ك.م. وهكذا يراه الرحالة منبسطا من الأرض المتربة التى تشعر السالك بالرتابة والملل (٦٢)، وهو الأمر الذى يؤيد تفسير كلمة مراكش البربرية ، بأنها مكونة من كلمتين: أولهما سِرْ والأخرى مُسْرِعاً، كناية عن أن الموضع القديم كان مخوفاً موحشاً(٦٣).

والحقيقة أن منطقة مراكش تمثل منطقة القلب (أى المركز) من المغرب ، من حيث أنها تتمتع بنظام تضاريس مُوات بالنسبة لنظام مائى ثرى ، يشجع على الحياة المتواصلة ، فلا يكدّره إلا ثوران العواصف والأنواء (٦٤). وهى تتمثل فى الكتلة المركزية التى تكوّن الهضبة الوسطى من أطلس الوسطى ، وأطلس العليا . وهى بدلا من أن تكون مركز جذب ، صارت منطقة طرد ، تتوزع فيها منابع الأنهار الكبرى ، التى تتوجه إلى أركان الأرض الأربعة ، وهى : وادى سبو ، ووادى أم الربيع ، ووادى ملوية ، إلى جانب نهرى دادِس وزيز (٦٥) .

الميـــاه الجـــارية :

كثرة المياه فى البلاد المراكشية تجعل منها «بلاد المغرب السعيدة» بالمقارنة مع

---

(٦٢) ديفيردان، مراكش، ص١-٢.

(٦٣) انظر ج٤ ص٢٤١.

(٦٤) سيليرييه، ص١٥-وهذا ما شاهدناه فى نوفمبر سنة١٩٨٨، عندما صعدنا الجبل من مدينة مراكش صوب مدينة أغمات ظهراً فى جو حسن، ولكنا ما كدنا نصل إلى قمة الجبل حتى تكدر الجو عاصفا فجأة، الأمر الذى خشينا معه أن تجرفنا دوامات الهواء نحو أسفل الوادى البعيد، فهرعنا إلى السيارة نازلين.

(٦٥) سيليرييه، مراكش، ص١٥.

بلاد المغرب الإفريقية والصحراوية ، تماما كما هو الحال بالنسبة لبلاد «اليمن السعيدة» - بفضل إرتفاعها وكثرة مياهها - بالمقارنة ببقية بلاد العرب الشمالية من : صخرية وقاحلة.

وكثرة المياه فى المغرب ترجع إلى الارتفاع الرأسى وامتداده الطولى ، والأوضاع الجغرافية والتضاريسية المتمثلة فى كتل الجبال، وبالتالى كثرة الامطار على السفوح وتراكم الثلج على القمم وطبيعة الارض الجيرية التى لاتسمح بالتسرب إلى داخل جوف الارض- كل ذلك يعطى بلاد المغرب الاقصي ثروة من المياه الجارية، الأمر الذى يتفق مع أزدهار البلاد فى الماضى ويضمن لها التقدم فى المستقبل (٦٦) .

والانهار المراكشية رغم تشابهها داخل النظام المتوسطى ، فإنها تقدم تنوعا يسمح بتقسيمها إلى ٣ (ثلاث) مجموعات ، هى : المجارى المتوسطية ، والأطلسية، والصحراوية.

والمجموعة الأطلسية أكثر أهمية بوفرة عددها ، وعرض اتساعها أكثر من تصريفها . أما استخدامها للملاحة فغير ممكن . ففى الداخل يكون العمق غير كاف، وغير منتظم . والمصب عرضة لأمواج البحر من مدّ وجزر ، وان كانت تقدم عونا للملاحة ، ولكن الرواسب والرمال كثيرا ما تكون عوائق صعبة . وهذا ما يفسر كيف حلت العرائش على نهر لوكوس محل بقاسوس (الفينيقية) القديمة ، والرباط (الموحدية) محل سلا (الرومانية) على وادى بورجرج.

والمهم أن كل الأنهار المراكشية - رغم تعقيد الحوض والروافد - تقع تحت تأثير الطقس المتوسطى ، كما أن نظامها غير منضبط . فهى زائدة متدفقة فى الشتاء ، مع

---

(٦٦) سيليريية، مراكش، ص٣٧ ، ٣٨-حيث المقارنة مع أنهار الجزائر الكبيرة التى لا تقارن فى تصريفها ببعض الأنهار المراكشية المتواضعة، وقارن ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص٣-حيث اعتبار أن شبكة مياه المغرب اهم شبكة في كل بلاد المغرب الأقصي رغم عدم تجانسها بفضل الاحتياطى المائى المراكشى المستمر من الأطلنطى والمتوسط

ارتفاعات مفاجئة، وهي في الصيف ضعيفة قليلة حتى جفاف الروافد بشكل عام.

وادى سبـو :

وحوض وادى سبو المنخفض يفصل جبال الريف عن هضبة مراكش الوسطى ، ويتسبب فى نظام الرى العظيم ، والمتقدم فى وادى سبو . وعن هذا الطريق تسود السهول الخصيبة إلى جانب الالتواءات البديعة.

ويعتبر وادى سبو أهم أنهار المغرب ، من حيث امتداد طوله واتساع حوضه بفضل روافده المتعددة ، التى تمده بالمياه من كل من مرتفعات الريف ، والهضبة المراكشية الوسطى ، التى تعتبر بمثابة الصهريج الكبير الذى لاينفد بفضل احتياطيه من ماء الثلوج بطيئة الذوبان.

ونهر سبو ينبع من جبال أطلس الوسطى ، حيث يحمل هناك اسم جيجو- سبو، على مسافة ١٢٠ ك.م شرق مدينة فاس التى يخترقها أحد الروافد الذى يعرف باسم المدينة ، فهو وادى فاس الذى يدخل المدينة فى كل شارع أو زقاق فى شكل عيون جارية تطحن عليها الأرحاء ، وتدخل الدور من كبيرة وصغيرة ، وتميرها بالماء النقى وعليها قباب مبينة ودواميس محنية ، ونقوش ، وضروب من الزينة (٦٧). وهو يتضخم بفضل روافده العديدة ، واهمها:

- ايناون الذى يأتى بالمياه من معبر تازه.
- ورغه الذى يهبط من بلاد الريف.
- رِدَم وبَهْت ، ويأتيان من الهضبة الداخلية لبلاد بنى مْجَلْد.

واتساع مجرى سبو الأسفل يصل إلى ٣٠٠ متر ، ويصل تصريفه المعتاد إلى مابين ٣٠٠ و ٤٠٠ م٣ /ثانية . ووقت الفيضان يصل تصريفه إلى ٢٠٠٠م٣

---

(٦٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٤٢-٢٤٣ .

/ثانية ولكنها يمكن أن تصل إلى ١٥ م٣ /ثانية ، وقت التحاريق (والمستوى الادنى) (٦٨).

ووادى سبو كنهر سهلى يدين بشكل مجراه إلى منطقة الريف ، وتدفقه فى شكل شلال لاينسجم مع امتداده الطولى بشكل عام . فهو قليل الانحدار ، الأمر الذى يسهل الملاحة لمسافة قصيرة . والمستنقعات يمكن أن تعتبر عقبات تزيد فى طول المسافة ، كما أنه فى النهاية ، وقرب المصب ، يدخل فى الرواسب التى يتكون عليها طريق من عدة امتار ، فى نفس الوادى . ومستنقعات المصب هذه تسمى المرج. وميناء القنيطرة (Port Lyauty) يقع على مسافة ١٧ ك.م. قبل المصب (٦٩).

وادي أم الربيع (موربيع) :

يعتبر نهر أم الربيع - من بين الأنهار المغربية - منافساً لنهر سبو ، من حيث الأهمية والأولوية ، من جهة الطول الذى يصل إلى ٥٥٠ - ٦٠٠ ك.م ، وكثرة الماء، ومن حيث بساطة المجرى وقلة التعاريج فى مجراه الأعلى ، حيث المنبع فى أحد جوانب أطلس الوسطى ، ويتكون من ٤٠ (أربعين) نبعا تلقى بتصريف يبلغ عدة أمتار مكعبة في الثانية (٧٠) . ولكن التصريف يتزايد على طول المجرى

(٦٨) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص٣، وقارن سيليريبه، مراكش، ص٤٠، وقارن الادريسي، نزهة المشتاق، ج١ ص٢٤٧-حيث النص على أن سبو نهر عظيم، يأتي من نواحي جبل القلعة (قلعة مهدى) لابن تواله ، يحاذى فاس من شرقيها على ٦ أميال منها (ثلاثة أيام) الأستبصار، ص١٨٤، والمنبع من جبل بلاد بنى وارتين، وهناك يقع نهر فاس مع ما اجتمع من سائر العيون والأنهر الصغار، وعليه قرى وعمارات، ويمر منه الطريق إلى ثمالية (مرحلة) وهى قرية على نهر يأتيها من الجنوب هو وادى ايناون.

(٦٩) ريكار ، مراكش، المرشد الأزرق ، ص ٣ ، وأنظر سيليريبه ، مراكش ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٧٠) سيليريبه، ص٣٨. ٤١، وقارن الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١ص٢٣٧-حيث قرية ايغبل-القريبة من قرية ام الربيع، الواقعة على واد كبير خرّار، يجاز بالمراكب-وبها عيون كثيرة دفاقة بالماء من الصخور الصلدة.

بزيادة تدفق الروافد حتى يصل في وقت الذورة القصوى إلى ١٦٠٠م٣ / ثانية ، وتتضاءل في مستواها الأدنى إلى ٣٥ م٣ /ثانية.

وهكذا يكون وادى ام الربيع سيلا جبليا من المياه الصافية ، وهو ينحرف من الجبل بشكل مفاجئ ، ويدور حول مسطح منطقة تادله التى يقطعها وهو محتفظ بجريه السريع في الوادى العميق . ومن جهة اليسار يستقبل رافدين يأتيان مثله من جبال الأطلس الوسطى ، وهما : زاد سرو ، ودرنت ، ثم إنه يستقبل بعد ذلك ، نهرين كبيرين ، هما : وادى العبيد الذى يبدأ من منطقة تلاقى أطلس العليا وأطلس الوسطى ، وتساورت واللذان يجلبان الرواسب من أطلس العليا والوسطى.

وبعد تغير الاتجاه يندفع أم الربيع فى قاعدة الهضبة الفوسفاتية ، وهو يحتفظ برواسبه المجلوبة من السهل الساحلى ، نحو المحيط حيث المصب بعد مدينة آزمّور (٧١).

وادى ملـــويّة :

نهر ملوية من أنهار المغرب الكبرى ، المتعددة الصفات تبعا لتعدد الأقاليم التى يجرى فيها ، واختلافها من حيث الطقس والتضاريس فهو على التوالى نهر رملى يجرى بشكل متواتر ، وهو يمتاز بالمياه من ذوبان الثلج بشكل مؤقت من جبال أطلس الوسطى والعليا. ووادى ملوية الاوسط يجرى فى منطقة المجان فى اتجاه جنوب وجنوب -غرب ثم يتجه إلى الشمال والشمال الشرقى فى سهل عادة ما

---

(٧١) انظر سيليريبه، مراكش، ص٤١-٤٢- حيث الإشارة إلى أن آزمور لم تستطع الاستفادة من موقعها فى أن تكون ميناء خليجيا، مثل الرباط والعرايش، ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص٣، وقارن الحسن الوزان، الترجمة، ص١٦٦-حيث آزمور فى دكّالة، على ساحل المحيط عند مصب أم الربيع على ٣٠ (ثلاثين)ميلا فى اتجاه الشمال، ص١٨٣-حيث الإشارة إلى منطقة تادلة بوصفها بالشكل المثلث، وأنها بلاد واسعة جدا، من : نهر العبيد إلى أم الربيع (عند المنبع)- وهى التى أعطت اسمها للنهر على ما نرى.

يكون صحراوي المظهر. وهو بعد ذلك نهر الهضبة العشبية ، وهو أخيرا نهر السهل المتوسطي . وان امداده بالماء الذي يقل بسبب البخر الكثيف ، وبفضل استنزاف الري ، يختلف مابين الفيضان الكبير الذي يزيد معدله على ١٠٠٠ م٣ /ثانية ، في وقت الذروة ، ويقل في المستوى الادني إلى ٥م٣ /ثانية.

أما عن روافده ، فلبعضها أهمية خاصة ، مثل : المجموعة العليا في اليمين ، وهي : أودغيس ، ووطاط ، وانسجمير ، وهي التي تمده بالماء المتسرب من كتل ارض الجص الكبيرة في مواضع : معسكروالعياشي ووادي زا. ومن اليسار يأتي الماء من أودية هضاب السهول العشبية التي تحيا بفضل «شق الأرض» في وادين الملولو - الغني بمآخذه من الجبال العالية في بني وارابن - ومسوت الذي يتصف بطوله الذي يبلغ ٤٥٠ ك.م ، ويعرض مجراه في الربيع حيث يتسع إلى ١٠٠(مائة) متر ، كما يتراوح فيضانه مابين ١٠٠٠ م٣/ ثانية في أقصاه و ٥م٣/ثانية في أدنى مستواه (٧٢).

وادى درعـــة :

ونهر درعه(أو دراع) هو أهم أنهار المجموعة الصحراوية التي تحوي أيضا كلا من : جير ، وزيز ، رغم وجود مصبه في المحيط الأطلنطي.

ويتكون درعه من رافدين رئيسيين يخرجان من جبال أطلس العليا المتوسطة وهما إيدرمي ، ودادس الذي يجف في الثلث الأول من مجراه بفضل استنزاف الري والسقيا . ويعتبر درعه أطول الأنهار في البلاد المغربية إذا يبلغ طول مجراه حوالي ١٥٠٠ (الف وخمسمائة) ك.م الأمر الذي يعني أن كثيرا من امتداداته سواء في المنابع أو في المصب عرضة للجفاف بفضل البخر الشديد أو النقص في الامدادات.

والمهم ان درعة يفصل جبال أطلس الداخلية عن وادي سواره بأخدود عميق ، وهو

---

(٧٢) سيليرييه، مراكش، ص٣٨، وقارن ريكار، مراكش، ص٤٠٥ .

يتجه نحو الجنوب الشرقي حيث واحات النخل الجميلة ، قبل أن يدخل إلى بلاد المحاميد ، ويستدير نحو الغرب حيث ينتشر في مسطح ايريقي . والحقيقة أن المجرى الأسفل لدرعة هو نهر آخر ينشأ من تجمع المياه النازلة من أطلس الداخلية.

- والتي تتجمع في كميات صغيرة تختفي في واحات باني (٧٣)

الأودية المتوسطية في بلاد الريف (غمارة) :

السمة المميزة لأودية سفح جبال الريف أنها ليست أكثر من جداول قصيرة وإنْ كانت كثيرة العدد . فوادي كِرْت مثلا ، وهو المتأثر بالطقس القاري للريف الشرقي، لايتناسب تصريفه مع اتساع المجرى العريض . وفي الغرب يقطع الجبل عدد من الأخاديد العميقة المتعرجة ، التي لايجري فيها إلا خيوط سريعة من الماء أشبه بالشلالات ، ومع ذلك فهي تجمّع المياه الوفيرة في القليل من الوقت.

وأهم تلك النهيرات الشلالية ، هي :

نكور ، وريس ، ولاوو (٧٤) .

مجموعة الأودية الأطلنطية :

وهي أكثر أهمية من مجموعة الريف ، من حيث كثرة العدد ، وإن كانت نسبة اتساع مجاريها أكبر من تصريفها وبطبيعة الحال فإن استخدامها للملاحة غير

---

(٧٣) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص٣-٤، وانظر سيليربيه، مراكش، ص٣٨، ٤٢، ٤٣، وقارن الاستبصار، ص٢٠٦-حيث النص على أن منبع وادي مدينة درعة من جبل درن، وعليه عمارة متصلة ٧ (سبعة)أيام، وقارن الحسن الوزان، ص ٤٩٠ - حيث النص علي أن النهر يفيض شتاء بالبحر، وأن لم يفض في بداية ابريل تلف المحصول.

(٧٤) سيليربيه، مراكش، ص٣٩، وقارن، ريكار، المرشد الأزرق، ص٤-حيث النّص على أن أنهار بلاد الريف عبارة عن أودية مسرعة نحو البحر، ولكنها كثيرا ما تكون جافة.

ممكن. ففى الداخل يكون العمق غير كاف ، وغير منتظم . أما المصب فهو مجرى لأمواج البحر ، من :مدٌ وجزر ، وهذه وإنْ كانت معاونة في الدخول والخروج إلى خلجان الانهار ، فإنها يمكن أن تكون معوقة أيضاً لنفس الأسباب . والمهم أن الرواسب الوافدة فى نهاية المجرى ، وكذلك الرمال كثيرا ماتكون عوائق صعبة (٧٥).

والحقيقة ان مصبات الأنهار فى الأطلنطى ذات طابع معين . فالضفة اليمنى عادة رملية واطئة ، والضفة اليسرى مرتفعة مقتطعة في الصخور المرتفعة . وفوق ذلك فإن اضطراب البحر شبه المستمر ، بالإضافة إلى تصادم التيار النهرى مع الأمواج البحرية تؤدى إلى ظاهرة المانع الرملي (القطيب) الذى يؤدى الي امتناع الوصول إلى خلجان مصبات الأنهار (٧٦).

والأمثلة على الموانى التى قامت فى مصبات أنهار منهارة ، وهى العرايش على نهر لوكوس ، والتى حلت محل ليكوس الفينيقية القديمة ، ومدينة الرباط ، عاصمة المغرب الحالية ، التى حلت محل مدينة سلا القديمة ، وهى شلّة الرومانية على وادى بورجرج (أبو الرقراق) (٧٧)

أما عن أهم موانى الأطلنطى في منتصف القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، فهى كما يرتبها الادريسى في الفترة التى تهمنا ، من الشمال إلى الجنوب : مرسى فضالة فى جنوب سلا ، مرسى آنفا على بعد ٤٠ ميلا ، ثم مرسى مازيغن على بعد ٦٥ ميلاً

---

(٧٥) سيايربيه، مراكش، ص٤١، ريكار، مراكش، ص٤ .

(٧٦) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص٤ .

(٧٧) سيلبربيه، مراكش، ص٤١، وانظر ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص٣-حيث نهر "لوكس" أضعف الأنهار التى تصب فى الأطلنطى من حيث إنه ينصرف فى قسم من إقليم جباله، ويسير القسم الأخير منه إلى القصر القديم وإلى العرايش، وهو واسع منبسط فى شكل مستنقع ، ص٤-حيث النص على أن التقنية الحديثة هى التى أدت إلى نجاح ميناء الدار البيضاء الذى سهل الوصول إلى البلاد المراكشية بشكل كبير.

ثم جون البيضاء على مسافة ٣٠ ميلا ، ومرسى الفبط على ٥٠ ميلا ثم مرسى آسفي على ٨٥ ميلاً . وهنا ينص الادريسى على «مرسى آسفى كان فيما سلف آخر مرسى تصل إليه المراكب ، فأما الآن فهى تجوزه بأكثر من ٤ (أربعة) مجار حيث مرسى ماست فى طرف الجون على مسافة ١٥٠ ميلا – فكان المجرى حوالى ٤٠ ميلا (٧٨) .

وبالنسبة لمجارى المياه فى منطقة الأطلس الوسطى ، فإن هضبة الميزيتا هي صهريج مياه الأنهار المغربية الكبرى (٧٩) . فبسبب كونها محصورة لاتستطيع أن ترفع رواسبها من الصخور الصلبة فى القاعدة الأولية ، حيث تقف في طريقها تكوينات صخرية رأسية ، فإن هذا الأمر جعل من المجرى المائى أشبه بأخدود ذى حواف ناتئة . ولقد ترتب على هذا الأمر أن صارت ميرتها من الماء ضعيفة . وأهم النماذج هو : وادى ابو الرقراق (بورجرج) ، وشقيقه رافد الجرو (٨٠)

مجموعة جنوب المغرب الأطلسى :

السوس وتنسيفت وماست :

وادى السوس :

ويحمل هذا النهر اسم اقليم السوس : آخر بلاد المغرب الأقصى ، «نهاية بلاد

---

(٧٨) انظر نزهة المشتاق، ص٢٤٠، ومما يؤسف له ان الادريسي لم يفسر سبب تسمية آسفى بهذا الاسم قائلا إنه سيأتى به عند ذكره لمدينة اشبونة، بسبب منهجى اذ يقول " وذكر الشئ فى موضعه أليق- ومع أننا كنا نود لو ذكر ذلك هنا إلا أنه وفّى بما قاله، وهو ان اسم آسفى من الأسف، وذلك لوفاة قائد الأسطول المرابطى أحمد بن عمر المعروف بدقم الإوز قبل ان يحقق رغبته فى الوصول إليها- ولهذه الجزيرة قصة غريبة أخبر عنها المغروورون من أهل أشبونة بالأندلس حين اسقطوا إليها بمراكبهم، وكيف سميت آسفى بهم.....(انظر ص٢٢٠).وقارن ريكار، ص ١٨٣-حيث آسفى هي بالعربية "صافي"، كما عند ابن خلدون.

(٧٩) أنظر ما سبق، عن أطلس الوسطي ، ص ٣٧ .

(٨٠) سبليربيه، ص٤١.

البربر» عند الحسن الوزان (٨١). وإذا كان الوزان يصف وادى السوس بالنهر الكبير ، فالمعروف أن المنطقة التى يجرى فيها قليلة المطر ولاتسمح عادة بجري الأنهار الدائمة . وبناء على ذلك فالفضل فى جريه يعود إلى الكتلة الأطلسية المرتفعة التى تتراكم فوقها الثلوج . فبسبب ذوبان الثلوج حتى حلول الصيف يستمر جريان النهر ، وان كان بمعدل بطئ وضعيف ، حيث يختفي الماء بالمجرى تحت الحصى، في وقت الضيف (٨٢) . أما عن فيضان النهر فيكون مرتين في العام : أولهما فى سبتمبر عند هطول أمطار الخريف ، والثانية فى إبريل عند ذوبان الثلج (٨٣).

وادى تنسيفت :

وتنسيفت هو نهر مراكش بالامتياز من حيث موقع العاصمة المغربية منه . فهو ينبع من جبال أطلس العليا (درن الأعظم) فى منطقة دمنات ، ويمر غير بعيد من مدينة مراكش ، على بعد حوالى ٦ ك . م أو ٣ (ثلاثة) أميال (٨٤).

وهو على طول المجرى ، يستقبل عددا مهما من الروافد ، من أودية : زادت ، ووريكة ، وغدجايا ، ونفيس ، وشيشاوه (٨٥) . وكان لوادى وريكة الذى يخترق مدينة أغمات وريكة من الجنوب ، ويخرج منها من الشمال ، وعليه الأرحاء تطحن

---

(٨١) وصف افريقية، الترجمة، ص١٢١ .

(٨٢) سيليريبه، ص٤٢، وقارن الحسن الوزان، الترجمة ، ص١٢٤-حيث النّص على أن نهر السوس يعبر خوضا فى الصيف، ولكن لا يمكن اجتيازه شتاء إلا فى المراكب الصغيرة.

(٨٣) الحسن الوزان، ص١٢١.

(٨٤) الاستبصار، ص ٢٠٩ ، وانظر ريكار، المرشد الأزرق، ص٣، وقارن ديفيردان، مراكش، ص١١-حيث تنسيفت جزءمن النظام المائى لوادى أم ربيع.

(٨٥) سيليريبه، ص٤٢،وقارن الاستبصار، ص٢٠٩-حيث الروافد: وريكه، ونفيس، وأودية كثيرة. وانظر ديفيردان، مراكش، ص١١-حيث النص على ان أهم الروافد هي : وريكه وبرايا ونفيس.

الحنطة في نظام بديع بحقق تنظيم مائة ما بين منفعة المدينة ، ورى الأراضى الزراعية خارجها ، فالنهر يدخل البلد ٤ (أربعة) أيام فى الأسبوع ، هى الخميس والجمعة والسبت والأحد ، أما باقى أيام الاسبوع فيحولونه لسقى جناتهم وأرضهم - وحينئذ تتوقف الأرحاء عن الطحن (٨٦).

وهو فى النهاية يعبر السهل الرسوبى الواسع فى منطقة الحوز ، قبل أن يندفع فى المنطقة الساحلية القاحلة . ، وهو من هذا الوجه يعتبر أكثر أهمية من وادى السوس . وذلك من حيث أن روافد تنسيفت تجلب إلية فى الربيع المياه الوافدة من ذوبان الثلوج . ولكنه لما كان معظم الروافد يستنزف فى الرى والسقيا ، فإن معظمها لايحمل المياه فى فصل الصيف . وهنا تقوم منطقة الحوز (وهى الكتلة الرسوبية) وتمد النهر بمياهها الجوفية (٨٧) .

وادى ماسة (ماست) :

وآخر أنهار المغرب الأطلسية فى الجنوب هو وادى ماست الذى ، الذى يعتبر من أنهار بلاد السوس(٨٨) . وهذا النهر رغم صغره يمثل نموذجا هاما بالنسبة لأنهار جبال أطلس (درن) الجنوبية . فروافده العليا تحيط حقيقة بالكتلة الجبلية الكثيفة ، المعروفة بـ «كِسْت» ، والتى تمثل مجمعا مائيا (صهريجا) كبيرا . وتصريفها جيد يفيد الرى منه بشكل كاف ، وعلى نطاق واسع (٨٩).

---

(٨٦) نزهة المشتاق،ص٢٣١.

(٨٧) سيليرييه، ص٤٢.

(٨٨) الاستبصار، ص٢١١-حيث وصف ماسة بالنهر العظيم، وأن مصبه فى البحر المحيط، وإن كان جريه من القبلة (الجنوب) إلى البحر كجرى نيل مصر.

(٨٩) سيليرييه، مراكش، ص٤٢ .

المياه الساكنة (النائمة) والمياه الجوفية :

والمياه الساكنة أو النائمة هى التى لاتتحرك مثل : البحيرات والمستنقعات . أما المياه الجوفية فهى الآبار والعيون الارتوازية التى قد تتبخر أو تستنقع وكذلك شبكات مياه السراديب الأرضية العميقة التى تعرف بالفجارات أو الخطارات .

والبحيرات قليلة في المغرب بسبب الحرارة وكثرة البخر التى لاتساعد على حجز شبكات المياه الراكدة . والمهم أنه لاتوجد مسطحات مائية كبيرة ساكنة فى شكل بحيرات ، وان عملت التضاريس من الهضاب المسطحة والأودية والخلجان على وجود عدد من المصطحات المائية التى تشبه الأطباق أو الطسوت ، التى تتجمع فيها المياه عقب سقوط الأمطار ، وبقائها لعدة أشهر حتى دخول الصيف.

ومثل هذه التجمعات المائية الطارئة قد تجف في فصل الصيف وتتحول إلى مروج للزراعة الخفيفة أو مراعى للماشية . والمثل لذلك مرجة سبو فى أدنى الوادى، وكذلك فى منطقة عبدة حيث بحيرة زيما . هذا كما يمكن لبعضها أن تتحول فى الصيف إلى مّلاحات ، لاستخراج ملح الطعام .

أما فى الجبال فقد توجد برك عميقة أو ضحلة مما يتكون فى بعض الأودية ، والتى تجف بعد فصل الأمطار . كما يمكن أن تتكون التجمعات المائية الساكنة نتيجة حادث أو ركام بركانى ، كما فى انزم آجملمان : سيدى على ، فى طريق أطلس الوسطى ، أو نتيجة انكسار سطحى كما فى أفنى فى جنوب تلة تويقال أو جنوب تازا (٩٠).

وعن المياه الجوفية فهى على العكس من المياه الساكنة وفيرة فى البلاد المراكشية ليس عن طريق الأمطار ، بل نتيجة لطبيعة الأرض ، وتشكيل السطح والتضاريس التى تسمح بأن تكوّن فيها شبكات مياه عميقة ، ومستويات مهمة من الموارد

---

(٩٠) سيليرييه، مراكش، ص٤٣، ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص ١٤٠ .

المائية التي تساعد على الاستقرار الإنساني . فهي عادة مليئة بالماء - مثل هضبة مراكش الوسطى - مما يعتبر صهاريج عظيمة تمير العديد من المنابع التي تتفجر في كل المنطقة المتصلة بالسهل . وأهم النماذج هي : ينابيع وادي سبو الارتوازية ، وكذلك ينابيع وادي أم الربيع الأربعين .

أما عن الفجّارات والخطّارات فهي تتكون نتيجة لرشح منابع الأنهار في كتل الطين والحصى والرمل ، التي تتجمع عند وصولها إلى الطبقة الجوفية الحصوية التي لاتسمح بالرشح.

وهذه المياه التي يصطادها الأهالي المحليون بمهارة تسمح لهم بتنظيم وسائل الري عن طريق قنوات الخطارات والفجّارات بشكل هندسي منظم يثير الإعجاب . وأهم النماذج المغربية توجد في خطارات حوز مراكش ، وفي فجّارات الواحات(٩١).

السكان وتوزيعهم في البلاد :

الأقاليم العمرانية :

تقسم بلاد المغرب جغرافيا إلى ٤ (أربعة) أقاليم متتالية ابتداء من البحر نحو الداخل ، وهي : الساحل ، سلاسل الجبال ، السهول الخصبة بين الجبال ، ثم الأقاليم شبه الصحراوية . هذا إلى جانب التقسيم التقليدي الرباعي ، من : شمال وجنوب (من سبتة إلى سجلماسة) وغرب وشرق (من سلا إلى وجدة) . وهذه التسميات الاصطلاحية تستخدم من غير شك عند رسم خريطة توزيع السكان .

ولكنه لما كانت طبيعة الاجتماع المغربي من الطراز القبلي ، كان من الطبيعي أيضا أن تأخذ الأرض أسماء ساكنيها ، صنّاع عمرانها ، وهو الأمر الدارج في الاجتماع البدوي - المبني على النسب والعرق - أيا كان مقره . هذا ولو أن أهم

(٩١) سيليرييه، مراكش، ص٤٣ ـ ٤٤، وقارن ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص١٤٠ .

عوامل العمران تتمثل فى الأرض الطيبة ، فى أحواض الأنهار الخصيبة ، مثل سهول الريف وسبو والسهول الغربية وغيرها (٩٢) وتظهر أنواع التقسيمات المختلفة هذه عند الحسن الوزان (ليون الافريقى) ، فى القرن الـ ١٦ م / ١٠ هـ ، إلى جانب التقسيمات السياسية التاريخية المستجدة على مرّ الأيام والسنين . فهو يقسم بلاد البربر إلى ٤ (أربع) ممالك ، يخص البلاد المراكشية منها مملكتين ، هما.

١- مملكة مراكش ، وتنقسم إلى ٧ (سبع) مناطق ، هى : حاحة ، والسوس ، ومراكش (العاصمة) ، وجزولة ، ودكالة ، وهسكورة وتادلة . وهكذا تتوزع الأسماء ما بين أسماء الأماكن ، مثل : السوس ومراكش وتادلة ، والقبائل ، مثل: حاحة وجزولة وهسكورة ودكالة .

٢- مملكة فاس ، وهى ٧ (سبع) مناطق أيضا ، هى : تامسنا ، وفاس ، وازعار، والهبط ، والريف ، وحارث والحوز (حوز فاس) . والغالب هنا : التسمية الإقليمية إذ أن التسمية القبلية لاتتجاوز قسمين ، هما : أزعار ، وحارث من بين الأقاليم السبعة (٩٣).

ويأتى بعد ذلك تقسيم الوزان للأفارقة البيض إلى ٥ (خمسة) أقسام ، هى : صنهاجة ، ومصمودة ، وزنانة ، وهوارة ، وغمارة . وهو يوزع المصامدة على ٤ (أربعة) أقاليم ، هى : حاحة (أصلها ايحاحان بالبربرية) ، والسوس ، وجزولة ، ومنطقة مراكش. واثنان منها أسماء عرقية ، وهما : حاحة وجزولة ، واثنان اقليميان، هما : السوس وحوز مراكش.

أما عن موطن قبائل غمارة فهى بلاد الريف (موريتانيا الرومانية) . أما عن تامسنا التى تعادل هضبة الميزيتا الغربية ، فهى موطن لـ ٣ (ثلاث) قبائل ، هى:

---

(٩٢) انظر فيما سبق، ص ٥٢ - ٥٣ -حيث تحديد ٦(ست) مناطق سكانية، هى: الريف، السهول الغربية، جبال الأطلنطى، الأقاليم شبه الصحراوية ثم الأقاليم الشرقية.

(٩٣) الحسن الوزان، الترجمة العربية، ص٣٨.

زناتة ، وهوارة ، وصنهاجة (٩٤) ولكنه لما كانت العينات الأولى (الأصلية) من البربر لاتوجد إلا فى الأماكن الانعزالية الصعبة ، مثل : أوراس والقبائل بالجزائر ، والريف وسفوح الأطلس بالمغرب ، وبعض واحات الصحراء (٩٥) ، يكون من المقبول وضع بربر مصمودة وحاحة : أهل جبل درن الأعظم (أطلس العليا أو الريف) ضمن العروق النقية من البربر ، أهل البلاد الأصليين . وأهم صفاتهم العرقية ، هى:

١- عرض الأكتاف ، وضيق الإليتين ، أشبه مايكونون بسكان وادى النيل.

٢- صغر الحجم ، أشبه بسكان سواحل المتوسط الشمالية ، في : إسبانيا وإيطاليا وجنوب فرنسا.

٣- سمرة اللون ، وبساطة الحركة ، وعصبية المزاج.

٤- ومنهم نماذج شقراء نقية ، ونماذج ملونة غير سوداء.

والمهم أن كل ذلك يسمح بوضعهم فى عائلة لغوية واحدة (مابين السامية والحامية) وليست عرقية (٩٦) .

أما عن لغتهم فهى قريبة من المصرية القديمة وكذلك الحبشية (الأمهرية). ولهم نوع من الكتابة لم يتم الكشف عنه ، وإن وجدت بقاياه لدى الطوارق الصحراويين

---

(٩٤) وصف إفريقية للحسن الوزان ، ص٤٤، وانظر أيضا ص١٠٧-حيث حاحة اسم لقبيلة (ايحاحان) أصبح يعبر عن المنطقة الغربية من مراكش، التى تنتهى غربا بجبال أطلس، وشرقاً عند نهر اسيف أتينوال (نهر الأكواخ بالبربرية).

(٩٥) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص٦٤.

(٩٦) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص١٤-حيث النص على أنهم حفدة الليبيين الذين غزوا مصر في القرن الـ١٤-١٣ق.م، وأن بقاياهم موجودة في عمائرهم الجنائزية، وفى النقش على الصخور، وعلى الأشياء المنقولة.

فى مراكش (٩٧).

توزيع قبائل البربر فى المغرب الاقصى ، وقبائل مصمودة : على عهد الموحدين :

مثلما يعتبر البكرى المصدر الجغرافى الرئيسى ، والمعاصر لدولة المرابطين الصنهاجية الصحراوية ، مطلع النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى / ١١ م ، يعتبر الادريسى المصدر الجغرافى المعاصر لدولة الموحدين المصمودية فى منتصف القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، ويتلوه فى نهاية هذا القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م كتاب الاستبصار الذى ربما كان مؤلفه أحد كتاب الدولة الموحدية ، الأمر الذى يؤصل معلوماته تأصيلاً أكيداً، وإلى جانبهما يقف على نفس المستوى من المعاصرة كتاب البيدق فى أخبار المهدى محمد بن تومرت . فعلى هذه الكتب يكون الاعتماد - المطمئن - فى رسم الخريطة السكانية للبلاد المراكشية فى عصر نشأة وعظمة الدولة الموحدية ، وتكون كتب المتأخرين من الجغرافيين والمؤرخين بمثابة المصادر المساعدة.

ومن المهم هنا البدء بالاشارة إلى حصانة موقع حصن أو قرية تاغللت (تنمل ، تنملل) التى اتخذها محمد بن تومرت مقراً له فى بداية دعوته . فالادريسى يصف تنمل «بالحصن المنيع ، القليل مثله فى حصون الأرض : بنية وتحصينا ومنعة» .

---

(٩٧) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص١٤، ولمزيد من التفصيلات فى البحث الحديث، انظرص٤٩-حيث تقسيم البربرية المعاصرة إلى ٣(ثلاث) مجموعات لغوية، وهى :١-المجموعة الريفية (زناتية الأصل)، ٢-مجموعة البرابرة (صنهاجية الأصل، فى أطلس الوسطى والغربية)، ٣-مجموعة الشلوح : لغة الحضر المدنيين وخاصة في أطلس العليا والوسطي والغربية والسوس والواحات. والمسافات تقترب وتبتعد بين هذه اللهجات، كما تظهر بين الحين والآخر بعض الكتابات البربرية مكتوبة بالخط العربى، كما فى كتاب الوسيانى عن إباضية تاهرت، انظر للمؤلف ج١ (ط ٢٠٠٠) ص ٤٨ - ٤٩ وما بعدها. أما عن الكتابة البربرية عند الطوارق والتى تعرف بالتيفيناغ، انظر ج٤ص١٣٠ وما بعدها.

وأنه «من حصانته وثقافة مكانة أن ٤ (أربعة) رجال (فقط) يمسكونه ، ويمنعون الصعود إليه ، لأن الصعود إليه على مكان صعب ، وعر المرتقى ، لأنه يشبه البرج الحرج» . و«لاترتقى إليه دابة البتة إلا بعد جهد ومشقة» . «وهو كان عمدة المصمودى : محمد بن تومرت، حين ظهر بالمغرب» (٩٨). وإذا كانت منعة تاغللت وغيرها من حصون جبل درن العديدة ، وقراه المنعية ، تصبح قرينة على أن المصامدة سكان المنطقة يمثلون أنقى عناصر البربر ، الذين حافظوا على سماتهم البشرية (ماسبق، ص٦٩) والروحية التي تتفق مع طبيعة البيئة (مايأتى، ص ٧٨ ، ١٦٦).

وأغلب الظن أن المكان البعيد المنال هو الذى ساعد على ظهور مقولة ان المهدى بن تومرت أصيل من الشرفاء العرب المنسبين ، الذين فروا أمام البربر الذين كانوا يطلبونهم فى حروب الفتوح ، ولاذوا بهذا الملجأ الحصين حيث تبربروا مع مرور الوقت فى الموقع الأنعزالى البعيد (٩٩) .

وهكذا يقسم الادريسى البربر إلى طائفتين ، هما : البرابرة (بمعنى البربر الخلص) والمتبربرين بالتأثير والجوار ، تماما كما يقسم النسابة والمؤرخون قبائل العرب إلى جماعتين كبيرتين ، هما : العرب العاربة (الأصلاء) والعرب المستعربة (الذين اتخذوا العربية لغة لهم) ، وبعد ذلك يمكن أن تنقسم كل من الطائفتين من حيث النقاء العرقى إلى أصيل (بربر أو برابر دون توصيف) ، ومختلط (والجمع أخلاط).

---

(٩٨) نزهة المشتاق، ج١ص٢٢٩-٢٣٠.

(٩٩) انظرالاستبصار، ص٢١١-حيث النص على انه فى جبل درن كثير من قبائل المصامدة الذين يقال إنهم من العرب، قد دخلوا تلك البلاد، وسكنوا بتلك الشعاب فى الفتنة الواقعة عند هزيمة ميسرة التى تسمى غزوة الأشراف. وكان البربر يطلبون العرب فتوغلوا فى تلك الجبال وتناسلوا، فهم أهلها على الحقيقة لأنهم أحيوها- مع ذكر حديث : "من أحيا أرضا ميتة فهى له".



توزيع قبائل مصمودة في مطلع القرن ٦ هـ / ١٢ م

(عن تراس وباست)

وإلى جانب البربر كان هناك اليهود الذين عاشوا فى البلاد منذ العهود القديمة ، ثم العرب الخلص من القادمين الجدد من الهلالية - الذين دخلوا الأقاليم الشرقية من المغرب على أيام الزيريين (ج٤)، والذين بدأوا يدخلون المغرب الأقصى ، وكذلك الأندلس على أيدى خلفاء الموحدين.

وهكذا يمكن رسم خريطة إقليمية عرقية لسكان البلاد المراكشية على الوجه التالى:

أهل الريف :

فى الشمال ، فى منطقة جبال الريف ، عاشت قبائل غمارة التى تعتبر من فروع مصمودة (١٠٠) . وهم أمم لاتحصى ، عرفت العصيان على الولاة بسبب حصونها المنيعة فى الجبال (١٠١) .

تامسنا وساحل الأطلنطى :

أما عن منطقة تامسنا المعروفة بالشاوية (نسبة إلى رعى الشاة)-والتى يصنف أهلها ضمن المصامدة مثل غمارة الريف - فقد كان أهلها على عهد الأدارسة ، كما يقول الادريسى عن منطقة قرية أم الربيع ، أخلاطا من البربر ، وقبائل شتى مفترقة ، من : رهونة ، وبعض زناتة من بنى يجطش ، وتامسنا (وهو اسم المنطقة ويقصد بها جمهرة أهلها على أيام المرابطين والموحدين ، الذى ينتسبون إلى مصمودة

---

(١٠٠) ابن خلدون، ج٦ص ،وانظر ديفيردان، مراكش، ص٢٨، حيث تقسيم مصمودة إلى ٣ فروع، هى غماره فى الريف، وبرغواطة وتامسنا، بينما المصامدة الخلص فى الوسط من وادى سبو إلى أم الربيع.

(١٠١) الاستبصار، ص١٩٠، وقارن الحسن الوزان، ص٣١٢-حيث موضعهم فى القرن ال١٦م/ ١٠هـ جبال الهبط، ص ٣٧٠-حيث النص على أنهم (فى جبال غمارة) خليط يعرفون بالجبّالة أى أهل الجبل .

مراكش) ، ومطماطة ، وبنو تسلت ، وبنو او بقران ، وزقارة ، وينص الادريسي على أن هذه القبائل المختلفة منتشرة على طول ساحل الأطلنطى ، فى اتجاه الجنوب من سلا حتى مرسى فضالة (شمال الدار البيضاء). على امتداد ٣ (ثلاث مراحل) (١٠٢). وهي تستمر جنوبا من ذلك.

وفى ساحل آسفي وحتى مرسى الغبط ، وجدت عمارات وبشر كثير من البربر المسلمين ، من: رجراجة ، وزودة ، وأخلاط من البربر (١٠٣) . والذى يلاحظ هنا هو تقسيم البربر فى تلك المنطقة من شواطئ الأطلنطيي الجنوبية إلى مسلمين وأخلاط ، الأمر الذى قد يشكك فى موقف الأخلاط من الثقافة الإسلامية ؟ وفى الجنوب من ذلك يتصل مرسي الغبط بأرض قبائل البربر من دكالة (١٠٤).

والمنطقة جميعا ، كما في تطن وقرى ، على بعد يومين من سلا ، وكما فى داى على بعد مرحلة من كل من مدينة داى ومدينة تادلة ، يسكنها خليط من البرابر ، من : بنى وليهم ، وبنى يزكون ، ومنداسة ، إلى جانب قوم من صنهاجة كانوا يسكنون بجبل داى (١٠٥)

وقبلى تادلة كانت تسكن قبائل من زناتة ، من : بنى سمجون ، وبنى عجلان ، وبنى نتكدلت ، وبنى عبد الله ، وبنى موسى ، وبنى ماورى ، وتكلمان ، وأريلوشن، وأنتقفاكن ثم بنى سامرى (١٠٦).

أهل مكناسة :

وتسمى تاقررت ، وحولها مواضع بنى زياد ، وبنى تاورة ، وبنى عطوش . وعلى أسفل منازل بنى عطوش ، وعلى مجرى الماء الآتى منها ، تقع منازل قبيلة

(١٠٢) نزهة المشتاق، ص٢٣٦-٢٣٧ .

(١٠٣) نزهة المشتاق، ص٢٤٠-٢٤١ .

(١٠٤) نزهة المشتاق، ص٢٤١ .

(١٠٥) نزهة المشتاق ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(١٠٦) نزهة المشتاق ، ص ٢٤٣ .

مكناسة (نسبة الي جدهم مكناس البربري). وإذا كان الادريسي ينص على أن قبيلة مكناس هذه تعرف باسم بني برنوس ، فإن ذلك لايعنى أنهم من بربر البرانس الحضر أصلا - على مانرى (١٠٧)

والادريسى ، يعدد من قبائل بنى مكناس المجاورة ، فى ظواهر المدنية:

بنى سعيد ، وبني يسيل ، ومغيلة ، وبنى مصمود ، وبنى على ، وورياغل ، ودمّر ، وأرية ، وصبغاوة ، ويصفهم بأنهم برابر بمعنى مغاربة أصليين (١٠٨).

والذى يسترعى الانتباه هنا هو وجود جماعات مكناسية تحمل اسماء : سعيد وعلي ومصمود ، الأمر الذى يشكك فى نقاء عروق تلك الجماعات ، وفى وقوعها تحت تأثيرات عربية أو بربرية مخالفة.

والذي يثير الانتباه فوق ذلك ، هو أن صاحب كتاب الاستبصار ، يؤكد بعد حوالى ٤٠ (أربعين) سنة معلومات الادريسي ، وإنْ ظهرت منطقة مكناسة أكثر تنظيما ، إذ حدد عدد المواطن التى ترقى إلى مستوى البلدة أو المدينة ، والتى لها مسجدها الكبير (الجامع) الذى تقام فيه الخطبة لصلاة الجمعة بتسع مدن أو بلدات، تسمى الواحدة منها «خطبة» (أي منبر) . والخطب التسع فى : مكناسة الزيتون، التى كانت تتبع نظر مدينة فاس فى سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م وهى :

١- الحصن (القصبة : مقر الحكومة أو الإدارة).

٢- مدينة السوق القديمة .

٣- تاورا .

٤- أولاد عطوش.

---

(١٠٧) نزهة المشتاق، ص٢٤٥-وعن البرانس الحضر البدو انظر ج١ ص ٨١ .

(١٠٨) نزهة المشتاق، ص٢٤٥-٢٤٦ .

٥- أولاد برنوس .

٦- بنو موسى .

٧- بنو زياد.

٨- بنو ورزيغة.

٩- بنو مروان (١٠٩)

أهل فاس :

ومدينة فاس ، قطب ، ومدار لمدن المغرب الأقصى ، فى ذروة العصر الموحدى ، كان يسكن حولها قبائل من البرابرة ، ولكنهم كانوا يتكلمون العربية (فهم مستعربة المغرب) وهم : بنويوسف ، وفندلاوة ، وبهلول ، وزواوة ، ومجاصة ، وغياثة وسلالمون (١١٠) . ومع أن الادريسي لايذكر نسبتهم إلى أحد شعوب المغرب الكبرى من : البرانس أو البتر أو زناتة أو صنهاجة ، فأغلب الظن أنهم أصلا من نفس العرق المكناسى الزناتى ، الذى ينتسب إلى عرب القيسية أو المضرية . فهم أقرب إلى البتر أى إلى عرب الشمال منهم إلى البرانس الذين ينتسبون إلى عرب اليمن الجنوبية (١١١).

---

(١٠٩) الاستبصار، ص١٨٧-١٨٨، وقارن الحسن الوزان قرن، ١٠هـ/١٦م-حيث تقسيم فاس إلى ٧ مناطق هي :١-تامسنا، ٢-فاس، ٣-ازغار، ٤-الهبط، ٥-الريف، ٦-حارث، ٧-الحوز.

(١١٠) نزهة المشتاق ، ص ،٢٤٦ .

(١١١) انظر ج١ للمؤلف (ط ٢٠٠٠) ص ٩٢ - ٩٣ -حيث قائمة قبائل البربرحسب ترتيب ابن خلدون، وانظر الحسن الوزان، الترجمة، ص٣٨-حيث أقسام مملكة فاس، أى المناطق الـ٧ (سبعة)، السابق ذكرها فى ص ٦٨ .

بلاد المصامــدة :

أهل حوز مراكش والسوس :

حوز مراكش والأقاليم المجاورة هى بلاد المصامدة بالامتياز ، فهى قلب بلاد المغرب (١١٢) ، وكذلك الأمر بالنسبة لبلاد السوس التي نسب إليها محمد بن تومرت ، مهدى الموحدين ، الذى اشتهر فى المشرق باسم « الفقيه السوسى » (١١٣).

أهــل دكالـــة :

واقليم دكّالة المتاخم لمرسى ماست حيث مصب نهر السوس ، وإلى تارودانت مدينة السوس ، كان يسكنه قوم من المصاميد (١١٤) . هذا وان عرف سكان تارودانت والسوس فى موضع آخر عند الادريسي ، بانهم أخلاط من البرابرة (١١٥) بمعنى أنهم عروق ليست نقية ، وهو الأمر المقبول بسبب اختلاطهم بغيرهم

---

(١١٢) انظرريكار، مراكش، ص١٤٢-حيث حوز مراكش محدود من الشمال بالمجرى الأوسط لأم الربيع، وشرقا بمساند أطلس الوسطى، وجنوبا بمسفرح أطلس العليا، وغربا بدكالة وعبدة ومشياديه حاجة. أما عن إقليم قبيل حاجة فهى منطقة الساحل الشمالى من موجادور إلى أغادير، وهى بالبربرية ايحاحانه (ريكار - مراكش، ص٢١٢) .

(١١٣) انظرالبيدق، الجزائر سنة ١٩٨٦ ، ص ٣٣ ، ٣٤ (كما عرفه عبد المؤمن الشاب في بلاد الجزائر). وعن بلاد السوس، وأهلها البربر عرقا ولغة فانظر ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص٢٠٥-حيث لم يبدأ اختلاطهم بالدم العربي إلا منذ القرن ١٣م،١٤م. وعن السوس الحالية فإنها تنقسم إلى ٤ مناطق،هى :١-رأس الوادى، البلاد العليا (من أولوز إلى تارودانت)، ٢-هوارة وهم فرسان، ٣-شتوكا :جنوب الوادى الأسفل (وهم فقراء)، ٤-أزاغار(سهل تيزنيت).

(١١٤) نزهة المشتاق، ص٢٤١-حيث صيغة المصاميد ربما كانت جمع الجمع "للمصامدة"، ومفردها مصمودة.

(١١٥) نزهة المشتاق، ص٢٢٨ .

من قبائل البربر ، عن طريق الصلات الحربية والحضارية مع أهل الصحراء بل والسودان.

أهـــل الســـوس :

ومن إقليم السوس إلى أغمات كانت بلاد المصامدة تمتد على طول ٦ (ست) مراحل ، وأشهر قبائلهم فى تلك المنطقة ، عند الادريسي ، هى انتى نتان (وهى الصيغة البربرية الأصلية لاسم هنتاتة الشائع عند الكتاب ، كما نرى) ، وبنوواسنوا، وانكطوطاون ، وانسطيط ، وأرعى ، والنفيس ثم وانتوركيت، وإلى جانب تلك القبائل التى كانت تعمر تلك الجهات فى منتصف القرن الـ ٦ هـ / ١٢م، يذكر أيضا ضمن قبائل المصامدة قبائل منطقة نفيس الجبل (١١٦). وتحديد نفيس الجبل هنا يعنى أن مصامدة منطقة نفيس ينقسمون الي جماعتين :

أهل الجبل هؤلاء وهم بمثابة نفيس الضواحى أو الظواهر ، بالنسبة لأهل المدينة الذين يعتبرون : نفيس الحضر . وبطبيعة الحال يكون أهل الظواهر أقل نقاء فى «مصموديتهم» من الحضر ، لتعرضهم للتلاحم مع العروق الخارجية البعيدة عن المركز بسبب الحاجات الاقتصادية أو ما تمليه التحالفات السياسية – الاجتماعية.

أهل أغمات :

وهكذا كان أهل أغمات من البربر المتبربرين بالمجاورة ، وربما كان ذلك نتيجة اشتغال أهل أغمات بالتجارة التى عرفوا بها ، وخاصة مع بلاد السودان (١١٧) ومدينة أغمات تقع على ٢٤ ك. م شمال مراكش (١١٨). وهي التى توصف بأغمات وريكة ، نسبة الي رافد تنسيفت الذى يخترقها من الجنوب إلى الشمال . وهى تعرف أيضا بأغمات الجبل تمييزا لها عن «أغمات ايلان» أو «أغمات ان

---

(١١٦) نزهة المشتاق، ج١ص٢٢٩ .

(١١٧) نزهة المشتاق، ص٢٣٢ .

(١١٨) الحسن الوزان، ص١٥٨ ، وانظر الإدريسي، ص٢٣٢ وما بعدها .

وايلان» حسبما ينص البيدق (١١٩) أو أغمات هيلانه (١٢٠) ، وهي مدينة السهل أو أسفل جبل درن (١٢١) . وهي تقع شرق أغمات وريكة على بعد ٨ (ثمانية) أميال (١٢٢).

وهذه المدينة عرفت بمدنية اليهود ، لقربها من العاصمة مراكش التي لم يسمح لليهود بسكناها على عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، فكانت أغمات هيلانة مأوى لهم يمكنهم من ممارسة نشاطاتهم التجارية عن قرب مع العاصمة مراكش . وبفضل هذه النشاط الاقتصادي أصبحت أغمات إحدى عاصمتي حوز مراكش ، إلى جانب العاصمة الثانية نفيس (١٢٣) . وهذا لايعني أن أغمات هيلانة كانت مدينة اليهود ، وذلك أن قبائل من مصامدة أغمات وريكة كانوا يسكنون غربي هيلانة وشرقها (١٢٤) .

سكان مراكش :

أما عن مدينة مراكش ، فكان يسكن في قبلتها من قبائل البربر : ايلان (من المصاميد) ، وحولها ، من القبائل : نفيس ، وبنويدفر ، ودكالة ، ورجراجة ، وزودة، وهسكورة ، وهزرجة ، من بربر مصمودة (١٢٥).

---

(١١٩) اخبار المهدي ابن تومرت، ص٤٩ .

(١٢٠) ديفيردان،ص٤٣ .

(١٢١) الحسن الوزان ، ص ١٥٨ .

(١٢٢) الاستبصار، ص٢٠٧ .

(١٢٣) ديفيردان، مراكش، ص٣ .

(١٢٤) نزهة المشتاق، ص٢٣٢ (عن أغمات) وص٢٣٥(عن اغمات ايلان).

(١٢٥) نزهة المشتاق، ص٢٣٦، وقارن الحسن الوزان (قرن١٦م/ ١٠هـ)،ص٣٨-حيث تقسيم مملكة مراكش إلى٧(سبع) مناطق، هي :حاحة، والسوس، ومراكش، وجزولة، ودكالة، وهسكورة، وتادلة، وانظر أيضا ص٤٤-حيث توزيع المصامدة في ٤ أقاليم، هي :حاحة، والسوس، وجزولة ثم منطقة مراكش-الأمر الذي يعني تجميع معلومات من فترات تاريخية مختلفة، أو من مصادر مختلفة.

أما عن مدينة نفيس التى خلدت ذكرى القبائل التى حملت هذا الاسم ، والتى ربما كان موضعها هو مكان رباط شيكر ، الذى ينسب بناؤه إلى عقبة بن نافع (١٢٦) ، فإنها كانت نداً لأغمات وريكة بصفتها العاصمة الثانية لحوز مراكش.

فكأن حوز مراكش كان له دائرتان يدور على قطبيهما ، هما : أغمات على رافد تنسيفت ، ونفيس على رافد السوس النفيس . وهكذا تكون مراكش قد ربطت بين واديى المغرب الأقصى الشريين ، ويكون على أكتاف رجالهما قيام كل من دولة صنهاجة المرابطية ، ومن بعدها دولة مصمودة الموحدية . والمهم في المسألة العرقية هذه ، أن دولة مصمودة كانت الوريثة الشرعية لدولة صنهاجة فى نفس مراكش وحوزها . وأن الدولتين عملتا فى نهاية الأمر على تجميع كل قبائل المغرب على مختلف عروقها تحت الرايات المرابطية والموحدية ، فكانت المجازات كل من الدولتين فى آخر الأمر نتاج بلاد المغرب لحما ودما.

الثروات الزاعية :

بعد عرض المسرح النباتى الطبيعى الذى يتميز بغناه وتنوعه فى المناطق الجبلية العالية فى البلاد المراكشية ، والذى يتدرج من النمط شبه الصحرواى ، حيث القليل من الأشجار الشوكية ، إلى الجاف حيث أعشاب الحلفا وأعشاب السافانا ، وشجر الهرجان الذى يستخرج منه زيت الطعام والطبى فى نفس الوقت ، إلى النمط الأطلنطى الضعيف المطر حيث الغابة الخفيفة والأشجار الجافة ، إلى النمط المطير حيث التشجير الكثيف والنباتات العطرية ، إلى النمط الجبلى المطير جداً ، حيث الغابة الكثيفة المتدرجة ، وأشجار خشب القطع الضخمة ثم النمط البارد فى أعلى الجبل الشاهق حيث أعشاب المناطق الباردة المتغيرة الشكل (ماسبق ، ص ٥١ -

---

(١٢٦) ديفردان، مراكش، ص٣٩، ص٤١، حيث موضع نفيس عند خرائب زاوية الشّرادى على التقاء وادى نفيس ووادى تنسيفت. أما عن الذى حدد موضعها بوادى شيكر (شاكر) على بعد ٦٠ ك.م من مراكش، فهو سيدى عبد الحى الكتانى : الشريف الإدريسى.

٥٢)، نعرض الآن للمسرح الزراعى أى النباتى الاصطناعى الناتج من الجهد الانساني. ويكون ذلك بطبيعة الحال فى الأراضى الخصبة ، الصالحة للاستزراع ، وإن كان لمظاهر البيئة المختلفة من : الارتفاع والحرارة والرطوبة آثارها - بطبيعة الحال - في توجيه نوعية الزراعة بحيث تنسق مع واقع البيئة . ولما كنا بصدد تاريخ الموحدين ، فسيكون عرض موضوع الزراعة فى المغرب ، عرضا تاريخيا ، نرجع فيه إلى المصادر المعاصرة ، من نزهة الادريسى ، وكتاب الاستبصار، مع محاولة الاستفادة من وصف افريقية للحسن الوزان (ليون الافريقى)، وكذلك أعمال الجغرافيين المحدثين - فكأن الهدف التاريخى هو خدمة الحاضر.

ونحن هنا نسترشد بالوزان فى وصف افريقية ، فى تقسيم بلاد المغرب المراكشية إلى قسمين: شرقى ويشتمل على بلاد الريف (غمارة) التى تعنى البلاد الساحلية المتوسطية مع مايتاخمها من إقليم تامسنا (برغواطة) غربا، وما يلحق بها جنوبا من تازا ومكناس وفاس، وهى تاريخيا بلاد السوس الأدنى (ج١ص٧٨ ، هـ٤٥)، والآخر غربى، وهو مايمثل البلاد المراكشية، قلب المغرب، وما يلحق بها من بلاد السوس الأقصى. وهذا التقسيم يتفق مع أصول الجغرافية الطبيعية التى تجعل سلاسل جبال أطلس تشطرالبلاد المراكشية إلى نصفين، أحدهما شرقى مركزه فاس، ويرتبط بإقليم وهران، والآخر غربى ومركزه هضبة مراكش ويتجه نحو المحيط جنوبا بغرب. وهذا الأمر هو الذى كان له صداه فى الجغرافية العربية التى أطلقت على الإقليم الشرقى اسم «السوس الأدنى»، وخصت الاقليم الغربى باسم «السوس الأقصى» (١٢٧).

بلاد الريف : غمارة ، والسوس الأدنى : مكناس وتازا وفاس:

بلاد الريف (غمارة) :

بلاد الريف تعنى بلاد الزرع والضرع الخيرة ، وهى التسمية التى تطلق على

---

(١٢٧) ج١ أنظر للمؤلف : الجزء الأول من تاريخ المغرب العربي (ط ٢٠٠٠) ، ص٧٨ و الهوامش.

المنطقة الشمالية المتوسطية ، والتى تبدأ بمنطقة جبل طارق (أعمدة هرقل القديمة) حيث سبتة وطنجة . وهذه التسمية تعتبر مصطلحاً حديثاً نسبياً ، فهو إذا كان يظهر عند الحسن الوزان (قرن ١٦م / ١٠ هـ) بمعنى الإقليم الممتد من أعمدة هرقل شرقاً حتى نهر النكور ، لمسافة حوالى ١٤٠ ميلا ، ومن الشمال حيث البحر المتوسط إلى الجنوب حيث جبال نهر الورغة (رافد سبو) (١٢٨)، فإن الادريسى ، وصاحب الاستبصار لايعرفان اسما لمنطقة الشمال المراكشى المتوسطية هذه ، إلا «جبل غمارة» بمعنى سلسلة جبال درن (أطلس) أو بالأحرى سفوح تلك الجبال الواطئة ، وما يتخللها من سهول وهضاب.

ويفهم من رواية الإدريسى ، أن المقصود بجبل غمارة ليس كل سلسلة الساحل الشمالى ، بل القسم الأوسط منها ، على طول ٣ (ثلاثة) أيام (حوالى ١٠٠ ك.م) ، وذلك على ساحل البحر ابتداء من مرسي انزلان (أول بلاد غمارة (١٢٩). أما آخر بلاد غمارة فهى مدينة بادس التى كان يلجأ إليها الغماريون فى حوائجهم. أما من ناحية الجنوب فكان الجبل يمتد إلى مسافة ٤ (أربعة) أميال من مدينة تودا ، كما يمتد فى البرية إلى قرب مدينة فاس (١٣٠) والإدريس يصف بلاد غمارة بكثرة الخصب بمعنى كثرة الخير من الزرع والحيوان الداجن (١٣١).

---

(١٢٨) الحسن الوزان، ٣٢٦.

(١٢٩) نزهة المشتاق، ص٥٣٢.

(١٣٠) نزهة المشتاق، ص٥٣٢-٥٣٣.

(١٣١) نزهة المشتاق، ص٥٣٢، وقارن الاستبصار الذى يكتفى بمثل هذا، فيقول إن جبل غمارة "بسائط للحرث" إلى جانب آثار الأوائل التى تبين ان عمارته قديمة...أزلية، وانظر الحسن الوزان (قرن ١٦م/١٠هـ)، ص٣٢٦-حيث الإشارة إلى غابات التين والبرتقال، إلى جانب شرب الخمر، بمعنى العناية بالكرمة وانتاج العنب. وعن نجاح العناية حديثا بانتاج العنب، انظر، ريكار، مراكش، الدليل الأزرق، ص٨-حيث تقرير ان الكرمة المحلية تعادل الواحدة منها فى الانتاج، شجرة فاكهة.

سبتة وطنجة :

وتعتبر منطقة جبل طارق ، حيث سبتة وطنجة ، اللتان تمثلان منطقة المجاز أوالعدوة ، هى المنطقة الحيوية بالنسبة لتاريخ المغرب والأندلس على مرّ العصور.

وسبتة شبه جزيرة يحيط بها البحر من الشرق والشمال (الجوف) والجنوب (القبلة) . وفى آخر المدينة بشرقها جبل كبير يسمى جبل الميناء ، تحيط به منطقة أعشاب وأشجار كثيفة ، من نوع غابة المتوسط الخفيفة التى يمكن أن تعيش فيها القردة ، كما هو الحال فى جبل قرية بليونش القريبة ، والتى كانت تمير سبتة بالماء ، عن طريق قناة تحت الأرض (١٣٢).

أما عن طنجة التى تندفع كشبه جزيرة نحو الأندلس ، فقد كانت المياه تأتى إليها فى سيل عظيم جعل من النحر فى صخور الجبال نهرا ، ومن المصب مرفأ للسفن (١٣٣) . وهكذا هيأت المنطقة لنمو الأعشاب والأشجار ، كما فى سبتة ، وكما سمحت بالزراعة . وبالقرب من طنجة كانت منطقة قلعة ابن جندوب ، لها جنات وأشجار كثيرة الزرع والضرع (١٣٤).

تامَسْنَا :

أما عن تامسنا (بلاد برغواطة) المتاخمة لطنجة فى اتجاه الجنوب والغرب فهى أشبه بهضبة الميزيتا الأيبيرية ، ولذلك أشتهرت بأعشابها وقطعان أغنامها حتى

---

(١٣٢) الاستبصار، ص١٣٧-١٣٨،وانظر حسن الوزان، ص٣١٧، حيث اسم سبتة عند الرومان سيفيتياس، وأنها كانت عاصمة موريتانيا المتحضرة جدا، وانظر أيضا هـ ٣٥٣-حيث الكتلة الجبلية المجاورة (جبل المينا) كانت تسمى سبتم فراتريس (الإخوة السبعة).

(١٣٣) الاستبصار، ص١٣٨ .

(١٣٤) الاستبصار، ص١٩٠ .

عرفت أخيراً باسم الشاوية (١٣٥).

والمهم أن منطقة المراعى فى تامسنا كانت أيضا أرضا زراعية من الطراز الأول. ففى قرية أم الربيع التى أعطت اسمها للوادى الذى يحمل نفس الاسم ، كانت تجود فيها الحنطة ، التى كانت من الكثرة بحيث تباع بأرخص الأثمان ، إلى جانب منتجات الألبان الوافرة . هذا كما كانت تجود فى تامسنا زراعات البقول والقطانى والقطن والكمون ، وذلك فى المناطق الجنوبية (١٣٦) .

ومثل هذا يقال عن مدينة تطن والقرى الصغيرة والمتحضرة ، والتى كانت تفخر بخصبها الكثير . وحول أم الربيع كانت القرى الأخرى ، مثل انقال ، تزهو بزروعها ومواشيها وأغنامها (١٣٧).

أما عن سلا القريبة من الرباط ، على مصب نهر أبى الرقراق (بورجرج)، فأهلها يجمعون مابين الزراعة وتربية الماشية ، إلى جانب ما فى منطقتها من الكروم والغلات والبساتين والحدائق . هذا ، كما يفهم من التبادل التجارى بين اشبيلية وسلا ، أن الاخيرة كانت بمثابة ميناء تصدير قمح أهراء تامسنا ، إلى جانب زهوها بكرومها وفواكهها. فقد كان «أهل أشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير ، وهو بضاعتهم ، ويتجهزون منها بالطعام (القمح) إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية».

هذا ، كما كان يشارك سلا فى التصدير ، مرسى فضالة . فقد كانت المراكب

---

(١٣٥) انظر ابن خلدون، المقدمة (ط. التجارية ص ١٤٢) - حيث الشاوية من الزناتية : رعاة الشاة. وعن تسمية تامسنا بهضبة الميزيتا، انظر ما سبق، ص ٦٣ ، وقارن الإدريسي، نزهة المشتاق (ص٢٣٦-٢٣٧) حيث النص على أن قبائل تامسنا أصحاب حرث (زراعة) ومواشى (مراعي) وجمال (أعشاب شبه صحراوية).

(١٣٦) انظر، نزهة المشتاق، ص٢٣٧-حيث الإشارة إلى المسرح النباتى الطبيعى لمنطقة القرية، وذلك عبر النهر فى جانب السفح الأكثر ارتفاعا، حيث غيضة كبيرة من الطرفاء، والأنشام، وكثير العليق، وهى : غابة كبيرة ملتفة، بها الأسد كثير، الذى ربما أضر بالمارة.

(١٣٧) نزهة المشتاق، ص٢٣٧.

الاندلسية تحمل منه أوساق الطعام ، من : الحنطة والشعير والفول والحمص . ومثل هذا يقال عن ميناء آنفا(١٣٨).

وقصر عبد الكريم - على بعد مرحلتين (٧٠ ك.م) من سلا - كان مدينة صغيرة يجرى جنوبها وادى أولكس ، من أنهار المغرب المشهورة ، وتوصف بأنها ذات مزارع وخصب (١٣٩) . ومدينة تاودا الاستراتيجية ، بالنسبة لمن يريد السيطرة على جبل غمارة ، فتقع على وادي ورغة - رافد سبو - في قطر واسع ، كثير الزرع والضرع.

تـــازا :

منطقة تازا هى المنخفض أو المعبر التاريخى بين جبال أطلس ، الذى يعتبر طريق التجارة والغزوات بين المشرق والمغرب عبر الشمال الافريقى . وعلي عهد الموحدين بنيت ببلاد تازا مدينة استراتيجية فى المنطقة عرفت باسم «رباط تازا». ووضع المدينة فى سفح الجبل ، مشرفة على بسائطه ، يدل على سمتها العسكرية فعلاً.

والمهم أن الموضع المنخفض ، تحت سطح السفح كان يسمح للمياه بالنزول على المدينة ، فى شكل جداول من المياه النقية العذبة . ويصف صاحب كتاب الاستبصار تلك المياه قائلا «إنها تنصب إليهم من الجبال ، لا أعلم ببلاد المشرق والمغرب بلداً أخصب منها ، ولا أكثر فوائد» (١٤٠).

---

(١٣٨) نزهة المشتاق، ص٢٤٠ .

(١٣٩) نزهة المشتاق، ص٢٤٦، وقارن الاستبصار، ص١٨٩-١٩٠-حيث تعرف المدينة أيضا بقصر كتامة .

(١٤٠) الاستبصار، ص١٨٦-حيث النص أيضا على أن مدينة الرباط (رباط تازا) تسمى أيضا مكناسة تازا. وقارن الحسن الوزان، ص٣٥٧- ٣٦-حيث تازا على عهده (قرن ١٦م/ ١٠ه) مدينة كبيرة، فى موقع جغرافى جيد. فهى تقع على بعد ٥ (خمسة) أيام من الأطلس (من حيث تدفق المياه)، وعلى بعد ٢٥ ميلا من المحيط، و ٧١سبعين) ميلا من البحر المتوسط. أما النص على انه يمر بها نهر من الأطلس (درن) يخترق المدينه والجامع الكبير فهو يعنى قيام زراعة، وإن كانت محدودة والحقيقة أن الوزان لا يذكر إلا أن بتازا "كروم العنب الأسود الذي لا يصنع منه خمر».

مكناسة (الزيتون)

ويفهم من الادريسي أن مكناسة ليست مدينة واحدة محدودة الموقع ، انما هي مجموعة مساكن أو مواطن قبائل مكناسة المختلفة (ما سبق ، ص٧٢) ، وان مركز هذه «المدائن» هو المدينة التي تسمى «تاقررت» (١٤١). فكأن الأخيرة هي مدينة مكناسة حقيقة دون غيرها من المدائن . ويلاحظ الادريسي أن تاقررت ظلت «باقية على حالها لم يدركها كبير تغيير» ، بمعنى عدم تطور نظم الحكم والادارة والاقتصاد في المنطقة التي ظلت ذات طابع ريفي . والمدينة التي كانت تقع على ربوة ، يجري في شرقها نهر صغير ، عليه أرحاء ، بمعنى ان المنطقة كانت منتجة للقمح والشعير ، وهو ما يؤكده النص على أنه «يتصل بها عمارات وجنات وزروع» (١٤٢) . فعلى عهد المرابطين كان موضع بني زياد ، على بعد ١/٤ (ربع) ميل من تاقررت ، يأتي في الأهمية بعد المدينة المركزية مباشرة . أما موضع تاورة فكان على مستوى «مدينة متحضرة جامعة ،عامرة أسواقها كثيرة». وكان «الماء يأتيها من جنوبها من نهر كبير ... يخترق جميع أزقتها وشوارعها وأكثر دورها» - الأمر الذي يذكر بنظام الماء في مدينة فاس.

وتظهر مواطن «بني عطوش» أيضا كأحد بلاد مكناسة الغنية ، فهي : ديار متصلة وعمارات ، وأشجار وغلات زيتون وتين ، وأعناب وفواكه (١٤٣) . والحقيقة أن مواطن قبيلة مكناسة (الرئيسية) التي عرفت «ببني برنوس» كانت أسفل منازل بني عطوش ، وعلى نفس مجري الماء الآتي من هناك و«هي منازل وديار بها مزارع وعمارات وكروم وشجر زيتون كثيرة ، والفواكه بها رخيصة».

هذا عن قبائل مكناسة الحضر ، أما عن قبائل الظواهر أو الأحياء المجاورة ،

---

(١٤١) نزهة المشتاق، ص٢٢٤ .

(١٤٢) نزهة المشتاق ، ص ٢٢٤ .

(١٤٣) نزهة المشتاق، ص٢٤٤-٢٤٥ .

فكان أشهرها موضع قبيلة صيغاوة ، إذ «هى من أخصب البقاع أرضا وأنماها زرعا، وأكثرها خيراً (١٤٤) .

ولا بأس أن يكون ازدهار مدائن مكناسة كان على حساب مدينة مغيلة الواقعة فى الطريق من مدينة فاس إلى مكناس . فالادريسى ينص على أنها «كانت قبل هذا الوقت متحضرة ... في فحص أفيح كثير الأعشاب والخضر والنواوير والأشجار والثمار ، وهي الآن ، فيها : بقايا عمارات خرابات متصلة» ، وأن كانت المياه تخترق كل جانب فيها (١٤٥).

ويؤكد هذا الافتراض ، وصف كتاب الاستبصار لمكناسة بعد مالايزيد عن ٣٠ (ثلاثين) سنة ، حيث يقرر تطور «مكناسة» الادريسي إلى «مكناسة الزيتون» ، وأنها من نظر فاس إلى الغرب : ٤ (أربع) مدن متصلة ، وهى :

١- تاقررت : «المحلة» بمعنى المدينة الحضر ، «وهى محدثة البناء مشرفة على بطاح وبقاع مملوءة بغيضات الثمار ، وأكثرها الزيتون ، فسميت به»

٢- «مدينة عليها سور كبير وأبراج عظيمة» بمعني أنها مدينة الحكم والإدارة ، حيث الحامية - وهى التى أصبحت تعرف اصطلاحا فى العصر الموحدى «بالقصبة». ويوضح النص أن المدينة كانت موضع رعاية الحكومة الموحدية ،التى أقامت فيها البحائر (جمع بحيرة) العظيمة (الصهاريج الكبيرة) من ماء النهر ، وأمرت بغرسها زيتونا وكروما . وهكذا يقرر صاحب الاستبصار ، بعد أن زارها : «فرأيتها أكثر زيت فى جميع المغرب».

٣- ويلى قصبة مكناسة السابقة ، مدينة بني بسيل ، من حيث أنها التالية فى كثرة الزيت.

---

(١٤٤) نزهة المشتاق، ص٢٤٥ .

(١٤٥) نزهة المشتاق، ص٢٢٤ .

٤- ويلى ذلك مغيلة وجهاتها التى شملتها رعاية حكومة «الأمر العالى» على ما نظن ، فنهضت من كبوتها التى أشار إليها الادريسي من قبل، وأصبحت ثالث مراكز انتاج الزيت فى المنطقة (١٤٦).

وهكذا استحقت مكناسة الزيتون تقدير صاحب الاستبصار الذى وصفها بأنها «من غرّ بلاد المغرب : أقطار واسعة ، وقرى عامرة ، تشقها الأنهار والمياه السائحة، وتطحن عليها الأرحية» (١٤٧). ويمثل هذا القول يصنف صاحب الاستبصار المواضع الخصبة مابين فاس وطنجة ، وهى : بلد جنياره ، حيث القرى العامرة فى الجبل والسهل . وكرت التى فى أعلى جبل يجرى فى أصله نهر ردات ، توصف بكثرة الخصب والخير ، ثم البصرة : وهى المدينة الكبيرة ، ذات النظر الواسع والزروع الكثيرة والضرع ، كما عرفت بكثرة الكتان والألبان ، فهي : «بصرة الألبان» (١٤٨).

فـــاس :

وأهم إنتاج منطقة فاس هو الحنطة التى كانت تطحنها الأرحاء التى كانت تدور بجريان وادى فاس بين حيىّ المدينة الشهيرين : القرويين والأندلس والتى كانت رخيصة الثمن ، كما كانت رخيصة الطحن (١٤٩) . هذا ، كما عرفت المدينة بكثرة الخصب والرخاء ، وكثرة البساتين والمزروعات والفواكه ، وخاصة عدوة القرويين التى اشتهرت بالأترج الجليل، بينما اشتهرت عدوة الأندلسيين بالتفاح

---

(١٤٦) الاستبصار، ص١٨٧ .

(١٤٧) الاستبصار، ص١٨٨ .

(١٤٨) الاستبصار، ص١٨٨-١٨٩، وقارن الحسن الوزان، ص٢١٩-٢٢٠-حيث النص على أن مكناسة على بعد ٣٦ (ست وثلاثين) ميلاً من فاس، وأنها سهل بديع يمر به نهر هزيل، كما بها مقادير لا تحصى من الزيتون.

(١٤٩) نزهة المشتاق، ص٢٤٢-حيث فاس مدينتان بهما نهر كبير...عليه أرحاء كبيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر.

الأطرابلسي(١٥٠).

وصفروى التى تعتبر من ضواحى فاس كانت بها المياه العذبة ، وكان أكثر أهلها أصحاب زروع كبيرة وفواكه وأعناب وماشية وأنعام. هذا ، كما اشتهرت بشجر اللوز الذى كان يحمل منها إلى مراكش وغيرها من البلاد . ومثل هذا يقال عن قلعة مهدى (بن توالى) التى كانت لها سوق وعمارات ومزارع وغلات ، إلى جانب الماشية من البقر والغنم (١٥١).

أما عن مغيلة القاط القريبة ، فقد عرفت بتخصصها فى تجفيف التين (التين المزيت) الذى كان يحمل إلى فاس وغيرها من البلاد (١٥٢).

مراكش والسوس الأقصى :

إذا كان البحث الحديث يَعُدّ من النبات المغربى فى البلاد المراكشية ما يتراوح بين ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) و ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) نوع ، تختلف وتتنوع تبعا للارتفاع ، والتضاريس ، وطبيعة التربة ، ودرجة الرطوبة بصفة خاصة (١٥٣)، فإن الإدريسى يكتفى بالإشارة إلى خيرات جبل درن ، فيجعله جَنّة البلاد وبستانها حيث التركيز على فواكهه من : السفرجل والرمان العالية الجودة والرخيصة الثمن . وكذلك الاجاص والكمثرى والمشمش ، من كل غريبة ، والأترج والقصب الحلو الذى يتهادى الناس به – دون بيع – لكثرته . كذلك اشتهرت البلاد

(١٥٠) الاستبصار، ص١٨١، وانظر الحسن الوزان، ص٢١٢–حيث تحديد ولاية فاس : من غرب أبى الرقراق شرقا حتى نهر ايناون، وشمالا بينهما عند نهر سبو. وفيها وفرة الحبوب والثمار والماشية. هذا مع الإشارة إلى أن من كان يزرعها فى ذلك الوقت (ق١٦م/ ١٠هـ) هم العرب الأشراف، مع الإشارة إلى ان رؤساء العرب هؤلاء كانوا يسكنون فى المداشر (المنيات أو القصور الريفية).

(١٥١) نزهة المشتاق، ص٢٤٣ .

(١٥٢) الاستبصار، ص١٩٣ .

(١٥٣) ريكار، مراكش، ص٦٠ .

بشجر الزيتون والخرنوب والمشتهى ، إلى جانب شجر الهرجان (أرقان بالبربرية) الذى يستخرج منه كميات هائلة من الزيت الذى لا يستخدم فى الطعام والتطبيب والتجميل فقط ، بل - ومن كثرته - في تسريج القناديل (١٥٤).

أغمـــات :

ولمنطقة حوز مراكش قصب السبق فى مجال ذلك الغنى الزراعى ، فهى منطقة جبل وزرع بالامتياز . فمدينة أغمات ، على بعد ١٢ (اثنى عشر) ميلا جنوب مراكش العاصمة ، تقع فى فحص طيب التراب كثير النبات والأعشاب ، تخترق المياه يمينا وشمالا ، وتضطرد فى ساحاته ليلا ونهارا . وإلى جانب البساتين والأشجار الملتفة كانت الأرحاء تدور على النهر وهى تطحن الحنطة (١٥٥) .

الأمر الذى يعنى أن منطقة حوز مراكش كانت ضمن أهراء المغرب ، مثلها مثل حوض وادى سبو ، نهر فاس.

واذا كانت منطقة أغمات قد عرفت عصراً ذهبيا من الرخاء على عهد المرابطين بفضل التجارة مع بلاد السودان، التى جعلت من أهلها طبقة عالية من كبار رجال المال ، الرأسماليين كما يقال الآن (١٥٦) ، فإن الأمر تغير على عهد الموحدين حيث النص :«وأما الآن وقت تأليفنا هذا الكتاب ، فقد أتى على أكثر أموالهم ، وغيرت المصامدة ماكان بأيديهم من نعم الله . ولكنهم مع ذلك أملياء مياسير . أغنياء لهم نخوة (١٥٧)».

---

(١٥٤) نزهة المشتاق، ص٢٣٠-٢٣١ .

(١٥٥) نزهة المشتاق، ص٢٣١ .

(١٥٦) انظر نزهة المشتاق، ص٢٣٢-٢٣٣-حيث لم يكن فى دولة المرابطين (الملثم) أحد أكثر منهم أموالاً ولا أوسع منهم أحوالاً، وحيث كانت على أبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم.

مراكش :

أما منطقة مراكش (المدينة) التى لم يكن بها فى العهد المرابطى الا بستان واحد هو بستان أبى الفضل ، مولى أمير المسلمين ، فقد تطورت بفضل أعمال جلب المياه إليها من بعيد ، واستنباطه من باطن الأرض حتى زهت ببساتينها الكثيرة ، واتصلت بذلك عماراتها ، وحسن قطرها ومنظرها حتى أصبحت مراكش من أكبر مدن المغرب (١٥٨).

وعلى بعد ٣ (ثلاثة) أميال فقط من مراكش كان مجري نهر تانسيفت الذى ينبع من عيون ومياه تنبعث من جبل درن ، من ناحية أغمات ايلان ، والذى تميز ، برغم صغره ، بأنه دائم الجرى ، وخاصة فى الشتاء ، حيث فيضانه الكبير (١٥٩). وهو يصب فيه رافدان هامان ، هما : وادى اغمات وريكة ، ووادى نفيس ، إلى جانب أودية أخرى .. أما مصبه فى رباط جوز (١٦٠). وعلى عهد الموحدين ازدهرت مدينة أغمات إلى جانب مراكش ، حتى انها سميت مراكش الثانية (١٦٠م)

والملاحظ هنا أن تقرير الادريسى عام عن ماء منطقة مراكش ، وزيادة بساتينها دون تفصيل عن ناتج تلك البساتين أو العمارات ، باستثناء نبق قرية عفسيق على بعد ٣ (ثلاث) مراحل من مراكش ، فى طريق الساحل إلى سلا (١٦١).

هذا ، ويستشف من كتاب الاستبصار كيف تطورت مراكش على عهد الموحدين.

---

(١٥٧) نفس المصدر .

(١٥٨) نزهة المشتاق، ص٢٣٣-٢٣٤ .

(١٥٩) نزهة المشتاق، ص٢٣٥، وقارن الاستبصار، ص٢٠٩-حيث منبع تنسيفت من بلاد دمنات

(١٦٠) الاستبصار ، ص ٢٠٩ .

(١٦٠م)(الحسن الوزان ، ص ١٥٨ - حيث القول وهى اليوم (فى القرن الـ١٦ م / ١٠ هـ) مأوى الذئاب والثعالب والغربان).

(١٦١) نزهة المشتاق، ص٢٣٦-حيث شجرة النبق الشوكية تسمى السدرة المثمرة .

فهو في موضع يصفها بشكل عام بأنها على بعد ٢٠ (عشرين) ميلا من جبل درن ، طيبة التربة ، عذبة الماء ، وان ماء بساتينها من مياه ينتفد بعضها ببعض (نظام الخطارات - ماسبق ، ص ٦٥) ، وأنها كثيرة الزرع والضرع ، تحرثها دُكّالة، وجنتها نفيس ، وحولها البساتين والجنّات إلى يسمرنها البحائر ، وذلك قبل أن ينص على أن «مدينة مراكش اليوم (على عهده) من أعظم مدن الدنيا ، بهجة وجمالاً ... ، وأنها أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعناب وفواكه (١٦٢) .

أما قرية مكول (على مرحلة من أنفال)، فرغم قلة الماء ، توجد بها زروع كثيرة، ومواش وأنعام (١٦٣) . ومثل هذا يقال عن أرض دكالة ، قليلة الماء أيضا ، فكلها منازل وقرى ومناهل . وتتصل دكالة بمرسى ماست على مصب السوس، حيث الزروع والمواشى الكثيرة (١٦٤) . ومدينة داى الصغيرة ، على بعد مرحلة من تادلة ، عرفت بأنها كثيرة العامر ، يزرع بأرضها القطن ، كما يزرع على مستوى أكبر من ذلك بتادلة ، من حيث كان يصدر إلى كل البلاد (١٦٥).

السوس (الأقصى) :

توحى تسمية حوض وادى سبو (نهر فاس) ببلاد «السوس الأدنى» ، في مقابل تسمية حوض وادى سوس (نهر مدينتى تارودانت وايجلى) بـ «السوس الأقصى» بأن كلمة السوس فى اللغة البربرية تعنى الأرض أى التربة الخصبة السوداء الزراعية، مثل «أرض السواد» العراقية التى كان يضرب بها المثل فى الخصب ، في أوائل الفتوح العربية الاسلامية (١٦٦).

---

(١٦٢) الاستبصار، ص٢٠٩ .

(١٦٣) نزهة المشتاق، ص٢٣٨ .

(١٦٤) نزهة المشتاق، ص٢٤١ .

(١٦٥) نزهة المشتاق ، ص ٢٤١ .

(١٦٦) انظر عن السوس الأدنى والأقصى، ج١ ص٧٥ - ٧٦ والهوامش

هذا ومن الواضح أن مدينة تارودانت كانت كبرى مدن السوس (الأقصى) على عهد الإدريسي (فى منتصف القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م) ، وذلك ان اسم تارودانت يسبق كلمة السوس في العنوان الثنائي الذى يقدمه الادريسي فى شكل «تارودانت والسوس» (١٦٧) ، بينما يقتصر العنوان عند صاحب الاستبصار (بعد حوالى ٣٠ (ثلاثين سنة) على كلمة السوس وحدها ، ويتلو ذلك مدينتا تارودانت (على النهر) وايجلى : قاعدة بلاد السوس (١٦٨).

وتارودانت والسوس عند الادريسي : قرى كثيرة وعماراتها متصلة ، بها الفواكه والعنب والمشمش والتفاح ، وهو الأمر المقبول من حيث أن المنطقة منخفض من اراضى جبال درن ، بالإضافة إلى شهرتها بانتاج قصب السكر الفريد النوع : «الذى ليس فى قرار الأرض مثله» ، إذ يُستخرج منه نوعان : هما «السكر السليماني ، والطبرزاد» الفاخران (١٦٩) . ورغم أن وصف صاحب الاستبصار لايختلف كثيرا عن وصف الادريسي ، فإنه يبرز أهمية نهر السوس (وهو وادى ماست) ، ويشير إلى أن جريه من القبلة (الجنوب) إلى البحر (الشمال) كجرى نيل مصر ، كما أنه لايفرق بين الفواكه وقصب السكر الذى يظهر مختلطا بالفواكه والأعناب ، دون تمييز ، كما عند الإدريسى (١٧٠).

وأرض الفواكه بالامتياز هى المنطقة الواقعة بين تارودانت ونوين (١٧١) . وإلى جانب الفواكه والقصب الحلو عرفت منطقة السوس الأقصى بأنها – مثل السوس الأدنى فى وادى سبو – منطقة أهراء القمح . فمدينة نفيس ، وهى المدينة الصغيرة ، على رافد وادى ماست ، كانت تزهو بما حولها من العمارات ، وكذلك

---

(١٦٧) نزهة المشتاق، ص٢٢٧ .

(١٦٨) الاستبصار، ص٢١١-٢١٢-حيث بلاد السوس، وتارودانت، وايجلى .

(١٦٩) نزهة المشتاق، ص٢٢٧ .

(١٧٠) الاستبصار، ص٢١١ .

(١٧١) نزهة المشتاق، ص٢٢٩ .

بأرضها الخصبة التى تجود فيها الحنطة أيضا الي جانب الفواكه (١٧٢). هذا كما عرفت منطقة سفوح جبل درن ، فيما بين تارودانت وأغمات وريكة ، بكثرة الخصب واتصال العمارات ، حيث كل طريف من الثمار وغرائب الأشجار ، والمياه المضطردة التى تجعل النبات أبداً مخضراً فى كل الأوقات (١٧٣).

وفى أواخر القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، وحسب وصف الاستبصار ، كانت تارودانت – التى توصف بأنها قرية كبيرة جدا على نهر السوس (ماست) – «أكثر بلاد الله قصب السكر» حيث «معاصر السكر كثيرة» ، مع اشتهارها بنوع سكر «الطبرزد» المذكور فى كتب الطب (١٧٤). أما عن المنطقة الجنوبية من وادى سوس إلى نول (لمطة) وهى المنطقة شبه الصحراوية التى تنزل بها قبائل جزولة ولمطة الصنهاجية ، فهى عمارات متصلة (١٧٥) أما عن ايجلى التى كانت قاعدة بلاد السوس وقتئذ، فهى مدينة كبيرة عريقة ، فى سهل من الأرض على النهر الكبير (سوس) ، تشتهر بالبساتين ، وخاصة جنات النخيل ، وقصب السكر . وهكذا كان التمر رخيصاً جداً بها ، حتى قيل إنه «ربما بيع بها حمل التمر أقل من كراء الدابة ، من الجنان إلى السوق» . هذا كما قيل أن أكثر شرب أهلها ماء السكر (عصير القصب) . أما عن عسل السوس الذى «يفوق عسل جميع الأقطار» ، وذلك لشهرته فى عمل النبيذ الفاخر ، بعد خلطه بالماء بنسبة ١ إلى ١٥ (كيلا من الماء) (١٧٦).

هذا ، وكانت المنطقة من ايجلى إلى مدينة تامدلت ، على مسافة ٦(ست) مراحل (حوالى ٢٠٠ ك . م) ، عمارات متصلة ، وكذلك الأمر بالنسبة للمنطقة

---

(١٧٢) نزهة المشتاق، ص٢٢٩ .

(١٧٣) نزهة المشتاق، ص٢٢٩ .

(١٧٤) الاستبصار، ص٢١١، وقارن الحسن الوزان، ص١١٨-حيث تارودانت مدينة السوس : فوق المنطقة من طرف الأطلسي، وبها الكثير من القرى والمداشر.

(١٧٥) الاستبصار، ص٢١٢، وانظر أيضا ص٢١٣-حيث نول لمطة من بلاد السوس.

(١٧٦) الاستبصار، ص٢١٢

مابين تامدلت ودرعة ، على رأس وادى درعة ، وهى مسافة ٦ (ست) مراحل أيضا (١٧٧).

أما عن منطقة تنمللت قاعدة المصامدة والموحدين ، فقد عرف جبلها بأنه موطن الفواكه من التين والعنب ، ومن «الزبيب الذى يتنقل عليه الملوك» إلى جانب الجوز واللوز (١٧٨).

الثروة الحيوانية :

الحيوانات الوحشية:

الأسود :

المعروف أن جبال أطلس تعرف فى اللغة البربرية باسم جبل «درن» فى المفرد ، و«ودرن ادرارن فى الجمع ، بمعنى «جبل الجبال» أو «جبل زئير الأسود » التى كانت تعيش فى الجبل ، وخاصة في منطقة الغابة العشبية ، حيث فرائس الأسود من الظباء والأيائل والماعز أو غيرها من الماشية الداجنة (١٧٩).

وبطبيعة الحال كثيراً ما كان سكان الجبال من المصامدة وغيرهم يواجهون تلك السباع فيدافعونها عن أنفسهم وعن حيواناتهم الداجنة بما درجوا عليه من الوسائل، من حمل الحراب ذات الأسنة الماضية والمصنوعة من قنوات شجر السدرة ، بل وبالسكاكين والخناجر مع استخدام أكسيتهم التى كانوا يلقونها على أذرعتهم فكأنها الدروع ، يتقون بها مخالب السباع وأنيابها . والمهم هنا هو أن الادريسى ينص على أن ذلك الصراع بين الانسان المغربى وبين الأسد أو السبع ، كثيراً ماكان

---

(١٧٧) الاستبصار، ص٢١٣ .

(١٧٨) الإدريسي، ص٢٣٠ .

(١٧٩) ويقدم لنا الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٣٧، مثلا غريبا عن مقاتلة الأسود التى كانت تضر المارة فى طريق قرية أم الربيع، حيث غابة الطرفا ، والأنشام وكثير العليق الملتفة، وحيث "الأسد كثير" .

ينتهي بهزيمة الوحش ، حتى أصبحت الأسود تخاف الناس وتخشى نكايتهم فيها (١٨٠)، الأمر الذي انتهي باختفاء الأسود من الغابة فلم يعد لها وجود منذ مدة.(١٨١).

القردة :

وعرف جبل درن أيضا القردة التى كانت تعيش فيه ، وخاصة فى منطقة الجبل المطل على قرية بليونش ، القريبة من مدينة سلا ، كما يقع عليه «قصر مصمودة» . وإذا كانت الرواية التقليدية تشير إلى أن موسى بن نصير شاهد تلك القردة أثناء الفتح فإن صاحب كتاب الاستبصار قد شاهدها فى منطقة جبل فازاز، وعاينها وهى «تثب من الأرزة إلى الأخري ، وهى فى الجو الأعلى » - وذلك فى أواخر القرن السادس

---

(١٨٠) الادريسي، نزهة المشتاق، ص٢٣٧، حيث النص : "وقد لقيت الأسود منهم هناك نكايات حتى إنها تخاف ضرهم، وتجتنب طرقهم، وربما هجمت على الضعفاء"، وانظر الحسن الوزان، ص٢١٦-حيث الإشارة إلى أن أسود الغابة كانت تهدد الماشية والناس فى منطقة المعمورة ـ التى بناها أحد ملوك الموحدين، قرب مصب وأدى سبو فى المحيط، وانظر أيضا ص٢١١-عن قرية تاشية فى جبل درن حيث عرين الأسد في الغابة، وحيث قبر ولى، من عهد عبد المؤمن أول الخلفاء الموحدين، كانت له كرامات ضد الأسود. وانظر الهامش، حيث اسم الولي : ابو عزة النورى بن عبد الله الجزيرى المتوفى فى ابريل ١١٧٧م/ذو الحجة٥٧٣هـ، وراوى خبره هو الولى ابو الحجاج يوسف بن يحيى التادلى، الملقب بابن الزيات، وهو مؤلف كتاب "التشوق" الذى كتبه سنة ١٢٢٠م/٦١٧هـ. هذا مع الإشارة إلى أن أهل فاس كانوا يزورون هذا القبر بعد عيد الفطر، حيث يقيمون فى خيامهم، على بعد ١٢٠ميلا من بلدهم فاس، لفترة من الوقت.هذا، ويشير الحسن الوزان نفسه إلى انه كان يزور ذلك الضريح وفاء لنذر بعد نجاته من حادثة الأسود. وانظر أيضا ص٢٩٥-حيث حلبة صراع الأسود والثيران والرجال المدججين بالحراب.

(١٨١) انظر ريكار، مراكش : الدليل الأزرق، ص٨-حيث الإشارة إلى ندرة الفهد مع اختفاء الاسد.

الهجرى/ ١٢ م (١٨٢)

العقارب السامة والأفاعى المستأنسة :

واذا كان للعقارب ذكر عند الادريسي في منطقة أغمات غير بعيد من مراكش العاصمة (١٨٣) ، كما هناك ذكر لها إلى جانب الافاعي والذئاب والثعالب والغربان (في أغمات) فى نفس المنطقة عند الحسن الوزان (١٨٤) ، فإن الأمر المستغرب هو مايسجله الوزان فى منطقة جبال الزيز المتاخمة من الغرب لسهل تادلة وجبال دادس من كثرة أعداد الأفاعى اللطيفة والأليفة التى تتجول فى الدار كالكلاب الصغيرة والقطط (١٨٥)، الأمر الذى يذكر حاليا، بما يشاهده زوار ساحة الفنا بمدنية مراكش من ألعاب الحواة اللطيفة بالأفاعى ، مما عايناه فى خريف سنة ١٩٨٨م.

النعـــام :

هذا ، كما عرف طائر النعام فى منطقة ابغيل غير بعيد من قرية أم الربيع ، وذلك فى فحص هناك فى أسفل الجبل ، قد انحشرت فيه ، وهى سارحة بالآلاف. وكان يتم اصطياد النعام «طرداً» بالخيل فيقبضون منها جملا كباراً وصغاراً . وكان بيض النعام فى ذلك الفحص من الكثرة بحيث يحصل من هناك إلى كل البلاد (١٨٦).

---

(١٨٢) الاستبصار، ص١٣٨ ، ١٨٧ ، وانظر ريكار، مراكش، ص٨-حيث النص على أن قردة منطقة سلا هذه كانت من نوع "الماجو :magot" الذى يعيش فى الأماكن الوعرة، والكهوف الموحشة.

(١٨٣) نزهة المشتاق، ص٢٣٢ .

(١٨٤) وصف إفريقية، ص١٥٨ .

(١٨٥) وصف إفريقية، ص٣٧٣ .

(١٨٦) نزهة المشتاق، ص٢٣٨--حيث النص أيضا على أن طعامها وخيم يفسد المعدة، وأن =

الجراد:

وكان الجراد من الأطعمة المعروفة في كل من بلاد السوس ومدينة مراكش ، وكان يُطْهى مقلواً ، كما كان يحفظ ويؤكل مملوحاً ، وفى موسم صيده كان يدخل مدينة مراكش منه حوالى ٣٠ (ثلاثين) حملاً فى اليوم ، تدفع عنها ضريبة السوق المعروفة بالقبالة ، مثلها مثل غيرها من البضائع الداخلة إلى سوق المدينة، و ذلك على عهد المرابطين، وهى الضريبة التى ألغيت على عهد الموحدين (١٨٧).

نحل العسل :

والمعروف أن مناطق الجبال شهيرة بخلايا النحل البرى ، وأشهر عسل بلاد المغرب هو عسل منطقة ايجلى عاصمة السوس (١٨٨).

اللمـــط :

أما عن الأيائل البرية المعروفة باسم «اللمط» ، وإلتى كان يتخذ من جلدها الدرق المشهور باللمط ، فكان موجوداً في منطقة نول الجنوبية على مشارف الصحراء ، وبسبب كثرتها فى المنطقة نسبت إليها قبيلة لمطة كما نسبت المدينة بدورها إلى القبيلة ، فصارت «نول لمطة» (١٨٩) .

السلاحف البرية الضخمة :

وفى الجنوب من مراكش ، فى منطقة جزولة ولمطة ، شبه الصحرواية ، وفى

= لحم النعام من حيث القيمة الغذائية الطبية : "فباردة يابسة"، أما عن شحوم النعام عندهم فنأفعه لجميع الأوجاع البدنية، وهى تستخدم لعلاج الصمم بصفة خاصة، تقطر فى الأذن، وانظر الحسن الوزان، الترجمة ص ٧١ و هـ ١٤٩ .

(١٨٧) نزهة المشتاق، ص٢٢٨ ، ٢٣٥ .

(١٨٨) نزهة المشتاق، ص٢١٢-حيث الكيل منه يلقى عليه ١٥ كيلا ليصبح نبيذا.

(١٨٩) انظر ج٤ص٦٩-٧٠ (عن قبيلة لمطة)، ص٩٢ (عن حيوان اللمط).

فحص قرية عفسيق - حيث أرض الشوك والنبق - توجد «السلاحف البرية التى تفوق سلاحف البحر كبراوعظما» . وأهل المنطقة يتخذون من جلودها دساتى (جمع دست : طسوت) للفسل ،« ومعاجن دقيق الحنطة» ، وماشابه ذلك (١٩٠) .

الحيوانات الداجنة :

فى بلاد الزراعة والحرث تقسم الحيوانات الداجنة إلى : دواب وماشية، والدواب هى الحيوانات المخصصة للعمل فى الحمل والنقل ، وهى : الحمار والبغل والحصان ، والتى يمكن أن تستخدم فى فلاحة الأرض أيضا . أما الماشية فهى المخصصة للرعى وبالتالى من أجل تربية اللحم للطعام ، وأهمها : الماعز والضأن ثم البقر والأبل التى يمكن ان تستخدم فى الزراعة وفى النقل أيضا - وخاصة الابل بالنسبة للصحراء .

والغنم أو الشاة كانت مصدر اللحم الأول من غير شك ، والذى نراه فى هذا الصدد أن ما يقصده الكتاب برخص اللحم فى المدن أو الاقاليم المختلفة انما يقصد به لحم الشاة أو الضأن (١٩١)، بمعنى كثرتها ، كما فى منطقة تامسنا التى تعرف بذلك الاسم نسبة إلى الشاة ، كما يقول ابن خلدون فهي الشاوية أيضاً.

تربية الماعز وزيت الهرجان :

ومن المفهوم أيضا أن تكثر الماعز فى بلاد المغرب ، وخاصة على سفوح الجبال حيث الأعشاب البرية ، وبعض النباتات الصغيرة التى يمكن للماعز وحدها أن تصل إليها وأن تكفى لقوتها.

وهكذا يفهم من وصف الادريسى لمنطقة جبل درن (فى مراكش والسوس) ان الماعز كثيرة العدد وانها ارتبطت في معاشها هناك على شجر الهرجان الذى يستخرج منه الزيت المعروف بذلك الاسم ، والذى كان يستخدم على نطاق واسع فى

(١٩٠) نزهة المشتاق، ص٢٣٦، وانظر ج٤ص ٩٤ وهـ٩٣ (عن السلاحف البحرية).

(١٩١) انظر الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨، وقارن الاستبصار، ص١٨٧-حيث النّص على أن لحوم جبل فازاز أطيب اللحوم، وكذلك أسمانها بجمع سمن).

الطعام ، وخاصة فى قلى الاسفنج الذى كان يعذب طعمه فيه ، كما كان من كثرته يستخدم في تسريج القناديل.

والمهم هنا انه كانت للماعز علاقة باستخراج الزيت من بذور الهرجان. ففى شهر سبتمبر (شتنبر) كان يجمع الثمر «ويوضع بين يدى الماعز فتبتلعه بعد أن تأكل قشرته العليا ثم تلقيه بعد، فيجمع ويغسل ويكسر ويدق لبه، وتقصر فيخرج منه دهن كثير، صافي اللون، عجيب المنظر، إلا أنه ليس بعذب الطعم، فيه أدنى حرافة». فكأن الماعز كانت تساهم تلقائيا فى اقتصاد انتاج الزيت، وهى تسعد بخريف الهرجان الذى يقدم لها وجبات جيدة، وهي مقبلة على فصل الشتاء الصعب(١٩١م).

هذا ولو أن صاحب الاستبصار يشير إلى طريقة اقتصادية أخرى لاستخراج دهن الهرجان أو زيته فى منطقة ايجلي بالسوس ، وذلك بعد وصف دقيق لشجرة الهرجان التي تنبت فروعها من الأصل دون ساق ، وأنه يجمع ثمرها الشبيه بالأجاص ، المعروف بالعبقر ، ويترك حتى يذبل ثم يوضع فى مقلاة فخار على النار حتى يستخرج دهنه . وطعمه يشبه طعم القمح المقلو(١٩٢).

والذى نراه أن تقنية استخراج زيت الهرجان الأصلية هى التسخين على النار فى مقلاة الفخار ، قبل الكسر والدق ، وان هذه هى الطريقة الاقتصادية حقاً . أما طريقة نوى الهرجان الذى تلقي به الماعز بعد ابتلاعه أو أكل قشرته الخارجية ، فهى طريقة الانتاج الصغير ، وهو الانتاج المنزلى ، كما نرى.

هذا، وتدل رواية أخرى لصاحب الاستبصار على أن مدينة مراكش كانت غنية بزيت الزيتون ، وأن انتاجها منه كان يكفى الاستهلاك المحلى ، الأمر الذى جعلها

(١٩١م) (انظر نزهة المشتاق ، ص ٢٣١- حيث وصف شجر الهرجان بأنه أشبه بشجر الأجاص ، وأن لها ثمرا يشبه العيون (البرقوق) فى أول نباته ، قشرته العليا رقيقة خضراء ، لكنها فى نهاية العفوصة والحموضة).

(١٩٢) الاستبصار، ص٢١٢-حيث الإشارة إلى قيمته الغذائية واستخداماته الطبية. فهذا الزيت جيد محمود الغذاء، يسخن الكلي، ويدر البول.

تستغنى عن استعمال زيت الهرجان . بل أن مراكش فاقت مكناسة الزيتون فى انتاج الزيت الذى صار أرخص (١٩٣) وذلك بفضل المجازات الموحدين ، وهو الأمر المقبول.

الجمـــل :

أما الجمل – سفينة الصحراء – فكان معروفا بشكل دارج فى البلاد المغربية ، حيث كان وسيلة نقل المتاجر مابين بلاد الحضر المختلفة . وهكذا كانت المدن الكبرى، مثـل : فاس ومكناس وتازا ومراكش وأغمات وتارودانت تعرف الابل الواردة والصادرة ، حتى أصبح استخدام كلمة القوافل عند الكتاب مرادفا لكلمة الإبل والجمال (١٩٤).

عجـل البقـر :

أما عن عجل البقر المراكشى ، فهو واحد من نوعين :

١- ذو القتب ، ويرجع أصلاً إلى جبال أطلس ، وهو داكن اللون ، أسود الأطراف.

٢- النـوع الزايرى ، وهو أكبر حجمـا من ذى القتب ، وأطرافه فاتحة اللون(١٩٥).

---

(١٩٣) الاستبصار، ص٢١٠ .

(١٩٤) انظر نزهة المشتاق، ص٢٣٢-٢٣٦-حيث المواشى والجمال والخيل العتاق فى تامسنا، ص٢٣٧-عن قرية انقال فى منطقة أم الربيع، وهى : كثيرة المواشى والإبل والبقر، ص٢٤٦-حيث تقصد القوافل إلى فاس، وقارن الاستبصار، ص١٨٦-حيث قلعة زيد القريبة من فاس، والتى يوجد بها شجر الزيتون إذا أكلت الدواب ورقه، من: حمار أو ثور أو جمل مات، إذ أن جامعها من بنيان عقبة بن نافع، فكأنها دعوة لأصحاب الدواب والمواشى لاتقاء إتلاف شجر الزيتون فى تلك المنطقة المباركة،...الخ. وعن الجمال انظر ج٤ ص٩٠ وما بعدها.

(١٩٥) ويكار، مراكش، الدليل الأزرق، ص٩، وانظر ج٤ ص٩٥-عن بقر إقليم الساحل بأنماطه الثلاثة.

الخيل : وعن الخيل تكون التفرقة بين الحصان المغربى الأصيل ، ذى اللحية ، وهو القوى على العمل الشاق فى فلاحة الأرض (١٩٦) ، وحصان الركوب ، مطية الفرسان . والإدريسى وهو يشير إلى مايتصف به أهل قرية أم الربيع من القبائل ، من غلبة الفروسية عليهم ، انما يشيد في نفس الوقت بخيلهم العتيقة (١٩٧) ، وهو الأمر الذى يصف به صاحب الاستبصار خيل جبل فازاز المعروفة بالصبر والخدمة (١٩٨).

صيد البحر :

لما كانت بلاد المغرب الأقصى بحرية بالامتياز ، كانت ثروتها السمكية سواء فى البحر المتوسط أو فى المحيط من الخيرات الكبيرة التى نعمت بها البلاد على مر العصور . ففى وادى سلا (بو رجرج : أبو الرقراق) ينص الإدريسى على مافيه من «أنواع السمك وضروب الحيتان» ، رخيصة السعر (١٩٩). وعندما أقيمت القنطرة على النهر لمرور العساكر على أيام الموحدين ، كان الناس يتصيدون حولها أنواع السمك ، وخاصة نوع الشابل. ولابأس أن كانت حركة المد والجزر تساعد الصيادين على تتبع الأسماك فى الماء (٢٠٠).

أما عن نهر فاس (رافد وادى سبو) فقد كثرت فيه الأسماك من الشابل ، والبورى ، والقرب ، واللبيس والشولى ، وبلغت بعض أنواعها من كبر الحجم الي حد أن الواحدة منها كانت ، وحدها تمثل حِمْل حمار (٢٠١).

(١٩٦) ريكار، مراكش، ص٨ .

(١٩٧) نزهة المشتاق، ص٢٣٦-حيث الإشارة إلى فروسية قبائل المنطقة من زناته وتامسنا .

(١٩٨) الاستبصار، ص١٨٧، وقارن الحسن الوزان، ص٣٧٢-حيث الخيل والحمير في جبل بنى واسين، ص٣٧٣، حيث لدى أهل جبال الزيز "كثير من الخيل والبغال والحمير" .

(١٩٩) نزهة المشتاق، ص٢٣٩ .

(٢٠٠) الاستبصار، ص١٤١ .

(٢٠١) الاستبصار، ص١٨٤-١٨٥-حيث الواحدة من البورى الكبير كان ثمنها ١٣(ثلاثة عشر) درهما. كما أن الواحدة من سمك اللبيس كانت تزيد أحيانا عن ٦٥(خمسة وستين) رطلا

وينص صاحب الاستبصار على أن نوع الشولى كان ألذّها - على أيامه - «تصنع منه الألوان بأصناف البقل (بدل اللحم) فلا تشم له رائحة سمك (٢٠٢).

الثروات المعدنية :

عرفت بلاد المغرب بثرواتها من معدن النحاس الذى وجد فى أكثر من موضع . ففى منطقة أغمات كان يوجد منه النحاس الأحمر والملون ، مما كان يصنّع فى المدينة، ويحمل منه القوافل السائرة إلى بلاد السودان «القناطير المقنطرة» (٢٠٣). أما مدينة داى الواقعة أسفل رأس خارج من جبل درن ، على بعد مرحلة من تادلة ، فكانت تزهو بمنجمها من «النحاس الخالص الذى لامثيل فى المشرق والمغرب» . وهو «نحاس حلو لونه إلى البياض أقرب، يتحمل التزويج ، ويدخل فى لحام الفضة، واذ طرق جاد ولم ينشرخ مثل النحاس» (٢٠٤) ، الأمر الذى يدعو الى الظن أن الأمر يتعلق بمعدن آخر كالألمونيوم الشائع الاستعمال الآن فكأنه النحاس الأبيض.

أما فى منطقة السوس الأدنى التى اشتهرت بالنحاس الأصفر كما فى فاس ووادى سبو ، وهو الذي يضاهى الذهب فى لونه الأخاذ ، فكان يتجهز بمصنوعاته إلى بلاد السودان والمشرق ، وجميع الآفاق (٢٠٥).

وبعد النحاس يأتى الحديد الذى كان يوجد فى أكثر من موضع كما فى المعدن

---

(٢٠٢) الاستبصار، ص١٨٥، وقارن الحسن الوزان، ص٣٢٦-عن مدينة ترغة في بلاد الريف حيث صيد السمك وحفظه عن طريق التمليح. وقارن ريكار، مراكش، الدليل الأزرق، ص٩-حيث شواطئ المحيط غنية بالسمك، من الأنواع الجيدة ، المتعددة، مثل : المرجان، والبورى، والمحراث، وسمك موسى، والتونة، والسردين، وهى التى كانت تشد الصيادين من أزمنة بعيدة. أما القواقع فهى نادرة بينما يوجد "اللانجوست والهومار" بكميات وفيرة على شاطئ المحيط بين موجادور وأغادير.

(٢٠٣) نزهة المشتاق، ص٢٣٢ .

(٢٠٤) نزهة المشتاق، ص٢٤١ .

(٢٠٥) الاستبصار، ص١٨١ .

العوام ، قرب أبي الرقراق (بورجرج)(٢٠٦)، وكما في مليلة وغساسة من شرق بلاد الريف (٢٠٧).

أما عن الملح فكان «يحفر عنه (فى منطقة نول لمطة على تخوم الصحراء) كسائر المعادن» (٢٠٨).

مصامدة الجبال:

الحياة اليومية، والعادات والتقاليد:

تختلف دولة الموحدين المصمودية عن سابقتها ، دولة المرابطين الصنهاجية ، بشكل أساسى لايتمثل فى العرق والنسب، بل فى أسلوب الحياة وشكل المجتمع . فالمصامدة الموحدون هم أهل الجبال البحرية المطيرة ، أرض الخصب والزرع والضرع ، بينما الصنهاجيون المرابطون هم أهل الصحراء ، بلاد الرمل والقحط والعطش التى لم تحيى الا بفضل الجمل : سفينة الصحراء. وتلخيص ذلك أن البلاد المراكشية هي بلاد القمح بالامتياز واللحوم الطرية ، أما صحراء صنهاجة فهى بلاد القديد (من لحم الجمل) دون خبز (٢٠٩).

وهكذا كانت طواحين القمح ، كما فى فاس ووادى سبو ومكناس وأغمات وتارودانت والسوس ، ووفرة الخبز ورخص اللحوم ، هى رمز الخصب والنماء . وهكذا كانت فاس مدينة حضرية غالية ، يتفنن أهلها فى إعداد ألوان البقل بالسمك

---

(٢٠٦) الحسن الوزان، ص٢٠٩-حيث موضع المنجم حاليا فى شمال خنيفرة .

(٢٠٧) الحسن الوزان،ص٣٤٤ ، ٣٤٥، وقارن ريكار، مراكش، ص٩-حيث الإشارة إلى أن التنقيب عن المعادن فى العصر الرومانى، أو عن المناجم باستثناء البوتاس والحديد، والنص على أن الحديد فى المغرب من ٣(ثلاث) درجات، وهى : ٦٠٪، و٥٣-٥٥٪، ومن ٦٠٪ إلى صفر، مع ذكر الجير والجص والاردواز فى أطلس الوسطى بالإضافة إلى الرخام .

(٢٠٨) الاستبصار، ص٢١٣ .

(٢٠٩) انظر ج٤ص٧٤ .

بدلا من اللحم، الأمر الذى كان يخفى على على الأكل (ماسبق ، ص ١٠٣).

والمهم من كل ذلك هو أن الجبال الرطبة هى : بلاد الشبع والرى فى مقابل الصحراء : بلاد الجوع والعطش. ومع ذلك يشترك أهلهما جميعا فى صفة جامعة هى :القوة وشدة البأس فى مواجهة مخاطر كل من الجبل البارد والصحراء المحرقة. إنها طبيعة الرجل المغربى بعامة ، وشخصية صناع الدول من البربر ، من: صنهاجة المرابطين الصحراويين أو مصمودة الموحدين أهل جبال السباع (درن).

المصامدة :

والنموذج البدائى للمصمودي رجل الجبل ، يتمثل بشكل خاص فى أهل السوس، موطن محمد بن تومرت ، من البربر الخلص دما ولغة (٢١٠). والمصامدة سمر الألوان رجالاً ونساء ، وأن اتصفت نساؤهم بالجمال الفائق.

أما من حيث الطباع فالغالب عليهم الجفاء وغلظ الطبع وقلة الانقياد - وتتمثل خشونتهم فى زيهم الذى يتمثل فى كساء الصوف ، يلتف الرجل منهم به التفافا (٢١١) - فيصبح جزءا من جسده (كالفروة بالنسبة للحيوان) - ويؤكد ذلك «باحتزام أوساطهم مآزر الصوف» المعروفة عندهم باسم «سفاقس». ويضاف إلى ذلك ارسال الرجال لشعورهم كالنساء - كما كان الحال عند العرب قبل الاسلام وفى بدايته - يستوى فى ذلك المصامدة (ماسبق ، ص٧٠) والغماريون (مايأتى ص ١٠٨). ويتمثل في قلة الأنقياد - مما يعنى الفردية والاستقلال الشخصى - فى أن

---

(٢١٠) انظر ما سبق، ص ٧٠ ، ريكار، مراكش، الدليل الأزرق، ص٤٢-حيث البربر ٣(ثلاثة) أصناف، هي : مصمودة، وزنانة، وزناجة (صنهاجة). واللغة البربرية تبعا لذلك ٣(ثلاثة) أقسام، وهي : المجموعة الريفية زناتية الأصل، ومجموعة البرابر صنهاجية، ومجموعة الشلوح، وهم المدنيون، وخاصة فى جبال أطلس العليا والوسطى والغربية والسوس و الواحات، وموضع المصامدة فى المجموعة الأخيرة.

(٢١١) نزهة المشتاق، ص٢٢٧ .

الرجل منهم «لايمشى أبداً إلا وفى يده رمحان قصار العصى ، طوال الأسنان ، رقاقها ، وينتخبونها من أجود الحديد»(٢١٢).

هذا ، ولاندرى إن كانت شعورهم الكثيفة ، تكمل صورة الجفاء وغلظ الطبع ! وذلك أن لهم بشعورهم الكثيرة اهتماماً زايداً وصيانة لها. فهم يصبغونها فى كل جمعة (أسبوع) بالحناء ، ويغسلونها فى كل «جمعة» مرتين برقيق البيض والطين الأندلسى (٢١٣) ، فكأنهم مخترعو أدوات غسيل الشعر الحديثة وتجميله ، من: الزيوت والصوابين والعطور ، مما يعرف حاليا باسم «الشامبو» - الأمر الذى يحسب لهم فى مجال التحضر والمدنية . ومما يشار اليه فى هذا المجال أن السائد عند نساء المصامدة ، أنهن يدهن رؤوسهن بزيت الهرجان (ماسبق ، ص ٩٠) مع استخدام المشط «فتحسن شعوزهن بذلك ، وتطول وتتكسر ، وعسك الشعر على لونه من السواد » (٢١٤).

أما عن قبائل تامسنا ، وهم من فروع مصمودة المعروفين ببرغواطة ، «فالغالب

(٢١٢) نزهة المشتاق، ص٢٢٨ ، وقارن الحسن الوزان، ص٢٧٤-٢٧٥-حيث النص على حمل الحربتين والثلاث فى مدينة غارسلوين، وقارن ص٢٦٧-٢٦٨-عن جبل سحاو بالجزائر، وسوق بنى زندوى-حيث : وهم أهل خلاف وقيام بعضهم على بعض....ومن عوائدهم ان صغيرهم وكبيرهم لا يمشى من موضعه إلى موضع غيره إلا وهو شاكى السلاح بالسيف والرمح والدرقة اللمطية. وانظر المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشى، القاهرة١٩٤٩، ص١٩١-١٩٢-حيث حكاية رمزية عن البكرى ملخصها انه أهديت للإسكندر فرس ببعض بلاد المغرب لم تلد الخيل أسبق منها، لم يكن فيها عيب إلا أنها لم يسمع لها صهيل قط. "فلما حل الاسكندر فى تطوافه بجبال درن، وهى بلاد المصامدة وشربت تلك الفرس من مياهها، صهلت صهلة اصطكت منها الجبال فكتب الاسكندر إلى الحكيم (أرسطو) يخبره بذلك، فكتب إليه : إنها بلاد شر وقسوة فعجّل بالخروج منها. ويعلق عبد الواحد المراكشى على ذلك قائلا : وهذا حال بلاد القوم، وأما خفة سفك الدماء عليهم فقد شهدت أنا منه أيام كونى بالسوس، ما قضيت منه العجب .

(٢١٣) نزهة المشتاق، ص٢٢٨ .

(٢١٤) نزهة المشتاق، ص٢٣١ .

عليهم الفروسية (٢١٥) ، بمعنى أن ببلادهم مراعى للخيل، رغم ماينص عليه الادريسي، نفسه، من أن تلك القبائل «أصحاب حرث ومواشى وجمال» دون ذكر للحصان أو الخيل.

أما عن أهالى نواحي قرية أم ربيع ، حيث الغيضة فيما وراء النهر (الوادى) أو الغابة ، فقد اشتهروا بالجسارة وقوة القلب حتى أنهم كانوا لايهابون الأسد فى تلك الغابة الملتفة ، بل إنهم كانوا يقاتلونها بالكساء علي أذرعهم والسكين فى يد، وفي الأخرى قناة شوك السدرة ، حتى أن الأسود أصبحت تخاف منهم وتتجنب طرقهم (٢١٦).

هذا ، كما كان الحصان مستخدما فى قرية ايغيل القريبة من أم الربيع ، فى مطاردة النعام واصطيادها ، رغم أن الإدريسى لايذكر الحصان أو الخيل بين «المواشى والأبل والبقر» فى تلك النواحى (٢١٧).

أهل فاس :

ورغم النص على أن أهل منطقة فاس برابر يتكلمون العربية ، وإن فاس حاضرة كبرى (٢١٨) ، وأن أهلها يهتمون بحوائجهم ومبانيهم وآلاتهم ، فإن الادريسى يؤكد أن «فى أهلها عزة ومنعة» (٢١٩) . أما صاحب الاستبصار - بعد ذلك بجيل تقريبا - فرغم وصفه لأهل فاس بأنهم فى رغد عيش ورفاهة ، فإنه يسجل عليهم حرصهم على المكاسب ، الأمر الذى يؤدى إلى الشح والبخل ، ويخلص من ذلك بحكم عام جامع لكل المغاربة (البربر) ، وهو «أن نفوس أهل المغرب مجبولة

(٢١٥) نزهة المشتاق، ص٢٣٧ .

(٢١٦) نزهة المشتاق، ص٢٣٧ .

(٢١٧) نزهة المشتاق، ص٢٣٨ .

(٢١٨) نزهة المشتاق، ص٢٤٦ .

(٢١٩) نزهة المشتاق، ص٢٤٢-٢٤٣ .

على الاستنصار (العصبية) ، وفي ذلك قيل «الحقد مغربي» (٢٢٠).

الغماريون:

أما عن أهل جبل غمارة ، وهم معدودون من المصامدة أيضاً مثل برغواطة ، فهم معروفون بعداوتهم للجيران وإثارتهم للفتنة والخروج على الولاة. وفي ذلك يذكر الادريسي أن مدينة تاودة القريبة من جبل غمارة ، كانت بموقعها الاستراتيجي «أشبه بالثغر ، سداً مانعا من طغاة غمارة ، العايثين بتلك النواحي ، المغيرين على جوانبها » (٢٢١).

وهنا لابأس من الاشارة إلى أن مايروى عن الغماريين من المفاسد العقائدية أو الأخلاقية ، وخاصة مما يتعلق بحرية العلاقات النسائية ، ربما كان تركة الصراعات الأولى مع العرب أثناء فترة الفتوح ، فكأنها أمور تاريخية سالفة. وفي مثل ذلك يقول صاحب الاستبصار أن بلد غمارة جميل كبير ، وأن للغماريين «كان فيما سلف شعور طوال يسدلونها كشعور النساء حتى دخل الأسلام بلادهم ، فالجأتهم الضرورة إلى التوعر في الجبال الشامخة فحلقوا رؤوسهم ، وورث ذلك الأبناء عن

---

(٢٢٠) الاستبصار، ص١٨٢-١٨٣ .

(٢٢١) نزهة المشتاق، ص٢٤٩-حيث النص أيضا على أن تاودا كانت قلعة مرابطية، وأن هذا أدّى إلى انتقام المصامدة (الموحدين) منها، فخربوها، وقارن الحسن الوزان، ص٣٢٦-حيث النص على أن الريف (جبل غمارة) من مملكة فاس، وأن أهله شجعان، يشربون الخمر، وكسوتهم رديئة، وانظر أيضا ص٣٥٨-حيث كانت تازا المدينة الثالثة في المملكة من حيث المكانة والحضارة، ص٣٦٠-حيث جبل البرانس شمال تازه، وفيه قبيلة غنية تملك الخيل، ولا تدفع ضريبة، فرجالها سريعو الغضب، والويل لمن يتحرش بنسائهم، ص٣٧٣-حيث جبال الزيز، وهي ١٥(خمسة عشر)جبلا باردة ،وحشة، شرق تادلة، بعضها قوم من زناته، مخيفون، أقوياء الشكيمة يلبسون دراعة (كساء) على أجسادهم مباشرة، وفوقها رداء، ويغلفون سيقانهم بأقمشة ملفوفة تحل محل السراويل، ويتركون رؤوسهم حاسره في كل الفصول، ولديهم الكثير من الخيل والبغال والحمير. وهم أكبر لصوص وقتلة في العالم.

الآباء»(٢٢٢).

المسكن:

مساكن البلاد الرطبة في سفوح الجبال وفي الهضاب والسهول حيث زراعة القمح من أجل الخبز ، وغراسة الزيتون ، وشجر الهرجان ، من أجل الأدام ، وتربية الحيوان - وخاصة الماعز - من أجل اللحم - مع صيد البحر - ومنتجات الألبان ، وكانت مبنية في المغرب بالتراب المعروف بالطابية أو بالتراب المخلوط بالجصي والكلس (الجير) ، والذى يصب بين ألواح الخشب بطريقة صبّ «البتون» (الكونكريت) ، فتكون الجدران التى تكتسب صلابة الحجر أو أشد مع مرور الوقت (٢٢٣).

أما عن تخطيط بناء المساكن أو الدور فهو التخطيط المربع الذى يعتبر تركة العصر الرومانى. فالمسكن يحيط به سور مربع ، وفى وسطه الصحن السماوى الذى تنفتح عليه غرف الدار وحجراتها والمخازن فيمدها بالضوء ويجدد لها الهواء ، ويكون متنفسا لأهل الدار. ومقر الشيخ أو الزعيم يعتبر قصراً حقيقيا أو قلعة حربية، تحقق لأهلها بما يحيط بها من الاتباع وأهل القرية الأمان . فالسور مرتفع، ذو نهاية مسننة تسمح باطلاق السهام من ورائها.

وعادة ماتنتهي الجدران برسومات رقيقة من الموروثات البربرية. وهي عادة ما تتكون من خطوط هندسية مستقيمة ومربعة مع أشكال هرمية متقابلة أو متراصة وأشكال عقود مقرنصة إلى جانب العناصر البارزة وهى حسنة التنفيذ تعطى لتلك المبانى التى تسمى ايغرم أو تيغرمت بالبربرية كما تسمى القصور، وهى التى تكون

---

(٢٢٢) الاستبصار، ص١٩٣-وهنا لا بأس إلى الإشارة إلى أن ثوار المغاربة (البربر الأوائل الذين كانو يعتقدون فى مذهب الخوارج، قلدوا هؤلاء فى حلق رؤوسهم ليتميزوا عن جيوش الخلافة التى كانت تحاربهم-ج١ ص٣٠٣ .

(٢٢٣) عن أسلوب بناء الطابية انظر ابن خلدون، المقدمة، الباب الـ٥ ، الفصل الـ٢٥ (فى صناعة البناء).

تجمعاتها خصوصية شخصية (٢٢٤). وللقصر ٤ (أربعة) أبراج مربعة ، مسلوبة الشكل ، أكثر ارتفاعا من الأسوار ، بها المزاغل التى يدافع منها عن الأسوار باطلاق السهام . والمداخل متعرجة يتوه فيها الداخل الغريب.

ونظام القرية أو المدينة الرسمية حيث قصر الزعيم أو الوالى ، ومعسكر الحامية، تسمى «القصبة» بمعني مركز الحكومة (أو المدينة الملكية) (٢٢٥).

وأهم النماذج التى تهمنا هى التى يتحدث عنها الادريسى فى منطقة جنوب مراكش، والتى يعتبر المثال اللامع لها مدينة تينمل التى كانت تتوسط حوالى ٧٠ (سبعين)حصنا ، معلقة فى الهواء فى قنن الجبال. والمعروف أن تينمل اكتسبت شهرتها بعد أن أصبحت مزاراً بعد دفن محمد بن تومرت مهدى الموحدين بها حيث عرفت باسم البيضاء (٢٢٦).

(٢٢٤) انظر رُوم لاندو، القصبات المراكشية، الشكل المقابل، ص٤٨......، وقارن ريكار، مراكش، ص٢٧ .

(٢٢٥) انظر رُم لاندو (Rom Landou)، القصبات فى جنوب مراكش (The kasbas of southern Morocco)، ص٢٦، ريكار، مراكش، الدليل الأزرق، ص٢٧ .

(٢٢٦) نزهة المشتاق، ص٢٢٩-٢٣٠، وانظر الاستبصار، ص ٢٠٨-"وهو (جدث المهدى) فى مدينة البيضاء المعروفة بتينمل. وعن اسم تينمل انظر تراس : معابد (مساجد) وقلاع (قصبات) موحدية، بالفرنسية Terrasse ‘.Sanctuaires et forteresses Almohades، ص٧-٨ وهـ٢-حيث : وتينمل (تينمل) هو النطق الدارج لاسم المدينة وهناك أشكال أخرى عند المؤرخين، مثل تنمل وتنملّل. والاسم مكون من كلمتين بربريتين، الأولى : تِنْ (tin) التى توجد كاسم مكان فى لهجة الشلوح، وفى الصحراء فى شكل المؤنث والمذكر، كما فى أسماء :تنتازارت، وتندوف، وان-غار، ياوان-زيز، وان-صلاح وغيرها. وتظهر كأسم اشارة، والذى ربما يكون فيه الحرف الساكن الأخير "نْ" حرف ربط، وتكون الكلمة الثانية معبرة عن اللون الأبيض فى كل اللهجات البربرية، ومنه الاشتقاق الشعبى "البيضاء" الذى طبق على المسجد، وهو المستخدم من قبل العلماء الأوربيين. ومع ذلك فالمعنى الأصلى ل : م، ل التى يستنبط منه أمّلال يمكن ألا تكون "ابيض"، بل زاهى اللون مما يتفق أصلا مع "الأحمر". وهذا المعنى يظهر فى اللهجات البربرية الأخرى، وهو مازال مستعملا فى لهجة =

وإذا كانت القصبة كمدينة ملكية فى العاصمة مراكش أو الرباط أو أشبيلية قد أخذت شكلها النهائى فى العصر الموحدى ، ، اعتبارا من القرن ٦هـ/ ١٢م، فإن عددا من الباحثين المحدثين يتفقون على أصلها المشرقى، وذلك للتشابه الواضح بين القصبة المغربية والقصور اليمنية ذات البنايات المرتفعة والتى تظهر من بعيد أو فى المصورات أشبه ماتكون بناطحات السحاب، بفضل أبراجها المربعة العالية، المسلوبة الشكل. ويمكن أن يتمثل أول نماذج هذا النوع من الأبراج المسلوبة، فى مئذنة أو منارة جامع القيروان الذى يرجع بناؤها إلى القرن الثانى الهجرى ٨/م وهذا لا يمنع بطبيعة الحال من أن يكون هذا الطراز من الابراج متأثرا بنظام القصر (Castrum) الرومانى أو البيزنطى (٢٢٧).

الأثاث والأدوات المنزلية:

وإذا كانت بقايا القصبات القديمة قد عرفتنا ببناء القصور الملكية فى المغرب اعتباراً من عصر الموحدين، وان القرى والبلدات الصغيرة المعروفة بالقصور، وواحات المغرب بشكل عام وواحات الجنوب المراكشى بوجه خاص، قد عرفتنا ببناء الدور المغربية (البربرية) التى لاتختلف عن مثيلتها العربية وخاصة فى بلاد اليمن ، فإن البقايا الأثرية والأدب التاريخي شحيحة فى التعريف بأثاث تلك الدور فى القرن الـ٦هـ/ ١٢م. ولابأس فى القول بأن الدور المغربية كانت فقيرة فى الأثاث بما يتفق وبساطة الثياب التى كانت فى كثير من الأحيان لاتشتمل على أكثر من الكساء الذى يلتف به حول الجسد أو القماش الذى يلف حول الأرجل بدلا من السراويل (ماسبق،ص ١٠٥).

= الطوارق، وهى القريبة من لهجة الشلوح، وإن ظلت أكثر محافظة، الأمر الذى ربما يعنى أن تنمل ربما كانت فى الأصل لاتعنى اسم البيضاء بل الأحمر القانى (الصارخ)، الأمر الذى يتفق مع لون صخور تينمل والتى لا يوجد فيها اللون الأبيض".

(٢٢٧) انظر رَوم لاندو، القصبات فى جنوب مراكش، بالإنجليزية، ص٢٧، وقارن للمؤلف، العمارة والفنون فى دولة الإسلام، الاسكندرية ، ص٢٥٩ .

ويمكن أن نستدل على بساطة آثاث المنزل المغربى من وصف الحسن الوزان لأثاث بعض الفنادق فى مدينة فاس، وقتما كانت فاس مملكة زاهية بحضارتها فى ذلك الوقت من القرن الـ١٦م/ ١٠هـ . فذلك النوع من الفندق ، وان كان أشبه بملجأ للأرامل ومن لاأهل له ، كان لايقدم لمن ينزل فيه إلا الحصير فقط والغطاء ، فكأن هذا كان مستوى فقراء الناس (٢٢٨).

والمهم أن الأدب التاريخى لايعرفنا من الأدوات المنزلية التى كانت تستعمل فى المناطق الريفية بمنطقة مراكش إلا بمقلاة الفخار التى كان يشوى فيها خبز الشعير بدون خميرة (٢٢٩) أو تسخن فيها بذور الهرجان لإستخراج الدهن أو الزيت منها (٢٣٠). وهكذا فإذا كان المعروف أن أدوات الطبيخ فى المدن كانت عادة من النحاس (٢٣١)، فإن الأوانى الفخارية كانت مستخدمة أيضا ، لخاصيتها فى حفظ الحرارة وخاصة فى الفصول الباردة . ولابأس ان كانت بعض تلك الآلات من

---

(٢٢٨) وصف إفريقية، ص٢٣٦-٢٣٧-حيث الإشارة إلى السرر والفرش التى لم تكن فى ذلك النوع من الفنادق أو الملاجئ والواضح أن فندق الأرامل هذا كان من نوع المواخير الساقطة، إذ يتبع الحسن الوزان ذلك الوصف بان النزلاء هم حثالة بشرية، ذكور يكتسون كالإناث، ويتزينون كالنساء تماما.وأن هذه الفنادق كانت مقصد الذين يحبون أكثر ضروب الحياة دناءة، من : الخمر والنساء الساقطات، وأنها كانت تدفع الإتاوة لنقيب المدينة وحاكمها. وهنا يعتذر الحسن الوزان عن ايراد هذه المعلومات الفاضحة قائلا: "ولولا القانون الذى يلزم المؤرخ نفسه به يدفعنى لقول الحقيقة لكان باستطاعتى ان أغفل هذا الجزء من وصفى". والمهم بعد ذلك أن الحسن الوزان (ص٢٣٨) يعرّف بالفنادق الحقيقية، وهى القريبة من الجامع والتى لا ينزلها إلا التجار من طبقة سامية- وهي التى تحوى السرر والفرش من غير شك. (وقارن ص ١٠٩ - عن نمط حياة الناس فى مراكش فى القرن الـ ١٦م/ ١٠هـ حيث الحصر الناعمة بدل المقاعد والفرش. أما أغطية الصوف فكان قياسها من ١٠-٢٠ ذراع).

(٢٢٩) الحسن الوزان، ص١٠٨ .(مع الإشارة إلى العصيد والكسكسى إلى جانب خبز الشعير بدون خميرة).

(٢٣٠) الاستبصار، ص٢١٢-حيث طعم الهرجان كالقمح المقلو.

(٢٣١) نزهة المشتاق، ص٢٣٢-حيث النحاس الأحمر .

الحديد(٢٣٢).

أما عن غرائب طسوت الغسيل ومعاجن دقيق الحنطة فكانت تلك التى تتخذ من دَرَق أو جلود السلاحف البرية الضخمة، وذلك في فحص قرية عفسيق فى بلاد جزولة (قزولة) غير بعيد من مراكش (٢٣٣). ومثل تلك المفاسل والمعاجن كانت تتخذ من الخشب، مثلها مثل القصاع (جمع قصعة) التى كانت تستخدم لتقديم الطعام.

الـــزى :

ومن الواضح أن الزى المغربى الدارج كان كما هو العادة ، كساء الصوف الذى يلتف به على الجسم التفافا (٢٣٤) حيث الكساء قطعة قماش صوفية يلفون بها أجسادهم بشكل وثيق - وقطعة تلتف حول الرأس ، مثله مثل الجرد عند أهل ليبيا (برقة وطرابلس وفزان) المحدثين ، وهو أشبه بالملاءة ، ومن الصوف الأبيض عادة ، ولكنه يرتدى ككسوة خارجية ، فكأنه «التوجا» عند الرومان.

وكان السروال معروفا عند أهل المدن ، بينما كان سكان الظواهر والأرياف الباردة ، كما فى الجبل مثلا ، يلفون سيقانهم بقطع القماش بدلا من السراويل (ماسبق ،ص ١٠٥ و هـ ٢٢١) . كما كانت ثياب الصوف والمآزر ، والعمائم تحمل من أغمات إلى بلاد السودان (٢٣٥).

وإلى جانب الكساء الذى يمكن اعتباره لباس أهل البوادى والريف كان هناك، البرنس (أو البرنوس) وهو الثوب الخارجى الذى يرتديه أهل الحواضر والقرى ،

---

(٢٣٢) نزهة المشتاق ، ص ٢٣٢ حيث الحديد المصنوع.

(٢٣٣) نزهة المشتاق، ص ٢٣٦ .

(٢٣٤) نزهة المشتاق، ص٢٢٧، وقارن الحسن الوزان، ص١٠٨.

(٢٣٥) نزهة المشتاق، ص٢٣٢ .

والذى اتخذ رمزاً لبربر البرانس من صنهاجة الحضر أو مصمودة الجبل (٢٣٦).

ورغم ماهو معروف من أن الذين يلبسون البرنس حالياً فى المغرب هم حفدة البتر على وجه الخصوص ، من حيث أن البرنس هو لباس الفرسان (٢٣٧) فإن نص الادريسي الذى يقرر فيه أن القبيلة المكناسية التى كانت تقيم أسفل منازل بنى عطوش - حيث المزارع والعمارات والكروم والكثير من شجر الزيتون والفراكه الرخيصة - كانت تسمى فى منتصف القرن ال٦هـ/ ١٢م «بنو برنوس» (٢٣٨) ، يرجح مقالة أن البرانس هم أهل الحضر ، وأن البرنس كان من شارات المصامدة على عهد الموحدين.

المـــرأة :

من الواضح أن المرأة المصمودية كانت سافرة ، مثل المرأة الصنهاجية عند المرابطين ، فهذا مايفهم من الروايات التى تعرف باهتمامها بشعرها الطويل الذى كان يظهر متكسراً (مموجاً) من استخدام زيت الهرجان مع المشط، محتفظا بسواده الحالك (ماسبق،ص ١٠٢).

ومن الواضح من النصوص المتناثرة عند الأدريسى أن المرأة المصمودية، رغم سمرتها ، كانت تتمتع بجمال فائق، كما كانت تحظى باهتمام زائد من قبل زوجها الذى كان غيورا مستعداً لارتكاب الحماقات مع من يحاول التقرب إليها (ص١٠٦ هـ ٢١٢) وهى إلى جانب عنايتها بترتيب شعرها والحفاظ علي شبابه، وبالتالى العناية بزيها الذى كان لايختلف كثيراً عن زى الرجل فى الشكل ، وإن أختلف

---

(٢٣٦) انظر ج١(ط ٢٠٠٠) ص ٩٧ - ٩٨ -عن البرنس عند البربر، والذى يمكن أن يكون له غطاء للرأس-حسب جورج مارسيه-لباس أهل الحاضرة، أو بدون غطاء (أى أبتر، فيكون لباس أهل البوادى من البتر.

(٢٣٧) ج١ص٩٩ .

(٢٣٨) نزهة المشتاق، ص٢٤٥ .

بعضه فى الرقة وفى الألوان ، كانت عاملة نشيطة تقوم بمختلف الصناعات (٢٣٩) من أعمال المنزل من الطبخ والغسل وإعداد الخبز ، إلى غير ذلك من أعمال إعداد الثياب والفرش ، من : الغزل والنسج والحياكة - وهى الأمور المتعارف عليها.

والمهم أنه رغم دخول البربر فى الإسلام منذ بداية الفتوح ، اعتباراً من بداية القرن الثانى الهجرى / ٨م ، فإن هذا لم يمنع المغاربة (البربر) من الحفاظ على بعض التقاليد القديمة، مما يعبر عن المكانة السامية التى كانت تتمتع بها المرأة، والتى تتمثل فيما كان يعطيه لها الرجل من الحرية وغيرها من الحقوق. فعند قبائل غمارة المعدودة من قبائل المصامدة فى بلاد الريف كانت عادة الموازبة معروفة غير منكرة . فعند زواج الفتاة كان يأتى شباب الحيّ إلى دارها - لزفافها إلى بعلها ، كما نرى. ولكنه تبعا للعادة كان للشباب الحق فى أن يوازبوها أى يحتفظون بها لديهم مدة تطول وتقصر حسب جمالها. هذا مع الاشارة إلى أن الغماريين كانت لديهم عادة إيناس ضيوفهم بنسائهم، إذ كانوا يرغبون فى أن يأخذوا من الرجل القوى أو الشجاع نسلا (٢٤٠).

وإذا كانت مثل هذه الأمور يمكن أن تقع كأحداث فردية أو تروى على أنها من الغرائب والعجائب التى كانت معروفة قديما لدى بعض الجماعات فى بعض المواضع المتطرفة ، فإننا لانستبعد أن تكون من الدعايات المغرضة التى ظهرت فى ظل الإسلام ، نتيجة لما كان يقوم بين القبائل من النزاعات والصراعات، أو لما كان يقع من النزاع الشعوبى بين العرب وغيرهم من أهل البلاد المفتوحة ، سواء من الفرس أو البربر (ج١ ص ١٢١-١٢٢).

السحر والطب :

هذا، كما عرف عند الغماريين كلفهم بأعمال الرقى والسحر ومعرفة الغيب .

---

(٢٣٩) نزهة المشتاق، ص ٢٤٤ - ٢٤٦ .

(٢٤٠) الاستبصار، ص١٩٢ .

ففى أواخر القرن الـ ٦هـ / ١٢م ، كان لأبناء وأحفاد أحد المشاهير من السحرة المهرة، وهو أبو كسية (تصغير كساء) «مزية وحظوة على من سواهم من الناس فى جبال مجسكة من بلاد غمارة» (٢٤١).

والظاهر أن أمثال هؤلاء السحرة كانوا يقومون «بشبه مايعرف حالياً بالتنويم المغناطيسى فيرقدون الوسيط الذى يغشى عليه باليومين والثلاثة دون أن يتحرك ، ثم يقوم ليأتى بالعجائب والغرائب «ممايكون فى ذلك العام من خصب أو جدب أو فتنة أو هدنة وغير ذلك من الكوائن والأحداث» (٢٤٢).

الطب والسحر والتجربة :

وأغلب الظن أن مثل هؤلاء السحرة كانوا يقومون بأعمال التطبيب والعلاج عن طريق الرقى ، وعن طريق الممارسة أيضا. فمن ذلك الاعتقاد فى بركة منبع وادى سبو ، نهر مدينة فاس فى التشخيص الطبى . فمنبع سبو كان فى بلاد بنى وارتين فى أواخر القرن الـ٦هـ/ ١٢م) ، وكان رأس العين في بئر غامض يهاب الدخول فيها. وكان للبربر المجاورين لها تجارب فى معرفة ما إذا كان المريض ، مرضا مزمنا عندهم ، يستريح من مرضه أو يموت. فكانوا يحملونه إلى تلك العين فيغطسونه فيها حتى يكاد يموت اختناقا بالغرق ، ثم يخرجونه ، «فإن خرج علي فمه دم فيستبشرون بحياته ، وأن لم يخرج من فيه دم ايقنوا بهلاكه (٢٤٣) والظاهر أن الأمر هنا يتعلق بالأمراض الصدرية والجهاز التنفسى.

---

(٢٤١) الاستبصار، ص١٩٢-حيث النص على أن أبا كسية كان يرهم مخالفيه بأذيتهم عن طريق تحول كساه الذى يلتحف به ، فكان يخيل إليهم كأن برقة تلوح من تحت كسائه، فيصابون فى مالهم أو أبدانهم أو كليهما-وكان عقبه قد ورثوا تلك المقدرة المخيفة، فتميزوا بها على سائر الناس.

(٢٤٢) الاستبصار، ص١٩٢-حيث النص على ان "هذا عندهم مستفيض مشهور" .

(٢٤٣) الاستبصار، ص١٨٤-حيث النص على انه أمر متعارف عندهم لا ينكر .

الفصل الثانى

الحياة الثقافية فى المغرب والأندلس
فى مطلع القرن الـ٦هـ/ ١٢م


A S R

الحياة الثقافية فى المغرب والأندلس

فى مطلع القرن الـ٦هـ/ ١٢م

لما كانت دعوة محمد بن تومرت التى قامت عليها دولة الموحدين حركة دينية ، مثلها مثل سابقتها الدولة المرابطية ، الأمر الذى دعا ابن خلدون - حسبما نرى - إلى استنباط نظرياته التى تقول بالأهمية البالغة للدين كقاعدة أساسية من قواعد بناء الدول الأسلامية لدى الشعوب الوحشية (البدوية)(كدولة العرب ولمتونة (المرابطية) ومصمودة الموحدية (١) ، وأن نادى بأن الأسر الحاكمة العربية ، عادة ماتكون أكثر اهتماما بأمور الدين من الأسر الأعجمية.

والمهم بالنسبة للدولة الموحدية أن مُنظّرها: محمد بن تومرت ، وهو المغربي المصمودى أى البربرى : لحما ودما ، تثقف ثقافة إسلامية عالية فى كبريات المراكز العلمية بالمغرب والأندلس ثم أنه قام من الأندلس بالرحلة العلمية (البعثة) إلى المشرق : مصر والشام والحجاز وبغداد - حيث النظامية - والإسكندرية.

وعمدتنا فى التعريف بالأحوال الثقافية فى مطلع القرن السادس الهجرى / ١٢م، فى الفترة التى تعادل رحلة ابن تومرت العلمية إلى المشرق وعودته إلى بلاده، مابين سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م وسنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١م ، هو كتاب الصلة لابن بشكوال ، حيث وقع اختيارنا على ٣٠ (ثلاثين) ترجمة لبعض العلماء ، يمكن أن تفيدنا فى الدراسة ، من حيث أن أصحابها كانوا من العلماء الذين عاشوا فى تلك

---

(١) انظر المقدمة، ط.التجارية بالقاهرة، الفصل٢٧، ص١٥١-حيث إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة، أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة......، وص١٥٨-حيث إن الدعوة الدينية تزيد الدولة فى أصلها قوة على قوتها العصبية....، واعتبر ذلك أيضا فى دولة لمتونة ودولة الموحدين..(حيث أن) الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة، فلم يقف لهم شئ.

الفترة المحددة أو في جزء منها ، وهم يقومون بنشر علمهم بين الباحثين عنه من الطلاب في مدارس المغرب أو الأندلس خاصة.

ومن البحث فى ذلك العدد المنتقي من تراجم العلماء المعاصرين لرحلة ابن تومرت العلمية ، نجد أن بلاد المغرب المرابطية ، وقتئذ ، كانت قليلة مراكز العلم ، حيث لانجد ذكراً إلا لمدينة سبتة - المعبر الجنوبى إلى الأندلس حيث تظهر أسماء ٤ (أربعة) من العلماء ، بينما لايأتى ذكر مدينة فاس إلا مرة واحدة ، مرتبطا مع سبتة بشكل عابر (٢) ، ومثل هذا يقال عن مدينة مراكش(٣).

أما عن مدارس الأندلس فكانت تتصدرها مدينة قرطبة بـ ١٤ (أربعة عشر) عالما (٤) ، تليها أشبيلية بـ ٥ (خمسة) علماء (٥) والمرية بـ ٤ (أربعة) علماء (٦) ثم غرناطة بعالمين اثنين (٧) ، ثم تأتى مدن بلنسية (٨) ،

---

(٢) انظر صلة ابن بشكوال، رقم١١٣١، ص٥٠٩-٥١٠-عن ابن الربوطى الذى سكن فاس ثم سبتة.

(٣) انظر صلة ابن بشكوال رقم٨٣٠، ص٣٨-حيث ترجمة عبد الغالب السالمى الذى انتقل من سبتة إلى مراكش.

(٤) عن علماء قرطبة انظر صلة ابن بشكوال، التراجم رقم ٦٤٠، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٨، ٧٩٢، ٨٠٨، ٩٤٣، ١١٣٨، ١١٤٣، ١١٥٤، ١١٥٧، ١٣٢٥، ١٤٠٣، ١٤٠٧ .

(٥) انظر صلة ابن بشكوال، التراجم رقم ٩٤٣، ٩٦٨، ١١١٨، ١١٤١، ١١٨١ .

(٦) عن المرية انظر صلة ابن بشكوال، التراجم رقم ٧٩٣، ٩١٣، ١١٤٦، ١٣٢٦ .

(٧) عن غرناطة، انظر، صلة ابن بشكوال، رقم ٩٠٨، ٩١٢ .

(٨) صلة ابن بشكوال، رقم٨٢١ (عن ابن قريال المولود بوادى الحجارة، والذى روي عن الطلمنكى بالمرية، وتوفى سنة٥٠٢هـ ببلنسية، ورقم١١٤٠ (عن محمد بن ظاهر، واصله من مرسية).

ومالقة (٩) ، وشلب (١٠) ثم أريولة (١١) ، ويمثل كلا منها أستاذ واحد.

والذى يستدعى الانتباه أن كثيرا من العلماء كانوا من المهاجرين عن مواطنهم ، سواء للأخذ أو للعطاء ، الأمر الذى كان يجعل من مراكز الأندلس العلمية مدرسة واحدة فى حقيقة الأمر ، وأهم ممثليها هم علماء قرطبة مدينة الجماعة ، العاصمة الثقافية الأزلية للأندلس. وهنا لاتغيب طليطلة - رغم ضياعها منذ سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٥م ، فقد كانت ممثلة إلى جانب غيرها من المراكز العلمية الأندلسية ، فى مطلع القرن الـ ٦هـ / ١٢م ، ببعض القدامي من مشاهير الأساتذة المهاجرين فى قرطبة (١٢).

رحلة ابن تومرت :

والأمر المستغرب أنه لايوجد ذكر لرحلة محمد بن تومرت بين مايذكره ابن بشكوال من رحلات الأندلسيين العلمية ، بل إنه لايوجد ذكر أبداً لاسم ابن تومرت بين الطلبة الوافدين على مشاهير الأساتذة المشارقة ، أو الوافدين على المشرق من العلماء الأندلسيين والمغاربة ممن كانت تلتف حولهم حلقات الدرس فى فنون العلم المختلفة ، على طول طريق الحج الطويل عبر الأسكندرية ومصر والشام والعراق ، الأمر الذى يضفى نوعا من الغموض حول الرحلة المهدية الموحدية . والحقيقة أن الشك يحيط بلقاء ابن تومرت بشيخ النظامية الكبير ، أبى حامد الغزالى أيضا ،

---

(٩) انظر صلة ابن بشكوال رقم ١١١٨ (عن احمد بن عبد الرحمن السرقطى الذى أقرى بحاضرة إشبيلية، وتوفى بمالقه سنة٥١١ هـ/١١١٧م.

(١٠) صلة ابن بشكوال ، رقم١١٢٩–حيث سمع بإشبيلية وأخذ بقرطبة.

(١١) عن أريولة (قرب مرسية) انظر صلة ابن بشكوال، رقم١١٣٦ (عن الرعينى، من تطيلة، وله رحلة، كما أخذ بالإسكندرية).

(١٢) صلة ابن بشكوال ٧٤٥، حيث عبد الرحمن بن يوسف الأموى، ورقم ١١٥٧، حيث محمد بن أحمد بن اسماعيل– الطليطلى الذى سكن قرطبة.

وهكذا لاتبدأ الرحلة فى الظهور كحقيقة تاريخية الا أثناء رحلة العودة عن طريق الإسكندرية ، وبالذات فى رحاب شيخ الإسكندرية الأندلسى المشهور وقتئذ ، وهو أبو بكر الطرطوشى، صاحب كتاب «سراج الملوك» حيث كان ابن تومرت قد بدأ يمارس رسالته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو فى طريق الذهاب إلى مجلس الطرطوشى ، قرب الباب الأخضر الغربى ، وفى طريق العودة حيث لقى فى سبيل ذلك الكثير من العنت والأذى (١٣).

وهكذا كان لنا فى نماذج الرحلة العلمية الأندلسية إلى المشرق ، وسير الشيوخ من العلماء الذين قاموا بها ثم مارسوا التعليم بعد ذلك ، مايمكن أن يعطينا صورة للحياة العلمية والثقافية التى كانت لها آثارها فى حياة ابن تومرت ، منذ اتخاذه طريق العودة إلى المغرب ، ومنذ نزوله بالاسكندرية على وجه الخصوص.

رحلة ابن تومرت العلمية فى المغرب:

كان الشاب المصمودى محمد بن تومرت يناهز السادسة والعشرين من عمره ، وهو يغادر ايجليز : بلدته، سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م ، مفتتحاً مرحلة دراسته العالية خارج الوطن الصغير ، بلاد السوس . وكان من الطبيعى أن تكون وجهته مدينة مراكش العاصمة ، القريبة من البلاد، وهو الأمر المقبول . فمراكش التى ناهزت الخمسين من العمر كانت وقتئذ حاضرة امبراطورية عظمى تمتد من السودان جنوبا إلى الأندلس شمالاً . وكان مركز الحكم فيها هو القصر الأميرى المعروف بدار الحجر، يتوسط القصبة التى تمثل المدينة الحكومية (الملكية) المحصنة ، فى مقابل مدينة العامة من أفراد الشعب. وبطبيعة الحال فقد كان المسجد الجامع بالمدينة بمثابة المركز الثقافى الرئيسى فى المدينة التى كانت قد بدأت تعج بالأندلسيين من رجال الحكم والحرس والدين والأدب والشعر ، من : الموظفين ككتاب فى الديوان وفى القضاء وإمامة الصلاة والخطبة والوعظ ، إلى جانب الوافدين لإعلان الطاعة

---

(١٣) انظر عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٧٩ .

والخضوع أو التهنئة والتماس التعطف والكرم.

وهكذا بدأت مراكش تتحول - إلى جانب صفتها الرسمية كمقر للحكومة المركزية - إلى مركز ثقافي متطور بفضل التأثيرات الأندلسية المتنامية مع مرور الوقت.

ويظهر تطور مراكش الثقافى والعلمى فى مطلع القرن الـ٦هـ/ ١٢م ، فى صلة ابن بشكوال فى موضع واحد من تراجم العلماء المنتقاة التى أعتمدنا عليها. فأبومحمد عبد الغالب بن يوسف السالمى الذى أخذ العلم عن القاضى أبى عبد الله بن شيرين وغيره ، كان عالما بالأصول والاعتقادات ، وهى العلوم التى اهتم بها محمد بن تومرت. والمهم أيضا أنه انتقل من الأندلس وسكن مدينة سبتة ، فكأنه أصبح من عماد مدرسيها ، حيث شغل منصب الخطبة بها ثم انتقل بعد ذلك إلى مراكش العاصمة، حيث توفى بها فى سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م ، أى في نفس الوقت الذى كان ينهى فيه ابن تومرت رحلة العودة ، ويبدأ مرحلة الأعداد للدعوة الموحدية الرائعة (١٤).

وممن لهم ذكر فى مراكش من العلماء الاندلسيين الذين كانوا فى حاشية الأمير على بن يوسف بن تاشفين ، الفقيه : مالك بن وهيب ، الذى ادرك خطورة ما كان يدعو إليه محمد بن تومرت ، مما كان لا يدركه مناظروه من الفقهاء. فمالك بن وهيب ، كما يعرِّف به صاحب المعجب ، كان قد شارك فى بجميع العلوم ، ولكنه كان لا يُظهر إلا مايتفق فى ذلك مع الايمان . فلقد رأى له عبد الواحد كتابا سماه : قراضة الذهب، ذكر فيه لئام العرب فى الجاهلية ، وضم إليه مايتعلق به من الآداب. هذا، كما كان لمالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة ، فكان له فيها كتاب الثمره لبطليموس فى الأحكام ، وكتاب المجسطى فى علم الهيئة ، وعليه حواش

---

(١٤) انظر ابن بشكوال، الصلة، رقم٨٣٠، ص٣٨٢-حيث النص على أن تلك المعلومة مستفادة من القاضى "أبو الفضل عياض"، السبتى.



رحلة ابن تومرت

بتقييده أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة اسمه أحمد الذهبي(١٥).

فـــاس :

أما عن فاس عاصمة المغرب الثقافية الأزلية ، فهي الأخرى لاتظهر في مجموعة تراجمنا المنتقاة من الصلة ، إلا في موضع واحد كما في مراكش . فمحمد بن على بن محمد الطليطلي ، المعروف بابن الريوطي الذى كان أعمى ، سمع من عبد الرحمن بن سلمي ، ومن أبي الوليد الباجي ، ثم إنه خرج إلى العدوة المغربية حيث سكن مدينة فاس ، وفيها ولي منصب الخطابة . وتوفي وهو يشغل منصب خطيب جامع سبتة في محرم سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م (١٦).

سبتـــة :

أما المركز الثقافي المغربي الثالث فكان مدينة سبتة ، باب الأندلس الجنوبي ، من حيث يبدأ الطريق إلى كل من فاس ومراكش . والمهم هنا هو أن سبتة تأتي في المركز الرابع بعد المرية في القائمة الانتقائية التي اخترناها للمراكز الثقافية في مطلع القرن الـ ٦هـ/ ١٢م ، فقد كان من حظ سبتة ٤ (أربعة) علماء ، هم:

١- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم الكتامي ، المعروف بابن المجوز ، من أهل سبتة . وهو فقيه بالوراثة (ابن فقيه ابن فقيه ابن فقيه) ، وهو من جلة فقهاء سبتة . ومن المهم أنه «كان يميل إلى الحجة والنظر»- وهي الميزة النادرة – خصوصا في عصر فقهاء المالكية . والأمر المستغرب أن الرجل العقلاني ، هذا ، كان من كبار العبّاد . فقد عرف عنه أنه كان يصلي الصبح بوضوء العتمة ،

---

(١٥) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص١٨٥ .

(١٦) ابن بشكوال، الصلة ورقم ١١٣١، ص٥٠٩ -حيث النص على أن تلك المعلومات مما أفاده بها القاضي أبو الفضل عياض .

بمعنى أنه كان يقوم طوال الليل فى الصلاة ، لمدة ٣٠ (ثلاثين) سنة.

هذا ، كما أنه ولى قضاء الجزيرة الخضراء ثم سلا حيث توفي بعد سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م (١٧).

٢- عبد الغالب السالمي الذي انتقل من سبتة إلى مراكش (ماسبق ،ص ١١٩).

٣-محمد بن عمر بن قطري الزبيدى ، من أهل أشبيلية ، سمع بالأندلس، ورحل إلى المشرق ، وسكن اشبيلية ثم انتقل إلى سبتة حيث توفى سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م(١٨).

٤- ابن الربوطى (١٨م):

وهكذا تكون سبتة هى الممر الذى كان يندفع عبره تيار التأثير الأندلسى فى المغرب ، فلا بأس أذن ان كانت أزهى المدن المغربية ثقافة فى تلك الفترة الخاصة برحلة محمد بن تومرت العلمية.

رحلة ابن تومرت العلمية فى الأندلس:

وأقرب نماذج الرحلة العلمية الأندلسية المشرقية إلى رحلة محمد بن تومرت ، مهدى الموحدين ، من حيث التوقيت شكلا على الأقل ، هى التى قام بها أبو القاسم عيسى بن ابراهيم بن عبد ربه بن جهور القيسى ، عالم كل من قرطبة وأشبيلية (١٩). وأصل أبى القاسم من مدينة طلبيرة ثم أنه تحول إلى مدينة شريش

---

(١٧) ابن بشكوال، الصلة، رقم٧٥٥ ص٣٤٨-حيث النص على رجوع الفضل إلى القاضى عياض (أبو الفضل) فى تلك الإفادة

(١٨) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٣٠ص٥٠٩

(١٨م) ما سبق ، ص ١١٦ و هـ ٢ .

(١٩) الصلة، لابن بشكوال، رقم٩٤٣، ص٤٣٢

الساحلية، قبل أن تبدأ رحلته العلمية في الأندلس مبتدئا بقرطبة حيث روى الحديث على أبي علي الغساني ، وأبي عبد الله محمد بن فرج الفقيه ، وحازم بن محمد ، وذلك مع مطلع القرن السادس الهجرى / ١٢م.

أما عن رحلته المشرقية فقد بدأت بعد سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م فى نفس تاريخ بداية رحلة ابن تومرت (ماسبق ، ص ١١٩). وكانت أهم أحداثها العلمية هو الدخول إلى بغداد ، عاصمة الخلافة العباسية ، ومقر النظامية : أشهرجامعة فى عالم الاسلام وقتئذ. وهناك لقي جماعة من العلماء ، كما دخل فى مناظرات مع عدد من الفقهاء . والمهم أنه التقى بكبار مشايخ العصر هنالك ، فأخذ عن أبى بكر محمد الحلواني، وأبى بكر محمد بن طرخان ، والشاشي. وكان ممن لقيهم فى بغداد أبو محمد القاسم بن علي الحريرى البصري، صاحب المقامات ، فأخذها عنه، إلى غير هؤلاء.

وهكذا عاد أبو القاسم بن جهور القيسي بعد الرحلة المشرقية إلى قرطبة ليحاضر طلبة العلم بها فى معارفه المختلفة ، من: الأدب واللغة والشعر الذى كان يغلب عليه، وأن كانت له مشاركة فى الفقة والحديث، وأصل الديانات ، وهي الأمور التى كان يهتم بها ابن تومرت من غير شك . هذا، كما عرفه أيضا طلبة أشبيلية التى توفى فيها بعد ذلك فى منتصف سنة ٥٢٧هـ/ أبريل ١١٣٣م (٢٠).

أما عن كبار الأساتذة القرطبيين الذين كانت تزهو بهم قرطبة وقتما كان ابن تومرت يدخل الأندلس ، فمنهم أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتّاب اللخمى (٤٣٣- ٥٢٠هـ/ ١٠٤١- ١١٢٥ م) ، الذى يعتبره ابن بشكوال آخر الشيوخ الجلة الأكابر ببلاد الأندلس فى علو الأسانيد وسعة الرواية (٢١).

---

(٢٠) ابن بشكوال، الصلة، رقم٩٤٣، ص٤٣٣ .

(٢١) ابن بشكوال، الصلة، رقم٧٤٤، ص٣٤٢ .

والحقيقة أن ابن عتّاب كان فى السابعة والستين من عمره ، وقتما كان ابن تومرت يدخل الأندلس ، بمعنى أنه كان من كبار الأساتذة، ولكنا لاندرى أن كان مثل ابن تومرت الذى كان فى السادسة والعشرين من عمره كان له الحق فى حضور مجلس مثل هذا الاستاذ الجليل ، إلا اذا جلس بعيداً عن الاضواء فى آخر صفوف الحلقة.

واذا كان قدامى الشيوخ ، مثل : أبي عمرو السفاقسي ، وأبى حفص الزهراوى ، وأبى عمر بن عبد البر قد أجازوا ابن عتّاب فى رواية علومهم الدينية ، فمن المهم بالنسبة لنا أن نشير إلى أنه أجاز له أيضا مؤرخ الأندلس الشهير أبو مروان بن حيّان «كتاب الفصوص» لصاعد (الأندلسي) عن مؤلفه صاعد.

والمهم أن ابن بشكوال يقيّم ابن عتّاب بأنه «كان حافظاً للقرآن ، عارفا برواياته وطرقه ، واقفا على كثير من تفسيره وغريبه مع حظ وافر من اللغة العربية ، وكتب بخطه علما كثيراً ، وجمع كتابا حفيلاً فى الزهد والرقائق ، سماه : شفاء الصدور». ومن المهم عن ابن عتّاب بعد ذلك أو قبله أنه «كانت الرحلة فى وقته إليه ، ومدار أصحاب الحديث عليه» ، وأنه «طال عمره وسمع منه الآباء والأبناء» (٢٢).

الطليطلى :

أما تلميذ ابن عتّاب ووريث علمه فهو عبد الرحمن بن عبد الله بن يوسف الأموى ، الطليطلى أصلاً ، والقرطبى سكنا ، وهو المعروف بـ «ابن عفيف» (٤٣٧- ٥٢١ هـ / ١٠٤٥-١١٢٧م) ، والذى أجاز له ابن عتاب جميع ما رواه (٢٣).

وابن عفيف الذي سمع ببلده طليطلة من أبى قاسم بن محمد بن هلال ، قبل أن

---

(٢٢) ابن بشكوال، الصلة، ص٣٤٢ .

(٢٣) ابن بشكوال، الصلة، رقم٧٤٥، ص٣٤٣-وعفيف هو جده لوالدته.

ينتقل إلى قرطبة ، كان مختصا بالشهادة (تعديل الشهود لدى القاضي) ، قبل أن يتولى وظيفة صاحب الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة. ويقيمه ابن بشكوال بكونه «شيخاً فاضلاً ، عفيفاً ، شهر بالخير والإصلاح قديما (في طليطلة) وحديثا (في قرطبة). والمهم بعد ذلك أو قبله أنه كان يعظ الناس في مسجده، (قبل ولاية الصلاة بالمسجد الجامع) ، وكانت العامة تعظمه.

هذا ، كما كان الناس يسمعون منه ويروون عنه ، وكان ابن بشكوال ممن سمع عنه ، وإن قرر أن ابن عفيف «لم يكن بالضابط لما رواه» (٢٤).

ابن الجمان:

أما آخر الفضلاء الذين كان يتبرك به في قرطبة حسب التقييم العام لابن بشكوال ، فهو أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد المعروف بابن الجمان (ت٦ صفر ٥٢٢هـ/ ١١فبراير ١١٢٨م) ، صاحب الصلاة بالمسجد الجامع، والذى روى عن أبى محمد عبد الله بن بشير المعافرى وغيره ، وكتب بخطه علما رواه . أما عن توصيفه العام ، فقد كان من أهل الخير والفضل والتواضع والصلاح والإقبال على مايعينه ويقربه من خالقه ، كما كان منقبضا عن الناس غير مختلط بهم (٢٥). والذى يفهم إلى جانب ذلك من أن جنازة ابن الجمّان كانت فى غاية الحفل ، هو ان الرجل كان من الأولياء الربانيين أكثر من كونه من الأساتذة العلمانيين.

وأما ابن حزمون : عبد العزيز بن عبد الله بن ، أحمد (٤٤٠- شعبان ٥٠٨هـ/ ١٠٤٨- ٤ يوليه ١١١٤م) فقد روى عن أبى حاتم بن محمد ، وأبى جعفر بن رزق الفقيه ، وعن أبي عبد الله محمد بن فرج الفقيه ، كما أجاز له أبو العباس العذرى.

وكان فقيها مشاورا فى الأحكام بقرطبة ، كما تولي إمامة الصلاة بالمسجد

---

(٢٤) ابن بشكوال، الصلة، ص٣٤٤ .

(٢٥) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٣٤٤ .

الجامع بقرطبة. والمهم أنه كان له باع طويل فى المناظرة ، حتى أنه كان يناظر أستاذه ابا جعفر بن رزق ، كما ناظر الناس عليه فى الفقه ، وانتفع به فى معرفته وعلمه (٢٦).

ومن سلالة الأمراء الأمويين بقرطبة يذكر أبو طالب عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ .. ابن الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٤٥٠- رمضان ٥١٦هـ/ ١١٠٦- نوفمبر ١١٢٢م). وله رواية عن أبى عبد الله محمد بن فرج الفقيه ، وأبى جعفر بن رزق ، وأبى عبيد البكرى (الجغرافى والمؤرخ المعروف) ، الأمر الذى سمح له بأن يجمع كتاباً حفيلاً فى التاريخ ، سماه بكتاب عيون الإمامة ونواظر السياسة - فكأنه فى نظم الحكم الاسلامية - أجازه لابن بشكوال ، الذى نقل منه فى بعض مواضع من كتاب الصلة - مرجعنا هذا.

أما عن تقييم ابن بشكوال لعبد الجبار سليل الأمويين الأندلسيين ، فتتلخص فى أنه «كان من أهل المعرفة بالآداب واللغة العربية والشعر» ، وأنه كان ذكيا نبيهاً (٢٧) - وهو في الختام المعبر عن ملكة الفكر والتفتح العقلى.

ابن حمدين الكبير:

وكان من أعلام العلماء فى مجموعتنا المنتقاة : أبو محمد على بن عبد العزيز بن حمدين قاضى الجماعة بقرطبة (٤٣٩-٢٦محرم ٥٠٨هـ/ ١٠٤٧- ٤ يوليه ١١١٤م - أثناء وجود محمد بن تومرت فى بغداد بالمشرق) و الذى تفقه عن أبيه ، وعن أبى عبد الله محمد بن عتّاب ، كما أجاز له عمر بن عبد البر، وأبو العباس العذرى ماروياه . واشتهر ابن حمدين «بأنه كان من أهل التفنن فى العلوم والافتتان بها وبمذاكرتها». أما عن تقييم ابن بشكوال له كعالم ، فيصفه بأنه «كان حافظا

---

(٢٦) ابن بشكوال، الصلة، رقم٧٩٢ ص٣٦٥-٣٦٦ .

(٢٧) ابن بشكوال، الصلة، رقم٨٠٨ ص٣٧٣ .

ذكيا فطنا ، أديبا ، شاعراً لغوياً ، أصولياً».

هذا . كما نجح في ولايته القضاء بقرطبة في شعبان سنة ٤٩٠هـ/ يوليه ١٠٩٧م. إذ «تولاه بسياسة محمودة وسيرة نبيهة» . ولما كان ابن حمدين من أهل الجزالة والصرامة والفضل والجلالة ، لما كان يشغل وظيفة قاضي الجماعة وقتما كان محمد بن تومرت في رحلته العلمية بالأندلس ، فإننا لانعرف إذا كان قد قدر لابن تومرت - الشاب الطالب - أن يلتقي به في بعض مجالسه العلمية أو أن يكون قد أخذ عنه بعض علمه مما أخذه عن الشيوخ أو مما أجازوه له. والمهم أبن بشكوال حضر جنازته التي صلى عليه فيها ابنه صاحب الأحكام أبو القاسم أحمد (٢٨).

ابـــن سلمـــة :

ومن العلماء الأندلسيين المعاصرين للعقد الأول من القرن الـ ٦هـ/ ١٢م ، يذكر أبو عامر محمد بن عبد الله بن محمد بن سلمة، من أهل قرطبة (٤٣٣- ١٧صفر ٥١١ هـ/ ١٠٤١- ٢١يونيه ١١١٧م). وروى أبو عامر بن سلمه عن أبي الحجاج الأعلم الأديب ، وقيد عنه ، كما أخذ عن أبي القاسم حاتم بن محمد الطرابلسي ، وأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الحافظ ، وغيرهم. والمعروف عنه أنه كانت له عناية بالعلم (الحديث) وسماعه وجمعه ، كما كانت له معرفة بالأدب ، واللغة ، والخبر ، ومعاني الشعر.

أما عن تقييم ابن بشكوال له فإنه « كان ذا جلالة ونباهة وصيانة ، الأمر الذي يدعوه الي الافتخار بأنه «قد أخذ عنه بعض شيوخنا وجلة أصحابنا». والأمر المستغرب أنه رغم أن الرجل كان من أهل قرطبة الا أنه عندما توفي «حمل إلى اشبيلية فدفن بها »، وفي ذلك يكتفي ابن بشكوال بالقول : «أخبرني بذلك ابنه أبو بكر - أكرمه الله (٢٩) - ربما لنذر نذره الرجل ، ووفاه له ابنه !».

---

(٢٨) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٣٨ ص٥١٢ .

(٢٩) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٤٣، ص٥١٣ .

ابن رشد الجد :

ونظير ابن حمدين فى قضاء الجماعة بقرطبة ، هو : ابو الوليد محمد بن احمد بن أحمد بن رشد المالكى (الجد) (٤٥٠- ذو القعدة ٥٢٠ هـ/ ١٠٥٨- ١٨مارس ١١٢٧ م) ، الذى كانت له إمامة الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة أيضا. روي أبو الوليد بن رشد (الجد) عن الفقيه أبي حفص أحمد بن رزق ، وعن مروان بن سراج ، وأبى علي الغساني ، كما أجاز له أبو العباس العذري مارواه.

واشتهر ابن رشد (الجد) بأنه «كان فقيها عالما، حافظاً للفقه ، مقدما فيه علي جميع أهل عصره ، عارفا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه ... نافذا فى علم الفرائض والأصول . كما عرف بحسن الخلق ، وسهولة اللقاء ، وكثرة النفع لخاصته وأصحابه وجميل العشرة لهم ، والحفظ لعهدهم ، والبر بهم».

أما عن تقييم ابن بشكوال له ، «فكان من أهل الرياسة فى العلم والبراعة ، والفهم مع الدين ، والفضل والوقار، والحلم ، والسمت الحسن ، والهدى الصالح».

وممن أشاد بعلم القاضى ابن رشد وفضله ، الفقيه ابو مروان عبد الملك ابن مسرة ، رفيق ابن بشكوال في الدراسة . فقد قرر أن شيخهم القاضى أبا الوليد كان يصوم يوم الجمعة دائما في الحضر وفى السفر ، كما عدد من تواليفة : كتاب المقدمات لأوائل كتب المدونة ، وكتاب البيان والتحصيل لما فى المستخرجة من التوجيه والتعليل ، واختصار المبسوطة ، واختصار مشكل الآثار للطحاوى - إلى غير ذلك من تواليفة ، التى اسمع التلاميذ بعضها ، وأجاز لهم سائرها.

ورغم نجاحه فى منصب قاضى الجماعة بقرطبة ، وسيره فيه «بأحسن سيرة وأقوم طريقة» إلا أن الأمر انتهى باستعفائه ، والانصراف إلى نشر كتبه وتواليفه ، وان ظل ملجأ للناس وناصحا لهم فى مهماتهم (٣٠).

---

(٣٠) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٥٤ ص٥١٨، وقارن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، نشر بروفنسال ١٩٤٨، ص٩٨-٩٩ .

ومن جلة علماء تلك الفترة التى نهتم بها ابن العوّاد : أبو الوليد هشام بن أحمد بن سعيد القرطبي (٤٥٢- آحد صفر ٥٠٩هـ/ ١٠٦٠ - ٢٤يوليه ١١١٥م) . تتلمذ ابن العوّاد علي الفقيه أبي جعفر بن رزق واختص به ، وأبى مروان عبد الملك بن سراج ، وأبي على الغساني ، وغيرهم.

ابن العوّاد :

وأشتهر ابن العوّاد بأنه كان من جلة الفقهاء ، وكبارهم وعلمائهم ، وخيارهم . وأنه كان حافظا للرأى ، مقدما فيه على جميع أصحابه - وهى ميزة نادرة ، كما نرى - استحق عليها التقدير والتميز . كما كان بصيراً بالفتيا ، عارفا بعقد الشروط وعللها ، حسن العقد لها ، مع دين وفضل ، وورع ، وأنقباض عن السلطان . وفى مقابل ذلك كان له إقبال على مايعنيه ، ومواظبة على نشر العلم وبثه ، وجميل العشرة لتلاميذه والمختصين به . وإلى جانب سعة الخلق وحسن اللقاء كان محببا إلى الناس ، حليما ، طاهراً ، لينا ، متواضعاً.

ويتمثل انقباض ابن العوّاد عن السلطان فى امتناعه عن قبول وظيفة القضاء ، رغم دعوته إليها أكثر من مرة.

أما فى مجال نشر العلم فقد كان «يختلف إليه خلق كثير على سبيل التفقه عنده والمدارسة ، فنفع الله به كل من أخذ عنه». وهكذا كانت جنازته حافلة بالمشاهدين وكان ابن بشكوال بين من حضرها (٣١).

ابن حزم الابن :

ويأتى من القرطبيين بعد ذلك ولد الفقيه الشهير ابن حزم الاندلس ، وهو أبو أسامة يعقوب بن على بن أحمد بن حزم (٤٤٠- جمادى الأولي ٥٠٣ هـ/ ١٠٤٨-

---

(٣١) ابن بشكوال، الصلة، رقم١٣٢٥ ص٥٩٣-٥٩٤ .

نوفمبر ١١٠٩م) وابن حزم الابن هذا روي عن أبيه ، وعن أبي عمر بن عبد البر بالإجازة ، وعن أبي العباس العذرى . ومذهب الظاهرية له أهمية خاصة عند محاولة تقييم مذهب التوحيد عند محمد بن تومرت ، كما أن له أهمية بالنسبة لتطور الأحوال المذهبية في الدولة الموحدية ، اعتباراً من عصر ثالث امرائها المنصور.

وفى تقييم يعقوب بن حزم يقول ابن بشكوال انه «كان من أهل النباهة والاستقامة» (٣٢).

ابن مغيث :

أما آخر القرطبيين الذين نعرض لهم ، فرغم تأخر تاريخ وفاته فإنه مقبول بسبب تاريخ ميلاده المبكر ، الذي يجعله فى الثالثة والخمسين من عمره في مطلع سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦م .وأنه : يونس بن محمد بن مغيث (٤٤٧- ٨جمادى الآخرة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م) ، من أهل قرطبة ، وشيخها المعظم ، الذي روى عن جده (مغيث) ، والقاضى ابن الحذاء ، ومحمد بن محمد بن بشير. وفى تقييمه يقول ابن بشكوال انه كان «قديم الطلب نبيه البيت والحسب... عارفا باللغة والإعراب ، كما كان راويا للحكايات والأخبار ... حافظا لأخبار أهل بلده ... بصيراً بالرجال وأيامهم ، وله معرفة بعلماء الأندلس وملوكها وسيرهم ، وأخبارهم». فكأنه كان يميل إلى أخبار المحدثين وتاريخ قرطبة وأخبار الأندلس الثقافية والسياسية على العموم ، وأن كان التقرير دون إشارة إلى مؤلفاته فى التاريخ الأندلسي، إن كانت له مؤلفات فيه (٣٣).

خصائص مدرسة قرطبة :

من هذا العرض يمكن تصنيف العلوم التى اشتغل بها القرطبيون من أهل العلم

---

(٣٢) ابن بشكوال، الصلة، رقم١٤٠٧ ص٦٢٨ .

(٣٣) ابن بشكوال، الصلة، رقم١٤٠٣ ص٦٢٧-٦٢٨

فى مطلع القرن الـ ٦هـ / ١٢م متدرجة نسبيا حسب النقاط على الوجه التالى:

١- الفقه	٦نقاط
٢- رواية الحديث والفتوى على مذهب مالك	٥ نقاط
٣- الخبر وسير الرجال من أجل التعديل والتجريح بالمعنى التاريخى	٣ نقاط
٤- علوم القرآن ، من : تفسير وغريب	٣ نقاط
٥- اللغة العربية والإعراب	٣ نقاط
٦- الآداب	١ نقطة
٧- الشعر ومعانيه	١ نقطة
٨- عقد الشروط	١ نقطة
٩- الأصول	١ نقطة
١٠- الفرائض	١ نقطة
١١- الرأى	١ نقطة

والواضح من هذا العرض أن علوم الحديث والفقه والفتوي (على مذهب مالك) كان لها التفوق فى مجال العلوم الدينية ، إلى جانب علوم الخبر ومعرفة الرجال والتاريخ التى كان لها ارتباطها بعلم الحديث ، ومنهج الجرح والتعديل (التاريخى).

أما علوم العربية فكانت دارجة أيضا لارتباطها بعلوم القرآن والحديث . بينما يأتى علم الأصول والاعتقاد إلى جانب منهج الرأي المضاد لمنهج النقل والتقليد، فى آخر القائمة ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لعصر سيادة الحديث (النقلى) وخاصة الفتوى على مذهب مالك.

وهنا لايغيب عن الذهن ماسجله عبد الواحد المراكشي من أن كثيرا من العلماء ، ممن كانوا قريبين من السلطان ، كانوا يظهرونماينفق من علم الحديث والفقه علي مذهب مالك ، ويخفون ماكانوا يعرفون من الفلسفة وأعمال الفكر - كنوع من التقية - كما كان يفعل مالك بن وهيب الذى قدر خطورة العلم الجديد ، المتمثل فى مذهب الأشعرى ، الذي حمله ابن تومرت معه فى عودته من المشرق (٣٤).

مدرسة اشبيلية :

وتأتى مدرسة اشبيلية فى أعقاب قرطبة ، وأقرب الإشبيليين إلى موضوعنا - زمنيا - هو ابن يربوع : أبو محمد عبد الله بن احمد بن سعيد (٤٤٤- ٥٢٢هـ/ ١٠٥٢- ١١٢٨م) . وأصل الرجل من شنترين الغرب ، نشأ في اشبيلية ، وروى فيها عن ابى عبد الله محمد بن منظور ، وعن أبى محمد بن خزرج ، كما سمع بقرطبة من أبي القاسم حاتم بن محمد ، وأبى علي الغساني - فكأن الرجل فى تكوينه العلمى اشبيلى - قرطبي ، وهو الأمر المقبول بالنسبة للعاصمتين اللتين كانتا تتسابقان فى مجال العلم والثقافة كفرسي رهان.

وهكذا كان ابن يربوع حافظا للحديث ، عارفا بأسماء رجاله ونقلته ، يبصر المعدلين والمجرحين. وكان أبو على الغسانى يعرف له حقه ويكرمه (٣٥).

أما محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله المقرى (ت ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) ، وهو من أهل سرقسطة ، فقد أخذ القراءات عن الشيخ القاضى ، الأمام ، أبى بكر بن العربى . ثم انه انتقل إلى حاضرة اشبيلية حيث كان يقرئ الناس (٣٦) .

ويأتى بعد ذلك عياش بن الخلف بن عياش بن مخراش المقرى (ت ٥١٠ هـ/

---

(٣٤) المعجب، ص١٨٥ .

(٣٥) ابن بشكوال، الصلة، رقم٦٤٠ ص٢٨٧-٢٨٨ .

(٣٦) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١١٨ ص٥٠٢ .

١١١٦م) ، وهو البطليوسي الذي سكن اشبيلية . . ولقد روى القراءات عن أبى عبد الله المغامى المقرى ، وكان من نوابغ تلاميذه حتى أنه أصبح استاذ قراءة القرآن الأول باشبيلية (٣٧).

أما محمد بن عمر بن قطري الزبيدي (ت٥٠١هـ/ ١١٠٧م) ، فهو اشبيلى قد بدأ سماع الحديث في بلده ثم أنه رحل إلى المشرق . ولما عاد درس فى اشبيلية قبل أن ينتقل إلى سبتة حيث توفى (٣٨). وعرف أبو عبد الله محمد بن أبي العافية (ت ٥٠٩هـ/ ١١١٥م) المعروف بالنحوى وبالمقرى جميعا ، لنبوغه في هذين العلمين ، كما أنه شغل وظيفة الإمام بجامع اشبيلية ولقد أخذ عن ابى الحجاج الأعلم ، الأديب وغيره. وأصبح من أهل المعرفة فى الأدب واللغة أيضا . وكان الناس يأخذون عنه (٣٩).

أبو بكر بن العربى :

وآخر من نذكره من الاشبيليين هو ابو بكر بن العربى : محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربى (٢١شعبان ٤٦٨ - ربيع الآخر ٥٤٣هـ/ ١١ أبريل ١٠٧٦ - أغسطس ١١٤٨م) ، الذي يعتبر بحق ختام علماء الاندلس ، وآخر أئمتها وحفاظها.

وتتمثل أهمية ابن العربي فى عدة نقاط ، أولها : أنه كان فى الـ ١٧ (السابعة عشر) من عمره عندما بدأ رحلته العلمية إلى المشرق بصحبة والده فى سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ، أى قبل رحلة ابن تومرت بـ ١٥ (خمسة عشر) عاما . وأنه إذا كان قد بدأ الدراسة فى الشام حسب رواية ابن بشكوال ، فإنه يكون قد سافر فى

---

(٣٧) ابن بشكوال، الصلة، رقم٩٦٨ ص٤٤٤ .

(٣٨) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٣١ ص٥٠٦ .

(٣٩) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٤١ ص٥١٣ .

البحر إلى هناك مباشرة ، حيث التقى بالشيخ أبى بكر محمد بن الوليد الطرطوشى، شيخ الاسكندرية بعد ذلك ، والذى أخذ عنه بها محمد بن تومرت فيما بعد .

أما عن العودة إلى أشبيليبة وحده دون والده المتوفى ، فكانت فى سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م ، وعمره وقد استكمل تعليمه ٢٥ (خمسة وعشرون) سنة ، وهو رقم قياسى فيما نرى- بالنسبة للمبتدئين من علماء ذلك العصر.

أما عن تحصيله فى المشرق فقد التقى بعدد من قدامى الأساتذة ، مثل: أبى الحسين بن عبد الجبار الصيرفى ، والشريف: أبى الفوارس طراد ، وأبى بكر بن طرخان ثم أبى بكر الشاشى وأبى حامد الطوسى (الغزإلى) وغيرهم.

وفى موسم الحج من سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م ، سمع بمكة من أبى على الحسين بن على الطبرى ، وغيره . أما بمصر والأسكندرية فلا ذكر لأسماء من أخذ عنهم ابن العربى من المحدثين بالرغم من أنه كتب عنهم ، كما يقول ابن بشكوال ، واستفاد منهم وأفادهم . أما عن العلم الذى قدم به إلى بلده اشبيلية فى سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م «فهو علم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة بالمشرق ».

وعن تقييم أبى بكر بن العربى عند ابن بشكوال ، فقد «كان من أهل التفنن فى العلوم والاستبحار فيها ، والجمع لها ، متقدما فى المعارف كلها ، متكلما على أنواعها ، نافذا فى جميعها ، حريصا على أدائها ونشرها ».

وهو إلى جانب ذلك «ثاقب الذهن فى تمييز الصواب منها » ، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق ، مع حسن المعاشرة ، ولين الكنف ، وكثرة الاحتمال ، وكرم النفس ، وحسن العهد وثبات الود » . ولقد شغل ابن العربى وظيفة قاضى اشبيلية «فنفع الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه» . وبعد أن صرف عن القضاء - لشدته وصرامته كما نرى -« أقبل على نشر العلم وبثه» . وكان ابن بشكوال من بين تلاميذه الذين قرأوا عليه وسمعوا منه بكل من اشبيلية وقرطبة ، كثيرا من

روايته وتأليفه (٤٠)

والمهم فى رحلة ابن العربى العلمية بالمشرق أنها تلتقى مع بعض ما قيل عن رحلة ابن تومرت المشرقية ، وما تمّ من لقاء بينه وبين الامام الغزالى وأبى بكر الطرطوشى ، الأمر الذى دعا المقرى إلى القول عن ابن العربى أنه «كان قد صحب المهدى محمد بن تومرت بالمشرق ، ولقى أبا بكر الطرطوشى» (٤١).

والحقيقة أن ذلك الأمر مشكوك فيه من عدة وجوه ، منها أن ميلاد ابن العربى سابق على ميلاد ابن تومرت بحوالى ٧ (سبع) سنوات ، الأمر الذى ترتب عليه أن رحلة ابن العربى بدأت فى سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، وابن تومرت طفل في العاشرة من عمره (مابعد ، ص١٤٤) . ومنها أن عودة ابن العربى إلى اشبيلية حاملا ما جمعه من علوم المشرق كان فى سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م ، الأمر الذى يسمح بالقول بأن العلم الذى حمله ابن العربى إلى اشبيلية وقرطبة كان دارجا أثناء بداية رحلة ابن تومرت فى الأندلس ، سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، وبالتالى يسمح بالقول بأن ابن تومرت يمكن أن يكون قد تعرف على علم ابن العربى ، أو أن يكون ابن تومرت قد حضر بعض مجالسه ، وابن العربى وقتئذ فى الـ ٣٣ (الثالثة والثلاثين) من عمره ، وأنه كان معترفا باستاذيته بعد ٧ (سبع) سنوات من رجوعه من المشرق.

وبناء على ذلك يمكن أن تكون قصة المقرى بشأن اللقاء بين ابن العربى وابن تومرت مقبولة ولكن فى اشبيلية أو قرطبة ، وليس بعيداً ، مكاناً وزماناً ، فى

---

(٤٠) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٨١ ص٥٣١-٥٣٢ ، وقارن النباهى، قضاة الأندلس، ص١٠٥-١٠٧

(٤١) المقري، نفح الطيب، ج٢ص٢٧ . وانظر رحلة ابن العربي الي بغداد، وفي مجموعة المصادر الاندلسية، رقم ٢٠ لمحمد بن يعلي (ص ٢٩٠ عن التوقيع الخلافي ليوسف بن تاشفين وص ٢٩٩ : عن السؤال عن اللقاء بين الغزالي وابن تومرت؟).

بغداد حيث المدرسة النظامية وحجة الإسلام الغزالى(٤٢).

أما عن حضور ابن تومرت مجلس الطرطوشي بالاسكندرية بمسكنه فى موضع مسجده الآن بشارع الباب الأخضر بحى الجمرك ، فهو موثق من قبل عبد الواحد المراكشي ، وابن خلكان (٤٣).

والذى نود الإشارة إليه هنا هو أن ابن العربى عمل على توحيد المدرستين القرطبية والاشبيلية فى مدرسة رائدة يمكن وصفها بالأندلسية ، وخاصة بعد انتقال كثير من علم طليطلة مع علمائها اليهما (مابعد ، ص١٤٥).

مدرسة المرية :

والمركز العلمى الأندلسي الثالث يتمثل فى مدينة المرية ، وهى المدينة البحرية ذات المواصلات السهلة (عن طريق البحر) مع المغرب وشرق المتوسط ، ومصر والشام ، من حيث يكون الدخول إلى الحجاز وبغداد.

وفى ضوء التحديد الزمنى بالنسبة لرحلة ابن تومرت يأتى أبو بكر عبد الباقى ابن محمد بن سعير بن قُرّيال (٤١٦ - رمضان ٥٠٢ هـ / ١٠٢٥ - ابريل ١١٠٩م) ، وأصله من وادى الحجارة ، روى عن المنذر بن المنذر ، وأبى الوليد هشام بن أحمد الكنانى ، وأبى عمر الطلمنكى ، وسكن فى آخر عمره بالمرية قبل أن يتوفى بمدينة بلنسية ، أما عن تقييمه العلمى : «فكان نبيها ، ذكيا ، حافظا ،

---

(٤٢) انظر المقرى، نفح الطيب، ج٢ص٢٧، هـ١-حيث الاشارة التى يسجلها المحقق تعليقا على صحبة محمد بن تومرت لابن العربى، فى الرحلة العلمية المشرقية، وحيث النص : " إن فى هذا القول (الصحبة)، نظراً" - مع إضافة نص الحلل الموشية الذى يقول : "وسئل ابن العربى هل لقى الإمام المهدى، وذلك فى مجلس عبد المؤمن، فقال :لم ألقه وإنما سمعت به" (الحلل، ص١٤٨).

(٤٣) المعجب، ص١٧٩، ووفيات الأعيان، ج ٥ رقم ٦٨٨، ص ٤٦ .

أديبا شاعراً» (٤٤).

ويأتي بعد ، ابن شعيع : ابو الحسن عبد العزيز بن عبد الملك (٤٣٠ - شعبان ٥١٤هـ / ١٠٣٨ - أكتوبر ١١٢٠ م). وهو من أهل المرية حقا ، سمع من أبى عمر بن عبد البر ، وروى عنه ، وعن أبى تمام القطينى ، المقرى النحوى ، وعن أبى القاسم خلف بن ابراهيم المقرى الطليطلي وغيرهم . هذا ، كما أقرأ الناس القرآن بجامع المرية (صانه الله) (٤٥) .

أما البلخي : أبو عبد الله محمد بن الحسن بن على بن يوسف الخولانى (ت ٥١٥ هـ / ١١٢١ م) فهو من علماء المرية أصحاب الرحلة . ولقد لقى جماعة من العلماء بالشام وغيرها من البلاد . وممن حدث عنهم ابو على الحسن الأهوازي ، وأبو الفرج سهل بن بشر الاسفرايينى ، وأبى الوحش سبيع بن مسلم ، وكذلك أبو حامد الطوسى (الغزالى) ، وغيرهم .

ويوصف البَلغى بأنه «كان رجلا صالحا ، متقللاً من الدنيا ، مقبلا على ما يعنيه ، لم يزل طالب علم إلى أن مات» (٤٦) .

ويعتبر أبو الحسن على بن عبد الله الجذامى (رمضان ٤٤١ - ١٦ جمادى الأولى ٥٣٢ هـ / يناير ١٠٥٠ - ٢ يناير ١١٣٧ م) من كبار علماء الأندلس ، فهو إن لم يكن صاحب رحلة إلى المشرق ، فهو يعتبر - فى رأينا - ممثلا لعلوم الأندلس الاقليمية وثقافتها المحلية . وهو اذا كان قد توفى متأخراً بعض الشئ فى سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م ، فإنه فى مطلع سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦م يناهز الستين من

---

(٤٤) ابن بشكوال، الصلة، رقم٨٢٢ ص٣٧٩ .

(٤٥) ابن بشكوال، الصلة، رقم٧٩٣ ص٣٦٦-مع الإشارة إلى أن عبد الله القطان كان يثنى عليه، كما كان يصحح سماعه من ابن عبد البر، وهو الأمر الذى كان ينكره البعض .

(٤٦) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٤٩ ص٥١٦ .

العمر . وعن أساتذته ، فقد روى عن أبى العباس العذرى كثيراً ، واختص به ، وسمع من القاضى أبى اسحق بن وردون ، والقاضى أبى بكر بن صاحب الأحباس ، وغيرهم .

هذا ، كما أجاز له أبو عمر بن عبد البر ، وابو الوليد الباجي ، ماكانا قد روياه لابن بشكوال وزملائه.

وفى تقييم ابن بشكوال لابى الحسن الجذامى ، قال : «كان من أهل العلم والمعرفة والذكاء والفهم ، وجمع فى تفسير القرآن كتابا حسناً» . كما كان «له معرفة بأصول الدين».

هذا ، وقد أخذ الناس عنه ، كما كتب لابن بشكوال وزملائه بإجازه ما رواه ، الأمر الذى يؤكد مانراه من أن الرجل كان ممثلا فعلا لعلوم الأندلس وثقافتها فى مطلع القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م (٤٧).

مدرسة غرناطة :

بعد ذلك تأتى غرناطة فى المركز الرابع كمدرسة علمية مرموقة ، تبعا للنخبة المنتقاة من علماء الأندلس الذين كان يمكن أن يكونوا ممن التقى بهم محمد بن تومرت ، وهو يقوم برحلته العلمية هناك .

ويعتبر أبو الحسن على بن أحمد بن كرز الأنصارى (توفى بغرناطة فى شهر رمضان سنة ٥١١ هـ / ديسمبر - يناير ١١١٧ - ١١١٨م) من أهل غرناطة ، من كبار الأساتذة الممثلين للثقافة الأندسية فى بداية القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م . فقد روى عن أبى القاسم المقرى ، وأبى عبد الله الطرفى المقري ، وأبى محمد غانم المالقى ، وغيرهم. وكانت له عناية خاصة بالأقراء وسماع العلم (الحديث) من الشيوخ ،

---

(٤٧) أنظر ابن بشكوال، الصلة، رقم٩١٢ ص٤١٩

وروايته عنهم. وفي ذلك يقيّم بأنه «كان ثقة فاضلا» (٤٨) .

أما ثاني علماء غرناطة في قائمتنا المنتقاة ، فهو أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري (٤٤٤ - ١٣ من محرم ٥٢٨ هـ / ١٠٥٢- ١٣ نوفمبر ١١٣٣) ، من أهل غرناطة ، درس بقرطبة فروى عن أبي علي الغساني ، والقاضي أبي الأصبغ بن سهل ، ومحمد بن سابق الصقلي . وعن معارفه العلمية « كان من أهل المعرفة بالآداب ، واللغات والتقدم في القراءات ، كما كانت له مشاركة في الحديث . أما عن تقييمه العلمي ، فكان «من أهل الرواية والاتقان والدراية ، مع الدين والفضل» ، وفي مجال نشر العلم : سمع الناس منه كثيراً ، كما بعث لابن بشكوال باجازة خطية لما رآه (٤٩).

من المدن الأندلسة المختلفة:

ونأتي بعد ذلك ببعض نماذج من مشاهير المدن الأندلسية ، من : مالقه وشلب وتطيلة ومرسية وطليطلة . أما عن طرطوشة فنجعل ممثلها شيخ الاسكندرية الشهير:أبا بكر الطرطوشي.

مالقة :

ومثل مالقة هو محمد بن سليمان بن خليفة (٤١٧ - ٥٠٠ هـ / ١٠٢٦ - ١١٠٦ م) ، ويعتبر من النماذج المعاصرة لبداية رحلة ابن تومرت ، وان كان يبلغ الـ ٨٤ (الرابعة والثمانين) عند وفاته في أول القرن الـ ٦ هـ / ١٢م . ولقد روى عن أبي عبد الله بن عتّاب ، والقاضي أبي الوليد الباجي . واستقضى ببلده مالقة ،

---

(٤٨) ابن بشكوال، الصلة، رقم٩٠٨ص٤١٧ .

(٤٩) ابن بشكوال، الصلة، رقم ٩١٢ ص٤١٩-حيث الإشارة إلى أن مصدر هذه المعلومات هو صهر الأنصاري : أبو عبد الله النميري زميله في الدراسه .

وسمع منه الناس كثيراً (٥٠)

شلب: أما عن ممثل شلب ، فهو كبير المفتين بها : محمد بن أحمد بن مسعود (٤٤٠ - ذو الحجة ٥٠١ هـ / ١٠٤٨ - يوليه ١١٠٨م) الذى يعتبر من النماذج الجيدة لمعاصرته لرحلة محمد بن تومرت . فلقد سمع صحيح البخارى من أبى عبد الله بن منظور باشبيلية وأخذ بقرطبة . وفى علمه : «كان حافظا على مذهب مالك وأصحابه ، بصيرا بالفتيا ، عارفا بالشروط وعللها - وسمع الناس منه».

وفى تقييمه : «كان جيد الفهم ، تغلب الدراية عليه عن الرواية ، وله كتاب فى الوثائق لم يكمله» (٥١).

تطيلة: وممثل تطيلة هو أبو عبد الله محد بن ابراهيم بن سعيد بن الخلف الرعينى (٤٤٦-٥٠٧ هـ/ ١٠٥٤ - ١١١٣ م) ، الذى كانت له رحلة حج . فبعد سماعه بسرقسطة من القاضى أبى الوليد الباجى ، سمع بالاسكندرية من أبى الفتح السمرقندى وغيره ، وبمكة لقى أبا معشر الطبرى ، وقرأ عليه القرآن بالروايات (المختلفة) . أما عن تقييمه «فكان ثقة خياراً» . وقد أخذ عنه بعض زملاء ابن بشكوال . وكانت وفاته بأربولة غير بعيد من مرسية(٥٢).

مرسية:

وعالم مرسية هو : ابو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر (ت ٥٠٧ هـ / ١١١٤ م) . روى عن أبى الوليد بن سيقل الذى أجاز له ما رواه عنه . وفى تقييمه قيل أنه كانت له عناية ودراية ، وقد أخذ عنه بعض زملاء أبن بشكوال . وتوفى

---

(٥٠) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٢٦ ص٥٠٨ .

(٥١) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٢٩ ص٥٠٩ .

(٥٢) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٣٦ ص٥١١ .

ابن طاهر ببلنسية ، وسيق ميتا إلى بلده مرسية ، حيث دفن (٥٣).

طليطلة : أما عن ممثل مدينة طليطلة ، فيظهر فى قرطبة كممثل للبقية الباقية من تراث المدينة التى سقطت منذ سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م.

والعالم الطليطلى أصلا ، هو : أبو عامر محمد بن أحمد بن اسماعيل ... (٤٥٩ - ٥٢٣ هـ / ١٠٦٦ - ١١٢٨م) . روى ببلده (طليطلة) عن أبى المطرف عبد الرحمن بن سلمه ، وأبى المطرف عبد الرحمن بن أسد ، وأبى أحمد جعفر بن عبد الله وأبى حفص بن كريب ، والقاضى محمد بن خلف بن السقاط ، والقاضى أبى بكر البياسى ، ومرزوق بن فتح ، وأبى يعقوب بن حماد ، ومحمد بن محمد بن جماهر ، وغيرهم.

هذا . كما أجاز له أبو بكر بن جماهر بن عبد الرحمن ، والقاضى أبو الوليد الباجى ، وأبو العباس العذرى . وهنا ينص ابن بشكوال على أنه رأى خط جميع من تقدم من أصحاب الأجازات له من الشيوخ الا خط جماهر بن عبد الرحمن. وكان أبو عامر معتنيا بلقاء الشيوخ ، جامعا للكتب والأصول ، وكانت عنده جملة كبيرة من أصول علماء طليطلة وفوائدهم ، كما كان مهتما بذكر أخبارهم ... الأمر الذى جعله مصدرا لاغنى عنه فى معرفة التراث العلمى الطليطلى.

هذا ، ولقد سمع من أبى عامر بعض زملاء ابن بشكوال ، ولكن البعض منهم ترك «التحدث عنه لأشياء اضطرب فيها من روايتها » وكان ابن بشكوال من اولئك الذين شاهدوا (ذلك الاضطراب) وتأكدوا منه (٥٤).

طرطوشة : ابو بكر

وأخيرا يأتى ممثل طرطوشة الذى حضر مجلسه وسمع منه محمد بن تومرت فعلا

---

(٥٣) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٤٠ ص٥١٣ .

(٥٤) ابن بشكوال، الصلة، رقم١١٥٧ ص٥٢٠-٥٢١ .

، ولكن فى الاسكندرية ، وهو فى طريق العودة إلى بلاده بالمغرب الأقصى بعد حوالى ١٥ (خمسة عشر) عاما من سماع ابن العربى له (ماسبق ، ص١٣٦)

والطرطوشى (السكندرى) هو : أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان ابن أيوب الفهرى ، المعروف بابن رَنْدقة (ت شعبان ٥٢٠ هـ / أغسطس ١١٢٦م). وعند دراسته تتلمذ على القاضى أبى الوليد الباجى بسرقسطة ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه (الحديث) ، وأجاز له (مارواه).

ورحل الطرطوشى بعد ذلك إلى المشرق - فيما كانَ يشبه البعثة العلمية الآن بالخارج - فحج ، ودخل بغداد والبصرة فتفقّه عند أبى بكر الشاشى ، وأبى أحمد الجرجانى ، وسمع بالبصرة أبا على التسترى . ثم أنه سكن الشام (دمشق) مدة ، ودرَّس بها.

وفى وصفه قيل : «كان إماما عاملا ، زاهداً ، ورعا ، ديِّنا ، متواضعاً ، متقشفا ، متقللا من الدنيا ، راضيا منها باليسير».

أما عن تقييم القاضى ابى بكر المعافرى - استاذ ابن بشكوال - له ، «فوصفه بالعلم والفضل والزهد فى الدنيا والاقبال على مايعنيه . وعرف الطرطوشى بالزهد والتقوى ، فقد كان يفضل العمل للآخرة على العمل للدنيا (٥٥)

والأمر المستغرب هو أن ابن بشكوال يمُر مَّر الكرام على الفترة الحافلة من حياة الطرطوشى بالاسكندرية ، دون ذكر لارتباطها بالأحداث السياسية والثقافية فى

---

(٥٥) - ابن بشكوال الصلة ، رقم ١١٥٣ ص ٥١٨ - حيث النص على أن من يعمل للآخرة يحصل له أمر الدنيا والآخرة ، وأنه كثيرا ما كان ينشد فى ذلك.

إن لله عبادا فطنــــا ... طلقــوا الدنيا وخافوا الفتنــا

فكروا فيها فما علمــوا ... أنهـــا ليست لحيّ وطنـــا

جعلوها لجة واتخـــذوا ... صالـح الأعمـال فيها سفنـا

مصر الفاطمية فى مطلع القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، أو الاشارة إلى ماجعل الاسكندرية فى عصر الطرطوشى مركزا علميا مرموقا يتردد عليه المغاربة والأندلسيون في ثنايا رحلتهم إلى الحج التى صارت رحلة علمية بالنسبة لكثير منهم . ومنهم محمد بن تومرت الفقيه السوسي مؤلف العقيدة والمرشدة، ومهدى الموحدين واضع اللبنات الأولى فى الدولة المؤمنية ، وهو ما عرض له عبد الواحد المراكشى(٥٦).

ويظهر من استقصاء مجموعة العلوم الدارجة في اشبيلية ومدن الأندلس الإقليمية الأخرى أن تلك المجموعة تمثل قائمة لاتختلف كثيراً عن قائمة علوم قرطبة النوعية ، وإنْ اختلفت عنها نسبيا. فالحديث وما يلحق به من أسماء الرجال المعرضين لمنهج التعديل والتجريح ، له الغلبة بـ ٢٢ (ثنتين وعشرين) نقطة ، تتلوه القراءات (القرآنية بـ ٩ (تسع) نقاط ثم اللغة والأدب والنحو والشعر بـ ٦ (ست) نقاط . وبدلا من الرأى (والاستنباط) يظهر مصطلح جديد ، هو : الدراية (حيث : تغلب الدراية عليه عن الرواية) بـ ٣ (ثلاث) نقاط ، والفقه والفتيا بنقطتين ، وأصول الدين بنقطة واحدة ، وكذلك الزهد أو التصوف بنقطة واحدة.

ومن هذا العرض لثقافتى قرطبة والأقاليم الأندلسية فى مطلع القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، تتضح سيادة العلوم الدينية على غيرها من العلوم المدنية ، نظرية كانت أم تجريبية . ومن بين علوم الدين كانت تسود علوم الفروع ممثلة فى علوم الحديث والسنة التى كان لها فضل فى تقدم علوم الخبر وسير الرجال بمعنى التاريخ . وأمام سيادة العلوم النقلية هذه تراجع استخدام العقل والرأى عند العلماء ، الأمر الذى كانت له ردته العكسية التى تتمثل فى ظهور مبدأ «تغلب عليه الدراية عن الرواية» أو «له دراية وعناية» ، وهو المبدأ الذى بدأت تهب رياحه على المغرب قادمة من العراق حيث نظامية بغداد ، وإمامها أبو حامد الطوسى (الغزالى) ،

---

(٥٦) انظر المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص١٧٩

الذى أخذ على عاتقه إحياء علوم الدين ، ليس عن طريق العقل فقط ، بل بشيء من الروحانية التي تنفث فيه الحياة من جديد ، عن طريق التوفيق بين المذاهب المختلفة ، فكان كتابه «إحياء علوم الدين» . وفى مقابله ظهر كتاب «سراج الملوك» للطرطوشى ، الذى رفع به هو الأخر راية الزهد فى الدنيا لينفتح الطريق أمام الدنيا والآخرة (ماسبق ص١٤١) . وعن هذا السبيل انفتح الطريق أيضا أمام محمد بن تومرت ، فى محاولة التوفيق بن المذاهب الاسلامية أو التلفيق ، فكان مذهبه المبتكر فى « التوحيد » دعوة إلى رفع راية «التجديد».

الرحلة المشرقية وعودة محمد بن تومرت إلى المغرب

اذا كانت معلوماتنا عن رحلة ابن تومرت العلمية فى الأندلس لاتتعدى تحديد التاريخ مابين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م وسنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م ، إلى جانب أنه دخل قرطبة ، وأخذ عن اساتذتها العلم ، وأنه خرج من الأندلس نحو الشرق فى إحدى السفن المقلعة من ميناء المرية - حيث أخذ العلم أيضا - نحو بلاد الشام (٥٧). فإن معلوماتنا قليلة أيضا عن رحلته العلمية المشرقية ، كما انها أيضاً ليست أكيدة . ويكفى أن الرواية التى تقول إنه التقى بالغزالى فى العراق ، وفى نظامية بغداد على وجه الخصوص ، وأنه أخذ عليه العلم ، وتحاور معه فيما ألمّ بكتابه «إحياد علوم الدين» من الرفض الذى بلغ إلى حدّ الحرق هى الأخرى لايشك فى صحتها فقط ، بل مقطوع بغلطها تماما (٥٨).

---

(٥٧) انظر البيدق، ص٢٩ وهـ١-حيث تتلمذ بها وبقرطبة على القاضى ابن حمدين (عن الزركشي وريشى، وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص٣-حيث تأصيل الراوية بنسبتها إلى ابن وسنار، خادم المهدى من أهل الخمسين ، وترجيح سنة٥٠١/١١٠٧م كبداية للرحلة على سنة٥٠٠هـ/١١٠٦م، والنص على أنه سار إلى الإسكندرية، وهو الأمر المغلوط من حيث إنه أخذ عن الطرطوشى بالإسكندرية فى رحلة العودة، وليس فى رحلة الذهاب (كما يأتي).

(٥٨) انظر ما سبق عن ابن العربى ورحلتة إلى المشرق وأخذه عن الغزالى، ص١٣٧ والهوامش، وعن حرق كتاب الإحياء بالأندلس، انظر ج٤ ص٤١٥ وما بعدها، وعن الحكايات القصصية=

بداية الرحلة المشرقية لطلب العلم :

إن غياب المعلومات عن رحلة محمد بن تومرت العلمية فى الأندلس يعنى أن الرجل لم يمض طويل وقت بالأندلس ، ولابأس أن كانت رحلة الأندلس مجرد عبور أكثر منها إقامة استقرار . وأغلب الظن أنها لم تتعد تاريخيا سنتى ٥٠٠ هـ / ١١٠٦م - ٥٠١ هـ / ١١٠٧م لرحلة الأندلس ، والتى تشير بعض الروايات إلى أنه أخذ فيها على القاضى ابن حمدين الاشبيلى ، بقرطبة (ماسبق، ص١٢٥). أما عن المحطة التالية التى قصدتها مركب المرية فالدارج أنها بلاد المشرق بشكل عام بدءاً ببلاد الشام ، وإن لم تحدد الميناء الذى نزل فيه ابن تومرت ، والذى ينبغى أن يكون من موانئ الجنوب مابين صور وعسقلان وعكا ، بعيداً عن تهديدات الحروب الصيليبية الناشئة وقتئذ (٥٩). أما عن الرواية التى تجعل نزوله فى الاسكندرية

=لاجتماع ابن تومرت بالغزالى انظر عبد الواحد المراكشى، والمعجب، ص١٧٨-حيث : وقيل إنه لقى أبا حامد الغزالى بالشام أيام تزهده، فالله أعلم، ص١٧٩-حيث وحكى أنه ذكر للغزالى ما فعل أمير المسلمين بكتبه التى وصلت إلى المغرب، من إحراقها وإفسادها، وابن تومرت حاضر فى المجلس، فقال الغزالى حين بلغه ذلك :ليذهبن عن قليل ملكه، وليقتلن ولده، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضراً مجلسنا، فكان ابن تومرت يحدث نفسه أيضا بالقيام عليهم، فقوى طمعه، وكرّ راجعا إلى الاسكندرية، وقارن ابن القطان، ونظم الجمان، ص١٦-حيث تطورت الرواية إلى حكاية تمثيلية طريفة منسوبة إلى رجل صالح من أهل فاس، ومشهدها فى حلقة الغزالى بالمدرسة النظامية ببغداد. وتبدأ بدخول رجل كث اللحية على رأسه كرازى صوف، وهو محتب بكساء- وهى الملابس المغربية وقتئذ. ويسأل الغزالى الرجل بعد أن عرف أنه من أهل المغرب، إن كان قد دخل قرطبة، وعما إذا كان قد انتهى إليهم كتاب الإحياء ؟ ويخبره الرجل بعد وجوم وخجل وصمت : أن القوم مقلدون، ولم يعرفوا قدره، وأنهم رفعوا إلى سلطان العدوة والأندلس فى شأنه، وانه ينبغى أن يحرق، فأمر باحراقه. وتغيّر وجه أبى حامد الغزالى ومدّ يده للدعاء والطلبة يؤمنون، فقال فى دعائه :اللهم مزّق ملكهم كما مزقوه، وأذهب دولتهم كما أحرقوه. وعندئذ يقوم أبو عبد الله السوسي (محمد بن تومرت)، فيقول : ادعُ الله أيها الامام ان يكون ذلك على يديّ، وكررها مرات ثلاث حتى أمّن الغزالى على طلبه.

(٥٩) انظر فيليب حتى، تاريخ العرب المطول،ج٢ ص٧٥٨-٧٥٩.

فهى تخلط مابين طريق رحلة الذهاب ورحلة العودة (٦٠).

وفى الشام قرأ على الإمام أبى عبد الله الحضرى (٦١) . ومن الشام (أول بلاد المشرق) سار ابن تومرت إلى مكة لقضاء فريضة الحج ، قبل أن يدخل العراق ، حسبما تنص على ذلك رواية البيدق (٦٢) ، وهو الاستفتاح المبارك بالنسبة للشاب المتحمس فى عنفوان فتوته لتحصيل العلم (٦٣) . ومن مكة دخل العراق كما تشير غالبية الروايات ، صراحة أو ضمنا (٦٤) . وواضح أن المقصود بالعراق هي

---

(٦٠) انظر البيدق، ص٢٩-حيث :اخذ العلم بقرطبة ثم المرية، ومنها رحل إلى المشرق عن طريق البحر فحل بالاسكندرية، وقارن عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٧٨-حيث رحل إلى المشرق فى شهور سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م فى طلب العلم وانتهى إلى بغداد، ثم رواية أخرى عن لقائه الغزالى ببلاد الشام أيام تزهده، ابن القطان، نظم الجمان، ص٤-حيث.... ثم مشى من قرطبة إلى المرية فدخل منها فى مركب إلى المشرق، ابن الأثير، ج١٠ص٥٦٩(سنة٥١٤هـ/ ١١٢٠م) - حيث : رحل ابن تومرت فى شبيبته إلى المشرق فى طلب العلم، ابن خلكان، الوفيات،ج٥ص٤٦-حيث نفس رواية بن الأثير عن الرحيل إلى المشرق فى شبيبته طالبا العلم، قارن النويرى، نهاية الأرب (ابو ضيف)،ص٣٩٥، وابن أبى زرع، روض القرطاس، ص١٧٢-حيث رحل إلى المشرق فى طلب العلم، وانظر الحلل الموشية، ص١٠٤-حيث :وجاز فيها (٥٠٠هـ/١١٠٦م) من مرسى المرية فى مركب إلى الشام.

(٦١) الحلل الموشية، ص١٠٤ .

(٦٢) البيدق ص٢٩ .

(٦٣) انظر ابن القطان، ص٥- حيث النص على أنه فى عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م عاهده أهل التحقيق من العارفين به - رضي- وبايعوه ببعض سرّه.

(٦٤) البيدق، ص٢٩(بعد أداء فريضة الحج)، عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٧٨ (حيث انتهى إلى بغداد)، ابن الأثير، ج١ص٥٦٩ (حيث النص على أنه رحل إلى المشرق، ولكن اجتماعه بالغزالى والطرطوشى كان بالاسكندرية مع نفى اللقاء مع الغزالى ، ابن خلكان، ج٥ص٤٦ (حيث انتهى إلى العراق، واجتمع بالغزالى والكيا الهراسي والطرطوشى، وغيرهم ، النويرى (أبو ضيف)، ص٣٩٦(حيث وصل فى سفره إلى العراق واجتمع بالغزالى-وقيل لم يجتمع به)، روض القرطاس، ص١٧٢(حيث الرحلة إلى المشرق، ولقائه للغزالى وأخذه عنه لمدة ٣ سنوات متوالية)، الحلل الموشية، ص١٠٤(حيث قرأ ببغداد على الإمام الغزالى).

بغداد عاصمة الخلافة ، حيث لقى فخر الإسلام أبا بكر الشاشي (ت٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) فأخذ عليه شيئا من أصول الفقه ، وأصول الدين (٦٥) . هذا ، كما سمع هناك الحديث على الشيخ المبارك بن عبد الجبار ، ونظرائه من شيوخ المحدثين (٦٦). أما عما يقال عن أخذه العلم عن الغزالى ، فمعلومات مغلوطة خاطئة أو أسطورية شعبيه مما سبقت الاشارة اليه (٦٧). ومن الواضح أن تلك الروايات لم تظهر الا بعد رحيل ابن تومرت إلى الشرق والعراق ، ابتداء من سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، حينما قام قاضى قرطبة ابن حمدين بمقاطعة كتب الغزالى وخاصة الإحياء (٦٨) وهو الأمر الذى قد يفسر رواية صاحب كتاب روض القرطاس ، ابن أبى زرع ، التي تنص على أن ابن تومرت لقى الغزالي وأخذ عنه لمدة ٣ سنوات متوالية (٦٩) .

والحقيقة أن شيوع رواية لقاء ابن تومرت بالغزالى ، رغم الشك فيها أو الرفض لها إطلاقا ، إنما يعبر عن هيمنة فكر الغزالى الجديد ، فى إحياء علوم الدين ، الذى يناهض علم فقهاء المحدثين من النقلة والمقلدين ، والذى يدعو إلى رحابة التفسير

---

(٦٥) عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٧٨، والهوامش حيث الاشارة إلى أن المقصود بأصول الدين هو علم الكلام-الذى يقصد به الدفاع عن الدين بإستخدام الأساليب العقلية والمنطقية، كمانرى، وانظر محمد شاكر الكتبى عيون التواريخ، ج٢ص٢١-حيث يذكر فى وفيات سنة٥٠٧هـ/١١١٣م، وينص على أن أبا بكر شاشى الأصل (من منطقة طشقند : مدينة الشاش أى عاصمتها)، فارقى المولد، معروف بالمستظهرى. وهو شافعى المذهب، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد فى شعبان سنة٥٠٤هـ/فبراير١١١١م إلى حين وفاته.

(٦٦) عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٧٨ .

(٦٧) انظر ابن الأثير، ج١٠ص٥٦٩، حيث التعليق على لقاء الغزالى بالقول : والصحيح أنه لم يجتمع به، وما سبق، ص١٤٤ .

(٦٨) انظر ج٤ص٤١٥ وما بعدها.

(٦٩) انظر الهامش السابق رقم ٦٤ ،ص ١٥٠، وربما كان الصحيح أن يقال إنه داوم على الدراسة المنتظمة فى المدرسة النظامية لمدة ٣سنوات على الشاشى فيما كان يتولى التدريس بالنظامية : ٥٠٤هـ/١١١١م، ٥٠٧هـ/١١١٣م.

العقلى والتأويل ، كما الأشعرية ، مع الالتزام بالروحانية الزاهدة فى الدنيا ، وبالتالى لمّ شمل المذاهب والفرق الإسلامية تحت رايات المآخاة فى الإسلام ، والروحانية فى المعاملات ، وبالتالى الوحدانية فى الفكر اللامصلحى أو التوحيد المجرد - رغم ما فى الإحياء من الإغراق فى الأصولية الظاهرية والحشوية (المادية) فى عدد من المواضع (٧٠) .

عصر الغزالى :

والحقيقة ان بغداد ومدرستها النظامية الذائعة الصيت جعلتا من العراق أهم المراكز العلمية والثقافية فى عالم الاسلام ، فى الفترة المتأخرة من القرن الخامس الهجرى ١١ م ، فى المدة التى ولى فيها الغزالى التدريس بالنظامية وحتى وفاته فى مطلع القرن السادس الهجرى ١٢ م ، فكأن تلك الفترة هى « عصر الغزالى (حجة الإسلام) » ، عصر ملكشاه (ملك الملوك) ، آخر عظماء سلاطين السلاجقة - آخر أمجاد بغداد على المستويين : السياسى والحضارى . ومرشدنا إلى ذلك هو كتاب عيون التراريخ لابن شاكر الكتبى ، بتاريخه السياسى ووفياته الحضارية ، فى الفترة التى تبدأ بوفاة الغزالى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م وتنتهى بعد عدة سنوات . فالفترة تزخر بعلماء بغداد وبلاد العراق من كبار الأساتذة فى مختلف فنون العلم من دينية وفكرية ، لاسيما علم الكلام ، أحد فروع الفلسفة الإسلامية أو العربية العامة ، وقاعدة المذهب الأشعرى الذى بدأ فى الانتشار الواسع من ذلك الوقت.

---

(٧٠) انظر للمؤلف تاريخ المغرب العربى، ج٤ص٤١٦ وما بعدها، وعن تقييم الإحياء، انظر ابن شاكر الكتبى، عيون التواريخ، ج١٢ص٤-حيث النص على أنه "قيل فيه أنه لو ذهبت كتب الإسلام وبقى الإحياء لأغنى عما ذهب "، ثم وأول ما دخل الإحياء المغرب أنكروا فنه، وصنفوا عليه "الإملاء فى الرّد على الإحياء". هذا كما كان ابن الجوزى يقول : "وقد جمعت أغلاط الكتاب، وسميته : "إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء". وأنكروا عليه ما فيه من الأحاديث التى لم تصح، ومثل هذا يجوز فى الترغيب والترهيب.

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن المذهب الأشعرى يقوم على قواعد المذهب الشافعى من جهة وأصول علم الكلام الذى أصبح من قواعد علم أصول الدين من ناحية أخرى.

ولاشك أن أهم مايميز عصر الغزالى فى بغداد والعراق على أواخر القرن الخامس الهجرى / ١١ م هي ظاهرة تلاقى المذاهب ، وتفاعل المدارس النقلية والعقلية فيما يشبه عصر التنوير . والنماذج التى يمكن أن نسترشد بها فى تأكيد الظاهرة ، تتمثل فى عدد من مشاهير العلماء الذين يمثلون هذا الاتجاه التنويرى أو العقلانى.

فإلى جانب الشاشى (ت ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) الذى أخذ عنه ابن تومرت كان الشهرستانى ، صاحب الملل والنحل (أبو الفتح محمد بن أبى القاسم - ت ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م) ، المتكلم عل مذهب الأشعرى والذى يوصف بأنه إمام بارع فى الفقه والكلام (٧١).

والمهم تاريخيا فى بقية الترجمة هو أن الشهرستانى دخل بغداد وأقام بها ٣ (ثلاث) سنين (نفس المصدر) ، الأمر الذى لايمنع من تأثر ابن تومرت بعلمه وقتذاك (٧٢). أما الفراء (الحسين بن سعود - ت ٥١٠ هـ / ١١١٦ م) الفقيه الشافعى فكان إلى جانب روايته للحديث واشتغاله بالتفسير يمارس اتجاهات زهدية صوفية ، منها أنه « كان يأكل الخبز البحت ثم صار يأكله بالزيت» (٧٣).

ومن أصحاب الاتجاهات الصوفية أيضا الموصلى الذى أقام ببغداد مدة مشتغلا

---

(٧١) انظر محمد بن شاكر الكتبى، عيون التواريخ، ج١٢ص٤٦-حيث يذكر عن الشهر ستاني فى وفيات سنة٥٠٨هـ/١١١٤م أيضا أنه برع فى الفقه وقرأ الكلام على أبى القاسم الأنصارى، وله من الكتب غير الملل والنحل، كتاب "نهاية الإقدام فى علم الكلام" .

(٧٢) نفس المصدر .

(٧٣) ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، ج١٢ص٦٦، والهامش حيث تحديد وفاته فى النجوم الزاهرة بسنة ٥١٥هـ/١١٢١م .

بالحديث والفقه قبل أن يلي قضاء الموصل ، وهو : الشهرزوري المنعوت بالمرتضى (أبو محمد عبد الله بن القاسم - ت ٥١١ هـ / ١١١٧ م) ، وله شعر رائق يقول فيه على طريقة المتصوفة:

لمعت نارهم وقد عسعس الليل ومـــل الحادى وحار الدليـــل

فتأولتها وفكرى من البـــين عليـــل، ولحـظ عينى كليـــل

وفؤادى ذاك الفؤاد المعنـــى وغرامى ذاك الغرام الدخيل(٧٤)

ومن أصحاب الاتجاهات الفكرية الفلسفية يذكر الأطرابلسى (نسبة الي طرابلس الشام توفيق بن محمد - ت ٥١٠ هـ / ١١١٦ م) الذى كان يميل إلى مذهب الأوائل ، الأمر الذى جعله موضع الاتهام بقلة الدين (٧٥)

ومن ممثلى الاتجاهات العلمية العقلانية : الشاعر البغدادى ابن الهبارية (محمد بن محمد الشريف العباسى - ت ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م)، الذى قدم أصبهان على ملكشاه والوزير نظام الملك (صاحب كتاب سياسة نامه : كتاب السياسة) ، فلم يظفر من الزيارة بشئ ، فكتب بيتين من الشعر فى ذم العقل والفضل ، هما :

تجاهلت لما لم أر العقل نافعـــا وأنكـــرت لما كنت بالعلـــم ضائعـــا

وما نافعى علم وعقلى وفطنتى إذا بت صفر الكف والكيس جائعا (٧٦).

ومن مسائل الخلاف الصعبة بين أصحاب العقل وأصحاب النقل موضوع فناء الجسم الانسانى بعد الموت ، وهل يكون البعث بالجسد أم بالروح والنفس ، وهى

---

(٧٤) ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، ج١٢ص٧٣-٧٤-حيث المرتضى هذا هو القاضى كمال الدين بن الشهرزورى، وأنه كان مليح الوعظ- والقصيدة فى ٧١ بيتا.

(٧٥) ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ ج١٢ص٦٧-حيث الإشارة إلى أنه ولد بطرابلس وسكن دمشق.

(٧٦) ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، ج١٢ص٥٤ ، ٥٩ .

المسألة التي كانت تؤرق ابن أبي كدية القيرواني (محمد بن عتيق بن أبي بكر - ت سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م). فرغم أن الرجل يوصف بالأشعرى المتكلم ، بناء على تكوينه العلمى المتين على المستوى العقلى ، اذ درس الأصول بالقيروان على ابن حاتم صاحب ابن الباقلاني ، كما درس فى العراق علم الكلام بالنظامية ، الا أنه ظل صلباً في الاعتقاد . فهو لا يوافق على رأى أبى العلاء المعرى الذى يقول فيه:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة ان يبكوا

تحطمنـــا الأيام حتى كأننـــا زجاج ولكن لا يعاد له سبــك

ويرد عليه قائلا :

كذبت وبيت الله حلفة صــادق سيسبكنــا بعد النوى من له الملــك

وترجع أجساما صحاحا سليمة تعارف فى الفردوس ماعندنا شك (٧٧).

وآخر من نقدمه فى هذا المقام هو شيخ الحنابلة ببغداد ، وهو : أبو الوفا بن عقيل (على بن مقيل بن محمد - ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م - ٥١٣ هـ / ١١١٩ م)، تلميذ القاضى أبى يعلى بن الفراء فى الفقه ، والذى سمع الحديث الكثير ، وقرأ الأدب والفرائض والوعظ ، كما درس الأصول على أبى الوليد المعتزلى ، فنرى أنه كان نموذجا غريبا من الحنابلة المعروفين بتشددهم المذهبى، فقد كان الرجل هذا «يجتمع بجميع العلماء من كل مذهب ، وربما لامه بعض أصحابه فلا يلوى إليهم.(٧٨) ».

ونموذج ابن عقيل هذا يوضح أن ثقافة بغداد - ثقافة المدرسة النظامية - كانت قد وصلت إلى مرتبة العالمية على جميع مستويات النقل والعقل ، وأنه كان ببغداد - وقت رحلة ابن تومرت العلمية إلى المشرق والعراق - طبقة من العلماء المتميزين

---

(٧٧) ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، ج١٢ص٨٥-٨٦ .

(٧٨) ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، ج١٢ص٩٠ .

من كل المذاهب ، ترعى حقوق التقاليد المتوارثة ، ولاتنكر فضيلة العقل ، وسيلة الاستنارة ، وكل ذلك يمكن أن يقدم تفسيرا منطقيا مقبولاً لحركة الإحياء الدينى التى فجّرها الغزالي وما يقابلها من حركة التجديد والتوحيد التى قام بها محمد بن تومرت - تلميذ الغزالي الروحى على الأقل - فى بلاد المغرب والأندلس (٧٩).

عودة محمد بن تومرت إلى المغرب :

الآمر بالمعروف ، الناهى عن المنكر :

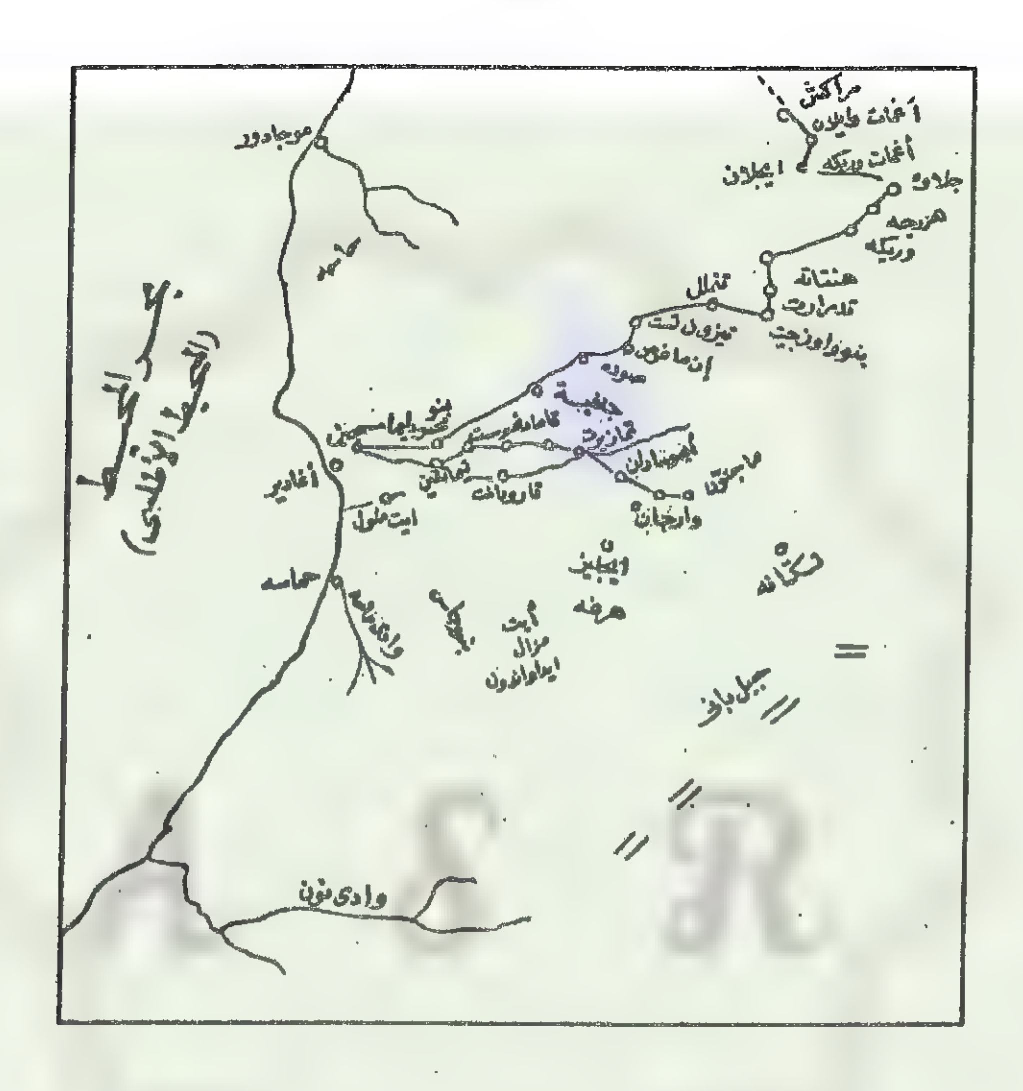
لابأس فى قبول التاريخ الذى يقدمه ابن أبى زرع للعودة إلى المغرب ، وهو : ربيع الأول من سنة ٥١٠ هـ / ١٤ يوليه ١١١٦ م(٨٠) وبذلك يكون محمد بن تومرت قد أقام حوالى ١٠ (عشر) سنوات فى بغداد عاصمة الخلافة ، لا يشير أحد من الكتاب عن وسيلة معاشه خلالها ، والتى ربما كانت من الأحباس الخيرية الموقوفة على الدارسين من الطلبة النظاميين أو غيرهم - على مانظن . فالواضح أن تكوين محمد بن تومرت العلمى وتضلعه فى اللغة العربية والعلوم الإسلامية ماكان يسمح له بإجهاد نفسه فى الاشتغال بالأعمال اليومية الجارية .

وكما بدأ ، وهو فى الـ ٢٦ (السادسة والعشرين) من عمره رحلة العلم العراقية بالحج إلى مكة المكرمة ، كان من الطبيعى أن ينهى أيضا تلك الرحلة ، وهو فى الـ ٣٦ (السادسة والثلاثين) من العمر بالحج إلى بيت الله الحرام ، فيكون ذلك مسك

---

(٧٩) قارن فى ذلك ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص١٧٢-حيث النّص على أن الغزالي كان يقول لجلسائه :لابد لهذا البربرى من دولة، وأنه يظهر أمره بالمغرب الأقصى، دلت عليه العلامات والآثار....فنقل إليه (ابن تومرت) الخبر بعض الأصحاب....فلم يزل يجتهد فى خدمة الشيخ ويتقرب إليه حتى أطلعه على العلم الذى عنده فيه، فلما تحققّت عنده الحال استخار الله تعالى وعزم على الترحال.

(٨٠) روض القرطاس، ص١٧٣ ، ابن خلكان نقلا عن تاريخ ابن القفطى انه خرج من مصر فى آخر سنة٥١١هـ-وهو ما يتفق مع رواية أنه دخل المغرب سنة٥١٢هـ/١١١٨م (انظر ص ١٥٩ التالية).



عودة بن تومرت : العبور من مراكش الي ايجليز هرغة
عن هوبتي - انظر البيدق، وانظر ص ١٨١ وما بعدها.

الختام (٨١). باكتمال الرجولة وتمام التكوين العلمي.

والظاهر أن أفكار الغزالى عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو الأمر الذى عالجه باستفاضة فى إحياء علوم الدين فى الجزء الثانى من الكتاب (فى ربع العادات) (٨٢) والذي كان أصلاً من أصول الايمان عند المعتزلة (٨٣) كانت قد استقرت فى ضمير ابن تومرت

مكـــة :

ففى مكة، بلد بيت الله الحرام، وقبلة المصلين والحجاج، بدأ الفقيه الناشئ، الذى عرف بعدئذ بالسوسى(٨٤)، نسبة إلى بلده، يمارس وظيفة المحتسب، أى الرقيب على الأخلاق العامة ، أهم وظائف الحسبة، فى الشوارع والميادين. وهنا لابأس من الأخذ برواية ابن خلكان فى أنه كان يظهر وقتئذ فى شكل الزهاد والعباد من حيث الورع والنسك والتقشف والاخشوشان، كما «كان مقبلا علي العبادة، لايصحب من متاع الدنيا الا عصا و «رِكْوَة» (قربة ماء صغيرة) ، وأنه كان «شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع ، لايقنع فى أمر الله بغير اظهاره». وأنه « كان يلتذ بذلك ويتحمل الأذى». وهكذا كان من الطبيعى أن «ناله بمكة شئ من المكروه من أجل ذلك». وهكذا خرج الفقيه الشاب مطروداً من مكة إلى مصر(٨٥).

---

(٨١) ابن الأثير،ج١٠ص٥٦٩-حيث النص على أنه حج وعاد إلى المغرب.

(٨٢) انظر إحياء علوم الدين، ج٢ص٢٩٩-حيث كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والذى ينقسم إلى ٣(ثلاثة) أبواب، وهى ١-وجوب الأمر بالمعروف، ٢-فى أركان الأمر بالمعروف، ٣-المنكرات المألوفة فى العادة.

(٨٣) انظر المسعودى، مروج الذهب، ج ص ، - حيث أصول المعتزلة الخمسة، من : التوحيد، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين ثم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

(٨٤) ابن خلدون، ج٦ص١٢٧-حيث النص على انه عرف بهذا الاسم فى رحلة العودة وهو فى بجاية.

(٨٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ص٤٦ .

وإذا كنا نفتقد المعلومات عن الطريق الذى سلكه من الحجاز إلى مصر ، فلا بأس أن يكون قد سار مع قافلة الحج المغربية التى كانت في طريق العودة إلى الوطن (٨٦).

مصر - الفسطاط :

والذى يفهم من رواية ابن خلكان أنه نزل بمصر (الفسطاط) ، وأنه بالغ فى الإنكار على الناس ، الأمر الذي ترتب عليه زيادتهم فى أذاه . وكان فى ذلك ما كان من إزعاج للسلطات المصرية حتي صدرت الأوامر بطرده من البلاد . فكان خروجه من مصر الي الاسكندرية فى زى الفقهاء فى آخر سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م - وهى المعلومة التى ينفرد بها ابن خلكان نقلا عن تاريخ ابن القفطى (٨٧) .

وهنا يمكن الاشارة إلى رواية محمد بن شاكر الكتبى ، فى عيون التواريخ ، التى يمكن أن تكون مأخوذة من ابن خلكان ، حيث النص على انه رأى بصعيد مصر أو بمصر الفسطاط أو القاهرة ، « سبَّ الصحابة على بعض المساجد مكتوبا ، فقال : ماهذه دار اسلام ، وأنشد :

ذرنى وأشياء فى نفسي مخبأة	لألبسن لها درعا وجلبابا
والله لو ظفرت كفى ببغيتها	ماكنت عن ضرب اعناق الورى آبى
حتى أطهر هذا الدين من نجس	وأوجب الحق للسادات أحبابا

(٨٦) عن طريق رحلة الحاج المغربية، ارجع إلى رحلة العياشي، وان كانت متأخرة (قرن١١هـ/١٧م) على سبيل المثال-حيث التفصيلات الدقيقة عن الطريق البرى ومراحله المختلفة من الإسكندرية إلى مكة عبر القاهرة وسيناء وبعض جنوب الشام وغزة. انظرللمؤلف ماء الموائد للعياشي، الإسكندرية، ص٣١-٣٦ .

(٨٧) وفيات الاعيان،ج٥ص٢٢٦، وانظر أيضا ص٤٦-وبهذه المناسبة ينص ابن خلكان على أنه كان إذا خاف البطش وايقاع الفعل به (أى الاذاية) خلط فى كلامه، فينسب إلى الجنون (فيعفى عنه) وإن كان ذلك بمناسبة الطرد من مكة .

وأملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جوراً، وأفتح للخيرات أبوابا(٨٨)

فكأنه اتخذ قرار الأمر بالمعروف وهو في مصر العاصمة ، وهذا لايمنع من أن يكون قد اعتنق مبدأ الاعتقاد في الإمام المعصوم هناك أيضا.

وهنا لا بأس في أن يكون قد اكتسب عددا من الأصحاب في مصر ، مما يرد في كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب ، ولكن بروفنسال يشكك في صحة أسمائهم(٨٩) .

الاسكندرية :

والرواية المقبولة لعبد الواحد المراكشي تنص على أن ابن تومرت قضى إقامته في الاسكندرية ، مترددا على شيخ المدينة الشهير وقتئذ : أبي بكر الطرطوشي ، صاحب كتاب سراج الملوك ، في مدرسته أو جامعه الذي اتخذه بحي الباب الأخضر وقتئذ (شارع الباب الأخضر حاليا من منطقة الجمرك) ، للأخذ عنه . وفي أثناء روحاته إلى مجلس الطرطوشي وغدواته ، كان يعرض للناس بعنف من أجل النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ، ويلقى في سبيل ذلك الأذى(٩٠) ، الذي بلغ به إلى حدّ توقفه عن الذهاب إلى مجلس الاستاذ العلمي (٩١). أما عن الرواية التي تشير إلى أن الطرطوشي عندما استشعر غياب الطالب المغربي السوسي عن حضور

---

(٨٨) عيون الأخبار، ج١٢ص١٠٧-١٠٨ .

(٨٩) انظر ابن القطان، هـ١ص٥ .

(٩٠) انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص٣٨-حيث : فمن عصمته - رضي - من أهل الاسكندرية، أنه رأى بها مناكر فغيرها، وأغلظ في أمرها، فقامت عليه العامة والغوغاء فصاروا يقطعون به في طريقه إلى مجلس الطرطوشي، وقارن تاريخ موحدي مجهول، نشر بروفنسال، قطعة١٢ص٣٥-حيث إضافة...ولم ينله من بأسهم على غربته وشحط داره أكثرمن هذا.

(٩١) انظر عبد الواحد المراكشي، المعجب ص ١٧٩ - حيث النص علي أنه كرّ راجعاً (من القاهرة) الي الاسكندرية ، فأقام بها يختلف الي مجلس أبي بكر الطرطوشي الفقيه وجرت له بها وقائع في معني الأمر بالمعروف .

مجلسه سأل عنه واستدل على مكانه حيث زاره ولاطفه ، ولكنه لما علم بعزمه على العودة إلى بلاده (المغرب) حياه ، وودعه (٩٢) ، فهي لاتنقض رواية عبد الواحد المراكشي التى تنص على أن سلطات الاسكندرية ، عندما ضاقت بأعماله ذرعا استصدرت أمرا من والى الاسكندرية بطرده من المدينة (٩٣) .

ومن الواضح أنه فى ذلك الوقت من مطلع القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م كان طريق البحر إلى تونس وبلاد افريقية هو الطريق الدارج ، تفاديا لمعاناة الصحراء والعطش فى بلاد برقة القفرة ، والتى كانت تمتد غربا إلى تخوم طرابلس . وهكذا كان على ابن تومرت أن يستقل السفينة من الاسكندرية مبحراً نحو الغرب . والمهم أن مالاقاه ابن تومرت خلال تجارب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى مكة والقاهرة والاسكندرية من الأذى لم يثبط همته عن مواصلة الجهد فيما أخذه على عاتقه من تبديل الشر وإقرار الخير ، مما تعلمه فى كتب العبّاد وخاصة إحياء الغزالى . فحجة الإسلام ينص على «أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هو القطب الأعظم فى الدين ... وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين ... ولو طوى بساطه والعمل به لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة ...(٩٤). كما ينص أيضا على أن من «لم يكن مكلفا (بالأمر بالمعروف) فله إنكار المنكر ، وله أن يريق الخمر ويكسر الملاهى ، وإذا فعل ذلك نال به ثوابا ، ولم يكن لأحد منعه ، من حيث انه ليس بمكلف» (٩٥). وهكذا لم يكن من المستغرب أنه بمجرد ان ركب ابن تومرت

---

(٩٢) ابن القطان، نظم الجمان، ص٣٩، وقارن تاريخ موحدى مجهول، نشر بروفنسال، مقتطفات، قطعة١٢ص٣٥-حيث "فلما فقد، الطرطوشي بحث عنه حتى أعلم بمكانه فقصد اليه وقعد فى مسجد الأخضر على ساحل البحر، فترامي عليه وسأله عن سبب غيبته من مجلسه فعرفة بشأن أولئك الفرقاء، وأنه يريد الإياب إلى المغرب فودعه وانصرف.

(٩٣) المعجب، ص١٧٩-حيث النص على أن أعماله "أفضت إلى أن نفاه متولى الإسكندرية".

(٩٤) إحياء علوم الدين، كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ج٢ص٢٦٩.

(٩٥) إحياء علوم الدين، ج٢(الباب الثانى فى أركان الأمر بالمعروف وشروطه)، ص٢٧٤-بشرط الأول.

السفينة فى ميناء الاسكندرية حتى بدأ فى تغيير المنكر على أهلها «فألزمهم باقامة الصلوات ، وقراءة أحزاب من القرآن العظيم» (٩٦).

وتمدنا رواية عبد الواحد المراكشى بمعلومات طريفة عما كان ينزل بالآثمين من البحارة والمخالفين من الركاب من عقوبات بحرية مناسبة . فعندما ضاق المسئولون عن السفينة ذرعا بما كان يقوم به من الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر ، وخاصة إراقته للخمر وتكسيره لدنانها ، ألقوه في البحر «فأقام» أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لم يصبه شئ» . وإذا كانت بقية النص تلمح إلى شئ من الكرامة أو المعجزة التى أظهرها فى جريه فى البحر وراء السفينة (٩٧) ، فمن المنطقى ان يكون جريه فى البحر مشدوداً بالحبل ، وليس سباحة.

وهذا بطبيعة الحال لايقلل من صلابة محمد بن تومرت ، والاعتراف بقوة احتماله جسديا وروحيا ، وفى النهاية لابد ان يصنف ابن تومرت بين ذلك النوع من الرجال الذين لاتزيدهم الشدائد الا قوة عزم وصلابة.

---

(٩٦) انظر ابن الاثير ج٠١ص٥٦٩-٥٧٠، ومثله : ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ص٤٦، النويرى، نهاية الارب ص٣٩٦، وقارن عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٧٩-حيث فركب البحر، فبلغنى أنه استمر على عادته فى السفينة، وقارن تاريخ موحدى مجهول، مقتطفات بروفنسال، رقم١٢ص٣٦-حيث يأخذ الخبر شكل قصة فلكورية حيث اراقة الخمر في السفينة فصاح عليه صاحبه وسبّه، ووضع يده فيه...ثم انه عندما شدّد عليهم فى الصلاة غضبوا وهموا بإلقائه فى البحر من المركب لولا ان هاج البحر عليهم وكادوا يغرقون......فتضرعوا راغبين فأمرهم بالصلاة حتى كشف الله ما بهم وجرت السفينه بريح طيبة.

(٩٧) المعجب، ص١٧٩-حيث فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر، وعظم فى صدرهم؛ ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من السفينه وقارن رواية ابن القطان المتقبية(نظم الجمان، ص٣٩)-حيث النص على ان أهل السفينه عندما غضبوا عليه هموا بإلقائه من المركب فهال عليهم البحر، وكادوا يغرقون. وأقبلوا نحوه متضرعين ذاعنين.... .

طرابلس:

أما عن ميناء الرسو الأول على شواطى المغرب فرغم ميل عدد كبير من الروايات إلى أن نزول ابن تومرت من المركب كان فى مدينة المهدية ، العاصمة الفاطمية ، فنحن نفضل الأخذ برواية البيدق ، أقدم المصادر وأكثرها أصالة بالنسبة لأوليات ابن تومرت والتى يأخذ بها ابن خلدون . وهكذا تكون مدينة طرابلس (الغرب) أول مدينة مغربية ينزل فيها ابن تومرت فى رحلة العودة المغربية. واذا كانت رواية البيدق التي بين ايدينا لاتقدم شيئا عن نشاطه فى طرابلس فإن رواية ابن خلدون تعوضنا عن ذلك بما يفيد أن ابن تومرت أظهر هناك النكير على العلماء، وأخذ نفسه بتدريس العلم ، إلى جانب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما استطاع «حتى لقى بسبب ذلك أذيات فى نفسه ، احتسبها من صالح عمله»(٩٨). وهي الامور التي تنسجم مع نشاطه علي طول طريق المغرب.

هذا ولا بأس أن كانت طرابلس محطة رسوّ للسفينة وهى فى الطريق إلى المهدية، أول المدن التى كان لابن تومرت فيها حضور ملموس وذلك على عهد الأمير العزيز ابن يحيي بن تميم بن المعز بن باديس (٩٩). وهنا لابأس فى أن النزول فى عاصمة الفاطميين التقليدية بالمغرب الافريقي ، يمكن أن يكون قد أوحى له أيضاً بأفكار حول الإمام المعصوم، كما يمكن أن يكون الحال قبل ذلك فى القاهرة، ورغم ما أنكره هناك من سب الصحابة كتابة علي جدران المساجد(ماسبق ص ١٥٤ - ١٥٥). .

المهديـة :

وفى المهدية نزل ابن تومرت فى أحد المساجد (المعلقة) وليس معه إلا عصاه

---

(٩٨) العبر، ج٦ص٢٢٦ .

(٩٩) ابن الاثير، ج١٠ص٥٧٠ (سنة٥١٤هـ)-حيث النص خطأ على أن الوصول إلى المهدية كان فى عهد الأمير يحيى بن تميم سنة٥٠٥ هـ/١١١١م بدلا من ١١٠هـ/١١١٦م، وقارن النويرى نهاية الأرب، ص٣٩٦ .

وقربة الوضوء والشرب الصغيرة (الركوة) . ويدأ في إلقاء الدروس والوعظ. وعندما سمع بذلك أهل البلد قصدوه للقراءة عليه . كل ذلك وهو يراقب الطريق من طاق بالجامع ويقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من تكسير آلات الموسيقى (الملاهي) وأواني الخمر، ويبالغ في ذلك، كما نرى ، كلما تكاثر الناس عليه . وهنا تنبه الأمير العزيز بن يحيي الي خطورة الأمر فأحضره مع جماعة من الفقهاء ، وانتهت المناظرة في حضرة الأمير الذى أعجب بابن تومرت ، واحترمه فسأله الدعاء(١٠٠) . والظاهر أن ابن تومرت خشي علي نفسه من الإقامة في المهدية حسبما توحي رواية الحلل الموشية التي تنص علي أن الأمير العزيز هّم أن يأخذه(١٠١) فخرج منها لاجئاً الي رباط العباد بمدينة المنستير ، حيث أقام مدة مع الصالحين(١٠٢).

تونـــس :

ومن المنستير التى لاذكر لها فى البيدق ، خرج ابن تومرت إلى تونس (العاصمة)حيث تقدم رواية البيدق معلومات فريدة عن طلبة العلم الذين كانوا يحتشدون حوله فى مسجد المدينة بعد صلاة الجمعة . وهنا يظهر الفقيه السوسي صفات رجل الدولة المعتدل فى سياسته الدينية من حيث إظهار التسامح ، وقبول إقامة الصلاة على جنازة يهودى ، كان قد دخل فى الإسلام ، وإن كانت تحوم حوله

---

(١٠٠) ابن الاثير، ج١٠ ص٥٧٠، وقارن النويرى، نهاية الأرب، ص٣٩٦، تاريخ موحدى مجهول، مقتطفات بروفنسال، رقم١٢ ص٣٦-حيث : ومن عصمته....نجاته من شر على بن يحيى بن تميم، صاحب المهدية، ونجاته من شره، بعد أن وجه إليه الفقيه المازرى فعاقبه ورفق به، وقال له: أخاف عليك عاديته وعادية جنده، فخرج إلى المنستير .

(١٠١) الحلل الموشية، ص١٠٦-حيث تغيير المنكر بالمهدية على عهد الأمير العزيز بن الناصر (يحيى) الذى همّ أن يأخذه .

(١٠٢) ابن الاثير، ج١٠ ص٥٧٠ (أحداث سنة٥١٤هـ/ ١١٢٠م)، وقارن نفس الرواية فى النويرى، نهاية الأرب، ص٣٩٧، وابن خلكان، وفيات ص٤٦ . ٤٧-حيث الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى سنة٥٠٥هـ/١١١١م بدلا من ٥١٠هـ/١١١٦م (على عهد العزيز).

بعض الشكوك . فقد أمّ ابن تومرت صلاة الجنازة على اليهودى المسلم ، كما وبّخ العلماء الذين ترددوا فى ذلك وامتنعوا ، وعرّفهم السنة حتى أنهم صاروا يأخذون عنه العلم (١٠٣).

قسنطينة :

وهكذا نجح ابن تومرت فى تكوين مجموعة خاصة من التلاميذ الذين التصقوا به كأبنائه الروحيين . فهو عندما يخرج من تونس متجها نحو قسنطينة كان يلتف حوله ٣ (ثلاثة) نفر من الطلبة ، هم : يوسف الدكالى ، والحاج عبد الرحمن ، ومؤلفنا البيدق (قطعة الشطرنج) : أبو بكر بن على الصنهاجي . وخرجت الجماعة تجد المسير حتى وصلت إلى قسنطينة (الهواء)، وكان أميرها يومئذ : سبع بن العزيز بن يحيى ، وقاضيها : قاسم بن عبد الرحمن . وهذه المعلومة التى ينفرد بها البيدق تقول أيضا أنه نزل وتلاميذه ، بطبيعة الحال ، على كل من الفقيه : عبد الرحمن الميلى ، ويحيى بن القاسم ، وعبد العزيز بن محمد.

وفى قسنطينة كان يقوم بتعليم الطلبة الذين يحضرون ، ويقف فى ميدان المدينة الكبير لارشاد المسئولين عن الأمن ، وتطبيق قواعد الشريعة على الخارجين على القانون ، من المحتسبة أو من يقوم مقامهم كنوع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فقد وجد أنهم يطبقون عقوبة الضرب بالسياط على «الحلال» الذى يدخل على الناس ليأخذ أموالهم ويقتلهم ، فعرفهم أن العقوبة الشرعية هى قطع اليد . ولكنهم عندما تساءلوا عما يفعلون اذن بعد ذلك ، عرّفهم ان الضرب الذى انزلوه بهم يقوم مقام العقوبة الشرعية ، «لأنه لايجوز جمع حدين فى ذنب واحد» ثم أنه طلب من السارق أن يعلن توبته ، فتاب بقلب صادق (١٠٤).

---

(١٠٣) البيدق، ص٢٩-٣٠ .

(١٠٤) البيدق، ص٣٠-٣١ .

بجايـــة :

ومن قسنطينة خرج ابن تومرت بجماعته الصغيرة إلى بجاية ، أعظم مدن افريقية وقتئذ ، والحاضرة الحمادية الكبرى ، وذلك في سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م ، حسب تحديد ابن خلدون (١٠٥) ، ونزل هناك بمسجد الريحانة (١٠٦) حيث أقرأ أهل المدينة كتابا فى علوم أصول الدين ، كما درّس الحديث(العلم) إلى جانب الوعظ ، الأمر الذى جعل الناس يجتمعون عليه (١٠٧).

والمهم أنه أخذ ينتقد أهل المدينة المرفهة ، وينكر عليهم ثيابهم الناعمة من «الأقراق الزرارية» وعمائم الجاهلية التى تشبهها بعض النصوص بالتيجان (١٠٨). ولباس الفتوحات التي يلبسها الرجال، ويقول لهم «لا تتزينوا بزي النساء لانه حرام » (١٠٩) وفى ذلك تقول رواية البيدق ان ابن تومرت نا ل احترام فقهاء بجاية ، وتقديرهم وأنهم شرفوه بالزيارة فى شهر رمضان ، ومنهم : محرز ، وابراهيم الزيدونى ، وأبراهيم الميلى ، ويوسف الجزيرى الجراوى ، وعبد الرحمن ابن الحاج

---

(١٠٥) العبر، ج٦ص١٧٢، وقارن ابن القطان، ص٢١-حيث وصل إلى بجاية فى سنة٥١١هـ/١١١٧م، وانظر ص٢٢-حيث أنها رباط، وملّالة بالقرب من بجاية .

(١٠٦) البيدق، ص٣١ .

(١٠٧) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص١٧٩-١٨٠ .

(١٠٨) الاستبصار، ص١٢٩-حيث القول بمناسبة ذكر مدنيه بجاية : وكانت لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة، يغلون فى أثمانها، تساوى العمامه ال٥٠٠دينار وال٦٠٠(ستمائة)دينار أو يزيد، وكانوا يعممونها بأتقن صنعة فتأتي تيجانا-وكان ببلادهم صناع لذلك، يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزيد. وكانت لهم قوالب يسمونها الرؤوس، يعممون عليها تلك العمائم

(١٠٩) البيدق، ص٣١، وقارن تاريخ موحدى مجهول، مقتطفات بروفنسال، قطعة١٢ص٣٦-حيث النّص على أنه لما دخل بجاية لقى بها الصبيان فى زى النساء، بالضفائر وأخراص الزينة وشواشي الخزّ، ولقى الارذال قد فتنوا بذلك...فغيرّ المنكر جهده، وأزال ذلك الزى مستطاعه.

الصنهاجي : القاضي (١١٠).

ومن الواضح أن محمد بن تومرت اضطر فى بجاية إلى تغيير أسلوب أدائه فى انكار المنكر . فبعد أن كان يركز على محاربة شرب الخمر بإراقتها وتكسير دنانها، اضطرته العاصمة الصنهاجية المرفهة بشيابها شبه المشتركة (بين الذكور والاناث)، الأمر الذى أكدته له عادة عدم الفصل بين نصفى المجتمع من الرجال الملثمين والنساء السافرات ، حسب عادة المجتمع الصنهاجي (١١١) ، فأخذ يوجه معارضته لهاتين الظاهرتين الأخيرتين أيضا . وحدث ذلك يوم الفطر عقب زيارة الفقهاء له فى رمضان ، إذ وجد الرجال والنساء مختلطين يوم العيد فى الشريعة ، وهى مصلى العيد خارج المدينة ، والتى كانت مجالاً للنشاط الاقتصادى الخاص باحتفالات المناسبة السعيدة ، «فدخل فيهم بالعصا يمينا وشمالا حتى بددهم» (١١٢).

وكان من الطبيعى أن يعترض عليه متولى المدينة : العزيز بن المنصور الحمادى على أساس أن السوقة لايعرفون مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنه يخشى عليه من قيامهم ضده ، الأمر الذى قد يؤدى إلى هلاكهم مع الاشارة إلى أنه «لايستوى حرّ كريم مع شيطان رجيم» (١١٣).

---

(١١٠) البيدق، ص٣١ .

(١١١) انظر ج٤ص١٢٥(عن النظام الأمرى)، وص٧٧(عن اللثام).

(١١٢) البيدق، ص٣١، وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٢، وانظر تاريخ موحدى مجهول، مقتطفات برفنسال، قطعة١٢ص٣٦-حيث : ثم حضر عيداً (فى بجاية)فرأى فيه اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين، والمتكحلين، ما لا يحل، فزجرهم وغير ذلك عليهم، فوقعت لأجل ذلك نفرة استطال فيها الشر، وسلب النساء حليهن، وقام الهرج فسأل العزيز عن ذلك فعرف بأنه لا سبب فى ذلك الا الفقيه السوسي، وكذلك كان يعرف بالمشرق.

(١١٣) البيدق، ص٣١، وقارن تاريخ موحدى مجهول، مقتطفات بروفنسال، قطعة رقم١٢ص٣٦-حيث ، ومن عصمته : منع العزيز بن المنصور بن علاء الناس بن حماد منه، وقد غاظه وأغضبه، وسلامته من عدوه، وهو ملك بجاية.

والظاهر أن حاكم بجاية حاول أن يسترضيه عن طريق بناء مسجد له (١١٤) . ولكن الأمر انتهى باستصدار أمر بخروجه من المدينة ، على أساس أنه شخص غير مرغوب فيه (١١٥)، وذلك بعد أن اقيمت مناظرة بينه وبين طلبة (فقهاء) بجاية ، في موضوع جرأته على الملوك ، محاولة اقناعه بالعدول عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - دون جدوى (١١٦).

ملالـــة :

هكذا خرج ابن تومرت من بجاية إلي قرية ملالة (١١٧) على بعد فرسخ (٣أميال) منها ، وقد رفعت الضجة التى أثارها فى بجاية من شأنه ، اذا انتشرت بين العامة فكرة أنه المسيح أو المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً ، كما توحى الروايات القصصية ، وخاصة بعد لقائه بعبد المؤمن بن على خليفته ، وباني دولته.

والمهم ان الخروج من بجاية إلى ضاحية مّلالة حيث بنو درياغل الصنهاجيين

---

(١١٤) البيدق، ص٣٢ .

(١١٥) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.١٨٠ ، وقارن ابن خلدون، ج٦ص١٧٩-حيث النص على أنه غيّر ببجاية المنكرفسعى به إلى العزيز، فأمر به فخرج، وانظر كذلك ص٢٢٧

(١١٦) انظر تاريخ موحدى مجهول، مقتطفات بروفنسال، قطعة١٢ص٣٧-حيث الإشارة إلى أن الذى دبّر اجتماع المناظرة هو الكاتب عمر بن فلفول الذى لاطفه، وراوده على ترك ما هو بسبيله من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

(١١٧) البيدق، ص٣١، وقارن المعجب، ص.١٨٠-حيث الخروج من بجاية إلى المغرب، وقارن، القرطاس، ص١٧٣-حيث النزول فى بجاية من قرية فى حوز من احوازها تعرف بملالة فلقى فيها عبدالمؤمن....وقدم معه إلى المغرب الأقصى، وابن خلدون، العبر ج، ص١٧٦-حيث الخروج من بجاية إلى بنى ورياكل من صنهاجة....فأجاروه، ونزل عليهم بملالة .

الذين أقام بينهم يدرس العلم (١١٨) فى مسجد أقامره له (١١٩) ، عرف بعد ذلك باسمه (١٢٠) كانت له أهمية مزدوجة ، أولها : أنه شعر بالأمان من حيث إمكانية حمايته من طلب الدولة أو تهديدها له ، اذ أجاره بنو درياغل عندما طلبه العزيز «فمنعوه ، وقاتلوا دونه إلى أن رحل عنهم إلى المغرب» (١٢١) ، وثانيها : اكتسابه لاثنين من أهم أعوانه ، هما : أبو محمد عبد الواحد بن عمر الذى كان يحمل اسما بربريا هو يرزيجن (١٢٢) إلى جانب عبد المؤمن بن على ، أمله فى المستقبل .

والظاهر ان ابن تومرت عندما استشعر الاطمئنان بملالة رأى ان يوسع مجال إنكار المنكر بعيداً حتى أسوار بجاية . ووصل فعلا إلى باب البحر حيث «أهرق هناك الخمر» وهو ينادي : «المؤمن ثمّار ، والكافر خمار» . وهنا خرج اليه عبيد سبع بن العزيز متولي ملالة ، ومنعوه بالقوة ، فعاد إلى مسجده (١٢٣) . أما عبد الواحد (يرزيجن) بن عمر الذى سيعرف فى المغرب بلقب الشرقى ، فكانت داره بجوار المسجد ، وهو الأمر الذى سهل له الانضمام إلى الطلبة وإقامة علاقات وثيقة مع ابن تومرت . وكانت العادة أن يخرج ابن تومرت وطلبته فى أوقات الراحة يجلسون للفئ إلى شجر الخروب ، ينظرون إلى الطريق ، قضاء للوقت - على ماظن - ومنعا للمنكر اذا ما تيسر . وعلى هذا الطريق قرب المسجد ، كان اللقاء

(١١٨) ابن خلدون، ج٦ص١٧٦ .

(١١٩) البيدق، ص٣٢ .

(١٢٠) المعجب، ص١٨١ .

(١٢١) ابن خلدون، العبر، ج٦ص١٧٦ (حيث بنودرياغل) وص٢٢٧ حيث ابن تومرت.

(١٢٢) البيدق، ص٣٢ .

(١٢٣) البيدق، ص٣٢-حيث النص على أن عبيد ابن العزيز قالوا له من أمرك بالحسبة، فقال : الله ورسوله .

مع عبد المؤمن الذى خرج من بلدته تاجرة ، من منطقة تلمسان ، فى الطريق إلى رحلة العلم المشرقية ، بصحبة عمه يعلو الذى كان يقصد الحج ، ووصلا إلى بجاية وملالة (١٢٤).

عبد المؤمن شاباً :

وعبد المؤمن فى ذلك الوقت كان فتى جميل الوجه ، رائع الجمال - كما تريد الرواية المنقبية وكان متوجها فى صحبة عمه نحو المشرق ، ليعلمه العلم . فقصد به إلى ابن تومرت فى بنى در ياغل بملالة ، وجلس معه . وهنا تبدأ قدرات ابن تومرت الفائقة فى معرفة الأسرار وكشف حجب الغيب فكأنه يبدأ مبكراً مرحلة جديدة تبشر بمعالم الهداية والعصمة فهو يستطيع أن يعرف عن طريق «الاستشعار» ان عبد المؤمن من بلدة تاجرة ، من بلاد تلمسان (١٢٥) . وهو يستبشر بعبد المؤمن لما لقيه فيه من النجابة والنهضة ما تفرس فيه التقدم والقيام بالأمر (١٢٦).

ويؤكد ابن تومرت الاستبشار بلقاء عبد المؤمن بالأحاديث (النبوية) التى تشير

(١٢٤) انظر البيدق، ص٣٢-٣٣-حيث تفصيلات عن رحلة عبد المؤمن، وضعت فيما بعد، بعد أن أقام الدولة بطبيعة الحال. وفى مراحل الطريق من متيجه إلى بنى زلدوى، إلى جانب منامات تنبئ بالمستقبل الباهر، مثل : الصحفة التى يحملها على رأسه ويأكل كافة الناس منها، والنزول فى مسجد الريحانة حيث كان ابن تومرت فى بجاية، وسماع الناس هناك يقولون : سيروا بنا إلى الفقيه السوسى-عالم المشرق والمغرب، ورؤيا مبايعة الناس له، وطلب عمه كتمان ذلك، وقارن عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٨٠-حيث كان ابن تومرت أوحد عصره فى علم خط الرمل. وأنه وقع فى المشرق على ملاحم من عمل المنجمين، وجفور (جمع جفر) من بعض خزائن خلفاء بنى العباس، وأنه أوصله إلى ذلك كله فرط إعتنائه بهذا الشأن. وما كان يحدث به نفسه (عن الملك)، وص١٨١-حيث انه سمع عندما نزل ملالة وهو يقول : بلألة ملالة يكررها، ويتأمل أحرفها، وذلك لما كان يراه أن أمره يقوم فى موضع اسمه : ميم ولا مان-فكأنه يقصد بتنملل مهد قيام حركته .

(١٢٥) الحلل الموشية، ص١٠٦ .

(١٢٦) ابن الاثير، ج١٠ص٥٧٠ ، وقارن النويرى، نهاية الأرب، ص٢٩٧، وقارن عبد الواحد=

إلى نسبه ووقت ظهوره. (١٢٧) وهكذا كان على ابن تومرت ان يصّر على بقاء عبد المؤمن طالبا بصحبته، إذ قال له : العلم الذى تطلبه بالمشرق قد وجدته بالمغرب، وقرأ عليه «المهدى» كتابا يقول فيه لايقوم الأمر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن به على سراج الموحدين (١٢٨) .

وهكذا فبعد إقامة عدة أشهر فى ملالة رحل عنها ابن تومرت، وفى صحبته عبد المؤمن بن على، وعبد الواحد الشرقى (يرزيجن)، ومؤلفنا البيدق (أبو بكر بن على الصنهاجي، الذى كان عليه الإشراف على الفلوة (الفرس الصغيرة) الشهباء التى أعطتهم إياها راحل (أم عبد الواحد) بناء على طلب شفهى(ودعاء) من ابن تومرت (١٢٩).

متيجــة :

وخرجت القافلة الصغيرة نحو مدينة متيجة حيث كان النزول عند رجلين اكتسب الامام صداقتهما ، هما : جبارة بن محمد والفقيه أبى زكريا (١٣٠). ومن متيجة حتى تلمسان آخر حدود المغرب الأوسط ، ينفرد البيدق بتحديد محطات الطريق المختلفة دون غيره من الكتاب.

= المراكشى، المعجب، ص١٨١-حيث عرض ابن تومرت على عبد المؤمن ما هو خير من طلب العلم، وهو : إماتة المنكر وإحياء العلم، وإخماد البدع، ص١٨٢-حيث كان عبد المؤمن يعلم الصبيان بموضع فنزاره من بلاد متيجة.... ورؤيا الأكل مع أمير المسلمين، وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧ص٤٨-حيث اطلاع ابن تومرت على علوم أهل البيت وعلى كتاب الجفر، وما رأى فيه من صفة نفسه يدعو الله فى بلد حروفه (ت ى ن م ل) وأن استقامة الأمر يكون على يدى رجل حروفه (ع ب د م و م ن)... وأوقع الله فى نفسه أنه القائم بأول الأمر، وأن أوانه قد أزف ...الخ.

(١٢٧) النويرى، نهاية الأرب، ص٣٩٧-حيث هذا الذى بشر به رسول الله صلعم حين قال : إن الله لينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس (بنى سليم).

(١٢٨) الحلل الموشية، ص١٠٦، وقارن ابن خلدون، العبر، ج٦ص٢٢٧، والمعجب، ص١٨١ .

(١٢٩) البيدق، ص٣٧ .

(١٣٠) البيدق، ص٣٧-حيث تفصيلات عن تلك السفرة منها : إصابة عبد المؤمن بالمشقة (التهاب ما بين الفخدين)، والأمر بنزول عبد الواحد عن الفلوة لعبد المؤمن مع وعده بخير الجزاء فيما بعد، من : "القصور المشيدة، والجوارى المزينة والخيول المسّومة" .

الأخماس :

فمن متيجة كان الخروج نحو الأخماس حيث وجدت الجماعة مسجداً مهدماً فأمر ابن تومرت بترميمه ، وكذلك الأمر عندما نزلوا بعد ذلك فى «جسّاس إن ورمور» حيث عمروا مسجداً كان معطلاً (١٣١).

مليـــانـه

ثم كانت متابعة المسير إلى مدينة مليانة (١٣٢).

وانشــريش

ثم مدينة وانشريس والتي أعطت أسمها للجبل الشهير هناك، حيث التقوا بأبى محمد عبد الله بن محسن الونشريشي، الذي يلقب بالبشير .

تينملت يزناسن

ومن هناك كان يسير الي تينملت متاع بني يزناسن وهنا لا نجد ذكراً للمدينة المكونة من حروف (ت ى ن م ل) مما سبقت الإشارة إليه (ص ١٧٠ و هـ ١٢٤) والاكتفاء بأمر ابن تومرت ببناء مسجد فى بني يزناسن هؤلاء مع الإشارة إلى أنهم فرع من فروع بنى يزناسن فى تونس (١٣٣).

شلـــف :

وتتميز منطقة وادى شلف بغناها بالزراعة والمراعى وتربية الأغنام ، وفى حاضرتها شلف (١٣٤) كان النزول علي الفقيه أبى الربيع الذي أكرمهم غاية

---

(١٣١) البيدق، ص٣٧-٣٨ .

(١٣٢) انظر الاستبصار، ص١٧١-حيث مدينة مليانه قريبة من مدينة أشير، وهى مشرفة على فحوص واسعة وقرى كثيرة عامرة...وحولها القبائل الكثيرة من البربر.

(١٣٣) البيدق، ص٣٨ .

(١٣٤) انظر الاستبصار، ص١٧١-حيث تلتحم فحوص مليانة وقراها العامرة، والتى يشقها نهر شلف الكبير، بمدينة شلف الأثرية الواقعة على النهر الذي أعطته اسمها "شلف"، وتوصف بأنها أثرية خراب، الأمر الذى قد يوحى بأن مليانه هي شلف الحديثة.

الإكرام، ونال خط ابن تومرت بالدعاء الحسن.

البطحاء :

أما عن قبيل البطحاء ، قرب ملتقى وادى شلف برافده وادي مينا ، فقد قطع عليهم (الطريق) يوسف بن عبد العزيز (من رؤساء القبيل) ، وسلم عليهم ، ودعاهم بالأيمان المغلظة بالمسير معه . كما دعاهم إلى أن يرسلوا معه من يختار ضيافتهم من الغنم ، فسار معه عبد المؤمن - ابن المنطقة - فأحسن اختيار كباش الضيافة لثلاثة أيام . ونظرا لكرم الرجل كتب اليه ابن تومرت دعاء بخط يده ، وأضاف إلى ذلك خطاب ضمان (حرز من من جلد) يؤمن للرجل ولأبنائه من بعده حسن معاملة الدولة ، بمعنى الإعفاء من الضرائب - كما نرى في تلك الرواية المنقبية (١٣٥) .

تلمسان :

ومن منطقة وادي شلف كان المسير إلى تلمسان حيث نزلت الجماعة بضاحية أجادير (التى عرفت بعد ذلك بالعبّاد) (١٣٦).

وهناك قام بإنكار المنكر إذ «وجد عروسا تزف لبعلها ، وهى راكبة على سرج اللهو والمنكر أمامها ، فكسر الدفوف واللهو (آلات الموسيقى) وغيّر المنكر ، وأنزلها عن السرج» (١٣٧) دون ذكر لمعارضة السلطات المحلية ، الأمر الذى يعنى أن المسألة تتعلق بحادث فردى ، فى ضاحية نائية بين أناس أخيار . وهذا ماتفسره رواية عبد الواحد المراكشي التى تقول: «وكان قد وضع له فى النفوس هيبة ، وفى

(١٣٥) البيدق، ص٣٨-٣٩-حيث قال ابن تومرت وهو يعطى الرجل حرز الضمان الجلدى : "يا شيخ أمسك هذا عندك، ويكون عند عقبك فإنه خير لك ولهم، حتى يصل إلى هذا الموضع ملك وعساكر، فادفع البراءة من يدك ليد الملك، ولا تعطها أحداً غيره-على اعتبار أن ذلك الملك سيكون عبد المؤمن نفسه .

(١٣٦) البيدق، ص٣٨، عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٨٢ .

(١٣٧) البيدق، ص٣٨ .

الصدور عظمة» (١٣٨).

وهكذا كان ابن تومرت يستطيع أن يخرج أحد أصحابه من السجن ، اذ يصحب أحد أعوانه ، ويدق على باب المدينة ليفتح له البواب - وهو ما قد لايفعله لمتولى المدينة - وينادى على صاحبه السجين ويأمره بالخروج ليخرج أمام السجانين الذين أصيبوا بالشلل (١٣٩). وهذا مايفسر التفاف الطلبة حوله ، وهم يلتزمون بالمذاكرة، ويدرسون مالا يطيقون. ومعلومة البيدق هذه تصل منتهى الدقة عندما تسمي هؤلاء الطلبة ، ومنهم :أبو العباس الشريف ، ومحرز التونسي ، وعلى بن صاحب الصلاة وأخوه عثمان ، وابن جبل ، ويحي الجزولي ، وعبد الرحمن الورشتدي، وعلى الكومي ، وعبد الرحيم ، ومحمد المديوني (١٤٠) . وفي مقابل هذه المعلومات الدقيقة ، يشير البيدق ، إلى المعلومات المستقبلية مثل نهاية تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين عند موضع الصخرتين أمام تلمسان ، وعبد المؤمن يحاصره ، على أنها من المعلومات التى كان يعرفها وقتئذ ابن تومرت ، مما قرأه فى كتب الجفر (١٤١) حسبما تري الرواية المنقبية.

والظاهر انه أثناء وجود ابن تومرت في تلمسان ، توفى التونسي (محمد بن يوسف) فقيه ومدرس العبّاد ، والذي كان من قبل استاذا لعبد المؤمن ، فعرض

---

(١٣٨) المعجب، ص١٨٢-حيث الإضافة إلى ذلك : "وكان شديد الصمت كثير الانقباض، اذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة " -فكأنه قد أصيب بما يسمى الاكتئاب من قسوة التجارب .

(١٣٩) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص١٨٣-١٨٤ .

(١٤٠) البيدق، ص٣٩ .

(١٤١) البيدق، ص٣٩-حيث طلع المعصوم (ابن تومرت) بين الصخرتين (خارج تلمسان)...فقال :"بين أظهركم هنا طالب ينزل بمحلته هناك فى المياه يسمع ضجيجها من هذا الموضع».

طلبته على ابن تومرت ان يجلس مكانه للتدريس (١٤٢) ، وكان من الطبيعي ألا يقبل ان تومرت وظيفة المدرس ، فقد كانت له وقتئذ آماله في مستقبل أرحب ومصير أعرض بكثير.

في وجـــدة :

وكان رحيل ابن تومرت وجماعة طلبته الصغيرة من تلمسان إلى مدينة وجدة (وجدات) أول مدن المغرب الأقصى ، وعلى حدود الجزائر الغربية . وكان النزول في بعض المساجد المتطرفة كما جرت العادة . ويفهم من نص البيدق أنهم نزلوا في كنف واحد من أعيانها هو ابن صامفين ، تحت رعاية القاضي : محمد بن فارة . والظاهر أن سمعة الآمر بالمعروف كانت قد سبقته الي وجدة ، إذ «أقبل الفقهاء يهرعون نحو «الإمام المعصوم» (ابن تومرت) (١٤٣) للدراسة . فكان يحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤٤).

ومن الواضح أن ايقاع الرحلة كان يشتد بسرعة ابتداء من مرحلة تلمسان، والظاهر ان ابن تومرت كان يستشعر الاقتراب من تحقيق هدفه في تغيير المنكر في قلب بلده، فدخل في سباق مع الزمن، كما يقال، من أجل تحقيق هدفه النهائي في تغيير الدولة. ففي وجدة لاحظ «أن النساء يستقين والرجال يتوضئون» من نفس النبع، فاعترض على هذا الاختلاط وعمل علي مدّ ساقية وصهريج عند الجامع(١٤٥).

صــــاء :

وترك ابن تومرت وجدة وجدّ في المسير بأصحابه نحو بلدة صاء (تاوريرت

---

(١٤٢) ابن القطان، ص٢٢-٢٣ .

(١٤٣) البيدق، ص٤٠-حيث تعدد الفقهاء، وهم : زيدان، ويحيى البرناني، ويوسف سمعون، وعبد العزيز ابن يخلفتن .

(١٤٤) البيدق، ص٤٠ .

(١٤٥) البيدق، ص٤٠ .

اليوم)، وفيها وجد بائعات اللبن يخرجن «مزينات محليات» - وان اكتفى بغض البصر عنهن - والاحتجاج لدى الفقيه يحيى بن يصليتن (١٤٦) .

(١٤٦) البيدق، ص.٤٠-حيث قال للفقيه : كيف تترك النساء محليات كأنهن زففن لبعولتهن، أما تتقون الله في تغيير المنكر... إنما يصنعون أفعال الجاهلية الأولى. وقرأ الآية : "لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها" (سورة النور، الآية٤١). وهي تذكرنا بأغنية شعبية كانت معروفة بحفلات أفراح الإسكندرية في الأحياء الشعبية، مثل حَينا: حَي كرموز، وقت طفولتنا حوالى سنة١٩٢٧. هذه الأغنية تدور في شكل حوار ثنائي (ديالوج) بين بائعة اللبن الحليب الجميلة وأحد زبائن الصباح الباكر المتيمين-كما كانت عادة بيع الحليب وقتئذ، مرورا على البيوت. فالزبون يوجه لها كلمات الاعجاب بجمالها، والصبية تتحدث له عن شرفها وعفافها، الأمر الذي ينتهي به نهاية سعيدة بقبول كل من الطرفين الزواج من الآخر-والهدف هو خدمة الوطن، ونص الحوار الغنائي، حسبما أتذكره :

هي -لبن حليب يهدى للحبيب، يروى القليب، صباح أبيض.

هو -يا بنت يا بتاعة اللبن وريني لبنك.

هي -لبني حلو وزي القشطة، الله عليه لو دُقته.

هو -لو تسمحي تديني شفطه-ادوقه يا حلوه يا بطه

هي -يا راجل اعدل حرام عليك، اوعى كده ربنا يهديك، أنا شريفه حره ونضيفة ونفسي عفيفة، نفسي عفيفه وحيات عنيك.

هو - انا لما شفتك قوام عشقتك ما أقدر افارقك -ما أقدر افارقك ما بيديش.

هي - على غيرى دور وروح اعملهم ، واللى فى بالك انا مش منهم.

هو - ان كنت ترضى تتجوزيني ونعيش سوا يا نور عيني-أكون ممنون يانور العيون، اوعى يا روحى تفوتيني .

هي - ترجع تاني تقول : كاني ماني.

هو - دانت حبك صحيح كواني .

هي - وانت كمان حبك رماني.

هو وهي معا :قلوبنا جمعها ما بيني وبينك، وبالهداوه نعيشوا سوا - يالله بينا ايدى فى ايدك - دايما سوا نخدم بلادنا.

ولابأس ان يكون ذلك من تأثيرات المغرب في المجتمع المصرى والسكندرى. وعن أداء تلك الأغنية فقد كان لكل من الشيخ أمين حسانين وسيده حسن (عن د. أحمد أبو زيد، في ندوة الاثنين بسيسيل، بميدان سعد زغلول بالاسكندرية).

أجرسيـــف :

ومن وجدة وصاء إلى آجر سيف حيث تسمية من صادقهم هناك ، ممن تفهموا دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنهم، الأخوان : خليّ بن أبى تجارة الذي نزل ابن تومرت عنده وأخوه الحسن ، وهناك اعترض ايضا على تعذيب رجل عن طريق الصّلب ، فبدد المجتمعين للفرجة حوله ، وقال لهم : «إنما الصّلب للأموات وليس للأحياء . إن كان وجب عليه الموت فاقتلوه ثم اصلبوه» (١٤٧) . هذا ، كما احتج على ما أنزله الوزير بالعامة - عندما شكوا اليه - من غرامة ١٠٠٠ (ألف) مثقال بسبب قتل نعامة كانت له ، وذلك لدى متولي المدينة يحى بن فانو (اخت على) حتى اعيد مال الغرامة إلى أصحابه (١٤٨) .

وفى الطريق من أجرسيف إلى فاس أشرف ابن تومرت ، كما نزل وصحبه على عدة مواضع ، منها : قرية آمليل ، ومدشر (منية) قلال - حيث قوبل إنكار سماع اللهو (الموسيقى) من جانبه بتهديد شديد من اللاهين ، جعل ابن تومرت يأمر فى التو واللحظة بتجهيز الدابة وسرعة المسير (١٤٩) - ومخاضة النساء ، ثم المقرمدة، وعين الرقى (حيث كان الطلبة يهرعون اليه من كل جانب) قبل الوصول إلى فاس.

---

(١٤٧) البيدق، ص٤١-حيث اسمه عمر بن تاكرطاست، والحاج القلروري، ومحمد بن تاسكورت، و دحمان بن متينة، وعلى بن محمد الزناتي، ويوسف المواسين.

(١٤٨) البيدق، ص٤١-وفى ذلك قيل إن ابن فانو همّ بقتل الوزير، ولكن ابن تومرت عرّفه أنه ليس عليه قتل، وإنما عليه الأدب فقط.

(١٤٩) البيدق، ص٤٢-حيث ردّ أهل اللهو بعنف على رسولى ابن تومرت إليهم (الحاج الدكالي، والبيدق) إذ قالوا لهما : "هكذا السيرة عندنا، ولم ينتهوا... بل إنهم قالوا : معروفنا عندنا، ومعروفكم عندكم، سيروا وإلا نمثل بكما وبفقيهكما". فأمر ابن تومرت بتجهيز الدابة، وألقى عليها الكتب، والمسير عنهم قبل أن ينزل بهم البلاء.

فـــاس :

وفي فاس تنقل ابن تومرت بين ٣ (ثلاثة) مساجد ، أولها : مسجد ابن الغنام ، والثاني : مسجد أن الملجوم وأخيرا استقر في مسجد طريانة «لأنه كان في الصومعة بيت ، وكان «المعصوم (ابن تومرت) يعمره ، ويقرى فيه العلم»، وذلك إلى أن دخلت سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م (١٥٠) . وكما هي العادة كانت شهرة ابن تومرت قد سبقته إلى فاس ، وهكذا كان الطلبة هناك يهرعون اليه من كل مكان ، ويقولون : «تعالوا بنا إلى الفقيه السوسي» (١٥١).

وبطبيعة الحال لم تسلم فاس، أم مدن المغرب الأقصى المرفهة، من انكار محمد بن تومرت للمنكر. فذات يوم جمع ٧ (سبعة) من تلاميذه، وعلى رأسهم عبد المؤمن بن علي، وأمرهم بإحضار مقارع من فروع شجر التين غير المثمر، وتقدم بهم إلى زقاق بزقالة : شبيه شارع محمد علي بقاهرتنا الحديثة (شارع الآلات الموسيقية : اللهو)، فقال لهم تفرقوا على الحوانيت ... حيث الدفوف والقراقر والمزامير والعيدان والروط والأربية والكيتارات وجميع اللهو، وقال : كسّروا ما وجدتم من اللهو. وبطبيعة الحال لم يوافق المسئولون بفاس ومنطقة الغرب (١٥٢). وجمع الوالي الفقهاء، وأحضر ابن تومرت معهم ، «فجرت له مناظرة كان له الشفوف فيها والظهور»، لأنه «وجد جواً خاليا، وألفى قوما صياما عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع، فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على الوالي بإخراجه من البلد ، لئلا

---

(١٥٠) البيدق، ص٤٣، ابن أبي زرع، القرطاس، ص١٧٣-حيث الإشارة إلى المسجد الأخير (طريانة) والتدريس فيه إلى سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م.

(١٥١) البيدق، ص٤٣-حيث النص على أسماء ١٥(خمسة عشر) واحدا منهم : ابن الملجوم وابن دبوس، وابن الشكعة، وابن بيضة، والشريف، وابن بسولة، وابن بركوقة، وابن زكور، وابن الغرديس..."وهؤلاء كانوا ملازمين (لابن تومرت) يفحمهم ويفهمهم". هذا، كما كان يمشي ويتعلق الصغار به، ويمر بيده المباركة على رؤوسهم.

(١٥٢) البيدق، ص٤٤.

يفسد عقول العوام» (١٥٣) .

مكناسـة :

وهكذا كان على ابن تومرت ان يخرج من فاس إلى مكناسة عبر حاضرة مغيلة ، حيث كان النزول عند يوسف بن محمد ، وعبد الرحمن بن جعفر (١٥٤) . ومن الواضح أن ما أثار ابن تومرت في منطقة مكناسة هو تجمعات الرجال والنساء معا في الميادين والأسواق . فهذا ما شاهده تحت شجرة لوز في موضع الكدية البيضاء ، «فدخل فيهم وأصحابه ميمنة وميسرة فبددوهم يمينا وشمالاً» (١٥٥).

وكان النزول في مكناسة في موضع السوق القديم بمسجد أبي تميم عبد المحسن بن عشرة. وكان طلبة مكناسة يأتون للتعلم ، فكان يعرفهم ماكانوا يجهلونه من أساليب الدراسة الحديثة في المشرق . ومع ذلك فما كان يمكن أن تطول إقامة ابن تومرت وجماعته بعاصمة الادارسة المرفهة ، إذ خرج منها «بعد أيام ، وارتحل في ساعة سعد وسلامة» (١٥٦). وكان الخروج من مكناسة إلى سلا عبر بلدة : خميس فزارة ، حيث النزول عند عبد السلام بن عبشوش ، ووقوط بن ميمون ، قبل الوصول إلى سلا في ساعة سعد وسلامة (١٥٧)، الأمر الذى يعني شيوع التفاؤل أو التشاؤم في السفر بالظواهر الفلكية ، من ساعات السعد وساعات النحس -

(١٥٣) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص١٨٤ .

(١٥٤) البيدق، ص٤٥ .

(١٥٥) البيدق، ص٤٥، وقارن ابن خلدون، العبر، ج٦ص٧٢٢-حيث النص على أنه نهى بمكناسة عن المناكر فوقع به الشر من الغوغاء، وأوجعوه ضربا غير أنه يجعل الرحيل بعدها إلى مراكش دون سلا.

(١٥٦) البيدق، ص٤٥-حيث الإشارة إلى عدد من طلبة مكناسة، منهم : ابو بكر بن جرزوز وأخوه أحمد، وأحمد بن الزرهوني وأخوه علي، وبكار بن اسماعيل، وغيرهم.

(١٥٧) البيدق، ص٤٥.

رغم ظاهرة التدين الأصولية المبنية على مبدأ القضاء والقدر.

وكان النزول في سلا عند الفقيه أحمد بن عشرة ، وكان يأتيه عليه القوم لأخذ العلم ، ومنهم : الشبلير ، ومحمد الوقاصي ، وابن فينو ، والقاضي حسون بن عشرة . وكان يطلب اليهم أن يأمروا الناس بالمعروف وينهوهم عن المنكر . وأقام على ذلك بسلا أياماً عديدة قبل الخروج نحو مراكش (١٥٨).

أم الربيــــع :

وكان الطريق إلى مراكش عبر تابر ندوست ، وبلاد البربر الحقيقية التى لم تكن قد تعرّبت بعد. ففى ذلك الموضع سُرقت دابة الجماعة : فلوة رحيل (أم عبد الواحد الشرقى برزيجن) ، ذات البطن الأبيض ، التى كانوا يحملون عليها أسقاطهم ، وخاصة كتب ابن تومرت. سرقها عبيد يقال لهم أولاد تبرزوفت.

وعندما وصلوا إلى وادى أم الربيع (مو ربيع)، اتضح لرفقاء ابن تومرت أن استاذهم كان يحسن الكلام باللغة البربرية (لغتهم الأولى) وهو ماكانوا يجهلونه من قبل - الأمر الذى يضفي على ابن تومرت صفة الكتمان العميق - ويفسر كيف كان يمكن تدبير قصة الونشريشى ، وكيف كان يخفى علمه وثقافته، ويتظاهر بالجهل والسذاجة إلى حين الحاجة إلى دوره كصاحب التمييز الذي يفرق بين أهل الجنة واهل النار، مما يأتى فيما بعد (ص٢٤٥). فعندما ارادت الجماعة عبور الجسر على نهر ام الربيع، منعوا من ذلك حتى يعطوا ضريبة العبور المقررة (الكراء أو المكس). وهنا صاح ابن تومرت قائلا لهم: «آوْمَوْرن ملْولنين انْ سوس آداوَن ناك» وهى الجملة التى تعنى: سنجتاز سبل سوس البيضـاء» ، كما أردف ذلك بقوله : « أنما السبيل للمسلمين وانتم تقطعونها ، وهذا شيء جائز فى الشرع » . وقطعت الجمـاعة المسافة من وادى أم الربيـع إلى مراكـــش (العاصمـة) فى مرحلـة واحـــدة دون إشارة من البيدق إلى محطـات يعبرونها أو قرى ينزلون فيهــا

---

(١٥٨) البيدق، ص٤٦ .

(١٥٩) ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لمرحلة واحدة.

مراكـــش :

وهكذا يكون ابن تومرت قد دخل مراكش يوم جمعة خلال سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، وهو فى زى الزهاد . وكان نزوله بمسجد صومعة الطوب ، فى بعض أطراف المدينة ، كما جرت العادة على طول الطريق الطويل . ومن الواضح أن دخول مراكش ، دار مملكة على بن يوسف ، كما يقول ابن الاثير (١٦٠) ، يمثل مرحلة حاسمة بالنسبة لدعوة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من حيث أن ابن تومرت دخل هنا فى مواجهة مباشرة مع الدولة المرابطية وعلى رأسها أمير المسلمين ، وهذا ما ينص عليه ابن الأثير حقا (١٦١) . فقد زاد امر ابن تومرت بالمعروف او على الأصح بانكار المنكر ، إلى حدّ أنه عندما رأى أخت أمير المسلمين فى موكبها ومعها الجوارى ، وهن سافرات كعادة الملثمين ، أنكر عليهن ذلك ، وضرب دوابهن حتى سقطت أخت الأمير عن دابتها (١٦٢). وعندما علم على بن يوسف بأمر ابن

---

(١٥٩)البيدق، ص٤٦ .

(١٦٠)الكامل، ج١٠ص٥٧٠ .

(١٦١) الكامل، ج١٠ص٥٧٠، وقارن ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ص٤٥، وانظر ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص١٧٣-حيث النص على انه دخل مراكش لعلمه أن أمره لا يظهر إلا منها .

(١٦٢) ابن الاثير، ج١ص٥٧٠-٥٧١، وقارن النويرى، نهاية الأرب، ص٣٢٨-حيث "فرأى فيها (مراكش) من المنكرات أكثر مماعاينه فى طريقه، فزاد أمره بالمعروف، وكثر أتباعه، وحسنت ظنون الناس فيه ثم قصة أخت أمير المسلمين وجواريها، وضرب دوابهن، وقارن روض القرطاس، ص١٧٤-حيث القول أنه كان يمشى فى شوارع المدينة وأسواقها يأمر بالمعروف... ويريق الخمر، ويكسر آلات الطرب، من غير إذن أمير المسلمين ولا مؤامرة من أحد من القضاة والوزراء...فأمر أمير المسلمين بإحضاره، ابن خلدون، العبر، ج٦ص٢٢٧-حيث أغلظ لعلى بن يوسف القول، وحيث رؤيته الصورة(اسم أخت أمير المسلمين)حاسرة قناعها، فوبخها، فدخلت على أخيها باكية لما حل بها من تقريعة.

تومرت أمر باحضاره إلي مجلسه بمسجده الجامع حسبما يفهم من رواية البيدق . ووجد ابن تومرت الأمير جالسا علي غفارة ابن تيزمت (أحد المقربين من رجال الحاشية) ، والوزراء واقفون . وعندما لفت رجال الحاشية انتباه ابن تومرت إلى أداء التحية للأمير ، أبدى الفقيه السوسي ملاحظاته اللاسعة لعلى بن يوسف ، من : أرتداء اللثام (الذى يعادل النقاب عند المرأة) ، كما أمره بالمعروف قائلا : «الخلافة لله ، ليست لك ياعلي» ، كما طلب ألا يجلس على الغفاره (من ثوب ابن تيزمت) ، وكل ذلك قبل مناظرته للفقهاء الذين أحضروا للمناسبة (١٦٣).

أما عن المناظرة فيعرضها ابن أبى زرع بشكل علمى مقبول يعبر عن الفارق الكبير بين علم كل من أهل المغرب السلفى النقلى ، وأهل المشرق التقدمى بمنهجه العقلى. وفى البداية أكثروا الكلام - حسب العادة - بشكل غير منظم دون طائل ، وهنا طلب منهم ابن تومرت أن يقدموا من يمثلهم فى تقديم حجتهم ، وأن يلتزموا بأدب أهل العلم ، بالتسليم عند شروط المناظرة . ولما كان جل من حضر من الفقهاء المغاربة من أصحاب الحديث والفروع ، وليس فيهم معرفة بأصول الجدل ، كان من الطبيعى أن تقصر إجاباتهم عن المطلوب.

فعن طُرق العلم وهل تنحصر ام لا تنحصر كانت إجابتهم انها تنحصر فى الكتاب والسنة والمعانى التى بنيت عليها . وكان تعليق ابن تومرت ان الإجابة لاتذكر إلا واحدة من طرق العلم .... ، فلم تفهم مقالته.

وفى سؤال عن أصول الحق والباطل عادوا إلى نفس الجواب الأول.

---

(١٦٣) انظر البيدق، ص٤٧،وقارن ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ص٤٩-حيث طالب ابن تومرت أمير المسلمين علي يوسف بالأمر بالمعروف أثناء المناظرة، من القول عنه : إنه مغرور بما تقولونه له، وتحضرون به، مع علمكم أن الحجة عليه متوجهه. وهو يوجه الكلام لقاضى المرية، قائلا : فهل بلغك يا قاضى ان الخمر تباع جهارا، وتمشى الخنازير بين المسلمين، وتؤخذ أموال إليتامى....الأمر الذى جعل الملك تذرف عيناه، ويطرق حياء.

فلما رأى عجزهم عن فهم السؤال ، شرع لهم فى تبيين أصول الحق والباطل الأربعة ، وهى العلم والجهل والشك والظن . فالعلم أصل للهدى ، والشك والجهل والظن أصل للضلال.

ثم أخذ فى تبيين طرق العلم فبهرهم بطريق أنوار العلم ، وغلقت دونهم أبواب الفهم (١٦٤) .

واذ كانت الروايات تجمع على ان فقهاء مراكش عجزوا عن فهم مقالات ابن تومرت العقلانية التى وفد بها من المشرق ، فإنها استثنت رجلا واحداً منهم ، هو الاندلسى: مالك بن وهيب الذى كان قد شارك فى كل العلوم ، كما كان له تحقيق بكثير من اجزاء الفلسفة، وان كان لايظهر منها الا ما كان ينفق فى ذلك الزمان (١٦٥). فلقد عرف ابن وهيب خطورة دعوة ابن تومرت ، وأنه طامع فى المملكة . بل والذى تنبأ أيضا ، كما تريد الرواية ، بدرهمه المركن (المربع) . وفى ذلك تقول الرواية : إن مالك بن وهيب نصح أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بإلقائه

---

(١٦٤) روض القرطاس، ص١٧٥ ، وقارن البيدق، ص٤٧-حيث وذاكرهم "المعصوم" فافحمهم، عبد الواحد المراكشى المعجب، ص١٨٤-حيث...وجمع له الفقهاء للمناظرة، فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول حاشا رجل من أهل الأندلس، ابن الأثير، ج١٠ص٥٧٢-حيث ناظره الفقهاء، فلم يكن فيهم من يقوم له، النويرى، نهاية الارب، ص٣٩٨-حيث فاحضره وأحضر الفقهاء لمناظرته، فأخذ يعظه ويذكره ويخوفه، فبكى أمير المسلمين، وأمر أن يناظروه فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلته، وانظر ابن خلدون، ج٦ص٢٢٧-حيث تفاوض الفقهاء فى شأنه...، وكانوا ملئوا منه حسداً وحفيظة، لما كان ينتحل مذهب الأشعرى فى تأويل المتشابه، وينكر عليهم جمودهم على مذهب أهل السلف فى اقراره كما جاء...فأغروا الأمير، فأحضره للمناظرة معهم، فكان له الفلج والظهور عليهم.

(١٦٥) عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٨٥

فى السجن (١٦٦) أو يقتله (١٦٧) أو بطرده (١٦٨) ، وهو الأمر الذى استقر الأمير عليه ، بناء على نصيحة من بعض كبار رجال الدولة الذى ربما كان الوزير ينْتان ، الذى استهول خشية الدولة من مثل ذلك الرجل الصالح ، الضعيف ، كما رأى ان من التناقض ان يبكى الأمير تأثرا من وعظ ابن تومرت ثم يأمر بحبسه فى نفس الوقت ، الأمر الذى يقلل من هيبة الدولة (١٦٩) . وهكذا طرد ابن تومرت من مراكش ، كما سبق له الطرد من غيرها من المدن .

ولا بأس ان كان خروج ابن تومرت من مراكش قد بدأ بالابتعاد عن أسوار المدينة والإقامة لبعض الوقت فى الجبّانة حيث نصب خيمة بين القبور - فهذا ماكان يفعله كثير من العبّاد - وأنه ظل يقوم بالتدريس والوعظ حتى تكاثر عليه الطلبة

---

(١٦٦) البيدق، ص٤٧-حيث قال له (للأمير) : "اجعل عليه كبلاً كى لا تسمع له طبلاً، هذه صفة صاحب الدرهم المركن" .

(١٦٧) عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٨٥، ابن الأثير، ج١٠ص٥٧١، النويرى، نهاية الأرب، ص٣٩٨-حيث قال مالك بن وهيب، الذى يوصف بأنه أحد الوزراء، للأمير : "إن هذا لا يريد الأمر بالمعروف، إنما يريد إثارة فتنه والغلبة على بعض النواحى، فاقتله، وقلّدنى دمة، فلم يفعل (الأمير) ذلك ».

(١٦٨) نفس المراجع، وانظر عن طرده عن المدينة : أبن ابى زرع، روض القرطاس-حيث النص على أنهم (الفقهاء) "لبّسوا عليه، وقالوا لأمير المسلمين على بن يوسف : هذا الرجل خارجى مسعور، أحمق،صاحب جدل ولسان، يضل جهال الناس، وإن بقى بالمدينة يفسد عقائد أهلها، فأمره أمير المسلمين بالخروج من المدينة.

(١٦٩) انظر البيدق، ص٤٧-حيث : فأمر على ابن يوسف ابا بكر بن تيزمت أن يحمله إلى السجن، فلم يرد الله تعالى، إذ قال يينتان بن عمر، وسير بن وربيل لعلى بن يوسف : يا أمير المسلمين ماذا يقال عنك فى البلاد ؟ أتسجن رجلا يعرف الله، وهو أعرف أهل الأرض بالله تعالى، فغضب على وخرج عنهم، فسار إليه يينتان بن عمر، وقال له : كيف تظلم رجلا من علماء المسلمين....اتركه فى بساطك يعلمنا، أو اتركه يسير فى بلادك، فقال له على بن يوسف : مره أن يخرج عن بلادنا" .

والناس.

وهنا تقول رواية القرطاس هذه أنه أعلم الخاصة بما يريده ، وأخذ في الطعن على المرابطين ويدعو إلى جهادهم حتى بعث على بن يوسف اليه يغلظ القول ويتوعده بالنكال والقتل (١٧٠) ، فكان ابتعاده عن دار أمير المسلمين.

أغمــات :

وهكذا خرج ابن تومرت وتلاميذه إلى مدينة أغمات ان ويلان (١٧١) حيث النزول ضيوفا على «عثمان المعلم» لمدة ٣ (ثلاثة) أيام (١٧٢) . وكان الخروج بعد ذلك يوم الجمعة (الرابع) إلى أغمات وريكة ، حيث النزول فى ضاحية ايغيل ، وإقراء الطلبة بجامع وطاس بن يحيى بموضع من ناحية الغرب مما يلى الصحن.

والمهم أن جامع وطاس كان بمثابة مدرسة يقوم بالإقراء فيها معلم البلدة عبد الحق بن ابراهيم ، وكان من الطبيعى ألا يسعد المعلم القديم بالمعلم الاستاذ الوافد . والأهم بعد ذلك هو ما ترتبت عليه الخصومة بين معلم القرية والأمر بالمعروف من

---

(١٧٠) ابن ابى زرع، القرطاس، ص١٧٥-١٧٦-حيث اتّهم المرابطى بالتجسيم والكفر، وتابعه أكثر من ١٥٠٠ شخص حتى عزم الأمير على قتله فعلا، وبعث من يأتيه برأسه، لولا أنْ عصمه الله بأن حذّره أحد تلاميذه بقراءة الآية التى تقول : يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إنى لك من الناصحين (سورة القصص ٢٨-آية ٢٠).

(١٧١) واغمات مدينتان، هما أغمات ان ويلان التى تعرف أيضا بأغمات هيلانه، والأخرى : أغمات وريكة، بينهما مسافة ٨(ثمانية) أميال. وأغمات وريكة يمر إلى جوارها ويخترقها الوادى الذى يحمل نفس الاسم (وريكة)، وهو أحد روافد نهر تنسيفت الذى يمر بالقرب من مدينة مراكش، وبينها وبين نفيس على المصب مرحلة واحدة-انظر الاستبصار، ص٢٠٧-٢٠٨ .

(١٧٢) البيدق، ص٤٩-حيث الإشارة إلى بعض العادات هناك من الولولة ٣(ثلاث)مرات عند ولادة صبى، ومثلها فى مناسبات الطهارة والزواج.

انقسام أهل البلدة إلى فرقتين متنافستين ، تدعى كل منهما الايمان وترمى الأخرى بالكفر .

وبعد مناظرات غير مجدية ، رأى محمد بن تومرت الخروج من أغمات وريكة ، تاركا عصبة قوية يرأسها اسماعيل بن ايجيج أحد طلبته الأقوياء المخلصين(١٧٣).

وكان الخروج من العاصمة مراكش فى اتجاه تينمل بلدة جبل درن الحصينة بداية تخوم بلاد السوس (ماسبق ، ص ٤٢) عبر عدد من المحطات الجبلية ، وأولها : آيجلوان (جلاوة) . وفى ذلك الموضع (جلاوة) كانت المفاجأة غير السارة حيث كان هناك رسول من قبل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين يطلب تسليمه . وبسرعة أخطر محمد بن تومرت تلميذ أغمات الصديق : اسماعيل بن ايجيج ، الذى طلب منه الانتظار إلى أن يلحقه بمائتى محارب يحملون الدرق ، من بنى عمه : فكان هذا يعنى تحول الاستاذ وفريقه من الطلبة إلى قوة عسكرية تستطيع الدفاع عن نفسها ، فكأنها دويلة صغيرة فى حالة حركة ، حريصة على استقلالها الذى تحقق على طول الطريق إلى تينمل ، وهو الأمر الذى تأكد بعقد الأحلاف مع القبائل على طول ذلك الطريق ، مع بناء المساجد (١٧٤) .

---

(١٧٣) البيدق، ص٤٩-حيث الإشارة إلى طالب آخر من أهل أغمات هو : سليمان بن البقال، مع الإشارة إلى أن الخروج من أغمات كان بعد أن أفحم الخصوم بالعلوم.

(١٧٤) البيدق، ص٠ ٥-حيث المراحل التالية على طريق تينمل، وهى : آيسمناى متاع هزرجة، وتيفرا متاع آيمسفبوا-حيث بنى مسجدا ثم أنسا متاع وريكة، وآرمّط حيث بناء مسجد جديد أطلق عليه اسم نيبتينين حيث مكث إلى نهاية الشتاء، ليخرج بعد ذلك إلى تيفنوت متاع هنتاتة، و(سوق) الأحد متاع آغليل (حيث النزول فى دار عمر آينتى : فاسكان بن يحيى)، وتيفنوت متاع ايزكار، و (سوق) الجمعة متاع آمزين (حيث وعظ أهلها واستمالوا له)، وتادرارت أغيار (عند دار أبى صالح عبد الحليم بن عبد السلام : من أهل خمسين، حيث بنى مسجدا)، وبنى واوزجيت (حيث وعظ واستمال أهلها) وتينيفتين، وآيزاد-تاكت متاع جد ميوة، آخر محطة بعد تينمل، ومن المهم الإشارة هنا إلى رواية ابن خلدون (العبر ج٦ص٢٢٨) حيث الإشارة إلى تآمر والى السوس مع المصامدة إذ يقول النص : "وداخل عامل السوس،=

وهكذا يكون المهم فى رحلة مراكش تينمل هذه ، أن جماعة الطلبة والأستاذ أصبحوا يمثلون نواة قوة عسكرية تحقق لهم الدفاع عن النفس وتضمن لهم الحرية والاستقلال ، الأمر الذى ترتب عليه الوعى بالواجبات إزاء افراد الشعب والمجتمع ، فكان حلول الترغيب بالوعظ محل إنكار المنكر والترهيب . وأخيرا أتى بناء المساجد في القرى الجبلية ما بين أغمات وتينمل يمثل عملا نظاميا من أعمال الجماعة والدولة ، ألا وهو وقف العنف واللجوء إلى الدخول الفسيح فى الاسلام ، فكأن تلك الرحلة حملة جديدة لعقبة بن نافع من أجل نشر الاسلام فى المغرب الأقصى .

والظاهر ان ابن تومرت لم ير الاطمئنان إلى الإقامة فى تينمل التى تقول الروايات السابقة فى بداية الرحلة فى افريقية والمغرب الاوسط ، أنها كانت تشغل باله منذ التقى بعبد المؤمن ، أى بداية التفكير الجدى فى تغيير الدولة المرابطية ، فقرر أن يواصل رحلة البعد عن أن تطاله الدولة ، إلى مدينة إيجليز ، فى سفح الجبل المعروف بهذا الاسم الأخير . فكانت تلك الرحلة بمثابة تمهيد لتلقى دعوة ابن تومرت الجديدة : دعوة التوحيد .

الطريق إلى إيجليز هرغة :

ومراحل الرحلة من تينمل إلى ايجليز ، هى : آين ماغوس ، وصَوْده ، وتاكوشت ان ينسران ،وآن جنفيس (الذين وعظهم واستمالوا له) . وعندما وصل إلى بنى محمود ، أرسل إليهم يطلب الدخول إلى بلدهم فامتنعوا من إجابته ، فسار إلى بنى واجاس (وقاص) ، وبعدها تالطوشت ان يمضنفال حيث كان النزول على ساحل المحيط فى موضع ايسجّينا . ومن موضع تينمنتين أرسل إلى بنى محمود يطلب اليهم الدخول فى الدعوة حتى تلتئم الصفوف ، ولما امتنعوا رأى أن يحالف بنى

= وهو أبو محمد اللمتونى بعض سرعة فى قتله، وندرهم اخوانهم فنقلوه إلى معقل أشياعهم، وقتلوا من داخل فى أمرهم.

واجاس لقتالهم ، وعندئذ مالوا إلى الطاعة .

وأقام ابن تومرت مع طلبته وقوته الدارعة من بنى ايجيج مدة ٣ (ثلاثة) اشهر فى تامد غوست متاع أمركيتن (المحطة التالية) وبنى فيها داراً ومخزنا وجنانا . وهناك كان ابن تومرت يجلس علي صخرة علي باب الدار ، والجماعة تحيط به للمذاكرة والوعظ والارشاد (١٧٥) ، فكأن الصخرة هى الجذع الذى كان يحنّ لجلوس النبى مستندا إليه ، والذى تحول مع مرور الوقت إلى المنبر فى المسجد الجامع.

وكان الخروج من تامدغوست إلى تازكاغت ، وبعدها تامازيرت متاع بنى لماس قبل الوصول إلى ايجليز (أيجلى) بلد ابن تومرت (١٧٦) ، عاصمة بلاد السوس أو إحدى كبريات عواصمها وقتئذ ، حيث نزل فى داره فى بعض نواحيها ، وذلك عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م (١٧٧). هذا ويفهم من رواية ابن الأثير ان ابن تومرت

---

(١٧٥) البيدق، ص٥١.

(١٧٦) عن ايجلى، الاستبصار، ص٢١٢-قاعدة بلاد السوس، وانظر الهامش٢ حيث القراءة في ياقوت، معجم البلدان(ايجلن)، وفى الدمشقى (إيجلى)، وفى مراصد الاطلاع (أيجلى).

(١٧٧) البيدق، ص٥١، وقارن ابن الأثير، ج١٠ص٧١-حيث هجرته إلى السوس سنة٥١٤هـ/١١٢٠م، ونهاية الأرب، ص٣٩٨، وابن القطان نظم الجمان، حيث هجرة الإمام إلى ايجليز (ايجلى) فى سنة٥١٥هـ/١١٢١م-والمقصود بذلك أنه بويع إماما معصوما فى السنة التالية لوصوله حسبما نرى، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٢٧-حيث النص على أنه عندما خرج من أغمات دعا اسماعيل بن ابكيك (ايججج) من أصحابه، وهو فى انجاد قومه، وخرج به فى اتجاه جبال المصامدة، فلحق أولاً بمسفيرة ثم بهنتانة، ولقيه من أشياخهم عمر بن يحيى بن محمد بن واتودين بن علي، وهو ابو حفص ويعرف بيته ببنى فاصكات، كما يقال لهنتاتة بلسانهم هنتى (فهو عمر هنتى)، وأخيراً لجأ إلى ايكنيين من بلاد هرغه فنزل على قومه، وذلك سنة ٥١٥هـ/١١٢١- ١١٢٢م، وبنى رابطة للعبادة واجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة فى التوحيد باللسان البربري، فشاع امره فى محجته.

عندما استقر فى السوس فى تلك السنة تسامع به أهل النواحى ، فوفدوا عليه ، فكان يعظهم ، ويذكر شرائع الإسلام ، وماحدث من الظلم والفساد ، وأنه أظهر ماكان يضمره من تغيير الدولة فنادى «بعدم وجوب طاعة دولة من هذا الدول لاتباعهم الباطل» (١٧٨).

تنظيم الأصحاب : رباط ابن تومرت فى ايجليز :

والمهم أنه أثناء تلك الفترة نجح ابن تومرت فى تحويل جماعته إلى ما يمكن أن يشبه برباط ابن ياسين الذى قامت على أساسه دولة المرابطين من بنى تاشفين (١٧٩) . وكان لابن تومرت أسلوبه الناجح فى اختيار الأتباع ، فلقد فرّق من يثق بسياسته من تلاميذه على البلاد القاصية والدانية ، يدعون إلى بيعته ، ويثبتون عند الناس إمامته ، ويزرعون محبته ، فقصد اليه الناس من كل مكان يتبركون برؤيته (١٨٠) . وهكذا كان يستدنى كل من أتاه ، «ويعرض عليه ما في نفسه من الخروج على الملك فإن أجابه أضافه إلى خواصه». هذا ، كما «كان يستميل الأحداث وذوى الغرّة» (١٨١) . والمرجع فى ذلك رواية كل من ابن الأثير وابن القطان . فرواية ابن الأثير تنص على أن ابن تومرت اتخذ لجماعته مسجدا خارج المدينة حيث كان يقضى معظم يومه حتى صلاة العشاء الآخرة ، كما جعل زيًا خاصا ، هو لبس القصير من الثياب القليلة الثمن . فكأن الجماعة تحولت إلى تنظيم

---

(١٧٨) ابن الأثير، ج١٠ص٥٧١ .

(١٧٩) ج٤ص١٨٣ وما بعدها .

(١٨٠) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص١٧٦-١٧٧ .

(١٨١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ص٥١-حيث النص أيضا على أنه "وكان ذوو العقل والعلم والحلم من أهاليهم ينهونهم ويحذرونهم من اتبّاعه...فكان لا يتم له مع ذلك حال-بمعنى أن العمل لم يكن هينا فى إنشاء الرباط، وانه تطلب جهدا وعرقاً، ربما كان يفوق طاقة غير ابن تومرت من البشر .

عسكري مما عرف حاليا باسم «الميليشيا» ، كما تنص على انه نهج لهم طريق الأدب بعضهم مع بعض (١٨٢) . اما ابن القطان فيشير إلى الأسلوب التربوي -الحديدي إذا جاز التعبير - والذي نظم به ابن تومرت جماعته ، حيث القول : إنه كان يعظهم في كل وقت ويذكرهم . ومن ثم كانت عقوبة من يتخلف عن الاجتماع أن يؤدب بالضرب والتثقيف ، فإن تمادي في الغياب عن حضور المجلس قتل.

وكل من لم يحفظ حزبه من القرآن أو ما استحدثه ابن تومرت من الدعاء ، عَزر ضربا بالسياط .

وكل من لا يلتزم بما هو مفروض عليه في نظام الجماعة كانت عقوبته الضرب بالسوط في المرة بعد المرة ، فإن ظهر منه عناد أو ترك امتثال الأوامر قتل.

وهكذا شدّد ابن تومرت في المعاملة ، وضبط أمرهم فيها فانضبط . وأقاموا علي ذلك مدة يتسامع الناس تقلب أحوالهم فيها (١٨٣). وبعد مضى سنة بادر الأعمال التأسيسية لقيام دولته بأن بشّر بظهور المهدى ، وأخذ في إنشاء المؤسسات والمجالس ، إلى جانب إعداد الدستور الممثل في مذهب التوحيد (١٨٤) . وحسب رواية ابن القطان ، فإن مرحلة التأسيس في ايجليز استمرت ٣ سنوات (من ٥١٤ هـ

---

(١٨٢) الكامل لابن الأثير، ج٠١ص٢٧٢ .

(١٨٣) نظم الجمان، ص٢٩، وقارن ابن ابى زرع، روض القرطاس، ١٧٧-حيث قصد الناس إليه من كل مكان يبايعونه. وسمى من دخل طاعته وبايعه...بالموحدين، وعلمهم التوحيد باللسان البربرى، وجعل لهم من الأعشار والأحزاب والسور، قال لهم : من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بمؤمن، وإنما هو كافر لا تجوز إمامته، ولا تؤكل ذبيحته، فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز، لأنه وجدهم قوم جهلة، لا يعرفون شيئا من أمور الدنيا ولا من أمور الدين، فاستهواهم بكيده وغلبهم بعذوبة لفظه ولسانه ومكره، حتى كانوا لا يذكرون غيره... يستغيثون به في شأنهم، ويتبركون بذكره على موائدهم..

(١٨٤) انظر ابن الأثير، ج٠١ص٥٧١

/ ١١٢٠ م - ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م) ، كان يدرس فيها العلم ، ويهاجر اليه الأعوان المتحمسون (السعداء) فيثقفهم بمبادئه في الدين والسياسة ونظم الحكم والاجتماع.

هذا ، كما كان على اتصال مستمر بالقبائل المختلفة في ايجليز والسوس ، ويعقد معهم الأحلاف والمعاهدات (١٨٥).

ومن الواضح ان الظروف كانت مواتية لابن تومرت لكي يضع حجر الأساس لدولة التوحيد المقبلة . فالأمور في الاندلس كانت تسير علي غير ما يروم أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاسفين. فقرطبة كانت قد ثارت على المرابطين، وأخرجتهم من حرمها في سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م (١٨٦) ، الأمر الذى أجبر الأمير على الرحيل لإقرار الأوضاع بنفسه هناك، وكانت فرصة انتهزها محمد بن تومرت ، ليوطد أساس دولته الوليدة.

---

(١٨٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٣ .

(١٨٦) ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٣، والحلل الموشية، ص١٠٢ .


A S R

الفصل الثالث

شهـــاب الدين


A S R

محمد بن تومرت إماما معصوما

دخول الغار

وكانت البداية عند ابن تومرت هي التشبه بالنبي في محاولة لإعادة الدورة الإسلامية التي كان قد مضى على بدايتها خمسة قرون ، إلى مسارها الصحيح ، بدلاً من قبول فكرة التجدد الإسلامية عند رأس كل مائة عام ، أو مقولة إن العلماء هم ورثة الانبياء . بمعني ان المسألة هنا تتعلق بالتجديد الشامل وليس بتعديل المسار في الطريق القوام المستقيم فقط . وهكذا دخل ابن تومرت في مرحلة أشبه بمرحلة التحنث الأولى عند النبي ، فبعد أيام يسيرة من وصوله إلى داره وسط أهله وعشيرته من قبيلة هرغة ، دخل الغار في جبل ايجليز حيث تسابق بعض كبار الأتباع في تكريمه وتمجيده . فبينما قدم ياللتن برنوسه لجلوس الاستاذ القائد ، رأى اسماعيل بن ايجيج الذى صار بمثابة المستشار العسكرى لابن تومرت أن تشريف «الإمام المعصوم» لايكون بالجلوس على البرنوس ، فخلع كساءه ، وهو يقول : النور لايكون الا على النور ، وفرشه لجلوس «المعصوم» بدلاً من الجلوس على البرنوس (برنوس ياللتن) (١) : كناية عن بياض الكساء ، خلاف البرنوس المخطط عادة - كما نرى.

---

(١) البيدق، ص٥٢-حيث : "فبقى أياما يسيرة ثم دخل الغار، وفرش له ياللتن "البرنوس" فلما رآه إسماعيل ايجيجي قد فرش للأمام المعصوم، قال له : "يا أخى كيف تفرش البرنوس لنور العلم، النور لا يكون إلا على النور، فازال من عليه كساه وفرشها، وقال : اقعد أنت أحق بها منى، فإن الله أمرنا بإكرامك، رضى الله عنك، وانظر المعجب لعبد الواحد المراكشى، ص١٨٧-حيث النّص على أن ابن تومرت "أمر رجالا منهم ممن استصلح عقولهم بطلب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل، وجعل يذكر لهم المهدى ويشوق إليه، وجمع الأحاديث التى جاءت فيه من المصنفات، فلما قرر فى نفوسهم فضيلة المهدى، ونسبه، ونعته، ادعّى ذلك لنفسه، وقال : أنا محمد بن عبد الله...ورفع نسبه إلى النبي صلعم، وصرّح بدعوة العصمة لنفسه، وأنه المهدى المعصوم، وروى فى ذلك أحاديث كثيرة حتى استقرعندهم أنه المهدى، وقارن ابن=

القوات المسلحة : أولى المنظمات:

ومن الواضح أن الإقامة فى الوطن قبل الانتقال إلى تينملل ، هى فترة التأسيس للحركة الموحدية التى بدأت بالتنظير لرأس الدولة المثالية المنتظرة : الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر ، والذى ينبغى أن يكون فى الفكر الإسلامى ، الإمام المعصوم . وأول مافكر فيه الإمام المعصوم ، هو العناية بالقوات المسلحة ، قاعدة الدولة - وعصبيتها - التي ينبنى عليها قيامها ، فهى قوة الدفاع والردع التى تحقق للدولة كيانها المستقل . وهكذا كان أول قرار يتخذه ابن تومرت فى ايجليز متاع هرغة هو بناء «ساراك» أى حظيرة للخيل باللغة البربرية ، والتحريض على اقتناء أعداد من الخيل على قدر سعة مايبنيه الراغب من الحظائر (٢) . وإلى جانب القوة الحربية كان ابن تومرت يدرك أن الكرم من صفات الأمير الاساسية ، وهكذا فقد أمر بعمل أسماس (طعام المآدب العامة باللسان البربرى) ، وكان الملح الذى يعطى للطعام مذاقه المستساغ من عمل يديه هو - وتناول الطعام يعد من المواثيق التى تربط بين الناس بشكل لاينفصم - كالخبز والملح ، والخبز واللبن، مما هو متعارف عليه.

والمهم ان البسطاء من قبيلة هرغة بجبل درن كانوا يظنون أن إمامهم المعصوم فوق مستوى البشر ، فهو لايأكلُ ولايشرب ، ولكنه وضح لهم أن الأمر ليس كذلك. وأنه يأكل مثلهم ويشرب ، وإنْ نصحهم بالتزام الأدب فى تناول الطعام - وهو الأمر

= خلدون، ج٦ص٢٢٨-حيث الإشارة إلى أن المهدى لقب قبل البيعة بالإمام ثم لقب بالمهدى بعد تمامها. وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص٣٨ وما بعدها-حيث العصمة بمعنى درء الخطر عن المعصوم، مثل عصمته من أهل الاسكندرية، ومن أهل المركب هناك إلى غير ذلك من الأخطار التى واجهها على طول الطريق إلى المغرب والتى عصمه الله منها، وقارن تاريخ موحدى مجهول، نشر بروفنسال، مقتطفات، قطعة١٢ص٣٥-حيث نفس رواية ابن القطان.

(٢)البيدق، ص٥٢-حيث النص على عمل حظيرة عامة كبيرة للخيل التى تصل إليهم، وان من عمل مذودا أخذ فرساً ومن عمل مذودين أخذ فرسين، ومن كذبنا حسيبه الله.

الذى ينبه عليه الغزالى فى إحياء علوم الدين (٣).

ومن المهم الإشارة هنا إلى اختلاف الكتاب حول مدى الإقامة فى ايجليز هرغة وطنه ، وهى الفترة التى يمكن قياسها بالفترة المكية من العصر النبوى ، فى مقابل فترة تينملل التى تقاس عندئذ بالفترة المدنية ، حيث كانت البيعة بها لابن تومرت «تحت شجرة الخروب» (٤) والحقيقة انه اذا كانت رواية البيدق قد أهملت طول فترة الاقامة فى ايجليز هرغة ، فابن القطان ينص على أنها طالت لمدة ٣ (ثلاث) سنوات (٥) بينما يحددها ابن الاثير بشكل دقيق بمدة سنة واحدة (٦) ، وهو الأمر المقبول من حيث أن الدارج بين الكتاب هو أن بيعة القبائل لابن تومرت إماما معصوما كانت فى سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م (٧)، وان هذا الحدث فاصل بالنسبة للحركة الموحدية حيث بداية الصراع الجدى ضد المرابطين، الأمر الذى كان يتطلب الأمن والأمان فى تينملل : قاعدة النضال والمطاولة .

(٣) انظر البيدق، ص٥٢-حيث النص على أن ابن تومرت بعد عمل الملح قال : "هذا عهد الله وعهد الرسول بيننا وبينكم على الكتاب والسنة. كما أنه قال للناس وهو يقرص بيده ذراع كبش ويلقيه فى فمه : أنا آكل كما يأكل الناس وأشرب كما يشرب الناس، وأنا من بنى آدم يلزمنى ما يلزمهم، ثم قال كلوا كما يأكل النبيون، وقارن عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٨٧-حيث فبسط يده فبايعوه على ذلك (انه المهدى)، وقال ابايعكم على ما بايع عليه أصحاب الرسول (صلعم). وعن أدب أكل الطعام عند الغزالى، انظر إحياء علوم الدين، كتاب آداب الأكل، ج٢ص٢ .

(٤) البيدق، ص٥٢ .

(٥) نظم الجمان، ص٢٣-حيث وأقام الإمام بجبل ايجليز ٣أعوام...

(٦) الكامل، ج١٠ص٥٧١ .

(٧) وانظر النويرى، نهاية الأرب، ص٣٩٨-حيث وصوله إلى جبال السوس فى ٥١٤هـ/١١٢٠م، وإقامته هناك لمدة سنة واحدة، وقارن ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص١٧٦-حيث الوصول إلى تينملل فى شوال ٥١٤هـ/يناير ١١٢١م، وانهم أقاموا معه بتينملل إلى شهر رمضان سنة ٥١٥هـ/١٧نوفمبر ١١٢١م .

أهل العشرة (ايت عشرة) :

وترتبط بيعة «شجرة الخروب» بقيام أول المجالس التأسيسية «ايت عشرة» أو «جماعة العشرة» المكون من صحابة ابن تومرت العشرة الأولين السابقين فى التوحيد . وكانت البيعة ببسط اليد ، وقوله : أبايعكم على مابايع به أصحاب رسول الله صلعم - فكأنهم يقومون مقام العشرة المبشرين بالجنة - وهم :

١- عبد المؤمن بن على (الخليفة الذى تنتسب إليه الدولة المؤمنية : دولة بنى عبد المؤمن).

٢- أبو ابراهيم اسماعيل ايجيج (الهزرجى).

٣- أبو حفص عمر بن على آصناج (الصنهاجى).

٤- عبد الواحد الشرقى.

٥- عبد الله بن محسن الونشريش (البشير).

٦- أبو موسى الصودى .

٧- أبو بكر بن على الصنهاجى (البيدق : مؤلف أخبار المهدي).

٨- أبو محمد وسنار .

٩- عبد الله آهلان .

١٠- أغوال (٨).

---

(٨) البيدق، ص٥٣-حيث يأتى بعدهم : ١١- ببورك ايسيبين ،١٢-ميمون الصغير، ١٣-ميمون الكبير، ١٤-يحيى المسمع، ١٥-عبد السلام أغبينى، ١٦-مسلم الحناوى، ١٧-مكراز، ١٨-ملول بن ابراهيم وأولاده ثم سائر الموحدين، وقارن روض القرطاس، ص١٧٦ ، حيث النص على أن أول من بايعه أصحاب العشرة، وانه في الغد ١٦رمضان/١٨نوفمبر خرج إلى مسجد تينمل وأصحابه العشرة متقلدين سيوفهم، وخطب=

أهل الخمسين (آيت خمسين) :

إن اضطراب المعلومات الخاصة بالعشرة ، مما رأيناه في النصوص السابقة من استطراد البيدق في عدد العشرة إلى ١٨ (ثمانية عشر) فرداً مع إرداف ذلك بـ «سائر الموحدين» ، واكتفاء ابن خلدون بذكر ٨ (ثمانية) رجال من قبيلتين فقط ،

= الناس وأعلمهم أنه الإمام المهدي المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا وقسطا، كما ملئت ظلما وجوراً، وبايعه كافة أهل تينمل ومن جاورهم من الناس، وقارن ابن الأثير، ج١٠ص٥٧١-حيث قام إليه عشرة رجال أحدهم عبد المؤمن، فقالوا : لا يوجد هذا (صفات المهدى) إلا فيك، وأنت المهدى، فبايعوه على ذلك". وقارن، الحلل الموشية، ص١٠٧-١٠٨ حيث تبعه (ابن تومرت) بالسوس الأقصى كثير من البربر فى رمضان ٥١٥هـ/ نوفمبر١١٢١م-حيث قام خطيبا فقال الحمد لله، الفعال لما يريد، القاضى بما يشاؤه، لا راد لأمره، وصلى الله على محمد المبشر بالإمام المهدى الذى يملأ الأرض قسطا وعدلاً، كما ملئت جورا وظلما...مكانه المغرب الأقصى، وزمانه آخر الزمان، والاسم الاسم، والنسب النسب، والفعل الفعل. قال الامام أبو يحيى بن اليسع : لما فرغ من كلامه هذا بادره عشرة رجال من اتباعه بينهم عبد المؤمن، فبايعوه على ما بايع به الصحابة رسول الله، وان نكون يداً واحدة على القتال والدفاع، فبايعه أصحابه العشرة تحت شجرة خروب، وتتابع البرابر بعد ذلك فى المبايعة، أما قائمة العشرة هنا فهى مضطربة لا يصح فيها من الأسماء العشرة إلا ثلاثه فقط، وهم : عبد المؤمن، وعمر ازناق (أصناج) والبشير. وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٢٨-حيث الإشارة إلى دعوة المصامدة إلى بيعته على التوحيد، دون سنة٥١٥هـ/١١٢١م، فتقدم إليها رجالتها من العشرة وغيرهم. وأن تكوين جماعة العشرة كان على مستوى القبائل كالآتى:

من هنتاتة :١-أبو حفص عمر بن يحيى.

٢-ابو يحيى يكَيت(ايجيت).

٣-يونس بن وانودين.

٤-ابن يغمور.

ومن تينمل : ٥-أبو حفص عمر بن على الصنهاجى (أصناج).

٦-محمد بن سليمان.=

هما : هنتاتة و(أهل) تينمل ، وارداف ذلك بذكر قبيلتى جدميوة وجنفيسة يمكن أن يعنى أنه كان هناك مزج بين العشرة السابقين وبين مجلس الخمسين : ممثل القبائل المختلفة . فكأن العشرة هم مجلس الحكم (المصغر) من معاونى الإمام . بينما يكون الخمسون مجلس النواب الشامل :نواب القبائل - قبائل اقليم السوس من مصمودة وغيرها من الأحلاف.

ويرجع الفضل إلى ابن صاحب الصلاة الذى نقله ابن القطان فى الحفاظ لنا ، على البيانات التفصيلية عن جماعة الخمسين هذه ، الذين يمثلون ٦ (ست) قبائل مصمودية ، هى :

(١) هرغة (قبيلة ابن تومرت ويمثلها ٦ (ستة) رجال ، وهم :

١- ابو مروان عبد الملك بن يحيى .

٢- ابو زيد عبد الرحمن بن سليمان .

٣- اسحق (ولم أجد اسم ابيه) .

٤- ابو زكريا يخيى بن يومور .

٥- يعزى بن مخلوف .

٦- ابو زيد عبد الرحمن بن داود (٩).

= ٧-عمرو بن تافرا تكين (؟ اسم تركى ؟).

٨-عبد الله بن تلويات : راهب قبيلة هرغة.

فدخلوا فى أمره كلهم، ثم دخل فيه كَدميوه (جدميوه) وكَنفيسة (جنفيسة). والذى نلاحظه هنا أن الرواية ناقصة، مضطربة، وأن هناك حاجة ملحة لتحقيق نصوص ابن خلدون. والذى نراه أن الأمر ربما يتعلق هنا بممثلى القبائل من أهل الخمسين وليس بالعشرة من السابقين الأولين.

(٩) ابن القطان، نظم الجمان، ص٣٠ .

(٢) أهل تينملل (مدينة المعصوم) ويمثلهم ١٤ (أربعة عشر) رجلا ، وهم :

٧- ابو عمران موسى بن سليمان القاضي (صهر عبد المؤمن).

٨- ابو عبد الرحمن .

٩- سواجات بني يحيى.

١٠- ابو بكر بن يزامان.

١١- ابو محمد عبد العزيزى (لاأدرى ابن من؟).

١٢- على بن يامصل.

١٣- الحاج موسى.

١٤- يحيى المزات .

١٥- عبد الله بن ينساك.

١٦- القاسم بن محمد .

١٧- يوسف بن مخلوف.

١٨- ابو على يونس (١٠).

(٣) هنتاتة : ويمثلهم ٣ (ثلاثة) ، وهم :

١٩- أبو يعقوب يوسف بن وانودين .

٢٠- داود بن عاصم .

---

(١٠) ابن القطان، نظم الجمان، ص٣١-حيث ١٢ فقط

٢١- ابو محمد بن وجدان.

(٤) جدميوه : ويمثلهم رجلان ، هما :

٢٢- ابو محمد يعيش.

٢٣- أبو حرب (١١).

(٥) جنفيسة : ويمثلهم ٤ (أربعة) رجال ، وهم :

٢٤- ابو اسماعيل.

٢٥- ابو زيد عبد الرحمن بن زجو.

٢٦- عبد الله بن الحاج .

٢٧- ابو سعيد يخلف بن الحسين.

(٦) هسكورة : ويمثلهم ٣ (ثلاثة) رجال ، وهم :

٢٨- اسحق بن يونس.

٢٩- عبد الله بن عبيد الله.

٣٠- ابو عبد الله بن أبى بكر (بن يندوس).

(٧) القبائل : ويمثلهم رجل واحد ، وهو :

٣١- عبد الرحمن بن ينومر.

(٨) صنهاجة : ويمثلهم ٣ (ثلاثة) رجال ، وهم :

٣٢- ابو محمد الجرواى.

---

(١١) نفس المصدر السابق.

٣٣- يحيى بن وسنار.

٣٤- اسحق بن محمد.

(٩) ومن الغرباء ٥ (خمسة) رجال، وهم :

٣٥- ابو يعقوب اللمطي.

٣٦- ابو زكريا يحيى الدرعي.

٣٧ عبد الله بن يوسف الزناتي .

٣٨- سليمان الجزولي.

٣٩- ابراهيم بن جامع(١٢).

ولاحظ ابن القطان أن مصدره : ابن صاحب الصلاة، لم يعّد من أهل الخمسين إلا زهاء ٤٠ (أربعين) رجلا ، وفكر في أن يكون منهم من يُعدّهم ابن صحاب الصلاة من مستشاري ابن تومرت (أهل المشورة) الذين ربما كانوا منتقين من أهل الخمسين ، وهم ٧ (سبعة) نفر مرزعين على القبائل كالآتي :

٤٠- ابو سليمان (من هرغة).

٤١- ابو الحسين (من اهل تينملل).

٤٢- ابو وزشيغ بن يامرهل بن ياوجان (تينملل) .

٤٣- ابو دابوريغور يبوركن (من أهل تينملل).

٤٤- قطران بن ماغليفة (من هنتاتة) .

٤٥- ابو محمد سكانه (من مزاتة، من هنتاتة).

---

(١٢)ابن القطان، نظم الجمان، ص٣٢ .

٤٦- ابو عمران موسى بن واجهدين (من مزاته، من هنتاتة) (١٣).

ويكاد ابن صاحب الصلاة يأخذ بفكرة تداخل مجالس العشرة (آيت عشرة) والخمسين (آيت خمسين) ، وما ينص عليه بعض الكتاب من وجود مجلس للسبعين (آيت سبعين) عندما يعد رجال أهل الدار الذين كانوا فى خدمة ابن تومرت في داره ليلاً ونهاراً ، من اهل الخمسين الذى يعدون من أصحاب الإمام المعصوم ، وهم ٥ (خمسة) نفر كالاتي :

٤٧- عبد الواحد بن عمر

٤٨- ابو محمد وسنار بنى محمد

٤٩- ابو محمد عبد العزيز

٥٠- أبو موسى عيسى

٥١- عبد الكريم أنغو (١٤)

ووصول عدد المقربين من محمد بن تومرت إلى مايفوق الخمسين ، واذا أضفنا إلى هؤلاء ٨ (ثمانية) أسماء لرجال يضيفهم البيدق إلى أهل العشرة (ماسبق ص ١٩٢ و هـ ٨) فإن ذلك يعنى ، مع حسبان من تكون أسماؤهم قد سقطت سهوا عن طريق الذاكرة أو أثناء النقل التحريرى ، ان مجلس السبعين (آيت سبعين) كان المجلس العام للدولة الموحدة والذى يلتئم فيه المجلسان الآخران تدريجيا وإلى أعلى على حسب تخصص كل من أهل الخمسين وأهل العشرة ، فكأنه الجمعية العمومية لممثلى نواب الدولة الموحدية ، بحيث يكون أهل الخمسين هم الجمعية العادية ، ويكون أهل العشرة هم المجلس الأعلى أو المجلس المصغر أو الخاص بالنظر فى شئون الدولة العليا أو الاستثنائية ، كما هو الحال بالنسبة لمجالس الوزراء المصغرة أو

---

(١٣)ابن القطان، نظم الجمان، ص٣٣ .

(١٤)ابن القطان، نظم الجمان، ص٣٣ .

اللجان العليا المتخصصة فى وقتنا الراهن .

والمهم أن ابن تومرت نجح بالشحن المعنوى فى أن يربط بين تلك الطبقات من الناس الذين لاتجمعهم قبيلة واحدة ، فقد كان يقول لهم : «ما على وجه الارض من يؤمن إيمانكم ، وانتم العصابة المعنيون بقوله صلعم : لاتزال طائفة بالمغرب ظاهرة على الحق ... حتى يأتى أمر الله ، وانتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ، ويقتل الدجال ، ومنكم الأمير الذى يصلى بعيسى بن مريم ، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة (١٥)

دستور الدولة المصمودية الناشئة

مذهب التوحيد :

إلى جانب التنظيم العسكرى والإدارى الذى كانت عناصره تنشأ وتتطور بشكل طبيعى ، على مدار الزمن ، كان دستور الدولة المتمثل فى تنظير مذهب التوحيد التومرتى الذى ترتكز عليه قواعدها التشريعية وبالتالى اداراتها التنفيذية، وهو الأمر الذى انصرف إلى إعداده محمد بن تومرت منذ استقر فى بلاده فى رباط هرغة ، والذى انتهى بإعلانه مهديا معصوما . وفى ذلك ألف محمد بن تومرت عملين هامين ، هما العقيدة والمرشدة ، والأولى نظرية مجردة فى الإلاهيات، والثانية ترتيب للأمور العملية من شئون الحياة مما يعرف بالمعاملات ويضمنها الشئون التطبيقية فى العبادات ، وغير ذلك من شئون الخصوم الأعداء من المرابطين - وهى تعرف جميعا باسم «أعز مايطلب» وهى بداية افتتاحية الكتاب.

والحقيقة ان «أعز مايطلب» يعتبر المؤلف الرئيسى لابن تومرت ، وهو يعطى فكرة عن العلوم التى كان يشتغل بها أهل المشرق ، وخاصة فى خراسان والعراق حيث كانت المدارس وأعمال العمالقة من رجال القرن الخامس الهجرى / ١١م .

---

(١٥)عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٨٨

فالماوردى (قاضى قضاة بغداد ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م) هو صاحب الأحكام السلطانية ، وأدب الدنيا والدين ، والغزالى صاحب إحياء علوم الدين (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) ، إلى جانب الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك ، صاحب المدرسة النظامية (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م) ومؤلف واحد من أهم كتب النظم الإسلامية ، وهو كتاب سياسة نامة ، وأبى بكر الطرطوشي (الفقيه المالكى ، شيخ الاسكندرية وأستاذ ابن تومرت توفي ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م) وصاحب كتاب سراج الملوك، هم الذين وضعوا القواعد الرئيسية للفكر السياسى والنظم الإدارية فى عالم الإسلام . والحقيقة ان رباعى المشايخ الذى صقل ابن تومرت خلال رحلته العلمية المشرقية - مباشرة أو غير مباشرة، وهم : الكيا الهراسى (الأصولي الكبير - ت ٥٠٤هـ/ ١١١٠م - تلميذ ابي المعالى الجوينى : المتكلم الأصولى) وأبو بكر الشاشي (الفقيه الصدر - ت ٥٠٧ هـ / ١١١٣م) إلى جانب الغزالي وأبى بكر الطرطوشي، يجعل من ابن تومرت امتداداً طبيعياً للثقافة المشرقية فى قلب بلاد المغرب.

والذى يلفت النظر هو ان تلك المدرسة المشرقية : البغدادية الخراسانية كانت تتميز باتجاهاتها العقلانية الواضحة ، حيث كان رجالها إما من المتكلمين أو ممن درسوا عليهم من أبناء المذاهب الأخرى - غالية كانت أم معتدلة.

هذا الاتجاه الكلامى أو العقلانى يظهر فى مؤلف ابن تومرت «أعز مايطلب» سواء فى الشكل أو المضمون . فمن حيث الشكل يعتبر «أعز مايطلب» كتابا تعليميا فى منهج المتكلمين (فلاسفة الإسلام) ، الأمر الذى كشف عنه ابن تومرت أثناء مناظراته مع خصومه المغاربة الذين كانوا لايعرفون أساليب الجدل المنطقى الذى تعلمه هو - بعبقرية من غير شك - فى المشرق . وهكذا كان عليه أن يعرّف بالمنهج الدراسى قبل أن يعرض لموضوع الدرس:

فالعلم هو الذى يستعين به الطالب على فتح ما انغلق وكشف ما التبس . وهكذا يكون تعريف العلم بأنه : نور القلب تتميز به الحقائق والخصائص . وهكذا يسجل المنهج العلمى الذى حاول أن يعرف مناظريه به فى مراكش العاصمة (ماسبق

ص ١٨٢ و هـ ١٦٣) . فهو يسأل عن طرق العلم التى تنحصر فى ٣ (ثلاثة) : الحسّ والعقل والسمع ، وكل واحد منها ينقسم بدوره على ٣ (ثلاثة) . فالحسّ : متصل ومنفصل ، وما يجده الإنسان في نفسه ، والعقل : واجب وجائز ومستحيل ، والسمع يكون بالكتاب والسنة والإجماع (١٦).

أما عن منهج تحصيل الفقه فى السنة فيكون بـ ٥ (خمسة) أوجه تتمثل فى معرفة الآتى :

١- كيفية الأخذ عن الرسول.

٢- اللغة.

٣- مايتعلق بالمتن.

---

(١٦) أعز ما يطلب، ص٣٠، وقارن ابن القطان، ص١٢٨، حيث شروط العلم ٩ (تسعة)، هى : الفراغ التام، والبصيرة النيرة، والسيرة الحسنة، والهمة العالية، والصبر الحديدى، والاقتداء بالإمام الناصح، واتباع السبيل الواضح، والتأدب بأداب أهله، وألا يبتغى منه سوى وجه الله تعالى. أما عن طالب العلم فعليه أن يقدم ٤ (اربعة) أشياء، هى : الرغبة إلى الله فى الهداية إلى الحق، السريرة الحسنة، يقتنع بما علمه الله، وأن يعلم ان الباب مفتوح لسائر العباد، والأشياء لا تصلح إلا بتقدم ٤ (اربعة)، وهى : الحذر، والاحتياط، والاشفاق، والإخلاص. أما عن القواطع عن العلم فهى ٤ (أربعة)، وهى : الحوادث الطارقة، اشتغال النفس، وعدم الكفاف، ومخاطبة الناس.

أما عن آداب الصحبة، فهى ٨ (ثمانية) : المسالمة، المسامحة، المساعدة، المناصحة، الموازرة المواصلة، المحافظة، المكارمة. وقارن الماوردى، أدب الدنيا والدين، ص٧٥-٧٧-حيث العلم شرف لا قدر له.... وأصل العلم الرغبة، وثمرته السعادة، قارن محمد عبده، رسالة التوحيد، ص٢٤-حيث تقسيم العلوم إلى ٣ (ثلاثة) أقسام : ممكن (لذاته) وواجب (لذاته) ومستحيل لذاته، ص٣٢-حيث العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالاً فى الوجود، ص٥٨-حيث من يطلب العلم لأنه شهوة العقل ويسمى المعارف بأسمائها حتى القول بأن الحكمة غاية، ومن يراعى ان ذلك دين يتعبد به واعتقادبشئون الإله عظيم-يحسن لزوم الأدب فيه .

٤- الصحيح والسقيم .

٥- معرفة الاستنباط والتأويل(١٧).

وهو يستخدم المصطلحات الكلامية الفنية ، كما يعرّف بالمسلمات:

ففي أصول الحق والباطل يعرف بأن العلم أصل الهدى ، والجهل والشك والظن أصول للضلال ، وهي الأمور التي لاتنكر من حيث أنها مقطوع بصحتها كما دلت عليه الادلة العقلية والبراهين السمعية . وفي ذلك : فالأصل لا تتناقض فروعه ، ولا يكون أصلا لما نقيضه أصل له . فالمعنى الواحد مستحيل كونه أصلا للنقيضين(١٨) .

وعلي نفس النسق : لا منزلة بين الحق والباطل ، ولا ثالث بين المهتدي والضال . هذا ، كما يكون التواتر طريقا الي العلم، والآحاد ليست بطريق الي العلم، ويكون التواتر هو الأصل والآحاد الفرع (١٩) . أما الأحكام فهي (خمسة) : واجب، محظور، مكروه، مندوب، ومباح (٢٠). أما الكلام فيكون في : العموم، والخصوص والمطلق، والمقيد، والمجمل، والمفسر، والناتج، والمنسوخ، والحقيقة والمجاز(٢١).

---

(١٧) أعز ما يطلب، ص٣٢.

(١٨) أعز ما يطلب، ص٣٣، وانظر روبير برونشفج R. Brunschvig ، دراسات اسلامية (بالفرنسية)، باريز، ١٩٧٦، ص٢٨١-عن محمد بن تومرت حيث محاولة معرفة مصادر أفكار ابن تومرت الأولية (ص٢٨٢)، وحيث :"الظن يقف ضد علم اليقين أو الحق... وان الظن لا يغني عن الحق شيئا (ص٢٨٥)، وحيث : "الظن ضد العلم أي ضد القطعي والمقطوع به" (ص٢٨٦).

(١٩)أعز ما يطلب، ص٤١ .

(٢٠)أعز ما يطلب، ص٤٢ .

(٢١)أعز ما يطلب، ص١٧٣ .

أما عن التعريف الفلسفي لله أو الذات الإلهية : فالموجود المطلق هو القديم الأزلي ، الذي استحالت عليه القيود والخواص، المختص بمطلق الوجود من غير تقييد (٢٢). وكل ذلك يعتبر تمهيداً لتعريف العقيدة.

العقيدة : التوحيد :

والأمر المستغرب في العقيدة ان ابن تومرت ألفها لأبناء وطنه - مصامدة بلاد السوس - بلغتهم المحلية البربرية التي أظهر حذقه لها منذ الوصول إلى بلدة أم الربيع في طريق العودة (ماسبق ، ص ١٨٠). واذا كان الإسلام هو دين التوحيد الألهي ووحدة الأمة الإسلامية ، فإن مذهب التوحيد كما هو معروف ، معتزلي أصلاً، إذ يمثل أول مبادئ المعتزلة الخمسة ، وهي : التوحيد ، والعدل والاحسان ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٣). والتوحيد عند المعتزلة هو التوحيد المطلق الذي لاشبهة فيه من التجسيم . ففكرة التوحيد عندهم ترمي التي تصور (ذات) الله تصوراً روحيا صرفا، مجرداً من كل مادية أو تشبيه أو تجسيم ، وذلك عن طريق انكار الصفات (٢٤).

فالتوحيد عند المعتزلة يعني أن الله عز وجل لا كالأشياء ، وأنه ليس بجسم ولا عرض ، ولا عنصر ، ولا جزء ، ولا جوهر ، بل هو الخالق للجسم والعرض.... وان شيئا من الحواس لايدركه في الدنيا ولا في الآخرة ، وأنه لايحصره مكان ولاتحويه

---

(٢٢) أعز ما يطلب، ص١٨٦ .

(٢٣) المسعودي مروج الذهب، وانظر للمؤلف : محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والاندلس، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٣، ص ٢١ .

(٢٤) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص١٨٨-حيث وكان (ابن تومرت) على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في اثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها، وفي مسائل قليلة غيرها، وقارن ابن خلدون، ج٦ص١٢٧-حيث النص على ابن تومرت كان يقوم بتدريس الفقه والكلام وكان له في طريقة الأشعرية إمامة، وهو الذي أدخلها (الأشعرية) إلى المغرب.

الأقطار ، بل هو الذى لم يزل ولازمان ولامكان ، ولانهاية ولاحدّ ، وأنه الخالق للأشياء (٢٥).

وبمثل هذا وأكثر منه نادى محمد بن تومرت في «أعز مايطلب» في توحيد الباري ، سبحانه ، لا إله الا الذى دلت عليه الموجودات ، وشهدت عليه المخلوقات بأنه : جّل وعلا وجب له الوجود على الاطلاق ، من غير تقييد ، ولا تخصيص بزمان ولا مكان ، ولاجهة ، ولاحدّ ولا حيس ، ولاحدود ، ولا شكل ولا مقدار ، ولاهيئة ولاحال.

أول لايتقيد بالقبلية ، آخر لايتقيد بالبعدية ، أحد لايتقيد بالأينية ، صمد لا يتقيد بالكيفية ، عزيز لا يتقيد بالمثلية.

لاتحّده الأذهان ، ولا تصوره الأوهام ، ولا تلحقه الأفكار ، ولاتكيفه العقول.

لايتصف بالتحيز والانتقال ، ولا يتصف بالتغير والزوال ، ولا يتصف بالجهل والاضطرار.

له الاسماء الحسني ، واحد فى أزليته ، ليس معه شئ غيره.

لا موجود سواه ، لاأرض ولاسماء ولاماء ، ولا هواء ولاخلاء ، ولاملاء ، ولانور، ولاكلام ، ولاليل ولانها، ولا أنيس ولاحسيس.

لايرجو ثوابا ، ولايخاف عقابا (٢٦).

---

(٢٥) المسعودى، مروج الذهب، وانظر للمؤلف : محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس. ص ٢٢ .

(٢٦) محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، الجزائر١٩٨٥، ص٢٢٥، وقارن التوحيد عند محمد عبده رسالة التوحيد، ص٢٣-حيث النص : "والذى علينا اعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد، العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزعات شياطين، وشهوات سلاطين، والقرآن شاهد على كل بعلمه قاض عليه=

المرشـــدة :

أما عن المرشدة التى يُقصد بها تنظيم المعاملات الدينية بمعنى التطبيقات العملية في العقائد ، فتظهر وثيقة الصلة بالتوحيد . فهى تبدأ بـ «اعلم ارشدنا الله وإياك إنه وجب على كل مكلف ان يعلم ان الله عزّ وجل واحد فى ملكه ، خلق العالم بأسره ، العلوى والسفلي والعرش والكرسي والسماوات والأرض ، موجود قبل الخلق، ليس له قبل ولابعد ، ولا فوق ولاتحت ، ولايمين وشمال ، ولا أمام ولاخلف ، ولا كل ولابعض» (٢٧)، فكأنها جزء من التوحيد ، الأمر الذى يعنى ان التوحيد هو الأصل ، وان المعاملات هى الفروع - كما يقال اصطلاحا (٢٨).

الإمامة:

وهكذا تأتى الإمامة وكأنها أول منظمة فى المعاملات الدينية من حيث كونها

= فى صوابه وخطله.

والغاية.. معرفة الله بصفاته...مع تنزيهه عما يستحيل أتصافه به... والتصديق برسله على وجه اليقين...اعتماداً على الدليل لا استرسالاً مع التقليد... إن التقليد كما يكون مع الحق يكون فى الباطل، وكما يكون في النافع يكون فى الضار...". وأنظر للمؤلف محمد بن تومرت وحركة التجديد فى المغرب والأندلس، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٣، ص٢١-٢٤.

(٢٧) أعز ما يطلب، ص٢٦-حيث يستمر النص : لا يتخصص فى الذهن، ولا يتمثل فى العين، لا يتصور فى الوهم، ولا يتكيف فى العقل، ولا تلحقه الأوهام والأفكار، ليس كمثله شئ، وهو السميع البصير، ليس معه مدبر فى الخلق، ولا شريك فى الملك، حّي قيوم، لا تأخذه سنةٌ ولا نوم، أحاط بكل شئ علما، وأحصى كل شئ عددا.... وله الأسماء الحسنى، لا دافع لما قضى، ولا مانع لما أعطى...ليس عليه حق ولا عليه حكم، فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة عنه عدل، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لا يقال متى كان؟، وقارن الحلل الموشية، ص١١٧-حيث قال كاتب هذا، مما اثبته فى بعض تواليفه :اعلم أرشدنا الله، وإياك أنه وجب على كل مكلّف...الخ، ص١١٨-حيث ومن دعائه : اللهم اعنّا على طاعتك.

(٢٨) أعز ما يطلب، ص٨٣ .

بديلة للخلافة أو إمارة المؤمنين بطبيعة الحال ، وان جعلها من أصول الاعتقاد . فهو يبدأها بالنص على «وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة ، وهى ركن من اركان الدين، وعمدة من عمد الشريعة ، ولايصح قيام الحق فى الدنيا الا بوجود اعتقاد الإمامة فى كل زمان من الأزمان ، إلى أن تقوم الساعة.

ما من زمان الا وفيه إمام لله قائم بالحق فى أرضه ، من :آدم إلى نوح ، ومن بعده إلى ابراهيم : «انى جاعل للناس إماما ، قال : ومن ذريتى ، قال : لاينال عهدى الظالمين» (٢٩).

ولايكون الإمام الامعصوما من الباطل ، ... ومن الضلال ، لأن الضلال لا يهدم الضلال، ولأن الفساد لايهدم الفساد . لابد أن يكون الإمام معصوما من هذه الفتن، .... ومن الجور لأن الجائر لايهدم الجور بل يثبته . وان يكون معصوما من البدع لأن المبتدع لايهدم البدع بل يثبتها ، وان يكون معصوما من الكذب ... والجهل ... والباطل (٣٠) فلا يدفع الشئ الا بضده ، وهو الإمام المعصوم عن الباطل والظلم ، لأن الظالم لا يهدم الظلم ... فبذلك لاينالـه عهد الله (٣١).

وبعد عرض تاريخى يبدأ من «عيسى الذى بعثه الله نبياً إماما ، يقوم بالحق (حيث) لابد من العمود الذى قامت به السماوات والأرض فى سائر الأزمان فى الدنيا ، وهو الإمام متى زال العمود خرّ السقف من فوقه».... إلى «محمد المصطفى : إمام المتقين ... فدانوا له ... واعتقدوا ان المسارعة إلى مرضاته مسارعة إلى مرضاة الله ... ثم كان أبو بكر إماما بعده ، خليفة على عباد الله ... فالإمام هو المتبوع ... إليه تؤدى الحقوق ، وبه تضرب الرقاب ، وإليه ترفع الحدود ، وإليه يساق كل حق وبه ينفذ كل حكم ... وبعد ٣٠ (ثلاثين) سنة (عصر

---

(٢٩) سورة البقرة آية ٢ :

(٣٠) أعز ما يطلب، ص٢٢٩-٢٣٠ .

(٣١) أعز ما يطلب، ص٢٢٩-٢٣٠ .

الراشدين) بدت بعد ذلك أفراق وأهواء ، ونزاع واختلاف ، وقلوب منكرة وشح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب كل ذى رأى برأيه حيث صار زخرف الدنيا دينا ، والجهل علماً والباطل حقا ، والمنكر معروفاً ، والجور عدلاً ... فجاء المهدى فى زمان الغربة... »

من تلك النصوص عن المهدي يمكن أن نفهم أولا أن ابن تومرت لم يأخذ الفكرة الشيعية أخذاً حرفيا بل انه طورها تاريخيا بحيث تتفق مع الفكر السنى الذى كان عليه أهل المغرب والأندلس . فالعصمة التى عرفها ابن تومرت أثناء رحلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو فى طريق عودته إلى المغرب كانت عصمته مما كان يتهدده من الأخطار ، من إذاية كل من أهل الأسكندرية وأهل السفينة وأمير بجاية ، وختاماً بتهديد على بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ، له بالسجن بل والقتل . فهذا ما يفهم من رواية البيدق منذ الخروج من ملالة وحتى نهاية الرحلة ، حيث لقب «المعصوم» فى الخلاص من خطر للدخول فى مجال خطر جديد (٣٢).

والأمر الثانى انه اعتبر الأنبياء من ابراهيم إلى محمد أئمة ، بالاضافة إلى عهد الخلفاء الراشدين الذى اعتبره الكتاب استمراراً للعصر النبوى ، حيث تتحول الخلافة بعده إلى مُلك عضود . فكأن النبوة تمثل المهدية والعصمة . وكأن العصر النبوى والراشدى هو عصر سيادة الفضيلة ، وما تلاهما : عصور المروق عن قواعد الإسلام الصحيح ، وخاصة آخرها : عهد المرابطين الذين يصفهم ابن تومرت بالمجسمين فى مقابل أصحابه من الموحدين ، والذين رأى أن جهادهم أولى من جهاد الكفار(٣٣).

---

(٣٢) البيدق، ص٣٧، ٣٩، ٤٠ الخ .

(٣٣) انظر أعز ما يطلب، ص٢٣٢-٢٣٥-حيث النص على أنه بعد ٣٠(ثلاثين)سنة بدت بعد ذلك أفراق وأهواء...فثبتت أصول الباطل حتى ارتفعت فروعه، فجاء المهدى فى زمان الغربة مع تمكين العكس، الذي عكست فيه الأمور وقلبت الحقائق وبُدلت الأحكام، وخصص الله بما فيه من معانى الهداية ووعده قلب الأمور فى عاداتها...وتقلها إلى الحق بإذن الله حتى تنتظم الأمور على سنة الهدى...حتى يملأها عدلاً كما ملئت قبلها ظلما وجوراً. فهذا ما وعد الله=

وآخر فصول «أعز ما يطلب» تتمثل فى القواعد التى بنى عليها علوم الدين والدنيا ، وفيها:

١- الرسل حق وأنه لايفرق بينهم ، وأن كتب الله حق ، وأنه لايفرق بينها (٣٤).

٢- معرفة أصحاب الفتن : الرؤوس الجهلة والملوك الفجرة ، والدّجاجلة الطّغاة.

٣- معرفة أصول الفتن : الافتراق وعدم الاجتماع والاختلاف وعدم الاتفاق .

وفى النهاية يأتى باب فى بيان طوائف المبطلين من الملثمين والمجسمين (المرابطين) وعلاماتهم خمسة وهى أنهم : الحفاة ، العراة ، العالة ، الرعاة ، جاهلون بأمر الله. وصفاتهم سبعة ، هى أنهم : يأتون آخر الزمان ، ملوك ، يتطاولون فى البنيان ، يلدون مع الإماء ، يستكثرون الجوارى ، صمّ ، بكم.

وبعد ذلك تأتى مجموعة من الأحاديث النبوية ، الموضوعة من غير شك ، فى علاماتهم (٣٥) ، فكأنها عودة إلى ظهور المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً.

فصل المقال فى مذهب التوحيد التومرتى:

وهكذا تتمثل العناصر الرئيسية فى مذهب التوحيد لابن تومرت حسب التسلسل

= تعالى للمهدى، وعد الحق الذى لا يخلفه...سنته سنة الله ورسوله وأمره أمر الله ورسوله ، وطاعته طاعة الله ورسوله، وقارن العرض التاريخى الدينى عند الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد ، ص١٣٠ وما بعدها-حيث وظيفة الرسل، ص١٥٢-حيث : الدين الذى جاء به محمد ووعاه عنه صحابته وجري العمل عليه حينا من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل -ميْل مع التشيع.، ص١٦٦-حيث ترقى الأديان بترقى الإنسان، وكمالها بالإسلام.

(٣٤) أعز ما يطلب، ص٢٣٧ .

(٣٥) أعز ما يطلب، ص٢٤٢-٢٤٤ .

التاريخي ، كما نرى ، في الآتي:

مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو العنصر الخامس والأخير في الإسلام والإيمان لدى المعتزلة ، ومن تطبيقه نشأت فكرة عصمة الحاكم أو الإمام الذى يقع عليه التنفيذ للأحكام المعروفة عند الشيعة ، وهو الأمر المقبول من حيث أن القرآن دستور الإسلام الديني والدنيوى يتناول موضوعات روحية أو حياتية متباينة قد تظهر أحيانا متعارضة حسبما هو معروف في الآيات البيّنات والأخر المتشابهات، الأمر الذى يتطلب العلم والحكمة والعقل في تطبيق العدالة . وهكذا يمكن أن يتطلب الأمر من ولىّ الأمر ، المشرف على تنفيذ الأوامر والنواهي ، ان يكون متمتعا بنوع من التميّز الذى يصل فعلا إلى مرتبة العصمة من الخطأ - الأمر الذى يتلافى الخلاف والفرقة بل والتقاتل أحيانا بين أصحاب الآراء المختلفة .

هذا ومن الواضح تاريخيا أن العصمة التومرتية مرّت بمرحلتين ، الأولى تمثل العصمة من الخطر - خطر الأعداء والخصوم الذى تعرض له ابن تومرت أثناء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في طريق عودته من الاسكندرية إلى بلده ، والثانية : العصمة من الخطأ التى تعنى الحاكم المطلق أو المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً وظلماً والذى يخضع له جميع الموحدين ، ويعترفون بعدالته ، كما الأنبياء وخاتمهم محمد المصطفى (٣٦) الذى ينبغى أن ينسب إليه المهدى المعصوم - وهى الفكرة الأساسية في التشيع. «فهذا ما وعد الله تعالى للمهدى ، وعد الحق الذى لا يخلفه ، وطاعته صافية نقية ، ولم ير مثل طاعته لاقبل ولا بعد، ولاندّ له في الورى ... سنته : سنة الله ورسوله ، وأمره : أمر الله ورسوله ، وطاعته : طاعة الله ورسوله» - وهو ما خطه ابن تومرت بيده في دستور دولة التوحيد وباللغتين البربرية والعربية (٣٧).

---

(٣٦) أعز ما يطلب، ص٢٣١ .

(٣٧)انظر، أعز ما يطلب، ص٢٣٤-٢٣٥ .

وهكذا يبدأ مذهب التوحيد وكأنه محاولة من جانب المنظر المغربى المصمودى للتوفيق بين المذاهب الإسلامية الدارجة وقتئذ فى عالم الإسلام ، وهى المحاولة التى كان قد رفع لواءها حجة الإسلام ، الإمام الغزالى ، ممثلا فى مصنفه الذائع الصيت : «إحياء علوم الدين» . فقد وجد الغزالى أن معاناة الإسلام - دينا ودولة - تتمثل فى تفرقته إلى : سنة وشيعة وفلاسفة متكلمين ومتصوفة زهاد . وهو عندما سار فى التجربة الصوفية انما كان فى حقيقة الأمر يتملص من مسئوليته فى محاولة رأب الصدع بين الفرق الإسلامية المتناحرة ، وإعادة الوحدة إلى إسلام الطوائف ، وهو الأمر الذى رأى ابن تومرت أن يأخذه على عاتقه ، بمناداته بالوحدة ، وتأليفه لمذهب « التوحيد» توحيد المعتزلة المطلق - الذى استفاد منه مذهب الأشعرية - مع الربط بإسلام السلفية من طبقة عصر النبوة والراشدين - الأمر الذى يعنى الالتزام بعدم الخروج عن قواعد الإسلام الأصولى الأول اوهو الأمر الصعب المنال ا(٣٨).

فهو فى الوقت الذى ينادى بتوحيد المعتزلة المبنى على مبدأ التأويل الذى أخذ به مذهب الأشعرية الذائع الانتشار وقتئذ فى المشرق ، فكأنه توجه عقلانى بالنسبة لمن يأخذ به من أهل السنة ، وخاصة من الحنفية والشافعية (٣٩)- يرفض مبدأ المنزلة

(٣٨) الأمر الذى يذكر بما يقوله الشيخ محمد عبده فى نهاية رسالته من أنه "ربما يقول قائل إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأى القائلين بإهمال العقل بالمرة فى قضايا الدين، وكأن اساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق علي أشعة البصيرة أن تنفذ إلى ما أودعه من معارف وأحكام-رسالة التوحيد، ص١٢٨ .

(٣٩) انظر فتح الله خليف (مقدمة) التوحيد للماتريدى، ص٧م(مقدمة)-حيث النص : "يقول طاش كبرى زادة : ثم اعلم أن رئيس أهل السنة والجماعة فى علم الكلام رجلان، أحدهما حنفى والآخر شافعى. الحنفى : الماتريدى (إمام الهدى-ت٣٣٣هـ/٩٤٤م)، والشافعى : شيخ السنة ورئيس الجماعة، إمام المتكلمين : أبو الحسن الأشعرى البصرى (ت٣٣٠هـ/٩٤١م)، ص١٠م-حيث مذهب كلٌ من الماتريدى والأشعرى : مذهب وسط بين الحروفيين والعقليين من المعتزلة، وأنهما يلتقيان فى إثبات صفات الله وفى كلامه الأزلى، وفى جواز رؤيته...وأن لله علما لا كالعلوم ، وقدرة لا كالقدرة، وسمعا لا كالأسماع، وبصراً لا كالأبصار. وص١١م-فى كلام الله قال الأشعرى : القرآن كلام الله قديم ، أما الحروف فهى مخلوقة مبتدعة.فكأن ذلك موقف الوسط بين السنة بمعناها الظاهرى، وبين الكلام والفلسفة بمعناها الباطنى.

بين المنزلتين المعتزلي على أساس أن الأصل لا تتناقض فروعه ، ولا يكون أصلاً لما نقيضه أصل له (٤٠). وبناء على ذلك : «لامنزلة بين الحق والباطل ، ولاثالث بين المهتدى والضال (٤١) وهو في الوقت الذي يقول فيه بنفى التشبيه كالمعتزلة من حيث أن وجود الخالق سبحانه على الأطلاق ، يقول : «للعقول حدّ تقف عنده لاتتعداه : فكل ماسبق قضاؤه وقدره واجب لامحالة ظهوره»(٤٢)، كما يقول عندما يعرض لأسماء الله تعالى : «ما ورد من الشرع في الرؤية يجب التصديق به» ، فكأنه يأخذ بمقالة أن : «العقل ليس له في الشرع مجال» (٤٣)، فكأنه يحاول التوفيق أو التلفيق بين الآراء المتناقضة في سبيل تحقيق التوحيد - وهو الأمر الصعب أو العسر الهضم.

حرب دعاية عنيفة ضد المالكية المرابطية

بداية حرب المطاولة

خلال الفترة من سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م حيث كانت بيعة محمد بن تومرت إماما معصوما وحتى سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م حيث كانت النقلة إلى تينملل كان الرجل ينشئ مذهبه في التوحيد ، والذي يهدف إلى لمّ شمل ما تفرق من المذاهب التي عرفها عالم الإسلام منذ بدايته في العصر النبوى - الراشدى ، وحتى مطلع القرن السادس الهجرى / ١٢ م على المستوى العقائدى الدينى ، مابين أفكار أهل الظاهر والباطن ، ومما بين هذين الاتجاهين من أفكار المحايدين من المعتزلة أو الخوارج ، وعلى المستوى الحياتى الدنيوى ما بين الآخذين بحظهم من الحياة الدنيا ، والهاربين

---

(٤٠) أعز ما يطلب، ص٣٢ .

(٤١) أعز ما يطلب، ص٣٦ .

(٤٢) أعز ما يطلب، ص٢١٦ .

(٤٣) قارن محمد عبده، رسالة التوحيد، ص٥-٦-حيث "وكثيراً ما صرّح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو للعقل :نتائجه ومقدماته. فكان جل ما في علوم الكلام : تأويل وتفسير.

من مفاتنها من أهل الآخرة ، ومابين موقف أهل الوسط : الآخذين من الدنيا كأنهم يحيون أبداً ، والعاملين بنفس القدر من أجل الآخرة كأنهم يموتون غداً . وهى - كما نرى - المبادئ التى يعرّفها فى «أعزّ ما يطلب» بأنها ذات أصول متناقضة لا تؤدي إلا إلى فروع متناقضة بطبيعة الحال.

والمهم ان ابن تومرت ألزم أهل بلاده من البربر الجباليين - الذين كانوا إلى عهد قريب يجهلون مبادئ الإسلام الأولية - بتوحيده المطلق الذى جعله أصلا لكل الأفكار الدينية المختلفة ، كما سماهم «بالمؤمنين» قبل أن يسميهم «بالموحدين» ، دون غيرهم من المسلمين (٤٤) - الأمر الذى يذكر بتجربة أبى عبد الله الشيعى مؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد أفريقية ، فى أواخر القرن الثالث الهجرى وبداية الرابع ./ ٩-١٠م - قبل ٢٠٠ (مائتى) عام (٤٥).

والمهم ان هذا النظام الدينى الجديد كان يسير جنبا إلى جنب مع النظام السياسى - العسكرى الذى نشره ابن تومرت بين أصحابه فى قبيلة هرغة وغيرها من القبائل الحليفة ، مما سبقت الإشارة إليه من اتخاذ ابن تومرت لقب الأمام المعصوم ، وتكوين مجلس العشرة ، والخمسين ، والسبعين ثم ترتيب القبائل حسب القرابة من الإمام والأولوية فى الدخول فى الدعوة ، فكأنها السابقة فى الإسلام (ماسبق ، ص ١٩٨). وعن هذا الطريق أصبح الموحدون فى المجتمع المغربى المتجدد هم المسلمين

---

(٤٤) انظرأعز ما يطلب، ص٢٧١-حيث باب فى أن التوحيد يهدم ما كان قبله من الكفر والآثام، وباب فى وجوب العلم بالتوحيد وتقديمه على العبادة واعتماد العبادة على المعرفة-وما في هذا المعنى من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وانظر عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص١٨٨-حيث طبقات الموحدين الذين لا يجمعهم قبيلة واحدة، وكان يقول لهم، ما علي وجه الأرض من يؤمن ايمانكم، وانتم العصابة المعنيون بقوله صلعم : لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرة على الحق، لا يضرهم من حولهم حتى يأتى أمر الله، وانتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم...ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة.

(٤٥) انظر ج٢ص٥٥٧ .

حقا ، الذين يقع على عاتقهم جهاد غير الموحدين من المسلمين ، وإلزامهم بالدخول فى حظيرة التوحيد.

وهذا ما يظهر فعلاً فى كتاب ابن تومرت :«أعزما يطلب» ، حيث تنتهى كل من العقيدة والمرشدة بأبواب فى أعداء الإسلام ، أعداء التوحيد ، كما كان الحال بالنسبة للتمهيد لقيام دولة الفاطميين فى افريقية والقيروان . فهؤلاء هم أصحاب الفتن من المرابطين الملثمين الذين يوصفون بالمبطلين والمجسمين - والزراجنة رداً على تلقيبهم للموحدين بالخوارج (٤٦) ، كما يوصفون بالرعاة الجهلة الذين يتطاولون فى البنيان - مما يعبر عن نهاية الزمان !

والمهم أيضا أن ابن تومرت لم يكتف بتلك الدعاية العنيفة ضد المرابطين فى دروسه للأصحاب والتلاميذ الذين قسمهم إلى طلبة (كبار) وحفاظ (صغار) ، أو للوافدين عليه من شيوخ القبائل وأعيان البلاد ، بل إنه كان يوجه الكتب فى أنحاء البلاد تحمل الدعاية المعادية للمرابطين.

ويحتفظ لنا البيدق بنسخة رسالة بعث بها المهدي إلى أهل التوحيد واستخدمها عبد المؤمن بعده فى استمرار الدعاية ضد المرابطين (٤٧) وفى تلك الرسالة التى تعتبر نموذجا للرسائل الموحدية الرسمية الأولى ، من حيث: البدء بالبسملة والتصلية ثم تحديد جماعة المرسل إليهم ، وهم أهل التوحيد ثم السلام . وتأتى بعد ذلك الحمدلة والتصلية والتوصية بالتقوى . وتشيد الرسالة بعد ذلك بقيام أهل التوحيد بنصرة الحق والاجتهاد فى إحياء السنة ، وإخماد الباطل والضلال ، وبالتالى إحياء

---

(٤٦) الحلل الموشية، ص١١١، والهامش-حيث الزرجان طائر أسود البطن أبيض الريش لأنهم بيض الثياب، سود القلوب، كما سماهم بالحشم لاستخدامهم اللثام، كما تفعل النساء.

(٤٧) انظر أعز ما يطلب، ص٥٧، وقارن ابن القطان، ص٨٤-حيث وكتب كتبه إلى جزولة ولمطة وتنكيسة، بدعوتهم إلى الطاعة، وقد تقدمت نسخة كتابه فى السنة قبل هذه (٥١٦هـ/١١١٢م)، وانظر الهامش حيث "يبدو انها سقطت فى بعض الخروم».

الدين (٤٨).

أما الخصوم من المرابطين فهم المجسمة المفسدون ، والكفرة الملثمون ، الذين سعوا فى هدم الدين وإماتة السنة ، واستعباد الخلق ، والاعتداء على الناس بأخذ الأموال وخراب الديار . وهم الذين يجمعون الحرام ويتمتعون بالسحت حتى اعتادوا الاسراف والتبذير فى اللذيذ من الطعام والرقيق من الثياب ، والخيل المسومة ، وغير ذلك من أباطيلهم ، وجورهم وفسادهم فى الأرض (٤٩) . وهم أعداء كل من تاب وأناب ، واشتغل بتعليمهم فرائض الله ، فهم ينسبونه إلى الضلال والبدعة ، ويهينونه ويعذبونه على دينه.

فهم لذلك الكفرة الطغاة كالجبابرة والفراعنة الذين يعذبون الناس على الحق ، ويقربون المجسم والفاجر ، والمخمور ، وقاطع الطرق ، ويكرمونه (٥٠) .

وهكذا لايفتتن بهم الا أبناء حزب الشيطان وجنوده من أبناء الدنيا المذبذبين ، والبرابر المفسدين ، والملبسون من الطلبة (الفقهاء) المكارين ، وغيرهم من أولياء الشياطين ، وأعوان الكفرة الملثمين . والملبسون من الطلبة الذين تسموا بالعلم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وتزينوا بالفقه هم أشرّ الطوائف ، من حيث تعلقهم

---

(٤٨) أعز ما يطلب، ص٢٥٧-٢٥٨ .

(٤٩) أعز ما يطلب، ص٢٥٩-٢٦١ .

(٥٠) أعز ما يطلب، ص٢٦١-٢٦٢ وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٦-حيث حديث :صنفان من أهل النار، لم أرهما : قوم معهم سياط كاذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات لا يدخلن الجنة-إلى جانب رواية لنفس الحديث بشكل آخر، ص٤٨-حيث : "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الكفار وليجدوا فيكم غلظة" (التوبة/١٢٣) والحديث : "أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله إلا الله، فمن قالها فقد عصم منى: ماله ونفسه إلا بحقه، وقول أبى بكر: والله لأقتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، وقول الإمام (المهدى المعصوم): فكل من منع فريضة من فرائض الله عز وجّل لحق على المسلمين جهاده... فكيف من منع الإيمان والدّين والسّنة؟

بالكفرة (المجسمين) ، وتصويبهم لضلالهم ، وايهامهم أنهم على الحق (٥١).

وفى مقابل ذلك تَرُدّ الرسالة ، بل وتُدحض مانسبه المرابطون إلى محمد بن تومرت بهدف تبغيض الحق عند العوام - من قولهم : هذا رجل يُكفر المسلمين ، ويمتنع من الصلاة على أهل القبلة . ويقول : أن من تاب لايلزمه قضاء الصلاة والصيام وغير ذلك من العبادات . ويرد المطلقة ثلاثا إلى زوجها ، وينشر المناكر والفساد فى الأرض ، والاعتداء على الناس فى أديانهم وأنفسهم وأقوالهم .

وهو يتهمهم بالاعتداء علي الناس ، ويعتبر ذلك أدنى أباطيلهم التي يستحقون بان يجاهدوا عليه جهاد فرض ، وليس جهاد تكليف (٥٢) .وبناء على ما تقدم فإن من قُتل من المجسمين فى تلك الحرب الدينية فهو فى النار ، ومن قُتل من الوحدين فهو فى الجنة شهيد - فكأنها عودة إلى بداية ظهور الإسلام فى بلاد العرب ، أو قيام دولة الفاطميين فى المغرب .

والرسالة تحث الموحدين فى النهاية على تحسين نياتهم ، وتعدهم بالنصر ، وتحرضهم على حسن الجهاد ، وتصفهم بأنهم «حزب الله» الغالبون.

وأخيرا يصف عبد المؤمن كلام المهدى بأنه نور وضياء ، ورحمة وشفاء لما فى الصدور (٥٣) . وهنا لابأس من الإشارة إلى أن الرسالة الكافية فى براهين الإمام

(٥١) أعز ما يطلب، ص٢٦٢، الأمر الذى يظهر فيه أثر الغزالى، وقارن ، ابن القطان، نظم الجمان، ص٤٤-٤٥-حيث وحذره-رضي -من الملبسين الذين يتوسلوهم بقيادهم إلى باطلهم وأهوائهم...وحذر من أعوانهم الذين باعوا دينهم...خسروا الدنيا والآخرة، ملعونين على لسان الرسول...وص٤٧-حيث وطاعتهم حرام لأنهم كفار ومنافقون، ويتبعون الهوى ومفسدون وجاهلون.

(٥٢) أعزما يطلب، ص٢٦٣-٢٦٤ ، وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص٤٢-حيث النص : وحاولوا (المرابطون)تبديل الكلام بالزور والبهتان، وتقولوا علينا ما لم نقل تهجينا للحق عند العوام، ونسبوا ذلك كله إليه.

(٥٣) أعز ما يطلب، ص٤٦٤-٤٦٥ .

المهدى - رضه - عقلا ونقلا ، والتى خاطب بها أبو عبد الرحمن بن طاهر (من رؤساء مرسية) الخليفة الأول : عبد المؤمن ابن على ، ويثبت فيها أمر الإمام المهدى - رضه - بالدليل والبرهان ، على طريقة المنازعة بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء عقلا ونقلا . وتحوى تلك الرسالة الكلام فى المدينة الفاضلة فى مقابل المدن الضالة الجاهلية (٥٤) ، والتى تنتهى بالقول : وإذا نحن تأملنا فى أفعال المهدى - رضة فى خاصة نفسه .... وجدناها فضائل بالذات خافية . وإذا تأملنا تدبيره للناس وجدناه كله ينحو السعادة الحقيقية ، فهو عارف بضرورة المهنة الملكية ، وبالفضائل العملية.

وبعد إشارة إلى تعليق ابن تومرت على تواليف الغزالى يقول فيه : «إن ذلك الرجل قرع الباب ولم يفتح ، أو ولم يؤذن له أو ولم يلج» يأتى النَّصّ على أن تواليف المهدى ابن تومرت تشهد له بأنه «عارف بالفضائل الفكرية والفضائل الخلقية» «وهذا هو الإمام الأول الذى يستحق ان يكون ملك المعمورة الكونية»(٥٥) وهكذا كانت هذه الدعاية الاعلامية مقدمة طبيعية للحرب بين المرابطين ودولة الموحدين الناشئة فيما يعرف بحرب المطاولة أي نزال تقرير المصير بالنسبة لكل من الطرفين المتصارعين ، فكأنها بداية قيام دولة المصامدة الموحدين.

---

(٥٤) ابن القطان، نظم الجمان، ص٥٠-٥١ .

(٥٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص٥٤-وحيث النص على أن درجته ارتفعت عن ان يكون خادما لشئ من الأجزاء المرئية، بل مدبراً للكل حتى تحصل للناس السعادة الحقيقية .

الفصل الرابع

قيام الدولة الموحدية



A S R

محمد بن تومرت ملكا لايخطىء

محمد بن تومرت ملكا لايخطئ

نسب محمد بن تومرت وأسرته:

محمد بن تومرت ينتسب إلى قبيلة هرغة ، إحدى قبائل المصامدة (مفردها مصمودة) من بربر البرانس الحضر (١)، القاطنين بجبال درن ، بمنطقة بلاد السوس (الأقصى) ، والمحافظين على تقاليدهم المغربية العريقة وبضمنها اللهجة البربرية (ماسبق ، ص ٧٧ وما بعدها) . وهكذا يقال إن محمداً هو اسم بن تومرت العربى ، أما اسمه البربرى الأول فهو «أسْفو» بمعنى الضياء . واذا كانت الرواية العربية تقول: إن ذلك الاسم هو لقب لمحمد لأنه كان يكثر من ايقاد السراج فى المسجد من أجل القراءة والدرس منذ الصغر ، فالصحيح ان «أسْفو» (ضياء) هو اسمه القومى، تماما ، كما هو الحال بالنسبة لاسم أبيه «تومرت» (Tou Mart) وهو الاسم البربرى الذى يعنى «أنت حبيبى».والذى كانت تناديه به أمه ، الي جانب اسمه العربى «عبد الله» (٢) . واستخدام اسمين للشخص الواحد أمر مقبول بالنسبة للجماعات العرقية التى احتفظت بتوجهاتها القومية فى ظل الإسلام ، وأهم النماذج

---

(١) عن قبائل المصامدة، انظر الخريطة ص ٧٢ ،وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٢٥-حيث شجرة نسب مصامدة جبال درن ومبدأها ليوطانات ومسطاف، وأصاء ثم مجموعتان من القبائل، هما : وازكيت، ومكسية، ووريكة، وركراكة (رجراجة)، وهزميرة، ودكالة، وصَوال، وهرغة (قبيلة ابن تومرت)، وهنتاتة، وتينملل، وكدميوه(جدميوه)، وهزرجة ثم ركن.

(٢) انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص٣٤-٣٥(حيث لقب تومرت)، ص٣٧(عن لقب أسفو الذى كان يلقب به فى صغره فى المكتب)، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٢٥(حيث أبوه : عبد الله تومرت)، ص٢٢٦ (حيث كان يسمى أسافوه، ومعناه الضيا، لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها وقارن تاريخ موحدى مجهول فى كتاب مقتطفات من المؤرخين العرب المراكشيين، نشر بروفنسال، القطعة ص٣٤-٣٥-حيث "وكان يلقب فى صغره، وهو يقرأ فى المكتب "أسفو" ومعنى أسفو بالبربرية الضياء لملازمة ايقاد القنديل فى المسجد للقراءة والصلاة " -حيث يتضح أن النص المجهول هذا هو لابن القطان أصلاً.

توجد عند الترك ، مثل : طغرل (النسر) : محمد ، وابن أخيه جغرى : داود من أوائل السلاجقة .

ومن الواضح أن التركيز على الاسم العربي لابن تومرت ، وهو: محمد بن عبد الله لايبدأ بشكل ملح الا مع إتخاذه لقب الإمام المعصوم : المهدى المعلوم ، حيث كان الهدف ربط نسبه العربى بالنسب النبوي الشريف ، عن طريق نسبته إلى الفرع الحسني العلوى عن طريق الادارسة المغاربة (٣). فكأن قبيلة ابن تومرت ، وهى هرغة ، عربية أصلا (ماسبق ، أعلاه) أو أنها رغم تبربرها ظلت محتفظة بأنسابها

(٣) انظر عبدالواحد المراكشي، المعجب، ص١٨٧-حيث فلما استوثق منهم (أصحابه) دعاهم إلى القيام معه...وجعل يذكر المهدى ويشوّق إليه، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات، فلما قرر فى نفوسهم فضيلة المهدى، ونسبه وبعثته، ادعى ذلك لنفسه، وقال : أنا محمد بن عبد الله، ورفع نسبه إلى النبى صلعم، وصرح بدعوة العصمة لنفسه وأنه المهدى المعصوم. وانظر ابن القطان، نظم الجمان، ص٣٤-اختلاف فى النسب، حيث ٣(ثلاثة)سلاسل، هى :

١- محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب -رضهم .هذا، كما نسب إلى :...عدنان بن صفوان بن جاد.

٢- محمد بن عبد الله بن وجليدبن يامصل بن حمزة بن عيسى بن ادريس بن ادريس بن عبدالله بن حسن بن أبى طالب-رضهم. وانظر ص٣٦-٣٧-حيث النص : وقد وقفت (ابن القطان) على نسخة صك كتبه-رضه- للفقيه القاضى على بن أبى الحسن الجذامى، أوله، بعد البسملة والصلاة : "أقول وأنا محمد بن تومرت، وأنا مهدى آخر الزمان، تاريخه شهر رمضان المبارك عام ٥١١هـ/يناير١١١٨م، وقارن تاريخ موحدى مجهول، مقتطفات، نشر بروفنسال، القطعة١٢ ص٣٤-الأمر الذى يشكك فى صحة الرواية، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٢٥-حيث الاسم :

١- محمدبن عبد الله بن وجليد بن يامصال بن حمزة بن تيطاوين بن عيسى

٢- محمد بن تومرت بن تيطاوين بن سادلا بن مقيجفرن بن القلدين بن خالد. =

العربية وتوجهاتها الإسلامية .

أما عن والدة محمد بن تومرت فهي من بنى يوسف بن مسكّاته ، فهم أخواله ، من موضع أصروان يسحج ، من بلاد السوس (الاقصى) . أما عن مسقط رأسه ، فهو موضع نومكران من الجبل ، حيث لا توجد مياه جارية أو مستقرة قرب دارهم ، بل كان شربهم من ماء المطر (٤) . والراجح أن مولده كان فى سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م (٥).

= ٣- وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه فى أهل البيت، وأنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطا بن رباح بن محمد، من ولد : سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، أخى إدريس الأكبر، الواقع نسب الكثيرمن بيته فى المصامدة وأهل السوس، وافترق ولده فى المغرب. قال : فمن ولده كل طالبيّ بالسوس، وقيل : بل هم من قرابة إدريس اللاحقين به إلى المغرب...ويردف ابن خلدون ذلك قائلا : وعلى الأمرين، فإن نسبه الطالبى وقع فى هرغه، من قبائل المصامدة، وسخت عروقه فيهم، فالتحم بعصبيتهم، فلمس جلدتهم، وانتسب بنسبهم، وصارفى عددهم. وذلك لكى يتفق النسب الشريف للمهدى وما تقول به الأحاديث المنسوبة إلى النبى والتى تتضح الصنعة فى كثير منها، وهنا لا بأس من الإشارة إلى ملاحظة دسلان De Slane فى ترجمته لابن خلدون إلى الفرنسية (ج ١ ص١٦٢ هـ ٣)، والتى تقول : "إن ابن خلدون كان يمكنه بسهولة إثبات وضع (اصطناع) هذا النسب لولا أنه كان يعمل لدى الحفصيين الذين يتمذهبون بمذهب ابن تومرت، كما أنه قدم كتابه إلى السلطان أبى العباس الحفصى. وقارن ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص١٧٢-حيث الإشارة إلى رواية ابن مطروح التى تشكك فى أن يكون ابن تومرت من هرغة، وإمكانية أن يكون أصلا من جنفيسة.

(٤) ابن القطان، ص٧٤، الحلل الموشية، ص١١٤، وقارن تاريخ موحدى مجهول، مقتطفات، نشر بروفنسال، القطع رقم١٢ ص٣٥،حيث وأمه - رضه - من بنى يوسف من مسكالة من أهل السوس من موضع أصدوان يسحج، وبنو يوسف هم أخوال الامام المهدى(فكأنها لابن القطان).

(٥) ابن الأثير، ج١٠ص٥٧٨، على أساس أنه توفى سنة ٥٢٤هـ١١٣٠/ م وله من العمر ما بين=

أما عن نشأته فكان من أسرة متيسرة ، إذ عرف أبوه عبد الله إلى جانب اسم تومرت (اسم الدلع الدارج) بلقب أمغار الذي يعنى «الشيخ» ، فكأنه كان رئيس قريته «وأصروان يسحج» الأمر الذى كان يسمح للأسرة المحافظة على وشائجها العربية الإسلامية ، ولابنه الفتى الصغير محمد - أسفو بالتردد على مسجد القرية بل وعلى ملازمة المسجد للقراءة والدرس حتى فسَّر اسمه «اسفو» (الضياء أو النور) بعد ظهوره من غير شك ، بأنه كان لقبا يعبر عن مداومة القراءة على ضوء القنديل. وأخيرا سمحت حياتهم المتيسرة بذهابه في رحلة العلم (أو البعثة) والدراسة المشرقية والحج (٦).

صفاتـــــه :

وعن صفة محمد بن تومرت شاباً ، فقد كان ربعة (٧) ، يميل إلى عظم الهامة(٧ م) مفلج الثنايا ، خفيف العارضين (قليل اللحية) ، في خنصر إحدى يديه شبه الخاتم من اللحم (٨) . هذا ،كما عرف بأنه جهورى الصوت (ماسبق ، ص١٨٠) ، وأنه حصور لايأتى النساء ، ليست له صبوة ولا شهوة (٩).

= ٥١ و ٥٥ سنة، وقارن ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ص٥٣-حيث ولادته فى عاشوراء سنة ٤٨٥هـ/٢١فبراير١٠٩٤م وهو التاريخ المحرف كما نرى، وانظر ابن القطان، ص٧٤، الحلل الموشية، ص١١٤.

(٦) ما سبق، ص ١١٩ وقارن تاريخ موحدى مجهول، نشر بروفنسال، قطعة١٢ ص٣٥-حيث رواية قصصية (فلكورية) تقول : "وكانت أمه (المهدى بن تومرت) قد عنِّست، فلما خطبها أبوه وكان فقيرا رغبوا فى مصاهرته، فلما ولد الإمام المهدى اجتمع عند ابنه وأمه هدايا كثيرة، فكان ذلك سببا لغناء والد الامام المهدى "(والنصّ يرجع لابن القطان).

(٧) ابن خلكان، ج ٥ ص٥٣، وقارن ابن شاكر الكتبى، عيون التواريخ، ج١٢ص١١٤ .

(٧م) (ماسبق ، ص٤ - ١٧٣)

(٨) ابن القطان، ص٣٨، وانظر تاريخ موحدى مجهول، نشر بروفنسال، قطعة١٢ ص٣٥ حيث نفس النص .

(٩) ابن القطان، ص٣٨، وانظر تاريخ موحدى مجهول، نشر بروفنسال، قطعة١٢ص٣٥ (نفس=

وفى أخلاقه عرف بأنه شجاع ، كريم ، مصمم على الحق ، لا تأخذه فى الله لومة لائم (١٠) . هذا ، وإنْ عرف عنه عدم التهور ، والتماس الحيلة وقت الوقوع فى مأزق ، مثلما كان يتظاهر به من الجنون عندما يحدق به الخطر ، فينجو حسب مبدأ : ليس علي المريض حرج (ماسبق ، ص) . وهذا لم يمنع من اعتبار عصمته كرامة من كرامات خصَّه الله بها (١١).

أفراد الأســـــرة :

أما عن بقية أفراد الأسرة فكان له ٣ (ثلاثة) إخوة ، هم :

عيسى ، وعبد العزيز (لأب) ، وأحمد الكفيف ، كما كانت له أخت شقيقة هى زينب ، وأخرى (لأب) (١٢).

= النص)، وقارن عبد الواحد المراكشى، ص١٨٩-حيث أبيات من الشعر ألقاها رجل من أهل الجزائر على قبر بن تومرت بمحضر من الخليفة الثانى (أبو يعقوب يوسف) والموحدين، أولها :

سلام على قبر الامام المجد | سلالة خير العالمين محـــمد

وشبهه فى خلقه ثم فى اسمه | وفى اسم أبيه والقضاء المسدد

(١٠)ابن القطان، نظم الجمان، ص٣٨، تاريخ موحدى مجهول، نشر بروفنسال، قطعة١٢ ص٣٥(نفس النص)

(١١)ابن القطان، نظم الجمان، ص٣٨، وماسبق، ص ، وعلى الجملة يقول ابن خلكان (وفيات الأعيان ج٥ص٥٣)نقلا عن صاحب "المغرب فى أخبار المغرب" :

آثاره تنبيك عن أخباره | حتى كأنك بالعيان تراه

قدم فى الثرى وهمة فى الثريا، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا....

كان قوته من غزل أخت له : رغيفاً فى كل يوم بقليل سمن أو زيت، ولم ينتقل من هذا حين كثرت الدنيا...وعندما مالت نفوس أصحابه إلى الغنيمة أحرق ما غنموه.

(١٢) ابن القطان، ص٧٤

حرب المطاولة : الصراع ضد المرابطين

هكذا يكون محمد بن تومرت قد خرج من دارهم في «تومكران» من بلد السوس (الأقصى) ، وهو في حوالي الـ ٢٦ (السادسة والعشرين) من عمره طالبا للعلم ، لكي يعود من رحلته الطويلة بعد حوالي ١٥ (خمسة عشر) عاما -وهو في بداية العقد الخامس- وهو محتسب شعبي : آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر ، لكي يتوّج بمعرفة تلاميذه ومريديه مهديا معصوما ، أي ملكا مثاليا لا يتهدده الخطر ، ولا ينتابه الخطأ أو الخطل : صاحب الرأي الصائب دائما بفضل توجيه العناية الإلهية أو الحتمية القدرية.

وكانت أولى مهماته ، هي إدارة الحرب المعلنة - مع إعلان المهدية والعصمة - على دولة المرابطين التي أصبحت في نظر دعوة التوحيد : دولة أهل الكفر من الحشوية المجسمين ، والزراجنة المنافقين.

وترتيب حرب المطاولة هذه من الأمور الصعبة - في ظل الحالة السيئة التي وصلتنا عليها المصادر . فصاحب الحلل الموشية يحتفظ لنا بقطع ثمينة من المصادر التي لم تصل إلينا في غيره ، والتي تجعل - بشيء من المبالغة ، كما نرى - للموحدين ٤٠ (أربعين) هزيمة على المرابطين . واذا كانت بقية النص تشير إلى أنه كان للمهدي ٤ (أربع) غزوات قام بها بنفسه (١٣) ، فإن تلك المعلومة لاتتفق مع رواية البيدق - أهم وثائق عهد بن تومرت . والحقيقة أنّ أخبار البيدق تخلوا تماما من تحديد التواريخ على طول الصراع الذي يستمر (٩ تسع) سنوات - إلى وفاة محمد بن تومرت سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠م . والمهم في ترتيبها في ٩ (تسع) غزوات بعدد سنين الولاية ، كما نرى أن تكون نوعا من التجدد بالنسبة لغزوات النبي (١٤) . أما ابن القطان فيجعل السنوات التسع علامة من علامات حياة المهدي

---

(١٣) الحلل الموشية، ص١١٤ .

(١٤) انظر البيدق، ص٥٣ وما بعدها.

المعصوم (١٥) ، وإنه قضى ٣ (ثلاث) سنوات منها فى ايجليز (فى رباط هرغة) والسنوات الـ ٦ (ست) الأخرى فى رباط تينملل (١٦). وفى إطار هذا التحديد العام يمكن التركيز على عدد من الأعمال الحربية والأحداث السياسية ، ومحاولة تحديد تواريخها بشكل مقبول . وفيما بين ذلك تجوز الإشارة إلى ما وقع من أحداث هنا وهناك بشكل عام.

المواجهات الأولى فى ايجليز:
مواصلة حرب الدعاية:

يقدم لنا ابن القطان روايتين لبداية القطيعة رسميا بين حركة التوحيد المصمودية وبين دولة صنهاجة المرابطية . الأولى منهما لابن الراعى ، وتجعل ذلك فى أغمات قبل الوصول إلى ايجليز ، عقب المناظرة التى كانت الغلبة فيها لابن تومرت إذ «لما أخذ الله الحق وأبطل الباطل ... خلع الإمام المهدى مبايعة علي بن يوسف من أعناق تابعيه وأصحابه ، وأعلن الجميع بخلعه».

والحقيقة أن نهاية تلك الرواية بالنص على أنه «كان بعضهم يبرّح به فى المساجد» يجعلنا نضع ذلك العمل ضمن حرب الدعاية - سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠م - التى سبقت الإشارة إليها (ص٢١٧ وما بعدها).

مقاومة هرغة:

أما الرواية الثانية التى يقدمها اليسع فى أخبار سنة ٥١٦ / ١١٢٢م (١٧)

(١٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص٦١-حيث المقدر لحياة المهدى ٥أو ٧ أو ٩سنوات.

(١٦) نظم الجمان، ص٧٥، وقارن ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص١٧٨-حيث النص على أن ابن تومرت نزل بجبل كليز(ايجليز) قرب المدينة، وأقام به ٣ أعوام يباكر جيوش لمتونة بالقتال، ويراوحهم فى كل يوم من سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م-٥١٩هـ/١١٢٥م.

(١٧) انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٩ . ٣٣ والهامش عن إليسع الذى توفى بمصر سنة٥٧٥هـ/١١٧٩م، وله كتاب : "المغرب فى محاسن أهل المغرب" .

فهى تحدد القطيعة بابتداء إعلام الإمام المعصوم بإعلان أمره العزيز ومبايعة الناس له ، وهو ما حدث ابتداء من سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م حيث بدايات العمليات الحربية بين الطرفين . فعندما بلغت أخبار إمامة ابن تومرت إلى أسماع « أمير المسلمين » على بن يوسف أرسل إلى الموحدين جيشا ضخما . وهنا وقفت هرغة - قبيلة ابن تومرت - تحت قيادة زعيمها ابن توقيان وقفة رجل واحد ، وقررت الدفاع عن زعيمها الروحى الجديد: المهدي المعصوم ، بل وقرروا لقاء الجيش المرابطى الذى سار إليهم بقيادة والى السوس: أبى بكر بن ورييل اللمتونى ، حال وصوله عند سفح الجبل - الأمر الذى كان يقلق ابن تومرت - كما نجحوا فى تحقيق النصر عن طريق الكمائن ، وأخذ أسلاب خصومهم القتلى المنهزمين (١٨).

حدث هذا فى الوقت الذى كانت تسوء فيه الأحوال بالأندلس بعد نزول كارثة كتندة في السنة السابقة (٥١٤هـ / ١١٢١م) وما والاها من ثورة قرطبة فى نفس السنة، الأمر الذى تطلب من الأمير على بن يوسف عبوره الرابع إلى الأندلس فى السنة التالية (٥١٥هـ / ١١٢١م) (١٩) .

وثأرا من هرغة ، أوقعت إحدى السرايا المرابطية بقيادة على بن تابشا اللمتونى ببعض بنى وارتانك من أفخاذ هرغة الذين كانوا قد خرجوا للغزو ، عن طريق الكمائن ، ونجحوا فى القبض على ١٠٠ (مائة) رجل منهم ، حملوا إلى سجن تيونوين بالسوس.

وكان من بين الأسري الموحدين ، أحد جماعة العشرة ، وهو :أبو الحسن يوجوت بن وجاج . واتبع على بن تابشا ذلك بمحاولة مفاجأة موضع المهدى السابق في الملت إن ورغن ، ولكن الموحدين أخذوا حذرهم هناك ، فخرجت عليهم كمائن هرغة ،

---

(١٨) النويرى، نهاية الأرب، ص٢٩٨-٢٩٩، الحلل الموشية، ص١١٠.

(١٩) انظر ج٤ ص٣٠٤، وعبد الله عنان، المرابطون والموحدون، ج١ ص٨٢ ، ١٠٣.

وقتلت أكثرهم وأخذوا أكثر خيلهم وسلاحهم فكانت أول غنيمة للموحدين فيها الخيل(٢٠).

وكانت مجمل خسائر هرغة في هاتين الغزوتين الأوليين ٣٥ (خمسة وثلاثين) رجلاً (٢١). أما عن خسارة المرابطين الذين كانوا تحت قيادة يبنتان بن عمر في أول غزوة لابن تومرت ، وهي غزوة تاوذزت ، فتمثلت في مقتل الزعيم الجنفيسي ودسكاين الذى صلبه الإمام على الرأس (منكسا - كما كان الحال بالنسبة للقديس بطرس فى روما) (٢٢).

وكانت نتيجة هذا الظفر المبكر - بطبيعة الحال- أن «قوى ظنهم بصدق المهدى.... فأقبلت إليه أمواج القبائل من الجبال شرقاً وغرباً» (٢٣).

وانتقاما من هرغة كان على أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ان يسير جيشا فى السنة التالية ٥١٦ هـ / ١١٢٢م - التى تقابل سنة الغزاة الثانية من غزوات ابن تومرت - كما نرى - بقيادة أخيه لأبيه ، وهو: ابو اسحق ابراهيم بن تيغشت ، الذى عبر من السوس إلى قلعة ايجليز بهرغة ، من جهة الشرق. وتقول رواية ابن القطان ، ان الإمام خرج إليهم فى جملة من رجال الحصن ، وانه وجه البعض منهم للقتال بينما عقد للآخرين مجلسا للوعظ ، أشبه ما يكون بهيئة التدريب المعنوى ، فكان إذا جاء جريح نشّطه ورغبه فى الشهادة . هذا ، كما كان

---

(٢٠) ابن القطان، ص٨١-٨٢، وقارن روض القرطاس، ص١٧٨-حيث النص فى "غزواته وحروبه (ابن تومرت) " ان "ركب أكثر جيشه على خيل المرابطين التى غنموها".

(٢١) ابن القطان، نظم الجمان، ص٨١-٨٢ .

(٢٢) انظر البيدق، ص٥٣-٥٤-حيث كانت هزيمة المرابطين هربا دون قتال، مصداقا للآية التى تقول : "ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزا (سورة الأحزاب، الآية٢٢٤)..

(٢٣) النويرى، نهاية الأرب ص٣٣٩ ، الحلل الموشية، ص١١٠.

يطلب من رجاله ألا ينظروا الي أعدائهم (أعداء الله) من المرابطين وعددهم فيعظموا في أعينهم بل طلب إليهم ان ينظروا إلى ما معهم من الخيل والسلاح الذى « هو هدية من الله إليهم» . والمهم أنه رغم ضعف تسليح الموحدين ، الذين كانوا لا درع لهم ، فإن المعركة انتهت بهزيمة المرابطين ، الأمر الذى شاع فى جميع البلاد ، «فهيب أمر ابن تومرت ، وكثر المهاجرون إليه» ، حتى قيل «أنه لم يبق قبيل من قبائل جبل المصامدة الا وقد هاجر إليه» - وهو الأمر المبالغ فيه من غير شك (٢٤) .

فالحقيقة ان القبائل من المصامدة وغيرهم كانت قد انشطرت في ولائها ما بين المرابطين حيث وقفت إلى جانبهم قبائل : دكالة ، وهسكورة وهزميرة ورجراجة وحاحة وصوة (٢٥) ، بينما استجاب لدعوة ابن تومرت ودخل فى زمرة التوحيد ، من قبائل صنهاجة المرابطية أصلا : جزولة ، ولمطة ، وهنكيسة وبنى يبغزّ ودرعة وصنهاجة القبلة ، وهسكورة القبلة (٢٦) . أما عن هنتاتة فكانت تتأرجح ما بين الدخول فى التوحيد والحفاظ على الاستقلال . فكأن النضال كان قد بلغ الذروة فيما بين ميادين قتال الحرب الساخنة ودعاية الحرب الباردة ، وكأن الأمر اختلط على قبائل المنطقة من مصمودية موحدية وصنهاجية مرابطية بوصولها إلى مفترق الطرق أو بداية المتاهة التى لاتتضح فيها الرؤية.

ويظهر ذلك فى صعوبة ترتيب الأحداث . فابن القطان يجعل حملة ابن تيغشت السابقة وكأنها الغزوة الثانية لابن تومرت بينما الأمر مختلف عن ذلك فى رواية البيدق ذات الطابع المنقبى. فجيش المرابطين كان يقوده ٤ (أربعة) من كبار القواد ، هم : سليمان بن يجلد ، وابن أبى قراس ، وعبد الرحمن : قاضى السوس ثم يانو .

---

(٢٤) انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص٨٤، النويرى، نهاية الأرب ص٣٩٨، الحلل الموشية، ص١١٠.

(٢٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص٨٤.

(٢٦) ابن القطان، ص٨٤-٨٥.

وكما سبق القول كان على ابن تومرت أن يرفع من معنويات الرجال ، الأمر الذى يمكن أن يعدّل من رجحان كفة تسليح المرابطين . وهكذا قال ابن تومرت لأصحابه: «لاتجزعوا فانكم تقبلون منهم الهدية» . وإذا كانت الهدية التى قبلوها فى المرة السابقة تمثلت فى الخيل والسلاح ، فإنها اختلفت هذه المرة من حيث تمثلها فى الرعب الذى يلقيه الله فى قلوبهم ويردهم ، فكأنها المعونة الروحية قبل النجدة المادية ، الأمر الذى يعنى نجاح الدعاية الموحدية فى كسر قلوب خصومها المرابطين(٢٧).

غـزوة تالات إن يميزك :

وهكذا اشتملت السنة الثالثة من غزوات المهدى (٥١٧ هـ / ١١٢٣) في ايجليز هرغة وقبل الانتقال إلى تينملل ، على عدد متنوع من الأحداث التى يقدمها كل من البيدق وابن القطان إلى جانب نقول الحلل الموشية . فإلى جانب العمليات الحربية كانت الدعاية السلمية والمفاوضات تسير متوازية من أجل الوصول إلى حلّ يمكن أن يرضى الطرفين .

فقبل قيام ابن تومرت إلى غزوته الثالثة هذه إلى موضع «تالات إن يميزك (يميزج) وصلته بعض كتب الأمير على بن يوسف ، تطلب حقن دماء المسلمين ، كما نرى . وردّ لهم الجواب ، وهو يقضى بطبيعة الحال ، بالدخول فى دعوته والإذعان لأمره . وكان على ابن تومرت أن يخلد بعض الوقت للانفراد والتأمل فيما كان يهمه.

---

(٢٧) البيدق، ص٥٤-حيث استخدم ابن تومرت فى قتال المجسمين الشارات المنطوقة من :"ذكر الله، وقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. هذا كما أنه عندما التقى الجمعان كبّر المعصوم فيهم، وقال لنا : الله ينصركم عليهم، ثم قبض قبضة من تراب اقتداءاً بفعل النبىّ يوم الهجرة ورماها فى وجوههم فانهزموا وتركوا الخيل والبغال والدعم (الخيام) والسلاح، وانقلبوا خاسرين.

وعندما خرج من عزلته المؤقتة أخبر ابن تومرت أهل مشورته عن غدر أحد شيوخ القبائل ، وهو عبد العزيز بن ياجريان ، وذلك بالتآمر مع المرابطين على اغتياله نظير رشوة مقدارها ٢٠٠ (مائتي) دينار. وترتب على ذلك أن أمر سرية من رجاله بمفاجأة عبد العزيز وقتله والاتيان بالكتابين المتبادلين فى هذا الشأن ، وتمت العملية بنجاح كما خطط لها (٢٨).

وكان من الطبيعى أن يثأر المرابطون لمقتل عميلهم فساروا إلى ايجليز . وكما هى العادة طمأن المهدى رجاله ، ورفع من روحهم المعنوية الأمر الذى انتهى بارتداد المرابطين «بغيظهم ، لم ينالوا خيراً» (٢٩).

وإزاء اخفاق القوات المرابطية المتكرر أمام قوات الموحدين الناهضة ، قرر الأمير على بن يوسف بن تاشفين ضرب الحصار على ايجليز فى منطقة قبائل هرغة ، فلعل الحصر والجوع يفعل بالمصامدة فى درن مالم يفعله السيف والقتل . وعهد علىّ بذلك إلى أحد الأندلسيين المتمرسين بحروب الحصار فى الأندلس ، بل ويقطع الطريق أيضا ، ويلقب بالفلاكى ، الذى أقام قلاعاً فى منافذ الجبل ، ومنع الموحدين من النزول إلى السهل . وبذلك الاجراء تمت القطيعة بين الحكومة المرابطية وجبل هرغة ، إذ : «تمنع من أهل الجبل كل من أطاع الإمام المهدى - رضه - من أداء كل ما كانوا يؤدونه لعلى بن يوسف» (٣٠).

وكان من الطبيعى ان يلح على بن يوسف بالحرب مع الحصار لكسر مقاومة المصامدة . وتنص روايات الحلل الموشية على عدد من الانتصارات التى حققها الموحدون على المرابطين ، كما فعلوا بعسكر «سير بن مزدلى اللمتونى وهزموه»

---

(٢٨) البيدق، ص٥٥-حيث تم صلب عبد العزيز بعد قتله، كما أتى بالكتابين اللذين يدينانه من تحت رأسه(مخدّته).

(٢٩) البيدق، ص٥٥.

(٣٠) ابن القطان، نظم الجمان، ص٨٥-٨٦.

(٣١). كما انهزم أبو الطاهر تميم أخو أمير المسلمين نحو جبل كيك ، الأمر الذى شجع الموحدين على الانتقال من الدفاع إلى الهجوم ، فتابعوا خصومهم المرابطين «حتى قبلى جبل وريكة» بقبلى أغمات . كما نجح الموحدون فى تمزيق جيش مرابطى آخر ، كان قد أتى على عجل بقيادة القائد بطىّ بن اسماعيل اللمتونى الذى قيل أنه قتل فى المعركة ، كما قتل كثيرون من رجاله من أهل أغمات وغيرهم (٣٢).

النقلة إلى تينملل، وحرب الدفاع :

والمهم أن ابن تومرت تعلم ، رغم الانتصارات الجيدة التى حققتها قواته على المرابطين ، ان الانتصارات فى الحرب المكشوفة ليست مضمونة على كل حال ، وخاصة أن الدولة المرابطية بدأت تواجه جماعة الموحدين بقوات كانت تزدادد فى ضخامتها باضطراد مع مرور الوقت ، ورأى أنه من الأفضل للموحدين قبول دعوة اللجوء إلى منطقة تينملل الحصينة (٣٣) حيث تمّ التحالف مع قبيلة هنتاتة القوية. وهكذا كانت النقلة من ايجليز هرغة إلى تينملل بمثابة بداية مرحلة جديدة ، يمكن أن تقابل مرحلة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة ، الأمر الذى يقابله مع قيام الدولة الفاطمية بافريقية التونسية تنقل أبى عبد الله الشيعى (الداعية) ما بين ايجكان : «دار الهجرة» ومعسكر تازروت فى منطقة القبائل بالجزائر (٣٤).

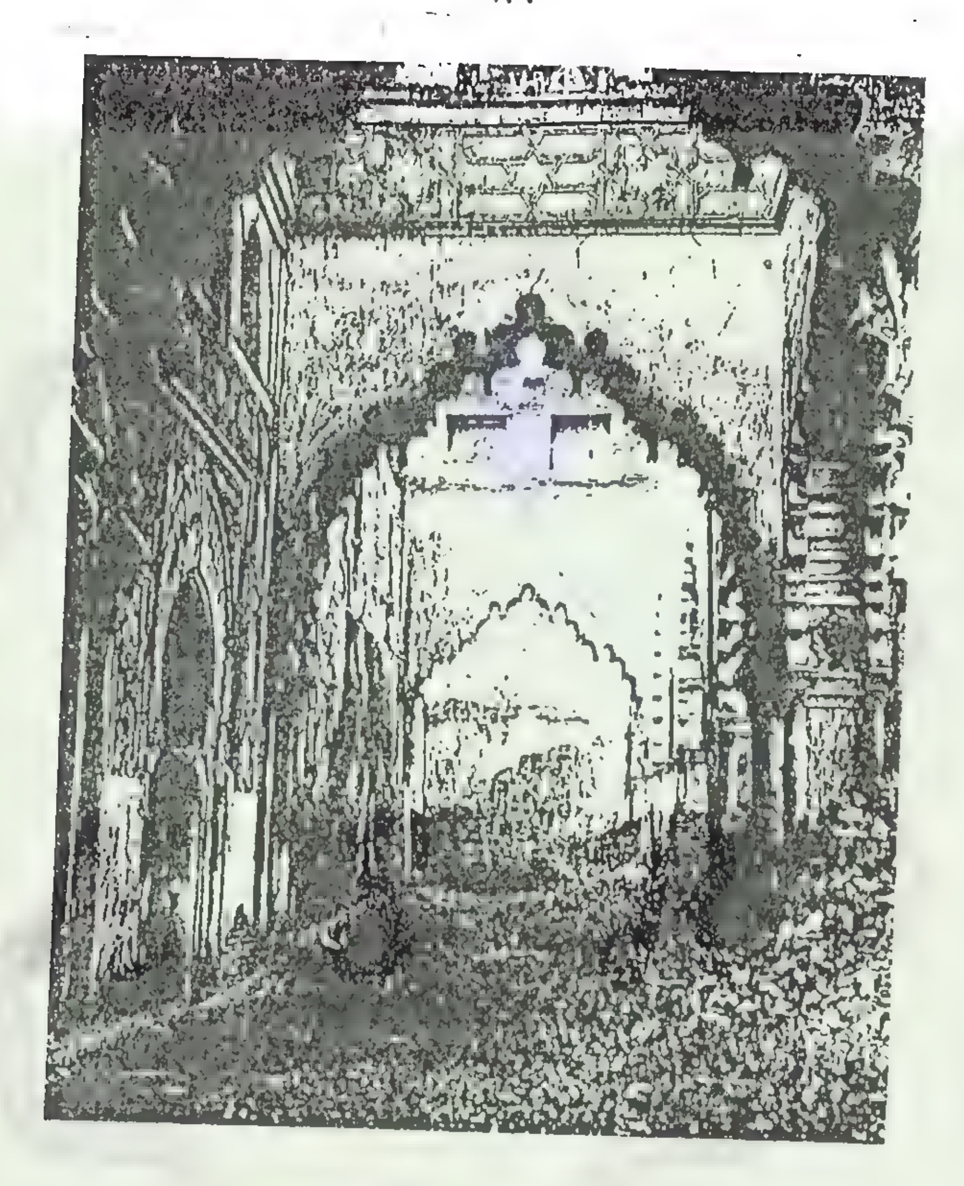
---

(٣١) الحلل الموشية ، ص ١١٠ .

(٣٢) انظر الحلل الموشية، ص١١٢. وأغلب الظن أن بطي قتل في باب أغمات (ص ٢٥٩).

(٣٣) عن حصانة تينمل انظر الحلل الموشية، ص١١٣-حيث النص على أنه "لا يدخلها الفارس إلا من شرقها أو غربها، وأن الطريق إليها من مراكش أوسع ما فيه أن يمشى الفارس وحده، وأضيقة أن ينزل عن فرسه خوفا من مقرطه، وكذلك في شرقها إلى الحافات تحت راكبها وفوقه، وفيها مواضع مصنوعة من الخشب، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد مسافة يوم على هذه الصفة، والرواية منقولة عن ابن القطان، الذي أخذها عن اليسع (انظر نظم الجمان، ص٩٥).

(٣٤) انظر ج٢ص٥٥٥-٥٥٦.



جامع تِنْمل بلاطة المحراب من باست وتراس

مابين جهاد المرابطين - حربا أو غدرا - وتطهير الموحدين : التمييز :

تحرير تينمل (تينملل) :

رونسفال جديدة فى جبل درن (٥١٨ هـ / ١١٢٤م)

وكانت أول أعمال ابن تومرت فى منطقة تينمل هو سدّ الثغرات الموجودة فى حوائط الجبل على طول الحافات فى شرق البلدة وغربها (٣٥) ثم بناء قلعة حصينة فى أعلي الجبل ، والتى تشرف علي السفح ، إلى جانب المسجد الذى بنى خارج المدينة (٣٦) ربما كملحق للرباط.

وفى تينمل ألب ابن تومرت أهل المنطقة على المرابطين ومماليكهم الفرنج الذين كانوا يحضرون سنويا إلى الجبل لجمع الضرائب ، فيقيمون فى بيوت الناس هناك خلال الموسم ويتصرفون فى الديار ومن فيها من الحريم وكأنهم أربابها ، الأمر الذى يظهر واضحا فى صفرة شعور أطفالهم وزرقة عيونهم . ونجح المهدى ابن تومرت فعلا فى سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤م فى تدبير مؤامرة تخلص فيها أهل تينملل من الضيوف المماليك غير المرغوب فيهم ، غدراً . وتوقع ابن تومرت أن يكون ردّ الأمير على بن يوسف بن تاشفين سريعا وقويا . وفعلا سارت العساكر المرابطية إلى جبل تينمل على قدر ما تسمح به ظروف المكان الشديدة الوعورة ، ولكن المراصد التى بثها ابن تومرت ، والنجدات التى أتته من الحلفاء المصامدة المجاورين ، استقبلت خيل المهاجمين بوابل من الحجارة ردّتهم على أعقابهم – فكأنها معركة رونسفال جديدة فى جبل درن (بدلا من جبل البرتات : البرانس) – الأمر الذى أرغم الأمير

---

(٣٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٩٥- حيث النص علي أن ابن تومرت «أدار علي المدينة سوراً أحاط بوهدتها»، الحلل الموشية، ص١١٢.

(٣٦) ابن الأثير، ج١ ص٥٧٢، وقارن ابن القطان، ص ٩٥ – حيث القول : «وبني (ابن تومرت)علي رأس الجبل سوراً، وأفرد في قبته حصناً يكشف ، وراء الجبل».

على بن يوسف على الكف عن محاولة إخضاعهم فى التو والحين (٣٧).

وبتحرير تينمل من النفوذ المرابطى أصبحت البلدة «مدينة مفتوحة» بين يدى ابن تومرت. ولما كان عليه أن يتأكد من إخلاص أهلها له ، تطلب الأمر اتباع سياسة ميكيافيلية ، كما يقال ، تجعل الهدف مبرراً للواسطة ، فلا تمنع من استخدام الغدر والخيانة ، فى سبيل تحقيق الغرض . وهكذا قضى على القوة الضاربة من المسلحين فى قبيلة هزميرة الموالية للمرابطين بالحيلة ، وتبع ذلك الغدر بأهل البلد فى مذبحة تبالغ الرواية - من غير شك - عندما تقول انه راح ضحيتها (خمسة عشر) الفا من أهل البلد ، كما تم تقسيم المساكن والأرض على الموحدين (٣٨).

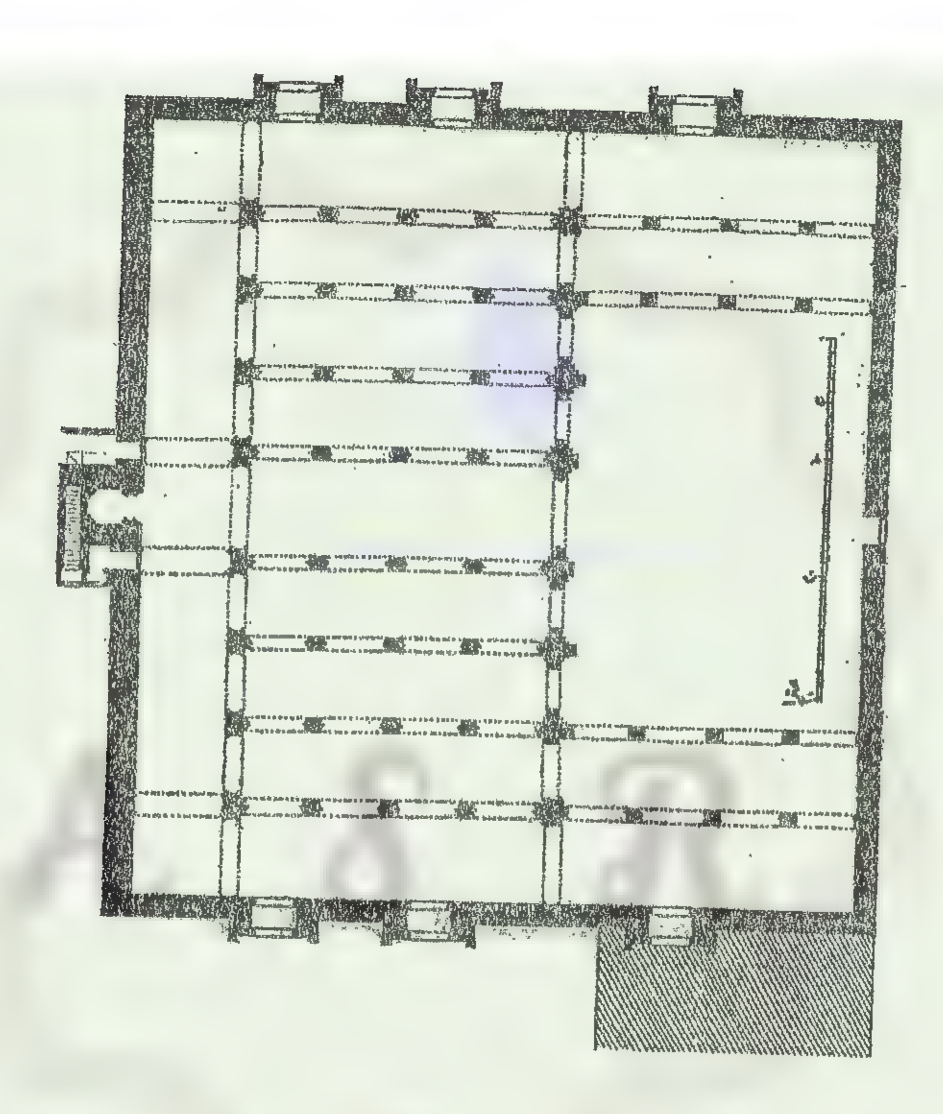
التمييز أو التطهير: ٥١٩ هـ / ١١٢٥م

وكان تحطيم المعارضين أو المنافقين فى تينمل وما حولها فرصة انتهزها ابن تومرت لإعادة ترتيب قواته ، والتخلص ممن يشك فى سلوكه أو ولائه من أتباعه ، فكانت عملية العرض التى تمت فى سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥م والتى عرفت باسم «التمييز» ، والتى عهد بها إلى أبى محمد عبد الواحد البشير - وهو الونشرشي - صاحب ابن تومرت المقرب . ويفهم من الرواية أن عملية التمييز هى نوع من عمليات التطهير المعروفة والتى تهدف إلى تنقية الأتباع أو الأنصار من العناصر المعادية أو المنافقة ، فلا يبقى من الأعوان الا المخلصون حقا ، المؤمنون بسلامة الحركة وصدق نواياها فى عملية الاصلاح الهادفة فعلا إلى خير جماعة الموحدين . وكان كثير من هؤلاء الشباب الأحداث ، وذوى الغرة ، الذين كانوا يتعرضون لضغوط المعارضين ، من جانب : «ذوى العقل والعلم والحلم من أهاليهم (الذين)

---

(٣٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ص٥١-٥٢-حيث النص على أنه لما «وصل الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبى الوادى مثل المطر من أول النهار إلى آخره».

(٣٨) ابن الأثير، ج١٠ ص٥٧٢-٥٧٣، وقارن عنان، المرابطون والموحدون، ج١ص١٨٢ .



تخطيط جامع تِنمَل (عن تراس وباست)

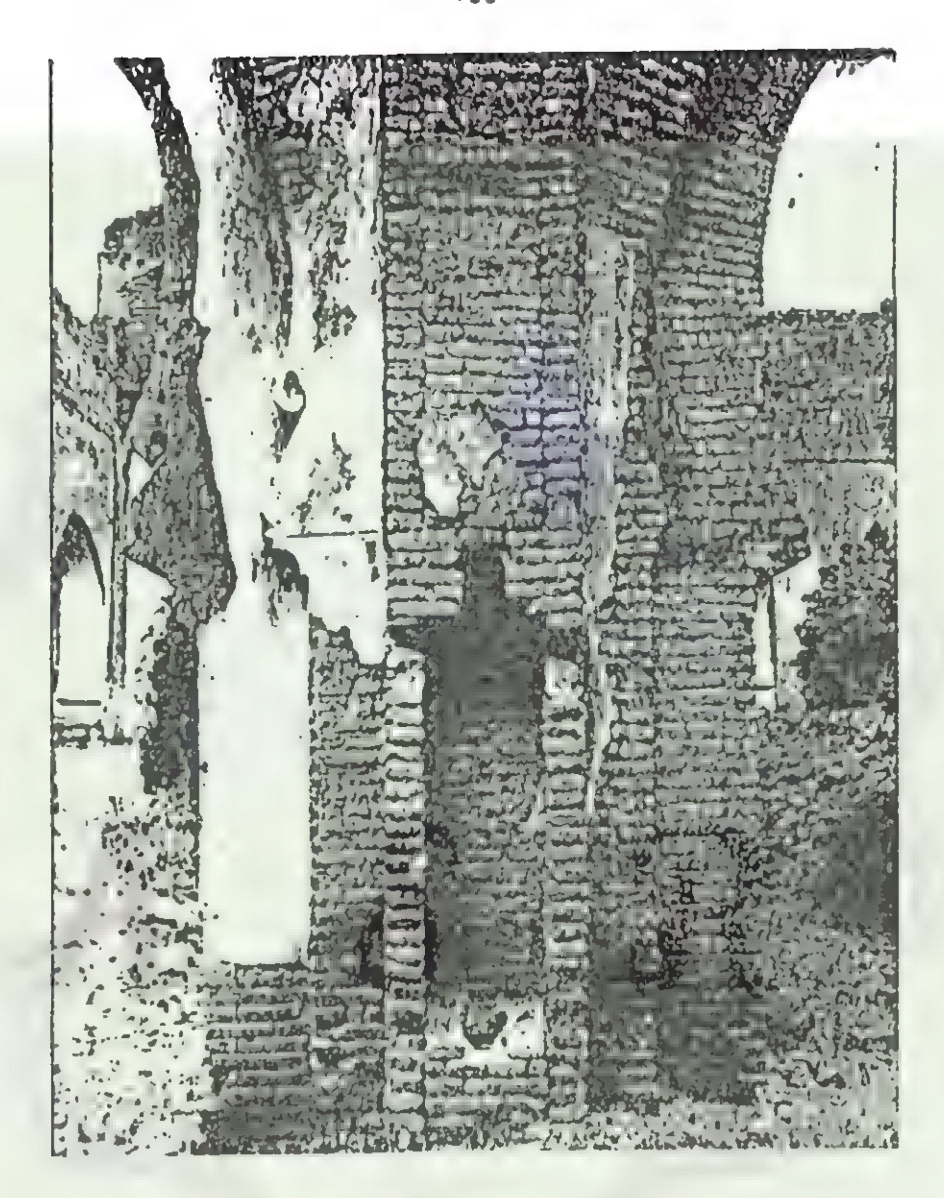
ينهونهم ويحذرونهم من أتباعه (ابن تومرت) » ، فكانوا من الأسباب المعرقة لمسيرة حركة التوحيد (٣٩).

ولا بأس إن كانت تلك المعارضة لجهود ابن تومرت فى حشد شباب الفترة فى منظمة التوحيد، ولجاحها فى تغيير قلوب البعض منهم، السبب فى ظهور تلك القصة الشعبية التى تجعل عملية العرض والتمييز أشبه ما تكون بمؤامرة رخيصة بدلا من عملية تقويم شريفة . فتلك الرواية القصصية تنسب إلى ابن تومرت، وكأنه كان يدبر لذلك الأمر منذ ما كان بالجزائر عندما انضم إليه كل من الونشريشي (ابو محمد عبد الله البشير) وعبد المؤمن بن على الكومى (ماسبق ، ص ٢ - ١٧١).

فالونشريشي كان يظهر منذ البداية ، بين أصحاب ابن تومرت ، وكأنه رجل مهتز الشخصية لا يحسن إحكام التصرف أو الحديث ، وبالتالى لم يكن له دراية بشئ من العلم أو الدين ، فكأنه «أبله القرية» أو «مضحك الجماعة». وفجأة ، وعندما قرر ابن تومرت القيام بعملية التطهير ، انقلبت أحوال الرجل ، وظهر ما كان يخفيه قصداً من العلم والحلم والعقل والكياسة ، الأمر الذى ستعتبره الجماعة نوعا من الكرامة أو المعجزة ، التى تسمح للرجل «الآية» بمعرفة الخيرين من الناس من أشرارهم ، بل والذى تصل معرفته الدينية أو إلهامه الالهى إلى التمييز بين أهل الجنة وأهل جهنم ، الأمر الذى ينبى عليه إنزال عقوبة الموت بالأشرار للتعجيل بهم إلى النار - بأيدى ذويهم وأقاربهم - فلا يبقى فى جنّة التوحيد الأرضية إلا الأخيار(٤٠).

(٣٩) انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ص٥١.

(٤٠) ابن الأثير، ج١٠ص٥٧٣-٥٧٤-حيث النص على أن "أبا محمد عبد الله الونشريشى كأنه معتوه والمهدى يقربه". وإن كان "يشتغل بالعلم سرّا، أتى وهو حسن الشباب، وقال إن ملكا أتاه فغسل قلبه، وعلمه القرآن والموطأ" -فكأنها إحدى معجزات النبى. "فبكى المهدى وقال : فمتحنك" -الأمر الذى أثار عجب الناس واستعظامهم. وقارن النويرى، نهاية الأرب،ص٤٠٠-٤٠١، وقارن رواية البيدق، ص٥٨-٥٩-حيث اضطراب النص والخلط بين الغزوة التاسعة-لابن تومرت إلى موضع : " آسَدْ روم " وبين تمييز الونشريشى الذى سبقته=



جامع تِنْمَل

دعامة داخلية من الطوب (مواجهة للصحن)

وإذا انتقلنا من القصص الروائي إلى أرض الواقع نجد أن ابن تومرت كان محقا في تنقية جماعته الناهضة مما يشوبها من الطفيليات . وهكذا كانت عملية التخلص من المشكوك في نواياهم بالنسبة للجماعة ، مطلبا واقعيا على المستوى الداخلي من حيث الحفاظ على نسيج جماعة التوحيد سليما من كل عيب ، كما كان ردعا لمن تحدثه نفسه بالخروج على الجماعة . هذا ، كما كان ذلك التطهير تقوية للجماعة ماديا ومعنويا ، في مقابل ما كان يعده أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من تجهيز الجيوش المرابطية لمقابلات حاسمة تهدف إلى اعادة التوازن إلى كفة ميزان الدولة المائل سلبا في صراع المصير.

ومن الواضح أن التمييز أصبح وكأنه بعض النظم العسكرية الدارجة لدى ابن تومرت على طول فترة الصراع مع المرابطين التي استمرت طوال الـ ٦(ست)سنوات التي قضاها ابن تومرت في تينملل،ما بين سنة٥١٩هـ/١١٢٥م عند ابن القطان (٤١) وسنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م وعند البيذق (ما سبق اعلاه)، قبل غزوة البحيرة – فهذا ما يستخلص من الأختلاف في تحديد سنوات التمييز، وتواتره بشكل غير منتظم عندهما وعند غيرهما من الكتاب .

=الاشارة إليه (ص)، وحيث القول ان ذلك التمييز استمر لمدة ٤٠(اربعين)يوما. حيث راح كثير من الضحايا من خمس قبائل، وعلى رأسها هنتاتة أهم حلفاء المصامدة، وكذلك جدميوة. والتمييز هنا يظهر في النص المضطرب-وكأنه مقدمة لمعركة البحيرة بقيادة البشير التي انهت حصار ٤٠(اربعين)يوما لمدينة مراكش من قبل الموحدين، وقارن ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ص٥٢-حيث إظهار فضائل الونشرشي (البشير) دفعة واحدة.

(٤١) نظم الجمان، ص١٠٢، وقارن ابن الأثير، ج١٠ص٥٧٤-حيث النص على أن عدد القتلى بلغ ٧٠(سبعين)ألفا كناية عن الكثرة التي لا تكون دفعه واحدة بل في مرات متكررة إلى جانب النص على أنه (ابن تومرت)أمر شيوخ القبائل بالأمر بالمعروف، وكتابة أسماء من يخشون من أهل الفساد لينظر في أمرهم، ففعلوا أكثر من مرة.

تواتر الصراع فى تينمل ضد المرابطين :

هكذا قويت جماعة الموحدين بعد التمييز(الكبير:سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م)، وازدادت صلابتها، وهذا ما يفسر بدء عمليات الحرب المنظمة ضد المرابطين إلى جانب عمليات الدعاية السلمية بين قبائل الجبل، والتى لم تعد تكتفى بالدفاع والمداراة، بل انطلقت فى كثيرمن الأماكن نحو المواجهة والهجوم. والمقصود بذلك تلك الغزوات التسع التى يخصصها البيدق لابن تومرت، والتى سبق خروج ثلاثة منها فى ايجليز (ما سبق، ص ٢٣٦) وبقيت ست منها لتينمل، والتى كانت موجهة نحو الخصوم أو المنافقين من القبائل فى المواطن القريبة، أو المتجهة بعيدا نحو الحضرة مراكش : نهاية المطاف والهدف الأخير.

ولا بأس من التركيز هنا مرة أخرى على الدور الكبير الذى قام به ابن تومرت شخصياً، ليس فى الإعداد للحرب والتحريض على حسن القتال فقط، بل وبالمشاركة فى الحرب بنفسه أيضا. فهو فى غزوات ايجليز الثلاث كان يشجع الرجال ويرفع من معنوياتهم ويطمئن أصحابه الموحدين ويدعوهم إلى عدم الجزع والفزع (ما سبق، ص ٢٤٠ وما بعدها).

غزوة ماسنة :

أما عن غزوات المهدى بعد النقلة إلى تينملل، فتتمثل فى الغزوة الرابعة (سنة٥٢٨ هـ ١١٣٤ م) التى وقعت فى منطقة "تيزى إن ما ست" إلى حيث خرج ابن تومرت، وتوصف وكأنها حمله حربية منظمة من جانب الموحدين. فلقد اشترك فى تلك الغزوة ٥ (خمس) قبائل رئيسية، إلى جانب قبائل أخرى . ربما كانت تمثلها وحدة عسكرية على نمط أهل تينملل. فقد كان لكل قبيلة علمها أوشارتها المميزة التى أعطيت لها من قبل ابن تومرت نفسه. فقبيلة جدميوة التى كان يقودها عبد المؤمن رفعت علمها الابيض فكأن البياض رمز القيادة العليا ، ورفعت هرغة بقيادة أبى ابراهيم العلم الأصفر. بينما كان علم جنفيسة بقيادة عبد الله بن ملويه (أو

ملويات) أحمر اللون. أما العلمان الرابع والخامس لكل من أهل يتنمل بقيادة ياللتن، وهنتاته بقيادة عمر آبنتي فلا ذكر للونيهما. وكذلك الأمر بالنسبة لبقية القبائل على ترتيبها إن لم تكن قد كونت فرقة أخرى ـ على نسق أهل تينمل، كما نرى (٤٢).

وهنا يمكن القول أنه ليس من الضرورى أن يكون الشعار مختلفا من حيث اللون، بل يمكن ان يكون اختلافه من حيث الشكل ، كأن يكون عمامة أو غفارة، أو غيرها من قطع الثياب (٤٣).

وكان الجيش المرابطى المتوجه نحوالموحدين بقيادة القائدين : يانو وآلدى بن موسى. والظاهر أنه كان من المقرر أن تسير القوات الموحدية لمبادرة العدو عند سفح الجبل ، ولكن ابن تومرت خشي من اختلال صفوف القبائل المصمودية اثناء النزول فى الطريق الوعرة الأمر الذى قد يستغله المرابطون لصالحهم، كما تقضى سلامة الحس فأصدر امره بعدم الهبوط إلى الوطاء ، فقال لأصحابة : " اتركهوهم يصعدون اليكم". وهكذا اتيحت الفرصة للموحدين بأخذ أعدائهم بمجرد الصعود ، قبل أن يستردوا أنفاسهم من مشقة التسلق ، ولجحوا فى هزيمتهم.

ومن الواضح ان إحكام التخطيط للغزوة الرابعة من قبل الإمام، وما أحرزته قوات قبائل مصمودة من النصر، رفع معنويات الموحدين، وجرأ محمد بن تومرت على المجازفة فى الغزوة الخامسة (سنة ٥١٩هـ/١١٢٥ م) بالهجوم بدلا من الدفاع(٤٤)

---

(٤٢) البيدق، ص٥٥-٥٦.

(٤٣) انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص١٢٨-حيث النص على أنه لما ملأت رايات لمتونة الفحوص مختلفة الألوان، قال لهم (المهدى) :لا تهولنكم هذه الخرق، وارفعوا انتم ما لديكم من الثياب، ففى قريب تصير لكم كل هذه العلامات. فرفعوا أزرهم وأكسيتهم وأرديتهم ونحو ذلك، وقارن أحمد مصطفى الصغير. الرايات والألوية الإسلامية، القاهرة ١٩٩٦

(٤٤) البيدق، ص٥٦ .

وقعة أنسا :

ومن الواضح أن الحكومة المرابطية أرادت الانتقام لايقاع المصامدة الموحدين بقواتها فى "تيزى إن ما ست" ، فسيرت جيشا كثير العدد ، خرج من مراكش بقيادة عمر بن ديان فى الطريق إلى جبال المصامدة. وهنا رأى ابن تومرت أن يبادر بالهجوم، فسار على رأس قواته نحو الجيش المرابطى، فكان اللقاء بين القرتين فى منطقة "أنسا إن يمادين"، وكان القتال شديداً بين الطرفين. والظاهر أن هدف المرابطين فى هذه المرة كان الضرب فى موضع القلب حيث راية القيادة التى كان يقف تحتها ابن تومرت، وكانت الهجمة المرابطية من القوة بحيث أدت فعلاً إلى سقوط ابن تومرت مع راية القيادة - على ما نظن - الأمر الذى أثار انتباه المحيطين به، الذين أقبلوا عليه حتى قام من كبوته، وبذلك أنقذ الموقف. ورغم أن "المجسمين" انهزموا ، كما تقول الرواية ، فإن الشطر الأول منها ، الذى يقول "اعلم يا أخى أن الله قدر الحق" يفسر ما كان الأمر من هزيمة أولية للموحدين ، اراد الله أن يمتحنهم بها!

والظاهر أن تبادل النصر والهزيمة بين الموحدين والمرابطين فى الغزوتين الرابعة والخامسة ، كان يعنى نوعا من توازن القوى الذى يحقق "المطاولة" فعلا بمعنى المقايسة والمناظرة، وهذا الأمر يظهر بوضوح فى الغزوة السادسة (سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م) (٤٥) .

غزوة تفنوت :

والتى تعرف بغزاة تفنوت ، نسبة إلى موضع اللقاء فى قلب بلاد هرغة. فالجيش المرابطى قدم تحت قيادة القائد أبى بكر بن ورييل اللمتونى، على رأس قوات من أهل السوس . وخرج ابن تومرت فى إثرهم ، وكانت له الجرأة على أن تكون قواته هى البادئة بالهجوم. وكان القتال الذى يوصف بالشدة سجالاً. وفى ذلك يقول

(٤٥) البيدق، ص٥٦ .

البيدق : إن المرابطين "لما رأوا مالا يطيقونه افترق النظام ، ورجع كل واحد لموضعه"(٤٦) .

والحقيقة ان الافتراق دون مواصلة الصراع فى تيفنوت تعنى التكافؤ بين الطرفين، الأمر الذى كان يبشر، بطبيعة الحال،بهيمنة متوقعة لقوى الموحدين المتصاعدة (فى مملكتهم تينملل).

غزوة هسكورة:

اصليم

وتعتبر غزوة هسكورة السابقة (سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م) (٤٧) قرينة للغزوتين السابقتين (الـ ٥ و الـ ٦) من حيث نتيجة الحرب السجا' وواضح من ترتيب القبائل المصمودية الموحدية فى الغزوة الرابعة (سنة ٥١٩هـ ، ١١٢م) (ص ٢٣٥) أن هكسورة لم تكن وقتئذ فى صفوف ابن تومرت، فهى إذن لم تكن قد وحدَت بعد، الأمر الذى دعا إلى المسير إليها لانتزاعها من صفوف المرابطين، وإدخالها في حظيرة التوحيد. وكان اللقاء بين ابن تومرت وقوات هسكورة في موضع «آزليم» (آصليم) حيث اشتدوطيس القتال الذي شارك فيه ابن تومرت مشاركة شخصية حتي أصابته الجراح. وتظهر الرواية صورة طريفة لابن تومرت وهو يصطحب في

---

(٤٦) البيدق، ص٥٦ ، وبالتأمل فى رواية البيدق يمكن أن تنسب هذه الغزوة التى قادها أبو بكر اللمتونى إلى فترة بداية الصراع مع هرغة سنة٥١٦هـ/١١٢٢م، فى أيجليز، وهو الأمر الذى ترجحه أيضا رواية ابن القطان التى تنص على أن ابن تومرت تأهب لتلك الحملة. بحفر جباب الماء فى بلاد هرغة تحسبا لحصار قد يطول. كما أن رواية ابن القطان يظهر فيها نجاح الدعوة الموحدية بين قبائل الجبل وقتئذ، فقد كانت متآزرة فيما بينها مع ابن تومرت، مثل، قبائل هرغة وسكانه وسجتانة وأهل تينمل إلي جانب المتطوعة من أهل جبال السوس ودرن، مثل : جدميوة الجبل وهزميرة الجبل، وحنفيسة الجبل، وغيرهم، ممن كان قد أتي بهم الداعية :عمير بن تجلد بن يملوك وأعوانه من الموحدين (نظم الجمان، ص٨٦-٨٧). وهذا لا يمنع بطبيعة الحال من تكرار بعض الوقائع فى نفس المواضع أكثر من مرة خلال حرب المطاولة العنيدة هذه (ماسبق، ٢٣٥ - ٢٣٦).

(٤٧) البيدق، ص٥٧.

المعركة بغلتة تُموشق التي كان يمسك بها مؤلفنا البيدق (أبو بكر علي الصنهاجي)، كما كان يتبعه حامل الدرقة والرماح، وهو يخلف بن آمَسْجير(٤٨). وسار التابعان بالإمام الجريح الي مركز القيادة (المنزل أو المحلة) من أجل التضميد والتقاط الأنفاس .

وهكذا يمكن القول فعلاً أن كفة هسكورة كانت الراجحة في تلك المعركة(٤٩). ورغم قول البيدق : «ورجعنا للقتال حتي أخذ الله الذين ظلموا، ونصر الله المهدي وطائفته»، فإن قوله بعد ذلك : «فلما برز المعصوم خطبنا ووعظنا ، وقال : الحق عندنا وفرعه في تونددت»، «عوّلوا علي الغزو انشاء الله(٥٠)، يؤيد ما نرجحه.

غزوة تازاجورت :

هذا، ويدل عدم فتح «تازاجورت» في الغزو الثامنة (٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م) حيث قول البيدق : «فتحها الله» - رغم كونها بلا سور أي بلا تحصين - علي أن الحرب ظلت سجالا في هذه الفترة من ذروة حرب المطاولة. والظاهر أن الهدف من الغزوة لم يكن فعلاً فتح المدينة، بل طرد أحد الاشقياء (الثوار) الذي يقال له : دمام ، منها . وأهم نتائج تلك الغزوة تتلخص فيما يقول البيدق من أنهم (الموحدين) أخذوا عبيداً من تازاجورت وأعطاهم المعصوم لميمون الكبير - رئيس فرقة السودان- وقال له : هؤلاء إخوتك.فكأنه ضمهم الي عبيد (سودان) غزوة أزليم (هسكورة) العسكرية - كما كان الحال عند المرابطين - وهي الجماعة التي أطلق علي أفرادها إسم : « عبيد المخزن (الدولة) »

وهكذا كانت غزوة تازاجورت مجرد قضاء علي شغب أحد الثوار في بعض

---

(٤٨) والنص على الدرقة، والرماح هنا تعني ان ابن تومرت كان يرمى بالرماح القصيرة (النشاب)، كما كانت عادة المغاربة الجبليين، وليس بالقوس والنبل مثل الصحراويين .

(٤٩) انظر عبد الله عنان، المرابطون والموحدين، ج١ص١٨٠ .

(٥٠) البيدق، ص٥٧ .

القبائل، وبناء علي ذلك فلم يقم ابن تومرت في تينمل عند عودته إليها إلا أياماً قليلة .

غزوة آسَدْرم متاع الغزي :

ثم أنه أمر الخروج للغزوة التاسعة والأخيرة (سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م)، وهي التي توجهت الي موضع «أسَدْرم متاع الغزي» (٥١). الأمر الذي قد يعني بداية وصول الجنس التركي الي بلاد درن والسوس، الي جانب أجناس السودان الغربي الذين كونوا «عبيد المخزن». وفي هذه المناسبة تقول الرواية ان ابن تومرت أمر بتلقيب المرابطين «بالمجسمين» في مقابل تلقيبهم للموحدين «بالخوارج» وهي المعلومة غير الصحيحة، إذ أن استخدام لقب «المجسمين» يرجع علي أقل تقدير الي الفترة ما بين سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١م وسنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤م - حيث كان ابن تومرت يقيم في رباط هرغة ويعكف علي ترتيب مذهبه الذي إتخذ التوحيد المطلق أصلاً له في مقابل ما يمكن أن يكون تشبيهاً (أو تجسيماً) عند أهل السنة الحشوية الذين لا يأخذون بالتأويل . وكانت وقتئذ معارك الدعاية الاعلامية تسير جنباً الي جنب مع المناوشات والمعارك الحربية. وهذا لا يمنع من صحة الرواية التي تنسب الي بعض فقهاء المالكية تلقيب المهدي بعد المناظرة معه بمراكش . بأنه : «خارجي مسعور» أي قبل سنة ٥١٥ هـ سنة ١١٢١م (٥٢) .

ومهم أن النضال الشديد في «آسَدْرِم إن الغزي» كان سجالاً، الأمر الذي دعا الطرفين إلي الانسحاب من أرض المعركة. وواضح من النص المضطرب للبيدق هنا أن المسيرة إلي آسَدْرم إن الغزي» ربما كانت بعض مراحل معركة البحيرة، آخر المعارك

---

(٥١) البيدق، ص٥٧-٥٨ .

(٥٢) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص١٧٥-حيث قال الفقهاء لأمير المسلمين بعد المناظرة التى تمت بين ابن تومرت وفقهاء مراكش : "هذا رجل خارجى مسعور، وأحمق، صاحب جدل ولسان يضل جهال الناس..." .

الكبري التي خسرها الموحدون أمام المرابطين علي عهد محمد بن تومرت، وإن جعلها البيدق غزاة خاصة بالبشير، تمييزاً لها عن بقية الغزوات التسع الخاصة بابن تومرت.

هذا، ولا بأس أن كان عرض التمييز - المعهود وهو التطهير - قد أجري قبل الاعداد لحملة حصار مراكش الذي انتهي بموقعة البحيرة (٥٣) .

أيام البحيرة ووفاة محمد بن تومرت

حدثان فاصلان في تاريخ الدولة الموحدية الناشئة

واضح من النصوص المضطربة أن الصراع بين المرابطين والموحدين كان يتصاعد علي طول السنين التسع التي تمثل قيادة المهدي المعصوم، حيث كانت الدولة المرابطية تحشد قواها، ليس من المغرب فقط، بل ومن الأندلس أيضاً وجزائر ميورقة، رغم سوء الأحوال هناك، الأمر الذي كان يضعف الجبهة الأندلسية لصالح الخصوم من أمراء الممالك النصرانية، وكذلك الطموحين من أمراء الأندلس، الراغبين في عودة زمام الأمور في بلادهم إلي أيديهم بصرف النظر عن طريق ذلك أو عن هوية من يكون التحالف معه، من : المصامدة المغاربة الموحدين أو الجيران الأسبان المسيحيين.

سوء الأحوال في الأندلس : هزيمة قليبيرة :

ففي سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩م السابقة علي سنة البحيرة ووفاة محمد بن تومرت، كان موقف المرابطين يسوء في كل من المغرب والأندلس أمام تهديدات ابن ردمير : الفونسو الأول ملك أراجون. فبعد خروجه الكارثة في بلاد المسلمين سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م أتت الأبناء تتري بالإعلان عن عزمه تكرار ما سبق أن فعله، مرة أخري.

---

(٥٣) ابن القطان، ص١١٤-حيث اخبار الموحدين والتمييز الذى قتل فيه المنافقون بهورنا، بينما كان تمييز تينمل عقب الحركة إلى البحيرة حيث كان ابن تومرت فى توديع الموحدين وتشييعهم...

وإذا كانت الحكومة المرابطية ـ رغم ما كانت تعانيه في المغرب من مواجهة الموحدين ـ قد رأت أن تقوم بلاد المغرب بتقديم المعونة الحربية عيناً إلي الأندلس، ممثلة في فرق السودان التي وقع عبء تجهيزها علي عدد من المدن المغربية، مثل فاس (٥٤)، فإن القوات المرابطية بقيادة ابن مجوز (الحاج بالبربرية) لقيت هزيمة مروعة في وقعة قلييرة (Cuillera) قرب جزيرة شكر، الأمر الذي ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة لضعف معنويات القوات المرابطية. وذلك عندما وجهت إلي القواد المنهزمين ملاحظات لاسعة من قبل الوزير ابن أبي الخصال الذي أفحش القول في رسالته التقريعية إليهم، الأمر الذي اعتبره الأمير علي بن يوسف بن تاشفين إهانة للدولة يستحق عليها الوزير النكبة، وكذلك الأمر بالنسبة لأخيه الكاتب (٥٥) ، وهي الأمور التي كانت تمهد لفشل المرابطين في صراعهم اليائس ضد الموحدين.

محاولة سد منافذ الجبل في تينمل :

والمهم أن الأمور كانت تصعد إلي ذروة الأزمة، عندما قررت حكومة علي بن يوسف القيام بعمل حاسم في محاولة لاتقاء تهديدات الموحدين المتكررة مع توالي الأيام، وذلك بسدّ منافذ الجبال في منطقة تينمل (٥٦). الأمر الذي أدي بابن تومرت إلي اتخاذ الإجراءات المناسبة لفك ذلك الحصار. وفعلا دعا المهدي إلي حشد الرجال من قبائل المصامدة، وكان عليه أن يعهد بتنفيذ خطة الحرب إلي البشير بدلاً منه شخصياً، حيث كان قد دخل في مرحلة مرضه الأخير.

---

(٥٤) ابن القطان، ص١٠٩-١١١، حيث وقع على أهل فاس اعداد ٣٠٠ (ثلاثمائة) غلام من سوداتهم، سيروا إلى مرسية بالأندلس.

(٥٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص١١٠-١١١ .

(٥٦) انظر الحلل الموشية، ص١١٣-حيث الاشارة إلى الاستعانة ببعض المغامرين (الفتّاك) من الأندلس، وان كانت الأشارة إلى ان الفاتك الأندلسى الفلكى كان يعمل فى خدمة المرابطين بعد ذلك فى سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م-انظر الهامش ص.

التمييز:

وكان علي البشير أن يبدأ الغزو بعملية العرض والتمييز التي تهدف إلي التخلص من الإخوة الأعداء أي المنافقين، قبل البدء بفك السدود المضروبة علي منافذ الجبل، في مواضع تاغزرت ومن ثم المسير بالخيل إلي «مش اكماربيران تغذايين» حيث حقق النصر علي العسكر المرابطي بقيادة عمر بن يملوك الذي قتل، ومن ثم عادت الحملة إلي تاغزرت بما غنمته من خيل المنهزمين (٥٧) .

مقدمات أيام البحيرة هياج باب أغمات (الدباغين):

والذي يفهم من رواية ابن القطان أن الحرب كانت سجالاً في أوائل أيام البحيرة، فكان من جملة الأيام الأولي لمعارك البحيرة ذلك اللقاء بين الموحدين وتميم بن يوسف بن تاشفين وهو في الطريق إلي ايجليز. ومن الواضح أن المعركة انتهت بانسحاب تميم. ولكنه عندما وفدت عليه المغرنات من الأموال والسلاح نجح في تحقيق انتصار مؤقت للمرابطين.

والظاهر أن الأمير علي بن يوسف الذي كان يراقب الموقف جنوباً خارج باب أغمات (الدباغين حاليا)، أراد أن ينتهز الفرصة ويحول ذلك الانتصار المؤقت لقواته خارج أسوار مراكش إلي هزيمة تامة للموحدين، فسمح لأهل السوق هناك بالخروج لمشاركة العسكر النظامي في كسر الموحدين. ولكنه عندما اتضح له أن أهل السوق قد خرجوا بغير سلاح، أمرهم بالرجوع إلي داخل المدينة للتزود بالسلاح، فكانت عودتهم تلك أشبه بالهزيمة. وكانت فرصة انتهزتها بعض كمائن الموحدين التي كانت تتناوب القتال بقيادة كل من عبد المؤمن بن علي (الخليفة) وأبي حفص عمر بن علي اصناج، وابي عمران بن موسي بن تماط الجدميوي، فأندفعت تطارد

---

(٥٧) البيدق، ص٥٩، وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص١١٤-١١٥-حيث كان تمييز الموحدين وقتل المنافقين في أخبار سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م، وكذلك تمييز أهل تينمل عقب المسير إلي البحيرة حيث كان الإمام المهدي في وداعهم.

المنهزمين الذين مات كثير منهم محشورين في الأبواب، كما قتل في تلك المعركة حوالي ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) أسود من عبيد المخزن، ولم ينج الأمير علي بن يوسف نفسه، من الموت إلا هروباً من باب آخر، هو باب المخزن. وكان تمام هزيمة المرابطين بهزيمة بكو (أبو بكر) بن علي، ومقتل بطّي بن اسماعيل، بقبله باب أغمات، وذلك علي يدي البشير الذي يذكر اسمه في شكل المسيح الذي بشر بهزيمة الأعداء - فكأن مراكش أصبحت فريسة سهلة بين أيدي الموحدين. (٥٨).

والظاهر أن ذلك الانتصار السهل فتح آفاقاً واسعة أمام ابن تومرت الذي كان يعاني من المرض، فقرر أن يكون هو البادئ بالعمل السريع والحاسم لإنهاء الصراع إلي مصلحة أهل التوحيد. وفعلاً بدأ في حشد قبائل المصامدة في الجبل في اغمات، فلما بلغ حشده ٤٠,٠٠٠ (أربعين ألفا) اطمأن إلي قوة جانبه، وامكانية تنفيذ خطته الطموحة في حصار مراكش العاصمة، والاستيلاء عليها، وبالتالي القضاء علي دولة علي بن يوسف بن تاشفين في عقر دارها دفعة واحدة (٥٨م) كالسكتة القلبية، فكانت بداية أيام معركة البحيرة (بحيرة الرقائق) الكبري.

---

(٥٨) ابن القطان، نظم الجمان، ص١١٥-١١٨، وقارن، ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص١٧٧-حيث اضطراب المعلومات، بين بداية الصراع فى ايجليز هرغة، وحرب مراكش بقيادة البشير، وحيث الجيش المرابطي فى أغمات كان بقيادة الأحول الذى قتل فى القتال - الأمر الذى قد يعني خلطاً ما بين حرب الموحدين والمرابطين، والحرب بين الأغالبة والفاطميين فى افريقية قبل اكثر من قرنين (انظر ج٢ص٥٦٢)، وانظر القرطاس ايضا ص١٧٩، حيث النص على التمييز قبل المسير إلى قتال مراكش وجهاد من بها من المرابطين بقيادة كل من عبد المؤمن (على الصلاة) وابو محمد البشير (القيادة العسكر). ولما وصلوا إلى أغمات تلقاهم بها الأمير ابو بكر بن على بن يوسف فى جيوش عظيمه، من : لمتونه وصنهاجة والحشم وغيرهم. وانه دارت حروب عظيمه بينهم مدة٨(ثمانية) أيام، انتهت بهزيمة أبى بكر ولمتونة، وتبعهم الموحدون يقتلونهم فى كل فج إلى ان ادخلوهم مدينة مراكش، وسدوا الابواب، وبعد ان حاصروهم ٣(ثلاثة) أيام ارتحلوا إلى تينمل : فى رجب ٥٢٤هـ/يونيه-يوليه ١١٣٠م. وان المهدي خرج للقاء الموحدين، وعرفهم بما يكون من النصر والفتح، كما أعلمهم انه يموت فى تلك السنة، فبكوا وأسفوا.

(٥٨ م) الحلل الموشية، ص ١١٤ .



مراكش – باب أجناو (منظر عام)

أيام البحيرة :

والمفهوم من روايات كل من البيدق وابن القطان وصاحب الحلل الموشية أن حصار الموحدين لمراكش استمر لمدة ٤٠ (اربعين) يوماً، دارت خلالها عدة أيام أو وقائع(٥٩) .

وواضح من النقول المضطربة للمصادر الرئيسية الثلاثة - إلي جانب روض القرطاس - أن الصراع الذي دار حول مراكش خلال ٤٠ (أربعين) يوماً (٦٠) تقرر مصيره في يومين فقط أو معركتين كبيرتين، أولاهما هزيمة منكرة كان يمكن أن تودي بالحركة الموحدية وتصبح معركة فاصلة في تاريخ المغرب المرابطي - الموحدي. والثانية كانت ردًا للهزيمة، حولتها إلي حرب سجال، وهو الأمر الذي كان ينبغي أن يلقي عليه الضوء حتي تتضح حقائق الأمور، ولا يصبح قيام الدولة الموحدية بعد هزيمة البحيرة القاتلة، وكأنه خطأ تاريخي أو معجزة من المعجزات.

ففي أول المعارك الكبيرة التي فرضها الموحدون الذين كانوا في ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) رجل ما بين فارس وراجل، علي المرابطين انهزم هؤلاء الأخيرون رغم تفوقهم في الكثرة العددية، ولا يصح تفسير ذلك إلا بتدني معنويات القوات المرابطية التي

---

(٥٩) انظر البيدق، ص٥٨-حيث النص المضطرب الذى يتكلم عن ٤٠يوما تم خلالهاتمييز البشير، ومات فيها من الناس ٥ (خمسة) قبائل بموضع "آيجران وسنان"، و"ايسلدان اندوه ناين"، كما مات من هنتاته آيغزه، ومات ابن ماغوص بموضع "ابجر ناين كوريبت متاع آمادن" و"جدميوه متاع تاكوشين"، ص٥٩-حيث : "ونزلنا البحيرة وبقينا بها ٤٠ (اربعين) يوما"، وقارن ابن القطان، ص١١٨-حيث : وتمادى الحصار على مراكش مدة ٤٠(اربعين)يوما، يقاتلونهم فى كل يوم اشد قتال، والواحد من الموحدين يحمل على العشرة.... وسيدنا الخليفة (عبد المؤمن) يتقدمهم لبسالته، ويهزم الأبطال، والسعد يقدمه، والنصر يخدمه....، وقارن الحلل الموشية، ص١١٤-حيث النص على انه توالى فيها القتال والهزائم وأعراس للطيور وولائم.

(٦٠) انظر ابن القطان، ص١٢٥.

استهولت أن تحاصر في عقر دارها من جموع المصامدة - أتباع الأمس القريب(٦١).

وتصف الرواية المنازلات اليومية بين الفئتين : فرادي (أبطالاً) وجماعات، وكيف تبادل الطرفان النصر والهزيمة، وكيف كان المجاهدون من الرجال من كلي الطائفتين يذهبون في نهاية الأمر : أعراساً للطيور الجارحة ، وولائم للسباع الجائعة.(٦٢).

وهنا يفهم من رواية الحلل الموشية أن الاستعانة بالخبرات الأندلسية في حرب الروم بالأندلس كان لها أثرها في تقويم ميزان القتال لصالح المرابطين. فعندما قدم الزعيم الأندلسي المعروف بابن هَمْشك بكتيبته الصغيرة المكونة من ٤٠٠ (اربعمائة) رجل، منهم ١٠٠ (مائة) فارس و٣٠٠ من الغزاة الرماة نجحت أفانينه الحربية في الحرب بالرماح القصيرة - علي طريقة الرمي بالنشاب، كما نري - في النكاية الموحدين، حيث قتلوا منهم حوالي ٣٠٠ (ثلاثة مائة) رجل، ادخلت رؤوسهم إلي المدينة (٦٣) . هذا، كما أردف أمير المسلمين علي بن يوسف، القائد بن همشك، ظئر ابي اسحق، بعسكر علي رأسه أبو محمد بن وانودين، فكان النصر للمرابطين علي الموحدين (٦٤).

(٦١) قارن البيدق، ص٩٥-حيث الخروج إلى البحيرة عن طريق مكداز فى١٥ (خمسة عشر)يوما، واجتمع فيها ٣٠٠٠(ثلاثة آلاف) رجل منهم ٣٠٠(ثلاثمائة)فارس، يوم الأربعاء من شهر ابريل (الأمر الذى يدل ان الرواية اندلسية أصلا) وكان الاقلاع منها يوم الخميس إلى ارض البحيرة، حيث كان الرباط طول أيام الحرب الأربعين، وانظر ابن الاثير، ج١٠ص٥٧٤-٥٧٥-حيث الموحدون ٤٠٠٠٠(اربعون ألف) راجل، الحلل الموشية، ص١١٤-حيث الموحدون ٤٠٠٠٠(اربعون الفا) والمرابطون ١٠٠٠٠٠(مائة الف) دخلوا المدينة على أسوأ حال، ومات منهم بالسيف والازدحام على أبوابها خلق كثير، وهى الرواية المبالغ فيها من غير شك-والتى يمكن ان تذكر بموقعة زحام باب أغمات في مراكش العاصمة.

(٦٢) الحلل الموشية، ص١١٤.

(٦٣) الحلل الموشية، ص١١٤.

(٦٤) الحلل الموشية، ص١١٤.

وهكذا كانت الأمدادات تأتي إلي كل من الطرفين لتعويض حسائر المفقودين في القتال، وتزيد في عدد المحاربين من الجانبين. فمن جانب المرابطين أقبلت العساكر نحو مراكش تحت قيادة أبي بكر الجوهر، فدخل المدينة بعساكر هسكورة (المصمودية) التي لم تكن قد وحّدت بعد (٦٥) ، كما دخل البلد أيضاً يحيي بن ساقطن بعسكر صنهاجة. أما عن ياسين ابن فيلو، فعندما أتي بعسكره فإنه أبي دخول المدينة، واتخذ الجانب الغربي من أرض البحيرة - قبالة باب الدباغين - موقعاً لرجاله (٦٦) ، فكأنه كان مستعداً للنضال في أي وقت من جانبه أو من جانب الموحدين، الأمر الذي كان يعني إن المعركة الكبيرة وشيكة الوقوع. أما عن جانب الموحدين فكانوا قد تلقوا مدد أهل أغمات ايلان (هيلانة) (٦٧) .

يوم بحيرة الرقائق : هزيمة الموحدين

السبت، ٢ جمادي الأولي ٥٢٤هـ / ١٣ أبريل سنة ١١٣٠م

وهكذا لم يقبل الصباح حتي تمّ اللقاء الذي يقول فيه البيدق : «فقاتلناهم قتالاً شديداً، وكان معنا أهل إيلان عن بكرة أبيهم، وهزمونا بالعشي»، وفرّ الموحدون بعد أن تركوا أعداداً كبيرة منهم في أرض المعركة (٦٨). وكان من الطبيعي أن تفتقد تفصيلات الصراع في الجانب الموحدي المهزوم - وهو الأمر الطبيعي - كما نفتقدها

---

(٦٥) البيدق، ص٥٩.

(٦٦) البيدق، ص٦٠.

(٦٧) البيدق، ص٦٠، وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص١١٨-١١٩-حيث استوفد على بن يوسف العسكر من جميع الاقطار، من الاندلس وجزائر البحر(ميورقة)، ووصول وانودين بعسكر سجلماسة الذى المدينة من باب الدباغين، بينما رفض غيرهم من عسكر القبلة الدخول إلى المدينه بل ضربوا خيامهم (اخبيتهم) خارج باب الدباغين (أغمات)بدءاً لطلب الحرب.، وهكذا بات المعسكران : الموحدى والمرابطى، على سروجهم، فى شكل التعبية، وبدأوا الصراع مبكرين.

(٦٨) البيدق، ص٦٠.

بما يحسن به مواجهته، من الصمود، فرح عبد المؤمن، كما فرحت جماعة الموحدين . ولا شك أنها كانت فرصة لكي يعيد عبد المؤمن تنظيم الرجال، والثبات في موقفه لملاقاة القوات التي كان قد سيرها على بن يوسف، لتضع نهاية لمقاومة الموحدين.

يوم البحيرة الثانى ،وقعة حومة أغمات، والحرب سجال :

وفى حومة أغمات أدركت القوات المرابطية التى سارت جنبا إلى جنب فى ٤ (أربعة) جيوش يقودها كل من : (أبو بكر) سير بن واربيل، ومسعود بن ورتيغ فى زناته، ويحيى بن سير، ويحيى بن كانجان، قوات عبد المؤمن، من : أهل أغمات هيلانة، ومن عاد إليه من مصامدة قبائل : هنتاتة وجنفيسة ونزاتة، الأمر الذى مكنه من مواجهة المرابطين.

وهنا تقول رواية ابن القطان التى تنسب إلى الخليفة عبد المؤمن، أنه عندما ضيقت القوات المرابطية عليه (عبد المؤمن) وبقايا من كان معه من قوات الموحدين، اضطر بعد مشاورة زميله عبد الله ابن ملوية (ملويات)، إلى اتخاذ موقف تكتيكى يجمع مابين الدفاع والهجوم، اذ اتفق على تقسيم القوات الموحدية إلى قسمين ينتشران على جانبى العدو ميمنة وميسرة، يقود عبد المؤمن الميمنة ليضرب بها فى مجنبة العدو اليمنى، بينما تكون قيادة القسم الآخر إلى عبد الله بن يعلى بن ملوية، وعليه الضرب فى مجنبة المرابطين اليسرى . وكانت تلك الخطة الجريئة حقا مفاجأة للمرابطين الذى انهزموا في التو والحين نحو أبواب مراكش (٧٤).

أما رواية البيدق، شاهد العيان، فتقول :«اجتمعنا وتقاتلنا معهم بموضع يقال له: ايجر متاع إن كوريبت، فلما رأوا منا مالا يطيقون، رجعوا إلى مراكش ونحن

---

(٧٤) ابن القطان ، نظم الجمان، ص ١٢١ .

لتينملل» (٧٥) . وذلك في سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م .

وفي تينملل اتخذ محمد بن تومرت المريض الاجراءات المناسبة لتأمين قاعدته تينملل من هجوم محتمل يقوم به المرابطون . فأقام هناك برجا سماه «برج تيطاف»، أي : برج الحرس، جعل فيه طبلاً عهد به من أجل انذار الجماعة وقت الخطر، إلى رجل من مقربيه، وهو : عبد السلام آغيتي.

وذات ليلة دق الطبل، وأخذ من في المدينة حذره من العسكر وغيرهم، ولكن سرعان ماهدأت النفوس عندما أعلن عبد السلام ان الطبل فلت من يده عن غير قصد، فكانت بشرى طيبة لابن تومرت لكي يعمل على رأب الصدع الذي أحدثته نكسة البحيرة (٧٦).

توابع البحيرة :

وهكذا سير ابن تومرت رسله يدعون القبائل إلى الاستعداد للعرض والتمييز استئنافا لمواصلة النضال (٧٧).

التمييز الأخير :

وتم التمييز ابتداء بقبيلة الإمام : هرغة، نظرا لغياب طلبة جنفيسة الذين مُيّزوا بعد اعتذارهم عن سماع النداء، الأمر الذى أثار يملوك بن على المكنى بعمر أصناج. فما كان من محمد بن تومرت إلا أن أمر بإعادة التمييز، كما عمل علي استرضاء

---

(٧٥) انظر البيدق ، ص ٦١ ، وقارن ابن القطان الذي ينقل هذا النص مع بعض التغيير – نظم الجمان ، ص ١٢١ – وفيه علي لمتونة بعد البحيرة ، وهم ٤ (أربع) جيوش ، ويقدمها ٤ (أربعة) من صنادبدهم، اقتتلوا بموضع «ابحران بني توكريت» فلما رأوا (المجسمون) مالا يطيقون رجعوا الي مراكش ، ورجع الموحدون الي تينملل. هذا في حياة الإمام المهدي.

(٧٦) انظر البيدق و ص ٦١ .

(٧٧) البيدق ، ص ٦١ .

عمر أصناج بأن أمر بأن تجوز فرسته بعد جواز قبيلة المعصوم، فكأن عمر أصناج قد أصبح الرجل الثانى فى الجماعة بدلاً من البشير الذى افتقد فى وقعة البحيرة، والذى قيل إن عبد المؤمن دفنه سراً (ماسبق، ص٢٦١) . وأكد ابن تومرت ذلك بكتاب رسمي خط فيه : «محمد بن عبد الله ثم عمر أصناج » وبذلك صار هذا الأخير مميزا برسم أهل تينملل (٧٨) . وكان ذلك التمييز، وهذا الترسيم لعمر أصناج آخر أعمال ابن تومرت الرسمية.

الغيبة والوفاة:

وبعد ذلك كانت غيبة المهدى في دارهم لمدة ٣ (ثلاثة) شهور. وبدأت تلك الغيبة بأن دعا إلى اجتماع الموحدين حيث وعظهم، وقال لهم : «أنا مسافر عنكم سفراً بعيداً». وعندما ضجّ النّاس بالبكاء وطلبوا صحبته إلى المشرق إن كان يريد ذلك، قال لهم : ليس هذا بسفر يسافره منكم أحد، أنما هو لى وحدى . ثم دخل (الدار) ولم يره أحد أبداً» *.

وحضر معه غيبته كل من : عبد المؤمن بن على (الخليفة)، وأبو ابراهيم (اسماعيل ايجيج) وعمر أصناج، ووسنار ثم أخته (المهدى) : أخت عبد العزيز وعيسى . وبعد هذا كانت أوامر المهدى تعلن على الملأ بمعرفة أبى محمد وسنار (٧٩)

وهناك رواية فى البيدق تقول ان ابن تومرت قدم وصيته لأصحابه، وتبين من

---

(٧٨) البيدق، ص ٦١ - ٦٢ .وقارن ابن القطان، ص ١٢٣ - حيث النص علي أنه بعد التمييز قام محمد بن تومرت وكتب اسم عمر بن علي أصناج بعد اسمه، وجعل رسمه بعد رسمه «ثم مشي سائر الموحدين، وعاد عمر مع أهل تينملل».

* البيدق ، ص ٦٢ .

(٧٩) البيدق ، ص ٦٢ - ٦٣ - حيث كان يخرج ويقول : «يأمركم المعصوم أن تفعلوا كذا وكذا فكنا نفعله.

تلك الوصية وكأن المهدي كان قد غير من أفكاره العقلانية المتعلقة بالتوحيد وأصبح قدريا يؤمن بقضاء الله المحتوم الذى، لامحيد عنه إلى درجة أنه نهاهم عن طلب الرزق، بل وعن سؤال الله حتى أنه نهى عن التوكل، حيث قال : «إن التوكل فى الحقيقة هو الشك، وعندما سئل فما الحيلة؟ قال لهم : ترك الحيلة والتسليم إلى ماقسمه الله».

والذى يفهم من نهاية هذا الحوار بين المهدى وأصحابه فى فترة الغيبة، أنه أوصاهم بما أوصى به النبى صحابته الأقربين، فقال :

«ولا تباغضوا ولاتحاسدوا، ولاتقاطعوا، ولاتدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ألا قد بلغت، الا قد بلّغت «الأقدبلغت» (٨٠) .

أما عن وفاة محمد بن تومرت فالدّارج أنها كانت فى شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ / أغسطس ١١٣٠م.(٨١)

---

(٨٠) البيدق ، ص ٦٤ .

(٨١) انظر البيدق ، ص ٦٤ ، ابن الاثير ج ١٠ ص ٥٢٧ ، أما رواية ابن خلدون التي تجعل وفاته سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ، فتعبر عن راي من قالوا أن غيبة محمد بن تومرت استمرت لمدة ٣ (ثلاث) سنوات - انظر البيدق ق ، ص ٦٤ والهامش الخاص بوفاة المهدي.


A S R

الفصل الخامس

سراج الموحدين

عبد المؤمن بن على : خليفة الأمام المعصوم

(٥٢٤هـ/ ١١٣٠م - ٥٥٨هـ/ ١١٩٢م)

إذا كان المهدى بن تومرت هو المنظر لحركة الموحدين المصمودية التى تلت حركة المرابطين الصنهاجية فى بلاد المغرب والأندلس، فإن عبد المؤمن بن على الكومى، الخليفة الطبيعى لابن تومرت، هو صاحب الفضل فى تطبيق مبادئ التوحيد والوحدة التى انتهت بتكوين دولة : أمبراطورية عظمى، تمتد شرقا إلى البلاد الليبية وغربا إلى السوس الأقصى وموريتانيا جنوبا وبلاد الأندلس شمالا . وهكذا حق للكتّاب المعاصرين ان يطلقوا على ابن تومرت لقب «شهاب الدين»، وعلى عبد المؤمن «سراج الموحدين»، ولهم الحق فى ذلك . فاللقب الأول لاهوتى دينى بينما الثانى مدنى دنيوى ».

والحقيقة ان التفرقة مابين الاتجاهين : الدينى والدنيوى لايعنى أن محمد بن تومرت كان منظراً فقط، اذ الواضح مما سبق أنه لم يكتف فى تنظيره بتغيير الدولة المرابطية بناء على ما كان يرمى به المرابطين من التجسيم والكفر، بل انه كان يدعو أيضا إلى التوحيد والوحدة بين المسلمين بالدعوة إلى التغيير السياسى فى كل عالم الإسلام، بناء على ماشاهده فى رحلته الشرقية من الخروج على قواعد العدل : أساس الملك، وقيامه بتغيير المنكر الذى هو أصلا من اختصاصات ولى الأمر - كما هو معروف فى النظم الإسلامية. ولما كان ابن تومرت قد قام بتغيير المنكر بدءا من طريق العودة فى مكّة ومن ثم فى مصر العاصمة والإسكندرية (الثغر)، فإن هذا يعني أن الرجل لم يكن يعترف فى قرارة نفسه بعصر الطوائف أو نظام الدويلات الذى كان سائداً وقتئذ، وانه كان يؤمن بالتوحيد على المستوي الدينى، والوحدة الدينية على المستوى السياسى.

والخلاصة هى أن عبد المؤمن بصفته خليفة المهدى ابن تومرت تعنى أنه ثانى اثنين، بمعنى : الصاحب للأمر والصديق المكمل للدعوة على المستويين الدينى

والسياسي، فهو من هذا الوجه قرين أبي بكر الذي رفض ان يمنع عنه من فريضة الزكاة التي تأتى بعد الصلاة، ولا «خطام بعير».

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن عبد المؤمن إذا كان قد ظهر في بداية اتصاله بابن تومرت فى مّلالة بمظهر التلميذ المثالى والصديق الوفى - دون غيره من طلبة ابن تومرت أو صحابته، فإن الأمر لم يكن كذلك فى نهاية عهد الإمام المهدى، إذا ظهر لعبد المؤمن منافسان علي مركز الرجل الثاني بعد الإمام، هما : البشير : أبو محمد عبد الله الونشريشي، صاحب التمييز وشهيد البحيرة، ومن بعده : عمر أصناج الذي ميّزه المهدى عن أصحابه بعد هزيمة البحيرة، فكتب اسمه بعد اسمه، ورسمه بعد رسمه (ماسبق، ص ٢٦٥) . ولابأس أن أراد المهدى بذلك أن يكون أبو حفص عمر بن على اصناج بمثابة المستشار العسكرى لعبد المؤمن، والشخص الثانى له أيضا فى تلك الفترة الحرجة من أواخر أيامه، وهو الأمر المقبول أيضا، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين كانوا يرون أن عهد المهدى ابن تومرت انما هو في الحقيقة تجديد للعهد النبوى الشريف، فيصبح عبد المؤمن والبشير وعمر أصناج بمثابة الثلاثة النخبة من بين المبشرين بالجنة من صحابة الرسول العشرة : أبى بكر . وعمر، وأبى عبيدة، وأصحاب السقيفة المرشحين للخلافة النبوية في المدينة.

والمهم من كل ذلك أن ماقام به عبد المؤمن من الصمود أمام هزيمة البحيرة، بل ونجاحه فى إجهاض ماكان يضمره المرابطون من انتهاز الفرصة للقضاء على فلول المنهزمين من مصمودة وحلفائها، أثبت أن عبد المؤمن كان مؤهلا لخلافة المهدى ليس كطالب أو فقيه، بل وكقائد عسكرى موهوب بكل صفات القيادة : من الجرأة وقوة القلب والذكاء والتخطيط الاستراتيجى العام، والتكتيكى الخاص فى قلب المعركة . وهذه الصفات هى التى كانت - كما نرى - السبب فى ظهور المقولة المنسوبة إلى ابن تومرت بعد هزيمة البحرية والتى تعنى :مابقى عبد المؤمن - ولو وحده دون غيره من العشرة الذين افتقد نصفهم - فإن الأمر باق، وأن انتصار الدعوة الموحدية على يديه، حتمية تاريخية، وبالتالى دولتها المؤمنية المظفرة التى قيل إنها باقية بدورها

أبد الدهر.

وهكذا كان عبد المؤمن فى نظر معاصريه من الموحدين هو المرشح الوحيد لخلافة المهدى دون منازع من بعيد أو من قريب حتى لو كان من إخوة الإمام : آل بيت ابن تومرت.

شخصية عبد المؤمن :

تختلف الروايات فى تحديد تاريخ مولد عبد المؤمن بن على، تماما كما اختلفت فى تحديد مولد محمد بن تومرت . وإذا كان الاختلاف حول تقييم الشخصيات التاريخية الكبيرة أمرا مقبولا تبعا لمقدار اختلاف المؤيدين والمعارضين، فإن الاختلاف فى التحديد الزمنى أى التاريخى، وهو الأمر الذى لا هوية له لايفسر الا بعدم الاستقرار السياسي فى الفترات التالية حيث تحاول كل دولة طارئة التخلص من تراث سابقتها، فتعمل على طمسه، الأمر الذى ينتهى باضطراب التاريخ العام، ويضمنه التاريخ الخاص، من : شخصي أو محلى.

تختلف الروايات فيما يتعلق بميلاد عبد المؤمن . فعبد الواحد المراكشي يحددها بمابين سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م وسنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م (١) وابن القطان لايعرف مولده بل يقدر عمره عند وفاته بـ ٦٣ - ٦٤ سنة، بمعنى أن مولده كان فى سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١م، وهو التاريخ الوسط الذي نقبله على أساس أن يكون لقاء عبد المؤمن بالمهدى فى ملالة حوالى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨م وعمره حوالى ٢٠ (عشرين) سنة، وهو فى مقتبل الشباب، ويكون عند ولايته في الـ ٣٥ (الخامسة والثلاثين)، فى عنفوان رجولته، قريبا من عمر صلاح الدين الذى كان فى الـ ٣٦ (السادسة والثلاثين) وهو يسترجع بيت المقدس، كما ينص على ذلك لوى هالفن(*) :

---

(١) المعجب، ص٢٣٩.

*مجموعة شعوب وحضارات. Louis Halphen, Peuples et Civilisations. ج ٦ ص ٢١٥ (ط ٢٠ ، باريس ١٩٤٠).

وفي الوقت الذى نفتقد فيه التاريخ الصحيح لمولد عبد المؤمن، يعوضنا مؤرخوه بمعلومات قصصية طريفة، الفرض منها الإشادة بمؤسس أسرة بنى عبد المؤمن التى سادت الدولة الموحدية، التى عرفت أيضا بالدولة المؤمنية، وان كان فى ذلك أيضا تلميح إلى مذهب التوحيد.

فمما يحكى عنه صبياً أن سحابة من النحل الأسود هبطت عليه وهو نائم، الأمر الذى أثار رعب أبيه ووالدته، ولكنه بعد ان طار النحل بعيداً وجدا الصبي صحيحا معافى. وعندما سارت والدته مع أبيه لتروى القصة إلى «الزاجر»: متنبئ القرية، قال الرجل : ان تلك «الغريبة» تعنى أن عبد المؤمن الطفل سيكون له شأن ويجتمع على طاعته أهل المغرب (٢) . وهكذا كان على الطبيعة بحكم القدر أن تساند عبد المؤمن فى عمله العسكرى، وهو يمهد قواعد دولتـه . فمن كراماته فى هذا المجال: نضوب وادى سلا (فى منطقة رباط الفتح) لكى تعبر عسـاكره دون قنطرة ولاقارب - وذلك بخرق العادة، حيث إن الموضع مرفأ للسفن الكبار (٣).

وهكذا اختلطت الاسطورة بالحقيقة فى تاريخ عبد المؤمن : سراج الموحدين، كما هو الحال بالنسبة لتاريخ المهدى ابن تومرت : شهاب الدين، وهذا شأن عظماء الرجال وخاصة فى عصور الاضمحلال التى تأتى بعد العهود المجيدة، حيث لايكون للناس من ملجأ لمواجهة الواقع المرّ إلا بأحلام اليقظة الوردية - وهذا من عبر التاريخ التى لاينبغى أن تغيب عن أذهان الباحثين - وخاصة في عصرنا : عصر العقل والرأي بعد الأسطورة والنقل (٤).

---

(٢) ابن خلكان، الوفيات، ج٣ رقم٤٠٨ ص٢٣٧ .

(٣) ابن القطان، نظم الجمان، ص١٤٧. هذا إلى جانب ما يقرر ابن القطان من فضائل عبد المؤمن وكراماته الأخرى، مثل : قصة التاجر السكندرى الذى أسلفه عبد المؤمن ١٥درهما فى فاس فأعاد التاجر القرض لعبد المؤمن وهو خليفة بعد استثمار المبلغ الصغير٣٠(ثلاثين) سنة، وقد بلغ مقداره ١٠٠٠(ألف)دينار-نظم الجمان، ص١٤٨ .

(٤) وإذا كان مثل هذا القصص- الذى أحاط أيضا بسيرة محمد بن تومرت-يعتبر من=

نسبـه :

المعروف عن عبد المؤمن بن على أنه ينتسب إلى قبيلة كومية، من قبائل صنهاجة المغرب الأوسط، من قرية تاجرة من ناحية سيف البحر بأر شكَول (ارشجول) وتلمسان. ولكنه لما كانت كومية قد صارت على عهد عبد المؤمن واحدة من قبائل الموحدين فى بلاد المصامدة، لم يكن من المستغرب أن يتخذ نسباً عربياً، كما حدث بالنسبة لقبيلة المهدى ابن تومرت، التى صارت من قبائل الأدارسة الشرفاء حتى تصبح الإمامة والعصمة أمرا طبيعيا لمحمد بن عبد الله : أسفو بن تومرت.

وهكذا نسج الكتاب لقبيلة كومية هي الأخرى أو لفرع بنى عابد : عترة عبد المؤمن خاصة نسباً عربياً، فصاروا بدورهم من جذم قيس عيلان، العرب المستعربة أصلاً. وبذلك أصبح لعبد المؤمن نسبان، أحدهما بربرى يرجعه ابن خلدون، إلى نسّابة صطفورة (الاسم القديم لقبيلة كومية) : مانى بن مصدور بن مريس بن يعوط (٥)، والآخر : عربى قيسي عدنانى (٦) . ومع مرور الوقت اختلط النسبان : البربرى والعربى لعبد المؤمن، حتى التبس الأمر على ابن ابى زرع، صاحب القرطاس، الذى أخذ بفكرة الأصل العربى لعبد المؤمن، ثم يستدرك قائلا : «والذى

=الحكايات الشعبية، فهى مقبولة من الناحية التاريخية، من حيث هي تكريم معنوى للشخصيات التاريخية الكبيرة، ومن حيث إنها لا تضر شيئا بالأحداث التاريخية-ومثل هذا ما يقوله صاحب السيرة الحلبية عن مثل تلك الروايات التى تصبح كالهالات النوارنية بالنسبة للسيرة النبوية ج١ص٢-٣- -حيث بيت شعر الزينى العراقي، الذى يقول :

وليعلم الطالب أن السيرا　　تجمع ما صح وما قد أنكرا

هذا إلى جانب ما يقوله أحمد بن حنبل : إذا روينا فى الحلال والحرام شددنا، وإذا روينا فى الفضائل ونحوها تساهلنا ...

(٥) العبر، ج٦، ص١٢٦ .

(٦) عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص١٩٧-حيث النص على أنه كومى . ثم القول إنه كان يقول إذا ذكر كومية : لست منهم، وإنما نحن من قيس عيلان من مضر بن معد ابن عدنان ولكومية علينا حق الولاية بينهم، والمنشأ فيهم، وهم الأخوال.

ثبت أنه رجل زناتي الأصل، من كومية هنين من تاجرة» (٧)

صفاته الشخصية :

أما عن صفات عبد المؤمن الجسمية، فالمعروف أنه كان شابا حسن الوجه رائع الجمال، وهو في مطلع شبابه بملالة حيث اللقاء مع المهدي، حاد الذكاء، محباً للعلم والتعلم (٨). أما في عنفوان شبابه فهو فارس الفرسان يقفز على صهوة جواده الأخضر ! واسع أخاديد الأرض والوديان، ويرفع معنويات المنهزمين من الرجال حتى حققوا التوازن مع العدو المنتصر (ماسبق، ص٢٦٠) . أما في سنوات كهولته وشيخوخته فتصفه رواية عبد الواحد المراكشي وابن خلكان أنه : ممتلئ الجسم، معتدل القامة، طويل الجذع، أبيض البشرة، تشوبه حمرة، مضيء الوجه، في خده خال، أشهل العينين، كث اللحية، واضح بياض الأسنان، شثن الكفين (عظيمهما)، جهوري الصوت، فصيح الألفاظ.

---

(٧) روض القرطاس، ص١٨٧-حيث نسب عبد المؤمن، منقولا من خط حفيده عبد الواحد، وهو : أبو محمد عبد المؤمن بن علي ابن يعلى بن مروان بن ورزيغ بن صطفور بن مادغيس بن معد بن عدنان..فهو زناتي الأصل-وكان والده "علي" فخارا يعمل النوافخ (المجامر)، وقارن ابن خلدون، ج٦ص١٢٦-حيث القول عن كومية إنهم ربما كانوا رهط عبد المؤمن...، حيث نسبه : "عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان بن تصير بن علي بن عامر بن الأسر بن يونس بن عبد الله بن يحيى بن ورزيغ بن صطفور". وذلك كما نسبه مؤرخو الموحدين إلى صطفور، ثم يقولون وصطفور بن يقور بن مطماط بن هودج بن قيس بن عيلان بن مضر. وهنا ينص بن خلدون على ان بعضهم يذكر :"ان في خط ابي عبدالواحد المخلوع بن يوسف بن عبد المؤمن ما يدل على أنه مصنوع، إذ الأسماء ليست بأسماء البربر، وإنما هي كما تراها كلها(؟) عربية، والقوم كانوا من البرابرة معروفون بينهم.

(٨) انظر ما سبق، ص ١٧٠ -وفي ذلك تنص الراوية على أن ابن تومرت أدرك منذ الوهلة الأولى أن الشاب الكومي هو المؤهل لإتمام برنامجه الإصلاحي-انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص٤٧-حيث النص على أن "من كراماته - رضه - انجاز الوعودالنبوية للطائفة المهدية، ففتح الأرض..

ولم يكن من الغريب إذن أن يكون محببا إلى النفوس، لايراه أحد إلا أحبه بديهة(٩).

أخلاقه وفضائله :

أما عن أهم صفات عبد المؤمن الأخلاقية - كما تظهر في ترجمته عند ابن القطان، وإن اختلطت الحقيقية التاريخية فيها بالقصة الرمزية أو التعبيرية - فتتمثل في صفة الإخلاص، ومن ثم رد الجميل، إلى كل من أحسن إليه، قبل فترة الخلافة وخاصة أيام كان طالبا مجهولا . وتظهر هذه الصفة أيضا وكأنها من الكرامات بصفته خليفة الإمام التي ضمنت بالتالي بقاء الأمر في عقبة الكرام إلى قيام الساعة - بحول الله تعالى (١٠) .فأثناء فتح بجاية سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م لايفوته إكرام أبناء الزجل الذي كان يعطيه الطعام قرضاً حسناً، وهو وفقراء الطلبة في صحبة المهدي (سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م)، ويكتب لهم ظهيراً (سجلاً) بتعيينهم حكاما فوق قومهم (١١) . وهو يكافئ المرأة التي أهدته عنزا عند عودته من بعض الغزوات، كما يحسن إلى فقراء طلبة الحضر ويقرضهم المال من أجل التجارة والاستغناء بالربح (١٢).

وهكذا تنتهي أخلاق عبد المؤمن في نظم الجمان لابن القطان بالكرامات والغرائب، مما ينسب للمهدي أو يتصل به مثل خبر ابى عبد الله اللخمي الذي يقول

---

(٩) المعجب، ص١٩٧-وفي ذلك ينسب إلى ابن تومرت أنه كان عندما يرى عبد المؤمن ينشد البيتين الآتيين :

تكاملت فيك أخلاق خصصت بها	فكلنا بك مسرور ومغتبط
والسن ضاحكة والكف مانحة	والصدر منشرح، والوجه منبسط

وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، رقم٤٠٨، ص٢٣٧.

(١٠) نظم الجمان، ص١٣٣ .

(١١) انظر ابن القطان، ص١٣٧ .

(١٢) نظم الجمان، ص١٣٧-١٣٨ .

فيه :«لايقوم بالحق بعد هذه القرون (الأربعة الهجرية / قبل العاشر الميلادى) إلا المهدى (ابن تومرت) والرجل القائم بأمره، ومن يليه من الخلفاء بعده - رضهم (١٣). هذا إلى جانب ما سبقت الإشارة إليه من تبشير المهدى بلقائه (في ملالة)، والمجازه «للوعود النبوية للطائفة المهدية بفتح الأرض، وتدويخ الطول منها والعرض، فما أمّ بلداً الافتحه، ولاسعى سعياً إلا أحمده واستنجحه، تنجزا لصادق الوعود»(١٤).

أسرته :

لانعرف الكثير عن أسرة عبد المؤمن، من : عدد الزوجات وأسمائهن، والعائلات أو القبائل التى كن منتسبات إليها . والمعروف بشئ من التفصيل هو عدد أولاده الذكور الذين بلغوا ١٦ (ستة عشر) نفراً، منهم شقيقان فقط، وهما دون مراعاة حق الأسن، على مانظن : يوسف (أبو يعقوب - خليفته) وعمر (أبو حفص) (١٥)، أما عن البنات فلا يذكر له منهن الا اثنتان، هما : صفية وعائشة (١٦) . والأولى كانت زوجة لشيخ الموحدين أبى حفص عمر الهنتاتى والثانية كانت زوجة القاضى

---

(١٣) انظر ابن القطان، ص١٤٢، وتنبؤ ابن عبد ربه فى أرجوزته بظهور عبد المؤمن ،انظر نظم الجمان، ١٤٣-١٤٥-حيث العودة إلى ذكر وفاة المهدى، والقول :

ويرجع الأمر إلى عدنان   لماجد ما قد خص عيلان

رب الفتوح صاحب الملاحم   وقائع الأعراب والأعاجم

وحيث الإشارة أيضا إلى أن أرجوزه ابن الحناط، وما ذكره عبد الملك بن حبيب -فى تاريخه الكبير-مما يرجع أصلا إلى أعمال بعض كتاب الموحدين.

(١٤) ابن القطان، ص١٤٧.

(١٥) انظر المعجب، ص١٩٨-حيث اسماؤهم : محمد (أكبرهم وولى عهده المخلوع)، وعلى وعمر ويوسف وعثمان وسليمان ويحيى واسماعيل والحسن والحسين وعبد الله وعبد الرحمن وعيسى وموسى وابراهيم ويعقوب، وقارن ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص٢١٢-٢١٣، حيث أبناء عبد المؤمن ١٧(سبعة عشر) ولداً بزيادة : أحمد وداود، ونقصان موسى.

(١٦) ابن القطان، ص١٧٣، روض القرطاس، ص٢٠٣.

الضرير أبى عمران موسى التينمللى من أهل الخمسين، والذى تزوج عبد المؤمن من ابنته زينب : أم ولده يوسف (خليفته) وأبى حفص عمر (شقيقه) (١٧).

وهكذا ينص ابن القطان في نظم الجمان على عناية عبد المؤمن ببنيه، إذ كان يحسن تأديبهم دينيا وعسكريا، فقد كان يدربهم فى الدين ويشتد عليهم فيه، كما كان يحرص علي تدريبهم فى مجالات الرمى بالسهام والعوم وركوب الخيل، والتدرب عليها مع الموحدين . هذا، كما كان يأخذهم بحضور الصلوات الخمس فى الجماعة، والمشاركة فى قراءة الحزب من القرآن إثر الصلاة، كما كان يطلب منهم الحضور مع المؤذنين فى الأسحار على ارتقاب الفجر.

هذا، وعندما ولي أولاده علي البلاد كان يبعث معهم من أشياخ الموحدين ورجالهم العقلاء الأفاضل بمثابة الوزراء والمستشارين فى قيامهم بأعباء الحكم والإدارة (١٨).

أسلوب حكمه : وفيما يتعلق بأسلوب حكمه، فقد كان يستعين بأصحاب الحكمة والرأى من الكتاب والوزراء الذين اتقنوا العمل فى ديوان الانشاء، والذين كانت لهم مساهماتهم فى إثراء الحياة الأدبية فى البلاد، وإعلاء شأن ديوان الشعر الذى عالج شتي الموضوعات فى المناسبات المختلفة.

ومن الوزراء والكتاب والقضاة والطلبة المشاهير في تلك المجالات يأتى ذكر الوزراء : أبى جعفر احمد بن عطية وأخيه أبي محمد عطية بن عطية (١٩)، وعبد السلام الكومي، وادريس بن جامع (٢٠) والكتاب : ميمون الهوارى (القرطبى)، وابو الحسن بن عياش (اليابرى)، وأبو على الحسن الأشيري، وأخيل بن ادريس

(١٧) ابن القطان، ص١٧٥ .

(١٨) ابن القطان، نظم الجمان، ص١٣٢ .

(١٩) ابن القطان، نظم الجمان، ص١٧٣، المعجب، ص ١٩٨ - ٢٠٠، وقارن، روض القرطاس، ص ٢٠٥.

(٢٠) ابن القطان، ص١٧٤، وقارن، روض القرطاس، ص٢٠٥، والمعجب، ص١٩٨ .

(الرندى) (٢١) ومن الطلبة : الخطيب ابو الحسن (الاشبيلى) والخطيب أبو محمد بن جبل، وابو بكر ميمون (القرطبى) (٢٢) ومن قضاته موسى بن سهل التينملى، وحجاج بن يوسف وابن ميمون القرطبى (٢٣).

وهكذا حق لعبد المؤمن بن على أن يكون صنوا لاستاذه المهدى ابن تومرت فتختلط الحقيقة فى سيرته بالأسطورة، وتلك شيمة عظماء الرجال.

عبد المؤمن خليفة ابن تومرت

لابأس من اعتبار الفترة الأولى من ولاية عبد المؤمن، خلال فترة كتمان وفاة ابن تومرت حفاظا على كيان دولة الموحدين الوليدة، أشبه ماتكون بفترات الحكم في غيبة الإمام عند الشيعة، من إمامية أثناعشرية أو اسماعلية سبعية، كما كان الحال مع أبى عبد الله الشيعى الذى أرسى قواعد الدولة الفاطمية في المغرب، بمنطقة القبائل بالجزائر بالمغرب الأوسط، قبل الكشف عن شخصية عبيد الله المهدي، أول الخلفاء الفاطميين (ج٢ ص ٥٤٦ وما بعدها) .

والحقيقة أن تحديد ابن القطان لتاريخ وفاة ابن تومرت في يوم الاثنين ١ من رمضان سنة ٥٢٤ هـ / ١٠ أغسطس ١١٣٠ م (٢٤) أمر مقبول من حيث أنه من المتفق عليه ببين معظم الكتاب أن وفاة المهدي الموحدى كانت فعلا فى سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م وإن تردد ابن خلدون فأضاف إلى ذلك سنة ٥٢٢ هـ / ١٠٢٨ م (٢٥) ومن ثم خروجه من مأزق التضاد التاريخى بالقول بأن فترة ما بين التاريخين، هى

---

(٢١) ابن القطان، ص١٧٦-١٧٧، وقارن روض القرطاس، ص٢٠٥ .

(٢٢) ابن القطان، نظم الجمان، ص١٧٨ .

(٢٣) روض القرطاس، ص٢٠٥، وقارن المعجب ، ص ٢٠٠ .

(٢٤) نظم الجمان، ص١٢٦ .

(٢٥) انظر العبر، ج٦ص١٨٩-حيث النص على أن المهدى هلك سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م، ثم العودة فى ص٢٢٩ إلى القول أنه هلك فى سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م .

فترة الستر أو الكتمان (٢٦)، والتى يمكن ان تعادل فترة الغيبة - عند الشيعة - قبل الرجعة . والحقيقة ان ابن خلدون يشكك في صحة زعم ذلك الكتمان الذي استمر طوال ٣ (ثلاث) سنين، «كما زعموا» (٢٧)، الأمر الذى جعلنا نأخذ بأنه من الأوفق ان تكون فترة الكتمان هذه، ٣ (ثلاثة) شهور بدلا من ثلاث سنين، كما سبق (٢٨) .

والمهم أنه منذ اعتكاف ابن تومرت ومن ثم وفاته سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م، لم يعد هناك من منافس لعبد المؤمن الذى انفرد بالسلطة على أساس وصية الإمام التى تعني ولاية العهد بالنص له والتعيين (٢٩). وإلى جانب الوصية تشير بعض النصوص إلى أن ابن تومرت كان قد عهد لعبد المؤمن بإمامة الناس فى الصلاة

---

(٢٦) العبر، ج٦ص٢٢٩ .

(٢٧) العبر، ج٦ص٢٢٩، هذا وينفرد ابن خلدون (ج٦ص١٢٧) برواية تقول ان عبد المؤمن كتم موت ابن تومرت حتى صرح الشيخ ابو حفص أمير هنتاتة وكبير المصامدة لمصاهرته، وأمضى عهد الامام فيه وللمستراب من العصبية بن المصامدة.

(٢٨) ص٢٦٤ . والحقيقة أن فترة الغيبة قد تزداد عند غير ابن خلدون من الكتاب إلى ٥(خمس)سنوات (النويرى، نهاية الأرب، ص٤٠٥-حيث عودة عبد المؤمن إلى تينمل وإقامته بتأليف القلوب، ويحسن إلى الناس إلى سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م، أو ٦(ست).ابن القطان، ص٢٠٧ وهـ٢-حيث الإعلان بموت الإمام المهدى سنة٥٢٩هـ/١١٣٤).

(٢٩) انظر ابن خلدون، العبر ج٦ص٢٢٩-حيث : لما هلك المهدى وقد عهد من بعده لكبير صحابته : عبد المؤمن بن على الكومى كتموا موته....حتى إذا استحكم أمرهم.... فأظهروا للناس موت المهدى وعهده لصاحبه، ويتأكد هذا الأمر برواية يحيى بن يغمور الذى قال : أن المهدى كان يقول فى دعائه إثر صلواته :..."اللهم بارك فى الصاحب الأفضل"، وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣ص٢٣٨ (عبد المؤمن)-حيث النص على أن ابن تومرت "كان أبدا يتفرس فيه النجابة، وينشد إذا أبصره:

تقابلت فيك اوصاف خصصت بها   فكلنا بك مسرور ومغتبط

السن ضاحكة والكف مانحة   والنفس واسعة والوجه منبسط

وانظر ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص١٨٤-حيث النص : "وزعم بنو عبد المؤمن ان المهدى استخلفه بعده" .

(٣٠) فكأن ابن تومرت كان يعيد بذلك سيرة النبى عندما عهد في مرضه إلى ابى بكر بإمامة الناس فى الصلاة . وفى ذلك قال الناس عن أبى بكر بعد وفاة النبي : ارتضاه النبى لديننا أفلا نرضاه لدنيانا !

البيعة :

وهكذا، واقتداء بما كان يجرى في الوصول إلى منصب الخلافة، وحسبما هو متعارف عليه فى كتب النظم الإسلامية المعتبرة كالأحكام السلطانية للماوردى، اختلط مبدأ الوراثة أو التعيين المتمثل فى الوصية أو العهد بمبدأ الاختيار أو الانتخاب المتمثل فى البيعة - المعروف الآن «بالاستفتاء» - والتى تنقسم بدورها إلى بيعتين، أولاهما : بيعة الخاصة من أهل الاختيار، والثانية : بيعة العامة من سائر طبقات الناس .

بيعة عبد المؤمن الخاصة :

وبيعة الخاصة هي التى تعنى موافقة أهل الحل والعقد من طبقة الأعيان على المرشح (من بينهم) لشغل منصب الإمارة من حيث الأهلية والكفاية . وفى حالة الموحدين إذا كان المتعارف عليه لدى الكتاب أن جماعة العشرة من أصحاب ابن تومرت أو من كان قد تبقي منهم بعد موقعة البحيرة (٣١)، وهم أشبه بصحابة النبى العشرة المبشرين الجنة، فالذى نراه ان الظروف كانت قد تغيرت فى جماعة الموحدين عما كانت عليه سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م عند مبايعة المهدى، وأنه ينبغي أن ينضم إلى هيئة الاختيار الأولية هذه فى حالة عبد المؤمن، من يوجد من : أيت

---

(٣٠) روض القرطاس، ص١٨٤ .

(٣١) انظر البيدق، ص٧٠-حيث الإشارة . إلى نصف جماعة العشرة (أى خمسة)، وهم :ابو ابراهيم (اسماعيل بن ايجيج)، وعمر اصناج (ابو حفص الهنتاتى)، وعبدالرحمن بن زجو، ومحمد بن محمد، إلى جانب عبد المؤمن المرشح للخلافة، وقارن المعجب، ص١٩٤-حيث عمر لزناج وعمر اينتي، وعبد الله بن سليمان.

خمسين وأيت سبعين في العاصمة، بل ومشايخ طلبة الحضرة والحفاظ - وذلك ان تلك المنظمات كانت قد أخذت شكلها المستقر منذ إعلان عصمة الإمام.(٣٢)

هذا . ولما كان أعضاء بيعة الخاصة هؤلاء، ممن يوجدون حول الإمام أو الأمير عادة، فإن بيعة الخاصة لم تكن تستغرق أكثر من يوم أو بعض يوم.

وفى بيعة عبد المؤمن الخاصة هذه، قام الشيخ أبو حفص (عمر بن يحيى بن على الهنتاتى) بالدور الرئيسي في انجاز تلك البيعة (٣٣) بموافقة من كان قد بقى على قيد الحياة من أهل (ايت) العشرة . هذا، وينص ابن ابى زرع على تنافس القبائل على ان يكون المرشح من رجالها كان الدافع الأول لاختيار عبد المؤمن الذى كان غريبا بينهم، ليست له عصبية منهم (٣٤).

واذا اختلطت الاسطورة هنا فى رواية ابن أبى زرع بالحقيقة التاريخية، حيث القول أن عبد المؤمن عمد إلى تخويف جماعة أهل الاختيار وترهيبهم من من أجل اختياره عن طريق اصطحاب شبل أسد مدرب يربض بين يديه، ويبصبص بذيله، واطلاق طائر متكلم وهو ينادى بالنصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المسلمين

---

(٣٢) وهذا فيما يظهر عند البيدق (ص٧٠) فى القول انه عندما انعقد مجلس البيعة حال (عبد المؤمن) بين الرجال والنساء ووعظ الناس وذكرهم ببيعة المهدى، ومن ثم وعظ كل من : ابو ابراهيم، وعمر اصناج، وابن زجو ومحمد بن محمد، قبل ان يبايعوه (عبد المؤمن).- هذا، وان أخذت تلك البيعة شكل بيعة العامة التى استمرت ٣(ثلاثة) أيام-وهذا لا يمنع ان تكون بيعة العامة قد تبعت مباشرة بيعة الخاصة، وهو الأمر المقبول فى ذلك الوقت الحرج، من بداية الدولة الموحدية.

(٣٣) ابن خلدون، العبر، ج٦ص٢٢٩ .

(٣٤) انظر روض القرطاس، ص١٨٤-حيث النص على مبايعة العشرة مع تشرف كل واحد منهم إلى الخلافة بعده (المهدى) وكانوا من قبائل شتى....كل قبيلة أحبت ان يكون الخليفة منها....فتنافسوا.....، واجتمع العشرة وآسوا بينهم وخافوا النفاق....فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن لكونه غريبا ليس منهم إلى جانب ميل المهدى إليه.

(٣٥). ومثل ذلك مايورده ابن القطان من ان وجوده السعيد كان منتظراً (٣٦)، فكأنه المهدي الثاني، أو مايقوله بعد ذلك ممايلحق بذكره قبل وجوده، مثل : وجود اسمه منقوشا فى لوح رخام أثرى فى بعض أديره القدس حيث كان اسم المهدى منقوشاً فى السطر السادس، واسم عبد المؤمن فى السطر السابع (٣٧). ولابأس أن يشير ذلك إلى تمكّن عبد المؤمن فيما بعد من الملك، عندما استقر له الأمر، حيث كان «شديد الملوكية، كأنه كان ورثها كابراً عن كابر» (٣٨). والحقيقة أن قصة عبد المؤمن والأسد والطائر المتكلم كانت موضوع قصيدة أنشدها كاتب عبد المؤمن، وهو الحسن بن عبد الله الأشيرى (مؤرخ عبد المؤمن المتوفى سنة ٥٦٩ هـ / ٧٣ - ١١٧٤ م)، وفيها يقول :

أنس الشبل ابتهاجا بالأسد ... ورأي شبه أبيه فقصد

ودعا الطائر بالنصر لكم ... فقضا حقكم لما وفد

فكأن عبد المؤمن (المتوفى سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م) كان فى ذلك الوقت يبارى بملكه مُلك كسرى فارس قديما، وماعرفناه عن نجاشي الحبشة حديثا (٣٩) . ويؤيد ذلك مايروى عن إعجاب وزير عبد المؤمن الشهير : أبو جعفر احمد بن عطية بأحد

---

(٣٥) روض القرطاس، ص١٨٤-١٨٥ .

(٣٦) نظم الجمان، ص١٤٦ .

(٣٧) نظم الجمان، ص١٤٦-والرأى أن ذلك ربما يتعلق ببعض كتب شيعية حوّرت في هذا الموضع، وقارن ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣ رقم٤٠٨ (عبد المؤمن) ص٢٣٩ - حيث اعتبره ابن تومرت "غلاب الدول" حسبما عرفه فى كتاب الجفر الذى يحوى التاريخ المستقبلى للأئمة (ص٢٤٠) .

(٣٨) عبدالواحد المراكش، والمعجب، ص٢٠١ .

(٣٩) تلك المعلومة الأخيرة عرفناها من صديقنا القديم الاستاذ حسين عيسوى، أمين جامعة الاسكندرية الأسبق، بعد عودته من الحبشة حيث عمل لبعض الوقت مستشاراً ثقافياً، وذلك في ندوة «ديليس» بميدان سعد زغلول والتي كان يرأسها صاحبنا محمد خليل : عميد تجارة الاسكندرية الأسبق - لهما الرحمة.

بساتين عبد المؤمن، والقبة التي كان يجلس فيها الأمير، ووصفه ذلك «بالمنظر الحسن»، ورد عبد المؤمن على وزيره الذائع الصيت بأن صحبه يوم عرض الجيش، حيث وقف متأثراً وهو يقول لوزيره:"هكذا يكون المنظر الحسن لاثمارك وأشجارك". ويشعر الوزير المحنك بأنه لا يطاول أميره في الدراية بأصول الحكم وقواعد بناء الدول، ويخجل مما بدر منه يوم البستان والقبة (٤٠).

والمهم أنه بعد ان تمت بيعة عبد المؤمن الخاصة كخليفة للمهدى ابن تومرت، قام يخطب في المجتمعين،فحمد الله، وصلى على النبى، وترضى عن الصحابة والإمام المهدى وترحم عليه، وأعلمهم بموته ونعاه لهم(٤١)، الأمر الذى يذكر بخطبة ولاية أبى بكرالصديق، خليفه النبى. ومن المهم ملاحظة أن رواية ابن ابى زرع تحدد تاريخ تلك البيعة الخاصة بعبد المؤمن هذه بيوم الخميس ١٤رمضان سنة ٥٢٤هـ/٣١ أغسطس ١١٣١م (٤٢)، وكأنها بيعة عامة على الملأ، الأمر الذى يرجح ما أخذنا به من أنها كانت يوم إعلان نبأ وفاة ابن تومرت . بعد فترة الكتمان التى لا تزيد على ٣(ثلاثة) أشهر، كما يقضى حسن الظن وسلامة الحس(٤٣).

بيعة العامة :

وعن بيعة العامة فكانت تتمثل فى رجال القبائل، وخاصة من الجند المرتزقة المسجلة أسماؤهم فى الديوان (ديوان الجند)، من :الفرسان والرجالة، حسب تسلسل قبائلهم المتعارف عليه (ماسبق ص١٩٨). وبالنسبة للمتطوعة والمجاهدين فى سبيل الله، فكان إعلانهم الطاعة للأمير يستغرق حوالى ٣ (ثلاثة) أيام، إذ كانت

(٤٠) انظر عبدالواحد المراكشى، المعجب، ص٢٠١-٢٠٢ .

(٤١) روض القرطاس، ص١٨٤-١٨٥ .

(٤٢) روض القرطاس، ص١٨٦ .

(٤٣) قارن ابن أبى زرع نفس ص١٨٦-حيث يجعل بيعة العامة بعد ذلك فى يوم الخميس ٢١ربيع الأول من سنة ٥٢٦هـ/٩فبراير سنة ١١٣٢م-بعد وفاة ابن تومرت بسنتين إذ الفارق الزمنى بين التاريخين لا يزيد كثيرا عن سنة ونصف سنة الأمر الذى يشكك فعلا فى حقيقة الغيبة أو الكتمان من الناحية الزمنية على الأقل وانظر ص ٢٦٥ .

وفودهم تتوالى على العاصمة من سائر أرجاء الدولة، وخاصة بلاد السوس - ولا بأس أن كان توافدهم من أجل العرض (التمييز) بهذه المناسبة.

وفى مناسبات البيعة هذه وغيرها من مناسبات الاحتفالات الرسمية كان الشعراء، يتقدمون المحتفلين، وهم يُلقون قصائدهم فى المديح، ويَلقون الاستحسان قولا والإحسان عملا. وفى أحد تلك الاحتفالات ألقى الشاعر أبو الحسن الأشيرى قصيدته التى ذكر فيها قصة عبد المؤمن والأسد الذى كان يطمئن إلى جواره، والطائر المتكلم الذى كان يشارك الشعراء فى الدعوة إلى تجديد الولاية لعبد المؤمن، مما سبقت إليه الإشارة (ص ٢٨١)

وبتمام بيعة الخاصة (الموسعة) فى الشهور الأخيرة من سنة ٥٢٤ هـ يكون عبد المؤمن بن على قد اطمأن الى أن خلافته لمحمد بن تومرت قد خلصت له، ولكن هذا لم يكن يعنى أن الطريق قد أصبح ممهدا لكى يمارس سلطاته دون منازع. والحقيقة ان الأمر كان يتطلب جهوداً مستمرة لكى يعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبل موقعة البحيرة ووفاة الإمام، وذلك على مستوى الجماعة، حيث لم تكن البيعة وحدها كافية للقضاء على أطماع المنافسين، وعلى مستوى الدولة الناشئة التى افتقدت قوى الربط بين قبائل مصمودة، عصب جماعة الموحدين.

عبدالمؤمن وتهدين بلاد المصامدة بالسوس الأقصى والقضاء على طموحات المنافسين

الواضح من رواية البيدق التى ينقصها التحديد التاريخى، أى وضع الأحداث فى مواضعها الزمنية الصحيحة، الأمر الذى يضمن التسلسل التاريخى بمعنى تفاعل الأحداث فى شكل مقدمات ونتائج لا يعتورها التقديم والتأخير، ان أول المهام التى وقعت على كاهل الخليفة عبدالمؤمن يتلخص فى تهدين بلاد المصامدة بالسوس، مهد حركة التوحيد، وإعادة الوحدة إلى القبائل المصمودية التى كانت شرختها هزيمة

البحيرة، ومن ثم غيبة الإمام المعصوم : مهدى الموحدين.

فرواية البيدق التى بين أيدينا تسجل - قبل بيعة عبد المؤمن، أى فى فترة الكتمان - ٣ (ثلاث) غزوات قام بها ٣(ثلاثة) قواد من أيت (أهل) العشرة، وهى:

١- غزاة عمر أصناج بموضع بيزان الاينات (سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م)، وفيها قتل قائد المرابطين : ابراهيم بن تاغياشت(٤٤).

٢- غزاة عبد الرحمن بن زجّو(زقو) بتاسغيموت (أوائل سنة ٥٢٦ هـ/ أواخر ١١٣١م)، والتى شارك فيها البيدق، حيث يقول : وكسرنا ميمون بن ياسين رئيس القرية، وإذا كانت الرواية تضيف إلى ذلك أن الموحدين قلعوا باب المدينة وحملوه معهم إلى تينمل حيث ركّب فى السور موضع باب الفخارين (٤٥)، فإن الفضل يرجع إلى رواية ابن القطان فى إضافة معلومات طريفة عن الموضع الذى يعتبر حصنا حصينا فوق الجبل، وله باب من حديد، وأنه كان فى حراسة جماعة من قبيلة هزرجة. ويذكر للموحدين هنا استخدام الحيلة فى الاتفاق مع أفراد الحرس الليلي الذين عرفوهم بكيفية فتح الباب، بل ومكنوهم من إحراقه، الأمر الذى يعنى أن الباب كان من الخشب المصفح بالحديد. ونجح الموحدون فى مفاجأة قائد الحصن أبى بكر بن زروال وقتله مع طائفة من الرجاله الملثمين. وعاد رجال الحملة إلى تينمل وهم يحملون صفائح حديد باب تاسغيموت، والتى ركبت فى باب تينمل - شرّفها الله - الذى عرف بعد ذلك بباب الفخارين (٤٦).

---

(٤٤) البيدق، ص٦٦-٦٧، وقارن :ابن القطان، نظم الجمان،ص٢٠٦-حيث مقتل ابن تاغيا شت فى أخبار الموحدين سنة٥٢٨هـ/١١٣٤م مع الإشارة إلى الاختلاف فى ميقات قتله-وقارن غزوة ابراهيم بن تيغاشت الأولى فى حرب المطاولة على أيام المهدى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م (ص٢٣٣)

(٤٥) البيدق، ص٦٦

(٤٦) ابن القطان، نظم الجمان، ص١٩٤-حيث والى الحصن (ابن وصوال) والتعديل إلى زروال عن البيدق حيث الاسم (ورزوال)- استناداً إلى اسم رئيس الجزائر الحالى(السابق).

٣- غزوة عبد المؤمن التالية (بعد تاسغيموت)، وهى لقبائل جزولة المرابطية فى مواطنها الجنوبية (قرب نول لمطة) حيث كان الوصول إلى عاصمتها الكست قبل العودة إلى تينمل، حيث كان استدعاء القبائل لعقد المجلس (آكرو) الذى حضرته النساء مع الرجال وإنْ تم الفصل بينهم ـ وذلك لأخذ البيعة ـ(٤٧).

مناجزة الثوار بعد الكتمان وإعلان الخلافة :

إذا كان عبد المؤمن يحمل عند البيدق، خلال غزواته الاستطلاعية السابقة، لقب أمير المؤمنين، فهذا ليس ذريعة للقول أنه كان قد بويع بخلافة ابن تومرت، بعد استدعاء المجلس للبيعة، فهذا عند البيدق وغيره من كتّاب الموحدين : الخليفة وأمير المؤمنين فى كل وقت وحين، قبل البيعة وبعدها، على حد السواء. وبهذه الصفة خرج إلى تازا جورت حيث كسر بها بدّر بن ولجوط ، رئيس المنطقة، وعاد من هناك إلى تينمل بالمغانم والأسلاب.

ثورة عبد الله بن ملوية :

إذا اعتبرت الحملات السابقة حملات تأديبية ضد الخارجين على جماعة الموحدين بتينمل بعد البحيرة وإعلان الخلافة، فإن الثورة التى قام بها عبد الله بن ملوية تعتبر انشقاقا خطيراً فى الدعوة الموحدية، فى أول عهد عبد المؤمن بالخلافة. فعبد

---

(٤٧) البيدق، ص ٦٩-٧٠-والذى يسترعى الانتباه هنا هو أن رواية غزو جزولة فى ذلك الوقت المبكر قبل البيعة يبدأ بالنص على أنها أول غزوة تقابل فيها الخليفة مع تاشفين والشنيور (الذى ربما يكون الربرتير) بمعنى ان ذلك الذى حدث غير غزوة جزولة المذكورة هنا، وأنه يوضع مع أحداث المطاردات الأخيرة مع تاشفين. وفيما يتعلق بلقب الشنيور فليس من ألقاب الربرتير، والمعروف أنه كان لقباً للقائد محمد(المعروف بالشنيور) الذى كان والياً لتلمسان وقت حصارها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م- انظر هويثي ميراند(Huici Miranda)، التاريخ السياسى لامبراطورية الموحدين (بالاسبانية) ج١ص١١٨-حيث الإشارة إلى عبر ابن خلدون، وقرطاس ابن ابى زرع.

الله بن ملوية، كما رأيناه سابقا (ص٢٦١)، كان مهندس عملية ردء ، وتصحيح هزيمة البحيرة إلى جانب عبد المؤمن : أمل رأب الصدع وجبر الكسر فى تلك الفترة الحرجة.

وفى ذلك تقول الراوية أنه بعد أن خرج عبد المؤمن من تينمل إلى تازاجورت أنتهز ابن ملوية الفرصة ليعلن العصيان، "ويرتد" عن دعوة الموحدين، ويهبط من علياء الموحدين فى قنن الجبال إلى وطاء المجسمين أسفل السفح بمراكش، معلنا الدخول فى خدمة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين. وكانت فرصة انتهزها أمير المرابطين ليحقق نصراً قد يكون حاسما على الموحدين، فأرسل ابن ملوية فى حملة إلى موطن قبيلة جنفيسة فى موضع تامدغور، من حيث يأخذ المعونة ويصعد من هناك إلى تينمل فيهدمها (على رؤوس من فيها). وبطبيعة الحال لم تكن المهمة سهلة، فقد أخفق ابن ملوية فى استمالة سيد جنفيسة : عبد الله بن وسيدرن الذى أخذ عليه الحنث بيمين الطاعة للمهدى بن تومرت، بل وانتهى الأمر بمقتل ابن ملوية على يدى الشيخ ابى سعيد يخلف بن الحسن اتيحّن وغلامه. وحملت الجثة إلى تينملل حيث صلبت، الأمر الذى أدى إلى رضاء عبد المؤمن عن جنفيسة (٤٨)، اثر عودته من تازاجورت.

تازاجورت :

أما عن حملة تازاجورت التى قام بها عبد المؤمن فى سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م، حسب تاريخ ابن القطان ، فهى تعنى المسير إلى قاعدة بلاد درعة فى سفوح جبال أطلس الصحراوية الجنوبية الغربية. ويتضح من رواية نظم الجمان أن حرب درعة كانت ثأرية، عرف فيها القتل وسفك دماء أهل المنطقة الذين كانوا مترددين ما بين الدخول فى ظل الطاعة والخروج إلى حرّ المعصية. وهكذا ضربت عنق والى الحصن : يحيى بن مريم (الزرجانى)، كما قتل فى المجزرة ٢٠,٠٠٠ (عشرون ألفا) من

(٤٨) البيدق، ص٧٠-٧١-حيث ينفرد البيدق بتسجيل ثورة ابن ملوية .

شيعة التجسيم، حسبما تبالغ الرواية، كما نرى. هذا، كما أسرت ميمونة بنت الوزير: بينتان(إينتان) بن عمر (٤٩).

جلاوة وهزرجة وهسكورة وجنوب تادلا :

هذا، كما فتحت بنفس سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م منطقة جلاوة بمعرفة الشيخ ابى حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، كما فتح حصن هزرجة على يدى عبد المؤمن الذى دخله عنوة، وأحرقه، وقتل الناجين من أهله. وكان هذا الانتقام من هزرجة ثأرا لما كانوا أقدموا عليه من قتل : أبى محمد عطية صاحب المهدى وعجوزته (زوجته) يوم العيد، فكان فداؤه قتل ٣٠٠(ثلاثمائة) رجل منهم، قبل العودة إلى تينمل. وإذا كانت أعمال العنف وسفك الدماء هذه قد كسرت شوكة أعداء الموحدين الذين خضع منهم فى تلك السنة (٥٢٦هـ/١١٣٢م) قبائل هزرجة وهسكورة، فإن ذلك الخضوع كان مؤقتاً ، اذا لم يلبثوا أن يرتدوا مرة أخرى (٥٠).

وهكذا لم يكن وقوف رئيس جنفيسة إلى جانب عبد المؤمن يعنى خضوع بقية أفخاذ القبيلة وحلفائها لسلطان تينمل، إذ كان على "الخليفة" بعد ان قسم الغنائم التى أتى بها من تازاجورت ، ان يخرج بصحبة حلفائه الجدد من صنهاجة الجبل الذين وحّدوا فى التو والحين، بعد أن ولى عليهم :على بن ناصر (٥١)، وسار يجوس بهم خلال الديار.

وكان هدف عبد المؤمن التالى هو مواصلة التقدم نحو الشمال الشرقى إلي منطقة جنوب تادلا ، فبعد الهبوط إلى سفوح موضع تاجرت كان الاقبال منها بالغنائم،

---

(٤٩) نظم الجمان، ص١٩٥-حيث النص على الاحتفاظ بميمونة فى الجبل حتى أفتك بها من كان فى تلمسان من رجال الموحدين (سنة٣٣٧هـ / ٩٤٢ م) .

(٥٠) نظم الجمان، ص١٩٦ .

(٥١)البيدق، ص٧١، وقارن ابن القطان، ص٢٩٠، الذى يجعل توحيد صنهاجة فى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م.

والوغول في شرق تملو (أمالالو) نحو قرية داى التى هرب صاحبها على بن ساقطرا، وترك ما فيها غنيمة للموحدين، وعندما طالب رؤساء صنهاجة برد أسراهمولأنهم كلهم موحدون، أجابهم عبد المؤمن، فردّ الأسرى والسبايات حاشا واحدة أعجبته فتزوجها، وهى التى أولدها أبنه السيد/ أبى سعيد (٥٢) .

وفى تازيجات كان اللقاء بيحيى بن ساقطرا أخى على صاحب داى، وكان الظفر للموحدين الذين أعطوا ما غنموا من خيل يحيى إلى حلفائهم الصنهاجيين (٥٣) .

وفى موضع واوْما كان اللقاء بيحيى بن ساقطرا مرة ثانية وكان معتصماً بالقلعة. وكانت الحرب سجالاً، وتابع الموحدون المسير نحو آزرو (جنوب فاس) حيث هرب علىّ بن ساقطرا، فدخلوها بدون قتال. وهناك بنى عبد المؤمن بإحدى السيدات وهى التى أنجبت له أبنه عبد الله - وهو زواج تحالف سياسى مع سادة المنطقة، من بنى ساقطرا، كما نرى (٥٤) .

بداية المطاولة : حرب تقرير المصير المباشرة :

وابتداء من حوليات سنه ٥٢٩هـ/١١٣٥م عند ابن القطان يتطور شكل الصراع، وهو ما نجد بعض أصوله أيضا عند البيدق (٥٥)، بين الموحدين والمرابطين فى منطقة السوس من نزاع للسيطرة على الأرض وإخضاع لمن يسكنها من القبائل، إلى صراع مباشر بين قوات كل من الطرفين، فكأنها البداية الحقيقية لحرب المطاولة : حرب تقدير المصير .

---

(٥٢)البيدق، ص٧٥-٧٦ .

(٥٣)نفس المصدر .

(٥٤)انظر البيدق، ص٧٦ .

(٥٥)انظر ابن القطان، ص٢٠٩-حيث الاعلان بشكل غير متوقع بموت الامام المهدى، ومن ثم بالبيعة لسيدنا ومولانا الخليفة الامام أمير المؤمنين....فدفع الغطاء وسطع الضياء....وتبلج الحق....وعلت السنة. وأنظر هـ٢-حيث الاشارة الى خرم فى النص، والنقل فى هذا الموضع عن البيدق .

فمنذ ذلك الوقت صارت حصون الفلاكى للموحدين الذين كانت «تنمو أحوالهم فى كل يوم، وتزيد عساكرهم ورجالهم، كما زاد فيهم صنهاجة الجبل، وهسكورة الجبل، ودخلوا تارودانت، وايجلى، من السوس الأقصى» (٥٦).

وكان على الخليفة عبد المؤمن أن يقوم بحملة تأديبية أخرى فى نفس تلك السنة (٥٢٩ هـ / ١١٣٥م) ضد بني بيغز «إيغز» من قبائل هنتاتة، بسبب غدرهم بالداعية الموحدى أبي محمد عبد العزيز الغيغائى، أحد أصحاب المهدى ابن تومرت، وقتله . وكان اللقاء رائعا في موضع اشفشد من البلاد الهنتاتية وذلك ان بني بيغز لجأوا إلى تكتيك طالما عرفه البدو من الجمالة منذ قديم الزمان علي أيام الرومان والوندال، كما كان يستخدمه ملوك صنهاجة الصحراء من الملثمين (ج٣ ص ٣٠٣، ١١٨). فعندما حطّت محلة الموحدين «أخذ بنو بيغز حزم الحطب وربطوها على ظهور الجمال وأضرموا فيها النار ليلا، وأطلقوها فى المحلة، فنفر الناس، وصارت بنو بيغز إثر جمالهم حتى وصلوا إلى خباء سيدنا ومولانا الخليفة - رضى - وجللوها بالرماح». والظاهر أن الموحدين كانوا على دراية بمثل هذه الأساليب الحربية التي تعتمد على الخداع والغدر معا فقابلوها بمثلها . فقد كان عبد المؤمن «أخفى موضع مبيته احتياطا، فسلمه الله تعالى». وكانت ملحمة عظيمة إستغرقت أكثر من شهر، رجع بعدها الخليفة إلى تينملل (٥٧).

---

(٥٦) ابن القطان، نظم الجمان، ص٢١٠-٢١٢-حيث تورد رواية ابن الراعى نص رسالة عبد المؤمن التى يذكر فيها كيفية "فتح السوس من أوله الى آخره، ومن فوقه الى اسفله، ومن حواليه، من : هنكيسة وجزولة، ومن ثم اللجوء الى تيونوين"، الى جانب "اقتحام العلج الاعرج (الربرتير) بنفسه فى طريق إيغيران يطوف فى حال غفلة من الموحدين....ففاتهم بمن معه هاربين الى تيونوين"، وهناك "تسامع به بقية أهل السوس، فكان هو معبودهم ومتبعهم، فاتكلوا عليه ونسوا ربهم واغتروا بقدومه فرجعوا الي أوطانهم ... وكيف نزل الموحدون في وسط تارودانت ... وحرقوها، واطلقوا النار فى القصب الكثيف (قصب السكر) وارتفع الدخان فى الهواء....وبذلك انكسر قلب البربر مع عجز العلج، واستمرت الهزيمة عليهم، والحمد لله الذى انتقم منهم" .

(٥٧) ابن القطان، ص٢١٣-٢١٤ .

هذا، وكان بنو يبغز هدف غزوة ثالثة قام بها عبد المؤمن في سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م، لولا ان تدخل إخوانهم المجاورون فأنذروهم ونصحوهم «فانقادوا وأذعنوا ووحدوا،» وأحسنوا استقباله عندما قدم إليهم من تينمل - الأمر الذي يعتبر علامة منيرة في صلاح وتوحيد بلاد السوس، بتوحيد ذلك الفرع الهام من قبائل هنتاتة.

تعاظم حرب تقرير المصير:

واعتباراً من سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٦م عند ابن القطان، وسنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م التالية حسب رواية اليسع (٥٨)، يتطور شكل الصراع من نزاع للسيطرة على الأرض في بلاد السوس واخضاع القبائل، إلى نوع من الصراع المباشر بين قوات الطرفين المتحاربين أصلا - أي المرابطين والموحدين - فكأنها بداية النهاية، وان استمرت لبعض الوقت.

فقد هبط عبد المؤمن من قُنّة الجبل إلى موضع مسكروطن، وخرج له سير بن على بن يوسف، ولي العهد المرابطي، وانتهى اللقاء بانتصار الموحدين الذين خرجوا من الوقعة بشئ عظيم من أموال المرابطين . ومنذئذ «صار عبد المؤمن متعلقا بالجبال، يطاول في حروبه، فإذا رأى ضالته وثب عليها وثوب الليث» (٥٩).

فكانت بداية الاستيلاء على أراضي المرابطين خارج السوس، قطعة وراء أخرى، مع الاتجاه نحو الشرق شيئا فشيئا إلى ندرومة وتاجرة مسقط رأس عبد المؤمن في تلمسان، بلد البدء والمنشأ التي كانت تناديه - كماسنرى.

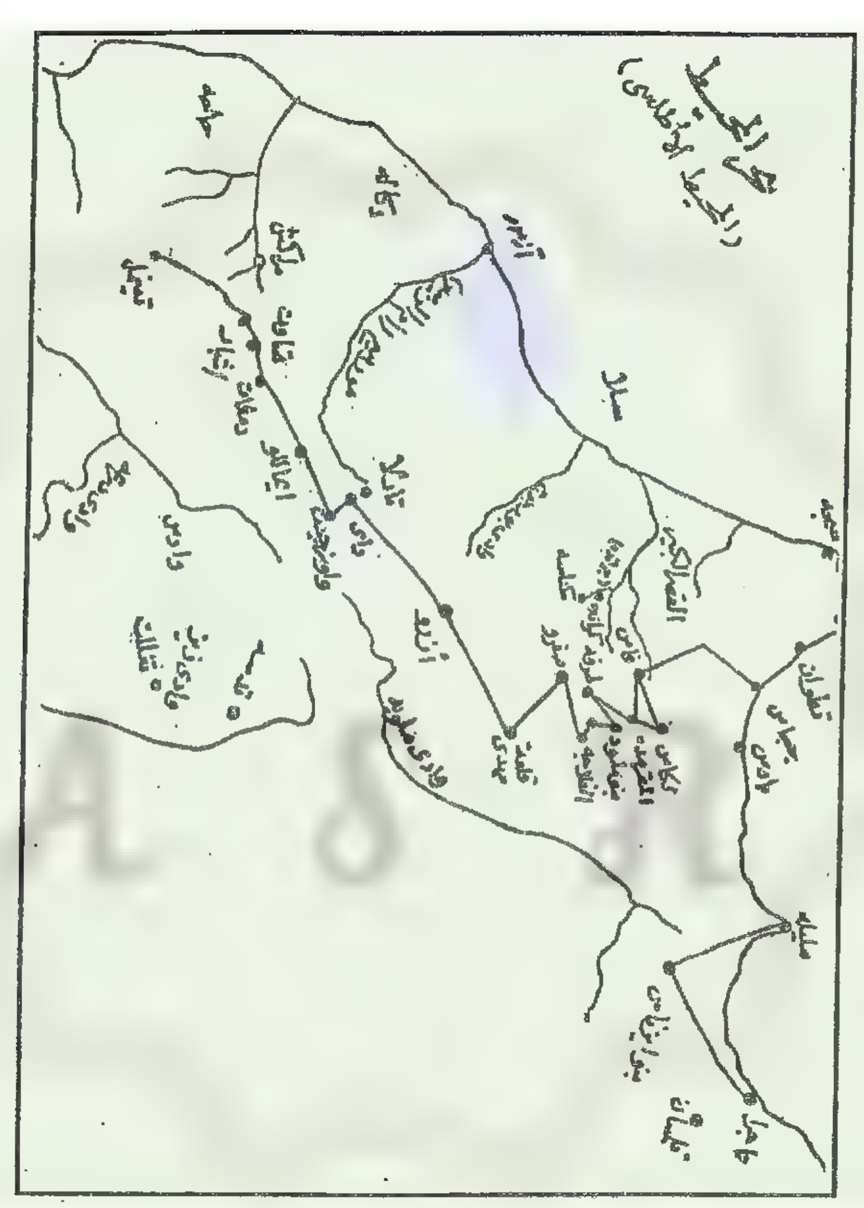
تـــادلا:

وحسب ابن صاحب الصلاة، الذي يعتبر أن فترة الكتمان تنتهي في سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٦م والتي تبدأ ببدايتها خلافة عبد المؤمن ، تكون غزوة تادلا (شمال شرق

---

(٥٨) انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٢٥-حيث سنة ٥٣٠هـ/الحولية.

(٥٩) ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٢٥.



حرب المطاولة بين عبد المؤمن والمرابطين

وانظر ص ٢٨٨ وما بعدها وقارن هويثي والبيدق

مراكش) هى أول غزوات عبد المؤمن ، وهو خليفة للمهدى، وأمير للمؤمنين من الموحدين (٦٠) . وبذلك تكون العزوة الفارقة حقيقة بين حرب النضال من أجل تحرير بلاد السوس، أرض الوطن المصمودى، وبين النضال من أجل تحرير الوطن الأكبر من ايدى صنهاجة الصحراء ليكون قاعدة لتأسيس أمبراطورية، بنى عبد المؤمن الموحدية .

أما عن تفصيلات تلك الغزوة، فتبدأ بتمييز الجيوش وعرضها فى العاصمة تينمل، ومن ثم بتقسيم الأرزاق التى تعرف «بالبركة» على المجاهدين من أصناف العساكر من مرتزقة ومتطوعة . وبعد ذلك يعقد مجلس الحرب مع شيوخ الموحدين، حيث يكون التشاور فى أفضل الأماكن التى يحسن ان تتمدد فيها الدعوة خارج بلاد السوس - ويتم الاتفاق على أن تكون منطقة تادلا هى أول الأهداف.

ووصل الموحدون مع إشراقة الفجر فجاءة، فقتلوا وسبوا وأمتلات أيديهم بالمغانم والأسلاب، كما فرّ العسكر المرابطى تاركا قائده ليسقط بأيدى الموحدين فتكون نهايته القتل بايديهم (٦١).

جبل غياته:

وفى سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م التالية كانت حملة عبد المؤمن ضد زناتة فى جبل غياته . فقد خرج من تينمل متوجها إلى جبل غياتة حيث نزل بعساكره من

---

(٦٠)نظم الجمان، ص٢٢٦ .

(٦١)ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٢٦-ومما يؤسف له أننا لا نعرف اسم القائد المرابطى الذى سقط فى بعض خروم الأصل المخطوط. وقارن هريشى، التاريخ السياسى لدولة الموحدين (بالاسبانية)، ج١ص١١٤-حيث اقتراح ان المقصود بتادلا ليس قصبة تادلا فى شمال شرق مراكش، بل على العكس من ذلك يقصد بها المنطقة فى جنوب شرق مراكش، وهى بالتحديد منطقة : تاسغيموت وهزرجة وهسكورة على مسافة ١٥(خمسة عشر) ك.م . وهو فى ذلك يستند الى رواية البيان لابن عذارى (الموحدون) التى تجعل تادلا عاصمة لهسكورة شمال الأطلس، حسب حولية سنة٦٣١هـ/اوائل سنة ١٢٣٤م .

الموحدين. وكان على أمير المسلمين على بن يوسف ان يعجل بارسال حملة مرابطية بقيادة ابنه وولي عهده الأمير سير الذي نزل بموضع كراندة (جراندة) بمقربة من المقرمدة عند وادى أبى حلوا. وهناك لحقت بولده نجدة من جنود عسكر الغرب بقيادة الأمير عبد الله بن يحيى بن أبى بكر بن تيفلويت الذى نزل قريبا من سير علي بعد أميال. وإذا كان نص ابن القطان يشير إلى أن حشود زناتة من الفرسان الذين بلغوا أكثر من ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) خيّال وقفوا إلى جانب المرابطين تحت قيادة الأمير يحيى بن فانو (٦٢)، فإنه يتبع ذلك بما يفيد أن زناتة لم تكن مجمعة على الوقوف إلى جانب المرابطين . فعند الاحتفال بحشد فرسان زناتة كان الزعيم زيرى بن ماخوخ يوحّد، ويعلن انضمامه إلى جانب عبد المؤمن . ومن الواضح ان زيرى بن ماخوخ كان منشقا وحده على جماعة شيوخ زناتة، وذلك أنه طلب من عبد المؤمن ان يمده بعسكر من لدنه «تظهر به خدمته من عساكر الغرب». وقدم الخليفة للزعيم الزناتى الموحّد "ابن ماخوخ» حصة من عساكر الموحدين عليها أحد أشياخهم، تمكن بها من هزيمة خصومه من بنى جلدته الزناتية، فقتل منهم وسبى وسلب واكتسحهم حتى أعلى الجبل.

وأثناء ذلك توفى يحيى بن فانو - قائد عساكر تلمسان - مصابا بمرض ألمّ به، فأسرع سير بن على بارسال ولده محمد بن يحيى بن فانو ليحل محلة ويتدارك جموع زناتة قبل أن يتفرقوا، فكان الأمر كذلك . فقد نجح محمد (ابن فانو) فى لم شمل عسكر أبيه ونزل بهم على مقربة من وجدة (٦٣).

غمارة :

وكانت الإقامة بجبل غياثة مدة شهرين والحرب سجال على طريقة المطاولة بالكراديس أى الفرق العسكرية . وأثناء الصراع أتت أخبار الجواسيس إلى سير بن

---

(٦٢)نظم الجمان، ص٢٢٩-٢٣٠ .

(٦٣)نظم الجمان، ص٢٣٠-٢٣١-حيث النص على أن طلائع عسكر ابن فانو الحفيد كانت على محشر قلال .

على تعرفه بأن عبد المؤمن يضمر المسير لغزو غمارة ، فقرر أن يشغله عن ذلك باستمرار الصراع في جبل غياتة ، بشكل متصل وبأسلوب متواتر ، عن طريق رصد ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فارس يقسمون أنفسهم إلى جماعتين ، كل واحدة من ٢٠٠٠ (ألفي) فارس، تقاتل الموحدين بشكل متواصل لمدة أسبوع لتحل محلها الجماعة الأخرى، وهكذا بالتناوب . ومن جانبه عمل عبد المؤمن على تثبيط همم أبناء جلدته من الزناتية، فجعل زيرى بن ماخوخ يراسل إخوانه الزناتية على ان يدبروا الهزيمة يوم اللقاء . وتمخض التدبير عن مسير زيرى بن ماخوخ في حصّة مختارة من الرجال من جبل غياتة إلى محلة محمد بن يحيى بن فانو، وان يضربوا فيهم . ونجحت الخطة بانتصار الموحدين، وهزيمة عسكر محمد بن يحيى قائد المرابطين.(٦٤)

ومن المهم الاشارة هنا إلى أن تردى الأوضاع العسكرية في المغرب بالنسبة لحكومة مراكش، دفع أمير المسلمين على بن يوسف إلى أن يستدعى ابنه تاشفين من الأندلس حيث كان قد أظهر كفاءة عالية في حروب المسلمين ضد الممالك الاسبانية المسيحية، وكذلك ضد القواد الأندلسيين من المسلمين المتغلبين (الانفصاليين).

وبالعودة إلى مراكش في ربيع سنة ٥٣٣ هـ /نوفمبر ١١٣٨ م، صار تاشفين وليا للعهد، محل أخيه سير الذى فشل في حرب المطاولة، ووقع على عاتقه عبء مواصلة النضال ضد الموحدين أصحاب النجم الصاعد في ذلك الحين(٦٥).

حاحة:

وفي جمادى الأولى سنة ٥٣٣ هـ / يناير ١١٣٩ م كان اللقاء الأول بين الخليفة عبد المؤمن بن على وبين الأمير تاشفين (٦٦) ولى العهد والقائد العام للقوات

(٦٤)ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٣٢ .

(٦٥)ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٣٣ ، وعن ولاية تاسفين للعهد في ظروف غامضة ومحاولة تعيين أسحق أخيه الصغير في ظروف غير واضحة، قبل اقرار ولاية العهد لتاشفين، انظر هويثى، الموحدون (بالاسبانية) ج١ص١١٦ .

(٦٦)ابن عذارى، الموحدون، هويثى، تطوان، ١٩٦٣، ص١١ .

المرابطية، وتحت إمرته القائد الاسبانى الأصل المعروف باسم الربرتير، وذلك ببلد بنى ملّول، من منانة الفحص، حيث هبط الموحدون للقاء خصومهم فى تاجلوط من بلاد حاحة . وكان الصراع من أجل السيطرة على بنى ملول متواترا مابين المرابطين والموحدين، حيث وحّدوا وارتدوا ٣ (ثلاث) مرات حتى ذلك الحين . وفى هذه المرة أقام عبد المؤمن مدة ٣٣ (ثلاثة وثلاثين) يوما «يضرب عليهم ويقتلهم قتلا ذريعا فى وعرهم العظيم» (٦٧).

وبعد جمع المغانم والأسلاب من خيرات البلاد، «من : الحلى والشياب والعسل والزبيب والطعام (القمح) والحناء، وغير ذلك مما فى تلك الحومات»، سار عبد المؤمن بقواته المظفرة إلى مواطن قبيلتى بنى وجدان وبنى سوار من منّانة الجبل، حلفاء الموحدين الذين كان قد انتقم منهم أبو بكر بن على بن تاشفين - بسبب توحيدهم - وذلك فى بلدهم كاسطف ، من بلاد منانة (٦٨).

ومن بنى سوار (من منانة الجبل) سار عبد المؤمن إلى آجر فرجان، وتبعه تاشفين الذى حاول ان يقطع عليه الطريق إلى جبل مزورج حيث حلفاؤه الذين لحقوا به رغم ذلك، وهم يمدونه بدروع الدرق والرماح . وتم اللقاء بين الطرفين فى موضع أجر فرجان، وكانت الهزيمة على تاشفين الذى فرّ إلى جهة الميزتالوت، تاركا محلاته وأخبيته وفيها السلاح وأحمال الثياب والبغال والعبيد والحيوان، بعد أن فشل مدد جزولة فى الوصول إليه من مراكش في الوقت المناسب . وكان تمام الهزيمة بعد فشل المدد فى استنقاذ الغنيمة بفضل كمائن الموحدين التى خرجت عليهم، إلى جانب

---

(٦٧)انظر البيدق، ص٧١-٧٣-حيث غزاة تاجلوط متاع حاحة حيث النص على انه رغم القتال الشديد، فإن الموحدين لم يغنموا الا بنداً احمر اللون، وهى غنيمة رمزية، رغم القول ان تاشفين «رجع الى مراكش خاسراً، والابرتير مجروحاً خاسراً»، مع الاشارة (ص٧٣) الى انه كان هناك لقاء ثان بين الخليفة والربرتير بموضع آسيمص (متاع جدميوة)، وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٤١ .

(٦٨)انظر نظم الجمان، ص٢٤١ .

ماقابلهم فى الطريق من الأوعار والخنادق (٦٩) وبذلك ظل جبل جنفيسة محافظاً علي استقلالة، معتزاً بتوحيده (٧٠).

وتعرضت جزولة إلى كمائن الموحدين بقيادة الشيخ ابى حفص عمر أصناج، والتي قتلتهم واستولت على ٣٠٠٠(ثلاثة آلاف) فرس منهم، قسمت على الموحدين،فلم يكن أمامهم بعدئذ إلا الإنابة والدخول نهائيا في التوحيد (٧١) .

المطــاردة

ومنذ سنة ٥٣٥ هـ / ٤١ - ١١٤٠م أخذت الحرب ضد المرابطين شكل مطاردات مثيرة بين عبد المؤمن والمرابطين بقيادة الربرتير، فلقد نجح الأخير في منع الموحدين من الاستيلاء على موضع تيتلين الذى كان على شفى الوقوع بين يدى عبد المؤمن بل وطارد الموحدين إلى موقع أمسكروطان، ولم يكف عن متابعتهم إلا بعد أن حصّن عبد المؤمن، الموقع، وبناه بالطين والحجر والشطب . وعندئذ كانت فرصة انتهزها الموحدون ليقوموا بجولة خلال السوس في الوطاء، حيث أخضعوا القبائل فى ابرمناد ميمون، وتاسلوت، وتارودانت ثم تيمونوين وانتهت تلك الجولة بعودة الفلاكي إلى التوحيد (وكان قد ارتد سنة ٥٢٦ هـ / ٣٢ - ١١٣١م) . وعادت الحملة من جولة السوس هذه إلى تينمل بالمغانم (*) .

(٦٩)ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٤١-٢٤٢-حيث تنظيم الكمائن بضرب الطبول، وفشل جزولة فى الاستحواذ على الغنيمة بل وقتلهم عن آخرهم، وأخذ دوابهم واسلحتهم.

(٧٠)ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٤٢-حيث الاشارة الى محاولة عبد المؤمن سدّ مضايق الجبل على تاشفين الذى فرّ عائداً نحو مراكش.

(٧١)نظم الجمان، ص٢٤٢-٢٤٣، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هويشى)، ص١١-حيث الصراع مع تاشفين وجزولة ثم توحيد جزولة مع الاشارة الى ان عساكر جزولة كانوا جملة وافرة من رجال تاشفين، وان الحرب كانت فى مضايق وجبال لا يكاد الفارس يتصرف فيها بقتال، وان الموحدين نجحوا فى اعتراض جزولة فى طريق العودة بين الأوعار، فهزموهم واستاقوا خيلهم ونساءهم الي تينمل، الأمر الذي دعا أشياخ جزولة الى الدخول فى طاعة الموحدين، فكتب لهم (عبد المؤمن) بذلك "ظهيراً حسنا" حسب تعبير عصر ابن عذارى.

* البيدق ، ص ٧٣ - ٧٤ .

والذى يفهم من الرواية أن عبد المؤمن كان حريصا فى تلك الجولة على أخذ النساء والتحفظ عليهن في موضع يتامون ليكن موضوعا للمساومة مثل كبار الرجال فيما بعد، الأمر الذى دفع الربريتر إلى مهاجمة غيغاية، من بطون هنتاتة، حيث حمل النساء وفي جملتهن حواء زوجة يعزى بن مخلوف (٧٢). الأمر الذى أعطي الصراع شكل الحرب الكلية، فكأن الأمر كان قد بلغ حدّ الذروة - حسبما نرى .

وسرعان ماكانت السبايا من النساء الحرّات موضوعا للمفاوضات بين عبد المؤمن والأمير علي بن يوسف والتى انتهت بنوع من تبادل السبايا الأسيرات، وإن وضح من الرواية أن بطلتى تلك العملية هما : حواء زوجة بكر بن مخلوف وتاما كونت ابنة الوزير المرابطى بينْتان المرابطى التى تجعلها رواية البيدق السبب المباشر فى إطلاق سبايا الموحدين من المرابطيات لما كان يكنه عبد المؤمن لوالدها بينْتان من الإعتراف بالجميل لموقفه السّمح من المهدى بمراكش (٧٣).

ومن توابع غزوة حاحة سنة ٥٣٥ هـ / ٤١ - ١١٤٠ م استئناف الطرفين المطاردة فيما بينهما . وقد خرج عبد المؤمن من تينملل بعد ان قدّم عليها نائبا عنه صهره : أبو عمران موسى بن سليمان القاضى(٧٤)، وسار شمالاً بشرق إلى موضع أشبار، فما كان من تاشفين الا أن خرج إليه . وظل الطرفان يتبادلان المواقع مابين أشبار، وتاساوت، ودمنات، وتمللو إلى أن نزل تاشفين موضع كدية، فخرج إليه الشيخ أبو

(٧٢)البيدق، ص٧٤ و٧ه، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، الهامش السابق (اعلاه).

(٧٣)البيدق، ص٧٤-حيث رواية قصصية تنسب الى تاماكونت ابنة بينتيان التدخل لدى عبد المؤمن وتذكيره بموقف والدها الطيب من ابن تومرت والذى كان السبب فى اطلاقه بدلاً من سجنه أو قتله (ما سبق، ص ١٨٤). وتسترسل الرسالة فى القول بان علي بن يوسف عندما وصله نبأ اطلاق سراح النساء المرابطيات أطلق من جانبه الغيغائيات وعلى رأسهن زوجة يعزي بن مخلوف، وهو الأمر الذي تعتبره رواية البيدق رداً علي مكرمة أمير المؤمنين عبد المؤمن الذى قال بالمناسبة : "اعمالنا ردّت الينا".

(٧٤)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٢ .

حفص عمر آينتى بالرجالة دون خيل . وتم اللقاء فى تلك المنطقة الوعرة التى لايستطيع الخيّال أن يناور بها فى بسيط تيزي، وكانت الحرب سجالاً إلى أن انفضّ الجمعان - كما نرى (٧٥) .

فازاز: والتشكيل الجديد للعسكر:

بالاستيلاء على أزرو عند منابع كل من وادى أم الربيع (موربيع) ووادي بورجرج (أبو الرقراق) شمال شرق تادلا تكون بوابات المغرب من أقصاه إلى أوسطه قد انفتحت امام قوات الموحدين المظفرة . وهكذا كان على الخليفة عبد المؤمن أن يعيد رسم خططه الحربية حسبما تقضى متطلبات الموقف فكانت إعادة تقسيم العساكر الموحدية إلى ٣ (ثلاثة) جيوش، هى :١- الجيش الرئيسي الأول بقيادة عبد المؤمن، ٢- الجيش الثانى بقيادة عبد الرحمن بن زجو، وقواته الأساسية من بني كانون، ٣- الجيش الثالث بقيادة يتطاف، وقواته من كل من بنى (آيت) سدرات، وبني آمرسال، وأهل (بني) ملوية . والظاهر أنّ خطة تقسيم الجيوش الموحدية هذه لم تأت بما كان يرجي منها فعادت إلى التجميع كلها تحت قيادة عبد المؤمن، الذي راجع التشكيل النهائي كله، وأخرج الأشياخ من كبار السن - كما نرى - وقرر ترحيلهم إلى تينمل بحجة القيام بزيارة ضريح الإمام . ويظهر سخط عبد المؤمن علي أشياخ الجيش والعسكر من أنه أمرهم بالمسير وحدهم إلى العاصمة، الأمر الذي أزعجهم فرجوه ألا يتركهم لقمة سائغة «للمجسمين»، "فبعث معهم الأمناء (الذين يحرسونهم) حتى وصلوا وزاروا" (٧٦). ولا بأس، ان كان عبد المؤمن قد استقر، في ذلك الوقت بالجبال البالغة الارتفاع المجاورة لجهة فاس والمعروفة بـ كراندة (جراندة)، بينما كان تاشفين بالبسائط لا يجد من البرابر من

---

(٧٥)البيدق، ص٧٥-حيث النص : "فهزمنا الفئة الباغية، فأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين" (سورة الصف-الآية ١٤ .

(٧٦)البيدق، ص٧٦.

يداخله ولا من يستعين به (٧٧).

وبفضل ذلك التنظيم الذى شمل كلا من التكتيك العسكرى والاستراتيجية فيما يشبه التمييز، بالنسبة للقيادات على الأقل، وحّد أهل فازاز ونزلوا من القلعة (قلعة مهدى) بينما كان تاشفين وقائده الربرتير (الأبرتير) بفاس متربصين . وعندما خرج عسكر فاس ومكناسة في محاولة لتقويم الأوضاع فى القلعة، وقع الخلاف بينهم وخرجوا هاربين، وأخذ عسكر فاس طريق الجبل فنجا مع قائده يحيى بن محمد بينما لحق الموحدون بجيش مكناسة، وهو في طريق العودة إلى بلده بقيادة ابن وجلوط، وهزموه وأخذوا منه «غنيمة ما رأى الراؤن مثلها» (٧٨).

وهكذا انفتحت أبواب المغرب الأقصى أمام عبد المؤمن الذى لم يجد مقاومة تذكر في مسيرته إلى تيزرفت (متاع بيلورن) وتاسغرت (٧٩) إلى وادى زيز موضع يحيى بن محمد . وهناك خرج إلى الموحدين من سجلماسة أبو بكر بن صارة. وبعد اللقاء معه فى موضع واطوب تم الاتفاق بين الطرفين على التحالف وحسن الجوار، وعاد الموحدون والسجلماسيون إلى أوطانهم مسالمين (٨٠)

---

(٧٧)ابن عذارى، الموحدون (هويتى) ص١٢ .

(٧٨)البيدق، ص٧٧ .

(٧٩)البيدق، ص٧٧-التى هرب رئيسها ميمون بن صاري، ووحّد بنو أبى غزوان، كما وحّدت قبيلة سلم بن حمامة، وآيت (بنو) على وسكور ومنكور .

(٨٠)البيدق، ص٧٧ .

غياتة فى أطلس الوسطى :

بوصول الموحدين إلى وادى زيز من بلاد درعة يكون عبد المؤمن قد أخضع أو تحالف مع قبائل المناطق المحيطة بالسوس الأقصى إلى حاحة غربا ، ووادى درعة جنوبا ، وتافللت (سجلماسة) شرقا ، فلم يبق أمامه الا المغرب الحقيقى فى الشمال حيث كان التمدد الموحدى قد وصل إلى ضواحي فاس. وهكذا كان الهبوط من جبال تنمل نحو المغرب والنزول بنوليس والمسير نحو تاجررت (متاع بنى وابوط) . وهناك كان على عبد الرحمن بن زجو (زقو) أن يسير فى المحرم من سنة ٥٣٦ هـ / أغسطس سنة ١١٤١ ليهاجم صفروى : ضاحية فاس الجنوبية، يوم الاحتفال بموسم عاشوراء، ولكى يلحق بالقوات الرئيسية بقيادة الخليفة فى موضع الفَلاج . وعندئذ خرج تاشفين من فاس إلى جبل العرض حيث مّيز العساكر، ومن هناك بعث الربرتير إلى الفلاج حيث التقى برئيسها يحيى أغوال فهزمه وقتله، وحمل رأسه إلى فاس . وعندئذ غادر الموحدون إلى موضع بنى مكّود بينما سار الربرتير بحذائهم نحو المقرمدة (بشرقي فاس).

ومن المقرمدة كان المسير إلى غياته، وقام تاشفين بحذائهم الي النواظر، وذلك فى شتاء (جمادى ١-جمادى٢) سنة ٥٣٦ هـ / ديسمبر - يناير ١١٤٢ م، حيث كان هبوب الرياح العاصفة لمدة ٥٠ (خمسين) يوما دون انقطاع مع سقوط الأمطار التى أجرت الوديان . وهكذا فاض وادى فاس و« أكل» باب السلسلة، كما «فتفت» جزيرة مليلة (٨١) .

وفى ذلك الوقت كان عبد المؤمن فى موضع غفرا بجبل غياتة بأطلس الوسطى،

(٨١) البيدق، ص٧٨-حيث وأكل البحر (ايضا) طنجة حتى الجامع، وأكل وادى سبو مع وادى ورغة أخبية لمطة، وهذا كله فى شتاء سنة٥٣٦هـ/١١٤٢م، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٠-حيث سار عبد المؤمن الى غياته، وبطوية وافتتحها ثم سار إلى ملوية وبلاد زناته، وبعث اليهم عساكر الموحدين بقيادة يوسف بن وانودي، ومن ثم المسير الى تلمسان وكان واليها "ابو بكر بن مزدلى"، ثم المسير الى أمراء بني ومانو....وبلاد بنى عبد الواد وبنى باجوّى....وأمدهم عساكر لمتونة ومعهم الربرتير.

بينما كان تاشفين في الوطاء تحت الموحدين في موضع النواظر، والعسكران يقاسيان جميعا من شدة البرد والغلاء . فسطل الشعير لزوم علف الخيل بلغ عند الموحدين ٣ (ثلاث) دنانير، بينما عز الحطب عند المرابطين فبلغ سعر الرطل منه ديناراً من شدة البرد، حتي أن أمرأة بعثت لتاشفين بطبق لطيف ظن أنه فاكهة فإذا به فحم فسّر به(٨٢). وعندما أقبل الربيع «فتح الله بالغياث والخيرات».

حملة جبال الريف إلى تخوم المغرب الأوسط:

وهكذا، وعند تحسن الأحوال الجوية بدأت المطاردة من جديد بين كل من عبد المؤمن من ناحية وتاشفين وبصحبته الربرتير من الناحية الأخري، وكل على حدة حسب استراتيجية المرابطين التى كانت تهدف إلى الاحاطة بقوات الموحدين فيما يعرف باطباق «الكمّاشة»، الأمر الذى نجحوا فيه بعض الأحيان.

فلقد خرج عبد المؤمن بقواته من جبل غياته إلى موضع «لكاى» حيث استقر لبعض الوقت قبل المسير إلى الولجة واللقاء برئيسها يّدر بن ولجوط ، وبالمقابل غادر تاشفين هو الآخر محلته وهو يتابع خطوات عبد المؤمن، ونزل فى الوطاء تحت المعسكر الموحدى فى موضع الجوزات (متاع بنى ليلى) (٨٣)، بينما سار الربرتير

---

(٨٢)البيدق، ص٧٨-وقارن ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢-حيث : ونزل عبد المؤمن بحصن بالموضع المذكور (كرانده : جرانده) شهوراً دون حطب أو فحم حتى حرقوا أوتاد أخبيتهم وخشب ابنيتهم، والمطر مع ذلك مستصحب دائم، مع القول عن ابن صاحب الصلاة : "ان امرأة بعثت لتاشفين بطبق كبير عليه بنية (منديل) فظن انه فاكهة واذا فيه فحم فسر به. وقارن روض القرطاس، ص١٨٧-حيث : ثم ارتحل عبد المؤمن الى جبل غمارة فارتحل تاشفين فى إثره، فنزل بوادى تهليط بازاء عين القديح، فى فصل الشتاء. فأقام بذلك المنزل شهرين حتى أحرق أهل محلتة أوتاد أخبيتهم ورماحهم، وهدموا بيوتهم وأخبيتهم (ثم ارتحل عبد المؤمن الى جهة تلمسان، وارتحل تاشفين بطوى المراحل....).

(٨٣)نفس المصدر، وقارن ابن الاثير، ج١٠ص٥٧٩-حيث النص : وأطاعت عبد المؤمن قبيلة بعد قبيلة، وان الرحلة بمحاذات الجبل استمرت من سنة ٥٣٥هـ/١١٤١م، وان المناوشات كانت مستمرة الى ان وصل الى تلمسان سنة٥٣٩هـ/١١٤٥م .

إلى مواطن بني سليمان فى الأرض العالية، وبذلك أحاط المرابطون بهم وكادوا يطبقون عليهم، ولولا نجاح عبد المؤمن فى استمالة بعض زعماء المنطقة الذين وحّدوا إلى جانبه، وهو الزعيم الصنهاجى مفتاح بن عمر الذى سمح للموحدين بالنزول عندهم وبذلك تفادى الحصار.

«تكتيك الكماشة» «فن إدارة المعركة»

والظاهر أن تاشفين كان يعتمد خطة التطويق (بالكماشة) التى تهدف إلى أن يقوم الروبرتير بدفع الموحدين من أعلى الجبل نحو السفح، ومن ثم إلى الوطاء حيث يكون الإطباق عليهم من كل من جانبى الربرتير الذى يلاحق من أعلى من الخلف، وتاشفين الذى يستقبل النازلين وهم يلهثون بالسهام وسنان الرماح وأنصال السيوف. فلقد عاد تاشفين إلى النزول تحت الموحدين فى أرض صنهاجة غّدو، وعندما أقلعوا من صنهاجة غّدو إلى تازغْدَرا (متاع لجاية) سار تاشفين والروبرتير معا إلى بنى تاودا حيث نزلوا بحيث كان وادى متاع ورغة (من روافد نهر سبو) بينهما، وهناك عاد المرابطون إلى الإعداد لحركة «الكماشة» من جديد . فلقد استعرض الربرتير رجاله استعدادا للخروج جريدة نحو الموحدين فى تازغدرا، حيث دار بين الجانبين قتال شديد طوال يومين وليلتين، وتعرض فيه الطرفان لكثير من الخسائر فى الرجال، وانتهى سجالاً بطاردات عن بعد تنقل فيها الروبرتير مابين بنى تاودا وبين بنى مزجلده، وبينهما نزل الموحدون فى موضع تاغزوت (إن بتقطت) من منطقة وادوذ ثم فى موضع آيكّى من منطقة ايلاته (متاع الميزان) حيث استقروا لمدة ١٢ (اثنى عشر) يوما . وهنا عادت جريدة الربرتير إلى جيش تاشفين، وسار الأثنان معا إلى تهليط تحت قصر عبد الكريم (القصر الكبير وهو قصر مصمودة القديم) ما بين العرايش وسلا (٨٤).

والظاهر أن الموحدين عانوا فعلا من تكتيك حرب الكماشة الذى مارسه ولى العهد المرابطى بفضل مهارة قائده الفرنجى، وحسن تحريكه السريع لرجاله . يستشف ذلك من رواية البيدق التى تقول إن الأمر تطلب تدخل القائد الكبير الشيخ عمر

(٨٤)البيدق، ص٧٨-٧٩.

أصناج : أحد العشرة، إلي جانب عبد المؤمن رغم ان الرجل كان يعانى ذروة مرضه الذى مات فيه . ولقد خرج عمر آصناج مريضا، فأخذ بيد عبد المؤمن الذى يأمر بأن تضرب له خيمة (قيطون)، ويرفض المريض الكبير ان يجلس فى الظل بينما الموحدون فى الشمس، وبذلك يضرب لهم المثل فى فى أن أول صفات الجندى المجاهد هي التحلى بالصلابة والمقدرة على مواجهة الصعاب، ومعاناة مرارة الكفاح.

وهكذا كان عمر آصناج – سمى عمر الفاروق – يخطب الموحدين المجاهدين من المصامدة واقفا إلى جانب عبد المؤمن وهو يسنده بيده إليمنى بينما الشيخ أبو ابراهيم يسنده بيده إليسري . وكانت وصية وداع رائعة، تذكر بوصية الإمام المهدى ابن تومرت، والتي طالت والموحدون يستمعون إليها من وقت الضحى إلى وقت الظهيرة.

وكان موضوع الخطبة الوصية : أمر المجاهدين الموحدين بالطاعة للخليفة : خليفة الإمام المعصوم، الواجب الطاعة على الكافة . ومع نهاية النهار وقدوم الليل توفى أبو حفص عمر بن على آصناج، أحد دعامات حركة ابن تومرت العشرة، بعد أن وعظ الموحدين الذين وعوا الدرس (٨٥).

وبعد دفن عمر الصنهاجى (آصناج) إلى جانب جدار يقف شاهدا على ضريحه، وعندما سارت الحملة، ترك بالمحلة الشيخ أبو يحيى بن بكير بن الجبر مع جماعة بنى سعيد، حفاظا على كرامة ضريح شيخ صنهاجة الموحّد – خشية أن يعرض له الخصوم، كما نرى، بسوء . ومنذ ذلك الحين قوى الجيش الموحدى السائح فى جبال الريف متجها نحو المغرب الأوسط بمساندة قطائع الاسطول التى كان يقودها ابن ميمون.

وهكذا تحولت الحملة إلى نزهة عسكرية جال عبد المؤمن فيها بمواضع بنى منصور ويكساس حيث وحّد بنو ناله وبنو زياد، ومن ثم بآست سار حيث دخل فى الطاعة

(٨٥)انظر البيدق، ص٧٩.

أولاد حيان (متاع تيزيران)، وبنو آزكْترا، كما دخلت في الطاعة سوق الثلاثاء، (متاع بو عريف)، بلد عبد الله بن يحياتن، والقلعة (متاع باديس)، كما وحّد أهل الطارقين والمخففة . أما عن قبائل كزناية (متاع تيزغت) الستة فقد دخل في مذهب التوحيد ٣ (ثلاث) منها وبقى ٣ (ثلاث) في طاعة المرابطين (٨٦).

وهنا خاف المرابطون من ان يتهدد الخطر مدينة السوس الأدنى : فاس، فأقلع إليها كل من تاشفين والربرتير وجاسوا خلال منطقتها حيث بنو سليمان والموحدون في إثرهم إلى أن تم اللقاء بين الطرفين في موضع كزناية (متاع تيزغت)، ولكن المرابطين انسحبوا دون قتال (خاسرين) . وعندما هبط الموحدون إلى موضع لمزمة أخذهم الهواء والمطرمدة ٨ (ثمانية) أيام حتى كادت تهلك دوابهم في الوحل والطين، الأمر الذى دعا عبد المؤمن إلى تسمية تلك الحملة بغزوة الطين (تاغزون ان والط) (٨٧).

توحيد ابراهيم أخى عبد المؤمن ومقتله :

وكان على الموحدين أن يستقروا بسبب سوء الأحوال الجوية في جبال تمش آمان حيث اتخذ الرجال منازلهم حسبما ارتأوا . وهنا جاء ابراهيم أخو عبد المؤمن معلنا لأخيه الطاعة ودخوله في حزب التوحيد . فكانت فرصة انتهزها الخليفة ليبر بأفراد أسرته وقومه، فأعطاه الخيل والعبيد والجنان، وأنزله في موضع القائد : محمد بن ابى بكر بن يجيت . والظاهر أن ابراهيم بالغ في الاستفادة من إعزاز أخيه الخليفة له، الأمر الذي أثار الزعيم ابن يجيت إلى درجة عدم مراعاة حرمة أخوة الخليفة، فتجرأ على قتل ابراهيم، ربما لحداثة دخوله في التوحيد - كمانرى.

وفي ذلك تقول الرواية : فغضب الخليفة لقتل أخيه، وقال : «ويقتل ابن يجيت به» الأمر الذى لم يستسيغه كبار شيوخ الموحدين، وأغلب الظن أن المسألة سوّيت

---

(٨٦) البيدق، اخبار المهدى ابن تومرت، ص٨٠ .

(٨٧) البيدق، ص٨٠ .

بدفع الدية (٨٨).

وكانت تلك الحادثة الخطيرة سببا فى ظهور تعديل مهم فى نظام حشد العسكر الموحدى، وذلك أنه صدر أمر الخليفة : «بقسمة المروس بالبنود : كل قبيلة ببندها»، وهو الخبر الذي انفرد به البيدق *.

التحالف مع قبائل المغرب الاوسط عن طريق المصاهرة :

ومن ذلك الوقت، وبعد أن دخل عبد الرحمن بن زجو إلى مدينة مليلة عنوة، بدأت القوات الموحدية تطرق أبواب المغرب الأوسط . فلقد تم اللحاق بابن زجو فى سوق الخميس بامتليلى، وجمعت المغانم والسبايا، وكان منهن ١٠٠ (مائة) بكر من أهل المنطقة اللاتي أعلن أنهن من المسلمات. فقام عبد المؤمن بتقسيمهن على كبار رجال الموحدين، على أن يتزوجوهن . ومن المهم ماتشير إليه راوية البيدق، من أنه بقيت - بعد التقسيم - فتاتان لامعتان، هما : فاطمة بنت يوسف الزناتية، والأخرى ابنة ماكسين بن المعز، صاحب مليلة. وواضح من ذلك أنهما ابقيتا خارج التقسيم لشرفهما، ولطموح بعض الزعماء فى أن يحوزوا شرف الزواج من إحداهما - وبالتالى التحالف مع قبيلة كل منهما . فلهذا رأى عبد المؤمن رمى القرعة عليهما بينه وبين الشيخ أبى ابراهيم (اسماعيل بن إيحيج) الذي كانت من نصيبه فاطمة بنت يوسف بينما آلت بنت ماكسين إلى الخليفة عبد المؤمن، فكانت أماً لولديه : الأمير ابراهيم والأمير إسماعيل . وكانت مناسبة احتفل فيها بموضع المهدية (متاع ابن مليح) بعمل مأدبة طعام (اسماس) تليق بمقام الخليفة والزعيم الموحدى الكبير. (٨٩).

---

(٨٨) انظر البيدق، سيرة المهدى ابن تومرت، ص٨١-حيث النص : "فقام له (عبد المؤمن) أبو حفص (عمر الهنتاتى) ! وابو الحسن يوجوت بن واجاج، وقالا له (عبدالمؤمن) : ألم يقل المهدى إن أهل الجماعة وصبيانهم وعبيدهم كل من فى الدنيا، فصمت عند ذلك الخليفة".

* وعن المروس انظر دوزي، ملحق القواميس العربية (بالفرنسية)، ص ٥٨٠ - ٥٨١، حيث : الفعل مرس يعني عالج أو مارس، وحيث مرس وأمراس بمعني حبال، وحيث المروس في النهاية تعني ديوان العطاء . فكأن الأمر يتعلق بتنظيم العطاء في فرق الجيش، كلا حسب درجتها.

(٨٩) البيدق، ص٨١ .

وعقب ذلك كان الرحيل إلى آغيال (متاع بنى يزناسن) الذين فضلوا الهرب على الدخول فى حزب التوحيد ، ومن هناك كان الذهاب إلى ندرومة ، نقطة الحدود بين المغربين : الأقصى والأوسط ، من حيث كان الدخول إلى بلاد كومية - قبيلة أمير المؤمنين عبد المؤمن - التى وحّدت فى التو واللحظة . ومن هناك كان المسير إلى تاجرا مسقط رأس عبد المؤمن ، حيث كان التمييز (العرض) استعداداً للمسيرة التالية(٩٠).

حملة تلمسان : ونهاية الدولة المرابطية:

وفى تاجرا تم استعراض (تمييز) حشود الموحدين ، وسيّر عبد المؤمن منها ٤ (أربع) جرائد (طوابير) ، هى :

١- عسكر محمد بن زجّو الذى اتجه نحو الساحل ، ومن هناك عرجّ على وهران وعاد بالمغانم والأسلاب.

٢- عسكر بقيادة الشيخ ابى ابراهيم اسماعيل بن ايجيج وسار إلى ويسغد (لبنى وانون) ورجع منها بالغنائم (٩١).

٣- ويفهم من النص المضطرب فى هذا الموضع أن العسكر الثالث كان بقيادة يوسف (بن وانودين) الذى خرج لمهاجمة قبائل مديونة تاينزا فى منطقة تلمسان وأنه خرج إلى لقائه القائدان المرابطيان : أبو بكر بن الجوهر اللمتوني ، ومحمد بن يحيى بن فانوا ، ولكن يوسف نجح فى مهاجمتهما فى موضع «خندق الحمراء» الذى يعرف بوادى الزيتون وقتلهما معا (٩٢).

(٩٠) البيدق ، ص ٨١.

(٩١)البيدق، ص٨٢ .

(٩٢)البيدق، ص٨٢ وقارن ابن الأثير، ج١٠ص٥٧٥-حيث ارسل عبد المؤمن جيشاً الى وجده (وجرة-بدلا من ندرومة) من أعمال تلمسان بقيادة أبى عبد الله محمد بن زقو (زجو) من آيت خمسين التقى بهم متولى تلمسان : احمد بن يحيى بن فانو، فهزمهم جيش عبد المؤمن فى موضع "خندق الجمر"، وقتل محمد بن يحيى وكثير من أصحابه.

٤- وواضح من النص المضطرب أن عبد المؤمن أرسل جيشا حليفا رابعا من عساكر زناتة الذين كانوا في معية الزعيم : زيرى بن ماخوخ الذى وحد ودخل فى طاعة عبد المؤمن فارسله فى مهمة إلى جبل غياتة (فى أطلس الوسطى) فغدره بنو مكود ، فقتلوه ومثّلوا به ، فقطعوا رأسه ويديه وحملوها إلى فاس حيث علقوها فى باب السلسلة (٩٣) والواضح أن المغدور هنا ه، أحد قواد زيري بن ماخوخ أو أحد أبنائه. وذلك أن زيري سوف يقتل في غزوة تالية (ما يأتي ص ٣١٠).

ورحل عبد المؤمن إلى جبل تاجرة ووجه عمر الهنتاتي على رأس جيش إلى وهران لمهاجمتها بغتة . وكان من الطبيعي أن يضم عبد المؤمن قبيلته كومية فى تاجرة إلى جانبه، ولكنه انتقم من أولئك الذين وقفوا منهم إلى جانب المرابطين ، وطلبوا منهم أن يؤدوا من المال مثلما سبق ان أداه زعيمهم أبو طاشور إلى محمد بن فانو والى تلمسان. وعندما رأى منهم عدم الرضا ردعهم بشدة فأمر بالقبض على ١٠ (عشرة) من أشياخهم ، وأنزل بهم عقوبة الإعدام ، ولم يستثن منهم إلا واحداً فقط شفعت فيه النساء من أهله (٩٤).

ومن أرض كومية رحل الموحدون إلى موضع تيفسرت ، من حيث خرجت جريدة (عسكر) بقيادة الشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى والقائد يصلاسن بن المعز إلى موضع العيون من أرض قبيلة صاء وأصابوا الغنائم ، وأتبعوا ذلك بالتجول خلال مواطن ٤ (أربع) قبائل ، قبل أن يعودوا إلى المحلة محملين بالمغانم والأسلاب (٩٥) . وبذلك سيطر عبد المؤمن على منطقة تلمسان فلم يبق إلا الاستيلاء علي المدينة نفسها وعلى قرينتها وهران القريبة غربا ، ولكنه كان عليه أن يترك فاس بعيداً فى السوس الأدنى لبعض الوقت حيث كانت ملجأ مؤقتا وملاذاً لأهل الشتات من الأعداء ولن يدوم طويلاً.

---

(٩٣)انظر البيدق، ص٨٢-حيث وقعة زيرى بن ماخوخ قبل حملة يوسف (بن وانودين)، هـ٣-حيث رأى برونفسال تأخير الغدر بما خوخ عن حملة يوسف.

(٩٤)البيدق، ص٨٣-حيث ان أباطاشور قتله المرابطون بعد دفع المال، وان الرجل الذى أعفى عنه من الكوميين اسمه "ابن ابو كنون (جنون)".

(٩٥)البيدق، ص٨٣-والقبائل هى : بنو بستين، وبنو سَنوس، وبنو وردرسن، وبنو سَتّلق.

بداية النهاية بالنسبة للدولة المرابطية

خلال تلك الحرب الطويلة بين المرابطين والموحدين بدأ من ولاية عبد المؤمن ، والتي شاركت فيها القبائل المختلفة من مصمودة ولمتونة وزناتة وحتى قبيلة عبد المؤمن كومية فى منطقة تلمسان حيث كانت القبائل تنتقل خلالها من جانب إلى آخر مابين التوحيد المهدوى والردة عنه . وبطبيعة الحال كانت تلك الحروب المتصلة تهلك البلاد والعباد فى الدولة المرابطية المترنحة مابين ضربات الأعداء وخيانة الأصدقاء ، وغدر الأهل والأقرباء الأمر الذى أدّى إلى تردى الأحوال وسوء المآل .
وفى ذلك يقول ابن عذارى :......«ومدة هذه الحركة (الحملة) الطويلة الأعوام اتصلت الحروب ببلاد أهل اللثام ، وغلت الأسعار بمراكش فصار ربع الدقيق بمثقال (دينار) حشمى ذهبى . وتولاها الجدب ... ، وقلت المجابى (الضرائب) بهذه الفتن، وكثرت اللوازم على الرعايا بالعدوتين (المغرب والأندلس) . وألح العدو النصرانى بالضربات على جميع جهات الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب ، واشتغالها بحرب الثائرين ، واستولى الروم (نصارى الأندلس) فى هذا الوقت على كثير من البلاد والحصون ، وكثير من الثغر» (٩٦)

تاشفين أميراً وقائداً عاماً ممارساً

ووسط هذه الظروف السيئة أتت وفاة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين فى رجب سنة ٥٣٧ هـ / ٢٧ يناير ١١٤٣ م ليزيد الطين بلة . فبعد أن كان ابنه تاشفين مسئولاً عن الحرب وقيادة الجيوش أصبح بعد أن آلت إليه الإمارة مسئولاً عن مصير الدولة فى تلك الفترة الحرجة.

---

(٩٦)ابن عذارى، الموحدون (هويتى) ، ص١٢-١٣

الفتنة بين لمتونة ومسوفة :

وأول المشاكل التى واجهت تاشفين تتمثل فى تصدع بناء الدولة بقيام الوحشة بين قبيلتى لمتونة : عصبية الدولة ، ومسوفة : سندها الأول ، الأمر الذى أدّى إلى دخول كثير من كبار زعماء مسوفة فى طاعة عبد المؤمن ، مثل : يحيى بن تاكفت، وبراز بن محمد ثم يحيى ابن عمهما المعروف بالجمار ، صاحب تلمسان السابق الذى وصل إلى عبد المؤمن «بجميع إخوانه ورجاله فزاد الخلل فى أمر تاشفين» (٩٧).

وهكذا قامت الفتنة بين لمتونة ومسوفة حتى قام يحيى بن تاكفت المسوفى بالإغارة على بعض المواطن فى تلمسان ، فخرج إليه محمد بن زجو (زقو) اللمتونى فقتله وأبنه ، «واحتز رأسيهما ، ووجه بهما إلى تاشفين فأمر بحملهما إلى سجلماسة حيث كانت أخت يحيى المذكور ، فقالت : إن كان لنا رجال فسيأخذون بثأرنا - إن شاء الله» . وعندما بلغ هذا الكلام عبد المؤمن : الحليف الجديد للمسوفيين «فانتصر لها ، ووافقها على رأس تاشفين ، فكان ذلك كذلك» ، كما تقول رواية ابن عذارى عند حصار فاس (٩٨).

توحيد زناتة :

والمعروف أنه عندما توفي على بن يوسف بن تاشفين كانت القوات الموحدية منتشرة فى ٣ (ثلاثة) مواطن ، هي : جبل غياته (في أطلس الوسطى) وجبال الريف حيث مواطن قبائل بطوية ومليلة وغمارة . وكان القسم الثالث تحت قيادة ٣ (ثلاثة) قواد ، هم : يوسف بن وانودين وعبد الرحمن بن زجو (زقو)، وابن يومور، وكان عليهم التوجه نحوتلمسان عبر جبل مديونه. وخرج إلى هؤلاء الأخيرين والى تلمسان القائدالمرابطى : محمد بن يحيى بن فانو وانتهى اللقاء بهزيمة ابن فانو ومقتله بينما تفرقت قواته نحوبلادها. وكان من نتيجة هذا النصر الموحدى أن دخلت

(٩٧)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٣ ونفس الرواية عن ابن بجير، فى ص١٤.

(٩٨)المغرب، الموحدون (هويتى)، ص١٣.

جماعات زناته فى طاعة عبد المؤمن وعلى رأسهم بنو ومانو، وغيرهم من سكان بلاد الريف، مثل : بنى ماخوخ، ويوسف ابن يّدر، فوجههم عبد المؤمن مع القائدين ابن يومور وابن زجو إلى بلادهم، فكان دخول كل قبائل زناتة فى حظيرة التوحيد(٩٩).

وهنا بعث تاشفين قائده الربرتير على رأس قواته من الروم (الأندلسين) والمرابطين (الصنهاجيين)، ولكن الخبر لم يخف على جواسيس الموحدين الذين أسرعوا فى غلس الليل نجدة لبنى ومانو الذين كانوا متحصنين بأحد جبالهم، تاركين موضعهم الذى نزل به اللمتونيون، فهدموه وأحرقوه. ولم يكتف المرابطون بذلك بل انهم طلعوا على خصومهم بالجبل فى يوم عاصف ، فكانت فرصة انتهزها بنو ومانو فهبطوا عليهم مع حلفائهم من زناتة وهزموهم (١٠٠).

وتشجع الموحدون بعد ذلك النصر فساروا بقيادة يوسف بن وانودين وعبد الرحمن بن زجو وابن يومور ومعهم بنو ومانو، مغيرين فى بلاد بنى عبد الواد، وبنى يلومى، وهم يقتلون الأعداء، ويجمعون المغانم التى وجهوا بها إلى عبدالمؤمن (فى منطقة تلمسان). ولم يكن من المستغرب ألا تمر مغانم بنى عبد الواد وبنى يلومى بسلام إلى أرض زناته دون أن تثير نهم هؤلاء الأخيرين، رغم تحالفهم الظاهر مع الموحدين. فقد خرج الزناتيون على المغانم فأخذوها، وقتلوا من بنى ومانو الذين كانوا يحملونها ومن غيرهم ٦٠٠ (ستمائة) رجل، فيهم الزعيم الزناتى ابو بكر ماخوخ (من بنى ومانو)، بينما لجأ ابن وانودين إلى جبل هناك واعتصم به مع الموحدين، هذا ورحل عسكر اللمتونيين إلى موضع منداس (بلد بنى يلومى من زناته)، حيث اجتمعت عليهم قبائل بنى يلومى برحائلهم مع زعيمهم حمامة بن مظهر وغيرهم من زناتة : بنى ينجاسن، وبنى وسيفن، وبنى توجين، وكانوا دون رحائل معهم (١٠١).

---

(٩٩)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٤.

(١٠٠)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٤.

(١٠١)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٤.

وعندما بلغ خبرمقتل بنى ومانو، وصل عبد المؤمن إلى جهة تلمسان، فنزل هناك بين الصخرتين. وعندئذ وصله بنو ومانو، وأقلع معهم إلى سيرت حيث اجتمع عليه جميع بنى ومانو ومعهم الزعيم الزناتى تاشفين بن ماخوخ. وفى تلك المحلة انضمت إلى قواته عساكر كل من : ابن زجو وابن يومور. وفى تلك المحلة وصل عبد المؤمن هدية بنى ومانو فصرفها عليهم ثم رحل إلى بلاد بنى يلومى الزناتيه (١٠٢).

ولما تحقق أمير المسلمين تاشفين من تجمع القوات الموحدية فى بلاد بنى يلومى، دخل تلمسان حيث جنّد فيها عسكراً بعثه إلى عبد المؤمن وهو فى موضع منداس وهنا قرر عبد المؤمن المسير إلى محلة الربرتير وأن يكون البدء بقتال رجاله من الجنود والحشود، حتى يجهض خططه فى الإحاطة بالقوات الموحدية، كما كان يحدث فى السابق . على ما نرى. وبعد قتال دام ٤ (اربعة) أيام نجح عبدالمؤمن فى الإحاطة بمحلة الربرتير ومن كان معهم من زناتة بنى يلومى وغيرهم. وكانت المغانم التى حصل عليها الموحدون من مواشى زناته كبيرة، تبالغ الروايات فى تقديرها بنحو ٣٠ (ثلاثين) ألفا من الغنم، و١٢ (اثنى عشر) ألفا من البقر، الأمر الذى سمح للربرتير باللحاق بالقوات الموحدية، وباستنقاذ معظم الغنائم. ومن الواضح ان عبدالمؤمن كان قد عهد إلى قومه من كومية باستصحاب تلك الغنائم التى حصل عليها الموحدون فى بلادهم. يظهر ذلك فيما حدث من مقتل ٤٠٠ (اربعمائه) رجل من الكوميين، وهم يدافعون بشراسة عما كان بين أيديهم من الخيرات .

والمهم أن العسكر المرابطى عاد إلى تلمسان بالماشية الزناتية ، وهناك اجتمع بالأميرتا شفين (١٠٣).

وتمخض اجتماع تاشفين بقائده الرومى الفذ ، عن كتابة الرسائل إلى مختلف البلاد طلبا لإرسال العساكر إلى تلمسان (إلى القصبة) حيث كان من الواضح أن اللقاء بين حشود كل من الطرفين سيكون ذا أهمية بالغة لتقرير مصير حرب المطاولة التى دامت حوالى ٧ (سبع سنوات) منذ سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م . وفعلا وصلت

(١٠٢)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٠.

(١٠٣)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٥.

العساكر المرابطية من أقصى البلاد ، ليس من سجلماسة فى أقصى الجنوب فقط ، بل من بلاد بنى زيرى الصنهاجيين فى أقصى الشرق ، من حيث وفد عسكر بجاية بقيادة طاهر بن كبّاب من قواد بنى حمّاد ، وكذلك من الأندلس من حيث وفد ابراهيم بن تاشفين بعسكره فولاه أبوه عهده ، وكانت الأحوال فى الأندلس تزداد مع مرور الوقت ، سوءاً.

وفيما يتعلق بالعسكر الصنهاجى الوافد من بجاية تقول رواية أبي على الحسن الأشيرى ، إنهم لقوا هزيمة قاسية على أيدي الموحدين ، فى ضاحية العبّاد من مدينة تلمسان ، ولحقوا بهم من الصخرتين حتى باب المدينة (١٠٤) . وأنتهى الأمر بأن اتصل القائد الحمادى ابن كباب بعبد المؤمن وأعلن التوحيد مع الوعد بالمساعدة على فتح بجاية وبلاد الزيريين فى بجاية والمهدية (١٠٥).

هذا ، وتشير الرواية إلى أن ابراهيم بن تاشفين كان التقى مع والده عقب وفاة جده الأمير على بن يوسف ، وذلك فى موضع كراندة (جراندة) جنوب فاس ، وحينئذ أرسله والده إلى قرطبة ليستكمل دراسته فى الأندلس ، ثم إنه بعد أن تأزمت الأحوال وبلغ الصراع مع الموحدين ذروته هذه ، استدعاه تاشفين إلى تلمسان فى آخر سنة ٥٣٨ هـ/ يونية ١١٤٤ م . وكان وصول ابراهيم بن تاشفين من بلاد الأندلس وقتما كان أبوه يستعرض (يميز) العساكر والحشود والجنود والوفود ، فكان عرضا عظيما "أعجب الناس من كثرة عددهم واحتفالهم بالزينة" - وكان

---

(١٠٤)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٣.

(١٠٥)البيدق، ص١٤، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٠-حيث النص على : "ونزل تاشفين اصطفصف....ووصل جند صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية بنظر طاهر بن كبأب من قواده، أمدوا به تاشفين وقومه لعصبيته الصنهاجية. وفى يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين. وكان يدل بأقوام قدرا بلمتونة، وأميرهم يتعوّدهم لمناجزة الموحدين. وقال : إنما جئتكم أؤمنكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا، وأرجع الى قومى. فامتعض تاشفين لكلمته، وأذن له فى المناجزة، فحمل على القوم. فركبوا وصمموا للقائه، فكان آخر العهد به وبعسكره.

ميدان العرض يمتد من باب القرمادين بتلمسان إلى جهة سفح الجبل (١٠٦).

وهنا يرجع الفضل إلى صاحب الحلل الموشية فى اتصال ما انقطع من رواية ابن عذارى عن عملية العرض المرابطى الكبير ، والذى يعتبره « آخر جيش احتفل فيه المرابطون» (١٠٧) ، وذلك بفضل مانقله من رواية اليسع التى تبين أن الموحدين قاتلوا الحشد المرابطي الكبير فى آخر عروضه (تمييزه) بخطة تكتيكية دفاعية تقضي بتنظيم العساكر فى الأرض المنبسطة فى شكل مربع تتوالى فى صفوفه المربعة : الرجال «بأيديهم القنا الطوال ، والطوارق المانعة ، ورا ءهم أصحاب الدرق والحراب صفا ثانيا من ورائهم ، وورا ءهم أصحاب المخالى فيها (الحجارة صفا ثالثا) ، وورا ءهم الرماة بقوس الرجل (صفا رابعا) ، وفى وسط «المربعة» الخيل.

فكانت خيل المرابطين لاتستطيع اختراق تلك الصفوف الدفاعية المانعة ، فإذا انسحبت تخرج لمطاردتها خيل الموحدين «من طرق تركوها ، وفُرج أعدوها ، فتصيب من أصابت ، فإذا كرّت عليهم دخلوا فى غابة القنى».

هذا ، ويقول اليسع إن تلك المعركة تعرف بيوم مندلس (انظر اعلاه ، ص ٣١١) ، وأنه فقد فيه من جيوش المرابطين مالا يحصى . وفي ذلك اليوم ظهر أمر

---

(١٠٦)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٥، وقارن الحلل الموشية، ص١٣١-حيث رواية الكاتب ابى على الحسن الأشيرى وحيث وصول مدد ابن حماد الصنهاجي من بجاية، وعسكر سجلماسة، ووصل من الاندلس ابنه الأمير ابراهيم (ابو اسحق) فولاه ابوه عهده، وذلك فى سنة ٥٣٨هـ/٤-١١٤٣م، وكان عسكره من الروم نحو ٤٠٠٠(اربعة آلاف) فارس، واجتمعت عليه العساكر المذكورة بتلمسان. وأمر بعرض الجيوش....والتمييز....وعجب الناس من كثرة عَددهم وعُددهم، وخصالهم بالزينة .. واصطفت العساكر من باب القرمادين....وكان آخر جيش احتفل فيه المرابطون. وحسب ابن خلدون، ج٦ص٢٣١-فإنه بعد وصول الامير ابراهيم من الاندلس وتوليته العهد، ارسله والده تاشفين الى مراكش فى جماعة من لمتونة، وبعث معه ابا جعفر احمد بن عطية، كاتبا، بينما سار هو فى سنة٥٣٩هـ/١١٤٤م الى وهران.

(١٠٧)الحلل الموشية، ص١٣١.

عبد المؤمن بن علي وكثر جمعه (١٠٨).

مقتل الربرتير:

ومع مطلع سنة ٥٣٩ هـ /يونيه ١١٤٤م افتقد تاشفين سنده الأكبر فى حرب المطاولة ، وهو قائده الربرتير ، قائد فرقة الروم ومن يساندها من عسكر الحشود ، فى بعض المواقع مع الموحدين . ومما يؤسف له أن النصوص الخاصة بذلك الحدث غير واضحة ، الأمر الذى يعنى أن الأصول الأولى التى نقل عنها المتأخرون كانت معيوبة، وهذا مايظهر بشكل واضح فى نص البيدق الذى وصل إلينا ، وكذلك الأمر بالنسبة لنص ابن صاحب الصلاة الذى ينقل عنه ابن عذارى وغيره.

والذى يفهم من روايتى البيدق وابن عذارى هو أن الربرتير راح وسط دوامة النزاعات بين قبائل المرابطين ، من : مسوفة وصنهاجة وجزولة . ففى سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م كان تاشفين يواجه خروج قبائل جزولة التى غدرت بالمرابطين فى تلك الظروف الصعبة التى كان يواجهها الأمير تاشفين . فأثناء الصراع فى منطقة

(١٠٨)انظر الحلل الموشية، الدار البيضاء، ص١٣٢-ولو ان الرواية تنهى ذلك بأنه كان من أعظم ما تأيد به عبد المؤمن على المرابطين قيام أهل الاندلس عليهم لكونهم أخلوها من حماتها وأسلحتها. وهنا لابد من الاشارة الى ان تكتيك حرب المربع هذا معروف عند الطرطوشي (ت.٥٢٠هـ/١١٢٦م) فى كتابه سراج الملوك على انه من أساليب حرب الاندلس-دار صادر- بيروت -ط-بيروت،١٩٩٥-ص.٤٢٠-٤٢١-حيث النص : "وأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا، وهو أرجى تدبير نفعله فى لقاء عدونا، ان نقدم الرجالة بالدرق الكامل والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة، فيصفوا صفوفهم ويركزوا رماحهم خلف ظهورهم فى الأرض. وكل رجل منهم قد ألقم الارض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون التى تمزق سهامهم الدروع، والخيل خلف الرماة. فإذا حملت الروم على المسلمين لم تزحزح الرجالة عن هيئاتها، ولا يقم رجل منهم على قدميه، فإذا حملت الروم على المسلمين لم تزحزح الرجالة عن هيئاتها، ولا يقم رجل منهم على قدميه، فإذا قرب العدو رشقتهم الرماة بالنشّاب والرجالة بالمزاريق، وصدور الرماح تتلقاهم، فأخذوا يمنة ويسرة، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة، فتنال منهم ما شاء الله تعالى.

تلمسان ، وخلال إختلاط الأمور مابين انتقام عبد المؤمن من قبيلة كومية فى المنطقة، مما سبقت الإشارة إليه (ص ٣٠٨) ، وخروج قبائل المرابطين على لمتونة ، كان الموحدون ينقضون على من بقى من الجند إلى جانب تاشفين ، من القبائل في منطقة العيون (متاع صاه) ، ويستولون على مواشيهم ويسوقونها إلى محلتهم .

والظاهر أن عبد المؤمن أراد أن يطمئن إلى صحة توحيد جزولة ، وهى القبيلة المرابطية الكبيرة ، فأمرهم بالمسير إلى قتال الربرتير وفرقته «الأجنبية» ، فساروا إلى موضع بكيرس ، فى منطقة استراتيجية تشرف على بعض الخنادق أو الأخاديد، وتبعهم عبد المؤمن ونزل عليهم يوم خميس في موقع يشرف عليهم. وفى نهار الجمعة أصبح الربرتير وهو يسير إليهم ، وينزل على الجهة الأخرى من الأخدود الذى يعرف بآيغريت.

وعندما عرف الربرتير محلة أخوة الأمس جزولة وعرف من درايته بأحوالهم انهم مغيرون يعملون لحسابهم الخاص ، أعلن لحاشيته أنه لايستطيع أن يحدد ماذا يعملون ؛ فهم إما أن يأخذوه ليسلموه إلى عبد المؤمن أو أن يفعلوا العكس فيأخذون عبد المؤمن ليسلموه إياه.

ولكن الذى حدث هو أن الربرتير انهزم أمام الإخوة الأعداء من الجزوليين ، وتنحي بعيدا عنهم إلى بعض الطريق . ومن الواضح أن الربرتير كان يضمر استخدام الكيد للجزوليين ، فكتب إلى عبد المؤمن كتابا ينصحه فيه بقوله له :«اقتلهم قاتلهم الله ، غدروا بأخوتهم فكيف لايغدرونك» . وكان على عبد المؤمن أن يعمل بتلك النصيحة المكيافيلية ويتخلص من الأعداء من حلفائه الجدد ، المشكوك فى صحة نواياهم ، تماما كما فَعَل ابن تومرت بأهل تينملل عقب استقراره بالمدينة (ماسبق ، ص٢٤٠).

وهكذا عقد عبد المؤمن لجزولة «المجلس» (آكرو) يعظهم فيه ، فسألهم إن كانوا قد وحّدوا حقا ، وطلب إليهم أن يسوقوا إليه اسلحتهم وأولادهم .

وإزاء ترددهم رأى أن يستخدم الحيلة معهم ، إذ جعل رجال حرسه الأسود (عبيد المخزن) يستدعون الرجال لحضور مجلس الوعظ ، وعندئذ فرقوا بينهم وبين بنيهم

وأسلحتهم ، وكان ضرب الطبل الذى أصدره عبد المؤمن ، إشارة القضاء عليهم قتلاً باستثناء الصغار ، كما سيقت غنائمهم (مواشيهم)(١٠٩).

وعند وصول الخبر إلى الربرتير ، لم يظهر أسفه على قتل جزولة بأيدى الموحدين، ولكنه وبتفكيره الوصولي أسف على أن تؤول غنيمة جزولة إلى مصمودة ، وفكر فى استرجاعها إلى أهلها . ورغم ماتقوله الرواية من أن الربرتير طلب من تاشفين أن يسير معه بقواته لاستنقاذ الغنائم ، فإن تاشفين لم يشارك في المطاردة ، بل وقع عبئُها على القائد الرومى «وفرقته الأجنبية» عبر موضع العيون (إن آيت - بنو - ورنيداد) ثم موضع (تالوط آن تيفرّت) . وكان اللقاء بين الطرفين على الغنيمة نفسها ، التى عادة ماتكون فى حراسة ساقة الجيش أى مؤخرته . ومن وصف البيدق الدقيق لمعركة الغنائم هذه ، يتضح أن هزيمة الربرتير كانت ساحقة - ربما لتخلى تاشفين أو تباطئه فى المشاركة فى تلك العملية المحدودة الهدف . وهكذا «حارب الربرتير على تلك الغنيمة وعليها مات ، ولم يسلم من عسكره إلا ٦ (ستة) نفر : ٣ (ثلاثة) من الروم و ٣ (ثلاثة) من بنى وانار» - حسبما تبالغ الرواية الموحدية - من غير شك (١١٠)

مصرع تاشفين مابين تلمسان ووهران

بخضوع القبائل فى منطقة تلمسان لعبد المؤمن ، من كومية بخاصة وزناتة بعامة

---

(١٠٩)البيدق، ص٨٣-٨٤ .

(١١٠)البيدق، ص٨٤-٨٥-حيث الناجين من الروم : شوبن، وغشتُون بَطْريان، ومن بنى وانار : على بن الختوس، وبخلف بن الأسنطير، وبخلف المكَرْطر، وكان ذلك فى عام٥٣٩هـ/١١٤٤م، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هويشى)، ص١٦-حيث رواية ابن صاحب الصلاة الموحدى المخرومة، وحيث الخلط مع مقتل تاشفين (فتردى في حافة عظيمة، ووجدوا تاشفين على تلك الصورة)، ورواية ابن بجير المرابطية، وقارن ابن خلدون، العبر، ج٦ص٢٣١-حيث ..."وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم الرويرتير، فى عسكر ضخم، كما قلنا، فأغار على بنى سندم وزناتة الذين كانوا فى مصيفهم (الأصل :بصيفهم) ورجع بالغنائم فأعترضه الموحدون من عسكر عبدِ المؤمن فقتلوهم، وقتل الربرتير» .

ووقوف كل من القوات الموحدية والمرابطية أمام مدينة تلمسان نفسها منذ المحرم سنة ٥٣٩ هـ / يوليه ١١٤٤ (١١١) كانت أحوال تاشفين تزداد سوءاً مع استمرار الصراع ، وخاصة بعد افتقاده لقائده الرومي الربرتير ، فكان عليه أن يعيد تقييم الموقف ليرى أنه لاجدوي من حرب المطاولة والمطاردة ، وأنه من الأفضل أن يلجأ إلى حرب الحصار - الأقل كلفة وخطراً.

ومع أن تلمسان كانت مدينة حصينة يسهل الدفاع عنها ، إلا أن تاشفين فضل عليها مدينة وهران - على بعد ٣ (ثلاثة) مراحل إلى الغرب - وذلك لوقوعها على البحر مباشرة (عكس تلمسان الداخلية بعض الشئ) ، كما أنها تقابل مدينة المرية من شرق الأندلس ، والتى كانت تمدها بأنواع الميرة والغذاء (١١٢) . والأهم من ذلك أن المرية كانت قاعدة الأسطول المرابطي الذى كان يمكنه أن يحضر بسهولة لإنقاذ الأمير تاشفين - إذا ما تفاقمت الأحوال . وأغلب الظن أن هذه كانت الفكرة الرئيسية فى اللجوء إلى وهران : بدلا من الصراع فى ساحة تلمسان. هذا، وإلى جانب أنه كان لتاشفين على ساحل البحر بوهران قصر صغير محصن ، لابأس أن يكون قد بناه أثناء حرب تلمسان التى استغرقت عدة أشهر - احتياطا للجواز إلى الأندلس عند الضرورة (١١٣) . ولابأس أن كان ذلك مايفسر انتقال عبد المؤمن

---

(١١١) تلمسان كانت قريب هذا الوقت من عهد الادريسي تتكون من مدينتين : السفلى هى تلمسان والعليا هى تاجرارت ويفصل بينهما سور، وجبل تاجررت يعرف بالصخرتين. ومنه يتحدر واديها (نهرها) الذى يمر فى شرق المدينة، وعليه أرحاء كثيرة، وتعتبر تلمسان ثالثة مدن المغرب بعد أغمات وفاس-نزهة المشتاق، القاهرة ١٩٩٤، ج١ص٢٤٨.

(١١٢) الادريسي، ج١ص٥٢.

(١١٣) انظر الحلل الموشية، ص١٣٢-١٣٣-حيث النص على ان تاشفين كان قد بنى بمقربة من وهران على شاطئ البحر قصراً، وحصّنه واتخذه ملجأ، وأوعز لقائد اسطوله بالمرية : ابى عبد الله بن ميمون ان يجهز له ١٠ (عشرة) أجفان غزوية تكون بمرسى هذا الحصن، معدة لحادث يحدث عليه، وإن ألجأته ضرورة إلى الجواز إلى الأندلس جاز، وانظر ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣١- حيث رحيل تاشفين إلى وهران سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤م وإقامته عليها لمدة شهر «ينتظر قائد اسطوله محمدبن ميمون، إلى أن وصله من المرية بـ ١٠ (عشرة) اساطيل فأرسى قريباً من معسكره».

من جبهة تلمسان إلى وهران حيث نزل بالجبل المطل عليها ، الأمر الذى أدى إلى أن يتبعه تاشفين بمحلته إلى خارج المدينة «وكانوا يحاربون كل يوم ، ودام ذلك بينهم شهوراً كثيرة»(١١٤).

والظاهر أنه عندما آيس تاشفين من المطاردات التى طالت إلى ما يناهز الخمس سنوات ، «لم يستقر فيها ببلد ، ولا اجتمع بوالد ولا ولد» استحسن اللجوء إلى قصره المحصن بساحل وهران (١١٥) وهكذا عندما عاد أبوحفص عمر بن يحيي الهنتاتى مع الحلفاء من بنى ومانو الزناتيين ، من حملتهم فى بلاد بنى توجين ، زحفوا إلى جهة وهران ، واستقروا في الجبل المطل عليها ، الأمر الذى أثار الذعر فى معسكر تاشفين خارج الحصن ، والذى خشي الفرار من الموقع خوفا من الكمين(١١٦). وهنا لجأ الموحدون إلى الخداع ، فتوجهوا إلى عين الماء الذى يشرب منه أهل وهران أسفل الجبل ، فسقوا دوابهم ، ورجعوا دفعة واحدة صوب معسكر تاشفين حتى وصلوا إلى خبائه بازاء الحصن ، فاندفع إلى الداخل وبصحبته ابن مزدلى ، والى تلمسان ، والقائد بشير الرومى (١١٧).

وتقدم رواية ابن بجير (المرابطية) تفصيلات مؤثرة عن نهاية الأمير تاشفين. فبعد قتل عسكره فى محلته لجأ الناجون منهم إلى سور وهران تاركين ماكان بأيديهم من «النوافل» غنيمة سهلة بين أيدى الموحدين الذين رأوا أن ينتهوا فى يومهم هذا من أمر تاشفين، فاستخدموا الحطب الذى كان فى محلته في إحراق

(١١٤)الحلل الموشية، ص١٣٣.

(١١٥)الحلل الموشية، ص١٣٣.

(١١٦)ابن عذارى، الموحدون، ص١٦-حيث زحف عبد المؤمن من تلمسان، وفى مقدمته الشيخ ابو حفص عمر بن يحيى، وبنو مانو من زناته، فقصد الى بلاد بنى يلومى، وبنى عبد الواد، وبنى ورسيفن، وبنى توجين، واثخنوا فيهم حتى دخلوا فى دعوتهم، وقدم على عبد المؤمن رؤساؤهم. وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناس : شيخ بنى يلومى، فتلقاهم بالقبول، وسار بهم فى جموع الموحدين الى وهران ففتحوا لمترنة بمعسكرهم فقضوهم..... وقارن ابن خلدون ج٦ص٢٣١.

(١١٧)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٦ .

أبواب الحصن الذى ظل يشتعل حتى وقت العتمة. وحينئذ أيقن تاشفين بالهلاك فانتهز فرصة ظلام الليل ، واندفع فى صحبة ٣ (ثلاثة) من الأصحاب المقربين ، على فرسه الريحانة السريعة العدو . ونجح الأمير الفارس فعلا فى اجتياز سياج النيران . أما عن أصحابه فقد أحترقت لحية العلج (الرومى) بشير ، وكذلك عُرف فرسه وذيله ، بينما سقط صندل الفتي فى النار وصار فحمة ، وأما ثالثهم : ابن مزدلى فدخل بين الأموات حول الحصن ، ثم تسلل خفية حتى لحق بسور وهران ، مبهوت العقل ، قبل أن يموت بعد ٣ (ثلاثة) أيام (١١٨).

وسار تاشفين يتْبعه بشير الرومي مع انحدار الوادى نحو البحر حيث الأرحاء التى كانت تطحن القمح ، وعندما اعترضهم أصحاب الرحي اندفعا مسرعين فنجا بشير ، وزلقت رجل ريحانة ، فرس تاشفين ، وسقطت فى حافة عظيمة ، فاندق عنق الفرس ، ومات تاشفين صريعا فوق الصخور ، وذلك فى ليلة ٢٧ من شعبان سنة ٥٣٩ هـ / ٢٤ فبراير ١١٤٥ م . وفى الصباح عثر الموحدون على جثة الأمير تاشفين ميتا لا إصابة فيه ، فقطع رأسه وسير به إلى تينمل ، بينما صلبت جثته على باب حصنه (١١٩).

ولابأس أن كانت نهاية الأمير تاشفين الأليمة موضوع قصص حزنى مؤثر ، يختلط فيه التاريخ أحيانا بالقصص الفلكلورى (الشعبى) . من ذلك مارواه الكاتب الأشيرى عن مأساة الحريق فى الحصن الملجأ ، حيث القول : إنه لما آيس تاشفين من الحياة لما جلبه الموحدون من الحطب واشعالهم النيران من كل جانب ، فكان يأخذ ذخائره وأثوابه ويرمي بها فى النار بيده ، وودع أصحابه ، وأقتحم

(١١٨)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٦، وقارن ابن خلدون، ج٦ ص٢٣١-حيث : "لجأ تاشفين الى رابية هناك، فأحدقوا بها، واضرموا النيران حولها حتى غشيهم الليل، فخرج تاشفين من الحصن راكباً على فرسه فتردى من بعض حافات الجبل وهلك فى ٢٧رمضان٥٣٩هـ/٢٤فبراير١١٤٥م، وبعث رأسه الى تينملل.

(١١٩)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٦-١٧-حيث الاشارة الى ان من تحصنوا فى دار تاشفين التى سموها حصنا، والذين بلغ عددهم ٣٠٠(ثلاثمائة) رجل، من: حشم، وحشد، وزروم، فقد قتلوا أجمعين إلا ٧(سبعة) : منهم أبناء مزدلى، والى تلمسان، الذين وحّدوا.

الخروج على النار من بابه ..... فوجدوه صبيحة تلك الليلة ميتا لم يوجد فيه أثر طعنة ولاضربة .... (١٢٠).

ما بين الحقيقة والأسطورة:..

أما عن القصة الفلكلورية الموجودة فى البيدق ، فهي تدل علي اختلاط التاريخ بالحكايات عبر الزمن ، وكذلك بسبب سوء حفظ المخطوطات واختلاط أوراقها ، وإعادة ترتيبها بشكل غير منهجي. ويظهر ذلك فيما نحن بصدده من نهاية تاشفين، عندما يبدأ الحدث التاريخي جديا باقلاع الموحدين من تيفسرت والنزول بين الصخرتين ، بينما كان تاشفين في سطفسيف بمحلته ، «وكان بيّننا القتال في كل يوم، مدة من شهرين» ، ثم تأتى الأسطورة فجأة فى طلوع الأسد متاع تاشفين ، «فهرب إلينا بسلسلته ، وبات عندنا ، وعشاه الخليفة ، وقال للموحدين : البشارة ... فلما أصبح رجع الأسد إلى مولاه .....». وبعد هذا تأتى الإشارة إلى قصة الأسد الذى كان فى مجلس البيعة ، وماقاله الكاتب الأشيرى فى ذلك من القول.

فرح الشبل ابتهاجا بالأسد ورأى شبه أبيه فقصد (أنظر فيما سبق ، ص١ - ٢٨٠).

ومن ثم ترجع القصة التاريخية عن القتال فى تلمسان مع صنهاجة بجاية بقيادة ابن ميمون بن المنتصر ، حيث انتصر الموحدون ، وتبعوا الصنهاجيين من بين الصخرتين إلى باب المدينة ، وانتهى الأمر بتوحيد ابن ميمون ..... ووعده بأن يكون من قواد عبد المؤمن فى فتح المشرق الصنهاجى (١٢١).

هذا ، وإن كان المرابطون بقيادة كل من تاشفين وآنجمار وابن وانچى (عبد الله بن أبى بكر) وتيتيلا قد نجحوا فى هزيمة ابن زجو فى جبل ينوك عندما بعثه عبد المؤمن مدداً للموحدين ، ثم انهم اتجهوا إلى وهران . وكان على أبى حفص عمر الهنتاتى أن يتبع أثرهم فى ٨٠ (ثمانين) ساقة (فرقة) من الموحدين والزناتيين ، فينزل تاشفين مع آنجمار بوهران ، وينزل ابن انچى في جبل صلب الكلب ، بينما

(١٢٠) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٧.

(١٢١) البيدق، ص٨٦.

ينزل تيتيلا بالمدينة . أما الشيخ ابو حفص فنزل فى إثرهم على عين وهران . وفى صبيحة اليوم التالي هرب الجمار إلى الصحراء ، وابن ونچى إلى المغرب ، وتركا تاشفين وحده مع تيتيلا . وعندما أحاط أبوحفص بتاشفين وحصره ، وأطلق النار فى باب الحصن ، فخرج عند ذلك تاشفين راكبا على فرسه ريحانة ووقع فى عسكر أبى حفص ، وهو هارب يريدُ البحر ليدخل القطائع ، فبينما هو سائر إذا بحافة فتركته فرسه فى تلك الحافة ، ومات.

فلما كان الصباح وجده الموحدون ميتا فى تلك الحافة ، وتحته فرسه ، فأخذوا فرسه (فكأنها لم تمت) ، وقطعوا رأسه وبعثوا بها إلى أمير المؤمنين فصّبره ووجهه إلى تينمل بشرى لأبى يعقوب يوسف بن سليمان ، ووسنار بن عبد الله ، وابو عمران موسي بن الحسن ، ومحمد يومور.

وانتهى الأمر بمقتل تيتيلا وغيره من أصحاب تاشفين ، لم يسلم منهم إلا واحد فقط ، اسمه : سيد الملوك بن يزد عسنْيت السدراتى ، «وبه افتدت فندة بنت على وابنتها من فاس ، من عند الصحراوى» (١٢٢).

ومن ذلك رواية عبد الواحد المراكشى التى تقول : إن تاشفين خرج من تلمسان قاصدا وهران ، فحاصره الموحدون ، فلما اشتد عليه الحصار خرج راكباً فرسا شهباء ، وعليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك ... (١٢٣) . أما رواية روض القرطاس (ص ١٨٨) فتقول إنه لما اشتد الأمر علي تاشفين خرج وجمع من جنوده من وهران بالليل ليضرب فى محلة عبد المؤمن ، وكانت ليلة مظلمة ، فتردى به فرسه من شاهق الجبل ، فأصبح ميتا بساحل البحر ....

وأخيرا فهناك الرواية المتعاطفة مع الأمير المرابطي ، والتى تقول ان مصرعه كان بعد خروجه من رباط العباد الذى كان فى ربوة مطلة على البحر بظاهر وهران والذى سار إليه الأمير التعس ليتبارك - فى وقت شدته - بحضور ختمة القرآن بمناسبة

---

(١٢٢)البيدق، ص٨٨ (والصحراوي هو : يحي بن ابي بكر بن يوسف بن تاشفين).

(١٢٣)المعجب، ص٢٠٢ .

ليلة ٢٧ من شعبان المباركة ، وان الاحاطة به كانت من قبل ابى حفص عمر بن يحيى الهنتاتي ، وهو في داخل الرباط المقدس ، من حيث خرج ليلقى مصرعه في احدى حافات الجبل ، كما هو متعارف عليه في جميع الروايات (١٢٤).

فتح وهران وتلمسان :

وهران : مأساة تليق بصرع الأمير

بعد مقتل تاشفين وتبدد رجاله انتهت حرب المطاردة وبدأت حرب الحصار لتصفية جيوب المقاومة المرابطية في عواصم البلاد المغربية الرئيسية ، وكانت وهران حيث نهاية تاشفين أول تلك المواقع بطبيعة الحال . فلقد لجأ الناجون من المقربين من القيادة المرابطية إلى حصن وهران ، لكي يعانوا متاعب الحصار مدة شهرين ، وقد انقطع عنهم الماء حتى عطشوا وطلبوا الأمان من الموحدين ، فلم يجيبوهم إلى الأمان الا على حكم الأمير عبد المؤمن . وامتنع المحاصرون رغم ماكانوا يكابدونه من قلة الماء والعطش لمدة شهر ثالث ، ثم أنهم قبلوا الاستسلام بدون قيد أو شرط لكى ينجوا من الهلاك عطشا ، ولكنهم استؤصلوا بالسيف (١٢٥).

---

(١٢٤)ابن الاثير، ج١٠ص٥٨٠-الى جانب رواية الاحاطة بالحصن (القصر).

(١٢٥)ابن عذارى، الموحدون (هويشى)، ص١٧-حيث الإشارة الى رواية الكاتب الاشيرى التى ينقلها عن شاهد العيان الحسن الطراز الذى حضر الحصار بوهران، حيث كان العطش ينتهى بموت ال٣٠(ثلاثين) وال٤٠(اربعين) من النساء والرجال فى اليوم الواحد، مع النص على انه عندما سمح للناس بالخروج فانهم انطرحوا على الماء حتى مات بعضهم. والأخطرمن ذلك ان الأوامر صدرت من عبد المؤمن-"قبّحه الله"-بقتلهم، فاستؤصلوا عن آخرهم. ومثل هذا ما تشير اليه رواية ابن بجير المرابطية أيضا (نفس المرجع)، من ان معظم المحاصرين فى وهران ماتوا عطشا الى ان خرجوا على حكم البرابر الذين يسمون الموحدين، فقتلوهم أجمعين، كباراً وصغاراً، بعد ٣ أشهر(الاصل ايام) من قتل تاشفين-وذلك يوم عيد الفطر سنة٥٣٩هـ/٢٧مارس١١٤٥م (فى الاصل ٥٩٦هـ/١١٩٩م). وقارن عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص٢٠٣-حيث وفاة تاشفين سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م. وروض القرطاس، ص١٨٧-حيث "فتح عبد المؤمن وهران وتلمسان فى ٢٧ من رمضان سنة٥٣٩هـ/ في ٢ مارس سنة ١١٤٥م-نقلا عن ابن صاحب الصلاة، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣١-حيث : وتجافلُ العسكر الى وهران وانحصروا مع أهلها حتى جهدهم العطش، ونزلوا جميعا على حكم عبد المؤمن بعيد الفطر سنة ٥٣٩هـ/٥-١١٤٤م.

فتح تلمسان :

بعد مقتل تاشفين أمام ساحل وهران فى ٢٧ شعبان ٥٣٩ هـ / ٢٠ مارس ١١٤٥م جزع من كان بتلمسان من اللمتونين ، وخرجوا من المدينة ، وكذلك الأمر بالنسبة لتاجررت ، فلم يبق فيها إلا العامة والحضر والسّوقه . وأمام تخلى المرابطين عن الدفاع عن المدينة التى أصبحت مفتوحة أمام الموحدين ، خرج وفد من أعيان أهلها ، يقدر عددهم بنحو ٦٠ (ستين) رجلا للقاء السيد : أبى محمد عبد الله بن عبد المؤمن يعلنون الطاعة ويتدبرون فيه مايكون من شأن تلمسان . وفى الطريق التقى الزعيم يصلاتن الزناتي، حليف عبد المؤمن ، بذلك الوفد التلمسانى عند وادى تافنا ، فلم يتردد فى الإيقاع بهم وقتلهم عن آخرهم في التو والحين . وكان لخبر مقاتل أهل تلمسان رنين خوف وفزع عند عبد المؤمن نفسه ، «لأن يصلاتن كان تحت طاعته بجملته وجماعته» (١٢٦).

والأمر المستغرب أن سوء الظن فى عبد المؤمن تأكد عندما وصل إلى حوز تلمسان فى ٣٠ رمضان سنة ٥٣٩ هـ / ٢٢ أبريل ١١٤٥ م ، بعد ٣٣ (ثلاثة وثلاثين) يوما من مصرع تاشفين ، وذلك أنه نفذ حكم الله (الإعدام) فى التعساء من أهل ضاحية تاجررت ، وذلك فى ثانى أيام عيد الفطر (٢شوال / ٢٤ ابريل) - الأمر الذى يؤيد ماعرف عن المؤمن من الاستهانة بالدماء . وتقول رواية الأشيرى بعد ذلك ، إن الموحدين دخلوا الضاحية (تاجررت) ، «فرتبوا سورها ، وقسموا دورها» بينما فرّ يحيى بن الصحراوية الذى كان خارجها إلى فاس ، فى الوقت

---

(١٢٦)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٨-حيث النص على انهم قتلوا احمعين ولم يبق الا اثنان-فزاد خوفهم، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣١-حيث : وبلغ خبر مقتل تاشفين الى تلمسان مع فلّ لمتونة، وفيهم : ابو بكر بن ولجوط، وسير بن حاج، وعلى بن فيلو فى آخرين، ففر معهم من كان من لمتونة. وقدم عبد المؤمن فقتل من وجد بتاكررت (تاجررت) بعد ان كانوا بعثوا ٦٠(ستين) من وجوهم فلقيهم يصليتن من مشيخة بنى عبد الواد فقتلهم أجمعين.

الذي وافاهم فتح سجلماسة والقلعة وغيرهما (١٢٧).

هذا عن تاجررت الضاحية أما عن المدينة تلمسان الأصلية التي كان على ولايتها الفقيه عثمان ، والتي عرفت بحصانتها ، فتطلب الأمر نصب الأبراج عليها ، وضربها بالمجانيق، والهجوم على أسوارها بالدبابات . ومع كل ذلك صمدت المدينة ضد الحصار لمدة تقرب من العام قضى منها عبد المؤمن مدة ٧ (سبعة) أشهر قبل أن يغادر إلى فاس – بعد أن جعل مكانه على الحصار سليمان بن وانودين الهنتاتي – وذلك في ربيع الثاني سنة ٥٤٠ هـ / نوفمبر ١١٤٥ م . وإذا كانت الرواية تقرر أن الأمر انتهى بعد تلك المعاناة بضجر أهلها الذى ن ادخلوا الموحدين إليها دون علم الفقيه عثمان فإن القصبة امتنعت بمن فيها ممن خاف على نفسه (١٢٨) . والمهم أن أهل تلمسان لقوا عقوبة قاسية مثل أهل وهران ، فقتل أكثرهم ، وسبيت الذرية والحريم ، ونهبت الأموال . وفى ذلك قيل إن عدد القتلى فيها بلغ ١٠٠,٠٠٠ (مائة ألف) قتيل ، الأمر الذى استوجب ان تنتهى الرواية بالنص : «وقيل أن عبد المؤمن هو الذى حصر تلمسان» – فكأنه الخليفة السفاح (١٢٩).

(١٢٧)ابن عذارى، الموحدون (هويشى)، ص١٨، أما عن رواية ابن بجير المرابطية (نفس الصفحة)، فهى تنص ايضا على انه "لما قرب عبد المؤمن من تلمسان، خرج اليه الطلبة والأعيان والصبيان بالالواح (الاصل : والالواح والصبيان) يرغبون العفو عنهم، فجردهم الموحدون من أثوابهم (فكأنهم الهلالية من العرب فى افريقية)، وقارن ابن الاثير، ج١٠ص٥٨٠-٥٨١- حيث انه بعد (دخول وهران بالسيف) صار عبد المؤمن الى تلمسان، فدخل تاجررت وقتل أكثرهم وهرب منها يحيى بن الصحراوية، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣١-حيث : ولما وصل عبد المؤمن الى تلمسان. استباح أهل تاكررت، لما كان أكثرهم من الحشم ، وعفا عن أهل تلمسان ورحل عنها بعد ٧(سبع) اشهر من فتحها، وولى عليها سليمان بن وانودين، وقيل : يوسف بن وانودين فى رواية أخرى يقول : ثم اعتزم الرحيل الى المغرب، فترك ابراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان.

(١٢٨)ابن عذارى، الموحدون (هويشى)، ص١٨-١٩.

(١٢٩)ابن الاثير، ج١ص٥٨٢، وقارن روض القرطاس، ص١٨٨-حيث : ودخل عبد المؤمن وهران عنوة فى المحرم سنة٥٤٠هـ/يونيه١١٤٥م، وفى صفر التالى دخل تلمسان، وفرعها لمتونة الى أكدير (أجادير) : الأجزاء السفلى (السور)-فى مقابل الأحياء التى اسمها المرابطون، وتسمى تاجررت (بمعنى الحصن أو القصبة)

فتح منطقة السوس الأدنى
فاس ومكناسة وسلا وسبتة وطنجة

فاس :

كان حصار تلمسان وسقوط وهران ومن ثم هروب الزعيم المرابطى الصحراوى إلى فاس سببا مباشرا فى توجيه أنظار عبد المؤمن إلى مدينة الأدارسة والعاصمة السياسة والدينية التقليدية لبلاد المغرب الأقصى قبل ظهور مراكش التى أعطت اسمها للبلاد كما القيروان بالنسبة لافريقية التونسية.

ومن المهم الإشارة بادئ ذى بدء إلى أن الاستيلاء على فاس العاصمة الإقليمية لم يكن من الأمور السهلة ، وأنه تطلب أعمالا عسكرية جانبية مساعدة ضد البلاد المحيطة بفاس أو التابعة لها بحكم الموقع الجغرافى والتاريخ السياسى والحضارى ، مثل : مكناسة (الزيتون) القريبة فى الغرب ، وسلا على فم بورجرج (ابو الرقراق) أو طنجة وسبتة على طرفى المجاز (إلى الأندلس).

وكان من الطبيعى أن يقع على عاتق عبد المؤمن نفسه أن يقود حصار فاس بقواته الرئيسية وإن يحكمه مع الاستفادة من الظروف الطبيعية الخاصة بالمدينة التى كانت تنقسم مثل تلمسان إلى مدينتين أوحيّين (عدوتين) ، هما عدوة القرويين وعدوة الأندلس ، واللتان يفصل بينهما وادى فاس (رافد وادى سبو) ويحيط بكل منهما سور حصين.

فبعد رحيل عبد المؤمن عن تلمسان فى ربيع الأول سنة ٥٣٩ هـ / أغسطس-سبتمبر ١١٤٤م اجتمعت حوله الوفود والحشود من كل مكان ، وسار الجميع نحو مدينة فاس . ولكى يتعرف على أحوال المدينة أرسل جريدة من الخيل والرجال لاستكشاف ماكان أعده واليها يحى الصحرواى للمقاومة والدفاع . وعندما صعدت جريدة الاستكشاف إلى الجبل ليلاً ، خرج إليها عسكر من المرابطين فى نحو ١٥٠٠ (الف وخمسائة) رجل ، فما كان من جماعة الاستكشاف إلا العودة على

أعقابهم إلى عبد المؤمن فى محلته بـ «عقبة البقر» ، وقد ملأت قواته خارج المحلة في السهل والوعر.

وعندئذ بدأ عبد المؤمن بعرض عساكره الذين بلغوا ٨٠ (ثمانين) فرقة (ساقة) علي عدد القبائل ، على رؤوس كل جماعة منها بنودها الخاصة ، وجازوا وادي فاس وحدة وراء أخرى ، وذلك أمام ناظري الصحراوى قائد فاس وواليها الذي كان واقفا بجبل العرض ، يراقب جموع الموحدين وبنودهم (١٣٠).

وهكذا نزل عبد المؤمن بجموعه من «عقبة البقر» إلى جبل العرض ، حيث ارتفعت رايته المنصورة ، وحيث بدأت أعمال تمهيد الدروب الآمنة باستخدام الأشجار والألواح ، لتحرك الرجال حول المحلة دون مخاطر الطريق الوعر ، واتقاء لما قد يعدُّه العدو من الكمائن ، أو المفاجآت التى قد تعرض للعسكر من خارج فاس.

حصار مكناسة :

ومن باب الاحتياط أيضا كان على عبد المؤمن أن يرسل عسكراً استكشافيا إلى مكناسة القريبة . وكان من الطبيعى أن تكون مقاومة المرابطين قوية فى آخر ملاجئهم فى قلب المغرب الأقصى (بلاد السوس الأدنى) . وفعلا كان قد خرج من مكناسة عسكر مرابطي بقيادة القائد ولجوط اللمتونى الذى نجح فى هزيمة العسكر الموحدى . وكان هذا النصر المرابطى سببا فى تحول مكناسة إلى مركز مقاومة يعمل له الحساب . فلقد تضخمت قوات مكناسة التى كانت تحوى نحو ٣ (ثلاثة) آلاف

(١٣٠)ابن عذارى، الموحدون (هويشى)، ص١٩، ولمزيد من التفاصيل انظر البيدق، ص٨٨-٩١، حيث توحيد وجدة ومواجهة الموحدين لعدد من الثوار المحليين، مثل : تاثر آجرسيف الذى خرج اليه يصلاتن بن العز، واستقبال القائد ابو بكر يحيى بن الجبر لعبد المؤمن عند وصوله من تلمسان وتقديم وحدات من عسكره اليه بحيث أصبحت القوات الموحدية منقسمة بين الخليفة وابن الجبر الذى كان له نشاطه فى اعمال الاستكشاف الى جانب أعمال الحصار مع عبد المؤمن، قارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣١-حيث فقصد عبد المؤمن فاس سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤م، وقد تحصن بها يحيى الصحراوى من قبل تاشفين بتلمسان، ونازلهم عبد المؤمن، وبعث عسكرا لحصار مكناسة .

فارس «من الحشم والروم وغيرهم» ، وبمن انضاف إليهم من الخلق ، من : القبائل القريبة منها، وبذلك تطلب الموقف مسير عبد المؤمن بقواته الرئيسية نجده لعسكره ، بعد أن ترك على حصار فاس قائده أبا بكر يحيى بن الجبر مع جماعة من الموحدين يصحبهم الشيخ ابو ابراهيم (اسماعيل ايجيج) وغيره (١٣١).

وهكذا وصل عبد المؤمن إلى مكناسة واجتهد فى ضرب الحصار عليها (١٣٢). وفى حصار مكناسة يقتبس صاحب الحلل الموشية نصا مهما يقول فيه : ان عبد المؤمن كان قد أرسل ٦ (ستة) آلاف فارس من رقانة؟ ومكلاته وزناتة وكزناية الي محاصرة مكناسة فبنوا عليها سورا ، وحفروا أمامه حفيرا ، وكأن أهلها فى سجن لايقدرون على الخروج منها شرقا ولاغربا .. وتركوا فيه أبوابا يدخلون منها لقتال أهل البلد، وكانت الحال على ذلك عندما غادر مكناسة إلى سلا(*) وعندما أطمأن إلى السيطرة على الموقف فى المنطقة، أمرأباحفص عمر بن يحيى الهنتاتي بالعودة إلى فاس لمعاونة أبى ابراهيم (اسماعيل بن ايجيج) فى إحكام الحصار عليها.

سقوط فاس :

وتعزو رواية البيدق والتى يلخصها ابن عذارى سقوط فاس بين أيدى الموحدين إلى ماقام من النزاع بين واليها (يحيى) الصحرواى ، والمشرف على جباية المال فيها : الجياني ، بسبب حاجة الصحراوى المتزايدة إلى الأموال ، الأمر الذى دعا الجيانى (ابو محمد عبد الله بن خيار) إلى مكاتبة القائد الموحدي ابي بكر يحيى بن الجبر وترغيبه فى أن يمكنه من البلد ، حيث كانت مفاتحيها تبيت لديه. وبعد ليلة

(١٣١) بن عذارى، الموحدون (هويشى)، ص١٩ ولمزيد من التفاصيل أنظر البيدق، ص٩٠-٩١-حيث النص على ان جماعة الاستطلاع (تيطاف بالبربرية) التى ارسلها عبد المؤمن الى مكناسة تعرضت لهجوم من قبل قطعة من العسكر المرابطى بقيادة يدّرين وجلوط الذى قتل الرجال الثمانية الذى يكونون جماعة الاستكشاف الذين يعددهم البيدق، الأمر الذي أثار عبد المؤمن الذى غضب غضبا شديداً، وميّز الموحدين فى يوم جمعة وخرج الى مكناسة بعسكره من المحلة بالليل.

(١٣٢)ابن عذاري، الموحدين (هويشي)، ص ١٩ .

* الحلل الموشية ، ص ١٣٦ .

عرس انشغل بها الصحرواى عن المدينة، لم يشعر إلا ورجال الموحدين على السور فكسر قفل باب الفتوح وخرج منه (١٣٣) ، بمعنى أن فاس سقطت بين أيدى الموحدين وكأنها مدينة مفتوحة دون قتال. وعلي العكس من ذلك فإن الرواية التى يقدمها ابن أبى زرع تقرر العكس من ذلك تماما ، وهو الأمر المقبول فعلا . فحسب رواية القرطاس هذه كان سقوط فاس على يدى عبد المؤمن - الذى رجع من حصار مكناسة بصحبة ابي ابراهيم (اسماعيل ابن ايجيج) . وحينما وجد صعوبة اقتحام المدينة الحصينة بالقوة العسكرية رأى لتحقيق ذلك أن يحسن استخدام المظاهر الطبيعية في المنطقة . فبعد الحصار الشديد قطع عبد المؤمن النهر الذى كان يدخل عبر قنوات صغيرة، إلى كل بيوت المدينة ويميرها بالماء الجاري، وذلك بواسطة استخدام «الألواح والخشب والبناء حتى انحصر الماء فوقها في الوطاء ، فوصل إلى مركزه ، ثم خرقه (عبد المؤمن) فهبط الماء عليهم ، دفعة واحدة ، فهدم سورها ، وهدم من دورها مايزيد على ٢٠٠٠ (الفى) دار ، وهلك به خلق كثير» (١٣٤).

---

(١٣٣) ابن عذارى ، الموحدون (هويثى)، ص ١٩، وانظر أيضاً ص ٢٠- حيث رواية ابن صاحب الصلاة التى تقول أن الصحراوى كان تعرّس بأمرأة من قبيله فى ١٢ ذى القعدة / ٨ مايه فبعث إليه الجيانى بطعام وشراب ليشغله به تلك الليلة ، فلما كان صبيحة اليوم المذكور أدخل (الجيانى) الموحدين المدينة، وقارن البيدق، ص ٩١-٩٢ حيث التفصيلات الشاملة والمرهقة ، من أصيلة وموضوعة مما أضيف الى أخبار المهدى بن تومرت على مّر الزمن. والنموذج لذلك تفصيلات كسر قفل باب الفتوح-حيث "وقال الصحراوى لعبده خرز : افتح لنا الباب فأخذ خرز الشاطور متاع الخباء، فضرب به رزة العمود وطيّرها، وفتح الباب، وخرج الصحراوى وهبط الى سبو هاربا هو وعمر ينتان، ويحيى بن سير، وكدال بن موسى... ودخلوا آمرجو وتحصنوا فيه، ولم يدخل الصحراوى معهم، ومضى هاربا الى الأندلس.

(١٣٤)روض القرطاس، ص١٨٩، وقارن الحلل الموشية، ص١٣٦-حيث صعوبة الحصار قبل اطلاق الطوفان على المدينة وتهديم السور، ومن ثم ترميم السور، الأمر الذى أطال الحصار، وجعل الجيانى يعرض المعاونة فى فتح المدينة نظير الأمان، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣١-٢٣٢-حيث العسكر المحاصر لفاس بقيادة كل من الشيخين : ابى حفص، وابى ابراهيم من العشرة.

وهذه الرواية موجودة ضمن نصوص البيدق المتنوعة . هذا، ويفهم منها أن الفتح جاء على مرحلتين : الأولى ، وتتمثل في قطع النهر ثم إطلاق الماء المتجمع فيه دفعة واحدة فألحق بالمدينة ما ألحق من الأضرار ، ولكن بعض نصوص البيدق تقرر أن الصحرواى خرج برجاله ونجح في إصلاح ماتهدم من السور ، وأن ذلك حدث قبل مسير عبد المؤمن إلى مكناسة ، فهذه مرحلة أولي صمدت فيها المدينة للحصر . وان الفتح الحقيقى هو الذى تم بالحيلة نتيجة اختلاف صاحب المدينة الصحرواى والمشرف على جباية المال بها : الجيّانى(١٣٥).

هذا ، ولابأس أن يكون ذلك الفتح التدميرى ، متزامنا مع قضية الاختلاف بين الوالى الصحرواى وبين المشرف الجيانى على جباية الاموال ، وأوجه صرفها ، الأمر الذى أدى إلى تأمين أهل المدينة ، واستثناء من كان بها من اللمتونيين المرابطين الذين «لم يمضا لهم أمان ، وقتلهم (عبد المؤمن) قتلة كفر».

كما أمر بالسور فهدم فيه ثلمات كثيرة لمسافات طويلة ، وقال : «إنا لانحتاج إلى سور ، وإنما الأسوار سيوفنا وعددنا »(١٣٦) ، وذلك تعبيراً عن ان الدولة الموحدية الناشئة كانت فى طور البداوة ، وهى فى طريقها إلى التمدن والحضارة (١٣٧) - حسب نظرية ابن خلدون فى قيام الدول وزوالها بعد الوصول إلى ذروة الحضارة المؤذنة ببداية الفساد.

هكذا يكون الموحدون قد استولوا على فاس بالعمل العسكرى - المدنى إلى جانب العمل العسكرى الاستخبارى (الجاسوسي) بعد ٧ (سبعة) أشهر من الحصار، وقتما كان عبد المؤمن محاصراً لمكناسة ، وذلك فى ١٣ من شهر ذى القعدة من سنة ٥٤٠ هـ/ مايه ١١٤٦ ، ووصل عبد المؤمن على جناح السرعة إلى فاس ، وبعد ٤

(١٣٥)البيدق، ص٩٠-٩١ .

(١٣٦)روض القرطاس، ص١٨٩ .

(١٣٧)انظر روض القرطاس، ص١٨٩-حيث : "فلم تزل مدينة فاس لاسور لها حتى بناه حفيده المنصور ومن بعده الناصر". وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٢-حيث حصار المدينة لمدة ٧أشهر ثم داخلهم ابن الجيانى فسرّب البلد وأدخل الموحدين ليلاً .

(أربعة) أيام رحل عنها بعد أن عهد بولايتها إلى اسحاق بن جامع ، مع استمرار مشرفها عبد الله بن خيار الجيانى (على الضرائب) (١٣٨) .

خضوع سبتة :

وفى تلك الأيام الأخيرة من سنة ٥٤٠ / ٦-١١٤٥ م ، وصلت كتب أهل سبتة بالسمع والطاعة ، والدخول في التوحيد : حزب الجماعة (١٣٩) . كما «وصل إلى عبد المؤمن الزعيم المرابطى :يحيى بن اسحاق المعروف بالجمار (انكمار) في جملة من إخوانه ، وكلهم ملثمون ثم أزالوه (اللثام) بظاهر مدينة فاس ، وصاروا فى زى الموحدين (١٤٠) - الأمر الذى يعنى استكمال التوحيد شكلا في نفس الوقت . هذا ، كما كان من بين الوافدين على عبد المؤمن فى فاس من المرابطين ، الوزير عمر يينتان الذى كان قد فر من خدمة أمير المسلمين الجديد «اسحق بن على» من مراكش ، والذى كان قد حل فى ظروف مضطربة منافسا الأمير : أبى اسحق ابراهيم بن تاشفين الصبي الصغير ، رغم انه كان قد ارتد قبل دخوله فاس . وكان العفو عنه بناء على ماكان من وصية ابن تومرت على ذرية يينتان (وزير علي بن يوسف بن تاشفين) سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م - بعد المناظرة بين الامام وفقهاء، مراكش (ماسبق ، ص ١٨٤ و هـ ١٦٩).

---

(١٣٨)ابن عذارى، الموحدون، ص٢٠، وقارن البيدق، ص٩٢-حيث ترك عبد المؤمن فى فاس : محمد بن يحيى الجدميوى بدلاً من ابن الجامع. وقارن ابن خلدون ج٦ص٢٣٢-حيث فلما فتح تلمسان (ابن جامع) ارتحل الى عبد المؤمن، وهو محاصر فاس، فاعترضه فى طريقه المخصب بن عمر أمير بنى مرين ونالوا منه، فكتب عبد المؤمن الى يوسف بن وانودين عامل تلمسان ان يجهز اليهم العسكر، فبعثها فى صحبة عبد الحق بن منقاد شيخ بنى عبد الواد، فارقعوا ببنى مرين وقتل المخصب أميرهم .

(١٣٩)ابن عذارى، الموحدون (هويشى)، ص٢٠، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٢-حيث النص على انه "لما ارتحل عبد المؤمن من فاس الى مراكش فى طريقه بيعه أهل سبته، فولى عليهم : يوسف بن مخلوف من مشيخة هنتاتة.

(١٤٠)نفس المصدر السابق.

استسلام سلا :

بعد ترتيب عبد المؤمن أمور فاس ، واطمئنانه إلى حصار مكناسة ، وخضوع سبتة ، أصبح الطريق ممهداً للمسير إلى مراكش ، أول اهداف الموحدين منذ بدأ الصراع بينها وبين تينملل - مهد ابن تومرت - وكانت أولى محطات الطريق إلى مدينة مراكش هي مدينة سلا (ضاحية الرباط ، العاصمة الحالية) (١٤١).وعندما وصل عبد المؤمن بقواته إلى سلا امتنع أهلها - بسبب حصانة مدينتهم وخاصة من جهة البحر ، ولكن الظروف كانت مواتية من حيث انحسار البحر وقتئذ ، الأمر الذى مكن العساكر من أن يعبروه بأكملهم ، دفعة واحدة ، وبذلك تمكن الموحدون من الاستيلاء عليها من ساعتهم ، وقبل أن يأخذوا راحتهم وذلك فى ٧ من ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ ٢٢ مايه ١١٤٦م (١٤٢). هذا، وتفسر رواية ابن بجير المرابطية التى يوردها ابن عذراى ، بعد ذلك ، أن الذى ساعد على سهولة فتح سلا بهذا الشكل ، ماكان من الاتصلات السرية بين الموحدين وبين رجل يسمى يبورك - أغلب الظن أنه كان من حراس السور - هو وولديه : محمد وعلى . وفى ذلك تقول الرواية إن الرجل وولديه «أرسلوا إلى الموحدين فوصلوهم ليلاً ، ووضعوا السلاليم على السور ، وقتلوا الحراس ، ودخلوا المدينة ، ووجدوا فيها أناسا وهرب آخرون في حلق الوادى (فم النهر) فرجع عليهم (مدّ) البحر فغرقوا » (١٤٣).

---

(١٤١) انظر الادريسي، نزهة المشتاق، ص٢٣٨-٢٣٩-حيث تسمى سلا الحديثة (فى مقابل شالة القديمة). وهى على ضفة البحر الملح، منيعة من جانب البحر..... وهي حسنة حصينة فى ارض رمل، ولها اسواق نافقة وتجارات، ودخل وخرج....ومر ساها مكشوف، وانما ترسى المراكب بها في الوادى....وتجوز المراكب على فمه بدليل (مرشد)....وهذا الوادى يدخله المدّ والجزر فى كل يوم مرتين....فإذا كان المدّ دخلت المراكب به الى داخل الوادى، وكذلك تخرج فى وقت خروجها.

(١٤٢)ابن عذارى، الموحدون (هريتى)، ص٢٠، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٢، حيث النص على انه لما مّر عبد المؤمن على سلا، فافتتحها بعد مواقع قليلة، ونزل فيها بدار ابن عشرة.

(١٤٣) البيان المغرب، الموحدون (هويثي)، ص٢١ .

وهكذا نال أهل سلا الأمان والأمن ، وكذلك الأمر بالنسبة لحامية الرباط (القصبة)، ونزل عبد المؤمن فى دار (رئيس المدينة) ابن عشرة ، حيث أقام ٤ (أربعة) أيام ، وذلك أنه خرج فى غدوة عيد الأضحى فى ١١ ذي الحجة/ ٢٦ مايه فى طريقه إلى اخضاع مراكش العاصمة (١٤٤).

طنجة وسبتة :

لما تم فتح فاس هرب واليها يحيى الصحراوى فى قطعة من عسكره يبلغ تعدادها ٣٠٠ (ثلاثمائة)رجل، دخل بهم مدينة طنجة، وأقاموا بها حوالى ٥(خمسة) أشهر «فى أسوأ حال من الضيق والغلاء». وفى طنجة - قاعدة الأسطول - تمّ الاجتماع بين الصحرواى ورجاله وبين أمير البحر: على بن عيسى، الذى وصل إلى طنجة بالقطائع المرابطية من مرسى بادس (الجزائرى). وتم الاتفاق على أنه من الأفضل للصحراوي ورجاله أن يغادروا العدوة الافريقية إلى الأندلس ليدخل فى خدمة يحيى بن غانية - صاحب دانية وميورقة وغرب الأندلس - على أمل المرابطين فى إحياء دولتهم فى الأندلس، إن قدر لها الزوال من المغرب، وإن انتهى الأمر بغدر قائد الاسطول بالصحراوى وجماعته، وقذف بهم إلى مرسى شريش (١٤٥) - حيث كان للصحرواى نشاطه بعد ذلك فى الأندلس (وفى المغرب).

وكرد فعل على ماحدث من جانب قائد الاسطول ، سار من كان قد بقى من أصحاب الصحراوى وغيرهم من المرابطين فى المنطقة إلى (قصر) مصمودة حيث القائد ابن الجبر ، ومن هناك زحفوا على طنجة حيث تم قتل القاضى إلى جانب بعض أنصاره من أهل المدينة.

وكان لمقتل قاضى طنجة صدى حزني شديد فى مدينة سبتة - التى كانت قد

(١٤٤)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٢٠.

(١٤٥)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٢١، وقارن البيدق، ص٩٢-حيث "خاف الصحراوى الالتجاء الى حصن آمرجو مع عمر بن يينتان ويحيى بن سير، وانه مضى هاربا الى الأندلس، بينما قبض أصحابه هؤلاء وقتلوا بأستثناء ابن يينتان حسبما نهى المهدى عن قتل اولاده.

خضعت للموحدين - إذ وصل إليها «صرخ صارخ أن واليهم عزم على قتل قاضيهم: الإمام العالم ، أبو الفضل عياض - رحمه - فقتلوا واليهم الموحدى : يوسف بن مخلوف التينمللى الذى كان عينه عبد المؤمن من قبل فتح سلا (١٤٦).

الطريق (عبر تامسنا) إلى مراكش ونهاية ابو اسحق ابراهيم بن تاشفين آخر المرابطين

وهكذا ، وفى هذا الوقت الذى كان عبد المؤمن يهدّن فيه السوس الأدنى ومايتاخمه من شمال بلاد الريف البحرية ، كان قد أرسل فى نفس الوقت جيشا بقيادة أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي لغزو برغواطة فى اقليمهم تامسنا ، من حيث عاد بالمغانم الكثيرة التي قسمت على الموحدين . ومن الواضح أن غزو تامسنا كان تمهيداً لفتح مراكش العاصمة الذى كان قد آن أوانه على يدى كل من الخليفة عبد المؤمن ، وأبي حفص الهنتاتي ، و اللذين كان بينهما لقاء عاجل والناس علي ظهور الخيل (١٤٧).

فقد كان علي الهنتاتي أن يواصل المسيرة كمقدمة بالعساكر ، على عجل نحو مراكش ، يتبعه الخليفة بالقوة الرئيسية من الموحدين . والظاهر ان معنويات العسكر المرابطى كانت قد تدنت بعد ما لقيته من الهزائم المتواترة ، فى كل مكان ، إلى الحضيض . ويظهر ذلك فى الرواية التى تقول إنه عندما خرجت قوات لمتونية كبيرة الحجم لمواجهة قوات أبي حفص الهنتاتي المتقدمة :«قذف الله الرعب في قلوبهم ، وفروا لائذين بسورهم ، بعد ما قتل منهم خلق كثير».

---

(١٤٦)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٢١.

(١٤٧)انظرابن عذارى، الموحدون، ص٢١-٢٢ ، قارن البيدق، ص٩٣-فى رواية مختلفة قبل المسير نحو مراكش عن طريق دكالة التى كان يخُشى ان يعين محصولها من القمح على تمكين مراكش من مواجهة حصارها من جانب الموحدين. وفى ذلك تقول الرواية ان صنهاجة نصحت عبد المؤمن قائلة له: "بادر زرع دكالة : لا يدخل مراكش أو لا تأخذها أبداً». فكان ذلك سببا فى ان غير طريقه الى مراكش واتخذ طريق بلاد تادلا ودكالة الذين وحّدوا ودخلوا فى الطاعة.

أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين:

وليس اسحق بن على

وهنا، وقبل الدخول فى تفاصيل سقوط العاصمة مراكش، يحسن البدء بمحاولة حل مشكلة القيادة المرابطية وقتئذ، وهل كانت لأبى اسحق ابراهيم بن تاشفين أم لـ «اسحق بن على بن يوسف»، عمه الصبي الصغير. فرغم وضوح ولاية العهد لـ «أبى اسحق ابراهيم بن تاشفين» (ماسبق ، ص ٣١٢)، فإن غالبية الروايات التى تتناول سقوط مراكش، وعلى رأسها بيان ابن عذارى عن الموحدين، تجعل أميرها الصغير هو: «اسحق» بن على وليس «ابو اسحق ابراهيم» بن تاشفين. ولابأس أن تكون قد قامت معارضة علنية أو صامتة لولاية «ابى اسحق» ابراهيم، بسبب الظروف الصعبة التى كانت تمر بها الدولة المرابطية، ولكنه لاتوجد فى الواقع أصداء فى مصادرنا، لمثل هذا الحدث بين أحداث الأيام الأخيرة لمدينة مراكش المرابطية.

والحقيقة أنه إذا كانت رواية البيدق، وهى المصدر المعاصر والمعتمد بالنسبة لغيره من مصادر تلك الفترة المتأخرة بعض الشئ أو كثيراً، والتى توجد بين أيدينا فى شكل مضطرب من غير شك، تنص على أن أمير مراكش كان وقت سقوطها هو «اسحق» بن على، فإن ذلك لايعنى صحة هذا الخبر الذى لاينسجم مع خبر ولاية العهد للأمير «أبى اسحق» ابراهيم بن تاشفين، ومن ثم إمارته لمراكش العاصمة المحتضرة.

والحقيقة انه يرجع الفضل لرواية صاحب الحلل الموشية التى ترجع إلى القرن الـ ٨ هـ / ١٤ م ، فى تصحيح هذا الخطأ الذى وقع فيه المحدثون من نسّاخ كتاب البيدق ، وكذلك القسم الخاص بالموحدين من البيان المغرب لابن عذارى الذى انتهى الأمر بنشره أكثر من مرة بمعرفة هويثى ميراندا (١٤٨).

---

(١٤٨)النشرة الأولى تحت عنوان تاريخ ابن بسام بالعربية أو تاريخ لمجهول : مخطوط كل من مدريد وكوبنهاجن Amonimo de Madridy Copenhague نشرفى حوليات المعهد العام والتقنى ببلنسية ، نص عربى ، تحقيق وترجمة هـ .هويثى (ميراندا) - بلنسية ١٩١٧).

فالنسخة التى بين أيدينا من الحلل الموشية والتي تنقل عن البيدق وكذلك ابن خلدون تجعل من أبى اسحق ابراهيم بن تاشفين آخر الأمراء المرابطين فى مراكش (١٤٩) ، وبطبيعة الحال لايسعنا الا أن نأخذ بصحة تلك الروايات . أما عن تفسير تحول اسم ابراهيم في الرواية الخاطئة والدارجة - بفضل ابن عذارى ، كما نرى - فيرجع أصلاً إلى أن كنية ابراهيم ، كما هو واضح فى رواية البيدق الأصلية عند صاحب الحلل الموشية وهى «ابو اسحق» ، والخطأ بين الاسم والكنية يعتبر من الأخطاء الشائعة.

وهكذا يكون آخر امراء المرابطين ، الذى قتله الموحدون ، هو : ابو اسحق ابراهيم بن تاشفين (وليس اسحق بن على كما يرى معظم المتأخرين من الكتاب). وبناء على ذلك تكون أخبار خروج قبيلة لمطة من فحوص مراكش لحماية المدينة قد صدرت باسم الأمير أبى اسحق ابراهيم ، ولكن الموحدين تتبعوهم فادركوهم ، وقتلوهم قتلا ذريعا وغنموا لهم من الجمال عدداً كبيراً ، قدر بـ ٨٠,٠٠٠ (ثمانين الفا) حسب رواية الأشيرى التى ينقلها ابن عذارى - دون تعليق على تلك المبالغة . وهو الأمر الذى استقبله والى فاس ومشرفها : أبو محمد عبد الله الجيانى بالفرح ، وهذا ما

---

(١٤٩)انظر الحلل الموشية، ص١٣٨-حيث-:قال البيدق : وأمر عبد المؤمن بعمل السلالم للسور،...فتسمنوا الاسوار، ودخلوا البلد بالسيف، وأمتنع الأمير أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين مع المرابطين، وحمله (ص١٣٩) الاعيان بداخل القصبة المعروفة بقصر الحجر، وهو حصن حصين، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣١-حيث : "وتوالت هذه الوقائع (الهزائم) على تاشفين فاجمع الرحلة الى وهران ". "وبعث ابنه ابراهيم، ولى عهده ، الى مراكش فى جماعة من لمتونة، وبعث كاتبا معه احمد بن عطية....". وانظر أيضا ص٢٣٢ (عن حصار مراكش): "وأقاموا على مراكش ٧ أشهر، وأميرهم اسحق بن على بن يوسف (وليس ابو اسحق ابراهيم السابق) وبايعوه صبيا صغيراً، عند بلوغ خبر أبيه (؟)-والمهم هنا ان الكلمات الأخيرة تشكك فى صحة الخبر، إذ الواضح ان المقصود هو : "ابن تاشفين : ابو اسحق ابراهيم" .

عبر عنه شعرا ، في بعض رسائله الرسمية إلى عبد المؤمن (١٥٠).

وانتهت المسيرة نحو مراكش المدينة بنزول عبد المؤمن في جبل المنطقة المعروف بايجليز ، حيث ضرب قبته الحمراء ، واقيمت حولها الخيام فاضحت المحلة أشبه بالمدينة ، وخاصة بعد بناء الجامع والمنصة العالية (المنظرة) التي كان يشرف منها على عساكره ، وكذلك على الخصوم في مدينة مراكش (١٥١) . ومن هناك كان يشرف على حصار العاصمة منذ أول المحرم سنة ٥٤١ هـ / ١٣ يونيه ١١٤٦ م ، وذلك لمدة ٩ (تسعة) أشهر إلى شوال/مارس. وخلال الحصار وفدت العساكر على عبد المؤمن من قبائل المغرب ، ومن رجال الأندلس ، مثل : أبو الغمر بن عزون، الثائر بمدينة شريش (١٥٢) - الأمر الذي كان يضعف الجبهة الأندلسية من غير

---

(١٥٠)ابن عذاري، الموحدون (هويثي)، ص٢١-٢٢-حيث مطلع قصيدة والي فاس :

أضاءت لنا الأيام واتصل النجح ... وكانت وجوه الدهر مسودة كلح

وكانت اجابة عبد المؤمن على ذلك :

هو الفتح لايجلو غرائبه الشرح ... أصاب بنى التجسيم من بأسه ترح

أتتنا به البشرى على حين غفلة ... بمهلك قوم كان وعدهم القبح

وقارن البيدق، ص٩٣-حيث خرج أهل مراكش سنة٥٤١هـ/١١٤٦م لقتالهم، وان القتال استمر ٤(اربعة) أيام، و"كان يخرج الينا اسحق بن يبنتان، ومحمد بن حوا، ومحمد بن بانكالا، وهم سلا طينهم الظاهرون، وكان اسحق صاحب الولاية، وهو صبي صغير....، وخرجوا الينا في اليوم الـ٥(خامس)، وهزمناهم حتى باب الشريعة، ومات منهم خلق عظيم، فلما رأوا ذلك خمدوا في المدينة...."

(١٥١)ابن عذاري، الموحدون (هويثي)، ص٢٢، وقارن النويري، ص٤١٠-حيث نزل (عبد المؤمن بازائها (مراكش) سنة٥٤١هـ/١١٤٦م، وضرب خيامه في غربها على جبل صغير (ايجليز)، وبنى عليه مدينة له ولعسكره، وجامعا، وجعل لنفسه بناء عاليا يشرف منه على المدينة، ويرى أحوالها وأحوال المقاتلين. واقام عليها ١١(احد عشر) شهراً، والقتال مستمر، فاشتد الجوع على أهله، وقارن الحلل الموشية، ص١٣٧-حيث معسكر عبد المؤمن في جبل ايجليز الذي أصبح كالمدينة بما يحويه، من : المسجد والصومعة الطويلة، وما يدور حوله من منازل القبائل المختلفة.

(١٥٢)ابن عذاري، الموحدون (هويثي)، ص٢٢ .

شك . أما عن اللمتونيين بداخل مراكش فكان أميرهم الصبي الصغير : أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين ، وتحت إمرته عدد من كبارهم وبقية أحشادهم ، وفيهم نحو من ٥٥٠٠ (خمسة آلاف وخمسمائة) من الفرسان ، وكثرة لاتحصى من الرجالة . وإذا كانت الرواية تبالغ في أعداد المرابطين ، فإنها تبالغ أيضا عندما تقول عن الأمير الصبى : إنه كان «يأمرهم بالخروج لحرب النازلين عليهم» (١٥٣).

يوم الكمائن:

وعندما تجرأ المرابطون وزحفوا حتى اقتربوا من محلة الموحدين قرب الظهيرة في بعض أيام شهر شوال سنة ٥٤١ هـ/مارس ١١٤٦ م ، خرجت عليهم كمائن الموحدين فانهزموا في التو والحين نحو باب دكّالة يتبعهم الموحدون الذين «أخذوا من خيلهم نحو ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) فرس ، وقتلوا من فرسانهم ورجالهم العدد الكبير» - حيث رواية ابن صاحب الصلاة ، كما ينقلها ابن عذارى (١٥٤).

---

(١٥٣)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٢٢ .

(١٥٤)البيان، الموحدون، ص٢٢، وقارن الحلل الموشية، ص١٣٧-حيث وصف القتال بانه عندما زحف المرابطون نحو محلة عبد المؤمن التى صارت مدينة عامرة، كان عبد المؤمن يقيم بالمنظرة يبصر أحوالهم، فانهزم لهم الموحدون يجرونهم الى الكمائن، ولما وصلوا الى مقربة من المدينة (ايجليز) أمر (عبد المؤمن) بضرب الطبول، وخرجت الكمائن، فمات فى ذلك اليوم من أهل مراكش ما لا يحصى، واتبع السيف سائرهم الى الابواب، فقتل بعضهم بعضا بالازدحام، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٢-حيث على انه "لما طال الحصار وجهدهم الجوع (اى المرابطين)، برزوا الى مدافعة الموحدين فانهزموا وتتبعهم الموحدون بالقتل، وقتل عامة الملثمين. وقارن النويرى، ص٤١٠-٤١١-حيث النص على جلوس عبد المؤمن على المنظرة يشاهد القتال، فتقدم أصحابه ثم إنهزموا وتبعهم أهل مراكش حتى جاوزوا الكمين، ووصلوا الى مدينة عبد المؤمن، وهدموا أكثر سورها، فلما ضرب الطبل وخرج الكمين عليهم، عطف الموحدون فقتلوا الملثمين كيف شاءوا، وتمت الهزيمة فمات فى ازدحام الأبواب خلق كثير.

أحوال الحصار:

وبفشل المرابطين فى فك الحصار عن مراكش ، ومع مرور الأيام ، كانت الأحوال في داخل المدينة تزداد سوءاً ، إلى أن بلغت مأساة المدينة ذروتها بعد مرور ٩ (تسعة) أشهر ، أذ هلك المحاصرون فيها جوعا ، وضاقوا حتى «أكلوا الجيف ، وأكل أهل السجن بعضهم بعضاً» ، وعدمت الحيوانات ، وعدمت الحنطة (الطعام) تماما . وفى ذلك تقول الرواية المرابطية المنقولة عن أبى عبد الله بن أبي عبيدة كاتب الأمير ابى اسحق ابراهيم بن تاشفين ، «فعجزت عساكر اللمتونيين عن الدفاع والإمتناع ، لضعف العدد والعدة ، وكثرة الضيق» - الأمر الذى أدى إلى ان تفتح المدينة أبوابها عما قريب (١٥٥).

وهكذا كان على الأمير (أبو اسحق ابراهيم) ان ينجو فى جملته وأعوان قومه ، إلى القصبة حتى نزل على حكم الموحدين (١٥٦).

يوم الفتح:

وفى مقابل الرواية المرابطية السابقة (أعلاه) تقول نظيرتها الموحدية أنه فى اليوم الـ ١٨ (ثامن عشر) من شهر شوال ٥٤١ هـ / ٢٤ ابريل ١١٤٧ م ، أمر عبد المؤمن بالدنو من المدينة «فأحدقوا حواليها ، ورفعوا السلاليم إلى السور ، وطلعوا عليها ، فدخلوا المدينة عنوة من باب ايلان (اغمات هيلانة) ، وقتلوا جميع

(١٥٥) ابن عذارى، الموحدون، ص٢٢-حيث الاشارة الي ان سقوط مراكش كان فى يوم الـ١٨ (ثامن عشر) من الشهر العاشر للحصار، وانظر ابن خلدون، ج٦ص٢٣٢-حيث "ونجا (اسحق) فى جملته وأعيان قومه الى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين"، وقارن النويرى، ص٤١٠-٤١١-حيث تنسب رواية أخرى فضل فتح مراكش الى أحد أعيان المرابطين، وهو : عبد الله بن ابى بكر الذى عرّف عبد المؤمن بعورة البلد، وضعف من فيه، وقوى طمعه فيهم (المرابطين)، فنصب المجانيق والابراج، وفنيت الاقوات فأكلوا دوابهم، ومات من العامة فيه بالجوع ما يزيد على ١٠٠٠٠٠(مائة الف) انسان، فجاف البلد من جثثهم. هذا الى جانب الرواية التى تقول أن الفرنج اعوان المرابطين ، فى مراكش هم الذين فتحوا لعبد المؤمن باب أغمات.

(١٥٦) ابن خلدون، ج ٦ ص، ٢٣٢ .

من ادركوا من اللمتونيين «وانحصر أميرهم ابو اسحق (ابراهيم) مع بعض أشياخهم، ومنهم : سير بن الحاج ، وسير بن يينتان وغيرهما ، بداخل القصبة المعروفة بدار الحجر».

وتم انهيار المرابطين بسقوط مراكش ، في نفس ذلك اليوم ، كما نزل من كان بالقصبة مستسلمين دون قيد أو شرط:«على حكم الأمير (عبد المؤمن) والموحدين» (١٥٧) . وبعد التمييز (العرض) قتل البعض : «بحضور الأجل» ، واستحى البعض : «بإرادة الله» ، وكان من بين السالمين من القتل أولاد (الوزير) يينتان

(١٥٧)ابن عذارى، الموحدون (هويشي)، ص٢٣-٢٤. وقارن رواية البيدق الموحدية حقيقة، والتى يقتبسها ابن عذارى، حيث بعض التفصيلات الدقيقة عن طريقة اجتياح مراكش. فقد أمر عبد المؤمن بعمل السلاليم للسور، وقسمها على القبائل، فدخلت هنتاته وتينمل من جهة باب دكالة (فكانهما يمثلان الكتلة الرئيسية من الموحدين)، ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين، ودخلت هكسورة مع القبائل من جهة باب يينتان، فدخلوا البلد بالسيف، وبقى القتال على قصر الحجر من بكرة الى وقت الزوال. وقارن البيدق، ص٩٤-حيث : وبقيت المدينة لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج، واستكمل الخليفة السلاليم للاسوار، وقسمها على القبائل، فسار الناس لقتالهم، فدخلها الموحدون : فدخل هنتاته وأهل تينمل من باب دكالة....، وقارن البيدق، ص٩٦-٩٧-حيث النص على ان مراكش بقيت "لم يدخلها داخل ولم يخرج منها خارج ٣(ثلاثة) أيام، وان الموحدين امتنعوا ان يسكنوها لولا ان افتى الفقهاء بتطهيرها بتعديل قبلة مساجدها....، باستثناء جامع على بن يوسف الذى هدم. هذا، كما ارسل (عبد المؤمن) الامناء الى المدينة مع الوزير(؟) فكانوا يضمون السبى للمخزن (بيت المال) وما كان من الحلى والقش والسلاح....وابتيع النساء....، ورجع كل شئ الى المخزن. وحينئذ دخل الخليفة البلد، وقسم ارضها بالمروس للموحدين فسكنوها أشهراً، ابن عذارى، الموحدون ، ص٢٤ .

أما عن أهم اعمال البطولة المرابطية في فتح مراكش فتتمثل فيما قامت به فانوينت عمر بن يينتان أمام القصر (القصبة : دار الحجر) التي لم تستسلم الا بعد موتها (أمام عتباته) فكانت ذلك اليوم (يوم فانو) تقاتل الموحدين، وهو في هيئة رجل، وكان الموحدون يعجبون من قتالها، ومن شدة ما اعطاها الله من السجاعة، وهي بكر ... فلما ماتت حينئذ دُخل القصر» . «ولم يعرف الموحدون : هل هي أمرأة أم لا حتي ماتت».

«لأنه كان قد قال خيراً فى المهدى ، فأوصى عليه ، وعلى بنيه خيراً»(١٥٨).

أما عن الأمير أبو اسحق ابراهيم البائس ، فقد وجد مستخفيا فى كدس فحم فى إحدى غرف دار الحجر ، فسيق إلى ايجليز حيث محلة عبد المؤمن والقبة الحمراء فاشفق عليه، كما تقول الرواية الموحدية ، وحنّ لصغر سنه (١٦عاما) ، بل وهم ان يعفو عنه ، ويأمر بسجنه لولا أن بعض أشياخ الموحدين (وخاصة أبو الحسن بن واجّاج) عزموا عليه فى قتله ، فضربوا رقبته - رحمه الله تعالى (١٥٩).

---

(١٥٨)ابن عذارى، الموحدون، ص٢٣، وقارن أيضا رواية ابن صاحب الصلاة فى الحلل الموشية (ص١٤٣)-حيث قال ابن صاحب الصلاة : ولما تم لعبد المؤمن فتح مراكش، ودخلها، رجع منها الى محلته، وجعل الأمناء على أبوابها مدة شهرين "يجمعون مالها ويقسمون ديارها". وبيع عيال مراكش وأولادهم، بيع العبيد إلا زينب بنت على بن يوسف، فاحترمت عن البيع لمكان زوجها الأمير يحيى بن اسحق المسوفى، المعروف بونزمار، لكونه ترك قبيلته، ودخل دعوة عبد المؤمن، فاحترمت داره من الضرر.

(١٥٩)انظر ابن عذارى، الموحدون، ص٢٣-ولمزيد من التفاصيل أنظر البيدق، ص٩٤-حيث "فلما دخل القصر، وحملوا من السلاطين الى آيجليز، وقتل أولئك السلاطين، لم يبق منهم إلا أبو بكر بن تيزمت، "وابو اسحق (ابراهيم)"، وغلامه طلحة. وكان "ابو اسحق" يتضرع للخليفة، ويقول له : يا أمير المؤمنين، مالى من الرأى شى، فيقول له طلحة : "أصمت عنا، هل رأيت ملكا يتضرع للك مثله؟ فقال امير المؤمنين لأبى الحسن (ابن واجاج) : اترك هؤلاء الصبيان، ما الذى تعمل بهم؟ فصاح ابو الحسن، وقال فى صيحته "ويوا ويوا الموحدين، ارتد علينا عبد المؤمن، يريد ان يربى علينا فروخ السبوعة"، فقام الخليفة مغضبا واتبعه الموحدون إلا أبا الحسن والشيخ أبا حفص،....فأخذ ابو الحسن "ابا الحسن ابراهيم" وضرب عنقه ثم جذبوا طلحة ليقتلوه....فضرب بخنجره أبا الحسن وقتله. وقارن ابن عذارى، الموحدون، ص٢٤-حيث نفس رواية البيدق بأسلوب ابن عذارى مع إضافة قصة ابى بكر بن تيزمت وكيف غدر برجال عبد المؤمن ال١٢ (اثنا عشر) الذين ساروا الى داره ليتسلموا ما كان فى داره من الكنوز حسبما أوهمهم ومن ثم قتلهم، ولو انه يمكن ان تكون القصة أسطوريه، ولا بأس ان تكون مرابطية أصلاً، وقارن الحلل الموشية، ص١٣٩-حيث رفيق الأمير ابى اسحق ابراهيم الزعيم المرابطى سير بن الحاج بدلا من الخادم طلحة، وتقول الرواية ان سير تفل فى وجه الامير ابى اسحق، وقال له : "اترغب الى ابيك، أو مشفق عليك، اصبر صبر الرجال"-وقتل ابراهيم وكل من أخرج معه، وقارن رواية ابن خلدون، ج٦ص١٨٩-حيث القول بعد وفاة تاشفين بن على بن يوسف" : ثم بويع بمراكش ابنه ابراهيم وألقوه مضعفا، عاجزا، مخلع، وبويع عمه أسحق بن علي بن يوسف بن تاشفين". والذى نراه انه لما كان اسحق بن على هو الآخر ضعيفا، فإن ذلك يشكك فى مسألة خلع ابراهيم أصلاً.

وهكذا «باد آخر امراء الدولة اللمتونية إذ استبيحت مراكش ، وقتل مَنْ وجد منهم فيها لمدة ٣ (ثلاثة) أيام ». وهنا تنسب الرواية فضل العفو عمن بقي منهم إلى عبد المؤمن «الذى اشتراهم من الموحدين ، واعتقهم ومنّ عليهم وأطلقهم»، وإن «استولى على ذخائر تاشفين ، وجميع أمراء لمتونة - مما يقصر عن شرحه اللسان ، ولايتأتى عليه وصف متبين البيان» (١٦٠).

وبذلك تكون أسرة أمير المسلمين: يوسف بن تاشفين قد استؤصلت تماما مع قتل أبي اسحق ابراهيم بن تاشفين . أما عن مراكش العاصمة التى بقيت مدينة محرّمة على الموحدين لمدة ٣ (ثلاثة) أيام «لايدخلها داخل ولايخرج منها خارج» بناء على مقولة المهدى ابن تومرت فى وجوب تطهيرها - الأمر الذى يذكر بفتح مكة (المكرمة) سنة ٨ هـ / ٦٣٠ م (وتطهيرها من الأصنام) ، مع الفارق - وهو ماوجد له تأويل فى «بناء المساجد الجديدة ، وتجديد القديمة» (١٦١) . الأمر الذى كان يعنى رسم برنامج تخطيط عمرانيّ مستقبليّ للمدينة كعاصمة الموحدين العتيدة - الأمر الذى سيستغرق طوال عمر الأسرة الموحدية الجديدة - أسرة بني عبد المؤمن.

---

(١٦٠) ابن عذارى، الموحدون، ص٢٣، وقارن رواية ابن الأشيرى التالية، والمرابطية الطابع أيضا (ص٢٣) -حيث أنه تّم فى صدر محاصرة مراكش ثم فتح أغمات، وان قوات الأمير "ابو اسحق" (بدلا من اسحق) اغتروا فى انفسهم عندما خرجوا مع أهل مراكش لملاقاة الموحدين، الأمر الذى انتهى بهزيمتهم وأخذ ٨٠٠ (ثمانمائة) من خيلهم، وان أهل مراكش ذلوا لذلك، وايقنوا بالهلاك، وهو ما ادى الى فتح المدينة فى ١٧ من شوال سنة ٥٤١هـ/ ٢٣ ابريل ١١٤٧م.

(١٦١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٢٥، وقارن أيضا (نفس الصفحة) رواية ابن صاحب الصلاة التى تقول : لما فتح مراكش ودخلها عبد المؤمن، رجع الى محلته وجعل الأمناء على أبوابها مدة شهرين اثنين، فاجتمع فيها مالها، ثم قسّم ديارها على الموحدين.


A S R

الفصـــل السادس

عبد المؤمن بن على أميراً للمؤمنين من الموحدين



عبد المؤمن بن على أميراً للمؤمنين من الموحدين

وردود الفعل المباشرة لسقوط إمارة المسلمين من المرابطين

بعد الاستيلاء على مراكش العاصمة ، والتخلص من آخر أمراء أسرة بنى يوسف بن تاشفين ، أصحاب المغرب من السوس الأدني حتى وهران وتلمسان شرقاً ، وحتى بلاد السوس الأقصى غربا ، أصبحت الدولة الموحدية مجاورة عن طريق الشواطئ الساحلية لكل من الاندلس فيما وراء العدوة المغربية، خيث بقايا المرابطين ومَنْ وراءهم من أمراء الدويلات الإسبانية المسيحية ، كما أصبحت مجاورة من جهة الشرق لبلاد إفريقية الزيرية والحمادية والتى كانت تقدم ماتقدر عليه من العون لبنى عمومتها صنهاجة الصحراء الملثمين ، رغم كونها مهددة فى ذلك الوقت من قبل جيرانها الفرنج النورمنديين فى صقلية وقلورية (كلابريا فى جنوب ايطاليا).

وهكذا كان على عبد المؤمن بصفته أميرا للمؤمنين في أمبراطورية الغرب الاسلامي أن يواجه كلاً من الخطرين المتمثلين فى حرب الاسترداد النورمندية الصقلية التى كانت قد أنهت استرداد جزيرة صقلية فى أواخر القرن الخامس الهجرى / ١١ م ، وبدأت تتطلع إلى السواحل الافريقية الاسلامية حيث جعلت من بعضها محميات نورمندية ، مع مطلع القرن السادس الهجرى / ١٢ م ، فى الوقت الذى كانت تظهر فيه دولة الموحدين ، بينما كانت حرب الاسترداد الاسبانية تتمدّد جنوبا إلى إقليم جنوب الأندلس حيث أشرفت ثغورها وقلاعها على العواصم الاسلامية، كما في قرطبة فى الوسط ، وفى غربها بطليوس والأشبونة ، وفى شرقها مرسية والمرية .

وماهو أنكى وأمر فوق ذلك يتمثل فى ثالثة الأثافى ، وهي الانتفاضة الخطيرة التى انتابت بلاد السوس المصمودية ضد الدولة الموحدية ، فكأنها صحوة الموت بالنسبة لدولة المرابطين اللمتونية ، وإن ظهرت كصدى لقيام دولة الإمام المعصوم ، محمد بن تومرت : الإمام المعلوم . هذه الانتفاضة هى المعروفة فى تاريخ دولة

الموحدين الناشئة بثورة الماسي (أو الماستي).

انتفاضة الماسي :

وتعتبر حركة الماسي (أو الماستي) هذه من حيث كونها أول ثورة تواجه عبد المؤمن بعد إعلانه أميراً للمؤمنين دون منافس ، أشبه ما تكون بثورة عبد الله بن ملوية ، أحد جماعة العشرة ، ورفيق عبد المؤمن في تقويم هزيمة البحيرة سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م (ماسبق ، ص ٢٦٢) . وهكذا يكون وجه الشبه بين ثورة ٥٢٤ هـ وانتفاضة سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م بعد سقوط مراكش، ان كلا منهما كانت كرد فعل يمثل عقبة فى طريق زعامة عبد المؤمن بن على الكومى ، أولا: كزعيم لجماعة الموحدين أو كخليفة للمهدى ، وثانيا: كملك أو خليفة : مؤسس لأسرة بنى عبد المؤمن الموحدية ، وهى «الدولة المؤمنية».

والماسي صاحب الانتفاضة الأولى ضد عبد المؤمن ، هو :محمد بن عبد الله بن هود ، الذى كان قصّارا يعمل فى تبييض الملابس الجديدة أو المنسوجات (من كتانية أو قطنية بالشب أو بتراب الفرن) ، وذلك بمدينة سلا ، فى حلق وادى بورجرج (ابو الرقراق بساحل بحرسلا) . أما والده فكان دلالا فى السوق يبيع الكنانيش وهى فى الاصطلاح المغربى تعنى الكراس أو الكتيب ، وخاصة ذلك الذى كان يحوى سير الأساتذة والمعلمين ، وهو نوع من تاريخ سير الرجال من الأعلام (١) ، الأمر الذى

---

(١) انظر ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٢٦ ، وقارن روض القرطاس، ص١٦٠- حيث النص على أن والده كان دلالا للكنانيش (فهارس الرجال جمع فهرسة :الكناش حسبما هو دارج عند الكتاب، حديثا ، وإن كان الاسم يطلق أصلا علي الكتيب الذى يحوى مجموعة ملاحظات عن فضائل الأجرام السماوية، أو أعضاء الجسم الإنسانى وكيفية علاجها عند المرض، قبل ان ينتهى إلى كتيب أو كتاب يحوى : مجموعة تدرج فيها قواعد وفوائد-للاستخدام الشخصى-انظر ملحق القواميس العربية لدوزى، ج٢ص٤٩٤)، وانظر الحلل الموشية، ص١٤٦ ،وانظر ابن خلدون، ج٦ص٢٣٢-عن ثورة الماسي حيث النص على أن الرجل (الماسي) كان من ناحية السوس، وانه "ثائر من سوقة سلا، يعرف بمحمد بن عبد الله بن هود، ويلقب بالهادى. وأنه ظهر فى رباط ماسة، فاقبل إليه الشراد من كل جانب، وانصرفت إليه وجوه=

يعني أن الرجل - الذى يصفه البيدق بالخياط - لم يكن سوقيا عاميا ، بل كان على دراية بالثقافة الاسلامية ، أول موضوعات العلم فى ذلك الحين.

أما عن لقب الماسى فيرجع إلى انتسابه إلى رباط ماسة (ماست) في أقصي بلاد السوس الأقصي ، وهو أصلا رباط عبد الله بن ياسين الذى نشأت فى أحضانه الدعوة المرابطية (٢) ، كما نرى . وهكذا يكون محمد بن عبد الله قد استقر فى رباط ماسة فى غرة شعبان سنة ٥٤١ هـ/ ٦مارس ١١٤٧ م ، فى تلك الفترة المضطربة من نهاية حرب المطاولة المرابطية الموحدية (٣) ومع مرور الوقت حمل لقب الماسي (أو الماستي البربرية) نسبة إلى الرباط الشهير (٤).

ومع أن مؤرخى حركة الماسي ضد عبد المؤمن بن على لم يبينوا طبيعة دعوته الدينية أو السياسية ، فإن الواضح من اسمه : محمد بن عبد الله (الذى ربما كان أصلا عمر بن الخياط) (٥) ، ومن لقب الهادى ، أن الرجل كان يصل حركته بدعوة ابن تومرت فكأنها دعوة موحدية أصولية ، مبنية على مبدأ الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم مع تعديل فى وصف المهدى إلى الهادى ، وهو الأمر الذى يعطى للدعوة الجديدة شكلاً ايجابيا فعالاً من حيث يكون الإمام الجديد هو الذى يدعو

= الأغمار من أهل الآفاق وقارن البيدق، ص٩٧-حيث النص على أن اسم الثائر هو عمر بن الخياط، الذى كان يلقب باسم بربرى "بيويكندى" تماما كما كان والد محمد بن تومرت : عبد الله يعرف أيضا بالاسم البربرى "تومرت يعنى محبوب" .

(٢)انظر ج٤ص١٨٧.

(٣)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٢٦، وقارن روض القرطاس، ص١٩٠-حيث الاستقرار فى الرباط سنة ٥٤٢هـ/١١٤٨م.

(٤)هذا هو الشكل الدارج لاسم الثائر ابن هود عند الكتاب العرب، على أساس أن التاء المربوطة "ة" تنطق فى شكل هاء، فيصبح الاسم اللقب هو "الماسى"، أما الماستى فكما يستخدمها هويثى، تاريخ الامبراطورية الموحدية، ج١ص١٤٧-حيث كتابة الاسم بالحروف اللاتينية فى شكل El-massati ، على أساس أن التاء فى الاسم البربرى تاء مفتوحه (ت)، وليست مربوطة كما تكتب فى العربية : رباط ماسة.

(٥)البيدق، ص٩٧.

إلى الهدى والصواب ، والمعروف تاريخيا أن ظهور لقب الهادى كان على عهد آل البيت من العباسيين ، وكان الخليفة الهادى (الابن) هو الذى ورث خلافة المهدى (الأب) - وربما كان الفارق بين الهداية والمهدية معادلا للفارق بين عاملى الإيجاب فى المعنى مقابل السلب.

بدأ ابن هود الماسى قائدا مشاركا لعبد المؤمن من قواد الموحدين ، فى حصار مراكش سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م ، ثم إنه لم يلبث أن خرج عليه بعد سقوط المدينة ونهاية الأسرة اليوسفية التشفينية ، فكأنه ارتد عن التوحيد ، تماما كما فعل ابن ملوية أو (ملويات) عقب بيعة عبد المؤمن كخليفة للمهدى ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ (ماسبق ، ص ٢٨٥). وأغلب الظن أن الرجل لم يكن له أفكار مذهبية جديدة ، بل أنه اكتفي بالتمسك بالأصولية الموحدية ، متهما عبد المؤمن بالارتداد عن الدعوة المهدية التومرتية، كما فعل أبو الحسن بن وجاج عندما قتل الأمير الصبى أبا اسحق ابراهيم بن تاشفين ، وهو يتهم عبد المؤمن بالردة عندما فكر فى العفو عن الامير المرابطى الصغير ، والاكتفاء بسجنه بدلا من القتل (ماسبق ، ص٣٤٠ و هـ ١٥٩).

ولابأس فى أن يكون اتخاذ الماسى للقب الهادى بدلا من المهدى تعبيرا عن الايجابية والفاعلية فى العمل بالهداية على عكس مايمكن ان يكون من سلبية فى المهدية والعصمة فهذا مايفسر نجاح الماسى فى نشر دعوته الهادية ضد الموحدية المهدية ، وكذلك الأمر بالنسبة لدخول الكثير من قبائل بلاد السوس فى الدعوة الهادية المضادة ، فكأنها حركة ردة جديدة ، كتلك التي عرفتها الجماعة الاسلامية بعد وفاة النبى - فكأن الماسىَّ مسيلمة الجديد.

وهنا لابأس ان تكون قبائل السوس قد ناءت تحت وطأة النظام الموحدى الشديد ، سواء فيما يتعلق بالواجبات الدينية ، من : عملية ملموسة أو روحية مجردة .

وفى نجاح دعوة الماسى يقول ابن عذارى إنه عندما استقر فى رباط ماسة وبدأ دعوته ، «أقبل الناس المغترون به من كل مكان وقبيل إليه» ، وأنهم «اجتمعوا

بشقاوتهم عليه اجتماعا طار له الذكر في الآفاق ، وتحدثت به الرفاق ، وكثروا عنده، واستندوا له ، فقامت بدعوته جموع لا تحصي ، أبادهم سيف الحق ، وسبق لهم الحتف بغاية السبق» . وهو يضيف قائلا : «وأتته دعوته الكاذبة الغارة فى جميع العدوة حتى لم يبق منها الا مراكش وفاس ، وارتدت سائر البلاد » (٦) .

واذا كان ابن عذارى يحدد تاريخ الصراع ضد الماسى بالأشهر الأخيرة من سنة ٥٤١ هـ / مارس-مايه ١١٤٧ م، بينما يضعها ابن أبى زرع في شهور سنة ٥٤٢ هـ / فبراير-ابريل ١١٤٨م فالراجح ان الصراع الكبير الذى شغل قبائل السوس (الاقصى) وتامسنا وغيرها من حاحة الذين ارتدوا بعد توحيدهم، ورجراجة وهزميرة وهسكورة الوطاء (السهل)، مع دكالة مع بني ورياغل(٧) كان من الطبيعى ان يستغرق كل سنة ٥٤١ هـ / ٧-١١٤٦م، وبالتالى معظم سنة ٥٤٢ هـ ٨/-١١٤٧م.

ولما كان مهد الثورة هى العدوة الافريقية فى منطقة سلا ، كان من الطبيعى أن تشمل الثورة أهل سبتة ، وأهل طنجة ، بل وتتعداها إلى المرية فى أدنى الشرق من بلاد الأندلس (٨) . وتطلب الأمر إرسال ٣ (ثلاث) حملات للقضاء على الثوار : أولاها قام بها ضد «عدو الله» أبو زكريا بن يجيت المعروف بالجمار ، الذى سار إلى معقل «الشقى: الدعى الماسى» فى رباط ماسة ، ولكنه لقى منه هزيمة قاسية ، «ورجع إلى الخليفة خاسرا» (٩).

(٦)ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٢٦، وقارن روض القرطاس، ص١٩٠-حيث و "غلب على بلاد تامسنا (مهد برغواطة المتهمين بانحراف العقيدة)، وأكثر بلاد المصامدة، وانه "بايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن إلا مراكش"، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٢-حيث : "وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة، وقبائل دكالة، ورجراجة (فى الاصل : ركراكة)، وقبائل تامسنا وهوارة. وفشت ضلالته فى جميع المغرب» .

(٧)ابن عذارى، ص٢٦، وقارن البيدق، ص٩٧ .

(٨)انظر البيدق، ص٩٧ .

(٩)البيدق، ص٩٧، ابن عذارى، الموحدون، ص٩٧، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٢-حيث : وفشت ضلالته فى جميع المغرب فسيّر إليه عبد المؤمن عسكرا من الموحدين لنظر يحيى انكمار (الجمار) اللمتونى، النازع إليه من إيالة تاشفين بن على، ولقى هذا الثائر الماسى، ورجع مهزوما الى عبد المؤمن .

وهكذا كان على عبد المؤمن أن يوجه إلى المرتدين «سيف الله المسلول» : الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي الذي خرج يشيّعه عبد المؤمن في أول ذي القعدة سنة ٥٤٢ هـ/ ٢٣ مارس ١١٤٨ م حتى تنسيفت. وحسب رواية البيدق التفصيلية، خرج الشيخ أبو حفص بالعسكر ومشى إلى هزميرة وهزمهم وبدد شملهم ، ومضى إلى جزولة حيث هزم الماسي ، وقتله وساقه على بغل ، حيث صلب على باب الشريعة في مراكش العاصمة (١٠).

وبعد القضاء على الثائر تطلب الأمر أن يقوم الشيخ أبو حفص بحملة أخرى يقضي فيها على بقايا الثوار من هسكورة في موطنهم بـ «آمان ملولتين» حيث هزمهم «وساق غنائمهم ، وبناتهم، فيهن توندوت، فلم يبعن» (١١).

أما عن تفصيلات القتال ، فيقرر بشأنها ابن عذارى ، أنه خرج أشياخ الموحدين مصاحبين لأبي حفص ، مع طائفة من الروم (مسيحيو الأندلس - لأول مرة) ، والرماة ، وغيرهم من الأجناد ، الذين كانوا «استعدوا غاية الاستعداد » (١٢).

والذي يفهم من رواية القرطاس أن حروبا شديدة وقعت بين الطرفين خارج تامسنا (بلد برغواطة) ، وإن حدّد ابن عذارى أن الحملة النهائية كانت موجهة إلى الثائر في عقر داره في رباط ماسة ، حيث كانت نهايته في ١٦ من ذي الحجة من سنة ٥٤١ هـ / ٢٠ مايه ١١٤٧ م. ومن الواضح أن كثرة الفرسان هي التي قررت مصير

---

(١٠)اخبار المهدي بن تومرت، ص٩٧- حيث الثائر الذي يعرف عنده باسم عمر الخياط، على أساس أن والده القصّاركان اصلا خياطا، وقارن روض القرطاس، ص١٩٠-حيث التاريخ الدقيق، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٢-حيث فسّرح (عبد المؤمن) الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وأشياخ الموحدين، فاحتفل في الاستعداد ، فنهضوا لرابطة ماسة، وبرز اليهم الثائر في نحو ٦٠٠٠٠ (ستين ألفا) من الرجال، ٧٠٠(سبعمائة) فارس فهزمهم الموحدون، وقتل داعيتهم في المعركة مع كثرة اتباعه، في ذي الحجة سنة٥٤١هـ/٤مايو ١١٤٧م .

(١١)البيدق، ٩٨ .

(١٢)ابن عذاري، الموحدون، ص٢٦، وقارن روض القرطاس، ص١٩٠-حيث صحبهم عبد المؤمن حتى تنسيفت ثم وادعهم ودعالهم.

المعركة فى صالح الموحدين (١٣). وهنا تنص رواية روض القرطاس علي أن مقتل الداعى كان بيدى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتى الذى أعطى لقب «سيف الله» المسلول - فكأنه يعيد سيرة خالد بن الوليد.

ومن المهم الاشارة هنا إلى أن الحملة ضد الداعى الماسى كانت تحوى بين رجالها الكاتب الجليل ووزير عبد المؤمن الخطير : أبو جعفر بن عطية ، كاتب الأمير أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين ، والذى كان مستخفيا بين فريق الرماة (١٤) .

حرب المرتدين من برغواطة فى تامسنا:

رغم مقتل الدعى الماسى (الهادى) فى أواخر سنة ٥٤١ هـ / مارس ١١٤٧ م فإن توابع ثورته ظلت باقية فى كل بلاد المغرب الأمر الذى يجعل مقالة :«أن الثائر استولي على كل بلاد المغرب حتى لم يبق تحت إمرة عبد المؤمن من البلاد سوى مراكش وفاس» - مماسبقت الاشارة اليه - أمراً مقبولاً . ويظهر ذلك في المعلومات التفصيلية والمرهقة التى يجمعها البيدق عن ردود الفعل الواسعة لتلك الثورة فى

(١٣)انظر ابن عذارى، الموحدون، ص٢٦-حيث النص على أن الجيش الموجَّه الى رباط ماسة كان يتكون من ٦,٠٠٠ (ستة آلاف) فارس، و٦,٠٠٠ (ستة آلاف) من الرجالة، بينما كانت جموع الثائر تحوى ٧٠٠ فارس فقط الى جانب ٦٠,٠٠٠ (ستين الفا) من الرجالة، كما عند ابن خلدون فى الهامش أعلاه فكأنّه اخذ عن ابن عذارى .

(١٤)ابن عذارى، الموحدون، ص٢٦-حيث اسم الامير المرابطى : اسحق بن على فاقتضى الأمر التنويه، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٢-٢٣٣-حيث وكتب الشيخ ابو حفص بالفتح لعبد المؤمن من إنشاء أبى حفص بن عطية الشهير الذكر، كان أبوه أحمد كاتبا لعلى بن يوسف بن تاشفين، وابنه تاشفين وتحصل فى قبضة الموحدين فعفا عنه عبد المؤمن ولما نزل على فأس اعتزم ابو حفص هذا الفرار، فقبض عليه فى طريقه، واعتذر فلم يقبل عذره، وقتل . وكان ابنه احمد كاتبا "لاسحق بن على" بمراكش فشمله عفو السلطان فيمن عمله من ذلك الفلّ، وخرج فى حملة الشيخ أبى حفص فى وجهته هذه.

وطلبه للكتاب فى ذلك فأجابه، واستحسن كتابه عبد المؤمن لما وقف عليه، فاستكتبه أولا ثم ارتفع عنده مكانةً فاستوزره، وبعد فى الدولة صيتُه ، وقاد العساكر وجمع الأموال وبذلها، ونال الرُتبة، ونكبه الخليفة سنة٥٥٣هـ/١١٥٨م، وقتله بمحبسه حسبما هو مشهور.

أقاليم المغرب المختلفة ، وسكانها من القبائل المتنوعة فى طول البلاد وعرضها .
والذى يثير الانتباه هنا هو أن البيدق لايعرف ثورة «ابن هود» الماسى بهذا الاسم ، بل يعطيها اسما آخر هو : ثورة عمر بن الخياط - على خلاف بقية الكتاب ، وإن كان لقب ابن الخياط يتفق إلى حد ما مع وصفه بأنه كان قصاراً ، يقصر الثياب أى يبيضها قبل خياطتها ، حسبما كانت تقضى أصول الصنعة - مما سبقت الإشارة إليه (ص ٣٤٦).

فلقد تطلب الأمر مسير الشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى إلى برغواطة ، ولكنه عندما التقى معهم هزموه (١٥) ، وأخذوا كل ماكان فى محلته حتى أنه هبط إلى تادلا بعد أن ترك بعض أولاده وحريمه بين أيدى الثوار (انظر مايأتى ، ص ٣٥٧). وهناك جدد عسكره ومشى إلى مكناسة ، وضرب عليها الحصار . وفى ذلك الوقت من أوائل سنة ٥٤٢ هـ / يونية ١١٤٧ عاد الصحرواى بعد أن هرب من الأندلس إلى العدوة ، حيث راسله أهل سبتة فوفد عليهم ، وتولى أمرهم (١٦).

وتبع على بن عيسى صاحب أسطول الأندلس ، والذى كان قد وحّد ، يحيى ابن ابى بكر الصحرواى ، وانتهت المطاردة بمحاصرة سبتة بالقطائع . ورأى قائد

(١٥) البيدق، ص٩٨، وقارن ابن خلدون، الذى يلخص رواية البيدق واحيانا يضيف إليها، انه كما نرى (ج٦ص٢٣٣) حيث النص على ان هزيمة ابى حفص أمام برغواطة تعتبر الغزوة الثالثة إذ تسبقها غزوتان أولاهما الى جبال درن حيث الايقاع بنفيس وهيلانه ودخولهما فى الطاعة، والثانية كانت الى هسكورة حيث اوقع بهم وافتتح معاقلهم وحصونهم ومن ثم النهوض الى سجلماسة التى تم الاستيلاء عليها. أما هزيمة برغواطة فكانت نتيجتها ان "اضطرمت نار الفتنة بالمغرب" .

(١٦) البيدق، ص٩٨-٩٩، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٣-حيث مزيد من المعلومات عن انتقاض أهل سبتة الذين أخرجوا يوسف ابن مخلوف التينمللى (واليهم)، وقتلوه ومن كان معه من الموحدين. هذا الى اضافه "واجاز القاضى عياض البحر الى يحيى بن غانية المسوفى الوالى بالاندلس، فلقيه وطلب منه واليا الى سبتة، فبعث معه يحيى ابن ابى بكر الصحراوى الذى كان بفاس منذ منازله عبد المؤمن لها. وذكر انه (الصحراوى) لحق بطنجة، فاجاز البحر الى الاندلس، ولحق بابن غانيه بقرطبة وصار فى جملته. وبعثه ابن غانية الى سبتة مع القاضى عياض، كما ذكرنا .

الأسطول أن يستخدم الحيلة فى تهدين سبتة عن طريق امتناع الأمير المرابطى بالدخول فى طاعة الموحدين ، كما فعل هو نفسه ، وعهد بان يحمله إلى الخليفة عبد المؤمن . وكانت فرصة انتهزها الصحراوى للثأر من قائد الأسطول الإنتهازى . فعندما هبط على بن عيسى من الغراب الذى كان فيه للقاء يحيى الصحرواى ورأى ملامح الغدر فى وجه هذا الأخير ، حاول العودة إلى مركز قيادته فى الغراب الذى كان فيه ، ولكن الصحراوى ، الفارس العتيد ، «رمى عليه حصانه فضربه بالنصل بين كتفيه حتى نفذه . وقام غلام الصحراوى وأخذ أمير البحر القتيل وجرّه إلى داخل سبتة ، فصلبه الصحراوى فى برج المدينة» (١٧).

وكانت فرصة انتهزها الصحراوى للاستيلاء على منطقة المجاز ، فكأنه يعمل على سد الطريق أمام الموحدين إلى الأندلس ، فخرج من سبتة إلى طنجة التى عهد بها إلى يحيي بن تعيشت ، ثم إنه رجع إلى سلا حيث كان والد الماسى (الخياط) . ولما رأى الصحراوى ان أهل سلا على غير وفاق مع والد الماسى ، أخذه بسهولة وضرب عنقه ، ورماه فى البحر ، كما ألزم قبيلة فنزارة التى كانت فى طاعة الثائر بدفع الخراج (الفئ).

ومن سلا خرج يحيى الصحراوي يريد برغواطة الذين كانوا قد استجابوا إلى الثائر الماسى ، فأحسنوا استقباله وزادوا فى إكرامه . وانتهى الأمر بالتحالف بين الطرفين ، وتقرر الخروج إلى بلد دكالة ، حيث اجتمع البراغواطيون على الصحراوى ، ومعهم أهل دكّالة ، واتخذوه أميراً لهم . وهكذا أصبحت دكّالة مركزاً لحركة إحياء مرابطية يقودها الصحراوي . وهناك جاءته قبائل رجراجة ، وحاحة «واجتمعوا حوله» (١٨).

وهنا ، وعندما سمع عبد المؤمن (الخليفة) بما يحدث فى دكالة بعث إليهم القائد

(١٧)البيدق، ص٩٨-٩٩ .

(١٨)البيدق، ص٩٩، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٣-حيث "وقام (الصحراوى) بأمرها بسبته، ووصل يده بالقبائل الكائنة بطاعة الموحدين، من : برغواطة ودكالة على حين هزيمتهم للموحدين، كما ذكرنا ولحق بهم من مكانه بسبتة .

المحنك يصلاسن - على طريق تادلا ، تالماغت - إلى سلا ، فدخلها بالسيف . ومن ثم خرج منها بعد أن ترك على ولايتها : موسى بن زيرى الهنتاتى . ومشى يصلاسن إلى بنى وِرياغل حيث هزم رئيسهم أبا الحسن (الورياغلى) وساق غنائمهم إلى أبى حفص الهنتاتي بمكناسة فوزعها على الموحدين.

ومن سلا سار إلى الهبط ثم إلى طنجة التى دخلها بالسيف (١٩). ومن هناك سار إللى سبتة ، وضرب عليها الحصار ، ولكنه لم يتمكن من أخذها فرجع عنها . والظاهر أن ذلك حدث بعد أن تم الاتفاق على دخول ابن عياض فقيه سبتة ورئيسها فى طاعة الموحدين ، وكذلك توحيد أهل المدينة. ويصحّ هذا الفرض بعدما نزل سبتة عبد الله بن سليمان مع حفّاظه من شباب الطلبة ، بأمر عبد المؤمن . هذا ، كما رجع يصلاسن إلى مكناسة.

وبعد تهدين برغواطة فى تامسنا وإقرار الأمور فى السوس الأدنى (فاس ومكناسة) والعدوة (سبتة وطنجة) ، رجع يصلاسن إلى مكناسة ، وكانت مسيرة الجميع وعلى رأسهم الخليفة عبد المؤمن والشيخ الكبير أبو حفص عمر الهنتاتى إلى العاصمة مراكش *.

واذا كانت الرواية تنص على أن عبد المؤمن أرسل من مراكش الرسائل والكتب إلى كل البلاد ، الأمر الذى يعنى أنه كان يخبر الموحدين والطلبة والحفاظ والأعيان من أهل البلاد بما تحقق من النصر علي الخوارج المرتدين ، من : الماسى وحلفائه البرغواطيين (٢٠) ، بمعنى إعلان تهدين البلاد وسيادة الأمن والاستقرار فإن الأمر

(١٩) البيدق ، ص ٩٩ .

*(البيدق ، ص٩٩ - ١٠٠).

(٢٠)انظر مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة الموحدية، اصدار ا. ليفى بروفنسال، رباط الفتح، سنة١٩٤١ ص١-الرسالة الأولى، من إنشاء الكاتب إبى جعفر أحمد بن عطية، من أمير المؤمنين (عبد المؤمن) إلى الطلبة الذين بسبته-حيث الرسالة الصادرة من جضرة مراكش تنص على العودة المظفرة. "بعد، كمال الغزوة المباركة وتمامها، وإطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامها، والصاق أنوفَ الكفرة المرتدين برغامها .... فطوبى ثم طوبى لمن حضر فى سبيل الله فاحضر....فهى الفتوح التى ظهر بها من آيات المهدى-رضه-العجب العجاب"=

لم يكن كذلك . وذلك ان الردود على ماأرسل من الكتب والرسائل إلى مختلف الآفاق لم تكن إلا وفود العساكر مع قوادهم من كل فج وحدب . فكأن الأمر كان يعنى التخطيط لحملة عامة كبرى هدفها القضاء على شأفة الثوار والخصوم والمنحرفين عن الدعوة ، في كل ربوع الدولة المؤمنية وبشكل نهائي.

الحشد الكبير وعملية التهدين الشاملة:

هكذا وصلت العساكر تترى من كل مكان:

- فمن الشرق جاء يوسف بن واتودين بالعسكر من الرجال وسلاطينهم من كبار القواد ، ووصل إلى فاس حيث ألم به المرض الذى أدّىَ إلى وفاته ، وهو فى الطريق إلى القلعة (قلعة مهدى بن توالا) ، وحل محله فى القيادة تاشفين بن ماجوج ....،
- ومن الغرب جاء العسكر تحت قيادة : عبد الله بن خيار الجيانى،
- وكان يقود عسكر زناتة : عبد الله بن شريف .... من سلاطين زازة ،
- وكان يقود عسكر غمارة : عبد الله بن سليمان ،
- وكانت قيادة عسكر صنهاجة لكل من : أبى بكر (يحيى) من الجبر ، وأبى يّدربن مصال ،
- أما عسكر جراوة فكان قائده : عبد الله بن داود ، كما كان حافظهم : عمر بن ميمون.

وهكذا اجتمعت عساكر البلاد من الشرق والغرب ، ومن كل القبائل من مختلف العروق ، تحت قيادة الخليفة عبد المؤمن بن على الذي سار بهم من مراكش قاصدا بلاد دكالة حيث اعتصم عدوه اللدود ، من بقايا امراء المرابطين ، وهو :يحيي الصحراوى الذي كان ينزل فى منطقة آبْقرْوّل ، حيث تم اللقاء بين الموحدين وبقايا

= مع الدعوة إلى التوبة، والتزود بالتقوى والمواظبة على تغيير المنكر.

وقارن الدراسة الدبلوماسية والتحليل والتعليق (مكتبة لاروز، ١٩٤٢، ص٢١ حيث تاريخ الرسالة سنة ٥٤٢هـ/٨-١١٤٧م، واقتراح أن موضوعها يحيى الصحراوى، وأهل سبتة وقاضيهم عياض الذى حرضهم على الموحدين.

المرابطين وأعوانهم من الانتهازيين . وبطبيعة الحال لم تكن قبائل دكالة تستطيع أن تواجه الجيوش الموحدية الضخمة حتى لو كانت دكالة بقيادة يحيى الصحراوى الفارس المرموق . فلقد فرّ زعماء دكالة مع الصحراوى إلى بلاد السوس(٢١).

وهنا تأتى رواية الحلل الموشية (٢٢) لتضيف معلومات تفصيلية طريفة عن تهدين دكالة بمعرفة عبد المؤمن . فلقد انحازت قوات دكالة إلى منطقة ساحل السوس في نحو ٢٠,٠٠٠ (عشرين ألف) فارس و ٢٠٠,٠٠٠ (مائتى الف) راجل . وسار إليهم عبد المؤمن بقواته التي توصف بحق بأنها أمم لاتحصى من الخيل والرجالة والرماة . وهنا توجد إشارة يفهم منها أن المبادرة لم تكن تأتى من جانب زعماء دكالة ، بل من الزعيم المرابطى يحيى الصحراوى : «فقد كان أهل دكالة لارأى عندهم».

والمهم أن عبد المؤمن - الذى يظهر بمظهر القائد العسكري الممارس - التف حول الدكاليين «بجيشه من ناحية أخرى غير الناحية التى اعتقدوها ، فانحل نظامهم وفَل جمعهم». وهكذا اضطروا إلى اللجوء إلى سيف البحر «فقتل أكثرهم فى الماء» - نتيجة لمد البحر المحيط ، على مايرى . وكانت كارثة بالنسبة لأهل دكالة ، إذ أخذت إبلهم وغنمهم وأموالهم وسبى أولادهم ، وانتهى البيع فيهم إلى بيع المرأة بدرهم ، والغلام بنصف درهم (٢٣) ، الأمر الذى زاد من عظم الكارثة.

والمهم أن عبد المؤمن - وهو يحطم مقاومة دكّالة - كان يرسل القائد يصلاسن فى إثر يحيى الصحراوى الذى فر ، مع من تبقى من حلفائه - نحو أرض قبيلة رجراجة . ونجح يصلاسن فى تبديد شمل رجراجة الذين دخلوا غصبا فى التوحيد،

---

(٢١) البيدق، ص١٠١، وقارن ابن خلدون، ج٦-ص٢٣٣-حيث : "وخرج إليهم عبد المؤمن بن على سنة ٥٤٢ هـ /٨-١١٤٧ م فدوّخ بلادهم، واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة، وتبرّموا من يحيى الصحراوى ولمتونة، ورجع إلى مراكش لـ٦(ستة) أشهر من خروجه .

(٢٢) الحلل الموشية فى الاخبار المراكشية، ص١٤٧ .

(٢٣) الحلل الموشية، ص١٤٧ .

بينما مضى ابن الصحراوية هاربا إلى فيا فى بحار الرمل بالصحراء (٢٤) .

وهكذا كان عبد المؤمن يستطيع أن يقضى على كل عناصر المقاومة والمعارضة للموحدين ، فى بداية عهده . وبذلك خضعت برغواطة فى بلادها ، وخرجت بعثات المشرفين من جامعى الضرائب إلى تامسنا ، ومنهم : أبوسعيد يخلف ، وعبد الله ابن فاطمة ، «فمضوا حتى ساقوا مروتهم (مروءتهم : صدقاتهم) وزكاتهم». كما عادوا من تامسنا أيضا بما كان البرغواطيون قد أخذوه من أبى حفص - في حملته الخاسرة هناك (ماسبق ، ص٣٥٢) من : «السلاح والأخبية (كما) ساقوا ولده وجاريته» (٢٥). هذا كما قضى الموحدون فى تلك الأثناء على ما قام فى تامسنا - الثائرة أبد الدهر - من ثورتى كل من : يومزكيد فى جماعة يقال لهم بنو (آيت) برزيجن الذين أخذت غنائمهم من العبيد ، ويروكان المعروف أيضا باسمه العربى : هلال الأصلع ، والذى بدد آله من بنى (آيت) عفيف ، فكسروا شوكتهم.

وبذلك نجح حشد عبد المؤمن الكبير فى تحقيق ماكان يصبو اليه الخليفة من تحطيم مقاومة القبائل المغربية التى كانت حريصة على استقلالها ، محافظة على فرديتها ، وبذلك «استقامت له الدنيا ، بعون الله» كما يقول البيدق (٢٦) ويكون يحيى الصحراوى قد تم بتوحيده العفو عنه . وبذلك يكون قد تم صلاح المغرب بدخول أهل سبتة فى الطاعة التى قبلت منهم ، وكذلك الأمر بالنسبة لأهل سلا ، وإن أمر عبد المؤمن بهدم سورهم (٢٧) .

وبذلك تكون سنة ٥٤٣ هـ / ٩- ١١٤٨ م التى دارت فيها معظم هذه الاحداث، هى سنة توطيد حكم عبد المؤمن فى بلاد المغرب ، مهد الدولة الموحدية ، دولة بنى عبد المؤمن.

---

(٢٤)البيدق، ص١٠١.

(٢٥)البيدق، ص١٠١.

(٢٦)أخبار المهدى، ص ١٠١.

(٢٧)ابن خلدون، ج٦ص٢٣٣.

الاعتراف
نظام جديد للتمييز بعد التهدين

رغم مايقوله البيدق من أن الدنيا استقامت لعبد المؤمن بعد عملية التهدين الشاملة فى كل بلاد المغرب الأقصى، من: برغواطة تامسنا حتى دكالة والسوس الأقصى، فإن الظروف اضطرت عبد المؤمن إلى أن يستمر فى فرض «السلام الموحدى» عن طريق الترهيب والترغيب معا بفضل تطويره لنظام «التمييز» الذى استخدم لاستئصال المنحرفين، من الخارجين على دعوة العصمة المهدية التومرتية، من: المرابطين الملثمين أو اعوانهم من أصحاب الأهداف العرقية السياسية أو الأغراض الأنانية.

أما عن الشرارة التى ألهبت نار الفتنة من جديد فقد بدأت فى بلاد السوس الأدنى ، فى مكناسة وفاس ، حيث الوالى أبو بكر يحى بن عبد الله الجيانى ، الذى أرسل كتابا إلى الخليفة عبد المؤمن يخبره أن أهل مكناسة اعتدوا علي جماعة الفحامين في جبلهم وقتلوهم ، وان الأمر كان من الخطورة بحيث أنه اضطر إلى محاصرة مدينة فاس خشية استفحال الفتنة . وهنا عقد عبد المؤمن «المجلس» (مجلس المشايخ أو مجلس الشورى) ، ووعظ شيوخ الموحدين ، وطلب فتواهم في أمر الثوار أو المنحرفين من أهل التخليط الذين شبّه الواحد منهم «بالشارب الذى يمنع اللبن والماء ، عن غيره (من الظامئين) » وحصل على موافقتهم على أخذ القصاص ، على قاعدة : النفس بالنفس والعين بالعين.

والمهم هنا هو ان عبد المؤمن غيرّ فى هذه المرة من طبيعة ملاحقة الثوار من المعارضين . فعلى عهد ابن تومرت كانوا يعاملون أيام «التمييز» على أنهم خارجون عن الدين ، ومن المقبول معاملتهم كأهل النار من الكفار ممن يستباح دماؤهم ، أما الآن بعد انتشار التوحيد بين الناس ، رؤى أن يعامل المعارضون على أنهم من «أهل التخليط» *فكأنهم من «الفاسقين» الذين لايميزون بين الحق

*[البيدق ، ص ١٠٢]

والباطل.

وبناء على ذلك كان يكفى لتطهير هؤلاء «المنافقين الجدد» من دنس الباطل مجرد اعتراف الجماعة بما وقع فيه بعض أفرادها من التخليط، وأنه يمكن أن يعفى عن المعترفين منهم بالخطأ، فلا يؤاخذ بعقوبة الكفر الا المعاندون من الخطائين. وبناء على ذلك كانت عملية الاعتراف تتم بالتطهر والتطهير حسب مقتضي الحال، على أيدي جماعة الموحدين، بمعنى أنهم يطهرون أنفسهم فى الحقيقة بالاعتراف سلباً أو بالسيف ايجابا.

وهنا يقدم لنا البيدق بيانات تفصيلية مذهلة عن الجرائد (الفرق العسكرية) التى وجهت إلى مختلف النواحى والقبائل، والقواد الذين ساروا على رؤوسها، وعدد القتلى فى كل موقع من ضحايا التخليط، الأمر الذى يجعل من كتاب اخبار المهدى ابن تومرت، أشبه مايكون بمذكرات شخصية، من نوع الأخبار التى لاتترك صغيرة أو كبيرة من شاردة وواردة إلا أحصتها، فى ذلك الصراع العجيب الذى قامت به جماعة الموحدين تحت قيادة عبد المؤمن الذى نجح فى الموازنة بين سياسة الترهيب والترغيب، حيث كان تحكيم السيف بمثابة التحكم الإلهى، من حيث هو الفيصل والحكم - الأمر الذى يذكر بسياسة الخليفة السفاح أول خلفاء العباسيين، المبنية على مقولته لقائد جيوشه، أبي مسلم الخرساني: «اجعل سوطك السيف، وسجنك القبر». وهكذا، يقول البيدق بعد أن انقضى المجلس، «دخل الخليفة وكتب الجرائد (الرسائل) لهم بالوعظ والاعتراف، وقسمها لأشياخ الموحدين، وأمرهم بالسيف» (٢٨)

ونحاول هنا ان نعطى صورة بانورامية للحملات العسكرية، ووجهات مسيراتها، وانجازاتها الحربية والسياسية. فعدد الحملات ٢٢ (اثنتان وعشرون) حملة، قادها ٢٢ (اثنان وعشرون) قائدا أساسيا، ينفرد بعضهم بالقيادة (٢٩)، وعادة ما يكون

---

(٢٨) أخبار المهدى ابن تومرت، ص١٠٢.

(٢٩) كما فى الحملات: ٨، ٩، ١٠، ١٥، ١٧، ٢٠، ٢١ وعادة ما يكون من زعماء =

له قائد مساعد ، كما هو الدارج (٣٠) وفى بعض الحالات النادرة كان هناك أكثر من ٤ (أربعة) قواد وذلك عندما تكون وجهة الحملة أكثر من منطقة (٣١) فتتفرع إلى أكثر من جريدة أو حسبما يتطلب الأمر ، من حجم القوة العسكرية ، وعدد ماتضمه من القبائل.

وهكذا تتوالى الحملات مع الإشارة إلى أهم منجزاتها ، وخاصة مما يتعلق بقتل أهل التخليط (من المنافقين) ، وتحديد عدد من قتل منهم فى كل معركة ، وهى الأعداد التى تراوحت مابين ١٥٠ قتيلا فى حرب قبيلتى لجاغة وغيغرت ، وبين ١٢,٠٠٠ قتيل فى حملة الرباط ، منهم ٦٠٠٠ قتيل من قبيلتى صاربوه ، وبنى مكّود فى المطامير ، منهم ٦٠٠٠ قتيل فى منطقة ما وراء السوق من المقرمدة (فى منطقة فاس).

وهكذا يمكن تخطيط الجدول التالى لتلك الحملات كالآتى:

١- جريدة رباط هزميرة ، بقيادة كل من أيوب بن أجدم ، ويحيى بن جبروط، وعدد القتلى ٥٠٠ رجل

٢- جريدة وجراجة (فى أصاكا إن كمات)، بقيادة كل من : محمد بن مصكاد، وعبد الله بن مالات ، وعدد القتلى ٨٠٠ رجل

٣- جريدة حاحة (فى منطقة ايجلى ببلد السوس) ، بقيادة صهر أبى سعيد مع عمران بن مناد ، وعدد القتلى ٦٠٠ رجل

٤- جريدة إلى آينكيست ، بقيادة وُمصال بن ودّرع ، وأبى عمران بن موسى بن

= مشايخ الموحدين، أو من الزعماء المتنفذين فى البلد الذى تسير إليه الحملة.

(٣٠)ويظهر ذلك فى الحملات : ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٦، ١٨، ١٩.

(٣١)كما فى الحملة رقم ٦ إلى هسكورة حيث كان اللقاء فى موضعين، والحملة رقم ٧ إلى تادلا حيث كان على قائد الحملة عمر بن ميمون ان يقوم بالحملة رقم ٨ إلى تيفسرت، ومن ثم يعود إلى تادلا.

وميان ، وعدد القتلى ٦٠٠ رجل

٥- جريدة إلى جزولة ، بقيادة موسى بن عيسي ، والحسن بن سليمان واللقاء في موضع تاعجيزت ، والقتلى من هشتيكة ٣٠٠ رجل

٦- جريدة إلى هسكورة ، بقيادة سليمان بن ميمون ، وعلي بن يحيى ، وكمات ابن عثمان ، وعبد الله بن يومور ، واللقاء فى موضعين خارج المحلات حيث ٨٠٠ قتيل ، وداخل المحلات ١٧٠٠ قتيل وعدد القتلى ٢٥٠٠ رجل

٧- جريدة إلى تادلا ، بقيادة عمر بن ميمون ، وعبد الله بن داود وآخرين فى موضع نظير وعدد القتلى ٥٠٠ رجل

٨- عسكر جنّده بقياده عمر بن ميمون ، وخرج لتازرفت بن تملوان بموضع تيفسرت ، فقتلهم وساق غنائمهم ونساءهم إلى تادلا (حملة جانبية للقائد السابق).

٩- عسكر ، خرج بقيادة أبى بكر (يحيى) بن الجبر إلى تادلا ،

وقتل من صنهاجة وجراوة بموضع العمرى ١٠٠٠ رجل

١٠- عسكر ،بقيادة آج أتيجى ، خرج إلى القلعة (متاع مهدى بن توالا) باعترافهم وقتل من زناتة وفازاز ٦٠٠ رجل

١١- جريدة إلى الرباط (سلا) ، بقيادة ابى سعيد يخلف آتيجى ومحمد ابن يحيى الجدميوي وكان اللقاء فى ٣ (ثلاث مواضع ، هى : المطامير ، ووراء سوق المقرمدة حيث قتل ٦٠٠٠ رجل فى كل من الموضعين ، بالإضافة إلى ٨٠٠ رجل قتلهم القائد المعاون : محمد بن يحيى داخل الرباط، وتفسر المذبحة بأنها ثأر لمقتل زيرى بن ماخوخ (ماسبق ، ص ٣٠٧ ، وعدد القتلى ١٢,٨٠٠ رجل

١٢- جريدة إلى غمارة ، بقيادة أبى محمد عبد الله بن سليمان ، ويحيى توكروزين ، وكان اللقاء فى موضعين : بتطاوين حيث قتل ٨٠٠ رجل ، وفى سوق الثلاثاء (متاع نزون أطواست) ، حيث قتل ١٠٠ رجل وعدد القتلى ٩٠٠ رجل

١٣- جريدة إلى الغرب (إلى نظر فاس ومكناسة) ، بقيادة يوسف بن سليمان وعبد الله بن خيار الجياني ، حيث قتلا ٣٠٠ رجل ، إلى جانب ٢٠٠ رجل في مكلاتة ، وفي فاس قتل ٨٠ (ثمانين) من المؤتثين وأهل السوق فيكون

عدد القتلى ٥٨٠ رجل

١٤- جريدة إلى تامسنا ، بقيادة عبد الله بن فاطمة اللمتوني ، وأبي تونارت ، وتم اللقاء في موضعى نيط إن واكرارت ، وفرحيل متاع برغواطة ،

وعدد القتلى ٦٠٠ رجل

١٥- جريدة إلى دكالة ، بقيادة اسحق بن عمر الهنتاتي - حيث النص على أن القائد كان شفيعا بهم ، **وعدد القتلى ٦٠٠ رجل**

١٦- جريدة إلى هيلانة (أغمات) ، بقيادة الحسن بن المعلم ، وعلى بن يخلف ، واللقاء في موضع مغطاسة ، **وعدد القتلى ٨٠٠ رجل**

١٧- جريدة إلى وريكة (أغمات) ، بقيادة زكريا بن مسعد الوريكي ، وتم اللقاء في موضعين : بوريكة وهزرجة وقتل في كل منهما ٢٥٠ رجلاً

وعدد القتلى ٥٠٠ رجل

١٨- جريدة لجاغة ، بقيادة يحيى بن سحنون ، وعبد الكريم الغيغائي ، حيث تم اللقاء في موضعين : لجاغة وغيغرت ، **وعدد القتلى ١٥٠ رجلا**

١٩- جريدة إلى درعة ، بقيادة يحيى الدرعي ، وعبد الصمد بن تادرارت ، وتم اللقاء في والديزريجن ، **وعدد القتلى ٦٠٠ رجل**

٢٠- جريدة إلى سجلماسة ، بقيادة عبد الله بن وطبيب ، وهنا تقول الرواية ان ابن وطبيب جمع الناس وأراد قتلهم ، وأنهم نجوا من هذا العقاب الجماعي بموت القائد فجأة ، وانصراف الناس إلى أوطانهم (٣٢)

---

(٣٢) البيذق، ص١٠٤-حيث اسندت وفاة القائد إلى دعاء عابد اسمه بوغلات.

٢١- جريدة، بقيادة محمد بن ابى بكر بن توندوت ، حيث قال لهم الخليفة :

أصلح بلادك يا أبا عبد الله **فقتل منهم ١٠٠٠ رجل (٣٣)**

ومن هذا العرض لحملات الاعتراف التى جاوزت العشرين حملة جاوز عدد من أعْدِم فيها ٢٥,٠٠٠ (خمسة وعشرين ألفا) فى سنة واحدة هى سنة ٥٤٣ هـ / ٩ - ١١٤٨ م ، كما يؤكد البيدق.

ومن هذا العرض الغريب يتضح الآتى :

١- على المستوى الإقليمى :

غطت تلك الحملات العسكرية كل بلاد المغرب الأقصى ابتداء من غمارة فى السوس الأدنى حيث فاس ومكناسة حتى السوس الأقصى حيث مراكش القاعدة وأغمات فى جنوبها ، وحتى بلاد جزولة على أطراف الصحراء البحرية ، وكذلك سجلماسة ودرعة ، وهى بلاد المغرب الحقيقية ، حيث انتشار المصامدة - عصب الدولة المؤمنية - فى معظم تلك الجهات ، فلا يغيب عن التهدين (التسليم) والاعتراف (التوحيد والتمييز) إلا المنطقة الشرقية فى تلمسان ووهران (غرب المغرب الأوسط).

٢- على مستوى القيادة العسكرية :

يلاحظ أن القادة كانوا عادة من أهل البلاد المقصودة ، الأمر الذى يمنع - كما نرى - أن ينظر إلى الجريدة أو الحملة العسكرية على أنها نوع من الغزو الأجنبى ، بل على أنها مجرد تصفية حساب بين أبناء الجلدة الواحدة ، والمبنية على رابطتى الدم والوطن . أما موضوع الخلاف فهو مجرد تباين فى الرأى فيما يتعلق بأمور الدين والعقيدة ، مما يتراوح بين النقاء (الإيمان) والتخليط (النفاق) - وإن ارتبط الخلاف بجباية الأموال أو دفع الضريبة ، التى عادة ماينظر إليها الأحرار من سكان

---

(٣٣) انظر البيدق، اخبار المهدى، ص١٠٣-١٠٤.

البادية أو الجبال على أنها نوع من الغرامة أو الاتاوة التى تنقص من شأن دافعها، وهو الأمر الذى تنمحى حساسيته عندما يكون القائد الجابى من نفس الجلدة والعرق.

وهكذا كان قائدا الحملة الأولى (ابن أحدم وابن جبروط يضمان إلى رجال حملتهما (رباطهم) عسكراً من هزميرة ، الأمر الذى سمح بقتل ٥٠٠ (خمسمائة) من أهل التخليط منهم . ومثل هذا كان قائدا حملة رجراجة (الثانية) : ابن مصكاد وابن مالات من شيوخ تلك القبيلة . وكذلك الأمر بالنسبة لقائد الحملتين الـ ٦ (السادسة) والـ ٧ (السابعة) : عمر بن ميمون ، فهو يسير إلى تادلا أولا وبعد أن يقتل فيها ٥٠٠ رجل ، يخرج منها إلى موضع تيفسرت ، ويسوق غنائمهم ونساءهم إلى تادلا - الأمر الذى يعنى استقرار التوحيد تبادلا بمجرد نهاية حملة «الاعتراف» بها . وإذا كان الأمر قد تطلب حملة ثانية إلى تادلا يقودها ابو بكر (يحيى) بن الجبر (أحد اخباريي دولة الموحدين) ، فهو يؤدب صنهاجة وجراوة هنا ، كما يتشفع عند الخليفة فى نساء تيفسرت فلم يبعن فى تادلا (٣٤).

أما أعظم الخسائر فى عملية الاعتراف فتمثلت فى الجريدة الـ ١١ (الحادية عشرة) إلى الرباط ، والتى قتل فيها ١٢,٠٠٠ (اثنا عشر ألفا) من قبيلتى صاربوه وبنى مكّود ، إلى جانب ٨٠٠ (ثمانمائة) رجل داخل الرباط نفسها . وبذلك كانت حربا ثأرية أكثر منها اعترافا أو تمييزا لأهل التخليط . وفى ذلك قال القائد ابو سعيد يخلف آتيجى للمنكوبين : هذا جزاؤكم الذى قتلتم زيرى بن ماخوخ الذى بعث إليكم الخليفة - رضه - (٣٥) . وفى مقابل ذلك كان عمر الهنتاتى شفيقا بدكالة رغم أنه قتل منهم ٦٠٠ (ستمائة) رجل (٣٦) ويتمثل استخدام اللين فى تطبيق سياسة «الاعتراف» هذه فى اختيار زكريا ابن مسعود الوريكى لقيادة الحملة الـ ١٧ (السابعة عشر) إلى وريكة ، واختيار قائد الحملة الـ ١٩ (التاسعة عشر) : يحيى الدرعى للمسير إلى درعة.

---

(٣٤) البيدق، ص١٠٤.

(٣٥) البيدق، ص١٠٣.

(٣٦) البيدق، ص١٠٤.

٢- على مستوى السياسة الدينية والأخلاقية :

يستشف من وصم المخالفين فى عملية «الاعتراف» بأهل التخليط أنهم لم يكونوا معاندين للدولة ولمذهب التوحيد مثلهم مثل سابقيهم من أهل «التمييز» أو «المرتدين» . فالتخليط هنا يكاد يعادل عدم فهم العقيدة . كما ينبغى أن يكون فهمها ، وهم من هذا الوجه يعتبرون كالمنافقين ، على افتراض سوء النية . وهؤلاء قضى عليهم «بالاعتراف» من قبلِ ذويهم على الأقل كما كان الحال فى التمييز (ماسبق ، ص ٥- ٢٤٣).

وإلى جانب المخالفين من أهل التخليط كان الخليفة عبد المؤمن يتحرى الكشف عن أشباههم من المنحرفين أخلاقيا من المخنثين (المؤنثين) وأصحابهم من السوقة العابثين. وهذا مايظهر فى الحملة الـ ١٣ (الثالثة عشر) فى منطقة الغرب، فى نظر كل من فاس ومكناسة ، حيث قتل ٨٠ (ثمانون) من المؤنثين والسوقة إلى جانب من قتلوا على يدى القائد يوسف بن سليمان ، وصاحب فاس : عبد الله بن خيار الجيّانى (٣٧). فكأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان من مبادئ سياسة الخليفة عبد المؤمن ، كما كان على عهد الإمام المهدى ابن تومرت.

فهكذا كانت مبادئ التمييز ، ومن ثم الاعتراف أشبه ماتكون بقواعد محاكم التفتيش الموحدية التى يبحث فيها عن الزنادقة المنحرفين - الأمر الذى يذكر بمحاربة الخليفة العباس المهدى للزندقة والزنادقة ، وإقامته محكمة خاصة بهم ، بعد أكثر من قرن من ظهور حركة الزنادقة من المنافقين الأول فى دولة الاسلام (٣٨).

---

(٣٧) وعن عجائب القبائح التي خُلّدت في أهل فاس انظر الاستبصار ، ص ١٨٢ - ١٨٣، حيث هجاء «ابو بكر» البكي لأهل فاس بتحريض من الزاهد «ابو الحسن» بن حرزهم، مثل :

رأيت جنان عدن في منامي   وحور العين في اسني لباس
فقلت بما احصل بعض هـذا   فقال اذا هجوت لأهل فاس
فدع عنك الصلاح وكل برّ   فهجوهـم يؤمن كل بـاس

(٣٨) انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص١٤١-حيث: إذن قام المهدى بعملين نحو الزنادقة. إنشاء إداره للبحث عنهم ومحاكمتهم، وإنشاء هيئة علمية لمناظرتهم، وتأليف الكتب للرد عليهم.

وهكذا يختم البيدق إحصائيته عن عملية الاعتراف هذه ، بحمد الله الذى «هدأ البلاد للموحدين ، وأعانهم على الحق ، ونصرهم ، فأقاموا الدين ، ولم يتفرقوا فيه، وتمهدت الدنيا وأزال الله ماكان فيها من التخليط» (٣٩)

وبذلك تمت عملية الاعتراف التى تعنى التهدين تحت مظلة «السلام الموحدى» فى ربوع المغرب الأقصى ، وتمهدت الأحوال لنشر ذلك السلام لبقية أطراف المغرب الشرقية ، فى بلاد افريقية الزيرية حيث الصراع مع النورمنديين الصقليين قبل التوجه نحو العدوة وبلاد الأندلس.

الخريطة السياسية - الاجتماعية لافريقية الزيرية - الحمادية فى النصف الأول من القرن الـ٦ / ١٢م

كانت البلاد الافريقية ، اعتباراً من برقة وطرابلس شرقاً وحتى التخوم الشرقية لتلمسان ووهران ، على حدود المغرب الأقصى ، تعانى من النتائج السلبية لهجرة قبائل بنى هلال وبنى سليم الحجازية أصلاً ثم المصرية إقامة ، منذ منتصف القرن الخامس الهجرى / ١١م ، الأمر الذى أدى إلى قلب الأوضاع السياسة والاجتماعية فى تلك البلاد رأسا على عقب (انظرج٣ ص ٤١٧ ومابعدها).

فمن وجهة النظر السياسية أدى مجئ الهلالية إلى افريقية إلى ضعف كل من الدولتين الصنهاجيتين : الزيرية والحمادية ، بل واتخاذ الحماديين عاصمةجديدة غير القلعة ، وهى مدينة بجاية البحرية تماما، كما كان الحال بالنسبة للمهدية الزيرية.

ومع توجه الهلالية نحو الغرب كان يزداد ضعف الزيريين والحماديين ، الأمر الذى انتهى بسيادة نوع من نظام أمراء الطوائف من صنهاجية وعربية فى كل الشمال الافريقى فى شرق المغرب الأقصى . والحقيقة أن المغرب الأقصى بدأ يأخذ زمام المبادرة سياسيا واجتماعيا ، منذ ظهور مدينة مراكش عاصمة الجنوب ، مقابل

---

(٣٩) البيدق، اخبار المهدى ابن تومرت، ص١٠٤ .

فاس عاصمة الشمال ، والقيروان عاصمة افريقية التونسية ، وقرطبة واشبيلية ومن ثم غرناطة فى العدوة الأندلسية.

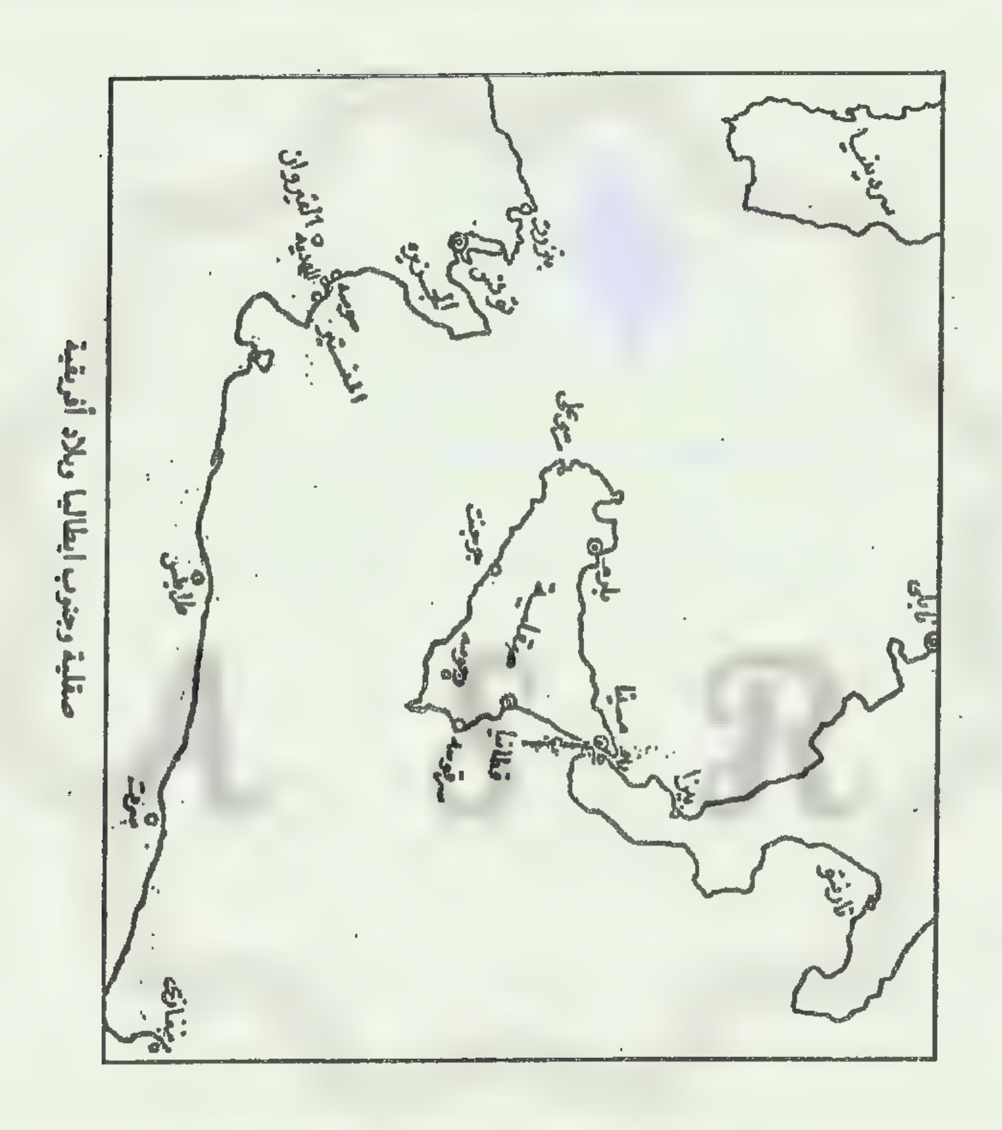
وأتت الظروف الطبيعية الصعبة فى خطوة ثالثة لكى تزيد من قساوة الأزمة التى كانت تمر بها بلاد المغرب الشرقية ، وذلك بتواتر سنوات الجفاف والقحط فى افريقية ، الأمر الذى كان يسمح لدولة الفرنج النورمندية ، الناشئة فى كل من جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، لكى توجه أطماعها نحو السواحل الافريقية ، وتحول الكثير من المدن والمراكز العمرانية هناك إلى مايمكن أن يسمى بالنظام الاستعمارى المبكر . وترتب على هذا الأمر أنه كلما كانت تسوء الأحوال فى الشمال الافريقى الشرقى ، كانت تزداد مسئوليات الدولة الموحدية الناشئة ، وذلك منذ مطلع القرن الـ ٦هـ/ ١٢م وحتى استقرار ملك عبد المؤمن بن على حوالى منتصف ذلك القرن ، كما سوف نرى.

وهكذا إذا نظرنا إلى خريطة المغرب الإفريقى فى العقود الأولى من ظهور دولة الموحدين ، نجد الأوضاع السياسية - الاجتماعية كالتالى:

إن المدن الإفريقية التى مرّ بها محمد بن تومرت فى رحلة عودته من المشرق ، فى العقد الثانى من القرن الـ ٦هـ / ١٢م ، من طرابلس وحتي تلمسان، كانت أشبه ما تكون بدويلات من المدن المستقلة القديمة ، من حيث كان يطرد محمد بن تومرت من الواحدة، منها إلى الأخرى الأمر الذي يذكر بتقسيم الفارابي لمثل هذه المدن إلى مدن فاضلة لكل منها رئيس مثالى يشبه بالخليفة - أو رئيس الجماعة الذى يعمل من أجل سيادة الخير والعدل، وإلى مدن جاهلة لايعمل الرئيس فيها إلا من أجل تحقيق الأغراض الأنانية الباطلة ، من : احتجان المال أو القوة أو السلطة والاستبداد (٤٠). وفى ضوء هذه الأفكار كان ابن تومرت يعمل على إقرار المعروف وإزالة المنكر فى المدن التى مرّ بها ، فى : طرابلس والمهدية وتونس وقسنطينة وبجاية وإلي تلمسان.

---

(٤٠) الفارابى، آراء أهل المدينة الفاضلة .



صقلية وجنوب إيطاليا وبلاد أفريقية

وباستثناء تلمسان وشقيقتها وهران على تخوم المغرب الأقصى واللتين كانتا قد خضعتا لعبد المؤمن منذ مقتل تاشفين بن على بن يوسف سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥م ، كانت بقية العواصم الإفريقية التى مر بها ابن تومرت (٥١١ هـ/ ١١١٧م-٥١٤هـ/ ١١٢٠م) - إلى جانب غيرها - قد وقعت بين براثن النورمنديين فى صقلية أو على وشك الوقوع ، كما كان الحال بالنسبة للمهدية العاصمة الزيرية أو بجاية العاصمة الحمادية : أعظم المراكز الحضارية فى بلاد أفريقية وقتئذ ، الأمر الذى كان يعنى نهاية النهاية ، ليس بالنسبة للدولة الحمادية فقط ، بل وخطراً داهما على مستقبل الشمال الإفريقى ، مقارنة بما كان يحدث فى جزيرة صقلية : الأخت الصغرى للأندلس.

والحقيقة هنا ، كما كانت فى الأندلس ، هى أن آفة الخصومة والعداء - الطبيعية بين ملوك الطوائف كانت عاملا مساعداً على زيادة الضعف فى العواصم الاسلامية المتناحرة ، كما كانت مشجعة للخصوم من الملوك الإسبان على مواصلة حرب الاسترداد ، واسترجاع المزيد من الأراضي الإسلامية . هذا ، كما شجعت ملوك صقلية النورمنديين ، على القيام بنوع من الاستعمار - إن لم يكن من الاسترداد - في سواحل المغرب ، وإن بدأت باخضاع الأراضى الإسلامية مع السماح لأهلها بالبقاء فيها تحت سلطانهم ، فكأنه نوع من الاستعمار الحديث الذي يهدف إلى السيطرة والاستغلال بدلا من الاستيطان - والاستثناء هنا يؤيد القاعدة.

هذا ، ولقد كان توطن العرب الهلالية فى البوادى على حواف البلاد الزراعية عاملا مساعدا من عوامل الاضطراب وعدم الاستقرار بالنسبة لمن سواهم فى الأطراف الأخرى من المسلمين، ومن وغيرهم من الفرنج الأوروبيين فى البحر المتوسط.

الموقف منذ العقد الأول من القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م :

والملاحظة الهامة فى سياسة الزيرين فى البحرالمتوسط خلال العقد الأول من القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م على عهد يحيى بن تميم ، أن العلاقات بين الزيريين والحماديين كانت جيدة ، وإن العلاقات بين الدولتين وبين صقلية كانت حسنة هي الأخرى .هذا ، كما كان أسطول المهدية وقتئذ نشيطا وهو يجوب البحر المتوسط في غارات بعيدة حتى أقاليم البروفانس واللانجدوك (جنوب فرنسا) ، وأنه كان يرغم الروم والجنويين والصرب (في بحر الادرياتيك) على دفع الجزية ، كما كان فى بعض الأحيان يهاجم سواحل إيطاليا فى ساليرنو ونابولى (٤١).

أما عن السياسة الداخلية والإدارة المحلية فكانت مستقرة وإن عانت بعض الشئ من عدم الاستقرار بين أفراد الاسرة الحاكمة . ففي نفس ذلك العقد الأول من عهد يحيى بن تميم ، حدثت محاولة اغتيال للأمير نفسه من قبل بعض أخوته الذين نعتوا بأنهم من طلبة المصامدة أو من المدعين بطلب علم الكيمياء من الأندلسيين ، وأنه كان من المشاركين فى المؤامرة فعلا أحد أبناء يحيى وهو أبو الفتوح الذى كانت عقوبته وزوجته بلارة بنت عمه القاسم بن تميم ، السجن ويصحبتهما ابنهما الصغير، وذلك قبل طردهما إلى مصر على عهد الخليفة الآمر ، بعد وفاة يحيى .

والحقيقة أن ولاية كل من صفاقس وسوسة كانت وقتئذ لأبناء يحيى حيث عهد بحكم الأولى إلى أبى الفتوح بن يحيى، فثارت به، ومن ثم آلت إلى أخيه علي، ولى العهد، بينما آلت ولاية سوسة إلى أخيهم الثالث عيسى (٤٢).

---

(٤١)هـ-ر.ادريس، بلاد المغرب الشرقية على عهد الزيريين :La Berberie orientale sous les Zirides) ص٣٠٨-٣٠٩-حيث الإشارة إلى ابن الأثير وابن عذارى : سنة٥٠٣هـ/١١٠٩م-حيث غزو بلاد الروم، سنة ٥٠٧هـ/١١١٢م ووصول أسطول المهدية يسبى كثير من بلاد الروم، فى ربيع الآخر سنة ٥٠٨هـ/سبتمبر سنة ١١١٤م، حيث هجوم الروم على مينورقة واسترجاع علي بن يوسف بن تاشفين تلك الجزيرة منهم.

(٤٢)هـ - ر. ادريس، بلاد المغرب الشرقية على عهد الزيريين، ص٣٠٩-٣١٤-حيث الاغتيال حسب كل من ابن شداد وابن عذارى وابى الصلت-وعن أبناء يحيى الذين يصلون =

وفى العقد التالى كانت أحوال افريقية أكثر تعقيدا ، إذ بدأت العلاقات تسوء بعض الشئ بين أبناء العمومة الزَيريين والحماديين . وكانت فرصة أحسن استغلالها روجار الثاني ملك صقلية . والمهم من كل ذلك ان محمد بن تومرت ، وهو يمر ببلاد الساحل الإفريقى اعتباراً من طرابلس ، ومرورا بالمهدية وتونس وبجاية لايشير إلى أصداء الأحداث السياسية بين الزيريين بعضهم والبعض الآخر ، ولا إلى التنافس بينهم وبين الصقليين أو حتى مع العرب . وربما يعنى ذلك أن الرجل كان مشغولا تماما بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى كان قد بدأها بشكل جدى من القاهرة والإسكندرية التى لقى من أهلها بعض العنت - ابتداء من مطلع ذلك العقد الثاني من القرن الـ ٦ هـ / ١٢م .

ففى سنة ٥١٠ هـ / ١١١٧ م كان على بن يحيى صاحب المهدية يخضع جزيرة جربة ، ويملى على شيوخها إيقاف أعمال القرصنة ، كما كان يخضع صاحب تونس : أحمد بن عبد العزيز بن خراسان (٤٣).

وفى سنة ٥١١هـ / ١١١٨ م التالية ، وأثناء النزاع بين رافع صاحب قابس وعلى بن يحيى صاحب المهدية بشأن حق امتلاك المراكب التجارية ، وتدخل روجار (الصقلى) فى ذلك النزاع . بما يعنى الوقوف إلى جانب حرية التجارة ، وحق رافع فى بناء مركبه التجارى الكبير. هذا ، إلى جانب مطالبة روجار سنة ٥١٢ هـ / ١١١٩م التالية بأموال كانت موقفة بالمهدية ، الأمر الذى ماطل فيه على بن يحيى بسبب سوء الأحوال المالية ، مما كان سببا فى الوحشة بيْن على وروجار الذى «أوسع شراً ، وحاول بعد ذلك مكراً» (٤٤) الأمر الذى جعل روجار الثانى يرسل أسطوله

= عددا إلى ٣٠(ثلاثين) ولدا و٢٠(عشرين) ابنه، انظر ص٣٩٥. وانظر أيضا ابن عذارى-سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م-حيث ولاية على بن يحيى لمدينة سفاقس، وعيسى بن يحيى لمدينة سوسة، وسنة ٥٠٩هـ/١١١٥م-حيث محاولة اغتيال يحيى على أيدى المدعين بعلم الكيمياء من طلبة المصامدة، واتهام الفتوح بن يحيى بالمشاركة فى المؤامرة.

(٤٣)ابن عذارى، ط.بيروت، ج٢ص٤٤١-سنة ٥١٠هـ/١١١٧م-حيث بعث تميم بن يحيى الأسطول إلى جربة ، فحاصروها إلى أن أمر أهلها بالطاعة ونزلوا على حكمه .

(٤٤)ابن عذارى. ص.بيروت، ج٢ص٤٤٣.

إلى المهدية مهددا، مما شجع الحماديين فى القلعة على التدخل فى شئون أمير المهدية.

هكذا ، كان العزيز الحمادي يحاصر في سنة ٥١٤ هـ / ١١٢١ م جزيرة حربة بأسطوله ، كما كان يحاصر تونس ويخضع أميرها أحمد بن عبد العزيز بن خراسان إلى أصحاب القلعة بعد أن كان قد دخل فى طاعة الزيريين سنة ٥١٠ / ١١١٧ م ، مما سبقت الإشارة إليه (٤٥). كل هذه الأحداث لانجد لها صدى فى رحلة ابن تومرت المعاصرة لتلك الأحداث ، وذلك في الوقت الذى كان يلتقى فيه بملالة حوالى سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م بعبد المؤمن بن على ، قبيل الوصول إلى مراكش العاصمة فى السنة التالية (٥١٤هـ/ ١١٢٠م) (٤٦).

أما عن الوحشة مع روجار الثانى (الجار) الصقلى فقد بدأت بوادرها على عهد الأمير على بن يحيى (٥٠٩-٥١٥هـ/ ١١١٥م-١١٢١م) بسبب السفينة التى أنشأها رافع بن مكن صاحب قابس ومن ثم انفجرت بشكل مكشوف على عهد الحسن بن على (٥١٥-٥٤٣هـ/ ١١٢١-١١٤٨م) الذى حرّض أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين على أمير صقلية روجار الثانى ، فسير أسطوله المرابطى سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢ م بقيادة قائده أبى عبد الله على بن ميمون ، فهاجم عدداً من حصون الصقلى (روجار) ومنها حصن نيقوطرة بكلابريا (قلورية بجنوب إيطاليا) ، وعاد منها بالسبى الكثير (٤٧) . وزادت الوحشة بين الحسن وروجار الثانى عندما سيّر هذا الأخير أسطوله فى ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٥١٧ هـ/ ٢٢ يوليه

---

(٤٥)انظر هـ-ر. ادريس، بلاد المغرب الشرقية على عهد الزيريين، ص٣٢٤ .

(٤٦)انظر هـ-ر. ادريس، بلاد المغرب الشرقية على عهد الزيريين، ص٣٣٣. وهـ١٧٥-حيث كان بن تومرت فى ملاله سنة ٥١٣هـ/١١١٩م حسبما يقرر هويثى فى التاريخ السياسى لامبراطورية الموحدين (هويثي ج ١ ص ٤٣).

(٤٧)انظر رحلة البحانى، ص٣٣٤-٣٣٥، وقارن ابن عذارى، ط.بيروت، ج٢ص٤٤٤-حيث افتتاح نيقوطرة، من عمل روجار، صاحب صقلية "وسبى نسائها وأطفالها وقتل شيوخها، وسلب جميع ما وجده فيها". وانظر ميشيل أمارى، تاريخ المسلمين فى صقلية، ج٣ص٣٨٥: (Michele Amari, Storia dei Muaulmani di Sicilia)

وقارن هـ-ر. ادريس، بلاد المغرب الشرقية على عهد الزيريين (بالفرنسية)، ص٣٣٤ .

١١٢٣م إلى المهدية بقيادة عبد الرحمن النصراني الوزير ومساعده جورجي الأنطاكي (٤٨).

أما عن العمليات الحربية التى قام بها القائدان الصقليان فى المهدية فقد تلخصت فى الرسو بجزيرة الأحاسي فى اليوم الأول ثم الطواف بالمهدية لاستطلاع دفاعاتها فى اليوم الثانى ، أما فى اليوم الثالث فقد تمكّنوا بفضل معونة بعض العرب من الاستيلاء على قصر الديماس . أما فى اليوم الرابع فقد نجح المسلمون في مهاجمة جزيرة الأحاسي وحققوا النصر على الصقليين الذى انسحبوا منها إلى مراكبهم ، بعد أن تركوا بعض خيولهم وعددهم. هذا . كما نجح المسلمون فى إحكام الحصار على قصر الديماس حتى أخرجوا من كان فيه فى ١ جمادي الثانى / ٢٧ يوليه ، وعددهم ١٠٠ (مائة رجل) وقتلوهم (٤٩).

والظاهر أن الحسن أمير المهدية كان يحرض أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين على غزو بلاد روجار بأسطوله للتخفيف من ضغوطه على المهدية . وهكذا عندما قام الأسطول المرابطى ذات مرة بمهاجمة بعض السواحل النورمندية - ربما دون طلب من أمير المهدية ، كما يقول التجانى - اعتبر روجار ذلك تحريضا من جانب الحسن ، الأمر الذى كان يزيد فى الوحشة بينهما ، ويفسر فى نفس الوقت أنه عندما تم الصلح بينهما كان الصقلى يضمر له الغدر (٥٠) . وهذا مايمكن أن يكون

(٤٨) عن انتقال جورجى بن ميخائيل الانطاكى من خدمة الأمير تميم بن المعز الزيري إلى خدمة روجار الثانى الصقلى، انظر رحلة التجانى، ص٣٣٢-حيث نجاح روجار (لجار) فى ضم الانطاكى إلى جانبه "فأرسل إليه مركباً أخذته سراً من المهدية مع أهله وولده، وهم فى زى البحارة، إلى صقلية، وهناك دخلوا فى خدمته معاونين لعبد الرحمن النصرانى صاحب الأشغال هناك فى الجبايات، "فنصحوا وأظهروا". وذلك قبل ان يصل جورجى (جرجير) إلى قيادة الاسطول، بل والوزارة.

(٤٩) رحلة التجانى ص ٣٣٦ وانظر ابن عذارى، ط.بيروت، ج٢ص٤٤٤، حيث الوصول إلى جزيرة الأحاسي فى اليوم الأول، ووصل ٢٣ شينيا فى اليوم الثانى، وتمكن العرب فى اليوم الثالث من كشف الروم الذين قتلوا خيلهم وطلبوا الأمان، فلم تساعد العرب على ذلك فقتلوا عن آخرهم. مع رواية ابن ابى الصلت عن بعض الطرائف.

(٥٠) رحلة التجانى، ص٣٣٩ .

تفسيرا مقبولاً أيضا لسوء التفاهم بين الحسن وبين ابن عمه الحمادى يحيى بن العزيز.

وهنا لابأس من الإشارة إلى رواية ابن خلدون التى تنص على أنه بعد ذلك الوقت بقليل ، في سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ، كان الحماديون يخضعون لسلطانهم أمير تونس الرابع من بني خراسان : وهو أبو علي أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحق (أول أمراء بني خراسان في تونس) ، بل ويخرجونه من تونس على يدى الوزير (الحمادي مطرف بن علي بن حمدون) ، ونقله إلى بجاية هو [illegible] . وكان ذلك يعني عودة تونس(سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) إلى حكم الحماديين الذى يستمر إلى غزو النصاريين للمهدية (سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨م) حيث كان واليها معد بن المنصور الذى كان قد ضعف واستاسد عليه أهل تونس (٥١).

الصراع بين المهدية وبجاية:

وهكذا، وفي الوقت الذى كانت قد بدأت فيه حرب المطاولة في المغرب الأقصي ، وفى بلاد السوس وماحواليها ، بين عبد المؤمن وبين قبائل لمتونة وحلفائهم ، كانت مدينة المهدية عاصمة آخر الزيريين : الحسن بن علي (٥١٥-٥٤٣هـ/ ١١٢٤-١١٤٨م)، تواجه في سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤-٥م [illegible] يحيى بن العزيز صاحب بجاية (٥٢) ، وبتحريض من العرب خصوم ميمون بن زياد (الرياحي) حليف الحسن ، ومن بعض مشايخ المهدية نفسها(٥٣) هذا ، كما

---

(٥١)ابن خلدون، العبر، ج٦ص[illegible]، وعن بني خراسان فى تونس، انظر ماس كوتر، العلاقات والتجارة مع افريقية، بالفرنسية : ص٣٤-(Relations et Commerce del'Afrique,par le Comte : Mas Latrie. Paris,1889)

(٥٢)عن يحيى بن العزيز بن المنصور (٥١٨-٥٤٧هـ/١١٢٧-١١٤٧م)-انظر إسماعيل العربى، دولة بنى حماد، الجزائر ، ١٩٥٠، ص١٧-حيث كان يحى مثلا للأمراء الذين يرون الحكم مجرد وسيلة لإرضاء شهواتهم.

(٥٣)ابن الأثير، ج١١ص٣١-٣٢-حيث دفع العرب رهائنهم ليحيى، كما وصلته كتب =

تدخل ملك صقلية : روجار الثانى ، بصفته حليفا للحسن : أمير المهدية ، فبعث نجدة بحرية من ٢٠ (عشرين) قطعة أحاطت بمراكب بجاية ، كما أتى العرب الهلالية بقيادة ميمون بن زياد ، ليعدلوا ميزان النزاع إلى جانب أمير المهدية ، وأن أنهت رواية ابن الأثير ذلك النزاع بالقول : «وأقام روجار الفرنجى مظهراً للحسن أنه مهادنه وموافقه ، وهو مع ذلك يعمّر الشوانى ، ويكثر عددها »(٥٤).

جزيــرة جربــة :

هذا ، ولاشك أن أعمال القرصنة وقطع الطريق التي كان يقوم بها أهل جزيرة جربة ، المواجهة لمدينة قابس ، كانت من الأسباب التى تذرع بها روجار الثانى الصقلى لزيادة قطع أسطوله ، الأمر الذي مهد له الهيمنة على السواحل الإفريقية المواجهة لبلاده . فبعد اشتراكه فى فك الحصار عن المهدية كان عليه أن يستولى على جزيرة جربة التى وصف أهلها بأنهم : «طغوا فلا يدخلون تحت سلطان ، فهم مفسدون يقطعون الطريق» (٥٥)، وهذا ولو أن روجار الثانى كان يعرف كيف يهادن المسلمين ويكتسب رضاهم - رغم أطماعه . فقد أعطى الأمان للجربيين المنهزمين ، وفك أسراهم وسبيهم ، وحريمهم - الأمر الذى يدعو إلى عجب ابن الاثير، الذى يختم الرواية بقوله : والله أعلم بذلك (٥٦).

= بعض مشايخ المهدية. أما عن قائد ذلك العسكر فكان أحد الفقهاء من أصحاب يحيى، وهو مطرف بن حمدون، وأنه فى الوقت الذى كان فيه عسكر يحيى يستعدون لاستلام المهدية، ظهر عليهم أهلها فجأة بفضل شجاعة أميرهم الحسن الذى خرج بنفسه من باب الشاطئ رافعا سيفه، وهو يعلن عن نفسه، الأمر الذى كان له تأثيره النفسى على المهاجمين الذين انهزموا أمامه فى التو والحين.

(٥٤)ابن الأثير، ج١١ص٣٢.

(٥٥)ابن الأثير، ج١١ص٣٢-حيث النص على نزول جمع من الفرنج فى أسطول كثير من مشهورى فرسان الفرنج، وأن القتال الشديد انتهى بانهزام أهل جربة، وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا نساءها وأطفالها.

(٥٦)ابن الأثير، ج١١ص٣٢ .

بين القاهرة والمهدية وبلرم :

أما عن العلاقات الطيبة بين المسلمين فى المشرق وإخوانهم مسلمى المغرب ، فكانت مرفوضة من جانب الملك روجار الثانى الصقلى. ففى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١م عندما يعرف عن طريق مخابراته أن مركبا سارت من مصر على أواخر أيام الدولة الفاطمية ، وتحمل هدية إلى الأمير الحسن بن على ، أمير المهدية التى كانت فى حكم التابعة للقاهرة رغم استقلالها الفعلى ، يسيِّر أسطوله لأخذ المركب ومصادرة الهدية . ورغم أن ذلك يعتبر غدرا بالحسن - رغم ماكان يربطه ببلرم من معاهدات هدنة وسلام - فإن هذا الأخير كان لايستطيع الا الرضوخ للأمر الواقع . فهو يرسل إلى الملك الصقلى ، ويطلب تجديد الهدنة «لأجل حمل الغلات من صقلية إلى إفريقية ، لأن الغلاء كان فيها شديدا و الموت كثيراً» (٥٧).

طرابلس (الغرب):

وكما أنزل روجار العقوبة بجزيرة جربة بسبب القرصنة وقطع الطريق سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م ، كان يعاقب بالمثل مدينة طرابلس (الغرب) التى كانت تحت حكم بنى مطروح ، وبموافقة ضمنية من صاحب المهدية ، الحليف ، إذ حصرها فى أواخر سنة ٥٣٧هـ/ يوليه ١١٤٣م ، بالأسطول لأن أهلها لم يدخلوا فى طاعة الأمير الحسن بن على ، بل ظلوا مشاقين له ، مستقلين عن دولته : «قد قدموا عليهم من بني مطروح مشايخ يديرون أمرهم».

والمهم أن مدينة القراصنة المجاهدين ، لم تستطع دفع المهاجمين الذين اعتلوا أسوارها بفضل الكلاليب ، كما أن النجدة التى أتت من عرب الضواحى المجاورين لم تستطع مواجهة الاسطول الصقلى ، إذ :«انهموا هزيمة فاحشة ، وقتل منهم خلق كثير ومحق الباقون بالأسطول»، وانتهى الأمر بنهب أهل البلد وكذلك العرب(٥٨).

(٥٧)ابن الأثير، ج١١ص٩٠ .

(٥٨)ابن الأثير، ج١١ص٩١، وقارن التجانى، ص٢٤١-حيث النص على أنه بعد انتقال =

جيجل :

ورجع الفرنج الصقليون بالأسلحة والأثقال والدواب إلى صقلية لكى يجددوا أسلحتهم ، ويعودوا إلى المغرب من جديد ليهاجموا مدينة جيجل في شرق بجاية ، على الرأس الشرقى للخليج بين المدينتين . ولم يتمكن أهل البلد الضائع فى سفوح الساحل الجزائرى من مواجهة الصقليين فهربوا من بلدهم إلى البرارى والجبال . ودخل الفرنج النورمنديون البلد «وسبوا من أدركوا منها ، وهدموها ، وأحرقوا القصر الذى بناه يحيى بن العزيزين حماد للنزهة ثم عادوا » (٥٩).

الموقف من مقاومة الهيمنة الصقلية الفرنجية :

واضح من هذه الحملات أن ملك صقلية كان يرى أنه صاحب البحر بالامتياز ، وأن العديد من المدن المغربية الساحلية وقفت من تلك الهيمنة موقف المعارضة باللجوء إلى قطع الطريق فى البحر أو القرصنة ، وأنهم كانوا يقعون تحت طائلة العقاب بالاسطول الصقلى ، على أساس أنهم خارجون على سلطانه أو سلطان تابعه الأمير الزيرى أو الحمادى . وهكذا كانت مدينة برشك هدفا للأسطول الصقلى الذي فتحها فى سنة ٥٣٩ هـ / ٥-١١٤٥م ، وقام الصقليون بقتل أهلها وسباء حريمها اللاتى عرضن للبيع على المسلمين فى صقلية - وذلك فى نفس السنة التى كان يتوفى فيها الأمير تاشفين (٦٠) .

وفى سنة ٥٤٠هـ/ ٦-١١٤٥م التالية ، كانت جزائر قرقنة (Pantelleria) ،

= العبيديين إلى مصر استولى بنو خزرون على طرابلس، ولم تزل بأيدى الزناتيين إلى سنه ٥٤٠هـ/٦-١١٤٥م. وانه بسبب المجاعة وخلاف أهل طرابلس نجحت حمله روجار الثانى التى قادها جورجى الانطاكى، وان هذا الأخير أبقى فيها جنده من المسلمين والصقليين، وولى على البلد شيخه : أبا يحيى بن مطروح التميمى، وجعل قاضيهم رجلا منهم يعرف بأبى الحجاج يوسف بن زيرى، وهو صاحب التاليف المعروف "بالكافى فى الوثائق".

(٥٩)ابن الأثير، ج١١ص٩٢.

(٦٠)ابن الأثير، ج١١ص١٠٢ .

فى مواجهة رأس بونة هدفا لغارة ردعية : تدميرية . فلقد سار إليها الأسطول الصقلى «ففتحوها وقتلوا رجالها ، وسبوا حريمهم» . وعندما أرسل الأمير الحسن بن على إلى الملك الصقلى روجار الثانى يذكره بما بينهم من العهود ، اعتذر بأن أولئك المهاجمين لم يكونوا من رعيته الخاضعين لحكمه (٦١) ، فكأنه كانت قد نظمت فى الجانب النورمندى الصقلى شبكة قرصنة أهلية تعمل لحسابها الخاص ، فكأنها قوات معاونة ، إلى جانب منظمة الأسطول الصقلى الحكومى الرسمية.

غزو طرابلس (الغرب) :

ويظهر من سيناريو الأحداث التالية أن العمليات الحربية الصقلية السابقة كانت مجرد ردود فعل غير منظمة لأعمال المقاومة المغربية الأهلية ضد الهيمنة البحرية الصقلية . ولكنه ابتداء من سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م تبدأ سياسة صقلية جديدة إزاء المغرب ، تقضى بفرض الهيمنة بشكل مباشر على سواحل المغرب . وكان البدء بأقصى تلك المواطن الشرقية بالنسبة لصقلية ، وهى مدينة طرابلس (الغرب) التى كانت أشبه ماتكون بمدينة - دولة أو بجمهورية مستقلة بتعبير آخر.

فمن مطلع العقد الخامس من القرن السادس فى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦ م ، وقتما كانت الدولة المرابطية تنهار نهائيا بسقوط مراكش العاصمة ، كان روجار الثانى ، ملك صقلية ، يفتتح مقاومة القرصنة المغربية بسياسة هيمنة صريحة على سواحل المغرب ، وإن اختلفت عن سياسة الاستيطان الاستعمارى المباشر ، التى تعادل حرب الاسترداد فى الأندلس ، وأن اختلفت عنها من حيث كونها توسعا فيما وراء البحار.

ففى يوم ٣ من المحرم من تلك السنة ١٥ يونيه ١١٤٦|شهد روجار الثانى اضطرابات تسود مدينة طرابلس ، وأرسل الأسطول يحاصر المدينة بحراً وبراً . وأثناء انشغال حكام المدينة من شيوخ بنى مطروح بفتنة أثارها أحد زعماء الملثمين الذى كان عائداً من الحج مع جماعة من أهله في المدينة ، انتهز الفرنج الصقليون

(٦١)ابن الأثير، ج١١ص١٠٦ .

الفرصة ، ونصبوا السلالم على سور المدينة ، وصعدوا إلى أعلاه وبذلك سقطت المدينة التى أعطت أسمها للمنطقة الغربية من البلاد الليبية ، عنوة بين أيدى الفرنج الصقليين . وبذلك ثأروا لما كان ينزله بهم غزاة البحر من الطرابلسيين ، فسفكوا الدماء ، وسبوا النساء (٦٢).

ولكنه تبعا لسياسة التهدين والتهدئة التي كان يتبعها روجار (رجار : لجار) إزاء المسلمين - حتي نال التعظيم والتبجيل من الادريسى ، صاحب نزهة المشتاق - نودي بالأمان بعد الفتح ، فرجع الفارون . واستمر الصقليون يحكمون المدينة حكما مباشراً لمدة ٦ (ستة أشهر) ، انتهت بإقرار نظام الحكم غير المباشر ، عن طريق استخدام حكومة محلية ، يرأسها عدد من زعماء المدينة ، تمثلت فى مجلس من الشيوخ من بنى مطروح ، ومن جماعة الحجاج آل الملثم ، بعد أن أعطي المسئولون الجدد الرهائن الذين سير بهم بحراً إلى صقلية . والحقيقة أن ذلك كان لفترة تجريبية لم تدم طويلا ، قبل عودة الرهائن إلى مدينتهم . فلقد عهد بالحكم بعدئذ إلى واحد من بنى مطروح وحده ، وكان عليه أن يقدم رهائنه دون غيره.

والمهم أنه كان من مبادئ الحكم الجديد أيضا ، أن ألزم روجار أهل صقلية والروم بالسفر إلى طرابلس لتقوية العلاقات الاقتصادية العادية بين البلدين ، الأمر الذى أدى إلى سرعة الإعمار وصلاح الأحوال (٦٣).

والمهم أيضا أن فرض السيادة الصقلية علي تراب طرابلس كان موافقا لبداية إقرار عبد المؤمن للنفوذ الموحدى بالأندلس (٦٤). فكأنه كان هناك سباق فى إقرار سياسة متوازنة بين القوتين : النورمندية الفرنجية فى صقلية ، والموحدة المؤمنية فى المغرب الأقصى من أجل اقتطاع أطراف الأقاليم المتاخمة لبلاد كل منهما.

---

(٦٢) ابن الأثير، ج١١ص١٠٨، وقارن عيون التواريخ، لابن شاكر الكتبى، ج٢ص٤٠٧ .

(٦٣) ابن الأثير، ج١١ص١٠٨-١٠٩ .

(٦٤) ابن الأثير، ج١١ص١١٥-حيث استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الأندلس (سنة٥٤١/١١٤٦) .

قابس محمية صقلية :

فى هذه الظروف كانت مدينة قابس المستقلة (٦٥) القريبة من جزيرة جربة ، فى فم خليج قابس ، تدخل فى طاعة الفرنج الصقليين ، ولكنها لاتلبث أن تتخلص من نير الاحتلال (٦٦) . ففى سنة ٥٤٢هـ/ ٨-١١٤٧م توفى أمير قابس التى كانت مستقلة تحت حكم أميرها رشيد (بن رافع بن جامع) الذى كانت تربطه بعرب بنى قرة رابطة الحلف والمصاهرة . فقام بالحكم مكانه مولاه يوسف بصفته المشرف على القصر الأميرى . والظاهر أن المولى يوسف طمع فى حكم الولاية ، فطرد الابن لأكبر

(٦٥)أول من استقل بقابس-حسب رواية ابن خلدون-على عهد المعز بن باديس (ج٣ص١٩٥) هم جماعة من الصنهاجيين، من بنى محمد، هم الاخوة الثلاث : المعزبن محمد ثم ابراهيم ومن بعدهما أخوهما : ماضى بن محمد الذى تخلص منه أهل المدينة بالقتل لسوء سيرته، وذلك على عهد تميم بن المعز بن باديس (ت ٥٠١هـ/ ٧ - ١١٠٦ج٣ص٤٧٧). فكأن قابس كانت تحت حكم بنى محمد الصنهاجيين متمتعة بما يشبه الاستقلال بالحكم الذاتى تحت هيمنة الزيريين.
وبمقتل ماضى بن محمد آل حكم قابس من الصنهاجيين إلى جماعة عرب بنى جامع من الدهمانيين : أحد فروع بنى رياح. وكان أول من وليها منهم : بكر بن كامل بن جامع الذى استبد بالصنهاجيه، بل واستقل عن الزيريين، حيث نازل المهدية إلى جانب أحد أفراد الأسرة الزيرية : مثانى بن تميم بن المعز-ابن خلدون، العبر، ج٦ص١٦٦ .

(٦٦)وبعد بكر بن كامل قام بأمر قابس (الهامش السابق) رافع بن مكن الذى استفحل بها ملكه. وفى سنة٥٤١هـ/٧-١١٤٦م، عندما داهم أسطول صقلية قابس فر رافع بن مكن بن جامع إلى بنى جلدته الدهمانيين من بنى رياح إلى القيروان التى آلت إليه بعد أن اقتسم شيوخ بنى دهمان البلاد وعيّنوا له القيروان، وأمكنوه منها، ومن ثم سالم السلطان الزيرى، وارتفعت بينهما الفتنة.
والمهم أن أمر رافع استفحل حتى نسب إليه اختطاط "بحر العروسين"، بمعنى الماجل الكبير بالقيروان، والذى ينعته التجانى بأنه من مصانع (خزانات الماء) الملك، وحيث يوجد نقش على أحد أبوابه (فتحاته) يرجع إلى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦ باسم "الأمير الشهم رافع بن أمير الأمراء مكن بن جامع (رحلة التجانى، ص٩٥، ابن خلدون، ج٦ص١٦٦، وقارن ابن الأثير فى المتن).
وبعد رافع ولى ابنه رشيد بن نافع بن جامع (ابن خلدون، ج٦ص١٦٦، وقارن التجانى، ص٩٥-حيث الاسم : رافع بن كامل بن جامع، وابن الأثير فى المتن) الذى بلغ ملك بنى جامع الذروة أيامه بقابس، فهو الذى بنى قصر العروسين، كما ضرب السكة الرشيدية.

لرشيد ، وهو : معَمر ، وأعلن ولاية الابن الأصغر ، وهو محمد ، تحت وصايته . ولاندرى أن كان فى الأمر مؤامرة حريم من مؤامرات البلاط التى كانت معهودة فى قصور تلك العصور ، والتى كانت تعج بالحريم والغلمان. وفى ذلك تقول الرواية أن المولى يوسف «تعرض لحرم سيده – والعهدة على ناقله – ومنهن أمرأة من بنى قُرَّة، شكت إلى اخوتها فأتوا لأخذها ، فرفض (يوسف) ، وقال«حرمة مولاى»(٦٧).

وتطور الأمر إلى استنجاد معمَّر بن رشيد وأصهار والده بنى قرة بالأمير الحسن بن على صاحب المهدية ، وباعلان يوسف طاعته لملك صقلية الذى أرسل اليه الخلعة ، كما كان الحال بالنسبة لبنى مطروح فى طرابلس . ولكن الكلمة الأخيرة فى هذا النزاع كانت لأهل قابس بسبب الذين انحازوا إلى جانب الحسن ، وسلموا المدينة إلى عسكره . وهنا أخذ يوسف أسيراً ، ومُثِّلَ به كخائن لأمانة سيده .. وولى معمَّر قابس مكان أخيه الصغير محمد (٦٨).

الشدة العظمي وفتح المهدية :

والمهم بعد ذلك أن أخا يوسف وولده قصدوا ملك صقلية روجار . فكانت تلك الواقعة سببا في فتح المهدية نفسها فى السنة التالية.

مما سبق يتضح أن روجار الثانى ، ملك صقلية كان يوالى ضغطه على امارات الطوائف فى السواحل الافريقية التى كانت تذعن بطبيعة الحال إلى هيمنته خلال سنوات العقد الرابع من القرن السادس الهجرى / ١٢م ، بينما كان كل من عبد

(٦٧)انظر ابن الأثير، ج١١ص١٢٠-١٢١، وقارن ابن خلدون، ج٦ص١٦٦-حيث لا يعرف هنا بمؤامرة حريم البلاط التى تمثل صلب رواية ابن الأثير، فهو يكتفى بالإشارة إلى ولاية محمد بن رشيد بعد ذلك، وغلبة مولاه يوسف عليه، ثم استبداده بملك قابس بعد طرد محمد. وينتهى يوسف بإعلان الطاعة لروجار ملك صقلية، وثورة أهل قابس، الأمر الذى انتهى بتدخل الملك الصقلى الذى حاصر المدينة التى كان بها آخر بنى جامع، وهو مدافع بن رشيد (بن كامل)، وهو الذى فرّ عن قابس، وسلمها للموحدين قبل أن يلحق بعبد المؤمن .

(٦٨)ابن الأثير، ج١١ص١٢٠-١٢١ .

المؤمن، وعلى بن يوسف مشغولين بحرب المطاولة التى انتهت بسقوط دولة لمتونة المرابطية. وكانت فرصة انفرد فيها الملك الصقلى بامارات الطوائف الإفريقية ، مما تقدمت الاشارة اليه. وإلى جانب مأساة الحروب المحلية هذه فى افريقية ، وتطلع الجميع إلى الاستعانة بالسيد الفرنجى القابع فيما وراء البحر فى بلرم بصقلية ، أتت الظروف المحلية الصعبة، من : الجدب والقحط والوباء خلال السنوات الأخيرة من ذلك العقد الرابع، بل واضطرار أعداد من أهل إفريقية إلى الهجرة إلى صقلية بحثا عن الطعام (٦٩) لتزيد الطين بلة.

وكان من الطبيعي أن تؤدي كل تلك الظروف السيئة من سياسية واجتماعية - وخاصة مشكلة رشيد فى قابس سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦ م - إلى سقوط المهدية عاصمة الدولة الزيرية ، ولكن بين أيدي النورمنديين من الفرنج الصقليين ، هذه المرة . أما عن تأخير سقوط الدولة الزيرية إلى سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م ، فكان فضلا من روجار الثاني الذى وفّى للحسن صاحب المهدية بمدة السنتين اللتين كانتا تكملان فترة الهدنة والسلم بينهما ، فكأن المهدية سقطت كما تسقط الثمرة الناضجة بيدى من كان ينتظرها تحت الشجرة - وذلك فى نهاية شدّة الغلاء والقحط سنة ٥٤٣هـ/ ٩-١١٤٨م.

مسير الاسطول الصقلى إلى المهدية :

فأمام تلك الشدة العظمي وماكان يترتب عليها من ضعف المهدية وبلائها الذي بلغ الذروة ، انتهز الملك روجار الفرصة : «فعمّر حوالى ٢٥٠ سفينة مملوءة بالرجال والسلاح والأقوات» . وسار الأسطول بقيادة جورجى الانطاكى نحو المهدية . وعندما

(٦٩)انظر ابن الأثير، ج١١ص١٢١-حيث أدى الغلاء المتواصل فى إفريقيه بدءا من سنة٥٣٧هـ/١١٤٢م وحتى ٥٤٣هـ/١١٤٨م إلى "أن يأكل الناس بعضهم بعضا، وقصد أهل البوادى المدن من الجوع فأغلقها أهلها دونهم، وتبعه وباء وموت كثير....فخلت البلاد....وسار كثير منهم إلى صقلية فى طلب القوت، وقارن رحلة التجاني، ص٣٤١-حيث النص بمناسبة الغزو الصقلى للمهدية ان الغلاء المتوالى كان أضعف أكثر جند الحسن وأهلك خيلهم..

وصل إلى جزيرة قوصرة - بين المهدية وصقلية - أخذ أحد المراكب القادمة من المهدية ، واستخدم ما فيها من الحمام الزاجل لإرسال إشارة تقريرية تدل على أن الاسطول الصقلى «المخذول» كان فى طريقه إلى حرب الباسيليوس (Basileus) قيصر الروم ، فى عقر داره بالقسطنطينية (٧٠).

وكان قصد قائد الأسطول الصقلى ان يصل إلى المهدية بغتة «وفى وقت السحر ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها» صباحاً . ولكنه لما عّوقت الأحوال الجوية - بسبب ركود الريح - تلك المفاجأة ، إذ رآهم أهل المهدية وهم يتقدمون بالمقاذيف ، رأى جورجى ان يتذرع بالمجئ :« طالبا بثأر محمد بن رشيد - أمير قابس الصغير المخلوع - وأنه يحترم الهدنة ، ولايطلب إلا المساعدة العسكرية من المهدية».

موقف الحسن : المهدية مدينة مفتوحة :

وعندئذ جمع الحسن مجلس شورته من الفقهاء والأعيان . ومع أن النقاش انتهى إلى ضرورة الدفاع ضد العدو بفضل حصانة البلد ، فإن الأمير كان له رأى آخر هدفه «سلامة المسلمين ... وان الرأى أن يخرج بالأهل والولد ، وترك البلد، ومن رأي ان يفعل ذلك، فليبادر معنا». وهكذا خرج الناس علي وجوههم ، ومن الناس من اختفى عند النصارى ، وفى الكنائس . كل ذلك قبل ان يتمكن الاسطول الذي منعه الريح من الرسو الا بعد ثلثى النهار ، حتى خرج كل من أراد الخروج.

---

(٧٠)ابن الأثير، ج١١ص١٢٥-١٢٦، وقارن رحلة التجانى، ص٣٤٠-٣٤١-حيث مقدمات الغزوه الصقليه للمهدية تتمثل فى سوء العلاقة بين صاحب بجاية وصاحب المهدية، الامر الذى دفع الحمادى إلى ان يبعث اسطولا لحصار المهدية بحرا وجيشا يحاصرها برا، الأمر الذى دعا الحسن بن على إلى ان يستمد لجار(روجار) الذى أمدّه بأسطوله الصقلى. أما عن مقدمات الاعمال الحربية بين روجار والحسن فتمثلت فى اخذ الاسطول الصقلى بعض المراكب الراسية فى المهدية بأعمالها إلى صقلية، وبضمنها المركب الذى كان أعده الحسن بذخائر ملوكية للحافظ العبيدي فى مصر .

أما عن عملية غزو المهدية فقد تمت سنة ٥٤٣ هـ حيث طلع جورجى (جرجير) علي المهدية بـ٣٠٠(ثلاثمائه) مركب للفرنج بحجة طلب عسكر لمساعدة ابن رشيد بقابس وان جورجى (بن منويل) خادعهم(أهل المهدية) بأنهم جا ءوا مدداً له(للحسن بن على).

وهكذا دخل الفرنج البلد «بغير مانع ولادافع» ودخل جورجي القصر «فوجده على حاله ... وفيه جماعة من حظاياه ... وختم على الخزائن» ، وكانت نهاية آل زيرى (٧١).،

والمهم أن عاصمة عبيد الله المهدى «نهبت مقدار ساعتين ، ونودي بالأمان فخرج من كان مستخفياً». وفى نهاية اليوم الثانى أرسل جورجي إلى من قرب من العرب فاستقبلهم وأحسن اليهم ، وأعطاهم المال الجزيل . ومن ثم أرسل الأمان إلى من خرج من أهل المهدية ، «وبعث إليهم الدواب يحملون عليها الأطفال والنساء ، وكانوا قد أشرفوا على الهلاك جوعا». «ولم تمض جمعة حتى رجع أكثر أهل البلد».

أما الأمير الحسن فسار بأهله وولده وخواصه قاصداً الزعيم الرياحى محرز بن زياد بالمعلقة (٧٢) . وأقام الحسن لدى الزعيم العربي عدة شهور ، وهو كاره لذلك. وأخيراً فكر في المسير إلى مصر بحراً ولكنه خشى الاسطول الصقلى . وتقول الرواية إنه عزم على المسير إلى عبد المؤمن ، ولكن ابن عمه يحيي بن العزيز الحمادى لم يسمح له بذلك بل سيره إلى مدينة الجزائر (جزائر بن مزغناى) حيث بقي هناك وأولاده - تحت التحفظ - إلى أن ملك عبد المؤمن بن على بجاية فى سنة ٥٤٧هـ/

(٧١)ابن الأثير، ج١١ص١٢٧-حيث تعداد الزيريين ٩(تسعة) ملوك، ومده إقامتهم من سنة ٣٣٥-٥٤٣هـ/٩٤٦-١١٤٨م، تعادل ٢٠٨سنة، وانظر رحلة التجانى، ص٣٤١-حيث قرر الحسن ترك المدينة، ووصول ألاسطول الصقلى بعد ان واتته الريح فوجدوا المهدية خالية. وان روجار (الجار) أمن الفارين من المهدية فعاودوا وفرق عليهم الطعام والمال. فأغتبط الناس بالمهدية لما رأوا من عدل النصارى.

وقارن ابن خلدون، ج٦ص١٦٢-حيث النص على ان الحسن كان قد توجه صريخا لمحرز بن زياد الفادعى، صاحب ابن خراسان : صاحب تونس، فلم يجد صريخا (محالها) عند المهدية....ورحل واتبعه الناس، ودخل العدو المدينة وتملكوها دون دفاع. ووجد جورجى القصر على ما هو لم يرفع الحسن الا ما خف....فأمن الناس وأبقاهم تحت إيالته ورد الفارين إلى أماكنهم.

(٧٢)انظر كتاب الاستبصار، ص١٢٢-حيث المعلقة "احد قصور المعلقة". وبناؤه من أغرب ما يكون من البناء، مفرط العظم والعلو.

١١٥٢م(٧٣).

سقوط مدن الساحل:

وكان أخذ المهدية نذيرا بسقوط بقية مدن الساحل ، مثل سفاقس ، بعد مقاومة دامت أسبوعا بفضل من أتاهم من العرب . ولكن الأمر انتهى في ٢٣ من صفر سنة ٥٤٣ هـ / ١٥يوليـه ١١٤٨م بأسر من تبقي من الرجال وسبي الحريم ثم نودى بالأمان.

أما عن سوسة (ميناء القيروان) فقد استسلمت بعد خروج علي بن الحسن إلى أبيه بالجزائر، فلما خرج بالناس دخل الفرنج المدينة دون قتال . وبعد ذلك وصلت كتب روجار لجميع أهل افريقية بالأمان والمواعيد الحسنة.

كل ذلك والنجح مصاحب للأسطول الصقلي وقائده جورجي الذى لم يلق مقاومة

---

(٧٣)ابن الأثير، ج١١ص١٢٧-١٢٨ وقارن رحلة التجاني، ص٣٤١-٣٤٣-حيث قرر الحسن الذهاب إلى مصر ثم رأى المسير إلى عبد المؤمن، فانفذ كبار ولده يحيى وتميما وعليا إلى ابن عمه يحيى بن العزيز الذى أرسل أخاه قائد بن العزيز لاستقبال الحسن، والعدول به عن بجاية إلى الجزائر، ففعل.... ونزلوا في مكان لا يليق بهم.

وقارن ابن خلدون، ج٦ص١٦٢-حيث "ان الحسن بن علي (يحيى أصلا) لحق بالعرب من رياح وكبيرهم محرز بن زياد الفادعى، صاحب المعلقة (القلعة أصلاً في رأس بونة) فلم يجد لديهم صريخا، وأراد الرحيل إلى مصر (للحافظ : عبد المجيد).

فارصد له جرجى، وأرتحل إلى المغرب، وأجاز إلى بونة، وبها الحارث بن منصور وأخوه العزيز ثم توجه إلى قسنطينة وبها سبع بن العزيز أخو يحيى صاحب بجاية، فبعث إليه من أجازه إلى الجزائر (جزائر بني مزغناى)، ونزل على ابن العزيز (سبع) فأحسن نزله، وجاوره إلى ان فتح الموحدون الجزائر سنة٥٤٧هـ/١١٥٢م....فخرج إلى عبد المؤمن فلقاه تكرمة وقبولاً، ولحق به، وصحبه إلى افريقية في غزواته الأولى (ثم الثانية سنة٥٧(٥)هـ)، فنازل المهدية وحاصرها أشهرا ثم افتتحها سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م وأسكن بها الحسن، وأقطع..... وأقام هناك ٨(ثمان) سنوات إلى أن استدعاه يوسف ابن عبد المؤمن سنة٥٦٣هـ/ ١١٦٧م إلى مراكش، فهلك وهو الطريق في تامسنا.

عنيدة إلا فى قلعة اقليبية الحصينة، فى شبه جزيرة بونة (قرب المعلقة) التى اجتمع اليها العرب وهزموا الفرنج الذين قتل منهم خلق كثير، فعاد المنهزمون منهم إلى المهدية.

أما عن مدينة مليانة فلا نعرف إلا أن الموحدين استعادوها قريب ذلك الوقت فى سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩ م(٧٤).

وبذلك صار للفرنج الصقليين مابين طرابلس (الغرب) وتونس ، ومن المغرب إلى ما دون القيروان - والله أعلم (٧٥).

وفى ختام هذا العرض المثير للتوسع الصقلى النورمندى خلال العقود الأربعة من النصف الأول للقرن السادس الهجرى / ١٢م، يعرض ابن الأثير للعلاقات العدائية التى كانت سائدة وقتئذ بين فرنج صقلية وروم القسطنطينية ، وكأنها خاتمة لتفسير الظروف الوحيدة التى كانت مساندة للجانب الإفريقى بأطرافه المختلفة ، فى صراعه ضد الهيمنة الصقلية . ويترتب ذلك على أنه كانت بين صاحب صقلية وملك الروم حروب دامت عدة سنين . «فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ، ولولا ذلك لملك رجار جميع بلاد إفريقية» (٧٦).

وإذا كانت رواية ابن الأثير تشير بعد ذلك إلى أن ماتحقق لروجار الثاني من الظفر كان بفضل قائده ووزيره جورجى بن ميخائيل الانطاكى الذى توفى فى سنة

(٧٤) روض القرطاس، ص١٩١ .

(٧٥) ابن الأثير، ج١١ص١١٨-١١٩ وقارن رحلة التجانى، ص٣٠ : عن سوسة، حيث : العرب فى سوسة استقرت آخرا تحت ملك جبارة بن كامل بن سرحان بن إبى العينين، ومن يده أخذها النصارى حين أخذوا المهدية من يد الحسن. وص٧٤-عن صفاقس، حيث : استيلاء روجار (الجار) عليها سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م-وأخذ الرهائن، ص٢٤٢، عن طرابلس (الغرب)-حيث بقيت ١٢(اثنتا عشرة سنة)تحت حكم النصارى إلى وصول الموحدين إفريقية.

(٧٦) ابن الأثير، ج١١ص١٤٥-حيث الإشارة إلى أن القتال بين الصقليين والروم كان برا وبحرا، وأن الظفر عادة ما كان لصاحب صقلية حتى إن أسطوله وصل فى بعض السنين إلى مدينة القسطنطينية، ودخل فم الميناء ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب.

٥٤٦هـ/ ١١٥١م وكانت وفاته سببا فى هدوء الأحوال ، وتنفس المسلمون فى إفريقية الصعداء (٧٧). فهنا لابأس من الإشارة إلى أنه فى تلك السنة التى مات فيها جورجى الانطاكى (سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م) كان الروم البيزنطيون يستولون على مدينة عسقلان (جنوب الشام) بعد أن عجزت الحامية عن الدفاع عنها ، وطلبت الأمان (٧٨). والذى نراه انه ينبغي الإشارة أيضا إلى أن النهضة المغربية ، وخاصة على المستوى السياسى والعسكرى - إلى جانب الحضاري كانت من الأسباب الرئيسية لإعادة التوازن إلى كفتي الميزان فى البلاد الافريقية بعد اختلالها ، وكذلك الأمر بالنسبة للأحوال المختلة فى الأندلس ، وهذا مالا يغيب عن فطنة ابن الأثير بطبيعة الحال . ويبدأ ذلك التحول فى ميزان القوى بين الصقليين والموحدين بغزو مدينة بجاية ، وإنهاء حكم بنى حماد الزيريين.

فتح بجاية سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م :

بدأ عبد المؤمن فى تنفيذ الوعد الذي كان قد قطعه على نفسه سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م لأهل افريقية عند سقوط المهدية بأن ينصرهم «ولو بعد حين» (مايأتى ، ص٤٠١). والحقيقة أن رواية فتح بجاية تعبر عن الظروف الحرجة التى كانت تمر بها دولة الخليفة عبد المؤمن فى ذلك الوقت من سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢ م، وذلك عقب فترة «الاعتراف» والتهدين فى بلاد المغرب . والواقع أن الحشد العسكرى الكبير قد بدأ فى سلا فى اواخر سنة ٥٤٦هـ/ مارس ١١٥٢م ، ومن حيث كان الخروج بعد خمسة أشهر ، فى شهر صفر سنة ٥٤٧هـ/ مايه ١١٥٢م (٧٩) .

---

(٧٧)ابن الأثير، ج١١ص١٤٥-هذا مع الإشارة إلى أن جورجى الانطاكى ألمت به عدة أمراض، منها البواسير والحصاة، ومات فى سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م فسكتت الفتنة، واستراح الناس من شره وفساده، ولم يكن لصاحب صقليه من يفى مقامه بعده .

(٧٨)انظر ابن شاكر الكتبى، عيون التاريخ، ج١٢ص٤٤٤-حولية سنة٥٤٦هـ/٢-١١٥١م.

(٧٩)انظر النويرى، ابو ضيف، ص٤١٥، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٥-حيث النص على ان سبب فتح عبد المؤمن لإفريقية هو اختلاف الأمراء واستطالة العرب عليها بالعبث والفساد =

بناء رباط الفتح :

وهنا كانت بداية العمل فى إنشاء مدينة رباط الفتح ، وإجراء الماء من عين غبولة إلى هناك ، ثم حفر أساسات المدينة والقصر أو القصبة ، الأمر الذى تم خلال الأشهر الخمسة (٨٠). وأثناء إنجاز تلك الأعمال الإنشائية فى رباط سلا الجديد (رباط الفتح) كانت حشود العساكر تفد على سلا ، الأمر الذى دعا إلى الظن أن العمليات العسكرية المنتظرة كانت ستوجه إلى الاندلس . وفي ذلك يقول البيدق : «.... وترك (عبد المؤمن) على أشغالها (سلا) عبد الحق بن ابراهيم بن جامع ، فمشينا ... وقال الناس «لبر الأندلس يسير» (٨١) . وهنا لابأس من الإشارة إلى أن هذه المقولة أدت الي الربط بين بناء رباط الفتح (الرباط العاصمة) وفتح الأندلس على أيدى الموحدين، وهذا ليس بصحيح من وجهة النظر العسكرية من حيث أن سلا ترتبط استراتيجيا مع بلد برغواطة (وبلادها تامسنا) حقيقة ، بينما تعتبر سبتة ، من حيث هى شاطئ المجاز والعبور ، الرباط الحقيقي للأندلس.

والمهم أنه سرعان ما اتضح أن المقصود بالعملية العسكرية الكبري المنطلقة من سلا هى مدينة بجاية : العاصمة الحمادية ، المهددة ، من جانب روجار الصقلى. فقد صدرت الأوامر بمنع الناس من السفر على الطرق المؤدية إلى المغرب الأوسط ، براً وبحراً ، وهى المسالك الموصلة مابين سلا ومكناسة وفاس وتلمسان . «وشدّد (عبد المؤمن) فى ذلك ، وجعل أمناء علي الطرق لئلا يسلكها أحد ، حتى أنه أنزل عقوبة

= حيث حاصروا القيروان، كما قام الرئيس الرياحى المرداسى (العربى) بدخول باجه وملكها سنة٥٤٦هـ/١١٥١م، فاجمع عبد المؤمن الرحلة إلى غزو افريقية بعد استشارة الشيخ أبى حفص، وأبى إبراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه، فخرج من مراكش سنة ٥٤٦هـ وسار إلى سبته حيث اطمأن على أحوال الأندلس، قبل المسير إلى باجة، وفى الطريق دخل الجزائر على حين غفلة، فخرج له الحسن بن على صاحب المهدية فصحبه -بمعنى ان ذلك كان مقدمة فتح بجاية سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م.

(٨٠)البيدق، ص٤٨، وقارن النويرى، أبو ضيف، ص٤١٥، حيث النص على جمع العساكر فى سبتة وليس فى سلا كما هو الحال عند البيدق وابن الأثير، وهو ما أخذنا به .

(٨١)البيدق، ص١٠٥-١٠٦، وقارن ابن الأثير، ج١١ص١٥٨ .



الرباط – باب الوداية – أسوار المدينة القديمة

القتل ببعض العبيد من الخاصة عندما قال له :«كذا يفعل أمير المؤمنين فى بجاية - ان شاء الله» (٨٢).

وفى ضوء هذه الأجراءات الاحترازية تم الخروج من سلا إلى سبتة دون أن يعلم أحد الطريق الذى سلكه الجيش ، وكان الخروج من سبتة فى صفر سنة ٥٤٧هـ / مايه ١١٥٢م ، مع الحرص على سلوك طريق ليس من المعهود سلوكها ، مع الإسراع فى السير ، وطوى المراحل طياً ، وتلقي الامدادات فى المنازل والمحطات على طول الطريق ، حتى لم يشعر أهل بجاية إلا وعبد المؤمن فى أعمالها (٨٣).

وكانت مفاجأة أذهلت الأمير يحيي بن العزيز ، آخر الحماديين ، والذى كان مولعا بالصيد واللهو (الموسيقى) والنساء ، فترك عاصمته ولجأ إلى قسنطينة (قسنطينة الهواء) (٨٤) ، بينما هرب أخواه الحارث وعبد الله إلى صقلية بحراً . وكان من الطبيعى أن ينهزم أهل بجاية دون قتال ، أمام مقدمة عبد المؤمن التى كانت تزيد على ٢٠,٠٠٠ (عشرين ألف) فارس . وهكذا دخلت المقدمة إلى المدينة دون مقاومة ، قبل يومين من وصول عبد المؤمن خلفها . والمهم أن يحيى صاحب بجاية نزل الي عبد المؤمن وبذلك دخلت جميع بلاد بني حماد فى طاعة الموحدين ولابأس من الإشارة هنا إلى أنه عندما استسلمت مدينة الجزائر حيث كان الحسن بن على ، صاحب المهدية ، قدم الحماديون هناك الحسن على أنفسهم ، وساروا إلى عبد المؤمن الذى أمنهم (٨٥). وتعليقا على ذلك يذكر ابن الأثير: «وكان يحيى قد فرح

---

(٨٢)البيدق، ص١٠٦، وقارن ابن الأثير، ج١١ص١٥٨-حيث النص : "فأرسل وقطع السابلة من بلاد المغرب براً وبحراً".

(٨٣)البيدق، ص١٠٦، ابن الأثير، ج١١ص١٥٨، النويرى، ص٤١٥، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٣٦-حيث الإشارة إلى اعتراض صنهاجة للجيش الموحدى فى موضع أم العلو فهزمهم، وأنه صبح بجاية فدخلها.

(٨٤)ابن الأثير، ج١١ص١٥٩، وقارن ابن خلدون، ج٦ص١٣٦-حيث : وركب يحيى بن العزيز البحر فى أسطولين كان أعدهما لذلك، واحتمل فيهما ذخائره وأمواله ولحق بقسنطينة إلى أن نزل بعد ذلك على أمان عبد المؤمن، واستقر بمراكش تحت الحماية والعناية إلي أن هلك.

(٨٥)ابن خلدون، ج٦ص١٧٧، وحيث النص على انه خلال ذلك دخل الموحدون القلعة عنوة كما نزل يحيى بن العزيز لعبد المؤمن عن قسنطينة، وأن عبد المؤمن نقله إلى مراكش.

لما أخذت بلاد إفريقية من الحسن بن على (آخر الزيريين) فرحاً ظهر عليه سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م فكان يذمه ويذكر معايبه» . والمهم أن عبد المؤمن أرسل يحيى بن عبد العزيز إلى بلاد المغرب حيث أقام بها ، وأجرى عليه شيئا كثيراً (٨٦)

ومن المهم الاشارة إلى أنه لما فتح عبد المؤمن بجاية لم يتعرض إلى مال أهلها ولاغيره ، وسبب ذلك ان بنى حمدون (من الوزراء والقواد) استأمنوا فوفى لهم بأمانة (٨٧).

ردود الفعل لسقوط بجاية بني حماد :

ثورة قبائل صنهاجة :

رغم استسلام الأسرة الحمادية للأمر الواقع أمام سطوة عبد المؤمن وآلته الحربية القوية ، فإنه كان من الطبيعى أن يكون لسقوط الدولة الحمادية صدي مناسب لدي قبائل صنهاجة المغرب الأوسط ، عصبية تلك الدولة ، تماما ، كما كان رد فعل صنهاجة المغرب الأقصي ، عصبية لمتونة من الملثمين ، سببا فى القيام بعمليات «الاعتراف» والتمييز عقب سقوط مراكش ، مما سبقت الإشارة إليه (ص ٣٥٥).

---

(٨٦) ابن الأثير، ج١١ص١٥٩، وقارن النويرى، ص٤١٦، والبيدق، ص١٠٧-حيث النص على توحيد أهل بجاية، كما وحّد القائد ميمون بن حمدون، ونزول عبد المؤمن فيها، هذا، كما يورد البيدق رواية رمزية (اسطورية الطابع) تقول : ان عبد المؤمن دار فى وصوله إلى بجاية حول ربوة كان فيها قبر الكاهن الجاهلى سطيح، وعندما سئل عبد المؤمن عن ذلك، قال : "ان هذا العابد قال : ازيلونى عن هذا القبر لئلا تدوسنى خيل عبد المؤمن بن على الكومى-فكانّه قدر مقدر من الأزل". وقارن رحلة التجانى، ص٣٤٣-حيث وصول عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط وأخذه مليانة والجزائر. وقرّب عبد المؤمن الحسن واستصحبه معه. وان الحسن هو الذى أغراه-نكاية فى ابن عمه الحمادى-بأخذ بجاية فاستولى عليها بعد أن هزم صنهاجة فى جبل بنى زلدوي (وص٣٤٤-حيث وفر يحيى بن العزيز وكان يروم التوجه إلى برقة ثم بغداد، ولكنه سار إلى قسنطينه، وبها ابن عمه(الأصل أخوه) ثم دخل فى إيالة الموحدين، فانزل مع ابن عمه الحسن).

(٨٧)ابن الأثير، ج١١ص١٥٩، وقارن النويرى، ص٤١٥.

وكان قائد الحركة الصنهاجية المضادة للموحدين فى بجاية وأعمالها ، رجلا من بنى زلدوى إحدى بطون صنهاجة ، يعرف بأبى قصبة . نجح هذا الرجل فى انتهاز فرصة وجود الخليفة عبد المؤمن فى خاصة من رجال الحاشية وأفراد الحرس الأميري (عبيد المخزن) ، وأعلن التمرد على واقع الحال الحمادى ، ونجح فى لم شمل عدد من القبائل الحليفة لصنهاجة إلى جانب بنى جلدته من بنى زلدوى ، مثل : كتامة ولواتة وغيرها . والظاهر أن الأمر كان مفاجأة لعبد المؤمن الذى خاف من انتكاسة تصيب طاعة بنى حماد وأنصارهم من القبائل ، ورأى أن يعمل على الرفع من معنويات رجاله المحيطين به فى بجاية ، من : رجّالة ، ومن متطوعة «السوقة» من غير رجال الجيش النظامى . فبعد أن نظمَ رجاله هؤلاء ، قال : «اعطونى القناة (الرمح) بيدى» ، فكأنه سيكون على رأس هؤلاء المقاتلين . والحقيقة أنه «كان لم يمسكها (القناة) منذ عام البحيرة» ، أى منذ خلافته لابن تومرت ، سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م ، منذ أكثر من ٢٠ (عشرين) سنة (٨٨).

وإذا كانت رواية البيدق تشيد بالخليفة البطل ، وتنسب إليه فضل الخروج بجماعته من متطوعة السوقة لقتال الثوار ، فإن رواية ابن الأثير تعتبر أكثر قبولا من حيث الواقعية . فهى تنص على أن « عبد المؤمن أرسل إلى الثوار جيشا كثيرا ، تحت قيادة أبى سعيد يخلف ، وهو من «أهل الخمسين» ، وإن اللقاء بين الفريقين تم فى عرض الجبل ، شرقي بجاية ، وانتهى القتال بهزيمة أبى قصبة ، ومقتل أكثر رجاله . وبذلك نهبت أموالهم ، وسبيت نساؤهم وذراريهم (٨٩).

سقوط قلعة بنى حماد:

أما عن مدينة القلعة (قلعة بنى حماد) العاصمة الحمادية القديمة ، فهناك خلاف بين كل من روايتى ابن الأثير التى تجعل من القلعة مدينة مفتوحة يدخلها الموحدون دون قتال ، وبين الرواية التى يقدمها ابن خلدون والتى تجعل من فتح القلعة مذبحة

(٨٨)البيدق، ص١٠٨، وقارن ابن الاثير، ج١١ص١٦٠، والنويرى، ص٤١٦ .

(٨٩)ابن الأثير، ج١١ص١٦٠، وقارن النويرى، ص٤١٦ .

كبرى لاتتم إلا ضدّ مدينة عنيدة في عدائها للموحدين ، فلا تستحق بعد المعاناة فى فتحها إلا القتل والإحراق والتدمير.

فرواية ابن خلدون تقول إن عبد المومن سيّر ابنه (أبا محمد) عبد الله إلى القلعة ، وكان بها أخو الأمير يحيى وهو : جوسن بن العزيز فى جموع صنهاجة فافتتحها فى معركة دامية قتل فيها الأمير جوسن ، كما استلحم من كان بها من صنهاجة ، وإن النار أضرمت في مساكنها وإن القتال أسفر عن موت ١٨,٠٠٠ (ثمانية عشر الف) رجل ، وإن المنتصرين حصلوا من الغنائم والسبى الشى الكثير (٩٠).

أما عن رواية ابن الاثير فيفهم منها أن سقوط القلعة كان نتيجة طبيعة لهزيمة صنهاجة وكسر شوكتها ، إذ تابع الموحدون المسير إليها فى الداخل فى قنه الجبل الشاهق جنوب بجاية ، وأنهم استولوا عليها دون قتال . فلقد هرب أهلها أمام العسكر الموحدى فى رؤوس الجبال ، وأخذ جميع مافيها من مال وغيره ، وحمل (المال) الى عبد المؤمن فى بجاية فقسمة بين الرجال (٩١).

والحقيقة إنه يمكن التوفيق بين الروايتين المتباينتين على أساس أن المعركة الدامية التى يصفها ابن خلدون كانت خارج القلعة ضد قبائل صنهاجة، الأمر الذي جعل القلعة بعد ذلك مدينة مفتوحة حقا يفعل بها المنتصرون ما أرادوا ولو لبعض الوقت، كما كان يسمح العرف - دائما- بين المتحاربين.

وقوف عرب افريقية ضد الوجود الموحدى «بالمغرب» :

والى جانب معارضة قبائل صنهاجة وكتامة - عصبية الخلافة الفاطمية ، ومن ثم توابعها الزيريين - للوجود الموحدى فى إفريقية الحمادية ، كان من الطبيعي وبالقياس، أن لايرضي العرب الهلالية و ومن انضاف اليهم من الاثبج وعدى ورياح وزغبة وغيرهم ، عن الهيمنة الموحدية على بلادهم .

(٩٠)العبر، ج٦ص٢٣٦ .

(٩١)ابن الأثير، ج١١ص١٦١، وقارن النويرى، ص٤١٦ .

وفي ذلك تقول رواية ابن الاثير ، في حولية سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣ م ، أنه «لما ملك عبد المؤمن بلاد بني حماد ، إجتمعوا من أرض طرابلس إلى أقصى المغرب وقالوا : إن جاورنا عبد المؤمن أجلانا من المغرب ، .... والرأى إخراجه من البلاد قبل أن يتمكّن» . وفي ظل هذا الشعار تحالف أولئك العرب «على التعاون والتضافر ، وان لايخون بعضهم بعضا وعزموا على لقائه بالرجال والأهل والمال» ، في حرب كلية ، مما يعرف عند العرب بـ «قتال الحريم».

وانتهز ملك صقلية روجار الفرصة ليستغل ذلك الوضع لصالحه ، فاتصل بأمراء العرب ، وهم : محرز بن زياد ، وجبارة بن كامل ، وحسن بن تغلب ، وعيسى بن حسن ، وغيرهم ، يحرضهم علي حرب عبد المؤمن ، بل ويعرض عليهم معونة عسكرية من ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) فارس من رجال الفرنج النورمنديين ، على شرط أن يرسلوا إليه الرهائن . وهنا ظهرت الشهامة العربية في الرفض مع توجيه الشكر على أساس أنهم لايستطيعون قبول العون من غير المسلمين.

يوم سطيف :

وبطبيعة الحال كان عبد المؤمن ، الذي رحل من بجاية الى المغرب ، علي دراية بما يدبر له في الخفاء ، وبناء على ذلك أعدّ جيشا من ٣٠,٠٠٠ (ثلاثين ألف) فارس ، بقيادة كل من عبد الله بن عمر الهنتاتي ، وسعد الله بن يحيى . واستعد العرب بدورهم وخرجوا إلى لقاء الموحدين في أعداد لاتحصى.

وكانت خطة الجيش الموحدي المنظم ألا يدخل مع العرب في حرب على طراز الكَر والفَر التي يتقنونها ، بل عمل الموحدون علي استجرارهم خلفهم وكأنهم منهزمون ، وظل العرب يتبعونهم الى أن وصلوا الى أرض سطيف المحصورة بين الجبال ، ومن ثم حملوا عليهم حملة فجائية وهم على غيرْ أهبة ، وذلك في غرة صفر سنة

٥٤٨هـ/ ٢٨ ابريل ١١٥٣م . واقتتل الطرفان أشد القتال وأعظمه ، وانجلت المعركة عن انهزام العرب هزيمة فاحشة ، وانتصار الموحدين نصرة مبينة . وهكذا «ترك العرب جميع مالهم ، من : أهل ومال وأثاث ونعم ، فأخذ الموحدون جميع ذلك(٩٢).

وقسّم عبد المؤمن جميع الأموال على عسكره ، وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط ، ووكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم ، ويقوم بحوائجهم.

وفي مراكش أنزلهم في المساكن الفسيحة ، وأجري عليهم النفقات الواسعة . ومن ثم أمر ابنه أبا عبد الله محمد أن يكاتب أمراء العرب ، ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة. وأمرهم أن يحضروا ليسلمهم إليهم ... وأنه قد بذل لهم الأمان والكرامة . وفعلا سارع أمراء العرب إلى المسير الى مراكش . وهناك أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم ، وأحسن إليهم ، وأعطاهم الأموال الجزيلة ، وأقاموا عنده.

(٩٢)ابن الأثير، ج١١ص١٨٥-١٨٦-حيث الرواية فى شكل مضطرب إن قيادة الجيش الموحدى كانت إلى ابن شفيد يخلف إلى جانب عبد العزيز وعيسى أخوى المهدى (أولاد أمغار). وقارن البيدق، ص١٠٨-حيث الخلط بين حرب صنهاجة السابقة وحرب سطيف هذه-وحيث القول : "...وهزم (عبد المؤمن) أبا قصبة، ومات بنوزلدوى، ونصر الله الخليفة عليهم، ...وأمضى الخليفة والموحدون إلى مراكش بالغنائم والعربيات والجمال، فرحين مسرورين، وبعد فقرة عن قتل يصلاسن، يعود إلى غنائم العرب وسبيها ، ورد ذلك السبى لأصحابه، وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٣٦-حيث فلما بلغ الخبر عرب إفريقية (سقوط القلعة) تآمروا على الدفاع عن ملكهم يحيى بن العزيز، وارتحلوا إلى سطيف. وزحف إليهم (عبد الله) بن عبد المؤمن الذى كان قد قفل إلى المغرب، وبلغ متيجة، فأرسل المدد لأبنه عبد الله، وتم اللقاء فى سطيف وانقضت جموع العرب واستلحموا، وسبيت نساؤهم واكتسحت أموالهم وأسر أبناوهم، ووفد عليه (عبد المؤمن) كبراء العرب من إفريقة طائعين فوصلهم، ورجعوا.

ولاية محمد بن عبد المؤمن العهد :

وكانت فرصة استعان (فيها) بهم على ولاية ابنه محمد للعهد سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م (٩٣) .

غزو بونة ووفاة روجار الثانى :

أما آخر الأعمال الحربية التى قام بها روجار الثانى ، ملك صقلية ، فى إفريقية بعد قضاء عبد المؤمن على مملكة بنى حماد ، فهو غزو أسطول صقلية مدينة بونة (عنابة حاليا ، فى منتصف المسافة مابين بجاية وبنزرت) ، وذلك فى رجب سنة ٥٤٨ هـ/ سبتمبر ١١٥٣ م. ولما كان جورجى الانطاكى قد توفى سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م ، فإن قيادة الأسطول كانت قد آلت إلى مولى روجار : فيليب المهدوى.

والمهم أنه تم حصر المدينة بمعاونة العرب ، هذه المرة . ورغم أن المهدوى تملك ماكان فى المدينة ، وسبى أهلها ، وأقام بها ١٠ (عشرة) أيام عاد بعدها إلى المهدية ، الا أن رفقه بجماعة من العلماء والصالحين فى بونة أدّى إلى اتهامه بالردة عن المسيحية واعتناق الإسلام ، الأمر الذى انتهى بأن قبض عليه روجار الثانى ، وقدمه إلى محكمة التفتيش حيث أتهم بأنه لايصوم مع الملك ، وأنه مسلم . وانعقد مجمع الملك من الأساقفة والقسوس والفرسان ، وأصدر الحكم بالحرق على فيليب المهدوى ، فأحرق فى شهر رمضان/ ديسمبر.

وكانت تلك علامة غير مبشرة بالنسبة لمستقبل المسلمين في صقلية ، الأمر الذى زاد تفاقما بوفاة الملك روجار الثانى ، فى العشر الأول من شهر ذى الحجة سنة ٥٤٨هـ / فبراير ١١٥٤م وكانت وفاته بمرض الخوانيق ، وله من العمر مايناهز الـ ٨٠ (الثمانين) عاما ، فطال بذلك عهده إلى ٦٠ (ستين) عاما (٩٤).

---

(٩٣)ابن الأثير، ج١١ص١٨٦، وقارن النويرى، ص٤١٨، ص٤١٩-حيث تفصيلات عن كيفية طلب العرب تولية العهد للأمير محمد (أبو عبد الله).

(٩٤)ابن الأثير، ج١١ص١٨٧.

غليوم (غليالم بن لجار) ملكا :

وملك بعد روجار الثانى ابنه غليالم (غليوم) الأول الذى يوصف بأنه كان: «فاسد التدبير ، سئ التصوير ، وإنه استوزر مايو البرصانى ، فأساء (بدوره) التدبير ، واختلفت عليه حصون جزيرة صقلية وبلاد قلورية (كلابريا فى جنوب ايطاليا) ، وتعدّى الأمر إلى إفريقية» ، كذلك (٩٥).

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن سفاهة غليوم بن روجار قد بلغت في بداية عهده إلى مّد شروره حتي مصر الفاطمية التي حل نفوذه محلها في إفريقية، فكانت مدينة تنيس، وهى المركز الاقتصادي المصرى الهام فى ذلك الوقت، فى ساحل دمياط، هدفا لغارة قرصانية قام بها الأسطول الصقلى، نهبت خلالها المدينة(٩٦). حدث ذلك فى الوقت الذى كانت تقوم فيه القوات البيزنطية بتهديد بلاد الشام الفاطمية ، الأمر الذى يشكك بعض الشئ فى مقالة ابن الأثير التى تقرر أن الخلاف بين الصقليين والروم بالقسطنطينة كان رحمة من الله بالمسلمين (ما سبق ص ٣٧٧).

التمهيد لاسترجاع المهدية :

جربة وقرقنة وصفاقس :

والمهم أنه منذ سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م ، وعلى عهد غليوم بن روجار ، بدأت بلاد السواحل الإفريقية تنفض عن كاهلها عبء الهيمنة الصقلية الفرنجية ، وبدأ ذلك بعصيان أهل جزيرتى جربة وقرقنة (Pantelleria) (٩٧) . والذى نراه هو أن تدخل عبد المؤمن فى إفريقية ، وبسط نفوذ الموحدين على بقايا مملكة الحماديين كان من الأسباب الرئيسية التى أحيت حركة المقاومة فى تلك المناطق ضد الفرنج الصقليين . وفى إقليم الساحل كانت صفاقس أول المدن التى خالفت على ملك صقلية الجديد ،

---

(٩٥) ابن الأثير، ج١١ص١٨٧ .

(٩٦) ابن الأثير، ج١١ص١٩٠.

(٩٧) ابن الأثير، ج١١ص٢١٣.

وذلك بفضل عمر بن أبى الحسن الفرّيانى ، وخاصة بفضل والده الفقيه الصالح :أبى الحسن الذى ولاه روجار الثانى نيابة ، حكم صفاقس.

فقد اعتذر أبو الحسن بضعفه عن الحكم فى صفاقس ، ورشح ابنه عمر بدلا منه، وسار هو إلى صقلية رهينة لضمان الطاعة للملك الصقلى ، كما جرت العادة فى المدن الإفريقية الخاضعة لمملكة صقلية . والمهم أنه عند خروج أبى الحسن إلى صقلية أخذ يحرض ابنه على الثورة ، ويطمئنه بألا يشغل نفسه بسلامته حيث أنه «مسنٌ قارب أجله» . وفعلا عندما رتب أسلوب الخلاص من الحامية الفرنجية ، على الأسوار وفى المساكن فى البلدة ، وسأله أصحابه عن مصير «سيده الشيخ» ، قال الابن : «إذا قتل الشيخ بألوف من الأعداء فما مات».

وتم ذلك التدبير ليلاً ، «فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم (الأمر الذى يذكرنا بمذبحتى المماليك على يدى كل من محمد بن تومرت بتينمل ، ومن بعد محمد على باشا فى قلعة القاهرة) ،وذلك فى أول سنة ٥٥١هـ / ٢٥ فبراير ١١٥٦ م) (٩٨).

طرابلس وقابس وبونة :

وبعد صفاقس أتى تحرير طرابلس (الغرب) تاليا بفضل تدبير النائب عليها : أبى يحى بن مطروح التميمى (٩٩). ففى سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٨م ، بعد ١٢ (اثنى عشر) عاما من وقوع العاصمة الليبية وقتئذ تحت حكم النورمان الصقليين ، قام ابن مطروح بتدبير الثورة الرائعة ضد خيالة العدو بخاصة ، حيث نصبت لها

---

(٩٨)ابن الأثير، ج١١ص٢٣، ولمزيد من التفاصيل انظر ابن خلدون، ج٦ص١٦٨-١٦٩-عن الصراع بين صاحب صفاقس : حموين قليل(البرغواطى) وصراعه مع تميم بن المعز الذى غلب على صاحب صفاقس سنة٤٩٣هـ/١١٠٠-١٠٩٩م. وبعد الإشارة إلى غلبة الناصرى على المهدية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، تأتى قصة عمر وابيه أبى الحسن الذى قتله النصارى فى صقلية سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م، عقوبة لثورة صفاقس.

(٩٩)ابن الأثير، ج١١ص٢٠٤.

الأفخاخ ، من: إقامة الخشب والأناشيط فى الطرق لمنعها من الجرى . وبذلك خلص حكم البلد ليحى بن مطروح . وعندما وصل عبد المؤمن إلى المهدية وصل إليه وفد طرابلس وفيهم ابن مطروح فقدمه عبد المؤمن ، وبذلك ظل يحكم المدينة الى عهد ابى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (١٠٠) ومن ثم أتى تحرير قابس على يدى محمد بن رشيد (ما سبق ص ٣٨٠).

أما تحرير بونة - آخر مستعمرات روجار الصقلى - فقد تمّ على أيدى عسكر عبد المؤمن الذين كان وصولهم إلى بجاية بمثابة شرارة التحرير فى البلاد الافريقية من نير الهيمنة الصقلية .

وهكذا : ملك عبد المؤمن بتحرير بونة ، جميع بلاد إفريقية باستثناء المهدية مع سوسة : ميناء القيروان (١٠١) ، فكان الدور عليها فى التحرير.

محاولة تحرير زويلة :

يرجع الفضل فى بداية تحرير المهدية من نظام الحماية النورمندية الصقلية إلى :

---

(١٠٠)رحلة التجانى، ص٢٤٢-٢٤٣-حيث انتهى أمر ابن مطروح بالتوجه إلى الحج لعجزه، فسرّحه السيد : أبو زيد بن السيد : ابى حفص صاحب العمل، فسار إلى الإسكندرية. وفى ذلك يسجل التجانى من مياومة القاضى الفاضل البيسانى "فى شهر رجب سنة٥٨٩هـ/ يوليه - أغسطس ١١٩٣م وصل الإسكندرية فى البحر شيخ طرابلس أبو يحيى بن مطروح، وهو شيخ كبير قد أضر وعجز عن الحركة. ولابن مطروح هذا، بعد ذلك، شعر طريف يقارن فيه بين بعض أطراف مدينة طرابلس (الغرب) وبين بعض أطراف القاهرة، حيث يقول :

لوقفـــة بين بـــاب البحر ضاحيـــة ... أو بـــاب هـــوارة أو موقـف الغنـــم
أشهى إلى النفس من كسر الخليج ومن ... دير الزجاج وشاطى بركة الخدم (ص٢٤٥)،

الأمر الذى يذكرنا بما قاله بعض مدرراء الجامعة الليبية فى بنغازى عندما كنا نعمل بها سنة١٩٦٠-وهو يقارن بين خيرات ليبيا وخيرات مصر (مثال) : "يوجد فى النهر ما لا يوجد فى البحر".

(١٠١)ابن الأثير، ج١١ص ٢٠٤ .

عمر بن ابى الحسن محرر صفاقس ، إذ أرسل فى سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م إلى أهل زويلة : ضاحية المهدية ، يحرضهم على الوثوب على من فيها ، معهم ، من النصارى - ففعلوا ذلك . وبالتالى قدم عرب البلاد «إلى زويلة ، فأعانوا أهلها على من في المهدية من الفرنج ، وقطعوا الميرة عن المهدية»

وعندما بلغ الملك غليوم بن روجار ماحدث فى كل من صفاقس وزويلة ، طلب من أبي الحسن : والد عمر أن يكتب إلى ابنه عمر «ينهاه عن ذلك ، ويخوفه العاقبة» فردّ عليه الشيخ الصالح بأن «من قدم على هذا (العمل) لايرجع (عنه) بكتاب» . وعندما أرسل الملك الصقلي رسولا من قبله يتهدد عمر ، ما كان من هذا الأخير إلا أن أقام فى حضرة الرسول : «جنازة تذكارية» لوالده : الشيخ أبى الحسن ، الذى كان مصيره الصّلب حياً فى معتقله بصقلية ، بأمر الملك غليوم(١٠٢).

الإقدام على تحرير المهدية :

والمهم أن محاولة تحرير زويلة الضاحية التى بدأ بها صاحب صفاقس : عمر بن أبى الحسن الفّريانى ، قد تحولت إلى حركة تحرير للمهدية : العاصمة الفاطمية التليدة . فقد تكاثر جمع الثوار بوفود العرب القادمين من أنحاء البلاد ، وكذلك أهل صفاقس المتحررين من النير النورمندى ، وحصر الجميع المهدية أشد حصر ، ومنعوا عنها الامدادات الغذائية التى كان اعتماد المحاصرين على نفادها ليتم لهم الفتح ، وهذا ما لم يقدر له أن يكون.

فلقد أسرع الملك غليوم فارسل إلى المهدية ٢٠ (عشرين) شينيا محملة بالرجال والأقوات والسلاح ، وتمّ لهم انقاذ الموقف الحرج بدخولهم إلى المدينة . وهنا لجأ

---

(١٠٢)ابن الأثير، ج١١ص٢٠٤-حيث النص على أن عمر قال لرسول الملك : "هذا أبى قد دفنته، وقد جلست للعزاء به، فاصنعوا به ما أردتم"، أما عن الشيخ المصلوب "فلم يزل بذكر الله تعالى حتى مات". وقارن رحلة التجانى، ص٧٥ - حيث وصف عمر بن أبى الحسن "بالمتصرف" بمعنى الأمير، وحيث أمر غليالم (غليوم) بشنق والده (ابى الحسن) بوادى عباس.

الصقليون الفرنج إلى أسلوب طالما عرفوه في التعامل مع عرب إفريقية ، ألا وهو شراء حيادهم عن طريق المال . وفعلا انهزم العرب عند اللقاء بين الطرفين ، وبقى أهل صفاقس وحدهم إلى جانب أهل زويلة . ولكنه عندما أحاط بهم الفرنج بظاهر البلد ، أنهزم أهل صفاقس بدورهم ، وركبوا فى البحر ولجوا إلى بلدهم القريبة . وكان من الطبيعى ألا يتمكن أهل زويلة من الصمود ، وهم في أغلبهم من السوقة أى المحاربين غير المحترفين ، فانهزموا فعلا أمام حملات الفرنج النورمنديين إلى ماتحت السور ، حيث «قتل أكثرهم ، ولم ينج إلا القليل فتفرقوا ، ومضى بعضهم إلى عبد المؤمن» . هذا ، كما «هرب من كان بزويلة من الخدم والصبيان والشيوخ فى البر ، ولم يعرجوا على شئ من أموالهم».

وبذلك دخل الفرنج إلى المهدية ، فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال ، واستقروا بها- وبقي الحال على هذا المنوال إلى سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م حيث «أخذها منهم عبد المؤمن» (١٠٣).

استرداد المهدية :

الاعداد للحملة :

كان عبد المؤمن قد وعد المستنصرين به من أهل المهدية ؛ بعدما دخلها الفرنج الصقليون سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م بأنه سوف ينصرهم «ولو بعد حين» ! ومع أن الرواية تضيف إلى ذلك أنه أكرم الوافدين عليه من المهدية ، «وأطلق لهم ٢٠٠٠ (الفى) دينار ثم أنه أمر بعمل الروايا والقرب والحياض وما يحتاج اليه العسكر فى السفر ، فكأنه كان قد بدأ يعدّ العدّة لفتح المهدية منذ ذلك الوقت المبكر ، انتظاراً لذلك «الحين» (القريب) الذى وعدهم به (١٠٤). والحقيقة إن تلك الاستعدادات ، كما يظهر من الرواية الحولية ، لاتبدأ إلا فى سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م ، حيث

(١٠٣)ابن الأثير، ج١١ص٢٠٥.

(١٠٤)ابن الأثير، ج١١ص٢٤١، والنويرى، ص٤٢١.

العنوان: ملك عبد المؤمن المهدية من الفرنج وملكه جميع إفريقية» بمعنى أن الاستعدادات العسكرية لم تبدأ إلا بعد ١١ (أحد عشر) عاما من زيارة وفد المهزومين بالمهدية سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م . وإلى جانب الاستعدادات الحربية تقول الرواية إنه (عبد المؤمن)«كتب إلى جميع نوابه فى المغرب ، وكان قد ملك إلى قريب تونس» بحفظ جميع مايتحصل عليه من الغلات، وان يترك فى سنبله ويخزن».

هذا إلى جانب الأمر بحفر الآبار فى الطرق ففعلوا . وهنا ليس من المقبول أن تكون كل تلك الاستعدادات قد حدثت فى نفس سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م (الحولية) ، إنما قبل ذلك بسنتين أى فى سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م ، حيث تقول الرواية الخاصة بجمع الغلات إن ذلك كان على مدى ٣ (ثلاث) سنوات ، وإنها (الغلات) نقلت إلى المنازل (فى المواقع الاستراتيجية المحددة عسكريا) ، وتمّ الحفاظ عليها بالتطيين عليها ، «فصارت كأنها التلال» (١٠٥).

وهكذا ، وفى شهر صفر من مطلع سنة ٥٥٤ هـ/ ١١٥٩م كانت الاعدادات للحملة الكبرى (التى وعد بها لاستنقاذ المهدية سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م قد تمت بشكل لم يشهده تاريخ الحروب فى دول الإسلام من قبل،، الأمر الذى يجعل من عبد المؤمن بن على بخاصة ، والدولة الموحدية بعامة طرازا فريداً من الأمراء والدول المستجدة ، ليس على النطاق السياسى - الدينى فقط ، بل وعلى المستوى التنظيمى - الاجتماعى - العسكرى ، على قدر معرفتنا بتاريخ الإسلام فى المشرق والمغرب.

بدء العمليات الحربية :

سارت القوات الموحدية من مراكش العاصمة ، فى الشهر المفضل لحملات عبد المؤمن العسكرية ، وهو : شهر صفر. وكانت الوجهة هى بلاد إفريقية . وأغلب الظن

(١٠٥)ابن الأثير، ج١١ص٢٤١، وقارن النويرى، ص٤٢١.

أن الرواية لاتبالغ - بعدما رأيناه من المعدات والتجهيزات الحربية - عندما تقول إن حجم القوات فى تلك الحملة بلغ أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ (مائتى ألف) مقاتل، نصفهم من الجند النظامي المسجل في دفاتر (ديوان) الجيش ، بمن فيهم من الأتباع (من الخدم والحشم) ، ومثلهم من السوقة (العامة) من المتطوعة أو الجند المعاون (شبه الاحتياط) . وسارت تلك القوات فى نظام عسكرى دقيق ، مستمد من عقيدة التوحيد التى تجعل من أتباعها إخوة أحباء منظمين.

«فقد كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة» ، كما تريد الرواية ، «وكانوا إذا نزلوا صلوا جميعهم مع إمام واحد بتكبيرة واحدة لايتخلف لهم أحد كائنا من كان»، فكأن إمام الصلاة هو القائد الأعلى للجيش ، وكأن التكبيرة الواحدة هى المعبرة عن وحدة جماعة التوحيد. وفى سفرته هذه ، كان عبد المؤمن يقدّم بين يديه صاحب المهدية السابق الذى كان يقيم بالجزائر ، وهو الأمير الحسن بن على ، كمرشد سياسى ناصح ودليل سياحى مضمون (١٠٦).

تـــونس :

وفى ٢٤ من جمادى الآخر / ١٤ يوليه وصل الجيش المهول الى تونس التى كان أمير طائفتها أحمد بن خرسان (الأخير)(١٠٧) والذى كان قد نصبه أهل تونس ، بعدما ضعف واليها الحمادى الأمير معدّ بن المنصور ، فاستأسد عليه أهل تونس واستبدّوا به منذ سقوط بجاية بين أيدى الموحدين سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م . وهكذا يكون الخراسانى الأخير هو أحمد بن على بن أحمد (الرابع - ماسبق ، ص ٣٧٤) الذى رحّله الموحدون إلى مراكش بأهله وولده ، ولكنه هلك فى الطريق ، حسب رواية

---

(١٠٦) ابن الأثير، ج١١ص٢٤٢، وقارن النويرى، ص٤٢١، وقارن رحلة التجانى، ص٣٤٦-حيث جيش عبد المؤمن يمتد أميالاً لا تؤثر فيه شيئاً - كلهم يصلون الصلوات الخمس بتكبيرة واحدة، وراء إمام واحد.

(١٠٧) ابن الأثير، ج١١ص٢٤٢.

ابن خلدون (١٠٨) . وبعد وصول الجيش أقبل الأسطول الموحدى فى ٧٠ (سبعين من المراكب الحربية المختلفة مابين : شينى ، وطريدة ، وشلندى . ورفضت المدينة المستقلة نداء الطاعة الذى وجّه إلى أهلها ، بل وامتنعوا وواجهوا قتال الموحدين الشديد لفترة من الوقت حتى ظهر عليهم الإجهاد ، فلم يبق إلا أخذها ، لولا ثورة الرياح العاصفة التى منعت من دخول الأسطول إليها (١٠٩).

وبعد معاناة القتال غير المتاكفئ لآخر النهار ، رأى أهل تونس أن يبعثوا وفداً يمثلهم ، من ١٧ (سبعة عشر) رجلاً من الأعيان لمفاوضة عبد المؤمن على الأمان ، فأجابهم على الأمان فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم فقط دون غيرهم . أما من عداهم من الناس فلهم الأمان فى أنفسهم وأهليهم ، على أن يقاسمهم فى أموالهم وأملاكهم نصفين - مثلما كان يحدث من قبل (ص٣٣٩ و هـ ١٥٧) . هذا ، كما تم الاتفاق على أن يخرج صاحب المدينة : أحمد بن خراسان ، بعد أن يسلم البلد ، مع ضمان منع العسكر الموحدى من الدخول عليه (١١٠).

---

(١٠٨) العبر، ج٦ص١٦٥.

(١٠٩) ابن الأثير، ج١١ص٢٤٢، وقارن النويرى، ص٤٢٢، وانظر ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص١٧٦، حيث المسير إلى تونس (بعد قابس) ونهزام من كان فى جوانبها من العرب الذين قتلوا واستؤصلوا حسبما تقدم من الشرح فى الرسالة الموحدية الخاصة بوصف هذا الفتح. وقارن رحلة التجانى، ص٣٤٧-حيث أسطول عبد المؤمن الذى يتكون من ٧٠(سبعين) مركباً يقودها عدد من القواد، من أشهرهم : محمد بن عبد العزيز بن ميمون، من البيت المشهور فى قيادة البحر، وابن الخراط، وأبو الحسن الشاطبى وغيرهم، وانظر أيضا ص٣٤٥-حيث : ضرب عبد المؤمن الحصار على تونس فى ١٠جمادى الأولى من السنة المذكورة (٥٥٤هـ/١١٥٩م) وكان أهلها سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م قد فعلوا فيه الافاعيل.

(١١٠) ابن الأثير، ج١١ص٢٤٢، والنويرى، ص٤٢٢-٤٢٣، وقارن رحلة التجانى، ص٣٤٥-حيث خرج إلى عبد المؤمن أشياخ تونس، وطلبوا السلم، ومنهم : بنو عبد السيد، وانه عفا عنهم، واشترط مشاطرتهم فى رباعهم (ديارهم) وأموالهم كلها للمخزن (للديوان الحكومى) ما عدا ملبوس رقابهم، وترك بتونس عبد السلام الكومى.

وعهد عبد المؤمن إلى أبنائه - مثلما حدث من قبل - ليقاسموا الناس على أموالهم . وتطلبت هذه العمليات الإقامة على المدينة ٣ (ثلاثة) أيام.

أما عن أهل الذّمة من اليهود والنصارى فقد عُرض عليهم الدخول فى الاسلام : «فمن أسلم سلم ، ومن امتنع قتل» . وهكذا «أقام أهل تونس (فى ديارهم) بأجرة تؤخذ منهم عن نصف مساكنهم» (١١١).

المهدية :

وبعد أن استقرت الأمور فى تونس سار عبد المؤمن بجيوشه نحو المهدية ، والأسطول يحاذيه فى البحر ، فوصل إليها فى ١٨ رجب (سنة ٥٥٤ هـ / ٥ أكتوبر ١١٥٨م) . وكان حينئذ فى المهدية أولاد ملوك الفرنج وأبطال الفرسان ، وقد أخذوا زويلة ، ضاحية المهدية البرية ، بعد فشل استرجاها على أيدى أهل صفاقس والعرب(ص ٣٩٩).

وأمام الأسطول البحرى والحشد الموحدى البرى رأى النورمنديون عدم جدوى المقاومة فى زويلة التى نزلت فيها قوات عبد المؤمن البرية دون مقاومة ، والتى

---

(١١١)ابن الأثير، ج١١ص٢٤٢، وقارن النويرى، ص٤٢٢-٤٢٣، وقارن البيدق، ص١١٥-حيث خرج الخليفة إلى المهدية، وبرز على تونس بروزا عظيما، وكان وزيره عبد السلام الكومى، ووحّد أهل تونس. وقارن ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص١٧٦-حيث النص على استبداد الوزير عبد السلام الكومى بجمع المغانم والأموال وتنقل ما شاء، وادل بقرابته ووزارته غاية الادلال..فنسب إليه احتجان الأموال ، وقارن رحلة التجانى، ص ٣٤٦-حيث ارتحل عبد المؤمن من تونس بعد ٣(ثلاثة) أيام إلى المهدية، مع الإشارة بعد ذلك إلى أن مرجعه هو تاريخ أبن شداد، حيث: مقدمة العسكر ١٢,٠٠٠(اثنى عشر ألف) رجل قد كلفوا بحفر الآبار فى الطريق، وإستخراج المياه، فكانوا يتقدون قبله بيومين، يهيئون الغلات وأحواض المياه، وص٣٤٧-حيث : وعرض عبد المؤمن الإسلام على من بتونس من اليهود والنصارى فمن اسلم سلم، ومن امتنع قتل.

«امتلأت بالعساكر والسوقة ، فصارت مدينة معمورة فى ساعة» ، بل كما عمرت ضواحيها بالعساكر الذين لم يكن لهم موضع بداخلها (١١٢). وهكذا كانت الجيوش المنظمة مصدر خير ورخاء للبلاد التى تدخلها ، بصرف النظر عما يترتب على القتال من شرور وفساد.

وفى إطار مقولة : رُبَّ ضارة نافعة هذه ، انضافت إلى عساكر عبد المؤمن حشود من بربر صنهاجة (الزيريين) ، وعرب إفريقية الهلاليين ، وكانت حشود هؤلاء الوافدين الجدد ، تتزايد مع مرور الوقت ، واشتراكهم فى قتال المهدية ، التى كانت وكأنها تقول : هل من مزيد؟ إذ كانت «لاتؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها ، وضيق موضع القتال عليها (براً)؛ لأن البحر دائر بأكثرها» (١١٣).

«وفى أثناء النزال كانت الأعداء من الفرنج ينتهزون الفرص فيخرج الشجعان منهم إلى أطراف العسكر الموحدى ، فتنال منه وتعود سريعا» ، الأمر الذى أدّى إلى أن يأمر عبد المؤمن ببناء سور من غرب المدينة (من ناحية البر ويابى المدينة) «فمنعهم من الخروج ، وأحاط الأسطول بها فى البحر» (١١٤).

ولكى يباشر عبد المؤمن حسن القتال ، ويعرف خبايا الموضع ، ركب فى شينى ومعه الحسن بن على «صاحب المهدية السابق» ، وطاف بالمدينة البحرية العجيبة بامتدادها كزند فى البحر ، «فهاله مارأى من حصانتها» ، ورأى انها لاتفتح الا بالمطاولة (١١٥).

---

(١١٢)ابن الأثير، ج١١ص٢٤٣، وقارن النويرى، ص٤٢٣، وابن عذارى، الموحدون، ص٣٩، وقارن رحلة التجانى، ص٣٤٧-حيث توجه عبد المؤمن (من تونس) إلى المهدية ووصوله إلى هناك فى ١٢رجب/ اكتوبر والنزول على زويله.

(١١٣)ابن الأثير، ج١١ص٢٤٣، وقارن النويرى، ص٤٢٣.

(١١٤)المصدر السابق، وقارن رحلة التجانى، ص٣٤٨.

(١١٥)انظر ابن الأثير، ج١١ص٢٤٣-حيث النص على ان عبد المؤمن قال للحسن : «كيف نزلت عن هذا الحصن ؟ فقال الحسن : لقلة من يوثق به، وعدم القوة، وحكم القدر»، فقال له (عبد المؤمن) : "صدقت"، وقارن رحلة التجانى، ص٣٤٨.

وهكذا عاد عبد المؤمن من الجولة الاستطلاعية الاستراتيجية ، ليأمر «بجمع الغلات والأقوات وترك القتال» ، فصارت الأقوات في المعسكر كالجبلين : أحدهما من الحنطة للطعام ، والآخر من الشعير للعلف.

صفاقس، طرابلس، نفوسة :

وتمادى الحصار الذى وحدت خلاله مالم تكن قد أطاعت الموحدين من المدن الإفريقية ، مثل : صفاقس التى كانت قد خرجت على ملك صقلية من قبل (ص٣٨٣)، وكذلك الأمر بالنسبة لطرابلس حيث بنو مطروح (ص٣٧٦) ، وجبال نفوسة (جنوب طرابلس) . وبذلك تصبح معظم بلاد افريقية فى الطاعة.

قــابس :

أما عن قابس، الخارجة على الطاعة أبداً (ص٣٨٠)، فقد فتحت بالسيف بمعرفة السيد أبو محمد عبد الله بن عبد المؤمن الذى سيره والده ففتح بعض البلاد التالية.

قفصة :

وأما قفصة : عاصمة بلاد الجريد التى كانت ثائرة أبداً ، منذ التياث ملك آل باديس الزيريين بالقيروان ، فكانت وقتئذ تحت حكم الأمير يحيى بن المعتز ، آخر ملوك بنى الرند (١١٦) ، فلم يتردد أهلها فى المبادرة بطاعة عبد المؤمن ، حيث

---

(١١٦) انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٥-١٦٦-حيث رأس الأسرة القفصية العتيدة هو : عبد الله بن محمد بن الرند ، الذى استقل سنه ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م ، والذى وفد عليه الشعراء ، وكان معظما لأهل الدين ، واستمرت إمارته إلى حين وفاته سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م . وولى بعده ابنه أبو عمر المعتز الذى حسنت سيرته . ولما كان المعتز قد عمر طويلا فإنه عهد بالحكم إلى حفيده : يحيى بن تميم (الذى توفى فى حياة والده) فاستبد بجده ، وانفرد بالحكومة ، وبقى فى الإمارة هو وجده إلى أن فتحت المدينة على عهد عبد المؤمن سنة ٥٥٤هـ/ ١٠٥٩م ، وتم نقل الأسرة إلى بجاية حيث توفى المعتز (الأعمى) سنة ٥٥١هـ/ ١٠٥٦م ، وله من العمر حوالى مائة عام وأكثر ، ومات بعد حافده (الأمير يحيى).

قصده أعيانها برئاسة صاحبها (١١٧) .

وبعد الفتح عهد عبد المؤمن بولاية قفصة إلى : نعمان بن عبد الحق الهنتاتي الذى بقى فى الولاية لعدة سنوات ، قبل أن يعزل بـ عمران بن موسى الصنهاجى . (١١٨)

هذا ، وإلى جانب استخلاص قفصة من أيدى بنى الرند (فى الأصل بنى الورد) يأتى استخلاص ورغة من بنى بروكسن ، وطبرية من ابن هلال ، وجبل زغوان من بنى حماد بن خليفة ثم مدينة الأربع من يد من ملكها من العرب (١١٩).

التدخل الصقلى :

والمهم أنه فى يوم ٢٢ شعبان ، بعد ٣٤ يوما من الوصول إلى المهدية جاء

---

(١١٧) ابن الأثير ، ج ١١ص ٢٤٤- حيث كانت طاعة قفصة دون قتال تثير الخواطر لدى القدامى من (حرس) الموحدين . فقد أشتبه الأمر على عبد المؤمن فى صحة طاعتها ، لأن المهدى كان يقول : «بقطع اشجارها وهدم سورها» وقارن الرسالة الموحدية رقم ٢٠ ، ص ١٠٤-١٠٥ حيث النزول بفنائها والإحاطة بالمدينة ونصب المجانيق التى هدمت أسوارهم أو ديارهم وص ١٠٨- حيث ردم الخندق واقتحام الستارة ودخولها عنوة. ومن أجل التأكد من صحة طاعة قفصة أرسل عبد المؤمن طائفة من أصحابه. ولقد أكد صحة الأمر مامدحه به أحد شعرائها ، بقصيدة تبدأ بذلك البيت الذى أثار نشوة عبد المؤمن:

ماهز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

فقد طلب عبد المؤمن من الشاعر أن يكتفى بذلك البيت ، ووصله (على غير عادة عبد المؤمن) بـ ١٠٠٠(الف) دينار ، وقارن النويرى، ص ٤٢٣ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٧- حيث افتتاح المهدية سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م صلحاً مع النصارى من أهل صقلية ، ومن ثم استنقذ عبد المؤمن جميع البلاد الساحلية ، مثل : صفاقس وطرابلس من أيدى العدو ، ثم استخلاص قابس - أثناء حصار المهدية - من أيدى بنى كامل المتغلبين عليها ، من دهمان : بعض بطون رياح.

(١١٨) ابن خلدون ص ١٦٦ - حيث نعمان بن عبد الحق المنتاتى بدا من الهنتاتى.

(١١٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٧ .

اسطول ملك صقلية فى ١٥٠ (مائة وخمسين) شينياً (من المراكب الكبيرة) غير الطرائد (١٢٠).

وكان قدومه إلى المهدية إثر غارة قام بها على جزيرة يابسة (Ibiza) من جزر ميورقة (البلبار) ، ومعه السبى والأسرى . وعندما قاربوا المهدية حطوا أشرعتهم ليدخلوا الميناء ، فكانت مفاجأة لهم أن خرج إليهم أسطول عبد المؤمن ، كما ركب العسكر الموحدى البرى ، ووقفوا جميعهم على جانب البحر . وهنا أسقط فى يد الفرنج بسبب ما رأوه من كثرة العساكر ، ودب الرعب فى قلوبهم بينما كان عبد المؤمن يدعو ، وهو يمرِّغ وجهه على الأرض باكيا ، بالنصر لجند الله (١٢١).

والمهم أن الاسطولين اقتتلا فى البحر ، وانهزمت شوانى الفرنج ، وأعادوا أشرعتهم للفرار والموحدون يتبعونهم ، بل ونجحوا فى أخذ ٧ (سبعة) شوان منهم . هذا ، وتقول الرواية ، انه لو كان مع المسلمين قلوع (أشرعة) لأخذوا أكثر الشوانى الصقلية ، «فكان أمراً عجيبا ، وفتحاً قريباً» (١٢٢).

ومع أن الفرنج بالمهدية يئسوا من النجدة ، فإنهم صبروا على الحصار مدة ٦ (ستة) أشهر ، إلى آخر ذى الحجة سنة ٥٥٤هـ/ ١٤ديسمبر ١١٥٩م ، وعندئذ نزل

---

(١٢٠) ابن الأثير ، ج١١ص٢٤٤، وقارن رحلة التجانى ، ص ٣٤٨- حيث عدد المراكب ٥٠ (خمسين) بدلا من ١٥٠ (مائة وخمسين).

(١٢١) ابن الاثير ،ج١١ص٢٤٤، والنويرى ، ص٤٢٤، وقارن رحلة التجانى ، ص ٣٤٨- حيث استعد اسطول عبد المؤمن ، واصطف عساكر المسلمين على الساحل ، وقال الحاكى : «كنت حاضراً وعبد المؤمن يصلى ويسجد فى الأرض ، ويقول : اللهم لاتضعضع دعائم الإسلام».

(١٢٢) ابن الاثير ، ج ١١ص٢٤٤، والنويرى ، ص٤٢٤ ، وقارن رحلة التجانى ، ص ٣٤٩- حيث أستولى أسطول المسلمين على ٨ (ثمان) قطع من أسطول الفرنج الذى انهزم . هذا ، كما فرق عبد المؤمن ١٢,٠٠٠ (اثنى عشر ألف) دينار مؤمنية فى غزاة الأسطول. وانظر البيدق ، ص١١٥-١١٦ حيث : ونزل (عبد المؤمن) على المهدية وكان فيها الروم (الصقليون) ، ومع النص على أنه لم يمت فيها(حرب المهدية) الا عبد الله بن أبى بكر ايجيت ، كما وجد الصقلى بالقطائع.

من الفرنج ١٠ (عشرة) فرسان وسألوا الأمان فى أنفسهم وأموالهم ليخرجوا من المدينة المحاصرة ، حيث انعدم القوت حتى أكلوا الخيل . ولكنه لما كان عبد المؤمن ، كما هى عادته، قد عرض عليهم الدخول فى الإسلام ، وأبوا فقد بقى الموقف على ما هو عليه . ولكن الفرسان المحاربين لم ييأسوا ، وظلوا يلحون فى استعطافهم لعدة أيام حتى وافق لأهل المدينة من الفرنج بالخروج بالأمان ، بل وأعطاهم، كما تقول الرواية، سفنا ركبوا فيها . ولكنه لما كان الوقت شتاء «غرق أكثرهم ، ولم يصل الا النفر اليسير» (١٢٣).

وتنص الرواية الإسلامية هذه على أن صاحب صقلية (غليوم بن روجار) كان قد قال : «إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية ، وأخذنا حريمهم وأموالهم» - فكان من لطف الله «ان أهلك الفرنج غرقا» (١٢٤).

وهكذا دخل عبد المؤمن المهدية صلحا فى عاشوراء (١٠) من المحرم سنة ٥٥٥ هـ / ٢١يناير ١١٦٠م ، ولهذا سماها سنة الأخماس - وذلك بعد ١٢ (اثنتى عشرة) سنة من ملك الصقليين لها (١٢٥)

وأقام عبد المؤمن ٢٠ (عشرين) يوما ، فرتب أحوال المدينة ، وأصلح ما انثلم من سورها ، «ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعدد، واستعمل عليها

---

(١٢٣) ابن الاثير ، ج١١ ص ٢٤٥، وقارن النويرى (نفس الرواية) ، ص ٤٢٤ ، وقارن رحلة التجانى ، ص ٣٤٩- حيث أيِسَ أهل المهدية من النصرة فنزل فى أواخر ذى الحجة ١٠ (عشرة) من فرسانهم يسألون الأمان لمن بها من الأنفس والأموال ، وأن يسمح لهم بالخروج منها فعرض عليهم عبد المؤمن الإسلام ، فقالوا : ماجئنا لهذا . ولما رأى منهم كمال الأجسام وتؤدة الكلام أعطاهم ما أرادوا . وخرجوا فلما وصلوا قرب صقلية وكان الفصل شاتيا هال البحر عليهم فهلك أكثرهم.

(١٢٤) ابن الاثير ، ج١١ ص ٢٤٥ ، وقارن النويرى (نفس الرواية ، ص ٤٢٤ .

(١٢٥) المصدر السابق ، وانظر رحلة التجانى ، ص ٣٤٩ .

بعض أصحابه ، وهو ابو عبد الله بن فرج الكومى (١٢٦) ، وجعل معه الحسن بن على ، أميرها الأسبق ، مستشاراً له . «واقطع الحسن إقطاعا، وأعطاه دوراً نفيسة يسكنها وأولاده، ورحل إلى المغرب فى المحرم أو صفر (يناير - فبراير) » (١٢٧) .

ردع عرب افريقية
وتهجير جماعات منهم الى المغرب والأندلس

كان وجود العرب الهلالية فى بلاد المغرب الشرقية من أسباب اضطراب الدولة الزيرية فى إفريقية ، وذلك على المستويين السياسى والاجتماعى (انظر ج ٣ ص ٤١٧) . هذا ، وإن كانت لجماعات منهم مشاركة فى حكم البلاد ، وذلك فى النظام السائد الشبيه بنظام دول الطوائف ، الذى عرفته البلاد على عهد الزيريين ، وإن كانت لهم مشاركتهم في الدفاع عن البلاد فى وقت اللزوم ، ضد تهديدات العدو البحري المتمثل فى الدولة النورمندية الصقلية ، والتى أخذت تتطلع إلى بلاد السواحل الإفريقية ، بعد أن تم طرد الحكم العربى من صقلية.

وكان من الطبيعى ان يقدر عبد المؤمن مميزات عرب إفريقية الحربية ، بعد أن خبرهم فى ساحات القتال ، منذ حملة تلمسان ووهران ضد المرابطين ، وحملة بجاية

---

(١٢٦) النويرى ، ص ٤٢٥وقارن ، رحلة التجانى ، ص ٣٤٩ - حيث ولى عبد المؤمن عليها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومى وأسكن الحسن زويلة لمدة ١٠ (عشر) سنوات ، إلى ولاية أبى يعقوب ، فوصل أمره بطلوع الحسن إلى المغرب ، فسار بأهله وولده سنة ٥٦٦ هـ . وتوفى (فى الطريق) بتامسنا فى (موضع) آبار زلوا ، وقبره هناك فى شهر رجب من نفس السنة ٥٦٦هـ/ مارس - ابريل ١١٧١م .

(١٢٧) ابن الاثير ج ١ ص ٢٤٥، وقارن النويرى ، ص ٤٢٤-٤٢٥، وابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤١، وابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ١٧٣-حيث خروج عبد المؤمن لغزو المهدية من مدينة مراكش فى أول شوال سنة ٥٥٣هـ/ ٢٦ أكتوبر ١١٥٨م.

التى انتهت بالقضاء على الدولة الحمادية ، وكذلك بالايقاع بالعرب بعد نهايتها (ماسبق ، ص٣٩١) . فمن تاريخ التجربة الزيرية مع عرب إفريقية ، وممارسة الاحتكاك بهم فى تجربته الشخصية ، كان عبد المؤمن يقدر الصفات القتالية عند العرب ، ويفهم كيف أن دولة الإسلام قامت على أكتافهم ، ويرى أنه يمكن الاعتماد عليهم فى الدفاع عن الإسلام أمام الخطرين : الصقلى - النورمندى فى افريقية ، والإسبانى - «الرومى» فى الأندلس - على وجه الخصوص.

وهكذا ، عندما شرع عبد المؤمن فى العودة إلى المغرب بعد استرجاع المهدية ، جمع أمراء العرب من بني رياح فى إفريقية ، وقال لهم : «قد وجبت علينا نصرة الإسلام ..... ونريد منكم ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف) فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون فى سبيل الله ، فأجابوا : السمع والطاعة ، فحلفهم على ذلك بالله تعالى ، والمصحف ، فحلفوا».

ولكنه أثناء مسيرتهم معه ، وعند وصولهم إلى مضيق جبل زغوان ، عرف عبد المؤمن من أحد زعمائهم الذى سيعرف فيما بعد «بيوسف الصادق» أن العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس ، وقالوا : «ماغرضه (عبد المؤمن) إلا إخراجنا من بلادنا، وأنهم لايوفون ماحلفوا عليه».

وفعلا تحقق ماقاله يوسف (الصادق) فى اليوم التالى : «إذ هربوا إلي عشائرهم ودخلوا البرّ ، ولم يبق منهم إلا يوسف . وهنا كان من الطبيعى أن يقابل عبد المؤمن «الغدر» بما يستحقه من المكر ، فسار بعسكره مغرباً يحث السير حتى قرب من مدينة قسنطينة ، فنزل فى مكان مخصب يقال له «وادى النساء» ، حيث كان الفصل ربيعا والكلأ مستحسنا ، والمرعى طيبا . وكما كان الحال في حملة بجاية (السابقة) أقام عبد المؤمن فى الموقع لمدة ٢٠ (عشرين) يوما والخيل فى المرعى ، وقد ضبط الطرق فلا يسير من العسكر أحد البتة .... والناس لا يعرفون فى جميع البلاد لهذا العسكر خبراً ، والناس يقولون : « ما أزعجه إلا خبر وصله من

الأندلس، فحث لأجله السير» (١٢٨).

يوم جبل القرن :

وفى هذه الظروف الضبابية رجع العرب من البرية إلي بلادهم التى ألفوها . ولما علم عبد المؤمن بذلك ، جهز ولدية أبا محمد (عبد الله) وأبا عبد الله (محمد) فى ٣٠,٠٠٠ (ثلاثين ألف) مقاتل من شجعان الموحدين ، «فجدوا السير ، وقطعوا المفاوز ، فما شعر العرب إلا والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم ، من جهة الصحراء ليمنعوهم الدخول إليها إن راموا ذلك» . وكان العرب وقتئذ عند جبل القرن القريب من القيروان ، وهم حوالى ٨٠,٠٠٠ (ثمانين الف) بيت ، تحت قيادة عدد من مشاهير أمرائهم ، وهم : محرز بن زياد (أشهرهم) ، ومسعود بن زحام ، وجبارة بن كامل وغيرهم.

واضطرب الزعماء من هول المفاجأة واختلطت كلمتهم . «ففر كل من : مسعود وجبارة ، ومن معهما من العشائر ، وثبت محرز بن زياد فى عشيرته .

وبدأ القتال في العشر الأوسط من ربيع الآخر سنة ٥٥٥ هـ/ ابريل ١١٦٠م ، «وثبت الجمعان ، واشتد العراك ، وكثر القتل» . ولحسن حظ الطرفين على مانرى ، اتفق قتل محرز ، ورفع رأسه على عود (رمح) ، فانهزمت لذلك جميع العرب ، وركنوا إلى الفرار ، وأسلموا البيوت والحريم والأولاد والأموال . وحمل جميع ذلك إلى عبد المؤمن، «فأمر بحفظ النساء العربيات الصرائح ، وحملهن معه ، تحت الحفظ والبر والصيانة إلى بلاد المغرب – وفعل معهن مثلما فعل مع حريم الاثبج» سابقا (١٢٩).

---

(١٢٨) ابن الاثير ، ج١١ص ٢٤٥-٢٤٦ ، وقارن النويرى ، ص ٤٢٥ .

(١٢٩) ابن الاثير ج١١ص٢٤٦-٢٤٧ ، وقارن النويرى ، ص ٤٢٦. أما عن قتلى معركة جبل القرن من العرب ، فقد جمعت عظامهم عند جبل القرن ، فبقيت دهراً طويلاً ، كالتل العظيم يلوح للناس من بعيد. أما عن سبايا معركة سطيف سنة ٥٤٧هـ (فانظر ماسبق ، ص٣٩٢).

وكما فعل عرب معركة سطيف من قبل ، فعل عرب معركة جبل القرن ، إذ «أقبلت إليه (عبد المؤمن) وفود رياح (قبيلة محرز) مهاجرين فى طلب حريمهم .... فأجمل الصنيع لهم ، وردّ الحريم إليهم ، فلم يبق منهم أحد الا صار عنده ، وتحت حكمه ، وهو يخفض لهم الجناح ، ويبذل فيهم الإحسان» (١٣٠)

وهكذا تأتّى لعبد المؤمن أن ينفذ مشروعه فى استخدام العرب فى حرب الأندلس - على أساس مقولة : إن هذا الأمر (دولة الإسلام) لايصلح آخره الا بما صلح به أوله ، تماما كما كان يقول محمد بن تومرت . فجهّزهم إلى ثغور الأندلس حسبما كان قد اشترط عليهم أولا . وهكذا ، وبفضل معركة سطيف ومن ثم جبل القرن ، «بقيت إفريقية ، مع نواب عبد المؤمن آمنة ساكنة ، لم يبق خارجا من العرب عن طاعته الا مسعود بن زمام ، وطائفة فى أطراف البلاد» (١٣١)

(١٣٠) ابن الاثير ج١١ص٢٤٧، وقارن النويرى ، ص ٤٢٧ .

(١٣١) ابن الاثير ج١١ص٢٤٧، وقارن النويرى ، ص٤٢٧ ، وقارن رسائل موحدية ، نشر بروفنسال ، الرسالة ٢١ عن غزو افريقية والمؤرخة فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٥٥هـ/ ٢٣ أبريل ١١٦٠م - حيث الإشارة إلى القبيل المستولى على اقطار افريقية ، وهو القبيل الرياحى وفخذ بنى محمد منه ، الذين انخرطوا فى سلك أهل التوحيد ، وعزموا على الإقامة فى المغرب ، إلى جانب غيرهم مثل جشم الذين عزموا ايضا على الانتقال ، والأثبج وزغبة الذين وصل أعيانهم يمدون يد الاستنابة .

الفصـــل السابع

الاندلس على عهد عبد المؤمن


A S R

١- خريطة الاندلس وأحوال أهلها أثناء حرب المطاولة على عهد عبد المؤمن

الخريطة :

يشرح عبد الواحد المراكشي في «المعجب» الذي يعتبر وثيقة معاصرة ، كيف أن بلاد الأندلس عادت مرة أخرى إلى نظام الطوائف بعدما ضعفت دولة المرابطين إثر صراعها المضني في المغرب مع القائمين عليها من الموحدين ، حيث النصّ على أنه «كادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية» (١).

ومثل هذا ما يشرحه الوزير الغرناطي الشهير ابن الخطيب باستاذية فذّة في كتاب اعمال الأعلام - رغم كونه من نتاج متأخر ، من القرن الـ ٨هـ / ١٤م ، كما هو الحال بالنسبة لصديقه ابن خلدون - ترفعه إلى مستوى الوثائق المعتبرة . فهو يحطّ من قدر ملوك الطوائف في الأندلس ، ويرجع ذلك إلى سبب الخلاف الرئيسي بعد وحدة الكلمة (٢). وهو بعد «ذكر تصيير أمراء الأندلس إلى ملوك لمتونة ، ابتداء من عهد يوسف بن تاشفين» (٣) يبين عودة نظام الطوائف على عهد دولة

---

(١) انظر المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب، القاهرة ١٩٤٩، ص٢٠٨- حيث : كان آخر دولة أمير المسلمين علي بن يوسف أختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً ... أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم إلى الدعة... فهانوا على أهل الجزيرة ... وأجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم. وكان ايضاً من اختلالها قيام ابن تومرت بسوس ، والاشتغال به عن مراعاة أحوال الجزيرة ... ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة من ضعف أحوال المرابطين أخرجوا من كان عندهم من الولاة ... واستبد كل منهم بضبط بلده.

(٢) ابن الخطيب أعمال الإعلام (بروفنسال) ، ص١٤٤- حيث النص على أن امراء الطوائف : «مابين (صقلبي) مجبوب ، وبربري (مغربي) مجلوب ، ومجند (بلدي) غير محبوب ، وغفل (نكرة) ليس من السراة محسوب».

(٣) اعمال الاعلام ، ص ٢٤١ .



المغرب والاندلس

علي أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين

تاشفين (بن على بن يوسف بن تاشفين) الذى «استثقل أمر الأندلس بمادهمه من حروب المهدى (ابن تومرت) ، واستيلائه على المغرب ، فلم يلق إلى الأندلس رأسا .... وأصبحت الأندلس دار البوار .... حيث كان ظهور الملوك والرؤوساء والثوار»(٤).

هذا ، ويمكن القول إن بلاد الأندلس الإسلامية ، فى ذلك الوقت من نهاية دولة المرابطين بالأندلس وبداية دولة الموحدين كانت تنحصر بشكل عام فى الحدود الطبيعية التى يرسمها وادى آنة في جنوب ، وجنوب - شرق شبه الجزيرة الايبيرية ، حيث الأقاليم فى غرب ما بين بطليوس شمالا وميرتلة جنوبا كانت أراض متنازع عليها بين أمراء الأندلس المسلمين وبين دولة البرتغال التى كانت في دور التكوين ، والتمدد جنوبا على طول شاطئ المحيط . فكأن الأقاليم البحرية من الغرب الأندلسى كانت وقتئذ أشبه ماتكون بمنطقة الأرض الحرام (No man's land) بين المتحاربين من الجانبين . وكذلك الأمر بالنسبة للأراضى على طول امتداد النهر (وادى آنة) نحو الشمال الشرقى ، والتى كانت بمثابة منطقة الحدود الاعتبارية بين اراضى المسلمين جنوبا وأراضى قشتالة شمالاً.

شرق الأندلس :

هكذا انقسمت الأراضى الإسلامية عند سقوط الدولة المرابطية إلى : شرق الأندلس حيث اتفق أهل بلنسية ومرسية، وجميع أعمال شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند هو عبد الرحمن بن عياض ، الذى عرف بالصلاح والولاية ، وعرف ابن عياض أيضا بأنه مستجاب الدعاء ، رقيق القلب ، سريع الدمعة ، كما كان فارسا مغوارا لايقوم له أحد ، حتى أن الخصوم من النصارى «كانوا يعدونه وحده بـ ١٠٠ (مائة) فارس ، إذا رأوا رايته قالوا : هذا ابن عياض ، هذه مائة فارس ، فحمى الله تلك الجهات ، ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح،

(٤) اعمال الاعلام ، ص ٢٤٧ .

والذى كانت وفاته فى فتنة مرسية سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م (٥).

والمهم أن الذى خلف هذا الرجل الصالح (ابن عياض) فى شرق الأندلس ، هو الثائر الشهير - الأندلسى (الإسبانى) لحما ودما -:محمد بن سعد ، المعروف عندهم بالاسم الاسبانى أصلا : ابن مردنيش (Martinez = مارتين) (٦).

وكان ابن مارتين هذا فى بداية أمره «خادما» (تابعا : فصلا - Vassal) لابن عياض ، يحمل له السلاح ، ويتصرف بين يديه فى حوائجه ، فلما حضرته الوفاة فضل أن يخلفه تابعه ابن مردنيش بدلا من ولده الذى رأى عدم صلاحيته للقيادة ، لشربه الخمر وإغفاله للصلاة - الأمر الذى يشك فى صحته من حيث انطباقه، كما هو دارج على ابن مردنيش أيضا إلا إذا كان «ظهور النجدة عنده وكثرة الغناء فيه» هو المرجح له على ولد ابن عياض ، وهو الأمر المقبول فعلاً (٧).

المرية :

أما ثالثة مدن الشرق الساحلية فى الجنوب ، وهى المرية ، التى خالفت على المرابطين ومن ثم، على الموحدين ، فإن أهلها عرضوا الإمارة على قائد الأسطول : أبى عبد الله محمد بن ميمون ولكنه رفض الرئاسة مكتفيا بإمارة البحر ، فعهدوا بحكم المدينة إلى رجل ينتسب إلى الأمويين بصلة ويعرف بأبى يحى الرميمى، نسبته إلى بعض قرى قرطبة . ولكن الرجل فرّ من المرية عندما دهمها النصارى براً وبحراً ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م ، ولجأ إلى فاس حيث عاش خاملاً ، يعمل فى نسخ

(٥) انظر المعجب ، ص ٢٠٩ - وهـ ا ، وقارن أعمال الاعلام ، ٢٤٨ .

(٦) المعجب ص ٢٠٩-هـ٢- حيث أنه أصلاً من العرب إليمنية ، وإن كان ينزع به عرق إلى الاسبانية ، اذ كان يتشبه بملوك النصارى فى لباسه (الضيق) وسلاحه ، كما كان له جند من المرتزقة الأسبان . هذا ، كما كان يهادن ملوك النصارى ، وكثيرا ماكان يستعين بهم فى حروبه على المسلمين.

(٧) المعجب ، ص ٢٠٩-٢١٠-حيث النص على استمرار ولاية ابن مردنيش إلى وفاته فى سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م.

الكتب(٨).

جيـــان :

أما عن مدينة جيان وأعمالها فيما بين قرطبة وأغرناطة شرقا إلى حصن شقورة وما والى الثغور ، فكانت لابن همشك - حليف وصهر ابن مردنيش المشهور هو الآخر والذي ربما ملك قرطبة أياماً يسيرة (٩).

دانيـــة وميورقة :

أما عن دانية وميورقة فكانت بيد المسوفي يحيي من أسرة بني غانية الملثمين الذين أحيوا الدولة المرابطية لعشرات السنين على عهد الموحدين - ليس في ميورقة فقط بل وفي إفريقية.

غرب الأندلس :

أما غرب الأندلس - المهدد من قبل دولة البرتغال الناشئة - فقد قام فيه «دعاة فتن وروس ضلالات ، ممن استفزوا عقول الجهال ، واستمالوا قلوب العامة» ، فكأنهم رأوا ان ينتحلوا شخصية محمد بن تومرت عن طريق تجديد دعوته، في شكل حركة أولياء صوفية ، كما فعل أحمد بن قسي الذي ادّعى الولاية ، وربما نسبت إليه أعمال الحيل والشعبذة (١٠) ، الأمر الذي عرفته سيرة ابن تومرت حقا،

(٨) المعجب ، ص ٢١٠-٢١١،هـ٢ .

(٩) المعجب ص٢١١- حيث يعرف عبد الواحد المراكشي ان اسم همشك (الذي يعني مقطوع الأذن) هو عبد الله ، وإن كان لايعرف اسم أبيه.

(١٠) المعجب ، ص ٢١٢ ، وقارن ابن الخطيب أعمال الإعلام ، ص ٢٤٧-٢٤٨ حيث وصف حالة الأندلس على عهد دولة تاشفين (بن علي) ، بأنه استثقل أمر الأندلس بما دهمه من حروب المهدي (ابن تومرت) واستيلائه على المغرب فلم يلق إلى الاندلس رأسا ... وأصبحت الاندلس دار البوار». أما عن المشاهير من رجال غرب الأندلس فيذكر ابن وزير إلى جانب ثوار لبلة وشنترين وشريش.

مما سبقت الإشارة إليه (ص٢٤٣) .

موسطة البلاد :

أما عن العاصمتين أغرناطة وأُشبيلية من بلاد الوسط وأعمالهما ، فقد أقامتا عل طاعة المرابطين حتى تم استرجاعهما بسقوط الدولة اللمتونية.

الثغر الأعلى :

هذا ، بينما لم يبق من بلاد الشمال شئ في أيدى المسلمين ، فقد آل الثغر الأعلى الى ملك أراجون (أرغون) : سرقسطة سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م ، وطرطوشة ولاردة وأفراغة سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م (١١) ، بينما كان ملك صقلية ، روجار الثانى ، يخضع عاصمة الفاطميين : المهدية ، لهيمنته المباشرة (ماسبق ، ص ٣٨١).

تلك كانت خريطة الأندلس السياسية المبسطة بشكل عام . فالحقيقة أنه لم يكن بأيدى المرابطين إلا الجزء الجنوبى من شبه جزيرة ايبيرية ، وهى منطقة الأندلس حقيقة (Andalucia) ، أى الإقليم الجنوبى من شبه الجزيرة مع باطقة قرطبة القديمة ، التى كانت على أيامنا هذه أشبه بالثغر ، مع استثناء عدد من الحصون الصغيرة والقلاع المتناثرة التى أضرب عبد الواحد المراكشى عن ذكرها لأنها تكرة ، إلى جانب «خشية الإطالة» (١٢) . هذا ، بينما أحصى ابن الخطيب الكثير منها فى عملية إحصائية مرهقة (١٣).

أحوال الأندلس طوال حرب المطاولة المرابطية - الموحدية :

يمكن تقسيم الأحداث التى ألمت ببلاد الأندلس فى تلك الفترة من حرب المطاولة،

---

(١١) المعجب ، ص٢٠٨ .

(١٢) المعجب ، ص ٢١١ .

(١٣) أعمال الأعلام ، ص ٢٤٨-٣٦٥- حيث تصبير أمر الأندلس إلى ملوك آل عبد المؤمن المدعوين بالموحدين ، على سبيل الالماع والاحالة.

نوعيا إلى أحداث : كونية (طبيعية) ، وسياسية واقتصادية وثقافية . ولما كانت طبيعة تلك الأحداث تتراوح مابين الإيجاب والسلب ، كما كانت تتوالى أيضا فى دورات شبه منتظمة - فكأنها ملازمة للمتواليات الطبيعية أو القدرية ، وكأنها حلقات مترابطة مابين المقدمات والنتائج المتواصلة ، كانت مساراتها تحتاج إلى بيان الأسباب أو التعليل. وهنا من المهم التركيز على أن رصيد تلك الأحداث المترابطة فى تسلسل زمنى يحتاج الى دراسة تاريخية توقيتية ، تساير الزمن فى انسيابه نحو المستقبل - سواء فى الماضى أو الحاضر . وهنا يكون الاعتماد فى ترتيب الأحداث على نظام التاريخ الحولى أنسب التراتيب . ومن أوفى كتب هذا النظام ما وصلنا من قطع كتابى ابن صاحب الصلاة (المن بالإمامة) وابن القطان (نظم الجمان) الي جانب بيان ابن عذارى ، والذى يجاريه فى عديد من المواضع كامل ابن الأثير ، ونهاية النويرى - وإن كانا مشرقيين.

أما عن أعلام ابن الخطيب فهو دراسة موضوعية للطوائف التى تتضح فيه، وكأنها ظاهرة أندلسية ، وذلك بناء على الأوضاع الجغرافية لشبه الجزيرة الايبيرية المتباينة الأطراف ، والتى تمثل الأوضاع الطبيعية التى تبنى عليها أحداث التاريخ البشرية (١٤). وفى ضوء هذه الفكرة يمكن أن نفهم أن قيام الموحدين على «إسلام جديد» حسب مقالة ابن الخطيب (١٥) ، كان بشيرا بعودة الوحدة إلى الأندلس بعد الفرقة على أواخر أيام المرابطين و وذلك ضمن أهداف دعوة التوحيد والوحدة على عهد عبد المؤمن .

والحقيقة أنه إذا كانت الطائفية في الأندلس تعبر عن تدنى الأوضاع السياسية

---

(١٤) انظر للمؤلف فى هذا المجال ، عملية الانقاذ المرابطى فى الأندلس، مابين ملوك الطوائف وجماعات الشعب العامل على عهد يوسف بن تاشفين (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م - ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م ، من بحوث ندوة الأندلس : الدرس والتاريخ (١٤١٤-١٩٩٤) ، مطبوعات كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، ص ٢١٢ ومابعدها.

(١٥) أعمال الأعلام ص ٢٤٣ .

على المستويات العسكرية والدفاع ، وبالتالى على نظم الحكم والإدارة وخاصة المالية ، الأمر الذى كان يؤدى الى الاضطراب والفتنة ، فإنه ليس من الغريب أن تتوافق حالة الفتنة هذه مع الكوارث الطبيعية الناتجة عن سنوات الجفاف والقحط ، وما يترتب عليها من انتشار الأمراض والأوبئة ، إلى ظهور سحابات الجراد المدمرة للزرع وبالتالى للضرع ، إلى انتشار الحرائق فى المدن والأسواق . وبطبيعة الحال كانت تلك الأمور تؤدى إلى انتشار الفقر والمرض ، وبالتالى عدم القدرة على مدافعة العدو ، خارجيا كان أمْ من أهل الحرابة داخلياً.

والمهم فى نظام الطوائف أنه كان يحقق التوازن العام بين أطرافه المختلفة ، كل فى إمارته أو مملكته - أو حتى امبراطوريته ، كما كان يظن (١٦).

والأمر المثير حقا انّ الحرب عندما كانت تقوم بناء على طموحات بعض الأمراء ، أو مؤامرات الآخرين كان هدفها الأول هو تخريب حواشي بلاد الطرف المستهدف بصرف النظر عن جدوى هذا العمل من الناحية العسكرية أو السياسية . والتخريب والتدمير يظل هدفا أساسيا من أهداف الحروب ، فى القديم الغابر وفى حديثنا المعاصر - الأمر الذى يرفع الأعمال اللاإنسانية في كثير من الأحيان إلى مستوى القوانين الطبيعية.

هذا ، إلى جانب الحركات الدينية المتطرفة ، من المهدية إلى الصوفية - مخلصة كانت أم دعية . والتى ظهرت كرد فعل لحركة الاصلاح المهدية الموحدية ، والتى كانت لها أصداؤها فى المغرب مثل حركة ابن قسي الذى ادعى الهداية فى الاندلس وأصبح واحدا من أمراء الطوائف هناك - مما تأتى الاشارة اليه (ص٤٤٤) أو مثل حركة الماس (أو الماستى) الذي أدعى بدوره الهداية ، مما سبقت الإشارة إليه(ص٣٤٦).

(١٦) والمثل لذلك ماكان يطلقه بعض الشعراء على المعتمد ابن عباد من لقب : «ملك الملوك» حتى بعد مماته ، الأمر الذى يمثل استقرار نظام الطوائف فى نفوس الطبقة المثقفة من الناس وقتئذ - انظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٦٥- حيث يقول ابن الصيرفى شاعر المعتمد على قبره: ملك الملوك أسامع فأنادى أم قد عدتك عن السماع عواد.

هذا ، كما كان للحركة الثقافية ، من : أدب وشعر وعلم وفن ، أثرها أيضا فى توطيد نظام الطوائف ، فقد كان لكل أمير بلاطه الخاص الذي يزخر بالكتاب والعلماء والشعراء الذين كانوا يساندون أمراءهم هؤلاء ، ويعملون بالتالى على توطيد شرعية ذلك النظام ، بل والرفع من شأنه . والحقيقة أن الأندلس كانت بفضل ادبائها وشعرائها فى بلاط أمير المؤمنين الموحدى فى مراكش ، ولدى السادة الأبناء الأمراء من ولاة الأندلس ، تعمل على توطيد أركان دولة الخليفة الموحدى فى كل من العدوتين : المغربية والأندلسية على السواء - الأمر الذى ترتب عليه أن كان التمدد الموحدى من المغرب إلى الأندلس أمراً طبيعياً ، بصفة دولة المغرب الموحدية الوريثة الطبيعية لدولة المرابطين المغربية - الأندلسية . وهى الأمل عند كل من الأمراء وطبقات الشعب فى عملية انقاذ مغربية جديدة.

الطائفية المرابطية فى الأندلس
على أواخر عهد المهدى ابن تومرت

الصراع ضد النصارى :

فى السنوات الأخيرة من العقد الثانى من أوائل القرن السادس الهجرى ١٢م كانت الأحوال العسكرية تسوء بظهور ابن ردمير ، ملك أراجون المحارب - وخاصة فى شرق الأندلس (١٧) بينما كان أمر ابن تومرت (مهدى الموحدين) يستفحل فى بلاد المغرب. ففى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٧م كان الصنهاجيون فى غرناطة يواجهون ابن ردمير فى حرب بدأت سجالاً بانتصار المسلمين ، وانتهت بانهزام الأمير (ابن حبوس) ، وبالتالى انهزام قواته التى تبددت أيدى سبا ، ولم ينقذهم من الاستئصال إلا التجاؤهم إلى المعاقل القريبة «فوقاهم الله شرهم» ، الأمر الذى أدّى إلى عزل الأمير تميم فى السنة التالية ٥٢١هـ/ ١١٢٨م (١٨).

ومن المهم الإشارة هنا إلى أنه فى أثناء تلك الصعوبات الحربية التى كان يواجهها ملوك الطوائف فى الأندلس أمام أمراء اسبانية المسيحية وخاصة ملك اراجون ، كان قاضى قرطبة الشهير أبو الوليد بن رشد يجوز من الأندلس إلى العدوة المغربية ، لينصح الأمير على بن يوسف بن تاشفين ببناء سور مدينة مراكش - ليقيها هجمات رجال المهدى ابن تومرت - الأمر الذى كلف الأمير المرابطى ٧٠ (سبعين) ألف دينار (١٩) ، فكان ذلك مما يزيد فى أعبائه المالية ، وبالتالى أعباء عامة الناس .

---

(١٧) ابن عذارى ، البيان ، بيروت ، ج ٢ ص ٤٤٦-٤٤٧ .

(١٨) ابن عذارى ، البيان ، بيروت ، ج٢ ص ٤٤٧ .

(١٩) ابن عذارى ، البيان ، بيروت ، ج٢ ص ٤٤٧ .

ردود فعل تومرتية فى فاس :

ومن التداعيات التي تستدعى الانتباه أنه في الوقت الذي تقول فيه رواية ابن عذارى فى سنة ٥٢٩هـ/ ٣٥-١١٣٤م أنه تم الاعلان عن وفاة المهدى فى تلك السنة ، وتسمية عبد المؤمن بن على بأمير المؤمنين ، يظهر تأثير الحركة الموحدية التومرتية فى قضاء مدينة فاس الذى تولاه (ابو محمد) عبد الحق بن عبد الله بن معيشة (الغرناطى أصلاً) ، إذ قام بما كان يقوم به محمد بن تومرت فى نفس المدينة منذ أكثر من ١٥ (خمسة عشر) عاما من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما كان يثير خواطر أهل السوق علي الأقل ، في ذلك الوقت. فقد قام القاضي الجديد ابن معيشة فى سنة ٥٢٩هـ / ٣٥-١١٣٤م المذكورة ، فى مدينة فاس «بإراقة الخمر ، وكسر الدنان ، وتشدد على أهلها (فاس) ، كما زاد فى (توسعة) الجامع الكبير» (٢٠) . فكأن ابن معيشة كان يقبل تجديد ابن تومرت الاسلامى ، ويعمل على تطبيقه قبل عشر سنوات من فتح عبد المؤمن لمدينة فاس وأكثر ، حيث كانوا يطمسون بالجص زخارف محراب المسجد الجامع التى كان يمكن ان تلهي المصلين عن الصلاة ، خشية غضب خليفة ابن تومرت (٢١).

(٢٠) ابن عذارى ، البيان (ط.بيروت) ، ج٢ ص ٤٤٩ وعن توسعه الجامع انظر زهرة الآسى للجزنائى ، نشرة ألفرد بل (Alfred Bel) الجزائر ، ١٩٢٣ ، ص ٥٧- حيث أمكن لابن معيشة - استخلاص ٨٠٠٠ دينار كانت فى عهدة نظراء الأوقاف والوكلاء - وحيث بلغت الزيادة فى الجامع (جامع القرويين) ١٠ (عشر) بلاطات.

(٢١) الجزنائى ، زهرة الآس ، ص ٥٨- حيث النص أيضا على أن ابن معيشة أخذ فى عمل القبة التى بأعلى المحراب ومايحاذيها... فعل ذلك بالقربس الفاخر الصنعة والنقّش فيه على المحراب دائر القبلة التى عليه . ورقّش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد ، واصناف الأصبغة... والمهم بعد ذلك أن النقش والتذهيب الذى كان بأعلى المحراب ودائر القبّة التى عليها غطى ذلك كله بالكاغد (الورق) وعمل عليه الجص حين عزم الخليفة عبد المؤمن بن على الدخول لفاس والصلاة فى الجامع المذكور ، لأن ذلك كان مشغلا للمصلين . وأنظر: بالباس (ليبولد توريس) ، الفن المرابطى والموحدى ، ترجمة سيد غازى ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٢ - حيث تغطية نقوش محراب جامع فاس بالجص عندما تهيأ عبد المؤمن لدخول المدينة سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م.

استدعاء القائد الأعلي تاشفين من جبهة الأندلس الي الجبهة المغربية :

هذا ، كما كان استدعاء أمير المسلمين على بن يوسف لابنه تاشفين فى سنة ٥٣١هـ/ ٣٧-١١٣٦م من الاندلس ليجعل إليه ولاية العهد، ويضع على عاتقه عبء مواصلة حرب عبد المؤمن، وكل ذلك يعني المزيد من الاهتمام بالخطر الموحدى فى المغرب على حساب مواجهة حرب الاسترداد فى الأندلس، والتى بدأت تتفاقم مظاهرها هناك. هذا، مع ظهور حركات أندلسية محلية الطابع هذه المرة ، تقرب بين بعض الفئات الأندلسية والإسبانية من إسلامية ومسيحية بشكل يجعل من المواطنة رابطة متفوقة بين الأفراد على الثقافة الدينية ، مثل حركتي ابن مردنيش وابن همشك.

الاهتمام بالشعر فى الأندلس :

أما عن الحالة الثقافية بشكل عام فى تلك الفترة بالأندلس فيكفى دليلا على حب الأندلسيين للأدب والشعر على أواخر عصر المرابطين فى الأندلس ، أن بعض الناس كان يوقف غلة بعض أرضه على الشعراء الذين يستأذنون عليه. هذا ويستدل من القصة التى يوردها عبد الواحد المراكشى فى معجبه ، أن الأدب والشعر كان قد تأثر فى الأندلس بحالة الفتنة ، وهو الأمر الطبيعى ، إلى حدّ أن الشاعرأبا عبد الله بن حبوس كان يسعى للتعرف فى مدينة شلب بغرب الأندلس على واحد ممن يرعون الشعر والشعراء ، وهو يتضور جوعا ، بينما كان رجل من عامة أهل المدينة (شلب) يحتجز مالاً يبلغ مقداره ٧٠٠ (سبعمائة دينار ذهبى مرابطى)، وهو لا يجد من يفد عليه من الشعراء ليأخذ ذلك المال بسبب الفتن بالأندلس (٢٢).

---

(٢٢) المعجب ، ص ٢١٤-٢١٥ - حيث تنتهى القصة بمقالة الشاعر عن طبيعة تقلب الأحوال فى عصر الفتنة ، هذا : «فدخلت عليه جائعا فقيراً وخرجت عنه شبعان غنيا».

تقييم الموقف فى الأندلس :

والمهم من كل ذلك أن ظهور ابن تومرت بالمغرب فى منتصف العقد الثانى من القرن الـ ٦هـ/ ١٢م كانت له آثاره السلبية على الأحوال فى الأندلس المرابطية وقتئذ، فحوليات ابن القطان التى ينقلها ابن عذارى تنص في سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م على أن حلول ابن تومرت (الملقب بالمهدى) بأغمات فى تلك السنة كان تحريضا «على الخروج على السلطان (أمير المسلمين) ، وتفريق الكلمة المنتظمة». وتتأكد تلك المقولة بالثورة الشعبية التى عرفتها قرطبة فى ذلك الوقت من سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م ، والتى جعلت من أمير المسلمين الثانى : على بن يوسف ابن تاشفين يظهر فى نظر القرطبيين بمظهر واحد من ملوك الطوائف ، بالمقارنة مع والده «امير المسلمين الأول» الذى ظهر بعد أنتصار الزلاقة بمظهر المنقذ بالنسبة لبلاد الأندلس أو المخلص . فكأنه قد حدث - فيما بين العهدين - نوع من الانفصال الروحى بالأندلس بين الشعب وبين الدولة (انظر ج٤ ص ٤٠٣ - ٤٠٥).

هذا الانفصال بين الحاكم والمحكوم فى الأندلس المرابطية أكدته فى السنة التالية (٥١٥هـ/ ١١٢١م) هزيمة كتندة (قتندة) التى استشهد فيها ألوف المجاهدين (٢٣) . أما عن الانتصار الذى حققه المرابطون فيما بعد فى إفراغه فلم يكن بأكثر من انتصار فردى ليحيى بن غانية ، صاحب غرب الأندلس (مابعد ، ص٤٢١).

وهكذا كانت الأحوال تسوء فى الأندلس مع مرور الوقت . فبينما كان أمر المهدى ابن تومرت يستفحل فى سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م كانت الأحوال تزداد سوءا فى الأندلس فى السنة التالية ، حيث خرج ابن ردمير (الفونس المحارب ، ملك أرجون) إلى بلاد المسلمين فدوخها بلداً بلداً ، وضيق عليها فى حملته الشهيرة التى اجتاح فيها بلاد شرق الأندلس من أعلى ثغورها إلى أدنى بلادها الى العدوة (ج٤ ص ٢٩٨). الأمر الذى كان يهدد المرابطين بخسران عملية الانقاذ التى بدأت

---

(٢٣) ابن عذارى ، بيروت ،ج٢ ص ٤٤٣- حيث النص ، نقلا عن ابن القطان أنه مات في تلك الوقعة نحو من ٢٢,٠٠٠رجل.

بشائرها في الزلاقة. بشكل نهائي.

وعلى العكس من ذلك كان سفر ابن رشد من قرطبة إلى العاصمة مراكش لكي يعرض على أمير المسلمين : على بن يوسف بن تاشفين مسألة مناصرة المستعربة من نصارى الاسبان في غرناطة لابن ردمير (ملك اراجون) ، وماترتب على ذلك من نصح الفقية القرطبي الكبير بتحصين مدينة مراكش بالأسوار ، تأمينا لها من خطر اجتياحها من جانب الموحدين (انظر ج٤ ص ٤٢٠) ، وماترتب على ذلك من حركة «التعتيب» المماثلة بالنسبة لمدن الأندلس المهددة بخطر حرب الاسترداد (ج٤ص ٤٢٠-١) ، كل ذلك كان نذير أخطار جارفة تهدد وجود الدولة المرابطية ، ليس في الأندلس فقط ، بل وفي بلاد المغرب ذاتها - من جانب الموحدين.

والمهم أنه إذا كان الموحدون وادعين في المغرب عقب ذلك في سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠-١م ، ولوفاة المهدى كاتمين كما ينص ابن القطان (٢٤) ، فقد كانت تلك الوداعة أشبه ماتكون بالرماد الناعم الذى يخفي تحته الجمر الملتهب . وذلك أن القدر ، ممثلا في الأحوال الطبيعية ، كان قد تخلى ، في ذلك الزمن أيضا عن مساندة الأندلسيين . ففي أخبار الأندلس سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١-٢م «اشتدت المجاعة والوباء بالناس بقرطبة ، وكثر الموتى» ، كما اشتد القحط بالتالى والجدب بالأحياء.. «إذ بلغ (سعر كيل) القمح ١٥ (خمس عشر) ديناراً ، وكثر (بالتالى) الشر» ، بينما كان والى العاصمة الاندلسية التعيسة ، وهو ابن قنونة : ابن كنونه(ابو محمد عبد الله بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين) «لايفتر ولا يني عن قتل أهله» (٢٥).

وإلى جانب القحط والوباء وسوء إدارة الوالى المرابطى (الزرجانى) كانت خيّالة النصارى من الخصوم تضرب على قرى اشبيلية من جهة حصن القليعة ، وتنشر في المنطقة الهلع والفزع ، والنهب والقتل والتخريب . كما كانت تكرر الغارة على

---

(٢٤) نظم الجمان ، ص ١٩٠ .

(٢٥) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٧ .

الضواحي بقيادة رودريجو جونزاليز ، بل وتقتحم شرق اشبيلية على حين غرة ، وتقتل الأعداد الكثيرة من أهله ، وتعود بالسبي من النساء والولدان (٢٦) . هذا ، وكان من شهداء تلك الوقعة القائد : عمر بن مقوز (مجّوز : بن على بن الحاج) الذى كان «قد خرج على وجه الاستظهار ولكنه نكص فاراً ، فأدرك وقتل» ، الأمر الذى أدهش الناس ، ودعا إلى أغلاق أبواب المدينة (٢٧).

وهكذا أصبحت منطقة أشبيلية فى ذلك الوقت من سنة ٥٢٦هـ/ ٢-١١٣١م وكأنها من الثغور الإسلامية التي تتعرض للغارات المتوالية من الجيران الأعداء ، بل وكذلك الأمر بالنسبة لغرناطة ، ثالثة العواصم الإسلامية وأقواها من حيث كونها مقر ولى العهد أو نائب الملك . وفى تلك السنة كانت مدينة يابرة غرب بطليوس هدفا للخيالة المسيحية أيضا الأمر الذى دفع الأمير : تاشفين صاحب غرناطة والقائد ابن قنونة ، صاحب قرطبة ، إلي المسير اليهم واللقاء معهم حيث أمكن هزيمتهم وقتلهم ، واستنقاذ الغنيمة من بين أيديهم (٢٨) -فى ذلك الموضع الذى لايبعد كثيرا عن موقع الزلاقة.

---

(٢٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٧ والهامش - حيث الإشارة إلى أن المعركة تعرف عند النصارى باسم أثاويدا.

(٢٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٨ والهامش.

(٢٨) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٨-حيث الإشارة إلى أن الحوليات النصرانية تقول إن تاشفين ثأر من الغارة على يابرة Evora بالثأرة على سلمنكة - وهو الأمر المستبعد نظرا لطول المسافة بين المدينتين وهنا لابأس من الإشارة إلى الحملة التى قام بها تاشفين ، والتى وصفها ابن الخطيب فى رمضان سنة ٥٢٤هـ/ يوليه ١١٣٠م والتى خرج فيها بجيش غرناطة ومتطوعتها ، مع انضمام جيش قرطبة إليه ، حيث كان المسير إلى حصن السبيكة من عمل طليطلة ، والذى كان العدو قد اتّخذه وكايا للإضرار بالمسلمين على يدى قائد الكونت (Comes) فرند (Fernado). ونجح تاشفين فى افتتاح ذلك الحصن عنوة ، وعاد بقائده فرناندو وفرسانه إلى غرناطة - وربما استخدمهم ضمن الفرقة الأجنبية التى كانت لدى المرابطين بالاندلس - ابن الخطيب، الاحاطة (عنان) ج١ص٤٥١ .

ولاية تاشفين عواصم الأندلس الثلاث :

وعندما رجع تاشفين من تلك الغزوة الموفقة ، علي كل حال ، صدر الأمر من قبل والده أمير المسلمين : علي بن يوسف ، بإسناد ولاية قرطبة واشبيلية وغرناطة إليه (٢٩) ، فكأن ذلك المرسوم يوسع اختصاصات نائب الملك (ولى العهد المنتظر) بضم عواصم الأندلس الكبري الثلاث تحت سلطانه المباشر ، بمعنى العمل على حمايتها والدفاع عنها ، أولا وقبل كل شئ ، بعد ان أصبحت وكأن أعمالها مناطق ثغور مفتوحة : لاصاحب لها . وترتب على إسناد ولاية قرطبة إلى تاشفين أن عزل عنها عبد الله ابن قنونة (جنونة) الذى اقتيد إلى إشبيلية حيث سجن فيها . وكان دخول تاشفين قصر الولاية فى قرطبة في شهر شعبان (٥٢٦هـ/ يونيه ١١٣٢م) (٣٠).

وتستمر الغارات على أراضي المسلمين فى سنة ٥٢٧ هـ/ ٣-١١٣٢م من قبل ملك قشتالة الفونسو المعروف باسم السليطين أي السلطان الصغير (والذي سيتخذ

---

(٢٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٩ .

(٣٠) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٩ ، وقارن ابن الخطيب ، الإحاطة (عنان) ج١ ص ٢-٤٥١- حيث خروج العدو فى آخر عام ٥٢٦هـ إلى بلاد الإسلام فيصبّح اشبيلية فى ١٤ رجب ، وعندما يخرج إليه جيش المسلمين بقيادة عمر بن على بن الحاج ، فتكون الفاجعة باستشهاده والمحيطين به ونزول العدو فى أعمال المدينة ونشر الخراب والقتل.والمهم أن تاشفين أسرع لإنقاذ الموقف ، وبجمع بعد أن دخل اشبيلية ، وأخذ استعداده فيها فى تعقب العدو وفى مسيرته نحو بطليوس وباجة ويابرة ... حتى الوصول إلى فلاة بقرب الزلاقة ، كانت ملجأ للعدو الذى كان قد وصل يسوق أمامه مغانمه . وكان اللقاء فى معركة منظمة وقف فيها تاشفين ووجوه المرابطين فى موقع القلب ترفرف عليهم «البنود الباسقات ، مكتبة بالآيات ، وفى المجنبتين كبار رجال الدولة من أبطال الاندلس ، عليهم حمر الرايات بالصور الهائلة ، وفى الجناحين أهل الثغر والأوشاب من أهل الجلادة ، عليهم الرايات المرفعات بالعذابات المجزعات». وفى المقدمة «وقفت مشاهير زناته ولفيف الحشم بالرايات المصبغات المنمّقات». والتقى الجمعان واشتد الضرب والضراب ، ، وانتهى اللقاء بهزيمة العدو ، والذى استأصله الهلاك والإسار . وكان فتحا جليلاً ، لاكفاء له وصدر تاشفين ظاهرا إلى بلده فى جمادى من هذا العام / فبراير.

لقب الامبراطور) مع حليفه ابن هود (الملقب هنا بالطاغية) ، ووريث ماتبقى بين أيدى المسلمين من قلاع الثغر الأعلى. فلقد حام عسكرها حول اشبيلية ، كما اقتحموا مدينة شريش قبل ان يعودوا أدراجهم إلي بلادهم (٣١).

تاشفين بطل الدفاع :

وهنا يظهر تاشفين بمظهر بطل الدفاع عن الأندلس ، فهو يطاول الخصوم الاسبان ويرد بغارات مماثلة لتلك التى يقومون بها على الأراضي الاسلامية ، الأمر الذى كان يؤمّل تحقق نوعٍ من التوازن فى حرب المطاولة الأندلسية . ففى مقابلة مع غارة الملك القشتالى وحليفة ابن هود تعرض حولية ابن القطان فى سنة ٥٢٧هـ / ٣ - ١١٣٢م هذه ، إلى حملة يقوم بها تاشفين إلى أراضى قشتالة حيث يفتتح حصن أنطاطة (شنت اشطين عند ابن الخطيب) ، حيث تُم قتل الرجال وسباء النساء والصبيان ، وهدم ذلك الحصن بتسوية أعلاه بأسفله. وإلى جانب الهدم والتخريب الذى كان متبادلا بين المسلمين والإسبان المسيحيين كان الجراد يأكل الزرع فى تلك السنة ، لكى تتم فصول المأساة الأندلسية (٣٢).

وعلى هذا النسق تتكرر المأساة في السنة التالية (٥٢٨هـ/ ٤-١١٣٣م) حيث

---

(٣١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠٠ .

(٣٢) ابن القطان ، نظم الجمان ،ص ٢٠١ وهـ١ . وقارن ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٤٧-٢٤٨- عن دولة تاشفين ، حيث: النص على أنه «استقل أمر الأندلس بمادهمه من حروب المهدى واستيلائه على الغرب ، فلم يلق إلى الأندلس رأسا...

وانظر ايضا لابن الخطيب ، الإحاطة (عنان) ج١ ص ٤٥١ (عن تاشفين) حيث النص على أنه فى ربيع الأول من عام ٥٢٦ هـ/يناير ١١٣٢ م، عندما تعرف تاشفين خروج عدو طليطلة إلى قرطبة ... نهد إلى العدو الذى اكتسح شنت اسطبن (San Esteban) والوادى الأحمر ... وتلاحق بالعدو بقرية براشة «فتراءى الجمعات صبحا... ونشرت الرماح والرايات ، وهدرت الطبول ... وانتبذ العدو عن الغنيمة ، والتف الجمع فقصرت الرماح ، ودارت الحرب على العدو ، وأخذ السيف مأخذه ، وأتى القتل على آخرهم ، وصدر إلى غرناطة ظافراً.

الصراع مستمر بين المرابطين والموحدين في المغرب (٣٣) ، بينما كان قضاء اشبيلية يؤول بالأندلس إلى الفقيه الشهير ابى بكر بن العربى ، بعد عزل ابى عبد الله بن أصبغ . ويكون الشروع فى بناء سور اشبيلية من ناحية الوادى (النهر) - الذي لم يعد كافيا لتحقيق الأمان من ناحيته ، كما نرى. وفى تلك السنة بينما كان ملك أراجون ابن ردمير ، يهاجم قلعة أفراغة فى منطقة الثغر الأعلى غير بعيد من لاردة ، كان الجراد في الأندلس يأكل «كل ماكان على الأرض من زرع» (٣٤).

وفى سنة ٥٢٩هـ/ ٥-١١٣٤م التالية ، كان الإعلان فى مراكش عن موت الإمام المهدى (ابن تومرت) ، والإعلان ببيعة عبد المؤمن خليفة، الأمر الذي كان يعني الاستقرار في المغرب لعبد المؤمن ، بمعني ضبطه للأمور دون منازع . هذا . وفى المقابل كانت أمور الأندلس تزدادترديا رغم المجهودات المضنية التى كان يقوم بها تاشفين ، صاحب الولايات الثلاث بالأندلس : غرناطة واشبيلية وقرطبة : نائب الملك.

والحقيقة أن تاشفين كان يبذل قصارى جهده - على المستوي الشخصي كقائد همام ، وعلى المستوى العام كأمير مسئول بالنيابة عن ضمان الأمن والاستقرار فى البلاد المضطربة علي المستويين الخارجي والداخلى . ومن الواضح أنه بينما كان الأمير الفارس يعمل على مكافحة طلائع العدو فيستنصرعامة الناس فى قرطبة سنة ٥٢٩هـ/ ٥-١١٣٤م ، ويستدعى عساكر اشبيلية ويابره لكى ينزلوا فى موضع يعرف «بالبكار: Albacar» قرب قرطبة حيث تفاجئهم خيالة النصاري ليلاً ، فقتل منهم من قتل وتفرق الباقون أيدى سبأ ، وكادت خيل العدو تصل إلى خباء تاشفين . ولكن الناس تماسكوا حوله ، وكانت له على العدو جولة ، ومن حسن الطالع أن أصيب بعض مقدمى النصارى ، فنكصوا على أعقابهم.

---

(٣٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠٦- حيث الإشارة إلى مقتل إبراهيم بن تاعياشت - وانظر ماسبق ،ص٢٣٥).

(٣٤) ابن القطان ، ص٢٠٧-٢٠٨ .

وهكذا عندما «أصبح تاشفين فى موضع محلته ، وثاب الناس إليه سار بهم إلى بعض حصون المسلمين القريبة» وهو حصن «قصرش» Caceres ، ومن هناك عاد الى قرطبة، بينما رجعت النصاري إلى بلادهم بالغنائم (٣٥)، فكأن منطقة قرطبة ، بعد ولاية تاشفين إياها ، ظلت أشبه ماتكون بالثغر الخالى أو الأرض الحرام . ويؤيد ذلك خروج الناس من أهلها مع العساكر - الأمر الذى يعني ترك العامة وأهل السوق لأشغالهم ومهنهم - وبالتالى فساد الأحوال في البلاد.

وإلى جانب غارات العدو ، أتت غارات جحافل الجراد ، «ومحت ماعلي الأرض من زرع ، فلم يبق أمام الناس إلا أكل الجراد بدورهم . هكذا ، «أمر الناس بالخروج إلى الجراد فساقوا منها ٥٣٣٠ (خمسة آلاف وثلاثمائة وثلاثين) عدلا» ، وتركوا فى الموضع منها (الجراد) أكثر (مما جلبوا) (٣٦).

وإلى جانب مآسي حرب المطاولة ، ونكبات الطبيعة كان المجتمع الأندلسي يعاني كثيراً من الفتن الداخلية ، من : صراعات بين الأحزاب الإسلامية المتناحرة دينيا وسياسياً ، وصراعات بين المسلمين من جانب وبين أقليات أهل الذمة من اليهود والمستعربة الإسبان من الجانب الآخر.

فمن غرائب نفس سنة ٥٢٩هـ/ ٥-١١٣٤م مقتل قاضى قرطبة أبي عبد الله بن الحاج فى صلاة الجمعة فى المسجد الجامع ، إذ وثب رجل عليه بالسكين وهو في السجدة الأولى من الركعة الأولى فقتل . وكان نصيب المعتدى أن قتل بالضرب المبرح وهو يُجَر إلى صحن المسجد . أما القاضي الجريح فإنه نقل فى نعش وهو غارق في دمائه ، ولكنه لم يقدر له الحياة إذ توفى فى داره عشية يوم الجمعة ذاته ، وهو المؤرخ ٢٤ صفر / ١٥ ديسمبر ١١٣٤م (٣٧). وبقيت قرطبة أشهراً دون قاض الى أن ولى قضاءها: أبو جعفر أحمد بن حمدين فى شعبان من نفس العام.

(٣٥) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٥-٢١٦ .

(٣٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ٢١٧ .

(٣٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٥ .

أما عن الصراع بين العامة وأهل الذمة فتنص حولية نفس سنة ٥٢٩ هـ/ ٥-١١٣٤م القرطبية على أن رجلا من اليهود قتل مسلماً ، الأمر الذى أدى الى هياج عامتها «فاستطال المسلمون علي اليهود (بقرطبة) وكانت فرصة انتهزها الغوغاء «فنهبت أموالهم وهدمت ديارهم» (٣٨).

وفى ظل هذه الأحوال المضطربة ، من : سياسية وحربية واقتصادية واجتماعية ، الأمر الذى ينبئ بنهاية تعسة لحرب المطاولة الأندلسية ، كانت أنباء بعض الانتصارات المحلية التى يحققها المرابطون فى الأندلس تُدَوِّى في جنبات البلاد ، وكأنها بشائر النصر ، ولكن دويها كان لايلبث ان يخفت ويحّل الكآبة محل الفرح ، وإن كانت انتصارات الموحدين فى المغرب علي المرابطين أخذت تجدد الأمل في عملية انقاذ موحدية أخرى ، بل وزلاقات متجددة .

انتصار أفراغة :

هكذا اعتبر النصر المرابطي فى موقعة أفراغة فى أواخر سنة ٥٢٨ / سبتمبر ١٣٣٤م أوائل سنة ٥٢٩هـ/ اكتوبر ١١٣٤ م غريبة من غرائب ذلك الثغر المصاقب لبلاد الفرنجة والحقيقة ان المعاصرين فى أى من العدوتين الأندلسية أو المغربية ، كان لهم الحق فى أن يعتبروا الانتصار علي الطاغية ابن ردمير ، ملك أراجون ، الذى سبق له أن دوّخ الأندلس بلداً بلداً (ماسبق ،٤٢٦) ، أعجوبة من الأعاجيب ، وهو الأمر الذى تحقق فى الثغر الأعلى وعلى يدى يحيى بن غانية المسوفي ، الذى أصبح الممثل الحقيقى للسلطة المرابطية بالأندلس ، بعد أن عهد إليه بولاية شرق الأندلس إلى جانب ولايته للغرب ، الأمر الذي سيسمح بعد قليل باستدعاء تاشفين من الأندلس لمواجهة الأحوال المتردية في المغرب أمام الموحدين ، إلى جانب ولايته للعهد، بدلا من أخيه سير (ماسبق ، ص٤٣٠).

أما عن السبب في حرب أفراغة فيتلخص فى أن تطلع أمير برشلونة القوى ،

---

(٣٨) ابن القطان ، نظم الجمان ص ٢١٧ .

وهو القومس (الكونت) رامون برنجار (الذى اشتهر بلقب الأكبر) ، إلى الاستيلاء على كل من مدينتى الثغر الأعلى وهما : لاردة وأفراغة ، أدى إلى أن يشتري أمراء لمتونة هناك سكوته عنهم ، بجزية مقدارها ١٢,٠٠٠ (اثنى عشر الف) دينار من الذهب المرابطى ، حتى لايقعوا بين سندانه ومطرقة الفونسو المحارب. وأدّي ذلك إلى غضب هذا الأخير ، واعتبار ذلك عملاً عدائيا من الجانبين المتعاقدين ، فوجّه لهما السّباب ، وهو يقول : «لو أعطونى (المسلمون) أنا درهما واحداً لأخذته» ، ووعد بالانتقام والإغارة على ثغور المسلمين ، واختار مدينة أفراغة هدفا له ، باعتبارها أشدها حصانة وأقواها دفاعا - وكان في ذلك تحدٍّ لمقدرة يحيى بن على بن غانية ، وإلى شرق الاندلس وغربه ، وصاحب بلنسية التى اتخذها عاصمة له (٣٩).

وعندما طال الحصار وضاق أهل أفراغة من شدة الحصر ونفاد القوت ، كتبوا إلى يحيى (أبو زكريا) بن غانية يشكون ماهم فيه من الضيق ويطلبون منه إمدادهم بالقوت ، قائلين له : «وان أنت لم تفعل خضعنا لابن ردمير ، وأعطيناه المقادة (الرئاسة)» . وشعر القائد المسوفى أصلاً ، سليل الأسرة المالكة ، بالمسئولية الكبيرة الواقعة على عاتقه ، وأعدّ لها خير إعداد . وفى سبيل ذلك لم يكتف القائد المسئول عن شرق الاندلس وغربه بجمع العساكر فقط ، بل إنه قام بما يليق بمثله من أعمال الفروسية والفداء ، والتى يحسن أن يلقي بها ربه ، إذا ما اشترى نفسه (بأن له الجنة) . فقد أعتق بعض إمائة (من أمهات أولاده) وعبيده ، وكتب وصيته . وهذه الأعمال الفدائية من جانب يحيى بن غانية يفسرها ماقاله له بعض خاصته «أتغزو بهذا العسكر ، وليس للمسلمين عسكر بالأندلس سواه ! ، فكيف تلقي على بنى يوسف بعد اليوم وقد انهزمت » (٤٠).

وكان الخروج بعساكر الثغر التى لا رد لها ، لمناجزة ابن ردمير (الفونس المحارب) بعيداً في منطقة لاردة وأفراغة ، بالنسبة لفارس مسوفة أشبه بمقامرة

(٣٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٨-٢١٩-٢٢٩ .

(٤٠) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢١ .

كبرى ، وضع فيها كل مايملكه ، وضمانه فيها شجاعته وفروسيته ، وثبات جنانه ، وإيمانه بالقضية الكبرى : «نكون فى الأندلس أو لانكون» . وبطبيعة الحال لاينبغى أن نغمط المجاهدين من الرجال وراء ابن غانية حقهم ، فالذى يفهم من مجمل الصراع حول مدينة أفراغة الحصينة ، أن تلك الحرب مابين المسلمين والإسبان المسيحيين كانت ذات صبغة دينية . فعندما ملّ ابن ردمير من طول الإقامة حول القلعة التى لاترام ، وكان قد جاء معه ببعض الرهبان من داخل فرنسا (الفرنجة) قال له أحدهم إنه سيدعو «فينهدم سور أفراغة». وتريد الرواية الإسلامية هنا ،أن يحرز المسلمون قصب السبق فى تلك المناجزة المقدسة ، حيث نجح منجنيقهم ان يخطف روح الراهب الواثق من نفسه ، وقد صعد الى قمة المرتفع الذى كان سيطلق منه الدعاء (٤١) وهكذا كان التحكيم الإلهى إلى جانب «المستضعفين».

أما عن المعركة خارج أسوار أفراغة ، فتتلخص فى أنه «لما وافت عساكر المسلمين ، سار ابن ردمير إليهم ، فخرج أهل أفراغة ونهبوا محلته وأدخلوا ما فيها من الطعام والأدم الى مدينتهم ، وكانت الدائرة عليه فأهلكه الله ، وقتلهم المسلمون أبرح قتل» . وفر ابن ردمير فى شرذمة قليلة جداً ، ولحق بمدينة سرقسطة ، واله العقل ، مخبول الذهن ، ثم خرج إلى وشقة ، فأقام بها أشهرا مختبلاً ، إلى أن مات (٤٢).

وهكذا حق للمسلمين أن يحتفلوا بهزيمة خصمهم اللدود :ابن ردمير (الفونسو المحارب) فى موقعة أفراغة ، وحق للكتاب العرب أن يحتفلوا بتلك الموقعة ، فكأنها صنوة الزلاقة التى حطموا فيها الفونسو القشتالى ، واعتبروها «غريبة» من الغرائب ، الأمر الذى تؤكده الأحداث السياسية والحربية التالية فى حرب المطاولة المرابطية مع النصارى الإسبان . فلقد ظهرت الآلة الحربية الأندلسية أكثر قوة ونشاطا عن ذى قبل فى أخبار الأندلس التالية.

---

(٤١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٢ .

(٤٢) ابن القطان ، نظام الجمان ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وقارن ابن الأثير ، ج١١ ص ٣٣ - بعد ٢٠(عشرين) يوما.

ففى سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م كان تاشفين بن على يتصدّى لخيالة النّصارى وينزل بهم الهزيمة على مقربة من قصر عطية «ويحتوي على أسلابهم وأثاثهم»، كما كان ينازل مدينة اشكلونة فيدخلها المسلمون بالسيف عنوة ، ويقتلون كل من كان فيها من الرجال ، ويأسرون نساءهم «ويحتوون على أسلابهم وأثاثهم ظافرين ، ويسوقون جملة من نسائهم وغنائمهم (٤٣).

ومن المهم الإشارة هنا إلى ماساقه معهم رجال تاشفين بين غنائمهم من نواقيس كنائس البلاد التى كانوا يدخلونها ،كناية عن انتصار الإسلام بعد فترة الخمود السابقة ، والتى كان يسرح فيها الفونسو المحارب ويمرح مابين الشمال والجنوب ، مدّوخا بلاد الإسلام بلداً بلداً ، مما سبقت الاشارة اليه.

والمهم أنه كان بين النواقيس التى دخلت قرطبة ناقوس عظيم ، كناية عن فتح مدينة كبيرة ، ربما كانت مقر رئاسة اسقفية . هذا ، وكان دخولهم قرطبة « يوم بروز عظيم ، وسرور كثير (٤٤) ، الأمر الذى كثيراً ما كان يثير أشجان أيام قرطبة الناصر والمنصور.

والى جانب احتفال الحوليات التاريخية بإنتصار تاشفين (الزرجانى) ، كانت هناك أشارات فرحية عن أخبار أعماله العمرانية ، مثل : «بناء الناعورة على النهر الأعظم (الوادى الكبير) بقرطبة . ولايعكر صفو هذه الأنباء الفرحية إلا «خروج الجراد واضرارها للزروع كثيراً (٤٥).

ولكنه بينما كانت أحوال حرب المطاولة الأندلسية تتحسن إلى جانب المرابطين بعد اختفاء «الفونس المحارب» الأراجونى عن مسرح الأحداث ، كانت الأمور تسير من سئ الى أسوأ فيما يتعلق بحرب المطاولة المغربية ، على الجانب الآخر من المضيق ، الأمر الذى دعا أمير المسلمين : على بن يوسف إلى نقل ابنه تاشفين من

(٤٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٧-٢٢٨ .

(٤٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٨ .

(٤٥) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٨ .

قيادة الجبهة الأندلسية إلى جبهة المطاولة المغربية التى كانت تهدد كيان الدولة المرابطية فى عقر دارها - فكأن أمير المسلمين كان يفضل إنقاذ الدار المحترقة قبل إنقاذ مابها من المنقولات - كما يقال *.

والمهم أنه أثناء خروج تاشفين من غرناطة نحو قرطبة استعداداً للمسير نحو العدوة ، كان العدو (القشتالى) يخرج بجيشه العرمرم إلى بلد المسلمين ، وإن جزءا من ذلك الجيش كان قد عبر الوادى الكبير فى أعلاه من جهة الشرق ، حيث مدينتى بياسة وأبذه ، واندفعوا في الغارة نحو قرطبة حتى وصلوا إلى موقع البراجلة حيث أوقعوا بالمسلمين هناك . والمهم أنه كان من الممكن أن تلحق بالمسلمين كارثة عظيمة لولا أن لطف الله بهم ، فكانت السيول الجارفة والمطر الذى توالى مدة ٢٠ (عشرين) يوما بلا انقطاع ، معوقاً للعدو فيما كان يصبو إليه من أهداف . فلقد انقطع الطريق أمام المهاجمين ولم يستطيعوا العودة من حيث أتوا ، إلا «فى المعادى التى صنعوها للجواز» ، الأمر الذى كلفهم غرق بعض من كان فيها.

والحقيقة أن هذا المأزق الذى وقع فيه النصارى ، كان فرصة انتهزها قائد جيان لمطاردتهم نحو حصن شبيوطة من عمل أنده (٤٦). ومن الواضح أن تلك الأحداث كانت عائقا فى طريق تاشفين نحو العدوة المغربية ، إذ استغرقت مسيرته إلى المجاز نحوا من ٤٠ (أربعين) يوماً ، وهو يفكر فى مدافعة العدو أثناء المطر (٤٧).

والمهم أن تاشفين نجح بعد لأى فى جواز المضيق فى بداية شهر جمادى الأولى (سنة ٥٣١هـ/ أواخر يناير ١١٣٧م) ، ودخل مراكش فى أول رجب/ ٢٥ مارس ١١٣٧ م من نفس السنة ، لكى يبدأ حرب تقرير المصير فى السنة الثانية من العقد الرابع من ذلك القرن السادس الهجرى / ١٢هـ ، قرن قيام وعظمة الامبراطورية المغربية الموحدية.

---

* نقلاً عن زميل الدراسة في باريس، الصديق محمد محمد شاكر (له الرحمة).

(٤٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٣٣ .

(٤٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٣٣ .

السنوات الأخيرة من حرب المطاولة :

وهنا ينتهي الاعتماد شبه الكامل على رواية ابن القطان، ويكون الاعتماد على رواية ابن عذاري في تاريخ الموحدين، وهي الرواية المعتمدة حقا على الأصول القديمة وبخاصة روايتي كل من ابن صاحب الصلاة وابن القطان (٤٨). وتبدأ الرواية عن الموحدين هنا بسنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٧م، حيث خروج تاشفين للقاء عبد المؤمن بن علي ومعه قبائل جزولة الذين لم يرغبوا في مواصلة القتال، بل طالبوا بالعودة الى بلادهم، حيث تعرضوا في الطريق إلى كمائن الموحدين وهو الأمر الذي أرهقهم، ودعا مشايخهم إلى الرغبة في التوبة والدخول في طاعة الموحدين، فكتب لهم عبد المؤمن ظهيرا حسناً (٤٩)، الأمر الذي يعني بداية النهاية بالنسبة لدولة لمتونة: دولة الملثمين المرابطية. وهنا يقدم ابن عذاري عنواناً معبراً لنهاية ذلك الصراع في السنة التالية، يقول فيه: اختصارالخبر بحركة عبد المؤمن الطويلة الأعوام (الاعوام السبع)، ومقتل تاشفين أمير أهل الشام:٥٣٤-٥٤٠ هـ/ ١١٣٩-١١٤٥م(٥٠).

وهذا مايمكن أن يعني إغفال أخبار الأندلس ، خلال تلك الفترة الحاسمة من تاريخ المغرب والأندلس ، والتي تنتهي بمقتل تاشفين بعد قرابة سنتين من وفاة والده علي بن يوسف ، الأمر الذي كان يعني النهاية الحقيقية للدولة المرابطية - حيث لم يكن سقوط العاصمة مراكش بأكثر من إطلاق رصاصة الرحمة على العاصمة المحتضرة وهي مثخنة بالجراح (٥١).

---

(٤٨) انظر نشر هويثي ميراندا ، بمشاركة محمد بن تاويت ، ومحمد بن ابراهيم الكتاني، وقارن النشرة السابقة لهويثي أيضا لذلك العمل تحت اسم: مجهول في تاريخ الموحدين بعنوان: El-Anonimo de Madridy Copenhague ط. بلنسية ، ١٩١٧- وهو يحمل العنوان العربي الخطأ «تاريخ ابن بسام».

(٤٩) ابن عذاري ، الموحدون (هويثي) ، ص١١ .

(٥٠) البيان المغرب ، ج٣ (الموحدون) ، ص١٢ .

(٥١) ما سبق ، ص ٣٣٧ - وانظر ابن عذاري ، الموحدون (هويثي)، ص١٣- حيث كان من نتائج عجز المرابطين في المغرب : أن «ألح العدو النصراني بالضربات ، على جميع جهات =

والمهم بالنسبة للأندلس ان الأحوال كانت تزداد بها سوءاً مع رجحان كفَّة الموحدين على المرابطين بالمغرب . ففى سنة ٥٣٧هـ / ٣-١١٤٢م التى توفى فيها على بن تاشفين كان على الأندلس رغم حرج الموقف فيها ، أن ترسل العساكر إلى المغرب مع ولى العهد الصغير أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين ، ومن ثم مرة أخرى فى آخر سنة ٥٣٨هـ/يونيه ١١٤٤م حينما كان على نفس ولى العهد أن يقطع دراسته فى قرطبة ويعود بالمدد من جديد إلى والده الذى كان يحارب آخر أشواطه فى تلمسان (٥٢). ولما وصل ابراهيم بن تاشفين من الأندلس ، وأبوه «يميز العساكر من الحشود والجنود والوفود ، فميزوا وبرزوا وعجب الناس من كثرة عددهم واحتفالهم بالزينة ...». ورغم ذلك كانت معاناة الصمود تقترب من نهايتها ، إذ قضى تاشفين فى ٢٧ من رمضان سنة ٥٣٩هـ/ ٢١مارس ١١٤٥ م (ماسبق ،ص٣١٩). وبعدذلك كان فتح فاس ومكناسة على يدى عبد المؤمن، الأمر الذى هيأ للاستيلاء على بلاد المجاز: سلا وسبتة وطنجة ، وبذلك كان التمهيد لسلامة العبور إلى جبل طارق فى سنة ٥٤٠هـ/ ٦-١١٤٥م (ماسبق، ص٣٣٠)، فكأنه فتح اسلامى جديد (أو ثورة) - والرمز لذلك هو إعادة تسمية الجبل العتيد بـ « جبل الفتح» - بدلا من جبل طارق (بن زياد).

ومع تقدم عبد المؤمن نحو المجاز كانت الانقسامات الطائفية بالأندلس تزداد كثرة ، إذ صارت كل بلدة أشبه بدويلة مستقلة ، الأمر الذى يصوره ابن الخطيب تصويراً مذهلاً. فالأمر لم يعد قاصراً على ظهور ماكان معروفا من التقسيمات الاقليمية أو السياسية الكبيرة من شرق أو غرب الأندلس ، أو الجوف أو القبلة ، بل

=الأندلس، حين علموا عجز الإمارة فى المغرب ، واشتغالها بحرب الثائرين . واستولى الروم فى هذا الوقت على كثير من البلاد والحصون ، وكثير من الثغر ، وحدثت الشحناء والمقاطعة بين قبيل لمتونة ومسوفة - بعد توحيد جزولة الذى سبقت الإشارة إليه.

(٥٢) انظر ابن عذارى ، والموحدون (هويشى) ، ص ١٥- حيث النص بعد الإشارة إلى عودته الأولى « ثم استدعاه (تاشفين) منها (الأندلس) ، ووصله إلى تلمسان آخر سنة ٥٣٨هـ/يونيه ١١٤٤م ».



منطقة المجاز (جبل طارق)

طريفة + قصر مصمودة

أصبح هناك ملوك أو أمراء للمدن الثائرة ، من: شنترين وشريش وقادس وبطليوس، وان مدينة مثل لبلة يظهر لها إلى جانب صاحبها «أبو محمد سيد راى بن وزير» أو «يوسف البطروجى» أمير ثالث ،هو «الوهيبى» : الثائر أيضا بلبلة . هذا إلى جانب ذكر أسماء العديد من الثوار الذين لايعرف لهم مقر محدود ، بل يذكر على وجه العموم أن لكل واحد منهم «خبر ودولة على قدره» - ربما بمعنى أمراء تابعين(٥٣) . أما من فوق هؤلاء فى الشهرة من الأمراء عند ابن الخطيب ، فهو : أبو القاسم بن قسيّ.

٢- ابن قسيّ وحركة المريدين فى الأندلس

بشائر حركات الطرق الصوفية :

والذى نراه ان ابن الخطيب محق فى اعتبار أبى القاسم بن قسّى بمثابة النموذج لثوار تلك الفترة - الذين كانوا فى حقيقة الأمر أشبه بتوابع لحركة المهدى محمد بن تومرت ، المصمودي - السوسى ، من نهاية العصر المرابطى وبداية العصر الموحدى : عهد العودة الى الدين والرباط من أجل الجهاد . حيث اختلاط الدين والثقافة بالحرب والسياسة ، تماما كما هو الحال فى كل العصور - حيث تكون المناداة فى أوقات الأزمات بالعودة إلى الإسلام فى نقائه الأول - حيث لايكون صلاح آخر هذا الأمر الا بما صلح به أوله ، مع الاعتراف فى نفس الوقت بالمجددين الذين يظهرون على رأس كل قرن أو مائة عام.

هكذا كان لنجاح حركة الإصلاح الموحدية بالمغرب ، ردود فعلها فى بلاد الأندلس، فى ذلك الوقت المتردى من العصر المرابطى وذلك بقيام حركات ثورية

---

(٥٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٤٨- حيث ابن وزير شيخ غرب الأندلس ، وابن عياض الأمير لشرقى الأندلس ، ولبيد بن عبد الله بشنترين ، وعلى بن موسى بن ميمون صاحب (البحر) بقادس ، ومحمد بن على الحجام صاحب بطليوس.

سياسية دينية شبيهة بحركتى المرابطين والموحدين ، فكأنها أصداء لها أو توابع ، وإن كان من حيث الشكل فقط - ربما بسبب اختلاف الظروف.

ولقد قامت أولى تلك الحركات الثورية فى سنة ٥٣٧هـ/ ٣-١١٤٢م ، فكأنها كانت رد فعل لوفاة أمير المسلمين على بن يوسف تاشفين الذى عرف بكونه عابداً متبتلاً ، وهذه الحركة هى التى عرفت وقتئذ فى الأندلس بثورة المريدين (٥٤). والمريد فى مصطلح ذلك العصر هو تلميذ الصوفى ، بمعني خادم الزاهد المنقطع للعبادة ، فى بعض ملاجئ الصوفية التى عرفت فى أول الأمر بالربط أو الأربطة (بمعنى المعسكرات أو الثغور) قبل أن تعرف باسم الخنقاوات (ومفردها خانقاه بالفارسية) ، وقبل أن تعرف حديثا باسم الزوايا (ومفردها زاوية) أو الخلوات (ومفردها خلوة) ، ومن ثم قبل ان تعرف أخيراً في العصر العثمانى باسم التكايا (ومفردها تكية).

والمعروف أن انتشار حركات المريدين بمعنى فتيان الصوفية أو أحداثهم (جمع حدث) بدأت فى شكل حركات شبابية شبه عسكرية ، فى إطار الحركات الصوفية عندما ضعفت حكومات الخلافة وبالتالى حكومات الطوائف التابعة فى بلاد الإسلام ، وعجزت عن الدفاع عن البلاد أمام ما كان يتهددها من الأخطار الخارجية أو أعمال الحرابة الداخلية ، وخاصة فى الثغور على حدود البلاد المتاخمة للعدو ، كما فى شبه جزيرة أيبيرية ، ومن ثم فى المغرب ، وكما كان الحال أيضا فى ثغور الروم ، ومن ثم فى بلاد الشام أثناء الحروب الصليبية المشرقية - على عهد الموحدين.

هكذا سميت حركة ابن قسّى فى غرب الأندلس - خاصة - بثورة المريدين. «إذ كان الرجل من مشايخ الصوفية المسمّى أتباعهم بغرب الأندلس بالمريدين» (٥٥).

---

(٥٤) إنظر ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ١٩٨- حيث النص على أن أصحاب ابن قسى هم : المريدون ، ومن ثم الاشارة أيضا إلى أن المريدين شعارهم التهليل والتكبير ، ولو أن الكلمة حرفت عند الخصوم عليها نظنّ - إلى المرتدين ، انظر فيما بعد هـ ٧٤ ص ٤٤٩ .

(٥٥) ابن الخطيب أعمال الأعلام ، نشر بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٤٨-٢٤٩ .

وهو من هذا الوجه أول الثائرين فى الأندلس عند اختلال دولة الملثمين (٥٦).

ابن قسى قائداً للمريدين :

وابن قسى قائد المريدين هو ابو القاسم احمد بن الحسين بن قسى ، من مشايخ طائفة الصوفية يومئذ ، على أواخر أيام المرابطين باقليم غرب الأندلس (٥٧) - ربما كرد فعل للأزمة التى ألمت بمنطقة - الغرب (Algarfe) نتيجة للتمدد الذى كانت قد بدأته دولة البرتغال ، جنوبا على طول شواطئ المحيط الأطلسى ، وبمعاونة مستمرة من الفرنج (الفرنسيين) والانجليز (الانقليشيين) ، وخاصة أولئك الذين كانوا يشاركون فى الحملات الصليبية التى كانت تسير نحو جبل طارق فى قوافل بحرية بمحاذاة الشواطئ الغربية للأندلس . وكان هؤلاء يمدون يد العون إلى الاسبان القائمين ضد المسلمين بحرب المطاولة التى سموها «بحرب الاسترداد : الريكونكيستا» (ج ٤ ص٣٦٩).

هكذا ، قامت حركة المريدين فى غرب الأندلس ، فى أعقاب الدولة اللمتونية اعتباراً من سنة ٥٣٩هـ/ ٥-١١٤٤م - سنة وفاة تاشفين بن على بن يوسف (٥٨) - ابتداء من منطقة مرتلة ، بلد ابن قِسّى ، ومنها انتشرت دعوته فى كل من مدينتى يابُرة وشِلْب (٥٩).

---

(٥٦) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١٩٧ .

(٥٧) انظر ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ ص ١٩٧ - حيث النص على أن ابن قسى رومى الأصل ، من بادية شلب ، وأنه بدأ موظفا فى الإدارة المالية (مشرفا بالأعمال المخزنية) قبل أن يتزهد.

(٥٨) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ ص ١٩٧ .

(٥٩) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٤٩ .

مابين الفكر الثورى للمريدين والفكر المرابطى الموحدى :

وعلى عكس حركة المرابطين التى بدأها رباط عبد الله بن ياسين بتعريف المريدين أصول الدين على المذهب المالكى ، مذهب أهل المغرب - دون غيره - وقتئذ (ج ٤ ص ١٧٤ ومابعده) ، فإن الدارسين فى ربط الصوفية فى غرب الأندلس ، فى مرتلة ولبلة ، وخاصة في مدينة شلب ، كانوا يخوضون فى موضوعات دينية وفلسفية تجعل مدارسها فى مستوى الجامعات الراقية في أي عصر من عصور النهضة.

هذا ، ولو أن تحررها فى اختيار مناهجها مابين الكتب الصوفية ، وموضوعات الغلاة من (الشيعة) الباطنية ، الى جانب الكلف برسائل إخوان الصفا (الفلسفية)، وأمثال ذلك (٦٠) ، كان يخرجها من دائرة البقاء فى فلك الفكر المرابطى السنى - الذى كان غاليا فى سنيته الى درجة رفض اجتهادات الغزالى ، وخاصة ماسجله منها فى الإحياء . وكذلك الحال بالنسبة للفكر الموحدى الملتزم بنمهج التوحيد التومرتى ، والذى كان يعرف إجراءات التطهير (أو التفتيش) التى عرفت بالتمييز وبالاعتراف (٦١).

---

(٦٠) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٤٩ وانظر ابن الابار الحلة السيراء ، ج٢ ص ٢٠١ - حيث نرى أنه فى مثل ذلك ينسب إلى أحد كتاب أبن قسى ، وهو ابو عمر احمد بن عبد الله بن حزبون الشلبى أنه كان يقول فيه (ابن قسى) :

اهربْ إلى الله واترأ ... من أحمد بن قسيٍّ
أم اتخـــذه إمامـاً ... واكفر بكـــل نبيٍّ

(٦١) انـظر مـاسبق ، ص ٢١٣و ص ٢٤٢، وانظر ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج٢ ص ١٩٧-١٩٨-حيث النص على أن ابن قسى أصله من بادية شلب، مع الإشارة إلى أن الرجل أخذ علم التصوف فى الظاهر من أجل الثورة التى كان يضمرها فى الباطن. فهو يزعم التزهد، ويتظاهر بتعلم العلم فى الظاهر، وفى ذلك يقبل على قراءة كتب الغزالى التى كان قد أحرقها المرابطون بأمر على بن يوسف بن تاشفين (ج٤ص٤١٥ ومابعدها). وهو فى النهاية متهم بادعاء الهداية ؛ إذ يفعل ذلك مخرقة وتمويها على العامة وانظر ايضا ص ٢٠٠- حيث يقول ابن قسى شعراً:

وماتدفع الأبطال بالوعظ عن حمى ... ولا الحرب تطفى بالرُّقى والتمائم
ولكن ببيـــض مـرهـفـــات وذبل ... مواردها مـاء الكلى والغلاصم.

والذى نفهمه من كل ذلك أن مدرسة ابن قِسّى (من مشايخ الصوفية)، والذى كان ملتزما بالفكر التقليدى، حسبما يفهم من مؤلفه «خلع النعلين» (٦٢) كان فى الحقيقة لايفرق بين سنة وشيعة، بل يربط بين جميع المذاهب الإسلامية، تماما، كما هو الحال فى توحيد ابن تومرت (ماسبق ، ص٢١٧). وإذا صحّ ذلك فتكون مدارس الصوفية فى غرب الأندلس وقتئذ، مدارس متفرقة تبعا للموقف السياسى والثقافى لكل من المدن الداخلة فى حركة المريدين، بمعنى أن مدرسة مرتلة، مقر ابن قسى والتى يظهر فيها الاتجاه السنى، كانت تختلف عن مدرسة لبلة وعن مدرسة شلب من حيث ان هذه الأخيرة كانت أكبر مراكز المريدين، حسبما يفهم من رواية ابن الخطيب (٦٣). ورغم أن الظروف السياسية، وقتئذ، كانت مناسبة لنمو حركة المريدين وانتشارها، إلا أن ذلك لم يكن موقف الدولة وأصحاب السلطان. فذلك ما يفهم من تسمية المريدين باسم المرتدين، وهى التسمية المعارضة، والتى ربما ظهرت فيما بعد (٦٤).

هذا، وعندما كثر جمع المريدين، ومن ثم انتشر خبرهم، وبدأت السلطات المرابطية بتقصى أخبارهم فإنهم أخذوا حذرهم، من صاحب الدولة وتفرقوا(٦٥). وإذا كان ابن الخطيب لايذكر اسم صاحب الدولة هنا، فالمفروض أنه يقصد يحيى بن

---

(٦٢) أصل العنوان كاملا هو : «خلع النعلين فى الوصول إلى حضرة الجمعين ، حسبما يعرضه حاجي خليفة فى كشف الظنون ، المجلد الثانى ص ٧٢٢ ، حيث للشيخ أبى القاسم وهو ابو القاسم .. ابن قسىّ شيخ الصوفية احمد بن قسى الأندلسى المتوفى سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠-١م وهو مختصر أوله:

الحمدلله أوجد بالحرفين دائرة الوجود الخ . وشرحه الشيخ محى الدين محمد بن على بن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠ - ١م ذكر فيه أن المصنف كان من أهل الأدب والفضل ، متضلع فى اللغة فلا يقصد إلى كلمة إلا لحكمة يراها. وشرحه أيضا الشيخ عبدى شارح الفصوص - متاولة د. نبيلة حسن.

(٦٣) أعمال الأعلام ، ص ٢٤٩ .

(٦٤) انظر ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، المقدمة، ص ١٣، ٢٩-حيث التعريف بالمؤلف وكتابه عن المريدين، وكيف شاع تحريفها الي كلمة المرتدين وغيرها من الكلمات القريبة الشبه.

(٦٥) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٤٩، وقارن ابن الأبار، الحلة السيراء ،ج٢، =

علي بن غانية، صاحب كل من غرب الأندلس وشرقه. أما عن تفرق المريدين عندما شاع أمرهم، فإن الكثرة من فلّهم قد إستقرت فى شرق الأندلس، فى ميناء المرية، مقر الأسطول الجهادي (الغزوى) حيث كان رئيسهم هناك هو الشيخ أو العباس ابن العريف. وعندما وصلت أخبار المريدين فى المرية الى أمير المسلمين: على بن يوسف، وجه يطلب رئيسهم ابن العريف وكذلك نظيره فى خطة الصوفية، وهو أبو الحكم ابن برّجان وغيرهما من الشيوخ. فحملوا اليه بمراكش، حيث استمالهم وأحسن اليهم، وإن أتت وفاة الشيخين بعد ذلك خلال سنة ٥٣٧هـ/ ٣-١١٤٢م (٦٦)، دون تحديد موعد وصولهما الى مراكش.

تفوق طريقة ابن قسى :

وبعد وفاة الشيخين: ابن العريف وابن برجّان ، بدأ ظهور أبى القاسم ابن قسى. والرجل الذى يرجع موطنه أصلا إلى مدينة مرتلة ، كان من شباب المثقفين، حيث كان يعمل مشرفا ماليا فى دائرة الجباية بمدينة شلب (Silvês) من أعمال أشبيلية، وكان قد التحق أثناء عمله هناك بجماعات الصوفية هؤلاء، كأحد المبتدئين فى الطريق من التلاميذ المريدين . ومع مرور الوقت سار فى سلم الترقى فى «الطريقة» حتى وصل الى مرتبة الولاية أو المشيخة . وهنا كان عليه أن يتصدق بجميع ماله ، فيضم مقام الفقر إلي رتبة الولاية *، وتطوّف على الأندلس سائحاً ، دون مقر.

= ص١٩٧- حيث النصّ على أن ابن قسى طلب فاستخفى وأنه قبض على عدد من أصحابه ، وسير بهم إلى اشبيلية.

(٦٦) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٤٩، وقارن ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ص١٩٧ -حيث النص على لقاء أبى العباس بن العريف الذى ادّعى الهداية (فى شلب ، أو فى طنجة أو المرية).

* عن المقامات والأحوال أشير الي بحث الأخ الصديق د . فتح الله خليف الذي لم ينشر بعد، والذي رجع فيه الي الرسالة القشيرية، واللمع للسراج، وقوت القلوب للمكي، وعوارف المعارف للسهروردي (حيث الاجتهاد في المقام من أجل الترقي في الحال - كما أري).

وأخيراً استقر به المقام بقرية جلة من قرى اشبيلية حيث ابتني رابطة (للعباد)، وأعلن عندئذ ولايته بشكل رسمي، فتسمى بـ «المهدى»(٦٧)، فكأنه يجدد حركة ابن تومرت، فى الأندلس هذه المرة. وهنا تتفق رواية عبد الواحد المراكشي مع رواية ابن الخطيب فيما يتعلق بمخاريف ابن قسّى - حيث القول بأنه: «حج من ليلته» فكأنه يعيد سيرة الاسراء النبوية ، وانه كان أيضا «ينفق من (أموال) الكون» ، فكأنه يعيد سيرة الحلاج الذى كان ينفق من «نقود القدرة» . هذا ، الى جانب القول بأنه «كان صاحب حيل، ورب شعبذة»، وأنه فى نهاية الأمر «ادّعى الهداية بمعنى اتخاذ لقب الهادي»، وليس المهدي مثل محمد بن تومرت، وهو ما نرجحه، كما سيكون الحال بالنسبة للهادى: الماستى ببلاد السوس بالمغرب (ماسبق، ص٣٤٨).

والمهم أن أهل غرب الأندلس الذين كانوا يعانون من ضغوط ملك البرتغال عليهم، لم يلبثوا أن التفوا حول «هادى» الأندلس الجديد . وفى ذلك يقول ابن الخطيب أنه «اتصل به أقوام من أهل البيوتات ، ومنهم : ابن وزير (٦٨) الذى عرف بشيخ الغرب ، وابن عنان : فارس جهة يابرة ، ومحمد ابن المنذر ، من أهل شلب (٦٩) ، ومحمد بن عمر وغيرهم من أعيان الصقع الغربي . وكان هذا التحالف الكبير بين ابن قسى وكل من : ابن وزير وابن المنذر ، سببا فى ضعف

---

(٦٧) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص٢٤٩، وقارن ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ص١٩٧-حيث النص على أنه ادّعى الهداية «مخرقة وتمويها على العامة ، وتسمّى بالإمام».

(٦٨) ابن وزير هو : أبو محمد سيدراى الثائر قبل ابن قسى - انظر ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ص٢٠٣ .

(٦٩) الحلة السيراء ، ص٢٠٢-٢٠٣- حيث الاسم: أبو الوليد محمد بن عمر بن المنذر. ويعتبر هو الآخر الرجل الثانى من أصحاب ابن قسى . فهو أحد أعيان مدينة شلب، من بيت قديم من المولدين، لازم التعليم فى صغره باشبيلية ، وشغل خطة الشورى (كأحد مستشارى الأمير بشلب) ، ثم تزهّد وانزوى ، ورابط على ساحل البحر فى رباط الريحانة ، وتصدّق بماله كما فعل ابن قسى. وانضمّ ابن المنذر فى بداية الأمر إلى صحابة ابن قسى من المريدين ، وامتحن من أجله ، وخلص من ذلك ثم اتبعه عند ثورته، وقام بدعوته فى بلده شلب.

موقف المرابطين في غرب الأندلس ، إذا انقطعت عنهم الامدادات والتموين . كما تحامل عليهم الناس ، بل ان ذلك جرأ الناس عليهم ، «فكثر التعدّي في الطرق والدوابر في السبل» (٧٠).

بداية العمل الايجابي : مرتلة قاعدة لابن قسي :

وهكذا شعر ابن قسي ، هادي غرب الأندلس : المنتظر ، بقوته ، وبدأ سياسة الاستيلاء على مناطق جديدة من الأندلس ، توسع نطاق نفوذه ، وتؤكد مع مرور الوقت سلطانه . ففي الشهور الأخيرة (شوال) من سنة ٥٣٨هـ/ ابريل ١١٤٤م كان ابو القاسم بن قسي يوعز إلى واحد من معاونيه ان ينتهز الفرصة من أجل الاستيلاء على حصن منتقوط . ونجح الرجل فعلا في نفس شهر شوال/ ابريل ، في الاستيلاء على ذلك الحصن أو كاد ، لولا تنبه المرابطين لما كان يدبر لهم في الخفاء، ومواجهتم للمتآمرين قبل أن يستكملوا خطتهم . وهكذا ، نجحوا في إنزال الثائر قبل أن يوطد أقدامه في الحصن ، بل وقتلوه . وكان على ابن قسي أن يغادر المنطقة إلى حصون الغرب حيث ميرتلة من كورة شذونه(٧١).

والمهم أن ابن قسي استقر في تلك المنطقة عند جماعة بني السنة - الأمر الذى يعني أن منطقة شذونة ربما كانت تحوي الى جانب السنة جماعات أخري من الشيعة مثلا . وهناك أخذ يعد العدة للاستيلاء على مدينة مرتلة نفسها. واستعان في ذلك بواحد من كبار أصحابه ، وهو : محمد بن يحيى الشلطيشي ، المشهور «بابن القابلة» ، والذي يوصف بأنه: «كان فريد دهره» ، فجعله (ابن قسي) ، «سيف ثورته ، وعضد دولته» ، حتي سماه «بالمصطفى» ، وعينه لغدر «مرتلة».

وهنا نرى أهمية الإشارة إلى أن الهادي ابن قسي ، ومريديه كانوا يعملون في الخفاء ، وكأنهم ممثلو حركة باطنية سرية فعلا . فابن القابلة : محمد الشلطيشي ، وزير ابن قسي لم يخرج لغدر ميرتلة ، يوم الخميس ١٢ من صفر سنة ٥٣٩هـ/ ١٥

(٧٠) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٤٩ .

(٧١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٥٠ .

أغسطس ١١٤٤م ، سنة مقتل تاشفين بن على، إلا فى حوالي ٧٠ (سبعين) رجلا من المريدين فقط ، نجحوا فى امتلاك الحصن خدعة (٧٢)، كما نجحوا في تدبير الدفاع عنه ضد المرابطين الذين «لم يغنوا شيئا »، واكتفوا بتخريب قطر ميرتلة ، مثلهم مثل العدو الخارجى . ومن المقبول أن يكون نجاح المريدين فى أخذ ميرتلة من المرابطين ، دافعا لخروج مدينة يابرة عليهم أيضا ، إذ قام أهلها بالثورة - بزعامة فارسهم ابن عنان ، كما نرى - والتفوا حول زعيمهم ابن وزير (٧٣).

نظام دولة ميرتلة :

والواضح ان استيلاء ابن قسّى على ميرتْلة ، وحلوله بقصبتها المنيعة فى ١ ربيع الأول سنة ٥٣٩ هـ/ ١ سبتمبر ١١٤٤م ، يُعتبر البداية الحقيقة أو الرسمية لحركة المريدين ، حيث كان الإعلان عن كونه «الإمام الهادى». فمنذ ذلك الوقت بدأ ابن قسّى فى نشر عقيدته ، «وتسمى إماما ، ودعا إلى الثورة على المرابطين واتصل بالأشرار ...» (٧٤).

ومن المهم الإشارة هنا مرة أخرى الى أن المال كان متوفراً لدى ابن قسّى منذ البداية ، وإن كنا لاندرى شيئا عن الطريقة التى كان يأتى بها ذلك المال . أما ما يقال من أنه كان إذا أعطى «يحث بيده قطع النقود من غير عدد » فذلك كناية عن

(٧٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٠ ، وقارن ابن الأبار ، الحلة السيراء ج٢ ، ص ١٩٨-١٩٩- حيث تحديد سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م (فبراير) بسنة مقتل تاشفين.

(٧٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٠ ، وقارن الحلة السيراء ، ص ١٩٨-١٩٩-ج٢ حيث تغلب المريدون على مِرتلة ليلة الخميس ١٢ من صفر ٥٣٩هـ/ ١٥أغسطس ١١٤٤م بعد أن قتلوا بواب القلعة - ، وأعلنوا بدعوة ابن قسى.

(٧٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٠ ، وقارن ابن الأبار ، الحلة السيراء ج٢، ص ١٩٨-١٩٩- حيث النص: وأقاموا على ذلك إلى أن وصلهم (ابنُ قسى) فى غرة ربيع الأول فى جمع وافر من المريدين شعارهم التهليل والتكبير ، فصمد إلى قصبتها ، واحتلّ قصرها ، وشرع فى مخاطبة أعيان البلاد... فاستجاب له كثير منهم، وأولهم أهل يابرة ثم أهل شلب ، واتسع على المرابطين خرق لم يرقّعوها ، وهجم عليهم حادث طالما توقعوه.

عطاء كبار أصحابه ، وليس صغار الأتباع من المريدين.

أما عن القول بأن أصحابه كانوا يقولون للناس «ان المال يتكونّ عنده إذا فرغ»، فذلك كان نوعا من الدعاية التى تجلب الاتباع من صغار المريدين وأجنادهم (٧٥).

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن دولة ميرتلة التى أقامها ابن قسّى كانت كياناً سياسيا دينيا على أكثر من مستوى. فإلى جانب الامام الهادى رئيسها كان معاونه فى الحكم أو وزيره ، وهو ابن القابلة ، يتمتع بلقب«المصطفى» ، وهو الأمر الذى يدعو إلى الظن أن ابن قسّي كان يعتبر الهداية أو الإمامة التى يتمتع بها «معصومة» فوق مستوى الأصحاب والمريدين ، فكأن «المصطفى» وزيره بمثابة همزة الوصل بينه وبين الأتباع والرعية ، فهو من هذا الوجه أشبه بولى العهد أو بالحاجب في نظام خلافة قرطبة.

وعلى هذا الأساس دخل تحت طاعة ابن قسى كل من (سيدراى) بن وزير فى مدينة يابرة ، وابن المنذر فى أهل شلب ، إلى جانب دخول الكثيرين من «طلاب الفتنة من الأشرار».

وفى هذه الظروف سقط بين يدى كل من الحليفين : ابن المنذر وابن وزير حصن مرجيق من أعمال شلب ، وقتلت فيه حامية المرابطين . وتبع ذلك دخول باجة - التى

---

(٧٥) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٠ ، وانظر ص ٢٥١ أيضا ، حيث النص على أنه من النوادر الخاصة بالمال الذى كان يعطيه ابن قسى ، أن رجلا من الصلحاء قال لأصحابه ، وقد أعطاه (ابن قسى): «أعجبا لهذا المال» الذى يصل إلى الإمام من السماء كيف عليه طابع المرابطين . وتعليقا على ذلك تقول الرواية إنه: «نقل له هذا الحديث فكان آخر العهد بالرجل (الذى قال تلك المقالة). وفى جود ابن قسى ، يقول كاتبه ابن حزبون:

لم أر جوداً لمستماح	علمنى صنيعة امتداح
قد خلق الله راحتيه	من طينة البأس والنجاح
ألقى على الجود نور بشر	فجاء كالغيث فى الصباح
راش إمام الهدى جناحى	وليس في الحق من جناح .

خرجت حاميتها إلى اشبيلية . وكان إلى جانب مقاتلي ابن المنذر حلفاؤهم من عسكر ابن وزير ، وعلى رأسهم أخوه : أحمد ، وخاله : عبد الله بن على بن الصميل (٧٦)

مرتلة دولة اتحاد ثلاثية :

وهكذا ، وبعد شهر من دخول ابن قسي الى مدينة وقصبة مرْتُلَة (فى أول ربيع الأول/الجمعة١سبتمبر) كان قدوم ابن المنذر ومعه حليفه ابن وزير إلى ميرتلة (فى أول ربيع الثاني ٥٣٩هـ/ ١أكتوبر ١١٤٤م) لكى يبايعاه بالإمامة ، ويعلنا إذعانهما له بالطاعة . وعقب ذلك بدأ توزيع الولايات الخاضعة لهم ، فأقر ابن وزير أميرا على باجة وما والاها من الأعمال، مثل اكشنبه، الى جانب يابرة ، وحصن مرجيق من أعمال شلب . أما ابن المنذر فكان له الإمارة على شلب وما والاها(٧٧).

والظاهر أن ذلك التقسيم كان مرضيا بالنسبة لابن وزير الذى انصرف على عجل، بينما تمهل ابن المنذر لعدة أيام وتلوّم فى محاولة لإعادة النظر فيما حدث ، فلم تكن مجدية (٧٨).

والمهم أن ابن المنذر لحق ببلده حتى إذا اجتمع عسكر أكشَنبه إلى من عنده من الشلبيين وأصحابه المريدين ، عاد إلى ابن قسى ، ودخل عليه معلنا طاعته ، مستعداً لنشر دعوته ، الأمر الذى سر به ابن قسي ، فجدد هو الآخر لابن المنذر عهده على ماكان بيده ، كما منحه لقبا تشريفيا دينيا هو: «العزيز بالله» (٧٩).

---

(٧٦) ابن الابار ، الحلة السيراء ج٢ ، ص ٢٠٣ .

(٧٧) ابن الابار ، الحلة السيراء ج٢ ، ص ٢٠٣ .

(٧٨) الحلة السيراء ج٢ ، ص ٢٠٣- حيث النص : وتلوّم ابن المنذر أياما وقد أبدى منافسة لابن وزير وحسادته.

(٧٩) ابن الأبار ، الحلة السيراء ج٢ ، ص ٢٠٤- حيث «وسماه العزيز بالله».

وكان على ابن المنذر بعد ذلك أن يعبر وادي آنة (جواديانة) ، ويسري الى ولبة ويدخلها ، وان يملك بعد ذلك لبلة ، وذلك بمعاونة يوسف بن أحمد البطروجي - أحد مردة الثوار من المريدين - وهو ما أطمعه في اشبيلية نفسها ، فرنا إليها ، وهو يتخذ طريق كل من حصن القصر وحصن طلياطة (٨٠) من أعمال مرتفعات اشبيلية الغربية ، والتي تعرف بالشرف . ولكنه عندما التقى بعساكر المرابطين بقيادة يحيى بن على بن غانية - صاحب الاندلس - انكشف أصحابه. وبذلك تمت الهزيمة على ابن المنذر ومريديه ، وطاردتهم القوات المرابطية عبر النهر إلى لبلة ، ومن ثمَّ حتي مركز قيادتهم في شلب ، التي عهد إلى يوسف البطروجي بالدفاع عنها . وهنا كان على يحيى بن غانية أن ينازل شلب في جيوشه ويضرب عليها الحصار مدة ٣ (ثلاثة) أشهر «في كَلَب الشتاء وحدته» ، إلى أن بلغه قيام ابن حمدين بقرطبة ، في رمضان ٥٣٩هـ/ فبراير١١٤٥م فانصرف عن شلب إلى اشبيلية ، وقد ساءت أخلاقه بالحنق والغضب «فتغير على الناس واشتد حذره منهم (٨١).

---

(٨٠) وهي الكلمة التي كثيراً ما يخطئ فيها الكتاب فيكتبونها في شكل طليطلة ، وهو الخطأ الواضح.

(٨١) ابن الابار ، الحلة السيراء ج٢، ص ٢٠٦- حيث النص أيضاً: «فجرت له معهم ولهم معه قصص طويلة وانظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٢-٢٥٣ حيث التعريف بابن حمدين الذي ولي القضاء بقرطبة لأول مرة سنة ٥٢٩هـ/ ٥-١١٣٤م ، وعزله على بن يوسف، ثم أنه بعد ثورة العامة سنة ٥٣٥هـ/ ١-١١٤٠م على قاضيهم أحمد بن رشد الذي فر من المدينة ، وبعد بقاء ولاية القضاء شاغرة مدة عام ، سمح لهم الأمير باختيار قاض فاختاورا أحمد بن حمدين الذي بقى في منصب القاضي من ٥٣٦هـ/ ١١٤١ م إلى ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م حيث أعلن الثورة على المرابطين في شهر رمضان / فبراير ١١٤٥م وهو نفس الشهر الذي قتل فيه تاشفين بن على في وهران - وهو التوقيت الذي يثير الانتباه تماماً كما هو الحال بالنسبة لوفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م أو فتح مراكش سنة ٥٤١هـ.

العلاقة مع ابن حمدين :

ولما سمع ابن قسّى بقيام قاضى قرطبة ابن حمدين ، فإنه أمر ابن المنذر ان يحشد عساكره ، ويسير هو ومحمد بن يحيى : ابن القابلة - كاتب ابن قسي ومستشاره - إلى قرطبة طمعا فى دخولها ، وترغيب أهلها فى الدخول تحت طاعته ، والقيام بدعوته ، الأمر الذى كان يسّهله وجود متعاطفين معه في الربض الشرقي ، مثل أبي الحسن بن مؤمن وغيره . ولكنه عندما تحرك ابن المنذر بعسكر شلب ولبلة ، وجدوا أحمد بن عبد الملك بن هود: سيف الدولة وتابع ملك قشتالة قد سبقهم إلى قرطبة ، بناء على دعوة أهل ثغورها المجاورة لها ، بل وملكوه فعلا عليهم ، وطردوا ابن حمدين الذى انحاز إلى حصن فرنجلوش ، وإن كانت العامة قد قامت على ابن هود ، الذي لاذ بالفرار بعد قتل وزيره ابن شمّاخ . وبذلك كانت عودة ابن حمدين من جديد إلى قرطبة ، بعد تغريبة لم تزد على أكثر من ١٢ (اثنى عشر) يوما ، وانصراف أصحاب ابن قِسّى خائبين (٨٢).

والى جانب خيبة ابن قِسّى فى ابن المنذر ، كانت خيبته أيضا فى صاحبه ابن وزير الذي لم يلب نداءه له ، وارتاب فى مقصده حتى طلب ابن قِسّى من ابن المنذر محاربته . والمهم أن الصراع انتهى بين صاحبى ابن قسّى بانتيصار ابن وزير والقبض على ابن المنذر واعتقاله في مدينة باجة حيث انتهي هناك بسمل عينيه ، وبقائه معتقلا فيها حتى فتح الموحدون باجة وبلاد الغرب ، فأعادوه إلى شلب (٨٣).

---

(٨٢) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٢٠٦-٢٠٧ وقارن ابن الخطيب أعمال الأعلام ، ص ٢٥٣ - حيث النص على خلع دعوة المرابطين ومبايعة ابن حمدين الذى سكن قصرالخلافة ، وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين ، مع اعتراف القضاة من الثوار به لمدة ١١ (أحد عشر) شهراً ، انتهت بأن حرضوا عليه ابن غانية الذى تحرك فى جمادى الثانى ٥٤٠هـ/ نوفمبر ١١٤٥م ، والتقى بابن حمدين قرب استجة ، ودخول ابن غانية قرطبة فى شعبان ٥٤٠هـ/ يناير ١١٤٦ م.

(٨٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ ص ٢٠٦-٢٠٧ .

انحلال دولة ابن قسيّ :

وكان من الطبيعى الا يستمر ذلك التحالف الهش بين الدعى : الإمام الهادى ، وبين رجاله من أعيان الثوار وغيرهم من الأشرار ، الذين كانوا لايهتمون إلا بمصالحهم الأنانية . وهكذا دبّ الفساد بين ابن قسّى وبين كبار أصحابه ، فنازعه ابن وزير (شيخ غرب الأندلس) بشلب ، وكذلك أخوه (أخو بن وزير) بباجة .

وانتهى الأمر بأن تجرأوا عليه فخلعوه، وإن عادوا إلى الدخول فى طاعته ، وأخيرا صرفوا الدعوة إلى قاضى قرطبة ابن حمدين ، عندما نازع المرابطين ، وأعلن استقلاله (بعاصمة الخلافة قرطبة) ، بل وتسمى «بالقاضى الخليفة» (٨٤).

وهنا لم ير ابن قسّى أفضل من أن يكون له «كخليفة قرطبة القاضى» صلة مباشرة بعبد المؤمن بن على ، خليفة ابن تومرت فى المغرب ، فكأنه كان يحرّض عبد المؤمن ضد منافسه : دعى خلافة الأمويين بالأندلس . ولكنه لم يقدر لمكيدة ابن قسى النجاح ، وذلك لأنه هو نفسه ، كان يخاطب عبد المؤمن فى كتابه بصفته الإمام الهادى ، فكأنه هوالاخر كان مطالبا بالخلافة . وفى ذلك يقول ابن الخطيب ان ابن قسّى لم يجد عند عبد المؤمن قبولاً لتعاليه عليه فى الخطاب ، لجعل الهداية لنفسه ، وهى بضاعتهم (أى بضاعة الموحدين) (٨٥).

والظاهر أن ابن قسّى كان مضطراً للتنازل عن ادعائه الهداية والخلافة ، كمنافس لعبد المؤمن ، وخاصة بعد أن قامت حركة الماسى (أو الماستى) بسوس المغرب الأقصى ، كرد فعل لحركة المريدين بغرب الأندلس ، والتى نادت برئيسها إماما هاديا (ماسبق ، ص٣٤٨) . فاعتذر ابن قسى لعبد المؤمن ثم تحرك إلى المغرب

---

(٨٤) ابن الخطيب ؛ أعمال الأعلام ، ص٢٥١ .

(٨٥) ابن الخطيب ، اعمال الأعلام ، ص ٢٥١ ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٣٣-حيث النص على أن رسول ابن قسى أدى كتابه إلى عبد المؤمن ، وذكر مابكلمته من النعت بالمهدى .... ولم يجاوب ».

حيث التقى به ، فى ربيع الثانى سنة ٥٤٠هـ/ سبتمبر ١١٤٥م ، فكأنه كان يعترف بـ «خلافة» عبد المؤمن ، وبالتالى كان يدعوه إلى بسط سلطانه على الأندلس - كمحاولة إنقاذ أخيرة لتلك البلاد - مع تقديم معاونة مريديه من الصوفية الذين قبلوا الدخول في توحيد المصامدة السوسيين.

وفعلا أكرم عبد المؤمن ضيفه الرئيس الشيخ الصوفى ، وقبل عذره فيما ادعاه من الهداية ، مقابل الاعتراف بمهدية الموحدين وخلافه عبد المؤمن التى هى فى الحقيقة خلافة لابن تومرت (٨٦) . وفى ذلك قال ابن قِسّى مقالته الطريفة: « أليس الفجر فجران . كاذب وصادق» ، وأنه كان يمثل الفجر الكاذب (٨٧). وهنا يعتبر ابن خلدون ان زيارة ابن قِسّى لعبد المؤمن هذه ، كانت بمثابة نقطة تحول حاسمة فى تاريخ دولة عبد المؤمن وبنيه ، إذ يقول عن ابن قِسّى إنه «أول مقيم دعوة الموحدين بالأندلس» . أما عن رحلته المغربية فيقول: إن «ابن قِسّى أجاز البحر إلى عبد المؤمن من بعد فتح مراكش بمداخلة على بن عيسى بن ميمون ، ونزل بسبتة ، ... ولحق بعبد المؤمن ، ورغّبه فى ملك الأندلس »(٨٨).

وهكذا اعتبر خضوع ابن قسى للموحدين فى رحلته إلى مراكش ، ومن ثم عودته بعساكرهم إلى الأندلس: البداية الحقيقية لدخول الأندلس فى حظيرة الموحدين.

---

(٨٦) ابن الخطيب ، وأعمال الأعلام ، ص ٢٥١ .

(٨٧) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢١٢ ، وقارن ماسبق ، ص ٤٥٠)

(٨٨) العبر ، ج٦ ص ٢٣٣- ٢٣٤ ، وانظر ابن الخطيب ، وأعمال الأعلام ، ص ٢٥١، وقارن عبد الواحد المراكشى ، المعجب وص ٢١٢-حيث النص ، ربما فى مناسبة تالية ، على أن أصحاب ابن قسى هم الذين أسلموه إلى عبد المؤمن الذى قال له: بلغنى أنك ادعيت الهداية ، فقال (ابن قسى): «إليس الفجر فجران كاذب وصادق ، فضحك عبد المؤمن ، وعفا عنه» ، وقارن ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ . ج١٢ص٤٠٨ حيث سنة ٥٤١هـ/ ٧-١١٤٦م ، وفيها فتح عبد المؤمن جزيرة الأندلس.

٣- دخول الموحدين إلى الأندلس

التمهيدات الأولى: في الغرب:

إذا كان من الممكن أن يقال إن الدولة الموحدية المنتصرة ورثت الأندلس ضمن حدود الدولة المرابطة المهزومة في المغرب ، فالحقيقة أن أيلولة الأندلس إلى الموحدين ليست واضحة المعالم ، وذلك بسبب الأوضاع الشديدة التعقيد في تلك البلاد . فهناك لم تكن المسألة صراعا بين الموحدين والمرابطين عبر العدوة المغربية ، إذ شارك في الصراع المرابطي الموحدي إلى جانب دويلات النصارى الاسبانية (أصحاب الريكونكيستا) جماعات الصوفية من المريدين ، الى جانب الداخلين الجدد في الصراع ، من: أصحاب النزعة الوطنية الأندلسية ، ممن يمكن تشبيه حركتهم أو تسميتها «بحرب الاسترداد الأندلسية» ، كما كان الحال في حركة ابن حفصون القديمة قبيل قيام الخلافة الأموية ، ومن ثم وريثتها الحالية : حركة كل من ابن همشك وابن مردنيش القومية النزعة.

وفي دخول الأندلس في طاعة الموحدين وصلتنا روايتان قد تبدوان مختلفتين ، وإن أمكن التوفيق بينهما من حيث الموضوع . والرواية الأولى منهما ترجع إلى ابن الاثير ، وتقع ضمن حوليات سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م ، وتأتي تحت عنوان: «ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الأندلس» . وفي الموضوع تقول الرواية إن السبب في ذلك أنه أثناء محاصرة عبد المؤمن لمراكش ، جاءه جماعة من أعيان الأندلس معهم مكتوب يتضمن بيعة أهل الأندلس لعبد المؤمن ، وأنه «استقبلهم وقبل منهم وشكرهم». وعندما طلب الأندلسيون منه النصرة على الفرنج (الإسبان) جهّز لهم جيشاً برياً كثيفاً ، كما عمّر لهم أسطولاً سيّره في البحر إلى جانب الجيش . هذا وتنصّ الرّواية بشكل مباشر إلى صعود الموحدين إلى إشبيلية حيث جيش المرابطين ، «فملكوها - لعلها (عنوة) - واستولت العساكر على البلاد »*، فكأنها عملية

---

* [ابن الأثير ، ج ١١ ص ١٠٨ - ضمن حولية أخذ الفرنج (الصقليين) طرابلس الغرب].

انقاذ موحدية أشبه بتلك التى قام بها يوسف بن تاشفين منذ حوالى ٦٠ (ستين) عاما.

والرواية الثانية يقدمها ابن خلدون وتحوى تفصيلات طريفة عن أول حملة أرسلها عبد المؤمن ، بناء على النصيحة التى قدمها له ابن قسّى (شيخ المريدين) بعد أن تمّ له فتح مراكش ، إذ رغبه وقتئذ فى تملك الاندلس بعد أن دانت له عاصمة المرابطين. وهكذا شرع خليفة الموحدين فى إرسال العساكر بقيادة الحليف المسن الموحّد: برّاز بن محمد ، فعقد على حروب من بالأندلس من لمتونة (الملثمين) والثوار (الأشرار).

واتبع عبد المؤمن جيش برّاز بمدد من عسكر ثان بقيادة موسى بن سعيد ، ومدد ثالث بقيادة عمر بن صالح (٨٩). وتأتى رواية ابن الأبار فى الحلة السيراء ، لتكمل مانقص فى الرواية الخلدونية ، بالنص على أن القوات الموحدية المصاحبة لابن قِسّى قد بدأت بفتح منطقة المجاز، وذلك بالاستيلاء على كل من طريفة والجزيرة الخضراء، ومن ثم بلاد الثلاثى: ابن قِسّى وابن وزير وابن المنذر حيث لبْلة ومرتلة وشلب وباجة وبطليوس ، وذلك قبل التوقف عند دخول فصل الشتاء ، انتظارا لتحسّن الأحوال الجوية مع الربيع ، الأمر الذى استغرق مدة ٣ (ثلاثة) أشهر . وهكذا كان فتح اشبيلية في شهر شعبان من سنة ٥٤١هـ/ ٦ يناير ١١٤٧م على المرابطين ، من كل من البر والبحر بالأساطيل.

وفرّ الملثمون عصر ذلك اليوم إلى قرمونة . وفى ذلك اللقاء قتل عبد الله بن أبى بكر بن العربى ، عن غير قصد . وارسلت الكتب إلى عبد المؤمن تعلن الفتح بمراكش ، كما جاءته وفود المهنئين من الاندلس ، وانصرفوا بالجوائز والإقطاعات فى السنة الثالثة (٥٤٢هـ/ ٨-١١٤٧م) ، وأتى معهم القاضى ابن العربى ، الذى قدرت له الوفاة وهو فى طريق العودة، ودفن بمقبرة مدينة فاس (٩٠).

(٨٩) ابن خلدون ، ج ١ ص ٢٣٤ .

(٩٠) ابن خلدون ، ج٦ ص ٢٣٤ ، ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ص ٢٧١- حيث الإشارة إلى تخلّى محمد بن سيّد رأي بن وزير فيما بعد سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م ، عن شلب فملكت مع قلعة مرتلة (ميرتلة).

ومن الواضح أن ابن قسّي بدأ يأخذه الإشفاق من الأصدقاء الجدد من المصامدة ، وأنه أخذ يتطلع إلى الاستعانة بنصارى الأندلس ، كما كانت عادة ملوك الطوائف وثوارهم، «فداخل الطاغية ابن الريق صاحب قلنبرية (Coimbre - وهو الفونسوهنريك : ملك البرتغال) فى إعانته وإمداده (٩١) ، الأمر الذى أنكره أهل شلب ، فثاروا بابن قسى ، «وفتكوا به فى قصر الشراجب منها (شلب)... ونصبوا مكانه ابن المنذر الأعمى (حليفة العتيد) ، معلنين بدعوة الموحدين ، وذلك فى جمادي الأولى من سنة ٥٤٦هـ/ ١٦أغسطس ١١٥١م»(٩٢).

والأمر المستغرب أن هؤلاء الثوار الصغار الذين يوصفون أيضا بالأشرار ، كانوا، مثل أسلافهم من كبار ملوك الطوائف : رجال حرب وأدب وشعر ، وإن معاونيهم وأتباعهم من الوزراء أو الكتاب كانوا مثلهم : أدباء وشعراء.

ولابأس هنا من الإشارة إلى ما خلد ذكر ابن المنذر (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) مما قاله من الشعر فى نكبته ، كتلك الأبيات التى قالها يخاطب ابنته ، وقد توفيت بعد خلعه وسمل عينيه ، ومنه:

أواحدتي قد كنت أرجوك خلفة لعينىّ اختيك اللتين سبا الدهر

رضيت بحكم الله فيما أصابنى إذا لم يكن يسر فيا حبذا العسر

---

(٩١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ص٢٠٠- حيث : فأظهر إجابته إلى مراده ، وبعث إليه بفرس وسلاح.

(٩٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ص٢٠٠ ، وقارن أيضا ، ص ٢٠٧،٢٠٨- حيث تنص رواية ابن الأبار هنا - في ترجمة ابن المنذر ، على أن هذا الأخير كان يجالس ابن قسى فى ولايته من قبل الموحدين سنة ٥٤٠هـ-٥٤٦هـ/ ١١٤٥- ١١٥٠م ، إلى أن خلع دعوتهم وانسلخ من طاعتهم وداخل النصاري، فاستراح ابن المنذر الي وجوه بلده .. ودبّر معهم- وهو ذاهب البصر - قتله ، فتم ذلك كما تقدم ذكره ، وخلفه فى ولايته قائما بالدعوة المهدية (الموحدية) ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٥٤٦ هـ/ ١٦أغسطس١١٥١م . فخيف أن يثور ثالثة ، فنقل إلى اشبيلية ، بعد أن خلف ابن وزير ، ملك شلب دونه فى خبر ذكره ابنُ صاحب الصلاة، في كتاب «ثورة المريدين» من تأليفه ، وبعد ذلك أجاز البحر إلى سلا ، فتوفى سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م.

ومما يعبر عن ثقافة ابن المنذر ، ووزيره : أبى بكر بن المنخّل ، ماقاله فى نكبته أيضا ، مثل :

يا واحدى من ذا الورى بولائه ووحيدهم - إن ناظروا - بذكائه

يا طالبا علم الكلام تحققا أبشر فقد أدركته بلقائه

من كان يرتاد الشفاء لنفسه فلديه منه ما يفى بشفائه

ما ان يناظر حائرا فى دينه إلا اهتدى وشفاه من أدْوائه (٩٣)

ومن رثاء وزيره ابن المنخل فيه :

ومن لى بمثل المنذرى محمد صديقا صدوقا أو خليلا مصافيا ؟

وقد كنت إستدنى البعيد برأيه فيأتى على حكم الإرادة دانيا

فى شرق الاندلس :

ابن أضحى فى المريــة :

وفى مقابل زعماء الغرب المشاهير ، من ابن قِسّى إلى صاحبيه : ابن المنذر وابن وزير دون ذكر واسطة عقدهم فى قرطبة : ابن حمدين - ظهر في شرق الأندلس عدد من الثوار ، من أشهرهم : ابن أضحى - قاضى المرية - والذى نشأ نشأة فقهية دينية ، مثل ابن قِسّى ، إلى جانب عدد من «الأبدال» ، مثل: ابن عبد العزيز صاحب بلنسية وابن عياض أمير الثغر الذى كان يعد وحده ، بمائة فارس (ماسبق ، ص٤١٩) مع حلفائه وأصهاره الذائعى الصيت من بنى مردنيش - الأندلسيين لحما ودما - فى كل من بلنسية وشاطبة ومرسية ، على وجه الخصوص (٩٤).

---

(٩٣) الحلة السيراء ، ج٢ ص ٢٠٨ .

(٩٤) عن ابن أضحى ، انظر الحلة السيراء ،ج٢ص٢١١- حيث الاسم : أبو الحسن على بن عمر=

ابن اضحى فى غرناطة :

وعندما قام ابن حمدين بقرطبة سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م ، كان ابن أضحى فى غرناطة فكاتبه قاضى قرطبة «الخليفة» ، وطالبه باتباعه - رغم ان قاضى المدينة وقتئذ كان أبو محمد بن سمالك . وفعلا قام ابن أضحى بالدعوة لابن حمدين ، وتابعه فى ذلك أهل غرناطة الذين نجحوا فى إخراج المرابطين من المدينة ، فتحصنوا بالقصبة تحت قيادة ابن فنو - ودار القتال بين الطائفتين مدة (٩٥).

وعندما طلب ابن أضحى المعونة من ابن حمدين بقرطبة ، ومن ابن جزى قاضى جيان ، كان ابن هود (سيف الدولة) أسرع من مدد قرطبة فى الدخول الى غرناطة ، ومن ثم كان تعاونه مع ابن أضحى فى قتال المرابطين عدة أشهر - دفع خلالها ابن

= بن أضحى الهمدانى - من يمنية الأندلس الأوائل. ولد بالمرية فى ربيع الأول سنة ٤٩٢هـ/ ديسمبر ١٠٩٩م ، وولى قضاء المرية عقب ابن الفرا الزاهد ، وأعيد بعد ثانية ، وعن حداثته، انظر ص ٢١٥ .

أما عن شعره أو محفوظاته من الشعر ، فيذكر أنه دخل مجلس الأمير: على بن يوسف بن تاشفين بن براكش ، فلم يحتفل به أحد ، ونزل حيث انتهى به المجلس ، فاستأذن الأمير فى إنشاء بعض ماحضره من الشعر: بيتين فلما أذن له قال:

نحن الأهلة فى ظلام الحندس | حيث احتللنا ثمّ صدر المجلس

ان يبخل الزمن الخؤون بعزنا | ظلما فلم يذهب بعز الأنفس

وتقول الرواية إن أمير المسلمين إذا كان قد أمر بترفيعه فى المجلس ، فإنه لم يسامحه فيما غاب عنه من الخلل فى الشعر ، إذ لو قال: «يذهب» مكان «يبخل» لكان أجود.

هذا ، كما كان الرجل المعتز بنفسه ، عاشقا فى شعره إلى أبعد الحدود ، فمن شعره:

أزف الفراق وفى الفـؤاد كلوم | ودنا الترحل والحمام يحوم

قالوا الوداع يهيج منك صبابة | وثير ماهو فى الهوى مكتوم

قلت اسمحوا لى أن أفوز بنظرة | ودعوا القيامة بعد ذاك تقوم

(٩٥) الحلة السيراء ، ج٢ ص ٢١٢ ، حيث رواية ابن صاحب الصلاة التى تقول : ان قائد غرناطة وقتئذ كان : على بن أبى بكر المعروف بابن فنو : أخت علي بن يوسف بن تاشفين ، والذى وليها بعد يحيى بن على بن غانية.

هود الثمن غاليا ، والذي تمثل فى حياة ولده الذي أسر وهو جريح من قبل من كان من المرابطين فى القصبة ، ولم يلبث أن مات بين أيديهم، فكفنوه ووضعوه فى نعش، دفعوا به الى أبيه لدفنه - كما كانت تقضى فروسية الملثمين.

والمهم أن الحامية المرابطية فى غرناطة نجحت في الدفاع عن نفسها في قصبة غرناطة أمام أهل المدينة ومن تقدم لمعونتهم من الناس . فقد هزموا قاضي مرسية الثائر بها : ابن أبى جعفر ، وقتلوه ، كما أرغموا ابن هود (سيف الدولة) علي الفرار. هذا ، كما ارغمت محمد بن أضحى (الذى خلف والده) على الفرار الي المنكب (٩٦).

والذي يلفت النظر بعد ذلك انه تم التصالح بين أهل غرناطة والمرابطين تحت قيادة خليفة : ابن فنو، بعد وفاة ابن أضحى، وهو : ميمون بن يدّر بن درقاء أو محمد بن الحاج (في نيابته عن يحيى بن على بن غانية) ، والذى أقام بغرناطة حتى أسلمها إلى الموحدين فى سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م (٩٧).

ابن عبد العزيز وابن عياض وابن أبى جعفر فى : بلنسية وشاطبة ومرسية :

وإلى جانب ابن أضحى يذكر الثلاثى التمركز فى كل من بلنسية وشاطبة

(٩٦) انظر الحلة السيراء ، ج٢ ص ٢١٣ ، وأيضا ص ٢١٤- حيث حكاية أخرى لغير ابن صاحب الصلاة تعبر عن معانى شجاعة الملثمين الذين هزموا خصومهم الوافدين من جيان ، ثم هزموا فرسان مرسية ورجالتهم الذين بلغوا ١٢,٠٠٠ (اثنى عشر الف) رجل مابين فارس وراجل... «ويضرب الملثمون إلى معقلهم ظاهرين على عداتهم ، وظافرين في حركاتهم - الأمر الذى يعنى رواية مرابطية مضادة. ويتلو هاتين الروايتين ، رواية ثالثة عن وفاة ابن أضحى فى ميتة شجاعة ، إثر انكشاف خدعة كان يريد بها قتل ابن هود فى كوب شراب مسموم - وذلك عندما شرب الكوب حتى الثمالة . وقام ابنه أبو بكر (محمد) بن أضحى مكانه فى أول سنة ٥٤٠هـ/ يونيه ١١٤٥ م ليهرب عقب ذلك إلى المنكب ، حسبما جاء في الرواية السابقة.

(٩٧) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ ص ٢١٥ .

ومرسية، وهم : ابن عبد العزيز (ابو عبد الملك) قاضي بلنسية ، وعبد الله بن عياض والى الثغر (الأعلي أو شاطبة) ومن معه من بنى مردنيش ، ومن ثم صاحب مرسية: أبو جعفر محمد بن عبد الله بن أبى جعفر ، وهم الذين كانوا يدورون فى بداية أمرهم فى فلك قاضى قرطبة ابن حمدين ، كما تدور الكواكب حول النجوم(٩٨).

فقصة قيام ابن عبد العزيز بثورته ضد المرابطين في بلنسية تتصل بخبر قيام أبى جعفر حمدين بن محمد بن حمدين ، وبيعته بجامع قرطبة الكبير ، فى يوم السبت ٥ رمضان سنة ٥٣٩هـ/ ١مارس ١١٤٥م ، وفشل ابن غانية (يحيى بن على) فى فتح لبلة ، واضطراب عامة أهل بلنسية . وفى ذلك الوقت كان والى المدينة عبد الرحمن بن محمد بن على (ابن أخى يحيى بن غانية ، أمير شرق الأندلس وغربها)، وكان القاضى هو أبو عبد الملك بن عبد العزيز ، وكان قد ولى القضاء فيها بمعرفة الأمير تاشفين بن على ، فى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٥٣٨هـ/ ٢٩ من يونيه ١١٤٤م.

فى بلنسية :

ولما كان الدارج هو أن القضاة هم الذين يقومون بالثورة على السلطة المرابطية وقتئذ بالأندلس ، وكان اضطراب عامة أهل بلنسية بمثابة إعطاء إشارة الضوء الأخضر ، كما يقال الآن ، للقاضى ابن عبد العزيز للقيام بالثورة تحت مظلة قاضى قرطبة الأكبر ، أمير المسلمين (٩٩).

---

(٩٨) انظر ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، سيرة رقم ١٤٥ ، ص ٢١٨ وما بعدها – عن ابن عبد العزيز: ابو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان.

(٩٩) الحلة السيراء ، ج٢ ص٢١٨ ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص٢٥٦ . ولاندرى أن كانت تحسن الإشارة هنا إلى أن انتشار نظام «القضاة الأمراء» فى الأندلس ، فى تلك الفترة من حكم ملوك الطوائف ، له علاقة بما هو معروف فى الثقافة الاسرائيلية القديمة بتقسيم تاريخ دولتهم البائدة إلى عهدين ، هما: عهد الملوك وعهد القضاة.

والمهم أن والى بلنسية المرابطى: عبد الله بن محمد بن على (ابن غانية) وقاضيها مروان بن عبد العزيز اجتمعا فى التو والحين ، ورغم ماكانا يشعران به من المنافسة بينهما ، وهما «يتفقان على الائتلاف وترك الخلاف» (١٠٠).

والحقيقة ان مسار الأحداث يدل على ريبة المسئولين المرابطين فى بلنسية فيما يتعلق بمستقبل مايستجد من الأمور. فهذا مايفهم مما قام به الوالى : عبد الله بن محمد بن على (ابن غانية) ، من إرسال عياله إلى شاطبة لكى يستقروا فيها ثم مسيره هو نفسه بعد فترة ، الى هناك إثر شجار قام بينه وبين الجند - الأمر الذي يوضح أنشقاق الجبهة الحكومية فى منطقة بلنسية التى كانت خيالة شاطبة تغير على بعض جهاتها ، الأمر الذى كان يثير سخط الناس واحتجاجهم . وهكذا اتجهت الانظار - كما هو الدارج فى غير بلنسية من المدن الأندلسية - نحو قاضى المدينة : ابو عبد الملك مروان بن عبد العزيز ، فعرض عليه« الجند والعرب ووجوه أهل البلد ، التأمّر عليهم». والغريب هنا هو رفض ابن عبد العزيز لذلك العرض المغرى حقا ، وإن كان ذلك من الأمور الدارجة . وهنا نرى أنه ربما كانت المسألة «تكتيكية» كما يقال الآن ، من جانب القاضى المرشح للرئاسة ، إذ أنه بعد فترة تمّنع وتردّد استخفى فيها أبو عبد الملك بن عبد العزيز ، وعرض فيها الأمر على بعض قادة الجند ، قبل ابن عبد العزيز الإمارة بعد أن لقى مساندة من قائد الثغر: ابن عياض (أبو محمد عبد الله) ، وابن مردنيش (العم: ابو محمد عبد الله): زعيم حلفائه فى الثغر وأصهاره.

---

(١٠٠) انظر الحلة السيراء ، ج٢ ،ص٢١٨- حيث كان الاجتماع فى المسجد الجامع ، وحيث قام القاضى مروان خطيبا يذكر بجهاد اللمتونيين للروم ونصرهم للجزيرة (الأندلسية) ، واستنقاذهم بلنسية من أيديهم ، ويحض على التمسك بدعوتهم والوفاء لهم . ثم قام عبد الله بن محمد الوالى ، وتكلم بما حضره فى هذا المعنى ، وذكر الناس بما انتظم بينهم وبين عمه (يحيى بن على) من الصحبة، وانفصلوا.

مبايعة ابن عبد العزيز:

وهكذا تمت مبايعة ابن عبد العيز يوم الاثنين ٣ شوال سنة ٥٣٩هـ/ ٣٠مارس ١١٤٥م أي قبل شهر من بيعة قاضي قرطبة ابن حمدين . وبدأ ابن عبد العزيز رئاسته لبلنسية : قاعدة شرق الأندلس ، بتولية ابن عياض الثغر وماولاه، كما ضَم إليه ماكان بأيدى بنى مردنيش (قبل ظهورهم). ومن أجل مواجهة غارات المرابطين على جهات بلنسية ومايجاورها من البسائط والحصون استدعى ابن عبد العزيز أجناد الثغر وسار بهم نحو شاطبة ، فما أن علم بذلك رجال الحامية المرابطية المقيمة فى القصبة هناك ، حتي نزلوا إلى المدينة «ونهبوا الديار وسبوا النساء». وفى ١٨ من شوال/ ١٥ابريل ١١٤٥م ، بعد حوالي أسبوعين فقط ، كان ابن عبد العزيز يقابل المرابطين فى قصبة شاطبة ، كما وصلت إليه نجدة من مرسية فى آخر الشهر بقيادة الفقيه أبى جعفر الخشنى (محمد بن عبد الله أبى جعفر). الذى كان قد قام فى مرسية فى شوال سنة ٥٣٩هـ/ مارس ١١٤٥م.

وهنا قام العسكر البلنسى والمرسى بمحاصرة شاطبة . ولكنه لما كان صاحب مرسية طامعا فى الإمارة هو الآخر ، لم يجد عملهما العسكرى ضد شاطبة ، بل إن الاضطراب ساد مرسية.

وهكذا اضطر ابن عبد العزيز إلى الاستعانة بابن عياض ، قائد الثغر بنفسه ، الأمر الذي حقق له التفوق على : عبد الله بن محمد (بن على بن غانية) الذى فرّ لاحقا بالمرية ، من حيث كان ركوبه البحر - فيما بعد - إلى أبيه محمد بن على بجزيرة ميورقة (البليار) ، وذلك برأى أخيه: يحيي بن محمد بن على (أبو زكريا)؛ صاحب شرق الأندلس - وذلك عند ثورة العامة باشبيلية (١٠١).

---

(١٠١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ص٢١٩-٢٢٠، وقارن ابن الخطيب أعمال الأعلام ، ص٢٥٦-حيث عبد الله بن حَمو (بدلا من محمد) بن غانية ، القائد المرابطي ، الذى نجا من الحصار ، وقصد الساحل ، ووصل إلى المرية ، حيث : محمد بن ميمون ، قائد الأسطول وصنيعة الملثمين الذى جهزه إلى مدينة ميورقة، فألحقه بأبيه «حمّو بن غانية».

وبذلك نجح الرئيس القاضى ابن عبد العزيز فى الاستيلاء على شاطبة إلى جانب بلنسية التى عاد إليها وهو راكب على جمل فى زي الجند . وهناك جددت له البيعة فى شهر صفر سنة ٥٤٠هـ/ يوليه ١١٤٥م ، وانصرف ابن أبي جعفر إلى مرسية ، ثم قتل إثر ذلك بجهة غرناطة ، فانضافت لقنت وأعمال شاطبة الي ابن عبد العزيز(١٠٢).

وبسبب سوء الاحوال الأقتصادية ، وقلة الجبايات لم يكن ابن عبد العزيز يستطيع أن يلبى حاجات الجند من الرواتب والواجبات ، الأمر الذى أثار سخطهم حتى فكروا فى خلعه ، بل أنهم خاطبوا ابن عياض يستعجلون مجيئه من مرسية التى كان قد استولى عليها من ابن طاهر (أبو عبد الرحمن) فى جمادى الأولى ١٦نوفمبر ، فخرج من قصره متنكراً ، وتدلى من سور بلنسية ليلا لكى يلحق بالمرية حيث قبض عليه أمير البحر : محمد بن ميمون ، ومن ثم سلمه إلى عبد الله بن محمد ، عدوه وطريده من بلنسية وشاطبة ، فساقه فى الأسطول إلى جزائر ميورقة (حيث مقر الأسرة من بنى غانية) (١٠٣).

خلع ابن عبد العزيز:

وعندما خلع الجند ابن عبد العزيز من إمارة بلنسية قدموا عبد الله بن محمد (أبو محمد : ابن مردنيش) نائبا عن ابن عياض الذى وصل إليها فى آخر جمادى الأولى/ نوفمبر ، وأقام ناظراً فى أمورها ثم عاد إلى مرسية ، وترك صهره أبا

---

(١٠٢) ابن الأبار، الحلة السيراء ، ج٢ص٢٢٠، وقارن ابن الخطيب أعمال الأعلام ، ص ٢٥٦ .

(١٠٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء ،ج٢ص٢٢١-٢٢٢- حيث رواية أخرى تقول إنه رجع إلى بلنسية ثم خرج مستخفيا إلى مرسية ثم خرج منها إلى المرية حيث قبض عليه ، وقارن ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، ص٢٥٦-حيث : واتسعت طاعته (أبن عبد العزيز) إلى أن ضاقت جبايته ، وكرهته الرعية ، وثار به الجند فى ٢٥ جمادى الأولى ٥٤٠هـ/ ١٥نوفمبر ١١٤٥م، فصابرهم إلى الليل ، وترامى من السور ، فذهب لوجهه ، وتلاعبت به الأيام إلى أن ترفى مشرفاً بمراكش سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م .

محمد عبد الله بن سعد ببلنسية نائبا عنه ، وهو عم محمد بن سعد (ابن مردنيش)، وهو أمير الشرق بعد ذلك (١٠٤).

أما ابن عبد العزيز فسيق إلى ميورقة حيث سجن في بيت مظلم مطبق لايعرف فيه النهار من الليل لمدة تزيد على عشرة أعوام أو تقرب من اثنى عشر عاما . ولم يخلص من ذلك السجن إلا بسعى الوزير أبى جعفر بن عطية لدى صاحب ميورقة:اسحق بن محمد بن على (ابن غانية) سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م ، والذى بعث به إلى بجاية ، ومنها توجّه إلى مراكش حيث سعى له ابن عطية ، فكان يحضر مجلس عبد المؤمن. والأمر المستغرب ان أبن عبد العزيز تنكر لابن عطية وأغرى عبد المؤمن به حتى كان من أسباب مقتله سنة ٥٥٢هـ . وكانت وفاة ابن عبد العزيز بمراكش سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م ، وعمره ٧٣ (ثلاث سبعون) سنة (١٠٥).

من تلك الإشارات إلى أحوال ثوار الشرق على نهاية عهد المرابطين ، نلاحظ أنهم كانوا أشد خطراً من ثوار الغرب. فالمريدون في الغرب كانوا أقرب إلى الثوار العبّاد من أهل الربط والخنقاوات ، دعاة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . بينما كان ثوار الشرق من المحاربين الأشداء ، طلاب اعمال الشجاعة والبطولة والمغامرة. ويمكن تفسير ذلك على أساس الاختلاف في الموقف الاستراتيجى - الجغرافى لكل من الغرب والشرق . فالغرب كان مهزوما أمام الريكونكيستا الإسبانية أكثر من الشرق ، بسبب إطلالته على شواطئ المحيط الذى كان ممراً لسفن الصليبيين ، من: الفرنج والانجليز الذين كانوا يمدون يد العون إلى اسبان غاليسيا وليون بالشمال ،

(١٠٤) الحلة السيراء ،ج٢ص٢٢٢- وابن سعد بن مردنيش هذا هو شهيد البسيط أو اللج مع سيف الدولة بن هود- انظر هـ١- عن البسيط ، وانظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢٥٩-حيث أيام الاخير أبى عبد الله محمد بن سعد الجذامى (ابن مردنيش: أمير شرق الأندلس، ابن سعد أمير أقراغه وماوالاها من ثغور شرق الاندلس، نازل ابن رذمير بافراغه، وأهان الله الطاغية بظاهرها على يد يحيى بن غانية ، فظهر من سعد في ذلك إليوم من الصبر وحسن البلاء ماشتهر به - و عن أفراغة ، انظر ماسبق،ص ٤٣٤).

(١٠٥)الحلة السيراء، ج٢، ص٢٢٥-٢٢٦ .

ومن ثم إلى البرتغاليين فى الغرب ، الأمر الذى سمح بتمدد هؤلاء جنوبا ، وبشكل أسرع مما كانت عليه الريكونكيسيا فى الشرق ، الأمر الذي كان يشجع على قيام دولة البرتغال إعتباراً من أواخر القرن الخامس الهجرى / ١١م وأوائل السادس/ ١٢م (١٠٦).

وهذا الموقف أدي الى أن صارت حرب الاسترداد في الجبهة الغربية وكأنها جهاد مباشر ضد مملكة البرتغال ، بينما بقيت فى الجبهة الشرقية وكأنها فتنة داخلية - من نوع الحرابة - ضد ثوار الطوائف الأندلسيين ، وذلك في منطقة الوسط ، فى بلنسية وشاطبة ومرسية ، فى وقت لم تكن «الريكونكيستا» قد استردت فى الشرق إلا الثغر الأعلى فى سرقسطة وعدد من أعمالها شمالا بشرق . ومن الواضح أن أهم أسباب الصمود فى الشرق ، تلخصت فى الوضع الجغرافى حيث كانت سواحل الشرق مشرفة على شواطئ الجزائر (المجاهدة) فى المغرب ، بل وما وراء المغرب الأوسط فى صقلية وجنوب إيطاليا ، حيث لم تكن الريكونكيستا» النورمندية قد استردت تلك المواضع تماما إلا قبيل الفترة التى نحن بصددها أو القريبة من ذلك حيث وجود العرب فى منطقة مرسية ، سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م - قبل أن يحملهم عبد المؤمن إلى الاندلس (ماسبق،ص٤١٤). وهم الذين كانوا يستطيعون الوقوف أمام محمد بن حمدين والى مرسية من قبل ابن عمه قاضى قرطبة ، فيهزمونه ويمنعونه من التقدم نحوها (١٠٧).

وهكذا كان على الموحدين - بعد المرابطين - أن يواصلوا الصراع فى غرب الأندلس مع دولة البرتغال مباشرة، بينما كان عليهم فى الشرق مواصلة الصراع ضد طوائف

(١٠٦) عن قيام دولة البرتغال انظر أشباخ (يوسف) ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنانى القاهرة ١٩٤١ ، ص ١٨٧-حيث الإشارة إلى أمير البرتغال الفونسو هنريكيز أمير البرتغال يتحالف مع ملك نافار ضد قيصر قشتالة الفونسو ريمونديز وانظر أيضا محمود عمران، دور الحركة الصليبية في تكوين مملكة البرتغال، كتاب ندوة الاندلس، كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

(١٠٧)ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ص٢٥٥ .

الأندلسيين من «فترة مريدين» مباشرة، وكذلك من وراءهم من الإسبان المحاربين. وهذا الأمر هو الذي يفسر ضياع الغرب حتى المجاز من أيدى المسلمين مع بقاء رأس جسر غرناطة والمرية بين أيدي بنى الأحمر الغرناطيين، خلفاء الموحدين فى الأندلس.

ومن هذا المنظور أيضا يمكن القول انه بينما كانت حركة المريدين فى غرب الأندلس تنتهى بتوحيد ابن قسي ، ومسيره بصحبة طلائع الجيش الموحدى الذى أخذ مواضع من الغرب وحتى اشبيلية وأعمالها ، ليبدأ من ثم الصراع المباشر ضد البرتغال ، كان الشرق مايزال يقدم المزيد من ثوار الطوائف ، ممن سبقت الاشارة اليهم ، من : ابن عياض ، والخشنى ، وابن عبد العزيز ، وممن يأتي ذكرهم فيما بعد، مثل : بني مردنيش وابن همشك وحلفائهما من رجاال الاسترداد من الإسبان.

فسيف الدولة (Zavadola) ابن هود ، حليف ملك قشتالة ، كان له اتباعه بمرسية ، مثل : عبد الله الثغرى خلال شوال سنة ٥٣٩هـ/ مارس ابريل ١١٤٥م ، والخشنى(الفقيه : ابو جعفر ابن أبي جعفر) الذى توجه إلى شاطبة «لحرب من كان بها من الملثمين» ، ثم خرج غازيا إلى غرناطة ، ومعينا للقاضى أبى الحسن ابن أضحى ، حيث كانت قد اشتدت شوكة الملثمين بقصبتها ، وبالغوا فى التضبيق على مدينتها وأكثروا القتل فى أهلها (١٠٨).

ومن الوافدين الجدد من الأمراء الثوار ابو عبد الرحمن بن طاهر تابع ابن هود والذي أجمع أهل مرسية على تأميرهم إياه فى أواخر ربيع الأول سنة ٥٤٠هـ/ سبتمبر ١١٤٥م ، والذى قدم أخاه أبا بكر قائداً للخيالة (١٠٩).

---

(١٠٨) انظر الحلة السيراء ، ج٢ص٢٢٨- حيث النص على تأهب المرابطين بغرناطة للخشني، كما يقال أن عبد الله بن محمد (حمو) بن على بن غانية كان فيهم قبيل لحاقه بأبيه ، وقدومه عليه بميورقة ، فهزموا ذلك الجمع قرب غرناطة ، وقتل ابن أبى جعفر الخشنى.

(١٠٩) ابن الأبار ، الحلة السيراء ج٢ص٢٣٠-٢٣١-حيث النص على رد أهل مرسية للعسكر الذي بعثه إليهم ابن حمدين،كماء طالب المائلين إليه (ابن حمدين)». هذا ، مع الاشارة إلى دخول ابن عياض مرسية بناء على طلب أهلها دون علم ابن طاهر، حتى دخل ابن عياض القصر الكبير بمرسية دون مدافعة أحد عنه، الأمر الذى دعا ابن طاهر إلى الانتقال إلى الدار=

والمهم أن مرسية (بلد سيدى أبى العباس شيخ الاسكندرية) كانت متبادلة فيما بين سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م و ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م مابين عبد الله الثغري الذى قتل فى ٧ رجب سنة ٥٤١هـ/ ١٤ديسمبر ١١٤٦م ، وبين ابن عياض الذى استولي على مرسية ثانية وسائر بلاد الشرق إلى أن قضى نحبه من سهم رمى به في بعض حروبه مع الروم يوم الجمعة ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٤٢هـ/ ٢١أغسطس سنة ١١٤٧ .

وخلف ابن عياض رئيسا علي الشرق (صهره) محمد بن سعد (ابن مردنيش) الذى كان وقتئذ واليا على بلنسية (حيث دفن ابن عياض) برضاء أهل المدينة ، بل ومبايعتهم أيضا ، كما بايعه أهل مرسية في شهر جمادى الأولى/ سبتمبر - أكتوبر من نفس السنة (١١٠). والمهم أن ابن سعد بن مردنيش فرض هيمنته علي البلاد إلى أن توفى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م . وعندئذ اطمأن ابن طاهر ، وظهر ، ودخل طوعا فى دعوة الموحدين ، وسار الى مراكش حيث توفى سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م(١١١).

=الصغرى قبل أن ينتقل إلى داره، بينما عفّ ابن عياض عن دمه لعلمه بضعفه ، وكان (ابن عياض) مع شهامته حسن السيرة . هذا ، كما خلع مروان بن عبد العزيز فى بلنسية واستدعى أهلها ابن عياض فأمّروه ، وأقام الخطبة فى شرق الأندلس داعيا لابن هود إلى أن قتل بالبسيط فدعا لنفسه.

(١١٠) انظر الحلة السيراء ، ج١ص٢٣٢ وهـ١ وعن ابن مردنيش لكوديرا ، فى اضمحلال وزوال دولة المرابطين (بالاسبانية) ط. سرقسطة ١٨٩٩ ، ص ١١١ وما بعدها.

(١١١) الحلة السيراء ، ج٢ص٢٢٣ .

الموحدون فى الأندلس

ارض الجهـاد ودار الرباط

من التمهيدات الأولى لدخول الموحدين الى الأندلس يتضح أن ذلك التدخل أتى عن طريق عدد من الأسباب ، أولها بطبيعة الحال هو الرغبة فى الجهاد من قبل الموحدين، كما كان الحال بالنسبة للمرابطين ، وذلك بناء على ماهو معروف من أن الجهاد يعتبر فرضا من فروض الاسلام ، وإن كان فرض كفاية.

ومن هذا المنطلق ، لم يكن من المستغرب أن تأتى الدعوة إلى الجهاد فى الأندلس من جميع الأطراف الإسلامية ذات العلاقة ، من: مؤتلفة ومختلفة. ويظهر ذلك الأمر بشكل معبر من تنقل أمراء الأندلس ، من قضاة أبرار وثوار أشرار ممن يقبعون تحت مظلة الحكم الشرعي المرابطى أو الموحدى، ومن يقعون تحت الهيمنة الاسبانية الممثلة فى «الريكونكيستا» - وكأن الأمر خضوع لقضاء الله وقدره. وهكذا يمكن القول حقيقة ان الظروف السياسية والعسكرية المتقلبة هى التى كانت تقرر المواقف بالنسبة لكل طرف من الأطراف.

أسباب التدخل الموحدى :

وهكذا ظهر عدد من الروايات التى تحدد انواعا مختلفة لأسباب تدخل الموحدين فى شئون الأندلس. وأقدمها يرتبط بفتح مدينة فاس، بعد مقتل تاشفين بن على سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥ م على مشارف وهران ، وتنص على أن صاحب الأسطول المرابطى فى ميناء قادس الأندلسى الجنوبى ، وهو على بن عيسي بن ميمون ، كان أول من اتصل بعبد المؤمن سنة ٥٤٠هـ/ ٦-١١٤٥م ، وأنه نقض بيعة المرابطين (الملثمين) ودخل فى دعوة الموحدين (١١٢). والرواية التالية والتى يفترض أنها

---

(١١٢) ابن خلدون ، ج٦ص٢٣٣ حيث النص على أنه: دخل فى دعوته، وخطب له بجامع فاس أول خطبة خطبت لهم بالأندلس عام ٥٤٠ هـ.

معاصرة لها ، وتقول أن أحمد بن قسّي (رئيس المريدين) كان أول مقيم للدعوة الموحدية ، إذ بعث رسوله: أبا بكر بن حبيش ، فلقى عبد المؤمن وهو على تلمسان(١١٣).

ولما كان المعروف أن رسالة ابن قسي هذه لم تلق جوابا حسنا من عبد المؤمن بسبب ان ابن قسي كان يدعى «الهداية» - وهى بضاعتهم (ماسبق ، ص ٤٤٤) - فإن الاتصال الصحيح الذى عرض فيه ابن قسّي توحيده ، ورغب فيه عبد المؤمن فى ملك الأندلس ، كان عندما سار بنفسه للقائه أثناء أو بعد فتح مراكش (سنة ٥٤١هـ/ ٧-١١٤٦م أو بعدها - ماسبق ، ص٤٥٥) - فكأن تلك الأسباب كانت مجرد دعوات لتدخل المنتصر.

أما عن الروايات التى تتحدث عن فتح الموحدين للأندلس فتحا حقيقيا ، فهي تلك التى تنص على أن الشيخ أبا حفص عمر أينتى ، أكبر مشاهير القادة الموحدين الأوائل ، وهو «أول من فتح الأندلس» ، وأنه «أطاعه أهل غرب الأندلس» ، وأنه تبع ذلك «ان جمع عبد المؤمن جموعه للعبور»(١١٤).

وهكذا تتعدد أسباب الفتح الموحدى للأندلس ، من : انحياز بعض القواد المرابطين إلى جانب الموحدين ، عندما تبين لهم رجحان كفتهم ، أو محاولة استقطاب البعض من ثوار الأندلس مثل ابن قسى ، لعبد المؤمن أو الاستنصار به ضد منافسيهم الذين كانوا يستنجدون بملوك النصارى الإسبان ، كما فعل قاضى قرطبة ابن حمدين . أم عن الفتح الحقيقي ، الذى قام به أبو حفص عمر الهنتاتي ، فكان المحصلة الأخيرة للموقف ، بعدما تمهدت الأمور لاستقبال القوات المصمودية فى الأندلس - إثر تأكد فشل المرابطين فى تقويم الأحوال.

---

(١١٣) ابن خلدون ، ج٦ص٢٣٤ .

(١١٤) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٦٣ .

يحيى بن غانية آخر ولاة المرابطين:

وهنا لابأس من النظر فى موقف آخر ولاة تاشفين بن على بن يوسف في الأندلس، وهو يحيي بن على بن غانية ، آخر مشاهير المرابطين ، والذي ستنجح عائلته فى الاستقرار في جزائر ميورقة (الشرقية) ، فى محاولة أخيرة من جانب «آل تاشفين» للوقوف أمام الامبارطورية الموحدية الصاعدة ، الأمر الذى كانت له آثاره السلبية ولاشك ، على النهضة الموحدية ، وخاصة فى البلاد الافريقية من المغرب.

وهكذا كان (ابو زكريا) يحيى بن غانية آخر ولاة المرابطين على شرق الأندلس وغربه. وفى ذلك تصفه الروايات التاريخية بأنه كان بطلا شهما حازما ، كثير الدهاء والإقدام والمعرفة بالحرب (١١٥). وذاع صيت يحي وبسالته فى كل الأندلس حتى إن والى بلنسية (في الشرق) ، وهو يدّر بن ورقاء ، رغب فى استلحاقه بعسكره ليستعين به فى الدفاع عن الشرق ، واستجاب أمير المسلمين على بن يوسف لطلب يدّر ، ووصل يحيى فعلا إلى بلنسية حيث أقام بها نائبا عنها، إلى وفاة ابن ورقاء ، فولاه على بن يوسف على بلنسية وشرق الأندلس.

السيطرة على الموقف :

وفى الشرق ظهر غناء ابن غانية وجهاده ، وهناك حقق انتصاره اللامع على ابن ردمير (الفونس المحارب : الأراجونى) فى موقعة أفراغة الشهيرة - سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م ، فطار ذكره واشتهر سعده ، كما يقول إبن الخطيب (١١٦).

---

(١١٥) انظر ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج٤ص٣٤٤-حيث الإشارة ابتداء إلى نشأة يحيى بن غانية فى كنف زوج أمه : محمد بن الحاج اللمتونى ، والى قرطبة حتى تربى منفصلا عن جماعته، وحيث دخل فى سلك العسكرية: «يتصرف فى الحروب ... ويشتهر بالبسالة والديانة».

(١١٦) الإحاطة ، ج ٤ص٣٤٤، وانظر أيضا ص ٣٤٥- حيث النص على شدة عزمه إلى جانب بسالته وديانته ، وحيث النص على أنه طلق زوجته الشريفة الجميلة ... (وفى ذلك) =

واعتبارا من سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م عهد اليه علي ابن يوسف (بولاية الاندلس)، الأمر الذي توج به جهاده هناك ، وبفضله «استمسك حال البلاد» ، وبذلك «استقامت الامور بحسن سيرته وظهوره سعده» إلى صفر من عام ٥٣٩هـ/ أغسطس ١١٤٤م حسبما يري ابن الخطيب (١١٧). ومؤرخنا يقصد بذلك التاريخ (صفر ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) بدء قيام ثورة ابن قِسّي الذى كان بمثابة الشرارة التى ألهبت ثورة الماستي (الماسي) فى السوس الأقصى من بلاد المغرب ، وهو إذن تاريخ مهم ، يرجع إليه ، من حيث اعتباره «باكورة الفتنة» التى أودت بحكم المرابطين للأندلس. فعندما قام يحيى بن غانية بالخروج من قرطبة لمهاجمة مدينة لبلة (حيث المريدون) ، انتهز ابن حمدين الفرصة وأعلن الثورة بعاصمة الخلافة العتيدة (قرطبة) التى صارت دار ملكه، وذلك فى شهر رمضان من سنة ٥٣٩هـ/ فبراير ١١٤٥م. والمهم أن أهل قرطبة أيدوا ثورة ابن حمدين ضد الملثمين ، الأمر الذى شجعه على استباحة قصر يحيى بن غانية (قصر الخلافة بقرطبة) ، «وانطلقت الأيدي على قومه (من اللمتونيين» ، وبذلك نجح في السيطرة على الموقف فى قرطبة . وعندما بلغ يحيى الخبر عاد أدراجه إلى اشبيلية ، التى ثار أهلها بدورهم «فناصبوه الحرب ، وأصابوه بجراحة». ورغم ما تنص عليه الرواية من أنهم حينما ألجأوه إلى حصن مرجانة (القريب من اشبيلية) ، حيث «أقام يصابر الهول ، ويرقع الفتن» ، فالمهم ان يحيى استطاع هزيمة ابن حمدين ، الذى لجأ إلى حصن أندوجر القريب ، بل ونجح أيضا في استرجاع قرطبة ، فى شعبان سنة ٥٤٠ هـ/ فبراير - مارس ١١٤٦م(١١٨).

منازلة ابن حمدين :

ومن المهم أيضا أن يحى بن غانية نهض الى منازلة ابن حمدين الذى رأي

= قال مقولته التى ذهبت مثلا: «والله مافارقتها عن علة تذم ، ولكن خفت أن اشتغل بها عن الجهاد» حيث اكدت تلك المقولة الربط الذى لاينفصل بين الجهاد الحربى والجهاد النفسى.

(١١٧) الاحاطة ،ج٤، ص٣٤٥ .

(١١٨) الاحاطة ،ج٤ص٣٤٥ .

الاستعانة بملك قشتالة (الفونسو السابع) (١١٩) وهو يطمّعه في قرطبة . وعندما تحرك الملك القشتالى لنصرة ابن حمدين ، ووصل الى أندوجر ، توانى يحيى بن غانية عن الدفاع ، وفضل العودة بجيشه الى قرطبة ، والعدو القشتالى فى أثارهم ، وفى صحبته تابعه ابن حمدين . وهكذا انتهى اللقاء باعتصام يحيى بن غانية بقصر قرطبة ومايتاخمه من المدينة ، ودخول العسكر القشتالى مع ابن حمدين إلي قلب المدينة ، وذلك في يوم عيد الأضحى (١٠ من ذى الحجة) من عام ٥٤٠هـ/ ٢٤ماية ١١٤٦م.

والملاحظ هنا أن الرواية الإسلامية الممثلة فى ترجمة ابن الخطيب ليحيى ، تصف ذلك الحدث على أنه «كارثة» حلّتْ بقرطبة من جانب النصاري الذين استباحوا المسجد (الجامع) ، وأخذوا ماكان فيه من النواقيس التى كانت قد جلبت بمعرفة تاشفين بن على بن يوسف (١٢٠) في حملة اشكلونه سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧م - بعد انتصار أفراغة ٥٢٨ هـ - ٥٢٩ هـ / ١١٣٣ - ١١٣٤م والتي كانت قد استخدمت في الجامع كالثريات العظيمة - رمزاً للتفوق الموحدي. هذا، كما ينسب اليهم تمزيق مصاحفه ، ومنها - فيما زعموا - مصحف عثمان ، كما أنزلوا منار (مصباح أو ثريا) الصومعة المصنوع من الفضة الخالصة.

والذى نراه انه ماكان للحليف القشتالى (الفونسو الـ ٧ «ريمونديز») ان يطلق رجاله يفسدون المدينة التى كان طامعا فى ملكها ، بل نرى ان عامة أهل قرطبة الذين كانوا يناصبون المرابطين العداء - منذ ثورة ابن حمدين - تماما كما كان يحيى يبادلهم الاشفاق والحذر ، ولايتوقع منهم الا الغدر والخيانة ، هم الذين قاموا بثورتهم العارمة ، التى لاتبقى ولاتذر ، والقرينة على ذلك حرق الأسواق وإفساد المدينة.

(١١٩) الفونسو الـ ٧ ريموندير ملك قشتالة قيصراً ١١٢٦-١١٤٤ م/ ٥٢٠-٥٣٨هـ (يوسف أشباخ الترقيم بج١ص١٧٨).

(١٢٠) انظر ماسبق ص٤٣٤ (عن الاندلس) الأمر الذى لم يتصوره بعض الباحثين فظنوا كلمة النواقيس نوعا من القناديل المصفحة أو المزينة بالنحاس - على ماترى.

التحالف مع الفونس :

أما عن موقف الملك القشتالى الذى كان يطالب يحيى بن غانية ببعض المعاقل والحصون فى سبيل التنازل عن المطالبة بقرطبة ، فإن موقفه تعدل الى صالح يحيى بن غانية ، ليس لأنه أظهر من الصبر على المكاره ، وشدة البأس وصدق الدفاع الذى أيأس منه عدوه فقط ، بل وبسبب وصول نبأ اجتياز الموحدين من المغرب الى الأندلس ، فلقد رأى الرومى أن الأمر يقضى بمهادنة يحيى بن غانية «وبتركه بقرطبة فى نحر عدوه من الموحدين ، سدا بينهم وبين بلاده» (١٢١).

وهكذا تمت التسوية بين (القيصر) الفونس السابع القشتالى وبين يحيى بن غانية أمير الاندلس المرابطى. وفى ذلك تقول رواية ابن الخطيب أنه عقدت الشروط ، واستحضر ابن غانية أهل قرطبة للرومى - الأمر الذى يعنى أنهم كانوا أصحاب هياج يوم عيد الأضحى بقرطبة - والذى قال لهم : «أنا فعلت معكم الخير ما لم يفعله أحد من قبل . غلبتكم فى بلدكم ، وتركتم رعية لى ، وقد وليت عليكم يحيى بن غانية ، فاسمعوا له وأطيعوا (١٢٢) . فكأن الأمير المرابطى هو الآخر ، استند فى شرعية وجوده بالأندلس إلى مساندة الملك القشتالى ، نظير الجزية - بطبيعة الحال - وهو الأمر الذى حاولت الرواية الاسلامية إعطاءه نوعا من الشرعية عن طريق تقرير ان الملك القشتالى أضاف قائلا للقرطبيين : «فعندى كتاب نبيكم إلى جدى» على نسق ما هو معروف فى أدب الفتوح «بالعهد النبوى» (١٢٣).

---

(١٢١) الإحاطة ، ج٤ ص٣٤٥-٣٤٦ .

(١٢٢) ابن الخطيب الإحاطة ،ج٤ص٣٤٦ .

(١٢٣)وذلك ماأكده الملك المسيحى عندما أحضر حقًا من ذهب ، فتحه وأخرج منه «كتاب مسطر فيه: كتاب من رسول الله صلعم إلى قيصر ملك الروم - وهو جده بزعمه». والأمر المستغرب بعد ذلك ما تقوله الرواية من أن الكتاب بخط على بن طالب ، الأمر الذى يضفي على الرواية طابع القصة الشعبية أو الأسطورة ، وأن توثقت الرواية بتأكيد صحتها «بما جاء فى حديث البخارى». هذا ، مع التأكيد أيضا على انصراف الملك المسيحى إلى بلاده ، وأنصراف ابن حمدين ، إلى حيث كانت نهايته بمدينة مالقة «بعد اضطراب كثير» - الإحاطة ،ج٤ص٣٤٦- هذا ولابأس من الإشارة هنا إلى نماذج العهد النبوى الموجودة فى مخطوطات دير سانت كاترين المحفوظة بمتحف كلية الأداب بالاسكندرية.

والمهم أن يحيى بن غانية استقر في قرطبة وهو مشفق من غدر أهلها ، وأنه شرع في تحصين المدينة ، «فشرع في بنيان القصر (القصبة) ، وسد عورتها ، وسام أهلها الخسف وسوء العذاب ، ووالى إغرامهم ، واستعجل أمرهم ، واتصل سلمه مع العدو الى تمام سنة ٥٤١هـ/ ماية ١١٤٧م . أما عن اشبيلية فكان قد تملكها الموحدون ، بالإضافة الى أعمالها ، وان ظل موقفهم سلبيا من استبداد العدو الاسبانى بابن غانية ، وبالتالى هيمنتهم الحقيقية على قرطبة (١٢٤).

الآثار السلبية لثورة الماسي في الأندلس :

والحقيقة أن الموحدين كانوا قد انشغلوا في المغرب بثورة الماسي (أو الماستى) ، الأمر الذى استغرق كل جهدهم لبعض الوقت ، والذى أدى إلى «تكالب العدو على الأندلس»، بل ومنازلته الكثير من مدائنها ، مثل : الاشبونة ، وشنترين في الغرب، والمرية وطرطوشة ولاردة وأفراغة في الشرق والثغر ، بل وطمعه في استئصال الإسلام . والمهم في النهاية أن ابا زكريا يحيى بن غانية ، رجل الحرب والدين ، رأى أن تقويم الموقف لايكون إلا بالاتفاق مع الموحدين. «فداخل (يحيى) سراً من باشبيلية من الموحدين ، ووصله كتاب خليفتهم بما أحب». والظاهر أن ملك قشتالة استشعر بما كان يدور في الخفاء بينه وبين عبد المؤمن «فتحرك نحوه في جيش لايرام ، وطالب ابن غانية بالخروج عن جيّان ، وتسليمها اليه» : وهنا سار يحيى ابن غانية إلى غرناطة ، «آخر ماتبقى للمرابطين من القواعد ليجمع بها أعيان لمتونة ومسوفة ، في شأن صرف الأمر الى الموحدين»(١٢٥).

---

(١٢٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٤ص ٣٤٦- حيث النص على أن يحيى بن غانية ضيق عليه النصارى في طلب الأتاوة ، كما اشتطوا عليه في طلب بعض المواضع ، مثل : بياسة وأبده ، فتنازل لهم عنها.

(١٢٥) انظر مجموع رسائل موحدية ، نشر بروفنسال ، الرسالة الرابعة ص٦-والرسالة المؤرخة ٩ربيع الآخر سنة ٥٤٣ هـ/ ٢٧ أغسطس ١١٤٨م صادرة من عبد المؤمن إلى الشيخ الأجلّ أبي زكريا يحيى بن علي (بن يوسف المسوفي) وتنص الرسالة على توارد كتب طلبة =

وفاة يحيى بن غانية :

والمهم من كل ذلك أن يحيى بن غانية لم يقم بغرناطة أكثر من شهرين ، إذ توفى عصر الجمعة ١٤ شعبان سنة ٥٤٣هـ/ ٢٨ ديسمبر ١١٤٨م ، وكان مصيره كواحد من أبطال الجهاد والشهامة أن دفن بداخل القصر بغرناطة ، بالمسجد الصغير المتصل بقصر الأمير باديس بن حبوس الصنهاجي ، وان قبره هناك صارا مزاراً يتبرك بتبرك صاحبه (١٢٦).

ابن قسى والمرابطون وابن حمدين :

واذا كانت رواية ابن الخطيب هذه في الإحاطة ، قد ركزت على يحيى بن غانية بصفته أمير الأندلس المرابطى فى تلك الفترة من نهاية حكم المرابطين ، فإن رواياته فى أعمال الأعلام عن ابن قِسّى (شيخ المريدين الصوفية) تضيف أشياء تفيد فى مواضع أخرى ، مثل : تغلب أحد اتباع ابن قسى على حصن منتقوط فى شوال سنة ٥٣٨هـ/ابريل ١١٤٤ ، ونجاح المرابطين فى إنزال ذلك التابع قبل أن يتمكن من الحصن ، وقتله . وتوجه ابن قِسّى إلى ميرتلة واحتلال قصبتها المنيعة فى ١ ربيع الأول من سنة ٥٣٩ هـ/ ١سبتمبر ١١٤٤م ، بعد أن فشل المرابطون فى استرجاعها - وان ضربوا قطر ميرتلة - قبل ارتحالهم عنها . هذا إلى جانب تحرك ابن قِسّى إلى

=الاندلس يعلمون بميل ابن غانية إلى الموحدين وأنهم تحققوا من محبته لهم والتعاون معه فى ذات الله واختبارهم لصدق عهده ووفائه ، مع الإشارة إلى ماتستحقه قبيلته مسوفة من التكريم لدخولهم فى التوحيد ، وكذلك الشيخ أبو زكريا يحيي بن اسحق وبنوه وقرابته ، مع الطلب أن يسير على منها جهم - وقارن الدراسة ، ص٢٣ .

(١٢٦) ابن الخطيب . الإحاطة ، ج٤ص٣٤٧ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ص٢٣٥- حيث النص على مهلكه (بغرناطة) فى شعبان سنة ٥٤٣هـ/ ديسمبر ١١٤٨م - وقبرة بها معروف لهذا العهد، وقارن روض القرطاس، حيث خروج يحي بن غانية سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، من قرطبة إلى غرناطة ليكلم عليها اللمتونى فى تملكها للموحدين إذ كان مكنه من قرطبة وقرمونة ، فتوفى بغرناطة ٢٤ شعبان سنة ٥٤٣هـ/ ١٢ يناير ١١٤٥م . ودفن فى القصبة بازاء قبر باديس بن حبوس وانظر فيما بعد ص ٤٨٧ و هـ ١٤٣

عبد المؤمن ولقائه به في ربيع الثاني سنة ٥٤٠هـ/يوليو اغسطس ١١٤٥م ، ومن ثم تحديد مداخلة ابن قسي لملك البرتغال (ابن الرنق: صاحب قلمرية) (١٢٧) ومثل هذا يقال عن ثورة قاضي قرطبة ابن حمدين التي تحدد برمضان سنة ٥٣٩هـ/ فبراير-مارس ١١٤٥م ، واستمرت لمدة ١١ (احد عشر شهراً ، حيث كانت حركة يحيى بن غانية الى قرطبة في جمادى الثاني سنة ٥٤٠هـ/ نوفمبر١١٤٥م ، بينما كان دخوله إليها بعد هزيمة ابن حمدين في ١٢ شعبان سنة ٥٤١هـ / ٩فبراير ١١٤٧م . ومن ثم عودة ابن حمدين إلى حصن اندوجر ، قرب قرطبة ، والذي حاصره يحيى بن غانية ، فكان ذلك سبب استصراخه بطاغية الروم ، الذي تبع ابن غانية وفي إثره ابن حمدين الذي دخل قرطبة في ذي الحجة سنة ٥٤٠هـ/ مايه ١١٤٦م بينما اعتصم يحيى بن غانية بالمدينة الرسمية (القصبة).

أما عن الفترة من دخول الموحدين إلى اشبيلية (٥٤١هـ/ ٤٧-١١٤٦م) وإقامة ابن حمدين بحصن فرنجلوش ، خائبا في ظل صاحب قشتالة ، ومن ثم قصده عبد المؤمن ، بل وحتى وفاة ابن حمدين بمالقة في ١٩ رجب سنة ٥٤٦هـ/ ٥ نوفمبر ١١٥١م ، وهي الفترة التي تعادل حوالي ٥ (خمس) سنوات (١٢٨) ، فهذه الفترة غامضة بشكل مثير . وابن الخطيب في أعماله لايشير خلالها إلا إلى انصراف ابن حمدين من مراكش على عجل ، ليلحق بحليفه صنيعة القاضي ابن حسّون (أبو الحكم : الحسين بن الحسين الكلبي) ، الذي أعلن الثورة بمالقة ، على أمل ان يستعين به في استرجاع قرطبة من يحيى بن غانية ، وعندما فشلت المحاولة عاد ابن حمدين إلى مالقة ، حيث ساعد ابن حسّون بها على مخالفة الموحدين ، فدعا إلى نفسه (ابن حسّون) . وهكذا كان جزاء ابن حمدين ميّتا من قبل الموحدين عندما استولوا على مالقة ، أن «نبشوا لحده (بقبلي مسجد مالقة) ، وصلبوه» سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م ، وإنْ ظل بحاله لم يتغير بعد ، بعد عشرين سنة من وفاته (١٢٩) -

---

(١٢٧) أعمال الأعلام ، ص ٢٥٠-٢٥١ .

(١٢٨) أعمال الأعلام ، ٢٥٤ .

(١٢٩) أعمال الأعلام ، ص ٢٥٤ .

فكأنها كرامة من قاضى قرطبة العتيد ، تخفف من وقع ثورته أو انتهازيته.

ابن حسون صاحب مالقة :

وبعد ١٠ (عشرة) أشهر من وفاة ابن حمدين بمالقة ، كانت النهاية المأساوية المذهلة لصنيعته ابن حسون صاحب مالقة الذى دعا إلى نفسه بقاعدة الأسطول العتيدة بعد أن أنزل الحامية المرابطية من قصبتها ، وانتقل إليها - كمدينته الملكية - حيث «تسمى بالأمير ، وأقام (بها) سالكا طريقة : القضاء مع الإمارة» - مع تعيين أخيه قائداً للجيش . والمهم هنا هو أن إلحاح المرابطين المقيمين بانتقيره عليه جعله يستدعى الروم (الإسبان) - كما هى العادة - نظير دفع المال السنوى . وكان من الطبيعى أن تضج الرعية من الإلحاح على طلب المزيد من المال ، حتى شرعوا فى التدبير عليه مع بعض خدامه ، كما قتلوا أخاه (القائد) أبا الحسن فكانت نهايته المأساوية التعسة (١٣٠).

وفى مقابل روايات ابن الخطيب المجموعة فى ترجمة يحيى بن غانية ، والمتفرقة فى تراجم أعلام تلك الفترة من عصر طوائف الثوار على أواخر أيام المرابطين ، يتميز معاصره ابن خلدون وصديقه ، فى عبره ، برواية مركزه تعطى معلومات دسمة فى شكل خريطة تاريخية طبوغرافية واضحة التفاصيل - بصرف النظر عما يعتورها فى بعض المواضع من الانحراف عن المسار الزمنى.

---

(١٣٠) فلقد عزّ على القاضي الأمير أن تلحق به تلك الإهانة ، وخشى أن يبالغ أعداؤه فى الانتقام منه ، فحاول قتل بناته غيرة عليهن ، فامتنعن منه فى الغرف ، فأطلق النار فى كتبه وذخيرته ، ولما شرب السم فلم يفعل شيئاً، «فذلق رمحا وتحامل على سنانه إلى أن خرج من ظهره ، ولم يجهز عليه»ودخل القصر ، فوجد مشحطاً فى دمه يجود بنفسه ، ثم مات ليومين (السبت ١١ ربيع الأول سنة ٥٤٧هـ/ ١٧يوليه ١١٥٢م) - وصلبت جثته بعد فصل رأسه الذى حمل إلى العاصمة مراكش. وهكذا ، تمّ ماكان القاضى ابن حسّون يخشاه من الفضيحة والعار، وذلك أنه عندما استولى الموحدون على مالقة ، بعده «وبيع بناته وأهله، وتسرى بعضهن جلة من أهل الدولة- ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص٢٥٥ .

بداية التدخل الموحدى فى الأندلس :

وتبدأ رواية فتح الأندلس وشئونها ، هذه ، بخروج قائد الأسطول على بن عيسى بن ميمون علي طاعة لمتونة ، وعبوره من قادس ، ومن ثم اللحاق بعبد المؤمن ، وهو يحاصر مدينة فاس ، والخطبة له بجامع فاس ، وهى التى اعتبرت كأول خطبة للموحدين بالأندلس سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م (١٣١) . وتلتها دعوة من سدراى بن وزير صاحب الغرب : بطليوس وباجة ، الذى سار بمداخلة على بن عيسى ، صاحب الأسطول ، إلى سبتة ، من حيث جهز للحاق بعبد المؤمن لترغيبه فى ملك الأندلس ، وإغرائه بالملثمين ؛ وحسب رواية ابن خلدون هذه ، يكون ابن وزير أول من أغرى عبد المؤمن بالأندلس ، وأنه بعث معه عساكر الموحدين بقيادة بّراز بن محمد المسوفى ، كما عقد له على حروب من بالأندلس من كل من : لمتونة والثوار . واتبع عبد المؤمن هذه الحملة الأولى بحملتين تاليتين بقيادة كل من : موسى بن سعيد ، وعمر بن صالح الصنهاجى ، فكأن غزاة الموحدين الأوائل في الأندلس كانوا من المرابطين أصلاً ، الأمر الذى يعنى تدرجا عاديا فى مسار الأحداث بالأندلس ، وليس انقلابا ثوريا ، كما قد يظن.

وكان نزول العسكر الموحدى هذا بقاعدة شريش حيث الثائر: الغمر بن (عزّون). ومن هناك قصدوا لبلة حيث يوسف بن أحمد البطروجي الذى أعلن الطاعة، ثم ساروا إلى ميرتلّه حيث دخل ابن قسِّى فى الطاعة، ثم فتحوا شلب وأمكنوا منها ابن قسى، ومن ثم نهضوا الى بطليوس وباجة، قلب منطقة الغرب، حيث كان سيدراى بن وزير. وبعد انصرام الشتاء وتحسن الأحوال الجوية كان الخروج إلى حرب اشبيلية حيث تم الاستيلاء على منطقة طلياطة بإقليم الشرف الغربى، وحصن القصر.

والمهم أن سائر الثوار اشتركوا فى حصار اشبيلية براً وبحراً إلى أن فتحوها فى شعبان ٥٤١هـ/ يناير -فبراير ١١٤٧م . ولقد فر الملثمون منها إلي قرمونة ، وقتل من تمّ ادراكه منهم ، «وأتى القتل على عبد الله بن القاضى أبى بكر بن العربى فى

(١٣١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ص٢٣٣ .

هيعة تلك الدخلة - من غير قصد» (١٣٢).

وكتب زعماء اشبيلية بالفتح إلى عبد المؤمن ، وكان على رأس وفدهم إلى مراكش القاضى ابن العربى ، فتقبل طاعتهم وصرفهم بالجوائز والإقطاعات لجميع أعضاء الوفد ، وذلك فى سنة ٥٤٢هـ/ ٤٨ - ١١٤٧م . وفى الطريق توفى القاضى أبو بكر بن العربى ، وتمّ دفنه بمقبرة فاس (١٣٣).

رد الفعل المضاد للوجود الموحدى بالأندلس ومسئولية أخوى المهدى ابن تومرت

لم يمض قليل وقت على فتح الموحدين لاشبيلية بمؤازرة من دخل فى التوحيد من زعماء المرابطين ، وبناء على دعوات الثوار من: مريدين وقضاة ، حتى انقلبت الآية رأسا على عقب ، وذلك بعودة أولئك الحلفاء الجدد إلى سيرتهم السابقة ، وهو الأمر المفهوم ، من حيث كان ثوار الأندلس يعملون على تحقيق مآربهم الأنانية العاجلة . وكان ذلك يتم عن طريق التحالف مع الموحدين بصفتهم سنداً ضد المنافسين لهم من الإخوة الأعداء ، أو من وراءهم من الملوك الإسبان ، سواء فى: قشتالة فى الوسط أو فى البرتغال غربا أو فى برشلونة وأرجون شمالا بشرق ، فكان أولئك وهؤلاء بمثابة الصنجة التى ترجح كفة الميزان - عند الرغبة الآنية - وحيث يتحقق توازن

---

(١٣٢) العبر ، ج ٦ ص ٢٣٤ .

(١٣٣) العبر ، ج ٦ ص ٢٣٤ ، وانظر روض القرطاس ، ص ١٩٠-حيث النص فى أحداث سنة ٥٤٢هـ/ ٩-١١٤٨م -حيث النص على وصول وفد أهل أشبيلية على أمير المؤمنين عبد المؤمن فوجدوه مشغولا بقتال الماسى ، فأقاموا عنده نحو سنة ونصف لم يروه حتى لقوه بالمصلى في يوم عيد الأضحى ، وفيهم القاضى أبو بكر بن العربى ، فسلموا سلام جماعة ثم بعد ذلك دخلوا عليه فسلموا وقبلت بيعتهم . وبعد سؤال ابن عربى عن لقائه بمحمد ابن تومرت لدى الغزالى ، صرف الوفود إلى إشبيلية ، وكتب لهم منشورا بتحرير أملاكهم ، فانصرفوا عنه فى جمادى الثانى سنة ٥٤٣هـ / نوفمبر ١١٤٨م.

التعايش الهش بين الجميع.

والأمر المستجد في اشبيلية الحديثة العهد بالتوحيد هو الضجة التي ثارت فيها بعد برهة وجيزة ، والتي نسبت إلى أخوى المهدى: عبد العزيز وعيسى، وهو الأمر المستغرب حقا، من حيث الزمان، بعد حوالى عشرين عاما من وفاة «الإمام المعلوم، المهدى المعصوم» ، ومن إسدال الستار على مشكلة الخلافة أو الخليفة، ومن حيث المكان، بعيداً فيما وراء العدوة، في بلاد الأندلس. والمهم هنا هو ظهور كل من عبد العزيز وعيسي أخوي المهدي ، فجأة ودون سابق انذار أو مقدمات.

فالروايات الخاصة بمحمد ابن تومرت عندما كان صغيراً ، يعرف باسم (الدلع) «أسفو» (ضياء) ، لاتعرفنا بأخوة صغار له عندما كان يغادر ، في سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م دارهم في السوس نحو الأندلس والمشرق. والروايات التي تتكلم عن والده بعد ذلك تتكلم عن اشتياق الأسرة الى رؤيته وخاصة الوالد الشيخ (أمغار) «تومرت» (عبد الله) ، الأمر الذى يعنى أن عبد العزيز وعيسي كانا طفلين صغيرين ، لادراية لهما بما كان يدور حولهما من أمور السياسة والدين ، إلا إذا كانا أخوين غير شقيقين من الأم مثلا ، وهذا ما لاتشير إليه المصادر حتي مطلع العقد الخامس من قرننا السادس هذا (١٢م). ويرجح اقتراحنا هذا ما عرفناه فيما بعد من أن عبد المؤمن كان له أخت ، اسمها فندة أو بندة ، والتى زوجها للشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى ، وان انتهى ذلك الزواج بالانفصال حسب رغبة الأميرة . وكذلك ماعرفناه من بعد من صلة القرابة بين عبد المؤمن ووزيره عبد السلام الكومى الذى كان أخا غير شقيق لاخت عبد المؤمن عن طريق الأم (١٣٤).

والرواية الخاصة بحملة اشبيلية تنص على أن عبد العزيز وعيسى أخوى المهدى

---

(١٣٤) أنظر ما بعد ص ٥٠٨، وهـ ١٧٠، ص ٥١٩ وهـ ١٨٩ . وعن أخوى المهدى وصفاتهما الخلقية والخلقيه انظر رسائل موحدية ، مجموعة بروفنسال ، الرسالة رقم ١١ ص ٣٨ ومابعدها حيث تفسير شقاوتهم بجنون الشباب أولاً (ص٣٩)، واستمرار ذلك مع ارتفاع أسنانهم إلى أطوار الكهولة عندما «خلت هـ ـهـ وأبدانهم أنهم في حد أولى الفهم والعقول» دون جدوى (ص٤٠).

كانا من مشيخة (أي رؤساء) العسكر الموحدى باشبيلية . وتذهب الرواية مباشرة ودون مقدمات الى أنه «ساء أثرهما بالبلد ، واستطالت أيديهما على أهله»، بل وأكثر من هذا أنهما وأصحابها «استباحوا الدماء والأموال ..»، ثم «اعتزما على الفتك بيوسف البطروجي صاحب لبلة» (١٣٥). وترتب على ذلك أن البطروجي «ترك العسكر الموحدى فى اشبيلية ، وعاد برجاله إلى بلده ، حيث أخرج الموحدين منها ، وحول الدعوة عنهم» (١٣٦).

وتبين بقية الرواية أن يوسف البطروجي بعدما عاد إلى لبلة اتصل بالمرابطين فى منطقة طلياطة وحصن القصر ، بشرف اشبيلة الغربى ، معلنا اعترافه بالسلطة المرابطية ، وشملها وقتئذ يحيى بن غانية . وتبع ذلك الانفصام عن الموحدين ، وخروج احمد بن قسى ، شيخ المريدين ، بدوره عما كان أعلنه لعبد المؤمن من الطاعة . وكذلك كان الأمر بالنسبة لقائد الأسطول المرابطى فى قادس ، وهو على بن عيسى بن ميمون الذى ارتد عن الدعوة المؤمنية.

هذا ، وانضم إلى جانب المرتدين عن خلافة عبد المؤمن : محمد بن الحجام صاحب بطليوس ، ثانية مدن الغرب بعد باجة . هذا ، ولما كان يحيى بن غانية قد استولى على الجزيرة الخضراء ، كما كان أهل سبتة قد انتفضوا بمعرفة قاضيهم عياض ، يكون المضيق قد انغلق أمام القوات الموحدية أو كاد . وذلك أنه لم يبق على طاعة عبد المؤمن سوى ابو الغمرين عزون بمدينة شريش ورندة وجهاتهما (١٣٧).

(١٣٥) انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٤ ، وقارن الرسائل موحدية ، الرسالة رقم ١١ ص ٣٩-٤٠حيث وصف أخوى المهدى وأصحابهما بأنهم «أغمان لايفهمون ، وسوائب لايقفون عند حد ولاينتهون ... وهمل يريدون التصرف فى المنكرات بما يشاؤن ويشتهون ، دأبهم استخلاص الفسقة، واستصحاب الخونة من حثالة الناس والسرقة». وهذا إلى جانب القول: «ومع ماكان الأمر يتوسع لهم من الارزاق المنعمة والخيرات المتممّة والمنازل المكرمة ، والخيل المسومة ، فلم يكن مستطابهم إلا غلولاً يحترقون بناره ، ويتطرقون بعاره».

(١٣٦) ابن خلدون، العبر ، ج٦ ص ٢٣٤ .

(١٣٧) ابن خلدون ، ج ٦ص ٢٣٤ .

وهكذا انحصر الموحدون فى اشبيلية وسط بحر الثوار من الاندلسيين المرتدين عن الدعوة ، واضطر أخوا المهدى : عبد العزيز وعيسى ويصحبتهما ابن عمهما يصلاتين الى الخروج بمن كان بصحبتهم من عساكر الموحدين الى خارج اشبيلية ، ولحقوا بجبال بستر؟ القريبة ، حيث لحق بهم صاحب شريش : ابو الغمر بن عزون . وتم التخطيط بينهم لفك الحصار عن المجاز ، باستعادة الجزيرة الخضراء من ايدى اللمتونيين ، ونجحوا فعلا بافتتاحها ، وقتل حاميتها المرابطية.

وهكذا انفتح الطريق - عبر المجاز - إلى المغرب ، أمام الموحدين بشكل عام ، وأمام المغضوب عليهم من جانب الأندلسيين ، وهم جماعة يصلاتين وأخوى المهدى ، الذين عبروا العدوة.

والحقيقة إن الجماعة التومرتية المنشقة كان لها نشاطها المسئ للدولة فى كل من سبتة حيث أثاروا أهلها ، وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة فاس ، العاصمة المغربية العتيدة . فذلك ما يفهم من رواية ابن عذارى التى تعانى من بعض الخروم*، من أنه بعد أن استقر عبد العزيز وعيسى وأصحابهما لبعض الوقت في فاس ، أثناء تلك الفتنة التى «أشعلت نار الحسد في نفوسهم ، وكستهم ثياب الحقد عوضا عن لبوسهم ، مع ما كانوا طبعوا عليه من سوء الاعتقاد ، وكأس الأحقاد» . وهكذا «شدوا فى الحين ليلاً ونهاراً الى مراكش ، لينتقضوا ما عقده الله فى محله ، وأمّله لأهله» (١٣٨) وحتى لحقوا بحضرة مراكش فعلا حسب رواية ابن خلدون (١٣٩).

---

* (الموحدون ، ص٢٧)

(١٣٨) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٢٨ .

(١٣٩) العبر ، ج ٦ ص ٢٣٤ ، وقارن رسائل موحدية، الرسالة رقم ١١ص ٤٢ - ٤٣ - حيث النص علي أنه «فلما كانت غزوة فتح بجاية وسائر تلك البلاد لشرقية (سنة٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) ... ثارت كوامن حسدهم وسلكوا فى التحريب والتخريب مسلكا لايشك فيه ولايراب .. فنظر بعون الله فى إطفاء نورهم قبل اشتعالها ... وحز رؤوس الفتنة عند صراخها ، واقتضى الأمر الابقاء والإملاء فى الشقيين ... وتأخيرهما بقدر الله عن ذلك المهلك ، فأقاما بهذه الحضرة (فاس) - حرسها الله - فى قيد الغفلة، وفترة المهلة.

وال موحدى جديد لاشبيلية :

وبعث عبد المؤمن واليا جديدا على إشبيلية ، هو : يوسف بن سليمان ، ومعه عسكر من الموحدين ، وأبقى برّاز بن محمد على الجباية . وبعد أن تسلّم يوسف بن سليمان ولايته باشبيلية ، خرج يتعقب المرتدين والثوار وبقايا اللمتونيين ، فدوّخ أعمال يوسف البطروجى بلبلة وطلياطة من أعمال الشرف الغربى ، وكذلك الأمر بالنسبة لعمل ابن قسى بشلب .

هذا ، كما أغار يوسف (بن سليمان) على جبيرة ، كما أخضع عيسي بن ميمون صاحب شنتمرية ، والذى شاركهم الغزو بنفسه على رأس رجاله . هذا ، كما خضع للموحدين محمد بن الحاج ، صاحب بطليوس ، الذى أرسل لهم «بهداياه فتقبلت ، ورعيت له» . ورجع يوسف بن سليمان إلى إشبيلية والغرب جميعا (١٤٠).

الصراع من أجل قرطبة :

واذا كان ابن خلدون يسقط من روايته دور ابن حمدين قاضى قرطبة «الخليفة» وكيف لجأ إلى الاستنجاد بملك قشتالة ، بل ومكنه من دخول قرطبة واستباحة مقدساتها ، الأمر الذي كان ينذر بنهاية تعسة لعاصمة الخلافة العتيدة قبل أوانها ، لولا ظهور الموحدين واستيلاؤهم على إشبيلية ، الأمر الذي سمح بعقد الهدنة بين أمير المرابطين يحيى بن غانية والملك القشتالى تظبير أن يدفع المرابطى الجزية السنوية (ما بعد ، ص٤٨٩) ، فإنه يقدم الرواية التى تقرر بداية الوحشة بين الطاغية الرومى الذى استغلظ على يحيى بن على بن غانية بقرطبة ، وألح على جهاته حتى نزل على بياسة ورندة (١٤١) ، وطالب ابن غانية بالزيادة فى جزيته أو

---

(١٤٠) ابن خلدون ، ج٦ ص ٢٣٥ .

(١٤١) ابن خلدون ، ج٦ص ٢٣٥-حيث تكملة النص المضطرب : وتغلب على الأشبونة (بالبرتغال) وطرطوشة ولاردة وأفراغة وشنتمرية ، وغيرها من حصون الأندلس - وهذه من اقليم الشرق والثغر.

الإفراج له عن قرطبة (١٤٢) . وأمام هذا التهديد بأخذ قرطبة رأى يحيى بن غانية أن يراسل بَراز بن محمد (المسوفى) ، وتمَّ اللقاء بينهما فى أستجة ، وانتهت المفاوضات بين الرجلين بأن ضَمِنَ براز لابن غانية إمداد الخليفة عبد المؤمن ، على أن يتخلي للموحدين عن قرطبة وقرمونة.

ابن غانية يتخذ جانب الموحدين:

وهكذا غدر ابن غانية بأقماطه (كونتاته) الحلفاء ، وطردهم من قلعة ابن سعيد. هذا ، كما أفرج الملك القشتالي عن جيان ، بينما لحق يحيى بن غانية بغرناطة ، حيث كان بها ميمون بن يَدر اللمتونى في جماعة من المرابطين ، وهم يعلنون الطاعة للموحدين . وهناك كانت وفاة يحيى بن غانية فى (أواخر) شعبان سنة ٥٤٣هـ/ يناير ١١٤٩م (١٤٣).

وانتهز ملك قشتالة (الفونسو الـ ٧) فرصة فى قرطبة فزحف إليها ، وعندئذ أخرج الموحدون باشبيلية القائد أبا الغمر بن عزون للدفاع عنها ، كما خرج اليها من لبلة يوسف البطروجى الذى كان فى طاعة الموحدين . وعندما بلغ عبد المؤمن الخبر بعث إليها عسكراً من الموحدين تحت قيادة يحيى بن يغمور . وعندما وصلت نجدة ابن يغمور إلى قرطبة اضطر العدو القشتالى إلى الإفراج عنها ، وفكّ الحصار - بعد أيام قليلة . وعقب ذلك بادر الثوار إلى ابن يغمور يطلبون منه الوساطة فى طلب الأمان من عبد المؤمن . وقام يحيى بن يغمور بترتيب زيارتهم إلى مراكش ،

---

(١٤٢) قرطبة (ابن خلدون ، ج٦ص٢٣٥ .

(١٤٣) كتاب العبر، ج٦ ص ٢٣٥ - حيث ينص ابن خلدون ، على أن قبر يحيى بن غانية بها (غرناطة) معروف لهذا العهد فى أواخر القرن الثامن هـ / ١٤م ، وانظر روض القرطاس ، ص ١٩١ - سنة ٥٤٣هـ/ آخر ١١٤٨م حيث فتح قرطبة التى ملكها الموحدون بمبادرة من واليها يحيي بن على ابن غانية الذي خرج منها إلى غرناطة ليكلم عاملها اللمتونى فى تمكينها للموحدين ، إذ كان هو قد مكنه من قرطبة وقرمونة ، فتوفى بغرناطة يوم ٢٤ شعبان سنة ٥٤٣هـ/ ٩ يناير ١١٤٩م ، ودفن فى القصبة بازاء قبر باديس بن حبوس وقارن ما سبق ٤٧٨ وهـ ١٢٦ .

فساروا إلى هناك ، حيث استقبلهم الخليفة وصفح عنهم . وفى نفس سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م ملك عبد المؤمن مدينة جيّان وخطب له فيها (١٤٤).

لقاء كبير مع أهل الاندلس فى سلا سنة ٥٤٥هـ/ ١-١١٥٠ :

وهكذا كانت وفود الأندلس تترى للقاء الخليفة عبد المؤمن فى مراكش العاصمة ، تمهيداً للقاء كبير يتم بينه وبينهم فى رباط سلا ، القريب من العدوة . ففى سنة ٥٤٥هـ/ ١-١١٥٠م نهض عبد المؤمن إلى مدينة سلا (١٤٥).

وهناك بدأ الاعمال الأولية التي ستمهد لقيام مدينة رباط الفتح فى تلك المنطقة من مدينة سلا أو شلّة القديمة . وكانت أول الأعمال التى بدأ بها عبد المؤمن هناك ، هو إمداد المنطقة بالماء الجارى ، الذى أخذ من عين غبولة حتى وصل إلى قرب سلا في المنطقة التى حددّت لبناء رباط جديد - لجهاد برغواطة وليس للجهاد فى الأندلس (١٤٦).

ومن هناك استدعى أهل الاندلس ، فوفدوا عليه وبايعوه جميعا بالخلافة . وفى تلك البيعة العامة تعهد الثوار من الزعماء الأندلسيين بالانخلاع من الأمر . وهناك تعدد الرواية الخلدونية من هؤلاء الأمراء :

- سيد رأى بن وزير صاحب باجه ويابره .
- يوسف البطروجى صاحب لبلة .
- أبو الغمر بن عزون صاحب شريش ورندة.
- (محمد) بن الحجام صاحب بطليوس.
- عامل بن مهيب صاحب طلبيرة.

---

(١٤٤) روض القرطاس ، ص ١٩١ .

(١٤٥) ابن خلدون . ج ٦ ص ٢٣٠ .

(١٤٦) روض القرطاس ، ص ١٩٢ ، (سنة ٥٤٥) .

وتنص الرواية بعد ذلك على تخلف ابن قسى وأصحابه من أهل شلب عن حضور هذا الجمع ، فكان ذلك سببا لقتله فيما بعد.

ومن المهم الإشارة إلى أن وفد أمراء الأندلس هؤلاء كان يصحبهم من رجال الحاشية «نحو من ٥٠٠ (خمسمائة) «فارس» ، من: الخطباء والفقهاء والقضاة والأشياخ والقواد » وكان فى استقبالهم ، على مسافة ميلين ، ٣ (ثلاثة) من كبار رجال الدولة ممن يحملون لقب الوزير ، حسب رواية القرطاس ، وهم : أبو ابراهيم (سليمان بن ايجيج) وأبو حفص (عمر الهنتاتى؟) و(أبو جعفر) أحمد بن عطية الذى يصفه النص أيضا ، بالفقيه الكاتب - فكأنه الوزير الحقيقي ، باعتبار الشيخين الكبيرين الآخرين وزيري شرف - على ماترى (١٤٧) .

وبعد ضيافة فاخرة لمدة ٣ (ثلاثة) أيام ، «أنزلوهم (فيها) خير نزول» وأدخولهم على الخليفة عبد المؤمن ، وذلك فى يوم الجمعة من أول شهر المحرم لسنة ٥٤٦هـ/ ٢٠ أبريل سنة ١١٥١م حيث بدأ مهرجان الخطابة والشعر بتلك المناسبة التاريخية التى انعقد فيها رباط «التوحيد» بين العدوتين (١٤٨).

وعندما رجع عبد المؤمن إلى مراكش ، وصرف أهل الأندلس ، استبقي هؤلاء الزعماء الثوار واستصحبهم معه إلى مراكش ، فلم يزالوا هناك بحضرته ، إلى ماشاء الله (١٤٩).

مابين فتح افريقية وضبط الاندلس :

والمهم هنا هو أن عبد المؤمن انشغل فى وقت واحد بكل من الأندلس المهددة من العدوين : الداخلى الممثل فى الثوار ، والخارجى الممثل في الطغاة (أعداء الإسلام)، ومع أنه كان قد قرر البدء بتوحيد التراب المغربى فى افريقية (الجزائرية -

(١٤٧) انظر روض القرطاس ، ص ١٩٢ .

(١٤٨) انظر روض القرطاس ، ص ١٩٢ .

(١٤٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٥ .

التونسية) ، الا أنه ظل حريصا على التمسك بأهداب الأندلس - وكأنه يولى الجهاد الحقيقى هناك أهميته الأولى - وهو الأمر المقبول.

وهكذا بدأ عبد المؤمن حملته الافريقية سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م بالخروج من مراكش إلي سبتة ، وكأنه يقصد المجاز ، كما فعل فى السنة السابقة (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) . وأثناء مقامه فى سبتة كان يموه فيسأل عن أحوال الأندلس ، لكى يدخل الجزائر بعد ذلك على حين غفلة حتى لايعرف مقصده(ماسبق ،ص١).

غارة على المرية المحتلة:

والمهم أنه اذا كان عبد المؤمن يوجه كل قواه البرية إلى المغرب الأوسط فإنه كان يستعين بالمتعاطفين معه من الأندلسيين والمرابطين ، كما كان الحال بالنسبة ليحيى بن غانية الذى كان يرسل إليه رسالة رسمية من إنشاء الوزير ابن عطية ، يطلب منه فيها الدخول صراحة فى طاعته ، مما سبقت الإشارة إليه (ماسبق ، ص٤٧٧) ، فإنه كان يشجع رجال الأسطول الأندلسيين بصفة خاصة ، على الانضمام إلى الموحدين ، الأمر الذى كان يساعد على مواجهة القوى البحرية المعادية ، سواء كانت مرابطية أو أسبانية فرنجية ، كما كان الحال فى المرية التى كانت مستعمرة فرنجية . إسبانية منذ سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م.

وهنا يرجع الفضل إلى أحدي الرسائل الموحدية التى اكتشفها الأستاذ «أ.ليفى - بروفنسال ، وهى الرسالة الخامسة - الموجهة الى طلبة سبتة - والتى تقدم معلومات تفصيلية دقيقة عن غارة قامت بها وحدة من الأسطول الموحدى الناشئ ، بقيادة «الطالب» : أبى محمد عبد الله بن سليمان ، والى غمارة وسبتة وقتئذ ، وبمعونة رجال أسطول سبتة ، وذلك فى سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م ، ضد مرفأ المرية . فلقد اجتاز الغزاة بكل من مرفأى : مالقة والمنكب . فلما رأوا من أهلهما الامتناع والاستعداد للدفاع ، قصدوا المرية ، وصبحوها بكرة باكرة ، فوجدوا أهلها قد استعدوا لهم ، وذلك بتسليح مراكب البضائع التى لم يكونوا قد استطاعوا تفريغ حمولتها.

وعندئذ لجأ الموحدون إلى قطع الحبال التى كانت تربط تلك المراكب المعروفة بالشخاتير ، بالبر ، وبدأوا فى سحبها . وعندئذ «لم يجد أعداء الله غياثا إلا بالمبادرة الى الترامى فى الماء ... فاقتفى الموحدون آثارهم بالقتل . وهكذا تمكن الموحدون من دخول باب المدينة آمنين وبعد جولة اخترقوا فيها شوارع المدينة وطرقوا «منشآت الكافرين» حتى وصلوا إلى قرب المسجد الجامع ، «فأخذوا على بركة الله فى الانصراف إلى قطائعهم وأحتووا على ماكان بالمرسى من الغراب والشخاتير (مراكب الشحن) ، وحرقوا ما لم يمكنهم جلبه ... وغنموا من تلك الآلات الحربيات ما أتى الوصف على ذكره . هذا، مع الإشارة إلى ضرورة منع المسلمين من التعاون مع الأعداء فى المدينة والمتاجرة معهم (١٥٠).

تعيين أولاد عبد المؤمن عبد المؤمن على ولايات المغرب الاقصى والاوسط:

وبعد فتح إفريقية واخضاع عربها عاد عبد المؤمن إلى مراكش فى السنة التالية ٥٤٧هـ/١١٥٢م ، لكى يوطد ضبطه لافريقية عن طريق تعيين أولاده ولاة لعواصم البلاد ، وتزويدهم بالمستشارين من الوزراء الحكماء والقواد الكفاة . على الوجه الآتى :

- **فاس :** وعقد عليها لابنه السيد/ أبى الحسن ، على ، واستوزر له : يوسف بن سليمان .
- **تلسمان :** وعقد عليها لابنه السيد/ أبى حفص (عمر) ، واستوزر له أبا

---

(١٥٠) انظر بروفنسال ، رسائل موحدية ، الرباط ، ١٩٤١ ، ص ١٠-١٣، والدراسة (بالفرنسية) -مكتبة لاروز، باريس ، ١٩٤٢، ص ٢٥-٢٦ ، وقارن روض القرطاس الذى يحدد سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م ، ولكنه يخلط ذلك مع حملة استرجاع المرية سنة ١١٥٢م، وانظر ابن الاثير الذى يحدد سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م ... وان جعل العنوان حصر غرناطة والمرية ، وانظر دارسة بروفنسال الذى يحدد التاريخ مابين ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م و ٥٤٦هـ/ ١١٥١م .

محمد بن وانودين.

- سبتة : وعقد عليها لابنه السيد/أبى سعيد (عثمان) ، واستوزر له : محمد بن سليمان.

- بجاية : وعقد عليها لابنه السيد/ ابى محمد عبد الله ، واستوزر له : يخلف بن الحسين (١٥١).

ولاية العهد:

هذا ، كما قرر عبد المؤمن أن يتخذ من أسن أولاده ، وهو الأمير : السيد أبى عبد الله محمد ، وليا لعهده ، بمعني أستقرار أمور الدولة الموحدية ، باستكمال أحكامها السلطانية ، بما يعني قواعدها الدستورية أي الديوانية ، كما يقال الآن.

بنو أمغار أخوا المهدى والموقف من التعيينات الإدارية :

ومن المهم هنا بيان أن استكمال الدولة الموحدية المؤمنية لدواوينها ، من تنظيم إدارة الولايات عن طريق تعيين السادة الأمراء من بنى عبد المؤمن ، ومن ثم منصب ولى العهد (الذى كانت له ولاية الأندلس على عهد المرابطين) والذى آل الى أكبرهم سنا ، وهو السيد/ أبى عبد الله محمد بن عبد المؤمن ، كان سببا فى نكء بعض الجروح المندملة بالنسبة لآل المهدى ابن تومرت ، من: الأخوة وحتى أبناء العَم . فلقد أدت تلك التعيينات أو الأجراءات النظامية الخاصة بإقرار قواعد الدولة الموحدية المؤمنية ، إلي تغيرّ ضمائر أخوي المهدى ، وهما : عبد العزيز وعيسى ، اللذين كانا قد خرجا من الأندلس بعد إثارة الكثير من المتاعب فى اشبيلية وأعمالها حتى أجبرا - على مضض - على الخروج منها ، بل الجواز - بصعوبة - إلى العدوة المغربية. ورغم ماتقوله الروايات الخاصة بأخوي المهدى - بشكل عام - من أنهما جازا مع قريبيهما يصلاتين ، الى مراكش ، الا أنه من المعروف - وثائقيا - أنهما أجبرا

---

(١٥١) ابن خلدون ، ج٦ ص ٢٣٦ .

على الإقامة القسرية فى فاس لبعض الوقت قبل أن يفرّا إلى حضرة مراكش ، مضمرين الغدر بها .

اللحاق بمراكش وقتل الوالى :

واذا كانت الروايات الخاصة بأخوى المهدى تبدو مبتسرة فى كثير من المصادر ، فإنه يرجع الفضل إلى رواية البيدق فى تقديم تفصيلات الغدر بحضرة مراكش - وهو الأمر الذى توثقه رسالة موحدية ، هى الـ ١١ (الحادية عشرة) من مجموع بروفنسال - وهى مؤرخة بما بعد فتح بجاية سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م . فلقد هرب بنو أمغار من فاس إلى مراكش ، وأخبر والى فاس : الجيّانى (أبو محمد عبد الله بن خيار) الخليفة عبد المؤمن بمنزله من سلابهرويهم من فاس إلى مراكش . وهناك نزلوا ببستانهم (بحيرتهم) بباب الدباغين ، من حيث وجهوا الى أخوتهم المنافقين فخرجوا إليهم . وفى وقت السحر قصدوا المسجد حيث اعترضوا نائب الخليفة على مراكش ، وهو القائد : عمر بن تفراجين ، وطلبوا منه مفاتيح الأبواب ، فلما امتنع قتلوه.

وقام أهل المدينة على صريخ استغاثة مؤذن المسجد من أعلى الصومعة ، وحصروا الثوار داخل الأسوار ، ونجحوا فى قتل عبيدهم ، ومن ثم قتل عبد العزيز عند باب الدباغين ، وقتل عيسى عند باب أغمات هيلانة ، هذا كما قتل كاتبهم (وزيرهم) عند باب أغمات وريكة ، وأخذ منه الخرج الذى كانت فيهم دواوينهم وكتبهم وقامت العامة بعد ذلك بصلبهم أعلى باب الشريعة.

هذا ، وكان عبد المؤمن قد أرسل وزيره الشهير أبو جعفر أحمد بن عطية ليسبقه إلى مراكش قبل أن يستشرى الأمر. وعندما وصل عبد المؤمن ووقف على حجم المؤامرة الكبيرة ، عن طريق قراءة أسماء المشاركين المسجلة فى الكتب ، بدأ مطاردة المتآمرين وإنزال العقوبات الرادعة بهم ، فكانت بداية لعملية تمييز جديدة أو تفتيش(١٥٢).

التمييز أو التطهير:

والمهم بعد ذلك أن حركة أخوى المهدى التي عرفت بحركة بنى أمغار أى بنى الشيخ نسبة إلى تومرت والد المهدى ، تطلبت إجراء حركة تطهير - مما عرف

---

(١٥٢) انظر البيدق ، ١١٢-١١٣ ، وقارن الرسالة رقم ١١ مجموع الرسائل الموحدة، ص ٣٨ وما بعدها حيث : ... الأشقياء فلان وفلان وأصحابهما كانت نفوسهم الخبيثة نائمة على قذاها، ولم تزل بعد الإمام المعصوم، المهدى المعلوم - رضه - من أهل هذا الزمن يحملهم فى حجر الكفالة والكفاية ... ونأخذ بأيديهم وهم يخزون عى وجوههم... ونرى وصل أرحامهم التى قطعتها شقاوتهم من جملة ما يجب للمهدى - رضه - من الحفظ والرعاية ، وهم خلال ذلك أغمارلاً يفهمون ... وهمل يريدون التصرف فى المنكرات ما يشاؤون ويشتهون، دأبهم استخلاص الفسقة واستصحاب الخونة من حشالة الناس... ونحن نرجو ان شعب الجنون من شبابهم تسكن، ومستأنف الأحوال من قبيح أدابهم محسن ... وسابق الشقاء مع ذلك يستتبع المراجعة ... ويحمل أراءهم المنقومة وحوادثهم المذمومة .. حتى انتبذوا عن أمر المهدى... وكلما ارتفعت اسنانهم إلى أطوار الكهولة ... اجتيازهم شيطانهم إلى حضيض الجور والنكول، واقترن بهم من قرناء الرجس وشيطان الإنس.

ومع ما كان الأمر يتوسع لهم من الأرزاق المنعمة والخيرات المتممة والمنازل المكرمة والخيل المسومة فلم يكن مستطابهم إلا غلولاً يحترقون بناره ويتطوقون بعاره .. حتى تفاحش منكرهم ... فلما أشرف على دائهم الإعياء هجروا قصد التأديب .. ومع أنهن أظهروا التوبة إلا أنهم عادوا إلى الإنحراف .. ولم يجد هجرهم مرة بعد مرة إذ استمر تخبطهم فى مسالك العطب، ودعائهم للناس فى السرّ إلى اعتقاد مذهبهم .. على أستتار واحتجاب. والأشقياء المذكورون لا يرون الإحسان إحساناً .. وسموم الغلّ تمشى فى أعضائهم وتتدرج .. فلما كانت الغزوة التى فتحت فيها بجاية وسائر هذه البلاد المشرقية ... ثارت كوامن حسدهم تطرق وتنهاب... وسلكوا فى التحريب والتخريب مسلكاً لا يشك فيه ولا يرتاب ... وكان الهدف الشقى فلان عمرة كبرى... وأقام فى السجن إلى أن كان الإياب ... فنظر بعون الله فى أطفاء نورهم قبل اشتغالها ... وقتل فلان بنى فلان ،... وأخذت على الكفرة والفجرة مخارج الجهات، وتقبضت على الباقين منهم يد الأسر بعد الاثخان وشدّ الوثاق ... واقتضى الإبقاء والإملاء فى الشقيين الباقيين فلان وفلان وتأخذهما بقدر الله .. على تيقن من فسادهما .. وارتدادهما... (وأخيراً) أرسلا من عقال الاعتقال .. واختير لهما سكن فاس وأمرلهم بما =

بالتمييز في مثل تلك المناسبة . وفي ذلك تقول رواية ابن عذارى ، إن عبد المؤمن تتبع أصحاب الناكثين في العاصمة مراكش ، وأنه ألفاهم كُثر من كل قبيل ، وأنهم سجنوا بعد اقرارهم ، وأمر أبناء كل قبيلة يتولوا قتل إخوانهم بأيديهم. وتم ذلك في حضرة عبد المؤمن الذى جلس على الدرج فى أعلى قصر الحجر، واذا كانت ترتبت على تلك الفتنة آثار سلبية على جماعة الموحدين من السعاية بالفتنة والنميمة والوحشة ، فلم يلبث الجميع ان «تراموا على خليفتهم راغبين فى العفو وإزالة الكدر ، فقبل منهم ما أملوا وتعطف عليهم على عادته - بما سألوا : وسارت الكتب الى البلدان بتغافر الموحدين (١٥٣).

=يقوم بهم من المؤاسات والمحترث والجنات .. والافتتان ... وتسلل إليهم من أشقيائهم متكهن جرئ ... عند بيعة رباط الفتح ... اشتعلت لها نار الحسد بين ضلوعهم .. انتهاز الفرصة فى الحضرة ... اغتيال الشيخ أبى حفص عمر بن تفراجين عند خروجه إلى الجامع لصلاة الصبح ... وركبوا خيلهم إلى مصارعهم على أيدى العامة . وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٦ - حيث الإشارة أن أخوى المهدى عندما تغير ضمائرهما بسبب ولاية السادة الأبناء دونهما ، لحقا بمراكش مضمرين للغدر، وأنهم " أدخلوا بعض الأوغاد فى شأنهم . ومن ثم : انقضوا فجأة على قائد قصبة مراكش وهو عمر بن تفراكين وقتلوه، « بمكانه من القصبة». والمهم أن الخبر وصل إلى عبد المؤمن الذى أرسل وزيره أبا حفص أحمد بن عطية فى أثر عبد العزيز وعيسى اللذين قتلا مع من كان مشاركاً لهما فى تلك الجريمة.

أما عن رواية ابن عذارى فتنص على أن المتآمرين قتلوا وصلبوا ، وأن قتل عيسى كان قرب باب الدباغين، بينما كان قتل عبد العزيز بباب أغمات مع توضيح أن ذلك حدث بمعرفة الوزير ابن عطية، بينما كان الخليفة قافلاً فى إثره من سلا إلى مراكش، وإن أخبار الفتنة وصلته على أيدى "الرقاصين" من عمال البريد، وهو فى منتصف الطريق.

والمهم أن عبد المؤمن استكمل القضاء على دابر المتآمرين "بحكم السيف فى أولهم وآخرهم" ثم أنه أمر الوزير ابن عطية بكتابة الرسائل الخاصة بذلك الأمر إلي جميع البلدان (ابن عذارى، الموحدون، ص ٢٨).

(١٥٣)انظر ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٢٨-٢٩- حيث النص على أن الكتب كانت من إنشاء الكاتب الوزير ابن عطية ، وأنها مؤرخة لسنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م ، وقارن البيدق ، ص ١١٤- حيث سلخ عبد المؤمن السرقة وأمر بإخراج المتهمين من السجن ليقتلوا علي أيديهم .

استكمال فتح الأندلس:

وبعد الاطمئنان على أحوال كل من إفريقية والمغرب ، وماكان قد تمت الهيمنة عليه من بلاد الأندلس ، كان من الطبيعي استكمال فتوح الأندلس ، بمواصلة توجيه البعوث إليها . فلقد بلغ عبد المؤمن في سنة ٥٤٩هـ/ ٥-١١٥٤م أن والي إشبيلية، وهو يحيى بن يغمور كان قد انتقم من أهل لبلة فقتلهم جزاء لهم على موقفهم المتهاون من غدر الثائر الوهيبي لبلدتهم. وعندما تأكد من سوء تصرف ابن يغمور عزله عن ولايتي كل من اشبيلية وقرطبة وعين بدلا عنه أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن على التينملي على أشبيلية، وأبا زيد بن يجيت (يكيت) على قرطبة . وأكثر من هذا فقد أرسل عبد المؤمن القائد عبد الله بن سليمان إلى الأندلس ، فأتى بيحى بن يغمور معتقلا إلى حضرة مراكش حيث ألزم الإقامة الجبرية في منزله ، إلى أن فك أسره ، وبعثه مستشاراً مع ابنه السيد/ ابى حفص (عمر) إلى تلمسان(١٥٤).

وفي آخر سنة ٥٤٩هـ/ ٦فبراير ١١٥٥م هذه ، وصل ابن وزير إلى أمير المؤمنين، وأخبره بتسلط العدو ابن الرنك (ملك البرتغال) على الثغور ، وملازمته لهم بقطع زروعهم والإغارة عليهم في بسائطهم. فأمر عبد المؤمن بالكتابة إليهم يعدهم بالنصر ، ويعرفهم باستعداده لغزو اعدائهم ، وكذلك برفع الضرائب عنهم. وخاطب بذلك أهل باجة وأهل يابرة ، وذلك بتاريخ ٢٣ من المحرم سنة ٥٥٠هـ/ أبريل

---

(١٥٤) ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٢٣٦ ، وقارن ابن عذاري ، الموحدون ، ص ٢٩- حيث المزيد من التفصيلات عن الغدر بلبلة ليلاً وان بعض أهل لبلة لجأ إلى قصبة الموحدين فأمنوا من عادية الحادثة. وأبن يغمور انقذ الموقف بسرعة بدخول القصبة وهرب الشقي الوهيبي ، ومن ثم ظلمهم لأهل البلدة وقتلهم استبدادا برأيه الخسيس اللعين وبتحريض من ابي الغمر بن عزون – وذلك يوم الخميس ١٤ شعبان سنة ٥٤٩هـ/ ١١٢٥أكتوبر ١١٥٤م وكذلك الأمر عن اعتقال ابن يومور بمشاركة براز بن محمد واخذه يوم الفطر من عام ٥٤٩هـ/ ٩ ديسمبر ١١٥٤ م في قطعة بحرية.

١١٥٥م (١٥٥).

وبفضل تلك الاجراءات الصارمة استقامت أحوال الأندلس . وهكذا ، خرج ميمون بن يدّر اللمتونى عن غرناطة للموحدين فملكوها ، وأجاز إليها السيد/ أبو سعيد (عثمان) صاحب سبتة بعهد أبيه عبد المؤمن ، بينما لحق الملثمون منها إلى مراكش (١٥٦).

النشاط الحربي في اشبيلية وقرطبة :

ويخصص ابن عذارى فقرة خاصة بوصول التينمللى (أبو محمد عبد الله بن أبى حفص) ، وأبن ايجيت (أبو زيد عبد الرحمن) سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م إلى كل من إشبيلة وقرطبة ، حيث كان نهض ابن يجيت مع الموحدين من قرطبة لغزو حصن البطروج ومايليه من الحصون التى فيها الإسبان (النصارى) . وكانت حملة مظفرة تمت فيها هزيمة الكونت (القمط) صاحب بطروج ، ومن ثم استخلاص الحصن من بين براثنه ، بل وتم أسر صاحبه الكونت نفسه ، وسيّره خاضعاً إلى الحضرة مراكش.

وكانت فرصة عبرٌ فيها التينمللى والى اشبيلية عن سعادة بلدته بذلك النصر ، فأمر بضرب الطبول عليه سروراً ، كما استقبل أعيان أهل أشبيلية مهنئين ، الأمر الذي دعا أحد مشايخ الحضور الى لفت نظر والى أشبيلية الى أنه « لم تجر العادة بأن يحتفل أهل قرطبة بانتصارات أهل أشبيلية ، كناية عن حثه على العمل بدلاً من الاكتفاء بالتصفيق ، الأمر الذي تغير له لون أبى محمد المذكور ، وفهم ما أشار اليه (١٥٧).

وهكذا كان على والى إشبيلية أن يقوم هو الآخر بالمجهود الحربى الموازى لنشاط والى قرطبة ، وبدأ الترتيب لحملة الغزو الاشبيلية بالتفاوض مع براز صاحب المخزن

---

(١٥٥) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٠ .

(١٥٦) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٦ .

(١٥٧) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣١ .

المسئول عن الإدارة المالية ، والذى وافق على الجهاد . وبناء على ذلك تم الاتصال بصاحب بطليوس قاعدة الغرب ، وطلب إليه الاستعداد بالعسكر ، وأن يكون على الأهبة للتحرك وقت اللزوم . هذا ، كما انضمت الى عسكر اشبيلية طوائف كثير من المجاهدين المحتسبين (المريدين) الذين خرج بهم أبو محمد التينمللى الى بطليوس ، حيث تم اللقاء بعسكرها ، ثم كان الاتفاق على غزو بلاد ابن الرنك (الريق : ملك البرتغال).

وهكذا بدأ الإسراء ليلا ، عبر قنطرة السيف، إلى حصن أطرونكس (Trancoso) الذى كان نموذجا لحسن البنيان والحصانة فى المنطقة ، فتمت الإغارة على جهاته وجنباته . وتتلخص نتائج الحملة فى نهب المنطقة «حتى امتلأت أيدى المسلمين من نسائهم وأبنائهم ومواشيهم» ، «كما أبيح السيف فى رقاب رجالهم وتقبضوا على أموالهم». وكل ذلك فى البسائط قبل الوصول الى الحصن الذى صمد أمام الهجوم.

حمية فى الجهاد :

والمهم أنه عندما أتى أهل المناطق المجاورة من الإسبان لغوث أقاربهم وممتلكاتهم أصبحت الحرب سجالاً بين الطرفين ، وانتهت الحملة برجوع أبى محمد بعسكره إلى إشبيلية حيث قسم بنفسه عليهم الخمس من الفئ . والظاهر أنه قام نوع من التسابق فى جهاد الاسبان بين كل من رجلى إشبيلية وقرطبة ، تم التغلب فيها على بعض الحصون مثل حصني: منتورا (Montora) والمدور (Almo do'var del Rio) ، الأمر الذى أدّى الى استدعائهما إلى العاصمة مراكش لتقديم الحساب عن أعمالهما الجهادية فى منطقة الوسط (القلب) من الأندلس . وكان على المجاهدين : أبى محمد بن أبى حفص التينمللى ، وأبى زيد عبد الرحمن بن ايجيت ان يبايعا عبد المؤمن ، وان يعرفاه بما تم على أيديهما من الانجازت ، وخاصة الجهادية منها - إلى جانب رعاية أهل الأندلس ، والتأكيد على نصرة الخليفة لهم (١٥٨).

---

(١٥٨) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣١-٣٢ .

وكان من يمن الطالع بالنسبة لوالى اشبيلية وقرطبة أن اتت الأخبار تترى بتوحيد أهل غرناطة ، ومن ثم فتحها. ومن ثم توالت البشائر ، التى زادت بقبول عبد المؤمن طلب تشريف العاصمتين الأندلسيتين بسيد من الأبناء يشرف على أمور الحكم ، الأمر الذى توثق برغبة الشيخ أبى بكر بن الجد ، فصدرت الأوامر بتعيين السيد/ ابى يعقوب (يوسف) أميراً وقائداً لكل من اشبيلية وقرطبة (١٥٩) ، فكأنه البشارة بتقدمه بين السادة : الأبناء ، ومن ثم تقديمه إلى ولاية العهد ، كما يأتى فيما بعد (ص٥٤٣).

توحيد غرناطة :

أما عن أهل غرناطة ثالثة الأثافى ، بعد اشبيليية وقرطبة ، فعندما اتصل بصاحبها ميمون بن بدّر اللمتونى ماحققته كل من اشبيلية وقرطبة من فتوح فى أرض العدو ، فإنهم «جزعوا من انفرادهم وقلة أعدادهم ، فخاطبوا الحضرة راغبين فى الصلح نظير العفو عنهم ، فقبل منهم» . وأمر عبد المؤمن ابنه ابا سعيد (عثمان) والى سبتة ، وأمير البحر أبا محمد عبد الله بن سليمان بالإجابة ، فأجاز الأخير البحر إلى الجزيرة الخضراء ، ومنها نهض إلى غرناطة من حيث عاد بمن كان بها من الملثمين، آمنين في نفوسهم وأهليهم وأموالهم وبنيهم ، ووصلوا فى صحبته إلى الحضرة مراكش حيث أنعم عليهم بالديار والأموال ، وعاشوا فى الاستقرار . وبعد ذلك أضاف عبد المؤمن إلى ابنه السيد/ابى سعيد ولاية غرناطة إلى جانب ولاية سبتة ، فأجاز البحر إليها بجمع من الموحدين والجند المرتزقة ، وبادر إليه هناك عدد من الثوار المجاورين ، مثل: أبى مروان ابن سعيد وبنيه ، وأبى جعفر بن ملحان وغيرهم (١٦٠).

---

(١٥٩) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٢ .

(١٦٠) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٣ .

تحرير المرية سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م:

والمهم أنه بعد أن سيطر الموحدون على غرناطة كان عليهم أن يوجهوا أنظارهم نحو ميناء المرية ، قاعدة الأسطول وغزاة البحر الاندلسيين العتيدة ، من أجل تحريرها من نير الحكم الفرنجي الإسباني الذي وقعت تحته منذ سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٨م ، من حوالي عشر سنوات ، حينما هاجمتها جحافل حلف ، من: القيصر الفونسو الـ٧ (السليطين) ، والكونت غليوم صاحب مونبلييه ، وبمشاركة قوات من برشلونة وكتالونية وجليقية (غاليسيا) وأشتوريش ونافارا ، وذلك في نفس الوقت الذي سقطت فيه لشبونة (أشبونة) بين يدي ملك البرتغال الذي كان يقارع قوات ابن قسي وأصحابه من المريدين ، وبمعونة من الفرسان الصليبيين الذين قدموا من فرنسا على وجه الخصوص (١٦١).

فبمجرد استقرار السيد/ ابي سعيد (عثمان) في ولاية غرناطة ، حتى فكر جديا في استرجاع المرية اعتبارا من سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م . فلقد نهض العسكر الموحدي، وكمن على مقربة منها إلى نصف النهار ، ثم إنهم خرجوا وأغاروا على باب المرية ، وقتلوا من النصارى الفرنج (الاسبان) عددا كثيراً ، ورجعوا من غارتهم هذه الى حصن برجه (Berja) فبادر أهل الحصن للقاء الموحدين ، وقالوا لهم : ان النصارى بقصبة المرية في عدد قليل ، فنزلوا من برجة وخاطبوا السيد ابا سعيد بأغرناطة بمقالة أهل برجة . ووصل السيد/ أبو سعيد (عثمان) الى المرية ونازلها ، وضيق عليها بالمجانيق ، فاستغاث من كان في القصبة بقومسهم (الكونت) الفونس (اذفونش) ، فوصلهم بعسكره الذميم ، ووصل معه حليفه ابن مردنيش معينا له ، فلم يجدوا سبيلاً الى القصبة ، ولا للدخول عليهم. «فنزلوا على بعد ،

---

(١٦١) انظر يوسف اشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٤١، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ - حيث الإشارة إلى رواية كوندة العربية التي لا يعرف الآن لها أصل.

وعلى حال خزى لايقدر لهم على شئ». وكان فى جملة الموحدين أحمد بن ملحان الثائر بوادى آش مع من وصل من الثوار المجاورين لأغرناطة ، معينا برجاله وفرسانه ، فجرى بينه وبين أبى محمد بن سليمان منازعة ، فأنف من ذلك ، وارتد ابن مردنيش إلى الفونس الـ ٧ ، ولحق بعسكره.

ولما عجز الفونس الـ ٧ وابن مردنيش عن معونة الفرنج الأسبان أقلعا وافترقا ، فرجع «الاذفنش» خاسراً ، وعظم عليه الأمر حتى أنه مات فى نفس السنة . وعندما عرّف السيد/ ابو سعيد عثمان ، صاحب غرناطة ، أباه الخليفة بذلك ، فأمر ان يتوجه «الوزير أبو جعفر أحمد ابن عطية وبصحبته الأمير السيد. أبى يعقوب يوسف ، والى اشبيلية وقرطبة إلى الأندلس ، برسم المسير إلى المرية وانزال المحتلين «النصارى» من قصبتها ، على شرط الأمان - دون تعسف فإذا كمل هذا عادا الى اشبيلية (١٦٢).

---

(١٦٢) انظر ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٣ ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٩٣ (سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥١م - حيث بنى السيد عثمان على محلته سوراً أحاط بها فاستغاث النصارى بالفنش وابن مردنيش فلم يمكنهم اغاثتهم ... فحصر السليطين على أبذة وبياسة . ولزم السيد/ عثمان على حصار المرية حتى فتحها وأنزل منها النصارى صلحاً بالأمان على يد الوزير الكاتب أحمد بن عطية . وقارن رسائل موحدية ، نشر بروفنسال - الرسالة ١٦ في فتح المرية وبياسة وأبذة من انشاء أبي عقيل بن عطية - حيث أهمية المرية من حيث كونها ناظمة بين الجهات الشرقية والغربية ورابطة بين البلاد البرية والبحرية ... واقتحموا ... أبواب المرية ... واستولوا عليها ... ببركة هذا الأمر ... ولم يبق للمشركين الا من انحصر فى القصبة فراراً من الغلبة ... ابن مردنيش نهض بجملته البائسة ... واستصرخ بالسليطين (الذى) سار يجود بنفسه ويتطارح على رمسه المحاصرون فى القصة بادروا إلى أبذه (دخلها الموحدون) وبياسة ... والآن - وفقكم الله - قد استراحت الأندلس من دائها العضال ، واستباحت حمى الكفرة - كتب فى العشر الأول من شعبان المكرم سنة ٥٥٢هـ/ أوائل سبتمبر ١١٥٧ م- الترجمة والدراسة ، ص ٣٩ .

السيد يوسف واليا على اشبيلية :

أما عن تولية السيد/ أبي يعقوب يوسف لاشبيلية فتم في سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م بناء على رغبة أهلها ، وبطلب صريح من الفقيه ابن الجد. ولما وصل يوسف إلى ولايته هذه ، بدأ أعماله الجهادية بغزو طبيرة (Tavira) من مدن البرتغال، وكان الثائر فيها هو علي الوهيبي فحصرها في البر والبحر ، وذلك عندما رجع الوزير أبو جعفر احمد بن عطية من مدينة المرية ، ونزل النصارى (الاسبان) من قصبتها علي الأمان (١٦٣).

ابن عطية يصالح الوهيبي :

والمهم أن الموحدين أقاموا مدة شهرين ، من أول عام ٥٥٢هـ/ فبراير - مارس (ربيع) ١١٥٧م ، وهم يحصرون طبيرة ويقاتلونها ، وذلك في الوقت الذى بدأت تترى الأنباء من العاصمة مراكش بالمطالبة لابن عطية (الوزير) في مجلس الخليفة . وأمام القلق المضني الذى أصاب الوزير ، ورغبته في الانصراف بعدما بلغه من الوقوع في جانبه هناك ، قرر المصالحة مع الوهيبي والقبول منه بذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة. وعندما تم ذلك عاد السيد/ ابو يعقوب يوسف إلى اشبيلية بعدما استولى على بلاد ابن وزير ، وقدم على شلب وبلاد الغرب ، يعقوب بن جبون الهزرجي ، ووجه معه الحفاظ من الموحدين ، «فكمل القبض على بلال ابن وزير ، والعزل بأبدع تدبير» (١٦٤).

وفي تلك الحملة ملك الموحدون مرتلة (Mertola) بطاعة صاحبها تاشفين

---

(١٦٣) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٣-٣٤، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ - حيث: ويرجع الفضل إلى الموحدين في استرجاع ميناء المرية من ايدى النصارى ، من: الاسبان والايطاليين والفرنج ، وذلك على يدى والى غرناطة السيد/ ابي سعيد عثمان الذى أنزلهم منها على الأمان. وإن تطلب الأمر حضور الوزير ابن عطية بعد أن أمدهم ابن مرنيش الثائر بشرق الأندلس ، وحليفه الطاغية ملك قشتالة ، فعجزوا جميعا عن الدفاع عنها.

(١٦٤) ابن عذاري ، الموحدون ، ص ٣٤ .

اللمتونى ، وذلك فى يوم الخميس ١٨ جمادى الأولى سنة ٥٥٢هـ/ ٢٩ يونيه ١١٥٧م (١٦٥).

هزيمة زغبولة:

وهكذا بدأت الأمور فى سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م بداية طيبة ، مع أول ولاية السيد/ يوسف لاشبيلية، فلم يعكر صفوها الا في ربيع الاول من نفس السنة (ابريل -مايه) ، عندما ألمت الهزيمة بالموحدين بقيادة نفس الأمير ، فى منطقة زغبولة ، على مقربة من اشبيلية ، وذلك على ايدى النصاري البرتغاليين الذين نزلوا فى نظر اشبيلية وغنموه.

وأمام ذلك التحدى أمر السيد يوسف القائد : ميمون بن حمدون ، والى منطقة الغرب ، بحشد العساكر من شلب ومن البلاد التى كانت بيد ابن وزير. والظاهر ان العجلة فى المسير الى مواجهة العدو كانت على حساب حسن الاستعداد للحرب. فعندما تمت المواجهة، تقول الرواية ان الأمير يوسف استعجل الحرب بعسكر اشبيلية، ولكن اللقاء انتهى باجفال الموحدين وانهزامهم بل وباستشهاد عدد من كبار القواد ، منهم: ابن عزون ، ومحمد بن على الحجام ، وميمون بن حمدون ، صاحب الغرب نفسه.

وكان من حسن الطالع ان نجا الأمير يوسف بفضل الدليل المحنك الذى أخرجه من

---

(١٦٥) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٤ - حيث النص على أن مرتلة تعتبر أول بلد خرج عنها الملثمون ، وآخر بلد ثار فيها المرتدون على الموحدين. وتنص الرواية على أنه لما وصل السيد/ أبو يعقوب يوسف إلى طبيرة ونازلها ، وفد عليه أشياخ بني وزير، وفى جملتهم الشاعر الأديب: أبو بكر بن المنخّل ، فقال يمدحه ويتغزله فى قصيدة أولها:

أقدك أم غصن من البان أهيف ... ولحظك أم سيف من الهند مرهف

فقالوا أغزو ! قلت لاشك أنه ... فقالوا فمن يغزو العدى قلت يوسف

سليل أمير المؤمنين وكفه ... وصارمة العضب الذى يتخوف .

(ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٤).

الملحمة متنكراً فى الغبار «فطار به أى مطار» ، بينما فر ابن وزير بجواد معار من أحد قرابته ، وأسر من عامة اشبيلية بشر كثير (١٦٦).

والمهم هنا ماتقوله الرواية من أنه عندما وصل عبد المؤمن خبر تلك الهزيمة «نظر فى استجلاب العرب ، وحماية الجزيرة من الحرب والنوب».

سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م : عام ابن عطية :

لما كانت المطالبة للوزير الكاتب الشهير : ابو جعفر أحمد بن عطية قد بدأت مع بداية سنة ٥٥٢هـ/ فبراير - مارس ١١٥٧م فلا بأس من اعتبار تلك السنة من حوليات المغرب والأندلس هى سنة ابن عطية ، وذلك تكريما للرجل العظيم الذى بدأ بداية غامضة فى سلك العسكر من الرماة فى بلاد السوس سنة ٥٤٢هـ/ ٨-١١٤٧م ، والذى انتهى أيضا نهاية غامضة ، وهو فى أعلى عليين ، يشاهد الأفلاك وعوالى النجوم . وهو إن هبط من علٍ ، على يدى عبد المؤمن بن على ، حل محله أخو أخت عبد المؤمن لأمه ، وهو عبد السلام الكومى ، الذى لم تشفع له هو الآخر تلك القرابة القريبة ، فكانت الوزارة بكل أوزارها ، هي السبب المباشر فى هلاك القريب المدلل . الذى كان يرجى منه شدّ الأزر ، وليس ارتكاب الوزر.

فعندما رجع أحمد بن عطية بعد غيبة طويلة عن العاصمة مراكش ، فى بلاد الأندلس ، وجد أن حاله قد تغيرت ، وان عبد السلام الكومى قد استكفا بالحال ، وانتضى سيفه لمطالبته بأعظم نصال . فقد أحضر ابن عطية إلى المسجد الجامع بجنب دار الحجر ، وهو حاسر الرأس ، قد أزال عمامته بالأمر عن رأسه ، وقد جمع الناس له وسئلوا عن أحواله ، فى حضرة أشياخ الموحدين ، والطلبة ، وأهل الأندلس. وفى ذلك قال كل إنسان بحسب دينه وعقله ، حتى وصل السؤال إلى ابن وزير فقال :

أعطانى فوق ما أعطيته أضعافا . وسيدنا لو جعل بينه وبيننا عبداً حبشيا

---

(١٦٦) ابن عذاري ، الموحدون ، ص ٣٧ - ٣٨ .

يوصل له كلامنا لعظمناه وهدينا. فكان كلامه سببا لرفع السؤال عنه في هذا المجلس. وهنا تقول الرواية ان ابن عطية أخرج إلى موضع اعتقاله فكان آخر العهد به ، وذلك في سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م ، ثم أنفذ فيه وفي أخيه حكم الله ، فأخرجا من سجنهما وحملا إلى جبل ، وقتلا بموضع تاجموت ، قرب الملاحة . يوم ٢٩ صفر من سنة ٥٥٣هـ/ ١٥ أبريل ١١٥٧م.

وفي فضائله قيل : طرق المكارم واجتناب المحارم ، والتذاذه بقضاء المسائل ، وتلطفه في توصيل المرغب ، من مضطر وسائل ... أما عما نسب إليه (من السلبيات) ، فهو: كشف السر ، وصحبة أعداء الأمير. وفي غدر الإخوان ، قيل: كان أعظم الناس مطالبة له ، مروان بن عبد العزيز : ثائر بلنسية ، على حسن ماسعى له ابن عطية ، حتى خلصه من سجن ميورقة . فقد قال فيه شعراً يحرض فيه على قتله ، والايقاع به ، ومنه :

قـل للإمام أدام اللـه مدته ... قـولا تبين لـذى لب حقائقه

إن الزراجين قوم قـد وترتـهم ... مطالب الثأر لم تؤمن بوائقه

وللـوزير إلـى آرائـهم مـيل ... لذاك ما كثرت فيهم علائقه

فبادر الحزم في إطفاء نورهم ... فربما عاق عـن أمـر عـوائقه (١٦٧).

وحسب رواية ابن داودوش التي يوردها ابن عذارى أيضا (الهامش السابق) ، فإن ابن عطية حبس مدة (ثم إن عبد المؤمن اقتاده معه عندما سار لزيارة المهدي ،

(١٦٧) انظر ابن عذاري ، الموحدون ، ص ٣٧- حيث : وعن ابن عطية يحكى ابو عبد الله بن داودوش:

سئل ابو العباس الجراوي عن الوزير الكاتب أبي جعفر (أحمد) بن عطية . فقال في سبب الايقاع به: اختلف الناس في ذلك، والأشهر أنه خرج بسر أوثريه . وربما كان ذلك السر خاصا بالصحراوي أخي زوجة ابن عطية الذي ثارت الريبة حول صدق طاعته للموحدين فكان تحذير ابن عطية له بل ونصحه بالمسير إلى بني غانية -أعداء الموحدين من الملثمين - في جزيرة ميورقة - انظر ماسبق ، ص ٥٠٣).

ربما ليستخير الله فى ابن عطية ، فى المزار المبارك ، ثم دفع إلى رجل من كومية يعرف بيوسف بن عبد المؤمن ، فحمله إلى موضع يعرف بتينيسكت من طريق تينمل (طريق العودة) ، فقتله بذلك الموضع بأشياء غير محصلة (١٦٨).

هذا ، ويظهرمن تلك الرواية السابقة ان أكبر أسباب الإيقاع بابن عطية ، هو حقد خليفة الكاتب الوزير المقرب : عبد السلام الكومى الذى أمسك ماكتبه ابن عطية استعطافا لعبد المؤمن نظما ومنه:

عطفا علىّ أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البث والحــزن

قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج ... ورحمة منكم ألجى من الســفن

وصبية كفراخ الورق من صغر ... لم يألفوا النوح فى فرع ولافنن

قد أوجدتهم أياد منك سابقة ... والكلّ لولاك لم يوجد ولم يكن

ونثراً ، ومنه :

تالله لو أحاطت بى كل خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخيرات بطيئة حتى سخرت بالوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وأبرمت لحطب الخليل جبلا ، وأبريت بعده إلى ثمود نبلا ... وافتريت على العذراء البتول وقذفتها ، وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ... لقد آن لمقالتى أن تسمع وتغفر لى هذه الخطيئات أجمع:

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا ... بحمل قلوب هدّها الخفقان (١٦٩).

---

(١٦٨) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٧ .

(١٦٩) ابن عذارى، نفس المصدر ، ص ٣٧ ، وقارن ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ١ ص ٢٦٣ (عن نباهته حيث علاج شبابه وبدايتة مع رماة جيش الموحدين الذي كان يقاتل الماسى الثائر بالسوس ، وكيف تم اكتشافه بعد أن كتب رسالة رائعة أعجبت عبد المؤمن فاستخدم كاتبا ووزيراً) ص ٢٦٤ (عن محنته حيث الإشارة الي غزو النصارى قصبة المرية ومشاركته فى حصارها مع السيد/ أبو يعقوب يوسف والى اشبيلية ، كما نجح في استنزال المحتلين من النصاري منها «على العهد بحسن محاولة» ، وكما شارك فى حرب الثائر الوهيبى، ومن ثم=

وبصرف النظر عن صحة الرواية أو خطئها. فإن النقد الأدبي الذي يقرر «وكان ماكتبه ابن عطية حري بعفو الخليفة عنه» ، قد يلتمس في نفس الوقت شيئا من العذر للمتآمر الذى كانت تأكله نار الحقد والذى سيشرب من نفس الكأس التى سقي لابن عطية (١٧٠).

مابين مهدية سلا الموحدية ومهدية افريقية الفاطمية:

من المهم الإشارة هنا إلى أن عبد المؤمن كان فى السنوات الأولى من ذلك العقد السادس من القرن الـ٦هـ/ ١٢م ، مشتتا ما بين جهاد الإسبان فى الأندلس ، والفرنج النوماندين الصقليين بافريقية ، بل إن بعض مصاعب الحرب فى الأندلس ، مثل الفشل الذى ألم بأهل اشبيلية الموحدين في زغبولة جعله يفكر فى جلب العرب الهلالية من إفريقية من أجل مساندة عملية الإنقاذ الموحدية بالاندلس . يظهر ذلك عندما تحرك عبد المؤمن الى سلا في شوال سنة ٥٥٣هـ/ أكتوبر -نوفمبر ١١٥٨م حيث موضع رباط الفتح التى كان قد أطلق عليها اسم المهدية تخليداً لذكري ابن تومرت وتينما بمهدية الفاطميين التى كان يرتب وقتئذ لفك إسارها من نير الصقليين . فهو عندما اتجه إلى رباط الفتح من سلا لكى يبدأ وزيره الجديد عبد السلام الكومي الافريقى ، وكاتبه عبد الملك بن عياش القرطبى الاندلسي فى الكتابة الي القبائل فى نواحي بلاد المغرب المختلفة «بالنفر للجهاد والاستعداد فى الزاد» ، كما

= وجد حساده والسعى به حتى أوغروا صدر الخليفة ، فاستوزر الكومى الذى انبرى لمطالبة ابن عطية ..)، ص ٢٦٧ (عن شعره وكتابته) ، ص ٢٧١ (عن دخوله غرناطة ومولده بمراكش عام ٥٢٧هـ/ ٣٢-١١٣٣ م، ومن ثم وفاته ٨ فى صفر سنة ٥٥٣هـ/ ٣ أبريل ١١٥٨م).

(١٧٠) وانظر ايضا روض القرطاس ، ص ١٩٦-١٩٧- سنة ٥٥٢هـ/ ٨-١١٥٧م - حيث نكبة ابن عطية وسجنه ، ثم قتله فى شوال/ أكتوبر -نوفمبر مع ايراد نفس القطع الادبية من شعر ونثر مع اختلافات طفيفة في الصياغة. وكحاشية لابن عطية ، تقول رواية ابن أبى زرع إن عبد المؤمن «استوزر مكانه (ابن عطية) عبد السلام بن محمد الكومي، وكان والد عبد المؤمن تزوج أم عبد السلام هذا ، فولدت له ابنة تزوجها أبو حفص (الهنتاتى) ثم طلقها ، فاستوزره عبد المؤمن حين قتل ابن عطية،واستكتب فى الرسائل والأوامر عبد الملك بن عياش القرطبى.

يأمر «أهل البلاد البحرية بإنشاء الأساطيل والأجفان» (١٧١) ، كان يموه بأن قصده الجهاد فى الأندلس وليس فى أفريقية التونسية ، وتلك علامة مهمة من علامات عبقرية سياسة عبد المؤمن الحربية . فهو لايكتفي بإعداد الآلة الحربية الضخمة والحسنة التسليح ، بل يضيف إلى ذلك عامل المفاجأة عن طريق المكر والتمويه - فالحرب خدعة ، كما يقال (انظر ماسبق ، ص٣٩٢).

التراتيب الادارية أساس الأعمال الحربية :

هذا ، ولو أن تحرير البلاد الافريقية من الاحتلال الصقلى من جانب ، وإخضاع عرب إفريقية من الهلالية لنظم الدولة الموحدية من جانب آخر عن طريق توطين جماعات من المجاهدين منهم فى الأندلس (ماسبق ،ص٤١٤) ، إنما يعنى إنعاش المقاومة لحرب الاسترداد وإقرار الأمن فى أرجاء الأمبراطورية الموحدية الناشئة . وفى ضوء هذه الاعتبارات الاستراتيجية كان عبد المؤمن يتحرك بحشوده الضخمة من منطقة سلا (رباط الفتح) فى ١١ من صفر سنة ٥٥٤هـ/ ٣أبريل ١١٥٩م نحو أفريقية «برسم منازلة المهدية» ، وقد استخلف مكانه :

١- على بسائط العدوة ، الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى اينتى (الهنتاتى) - ليتطلع أمر البلاد الغربية.

أما عن الأقاليم فى المغرب والأندلس ، فقد عهد بولاياتها على النسق الآتى:

- فى بلاد المغرب :

٢- فاس وانظارها : يوسف بن سليمان

٣- حضرة مراكش : الأمير (السيد) أبو الحسن على

- فى الاندلس :

٤- اشبيلية وقرطبة : السيد الاسنى : أبو يعقوب يوسف - على أن يكون

(١٧١) (ابن عذاري ، الموحدون ، ص ٣٨ .

لكل منهما نائب.

- أشبيلية : عبد الله بن أبى حفص.

- قرطبة : ابن ايجيت (يوسف).

٥- غرناطة : الأمير (السيد) أبو سعيد (عثمان) (١٧٢).

وهكذا كان خروج حملة المهدية ضد المحتلين الصقليين من سلا ، غير بعيد من العدوة الأندلسية . وفي أثناء حصار المهدية كان عبد المؤمن يخاطب العرب من بني سليم (الهلالية) الذين كانوا يعيشون في منطقة قابس ، ويحرضهم على أعداء الإسلام الحقيقيين ، ويستدعيهم ويستدنيهم بشعر من إنشاء القاضى أبى عمران ، يقول فيه:

أسليم دعوة ذى إخاء مرشد	هاد الى الحق المبين المسعد
ومذكرا ماكان اسلاف لـكم	فضلوا به أفعال كل مـسدد
بجهاد أعداء الإله ونصرهم	لرســول ربهم النبى محمـد
وتعرفـوا إنا عليكم صُـبّر	حتى يعود جواب هذا المنشد

والمهم أنه عندما لم يأت ذلك النظم بما كان يرجى منه ، جرد عبد المؤمن عليهم عسكراً تمكن خلال أيام من هزيمتهم . وكان أول من كتب اليه بهذا النصر على عرب أفريقية هو والى أشبيلية:السيد/ أبو يعقوب يوسف. وهكذا انشرحت بذلك النصر صدور الموحدين بالأندلس ، «وقرئ الكتاب على المنابر» هناك (١٧٣).

---

(١٧٢) ابن عذارى ، الموحدون ص ٣٨-٣٩ ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٩٨ .

(١٧٣) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٩- حيث النص: «وهى (الرسالة) طويلة نظماً ونثراً ، أخبرنا عنها للاختصار ، وعن منازل العرب الهلالية فى المغرب والأندلس - وأن كان بغير تواريخ محددة ، انظر عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٢٤-٢٢٥- حيث النصوص التالية:=

رفع المعنويات بالأندلس ضد الثوار:

والذي يفسر اهتمام عبد المؤمن بابلاغ ابنه ونائبه الوالي على اشبيلية اخبار الانتصار على نصارى صقلية، وعلى عرب بني سليم، هو - كما نرى - رفع المعنويات في الأندلس، حيث كان الشرق يعاني من ضغوط ابن مردنيش وحلفائه من ثوار الأندلس أو اسبان الريكونكيستا. ففي ذلك الحين من سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م، خرج محمد بن مردنيش بعسكره من مدينة مرسية مع أصحابه النصارى (الأسبان)، وجمعه من المفسدين، وهم ينتهزون الفرصة في قرطبة أثناء غياب أمير المؤمنين. وشجعه على مواصلة الغيّ - إلى جانب ماكانت افسدته الخمر من صفاء الذهن - أن والي جيّان الموحدي، وهو محمد بن علي الكومي، من بني جلدة الوزير عبد السلام وكذلك الخليفة، أظهر له قبولاً للنكث بالبيعة، الأمر الذي جعل ابن مردنيش يسئ الظن بغير الكومي من الموحدين.

وهكذا واصل ابن مردنيش المسيرة إلى قرطبة، ونازلها، ودمر زروعها. ولكن واليها أبو زيد عبد الرحمن بن إيجيت دافع مدافعة الأبطال - وظلت قرطبة تعاني

=- ثم كر عبد المؤمن راجعاً إلى مراكش بعدما ملأ ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلاً ورجلاً، من: المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند .. (ثم القول) إلى أن ملك ابو محمد عبد المؤمن ... فصيرهم (العرب) جندا له، وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد. ... فكتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس، وفي آخرها أبيات كتبها (عبد المؤمن) في ذلك المعنى وهي:

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحـل ... وقودوا إلى الهيجاء جُرّ الصواهل

وقوموا لنصـر الديـن قومـة ثائر ... وشدوا على الأعداء شـدة صائـل

بني العم من عليا هـلال بن عامر ... وماجمعت من باسل وابن باسـل

تعالوا فقد شدت إلى الغزو نيـة ... عواقبـها منصـورة بالأوائـل

بها نفتح الدينا، بها نبلـغ المنى ... بها ينصف التحقيق من كل باطل

فاستجاب له معهم جمع ضخم، فلما أراد الانفصال عن الجزيرة بثهم فيها، في: نواحي قرطبة ونواحي اشبيلية مما يلي شريش وأعمالها .. فهم بها إلى وقتنا هذا سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م.

من الحصار الى أن عنّ لكل من القاضي أحمد بن ادريس ، وابن يجيت التحيل بحيله على لسان ابن وزير ، من أشبيلية الى ابن مردنيش يقول له: عجل بالاقلاع عن قرطبة، وسرْ إلى إشبيلية ، وأنا ضامن لك دخولها. وعندما وصل ابن مردنيش إلى أشبيلية تبين له أن الأمر خدعة، «فأقلع خاسراً عنها». وإن «لقيت أشبيلية من ذلك عظيم الخطب ، وعميم الرعب ، وحل بأهلها كرب وحرب».

والمهم أنه رغم دقة الموقف نجح السيد يعقوب فى ضبط المدينة بحزمه وجده، ومن كان من الموحدين وأشياخ أشبيلية وأعيانها المخلصين. فقد كانوا «يسمرون (يقظين) طول ليلهم على الأسوار ، ويقفون بالأبواب طول النهار، ويتعوذ الجار من الجار». وترتب على ذلك أن ظن الموحدون بالناس (الظنون)، فسجن من أتهم، وأمضي السيف على من صح عنه أنه غش الأمر وأجرم ، وسلم من لازم الطاعة واستسلم.

ولقد تمادى ذلك كله حتى وردت الكتب المبشرة بالفتح (على العرب) ، والمؤرخة فى ٢ من ذى الحجة من سنة ٥٥٤هـ/ ١٦ديسمبر ١١٥٩م ، من ظاهر المهدية(١٧٤).

والمهم بالنسبة للأندلس هو أن عبد المؤمن ، أثناء انشغاله بفتح المهدية ، بل وقبل أن يتم له هذا الفتح ، كان مشغولا وهو فى محلته بظاهر العاصمة الفاطمية العتيدة ، بأمر انشاء مدينة جبل طارق ، جنبا الى جنب مع انشاء مهدية -سلا.

والحقيقة أنه فى خطابه المؤرخ فى ٢٠ من ذى القعدة سنة ٥٥٤هـ/ ٤ديسمبر ١١٥٩م ، والمحرر من محلة الموحدين بظاهر المهدية قبل الفتح يبين ان بلد الأندلس كانت الشاغل الحقيقي له وهو فى ساحة القتال لخارج المهدية. ذلك أن موضوع الكتاب كان - وهو الأمر المستغرب حقا - هو بناء مدينة جبل طارق التى ستعرف منذئذ بجبل الفتح . كناية عن الفتح الموحدى الجديد للأندلس. فعبد المؤمن يقول - وهو فى تلك المطالع الشرقية -: «ومازلنا ... نتلفت من تلكم الجهة إلى العدوة

(١٧٤) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤٠-٤١ وقارن ابن صاحب الصلاة ، ص ١١٥-١٢٧ .

الأندلسية - حفظها الله بما يجب لها من الالتفات ...، وهو النظر في اختطاط مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق - عمره الله - مجمع البحرين والقطب الآخذ بأطراف البرين ، يختص بعون الله بهذا الأمر العزيز انشاؤها ...وقد قويت العزيمة بحول الله على الاشتغال ببنائه وعمارة فنائه ... واعداده على مقتضي المدن المحصنة ... ووجهنا الشيخ أبا اسحق برّاز بن محمد (المسوفى) والحاج يعيش - أكرمهما الله للاشتغال بذلك وليتجمعوا ومن اليكم من الأشياخ الاندلسيين ... وقد خاطبنا الشيخ الأجل أبا حفص ليصل الى المكان ، والشيخ القائد أبا محمد عبد الله بن خيار (الجياني) ليصله ، وتتلاقى هناك الآراء...»

هذا إلى جانب الإشارة إلى فتح قفصة ومخاطبة الفارين من عرب قابس الذين طلبوا الأمان ...«ونحن قد استخرنا الله على التوجه الى الغرب» (١٧٥).

ومن المهم بالنسبة للأندلس أيضا هو أنه بعد فتح المهدية سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م ، وجلوس عبد المؤمن لتقبل التهنئة، وأمره بارسال الكتب الى سائر أنحاء البلاد بما يسّره الله من الفتوح ، حوى الكتاب (الصادر للسيد/ أبى يعقوب يوسف ، والى اشبيلية ، تلك الأبيات التى قيل إنها من نظم الخليفة عبد المؤمن ، والتى تقول فى مطلعها:

وأشـرقت الشـمس المنيرة فوقنا	وأصبح وجه الحق غير مُحجَّب
وطَهّر هذا الصـقع من كل كافـر	وعاد به الإسـلام بعد تقلب
وأبشر أبا حفص (١) بنصر مؤزر	كفيل بما تبغيه فى كل منصب (١٧٦).

(١٧٥) رسائل موحدية لبروفنسال ، الرسالة رقم ١٩ ص ٩٥-٩٩، الدراسة ص ٤٣ وقارن ابن صاحب الصلاة ، ص ١٢٠-١٢١ (عن الكتابين الواردين فى هذا الشأن).

(١٧٦) (١) -المقصود بأبى حفص هنا- حسبما نرى- هو السيد/ أبو حفص عمر شقيق السيد/ أبى يعقوب يوسف الوالى ، ومستشاره ووزيره ، ثم وزير عبد المؤمن بعد الكومى (عبد السلام) - حسبما يرد فى ابن عذارى، الموحدون ، ص ٤٤ وقارن المن بالامامة ، ص ٢٤ .

وبطبيعة الحال كانت تلك الأبيات الخاصة بأهم فتوح الموحدين فى أفريقية ضد النورمنديين فى صقلية ، والذين جاروا على مدن الساحل الأفريقى ، وجعلوا منها بمثابة مستعمرات أجنبية ، موضوع عناية السيد/أبى يعقوب يوسف ، الذى أمر بأن يكتبها طلبة أشبيلية ، وأن يحفظوها. الى جانب إقامة الاحتفالات فى العاصمة الأندلسية ، الخاصة بإطعام الطعام ، وقرع الطبول على هذا المسار (١٧٧).

وكان جواب السيد/ أبى يعقوب على كتاب والده بالتهنئة والدعاء والتأميل، «كما طلب منه إغاثته للأندلس» . وشمل الكتاب إلى جانب ذلك شعراً لأبى العباس بن سيد المالقى ، يعرف فيه بأحوال الأندلس المتردية ، وفيه يذكر حال الفتنة، وأحوال ابن مردنيش الذى كان «يلح بالفتنة والضر ، ويستعين بالنصارى (الاسبان) أهل الكفر. وأشبيلية فى مثل الحلقة من الفتن (١٧٨).

البريد البحرى السريع :

وإن تبادل الرسائل بين الخليفة فى إفريقية والأمير (السيد)/يوسف والى أشبيلية والمرشح لولاية العهد ، يلقي بالضوء على أساليب عمل البريد البحرى السريع - حسبما تسمح به قوة الريح - من حيث يكون ركوب الرقاص ، وهو ساعى البريد ، من بجاية ، وخروجه من المركب فى ميناء المرية ، الذى كان قد استنقذ من بين أيدى المحتلين ، من الإسبان والفرنج الإيطاليين فى فى سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م .

(١٧٧) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤١ وقارن ابن صاحب الصلاة ، المن بالأمامة ، ص ١٢٥-١٢٦ .

(١٧٨) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤١-٤٢ حيث شعر المالقى الذى يقول فيه بالحتمية التاريخية لانتصار الدعوة الموحدية ، حيث:

هو الأمر أمر الله ليس له ردّ — تؤيده أيد ويسمو به حد

إليكم أمير المؤمنين توجهت — بنا الرغبات الجم بحصتها جهد

لعل عيانا منكم كعبيدكم — وقربا بكم منهم يدال له البعد

بكم يعتلى الإسلام شرقا ومغربا — فلله فيها دائبا ولله الحمد

وجملتها ١٤ بيتا وقارن ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ١٢٨ .

فالخطاب المؤرخ فى ربيع الأول سنة٥٥٥هـ/ مارس ١١٦٠م كان يصل من بجاية إلى المرية ، ومن هناك يخرج إلى أشبيلية فى أقرب وقت من تاريخه - ولو أن الرواية لاتحدد تاريخ الوصول ، أو عدد الأيام التى كان يستغرقها وصول الرسالة (١٧٩).

الاهتمام بالبريد البرى :

وهذا الاهتمام بالبريد البحرى يذكرنا باهتمام الموحدين منذ مطلع العقد الخامس (٥٤٢هـ/ ١١٤٨م) بتنظيم إدارة البريد بعد ما ظهر فيها من المساوئ، وهو الأمر الذى يظهر بشكل جلىّ فى رسالة الفصول، حيث النقد الموجّه للرقاصين من موزعى البريد، الذين كانوا يتجمعون على الطرقات، ومن ثم ينزلون فى أفنية الناس ويرهقونهم بمطالبهم من الزاد والعلف الذى تطلب الكتابة بمنع ذلك إلى القبائل والكور (١٨٠).

إشارة ذات مغزى :

مكان الاحتفال باستكمال فتح أفريقية
على الفرنج الصقليين هو جبل طارق :

بعد وصول رسائل فتح المهدية ودفع العرب بعيداً عن قفصة ، أتت إلى الأندلس رسائل جديدة تبشر بقرب وصول أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وفيها أوامره ببناء مدينة فى جبل طارق الذى سمى بجبل الفتح فكأنها عودة إلى أيام الفتوح الأولى: فتوح طارق بن زيادة ، وموسى بن نصير. وهكذا «توجه السيد/ أبو سعيد (عثمان) من أغرناطة بنفسه، وعسكره ، الى الجبل المذكور ، فنزلوا فيه ، وابتدأوا البناء فى الموضع ... فزادت آمال الأندلس ، وتحققوا نيل الأمل ، وايقنوا بالفتح والنجح ببنيان هذا الجبل» (١٨١).

---

(١٧٩) ابن عذارى ، الموحدون ، ص٤٢ ، وقارن ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ص ١٢٩ ومابعدها - حيث الإشارة إلى نص الرسالة الواردة بهذا الشأن.

(١٨٠) انظر ما سبق ، ص ٢٨ (الرسالة ٢٣)، عبد الهادى التازى ، التاريخ الدبلوماسى للمغرب ، ج ١ ط ١٩٨٧ ، ص ٢٥-٢٦ .

(١٨١) ابن عذاري، الموحدون، ص ٤٢ - ٤٣ .

ويقدم ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة معلومات تفصيلية عن بناء جبل الفتح ، إذ يحدد بدء البناء فى ٩ ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ/ ١٩ مارس ١١٦٠م . وكان صدور الأمر الى السيد/ أبى سعيد عثمان بالمشى من غرناطة بنفسة وأصحابه وجملة عسكره الى جبل طارق ، والاجتماع فيه بطلبة أشبيلية للاجتماع بالشيخ أبى حفص (عمر الهنتاتى) ، وبأبى اسحق براز بن محمد، وبالحاج (المهندس) يعيش، والقائد (ابو محمد) عبد الله بن خيار الجياني ، والتشاور معهم في أمر البناء، هذا كما كتب أيضا للسيد أبى يعقوب يوسف ، وطلب استنفار جميع الفعلة من البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء من جيمع بلاد الأندلس (التى تحت نظر الموحدين). ومشى من أشبيلية العريف أحمد بن باسة بجميع البنائين ومن يشاكلهم.

وهكذا بدأ البناء فى الموضع المختار من ناحية سيف البحر . وأحكم البناؤن فيه القصور المشيدة والديار (للسادة من البنين والأعيان) ، وأخترعوا في أسسها طيقانا وحنايا لتعتدل الأرض ، مبنية بالحجر المنجور والجيار مما هو عجيب فى الأثار. هذا، كما بنى الحاج يعيش فى أعلى الجبل رحي تطحن الأقوات بالريح - وإن لم يقدر لها أن تعمل لمدة طويلة.

هذا كما بنى السور الحصين ، وسمى بابه من حيث كان الدخول «بباب الفتوح»، فجاء فردا فى المعاقل التى لايطمع فيها طامع من البر والبحر (١٨٢).أما تمام البناء فكان فى ذى القعدة من نفس العام ، فكأنّ بناءه استغرق حوالى ٩ (تسعة) أشهر (١٨٣) كما شارك في بنائه الحاج يعيش المهندس ، الذى ينسب إليه بناء رحى بأعلى الجبل تطحن الأقوات (القمح والشعير) بالهواء (١٨٤)

والمهم هنا هو أن عبد المؤمن وهو يعود من فتح المهدية يريد طنجة ، برسم الجواز إلى الأندلس ، كان ينقل معه جماعات من القبائل العربية الهلالية ، من أجل الجهاد في الأندلس ولقد قدرت أعداد العرب ، حسب الاتفاق ، بألف رجل من كل

(١٨٢) ابن صاحب الصلاة المني بالامامة، ص ١٣٧ - ١٤٣ .

(١٨٣) روض القرطاس ، ص ١٩٩ .

(١٨٤) الحلل الموشية ، ص ١٥٥ .

قبيلة ، بعيالاتهم وأبنائهم وإذا كان ابن أبي زرع ينص على أنهم جميعا من عرب جشم (١٨٥)، فإن رواية ابن صاحب الصلاة تنص على أنه (عبد المؤمن) «استاق فى أتباعه من العرب : بنى رياح وبنى جشم وبنى وعدى وقبائلهم ما يضيق بهم الفضاء ، على عدد الذباب وعدد الحصى (١٨٦).

وفى مقابل جبل الفتح يذكر لعبد المؤمن بناء مدينة البطحاء على نهر شلف بالمغرب الأوسط ، من أجل سكنى الموحدين المجاهدين فى المشرق ، حتى يقيموا هناك وأبناؤهم فلا يشعرون بالتغرب عن أوطانهم (١٨٧).

القبض على الوزير عبد السلام الكومي:

وفى الطريق الى طنجة ، وعند دخول مدينة تلمسان ، قبض عبد المؤمن على وزيره عبد السلام بن محمد الكومى ،غريم الوزير السابق أحمد بن عطية ، وحبسه قبل أن ينتهى الأمر بموته ، وربما بتدبير من عبد المؤمن (١٨٨).

وتتلخص أسباب الوحشة بين عبد المؤمن ووزيره عبد السلام الكومى فى تغلب عبد السلام علي كل الأمور ، خلال غزاة المهدية ابتداء من شوال سنة ٥٥٣هـ/ ٢٦ أكتوبر ١١٥٨م. هذا ، إلى خلافه مع السادات الأبناء، وعلي رأسهم والى تلمسان أبى حفص . ومما أخذ على عبد السلام جرأته فى اتهام السادات بافعال القبائح ، من : الراحات والبطالات ، وشرب الخمر ، الأمر الذى تأثر له عبد المؤمن . والمهم أن الوالد المبتئس كلف جماعة من شيوخ الموحدين بتحرى حقيقة الأمر ، فاتضح أن الأبناء لايتناولون الخمر المتعارف عليه ، بل مشروب الرب المطبوخ الذى يراه البعض

---

(١٨٥) روض القرطاس ، ص ١٩٩ .

(١٨٦) المن بالإمامة ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(١٨٧) هذا ، وإن قيل إن الدافع لبناء البطحاء كان محاولة بعض المغامرين من المغاربة الذين سئموا الغربة فى إفريقية ، الانتقام من عبد المؤمن بقتله - انظر روض القرطاس ، ص ١٩٩ .

(١٨٨) روض القرطاس، ص ٢٠٠ -حيث النص على سمّه فى ثردة لبن أو ثردة فروج - مع عدم الاتفاق على مدة موته فى ليلة واحدة أم بعد وقت انسل فيه جسده مع عمل السم فى جسده مدة .

حلالاً - كما فعل الجاحظ فى رسالته فيما حلل وحرم من أنواع النبيذ.

هذا، كما أخذ على عبد السلام استبداده بالمهزومين من العرب من أهل قابس، والذين قتلوا واستئوصلوا، كما استبد عبد السلام بجميع الغنائم والأموال .. حتى نسب إليه احتجان الأموال، والانكار لها والكتمان. وهكذا تكلم عليه مشايخ الموحدين فى مغيبه، بل ورغبوا فى أن يكون السيد/ أبو حفص هو وزير والده.

وبعد فتح المهدية، وفى طريق العودة إلي تلمسان تشكى أهل العدوة من عمال عبد السلام وظلمهم، وكذلك الشكاية من كومية إخوانه، وأطنبوا فى التّشكّى والتّبكّى ... فتغيّر عبد المؤمن وتأثرّ ... وتعجّب من قلّة الأموال فى المخزن ... فقبض على عبد السلام الذى سجن فى موضع مجلسه ثم تحيل فى قتله.

أما عن سبب إدلال عبد السلام، فهو المعروف من أنه كان والد عبد المؤمن تزوج من والدة عبد السلام فولدت له ابنة تسمى بندة (أو فندة) فكان يرى لنفسه حقاً(١٨٩).

---

(١٨٩) انظر اخبار عبد السلام الكومى فى ابن عذارى، الموحدون، ص ٤٣. وانظر الأصل فى ابن صاحب الصلاة ص ١٧٣ وما بعدها، المن بالإمامة، حيث يورد قصة عبد السلام الكومى، من: أن عبد المؤمن استوزره سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، ووصل معه إلى سلا، ومن ثم وجهه إلى جزيرة الأندلس فى قطعة بحرية ليتطلع أحوالها، فوصل إلى إشبيلية ثم إلى قرطبة وغرناطة، وأنهى إلى الطلبة الذين فيها الأوامر العزيزة التى حملها، وانصرف إلى أمير المؤمنين بسلا فى ١٥ يوما غاب عنه. فلما وصل عبد المؤمن فى غزاته إلى تلمسان ومن ثم إلى بجاية أمر ولديه السيدين الواليين: أبا حفص وأبا محمد، فمشيا معه فى العساكر. وهنا لوحظ «أن الوزير عبد السلام الكومى تغلب على الحال كلها فى هذه الغزوة، وطالب السادات وضايقهم، ونسب إليهم عند أبيهم قبائح الأفعال ... فرفع إلى أمير المؤمنين - رضى - أنهم يشربون الخمر المحرّمة، وقرر ذلك وكرّر المطالبة لهم هنالك».

والمهم أن عبد المؤمن بحث فى الأمر عن طريق شيوخ الموحدين «فوجدهم يأكلون طعاما وبين أيديهم مشروب مطبوخ من الرب الحلال». هذا إلى جانب انه عند منازلة المهدية ومخاطبة أهل قابس بالتوحيد، بعث عبد المؤمن عسكراً ضخما بقيادة عبد السلام، وصحبة عدد من =

الاستقرار فى جبل الفتح :

ومن تلمسان سار عبد المؤمن إلى طنجة فوصلها فى شهر ذى الحجة سنة ٥٥٥هـ/ ديسمبر ١١٦٠م ، ومن طنجة كان جوازه إلى الأندلس بالمراكب الحربية من أجل استطلاع أحوال المجاز بالعدوتين ، ومن ثم استقراره فى جبل الفتح لمدة شهرين، كان خلالهما يشرف على أحوال الأندلس ، ويستقبل القواد والأشياخ والشعراء والخطباء . وذلك لتلقى البيعة ، وتقبل مراسم الخضوع والطاعة (١٩٠).

= الطلبة والحفاظ . ولما اقتربوا من قابس ، بادر أهلها مع قاضيهم بالخروج إلى الموحدين ، وتلقيهم بالطاعة والتزام أمر الدين والجماعة. وعندما انهزم العرب المقيمون بالمنطقة ، وقتلوا واستوصلوا ، استبدّ عبد السلام بجميع المغانم والأموال ، وتنقل بأشياء من الانتقال.. وادل بقرابته ووزارته غاية الادلال ، فنسب إليه فى الأموال الاحتجان والانكار والكتمان.

وفى مدة مغيبه تكلم اشياخ الموحدين فى حال عبد السلام واستعلائه ، وتقصيره بأولاد أمير المؤمنين السادة. واقترح الشيخ أبو محمد برزيجن على جماعة المشايخ أن يؤول منصب الوزير إلى السيد ابى حفص، واستجاب لهم عبد المؤمن. وبعد فتح المهدية ، وعند الوصول إلى تلمسان تشكى أهل المنطقة من عمال عبد السلام وظلمهم للرعية وكذلك من كومية أصحابه، ووصفوهم باحتجان الأموال والخيانة فى جميع الأعمال مع رضاء عبد السلام عن كل ذلك.

وبعد أن استمع عبد المؤمن إلى تلك الشكاوى تغيرّ وتأثرّ، وقال: «عجبا من هذا الأمر وسعته، وعدم المال عند مأمنه ، كانت لمتونة إنما يملكون إلى تلمسان هذه ، وكانوا ينصفون أجنادهم ، ونحن الآن قد ملكنا ذلك ، وزائدا على ماكان بأيديهم: إفريقية كلها ولاعندما مانعطى للموحدين هذا من عجب العجب».

وأمام تحريض الشيخ: عبد الحق بن وانودين (من أصحاب المهدى) قام عبد المؤمن مغضبا ، تاركا نعله ليمشى حافيا ، ثم أنه أصدر الأمر فى نفس اليوم - بالقبض على عبد السلام ثم إنه تحيل فى ميتته بالسم فى ثردة لبن أو ثردة فروج ...

(١٩٠) ابن عذارى، الموحدون، ص ٤٣-حيث النص على أنه كان من اشتغال السيد/ ابى يعقوب (يوسف) باشبيلية، أن يزعج الفعلة والرجال للبناء المذكور، ويرتقب وصول الأخبار بقرب والده من هذه الأقطار. وقارن الحل الموشية ، ص ١٥٥- حيث النص على أن التخطيط والبناء كانا من عمل عبد المؤمن وابنه السيد/ أبى سعيد عثمان، كما كان ممن شرور فى البناء الحاج يعيش المهندس- الذى أقام الرّحى الهوائية فى قمة الجبل، مما سبقت الإشارة إليه ص ٥١٧ .

الغدر بقرمونة :

والمهم أنه بعد وصول الأنباء المفرحة من إفريقية إلى الأندلس باستنقاذ المهدية أتت من الأندلس أنباء محزنة عن الغدر بمدينة قرمونة الذى تكدرت بسببه الأحوال فى أشبيلية وفى سائر بلاد الأندلس الموحدية. وهكذا كان على عبد المؤمن أن يأتى مباشرة من إفريقية لكى يعبر المجاز مباشرة إلى الأندلس. وفى ذلك الحين وصلت أنباء غير صحيحة إلى إشبيلية عن أن قرطبة كانت هدفا هى الأخرى ، لغدر ابن همشك صهر ابن مردنيش الذى نازلها ودمر زروعها. والحقيقة أن والى قرطبة أبا زيد (عبد الرحمن) بن يجيت عندما سمع بخبر خروج ابن همشك نحو قرطبة خرج برجاله يستطلعون الأمر ، فخرج عليه الكمين الذى كان قد أعده الثائر ، فقتل ابن يجيت شهيداً (١٩١).

جواز عبد المؤمن (سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) إلى جبل الفتح بعد تحرير المهدية الفاطمية إعلان بقيام الأمبراطورية الموحدية

كان جواز عبد المؤمن إلى قاعدته الاندلسية الجديدة فى جبل الفتح فى شهر ذى القعدة ٥٥٥هـ/ نوفمبر - ديسمبر ١١٦٠م ، وكان البرنامج المخطط لتلك الزيارة يتركز فى الاجتماع بالموحدين فى الأندلس ، وبرؤساء تلك البلاد من الداخلين فى طاعة أمير المؤمنين عبد المؤمن. وكان الموضوع المعروض للمناقشة ، ومن ثم التنفيذ، هو : كيفية مواصلة الجهاد ضد الخطر الاسبانى (الرومى) على أمل توطيد

---

(١٩١) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤٤-٤٥ وقارن ابن صاحب الصلاة ، ص ١٤٥-١٤٦ حيث كان الغدر بقرمونة يوم الجمعة ١٥ ربيع الأول ٥٥٥هـ/ ٢٢مارس ١١٦٠م بعد الصلاة ، وكان الغدر بتدليس الشقى: عبد الله بن شراحيل وإن الموحدين تحصنوا بالقصبة، واضطر السيد أبو يعقوب يوسف الخروج من السفينة التى كان سيعبر بها إلى جبل طارق ، وكان يوما عصيبا باشبيلية . ونظر السيد الأعلى (يوسف) فى مقابلة هذا العدو...

الأمن والاستقرار فى بلاد المسلمين ، بل واستعادة ما أنتزع من أيدى المسلمين فى الوقت القريب قبل أن تتأكدّ ملكية العدو له عن طريق الأمر الواقع والتقادم.

وهكذا خرج للقاء الخليفة عبد المؤمن ممثل السلطة الموحدية فى الأندلس ، وهو ابن الخليفة والى اشبيلية السيد/ أبو يعقوب يوسف – المرشح لولاية العهد. وكان يحيط به أصحابه من الموحدين ، ومن الرؤساء الأندلسيين ، من: مشايخ أشبيلية وطلبتها وأعيانها ، وعلى رأسهم قاضيها : أبو بكر الغافقى ، وأبو بكر بن الجد ، إلى جانب سائر أهل النباهة بالعاصمة الأندلسية الجديدة (أشبيلية) ، من : الكبراء والشعراء . هذا الى جانب أهل العاصمة العتيدة (قرطبة) ، وأهل جميع الأقطار والأعمال (الأنظار) التى تحت طاعة الموحدين(١٩٢).

والمهم أنه أقيم حفل عظيم لاستقبال هذا الحشد الكبير بمدينة عبد المؤمن الجديدة: مدينة جبل الفتح ، وكان منظم الحفل الكبير هو الوزير السيد/ أبو حفص عمر ، وكان البروتوكول الموحدى المتبع وقتئذ ، يقضى بدخول الناس ليسلموا (في أول الأمر) سلام جماعة ، وأن يقروا فيه للخليفة بالسمع والطاعة «من تجديد البيعة الكرية ، وتقبيل اليد المباركة . وأن يقوم أبو محمد عبد الله بن أبي حفص وأبو بكر الغافقي بتعيين أهل أشبيلية وتسميتهم، وأهل الغرب ، وكذلك قاضى قرطبة فى تعيين أهل قرطبة وتظرها ». ثم يؤذن للشعراء بانشاد ، ما أوردوه من نظمهم

(١٩٢) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤٥ ، وقارن الأصل فى ابن صاحب الصلاة ، ص ١٤٩–حيث وصول السيد/ أبو سعيد وأشياخ غرناطة فى نفس يوم وصول السيد/ أبى يعقوب يوسف وكذلك أهل قرطبة وجميع الاقطار والأنظار التى تحت طاعة الموحدين وقارن ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص٢٠٠– حيث خرج عبد المؤمن من تلمسان إلى المغرب ، ووصوله إلى طنجة فى ذى الحجة ٥٥٥هـ/ ديسمبر ١١٦١م . ومن ثم الجواز من طنجة إلى الأندلس ، والنزول بجبل الفتح حيث الإقامة به شهرين . وحيث استشرف على أحوال بلاد الأندلس ، فأتاه قوادها وأشياخها للسلام ، وانظر الحلل الموشية ، ص ١٥٥– حيث الجواز إلى الأندلس ، إلى جبل الفتح ... وحيث أتته وفود الأندلس من كل مكان ، ومن ثم الاحتفال الذى شارك فيه الشعراء والخطباء. وقارن عبد الواحد المركشى، المعجب، ص ٢١٢ ومابعدها – حيث الاحتفال الكبير بجبل الفتح وكأنه تمّ بعد انتهاء البناء فى سنة ٥٣٨هـ/ ٤-١١٤٣م.

وابتكار قرائحهم.

وحسبما تقرر رواية ابن صاحب الصلاة التى ينقلها ابن عذاري كان أول المنشدين هو: أبو بكر بن منّخل ، حيث قال من قصيدة طويلة وأن لم يورد منها صاحب البيان إلا بيتها الأول ، وهو المعبر فعلا عن واقع الحال فى تلك المناسبة وهو :

فتحتم بلاد الشـــرق فاعقـــدوا الغربا   فإن نســيم النصـــر بالفتح قد هبّا

ومنهـــا :

اقيموا إلى ابن الريق(١) بعد صدورها   وليس عليكم ان تـرى ضـــمّرا قبّا

فإن تبـــدأوا بالغرب فالفـــتح واضـــح   وأن نجـــوم الديـــن طالعـــة غربـــا

ضـــمان عليـــكم أن تبيحـــوا حريمـــه   وأن تكسروا فيها التماثيل والصلبا

وأن توردها نهر دويـــر صـــواديا   فتأنف أن تسقي بها البارد العذبا (١٩٣)

وأنشد القرشى المعروف بابن الطليق ، قصيدة أولها :

ما للعـــدى جنّة أوقـــى من الهـــرب   كيف المفر وخيل الله فى الطلب

لو يدلّـــوا قد مـــا زلـــت بقادمـــة   لأصبح الكل طياراً من الرعب (١٩٤)

---

(١٩٣) ابن صاحب الصلاة ، المن الامامة ، ص ١٥١-١٥٢- وعن ابن الريق (١)- فهو الفونسو هنريكيز ملك البرتغال.

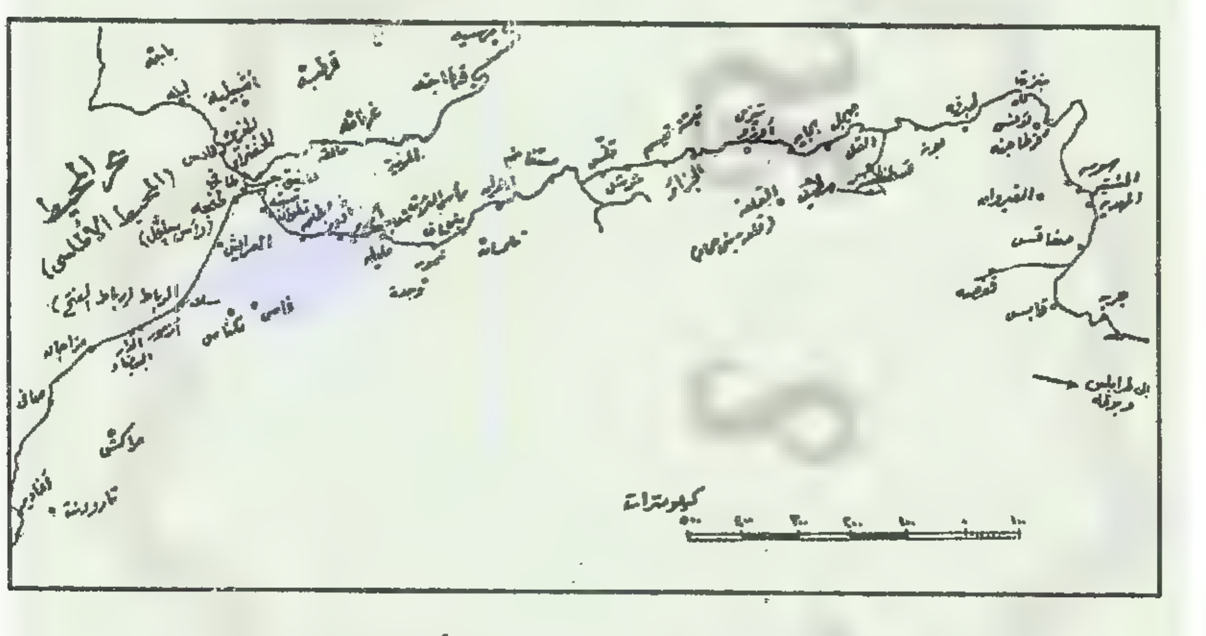
(١٩٤) ابن عذارى الموحدون ، ص ٤٥ ، وانظر ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ١٥٩- حيث النص على ان الطليق كان ينشد ويجيد والكاتب ابو الحسن بن عياش القرطبى ، كاتب الخليفة يحسّن الأبيات وهو واقف ويكررها. والحقيقة ان القصيدة الطويلة هى عرض تاريخى لانجازات عبد المؤمن الحربية ، كما فى الأندلس:

وبناء جبل طارق (جبل الفتح) :

حدث عن الروم فى اقطار اندلس   والبحـــر قد ملأ العبرين بالعـــرب

وفتوح افريقية :   منه يعاود هـــذا الفتح ثـــانيـــة   أضعـــاف ماحدثوا فى سالف الحقب

وحرب النورمنديين :   داســـت جياد القيروان فلم   يثن الأعنـــه الا وهى كالـكتـــب



امبراطورية الموحدين : المدن الرئيسية في المغرب والأندلس علي عهد عبد المؤمن من ٥٢٤هـ : ١١٣٠م إلي ٥٥٨ هـ : ١١٦٣م .

وأنشد أبو عبد الله بن صاحب الصلاة ، من قصيدة وأولها:

تلألأ من نور الخلافة بارق أضاءت به الآفاق والليل غاسق

وأشرقت الدنيا به فكأنها من البشر فى كل الجهات مشارق (١٩٥).

ويفهم من رواية بعض الحاضرين ان احتفال جبل الفتح هذا ، بدأ فى يوم ٢٠ من ذى القعدة سنة ٥٥٥هـ/ ٢٢ نوفمبر ١١٦٠م وأنه استمر مدة ٢٠ (عشرين)يوما إلى عيد الأضحى/ ١٢ ديسمبر حيث انفض الجمع مع التهنئة بالعيد. ولكن الناس

=وحرب العرب الهلالية: صدرت بالعرب العرباء وانقلبت عن الحسام «رياح» شر منقلب

وعهد الخلافة : خليفة الله بادى العلم مبتسم عن جوهر من بديع النظم منتخب

وقارن عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢١٥-٢١٦ حيث النص على أنه انشده (عبد المؤمن) رجل من ولد الشريف الطليق (طليق النعامة ، أيام المنصور ابن أبى عامر) المروانى ، الذى كان شريفا من جهة أمه . وحيث النص على أنه عندما انتهى من الشطرة الأولى ، وهى:

ما للعدى جنة أوقى من الهرب أين المفر وخيل الله فى الطلب

قال عبد المؤمن إلى أين؟ إلى اين ؟ فقال الشاعر:

وابن يذهب من فى راس شاهقة وقد رمته سهام الله بالشهب

حدّث عن الروم فى أقطار اندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

وتنتهى رواية المعجب بأنه عندما أتم الشاعر قصيدته قال عبد المؤمن: «بمثل هذا تمدح الخلفاء » فسمى نفسه خليفة. وهذا التقرير ربما كان السبب فى تأريخ عبد الواحد للاحتفال الكبير بسنة ٥٣٨هـ/ ٤-١١٤٣م بمعنى السنة التى تم فيها بناء مدينة جبل الفتح ، وهذا عكس مايسجله ابن عذارى فى بيانه (عن الموحدين) من أن ذلك الحفل كان بمناسبة جواز عبد المؤمن بعد فتح المهدية سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م إلى الأندلس ، وبداية ترتيبه لأمور الأندلس ، وهو التاريخ الصحيح لذلك الحدث. وهذا ما يؤيده البيت الثالث فى شطرته الثانية ، حيث: «والبحر قد ملأ العبرين بالعرب» أى بعد تسيير العرب الهلالية بمعرفة عبد المؤمن بعد فتوح بجاية سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م ، ومن ثم فتح المهدية فيما بعد سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م . وهذا ما يؤكده ايضا عبد الواحد المراكشى ، ص ٢٢٤- الأمر الذى يؤكد ان ذلك الحفل هو حفل زيارة جبل طارق (جبل الفتح) سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م

(١٩٥) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤٥ ، وقارن ابن صاحب الصلاة ، ١٦٤ ، حيث ٣ قطع فيها عدد أبياتها ٣٣ بيتا ، منها ، ص ١٦٦:

ملكت قلوب الناس حبًا ورهبة فدان بك الصنفان : برٌّ وفاسقٌ .

لم ينصرفوا إلا بإذن الخليفة ، بعدما انتهى من ترتيب أموره ، وتجهيز عساكره ، والتأكد من تحصين بلاد الأندلس- تحسبا لطارئ يكون. وحينئذ إذن للناس بالانصراف إلى مواطنهم ، فانصرفوا (١٩٦).

والأمر المستغرب ان ابن عذارى رغم أنه يعرف أهمية ذلك الأجتماع الذى رتبه عبد المؤمن ومعاونوه من كبار العمال، مثل: السيد/ أبى حفص الذى صار وزيرا للخليفة الوالد، والسيد/ أبو يعقوب يوسف والى أشبيلية وقرطبة ، ولى العهد المنتظر ، لايقدم من الشعراء بعد ابن منخّل والطليق ، إلا أبا العباس الجراوي الذى يمدح عبد المؤمن قائلا:

أعليت دين الواحد القهار — بالمشرفية والقنا الخطار

وافيت أندلسا فأمن خائف — وسما لأخذ الثار رب النار

وحللتم جبل الهدي فحللتم — منه عقود عزائم الكفار

ملك الملوك لقد ألفت إلى العلى — ونظرت من فوق إلى الاقدار

هذا ، إلى جانب قوله يمدحه ، ويذكر إفريقية حين كان بها على المهدية (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م):

ومن يكن من أمير المؤمنين فقد — قامت على فضله منه الشهادات

---

(١٩٦) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤٥-٤٦ ، وقارن عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٢٣-٢٢٤ - حيث النص على أن عبد المؤمن أقام بجبل الفتح ، مرتبا للأمور ، ممهدا للملكة ، وأعيان البلاد يغدون عليه فى كل يوم ، إلى أن تم له ماأراد من إصلاح ما استولى عليه من جزيرة الأندلس. ثم تأتى ولايات الأندلس كالآتى:- إشبيلية: يوسف ، وقرطبة: أبو حفص عمر اينتي - غرناطة - أبو سعيد عثمان الذى كان صديقا لعبد الواحد المراكشي الذى يقول فيه ، انه كان من نبهاء أولاده (عبد المؤمن) ... وذوى الصداقة منهم إلى جانب محبته للآداب والشعر.

ومن قوله في فتح المهدية ، ويمدح الخليفة عبد المؤمن:

جهل النصاري أنه الملك الذى يـــرث البـــلاد وعذرهم مقبول

بالأمس يملأ سمعها ناقوسهم واليوم يملأ سمعها التهليل (١٩٧)

ويقول عبد الواحد المراكشى أن عبد المؤمن لم يكر راجعا إلى مراكش إلا بعدما ملأ ما ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلا ورجلا ، من : المصامدة ، والعرب ، وغيرهم من أصناف الجند (١٩٨). وإذا كان صاحب الحلل الموشية يروى أنه أثناء مقام عبد المؤمن بجبل الفتح أرسل ١٨,٠٠٠ (ثمانية عشر ألف) فارس من عسكره إلى أرض العدو (١٩٩) ، فلا بأس أن تكون رواية ابن أبى زرع هى التى تقدم لنا تفصيل ذلك ، حيث النص على غزو بلاد غرب الأندلس على يدى الشيخ عبد الله ابن أبى حفص الذى خرج من قرطبة فى جيش كثيف إلي حصن أطرانكش من أحواز بطليوس، كما هزم ملك قشتالة (الفنش) الذى جاء لاغاثته فى ملحمة كبيرة ، راح ضحيتها ٦٠٠٠ (ستة آلاف) رجل من عسكره ، كما ساق المسلمون السبى إلى كل من قرطبة وإشبيلية (٢٠٠).

ومما يستحق الإشارة أن كل ما أنشد فى الحفل حسب ابن عذارى ، يدل على أن عبد المؤمن كان ، وهو فى جبل الفتح سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م ، يحكم امبراطورية عظمى تمتد من المغرب الأقصى والأندلس إلى إفريقية التونسية ، فهو يستحق من الجراوى لقب «ملك الملوك» (٢٠١).

---

(١٩٧) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(١٩٨) المعجب ، ص ٢٢٤ ، وابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤٨ .

(١٩٩) الحلل الموشية ، ص ١٥٥ .

(٢٠٠) روض القرطاس ، ص ٢٠٠ .

(٢٠١) ابن عذارى الموحدون ، ص ٤٥-٤٧ .

مَسْح الأراضى الزراعية فى الدولة الموحدية ولقدير خراجها :

وهنا تحسن الإشارة إلى أول قرار أمبراطورى أصدره عبد المؤمن فى سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م ، قبيل فتح المهدية وهو الذي يقضى «بتكسير: تحديد مساحة» إفريقية والمغرب، من برقة وإفريقية إلى بلاد نول من السوس الأقصى، بالفراسخ والأميال طولاً وعرضا. ولقد أسقط من التكسير الثلث (١/٣) فى الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرقات والحزون، ومابقى قسط عليه الخراج عيناً ونقداً. فلقد ألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق (النقد) - فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب.

وإذا كانت رواية القرطاس تختتم ذكر هذا الحدث الجليل بالقول بأن عبد المؤمن تملك المهدية وفتحها يوم عاشوراء من سنة ٥٥٥هـ/ ٢١ يناير ١١٦٠م ، فالذى نراه أن تكسير الأمبروطورية الموحدية المغربية - الأندلسية ينبغى أن يكون قد حدث بعد فتح المهدية ، احتفالا بخلاص البلاد من المحتل النورمندى. أما عن النص على أن عبد المؤمن هو أول من أحدث ذلك بالمغرب ، ففى ذلك تشريف للدولة الموحدية التى وصلت على عهدها التنظيمات الادارة المغربية إلى الذروة فى كل العهود الإسلامية حتى ذلك الوقت من منتصف القرن الـ ٦هـ / ١٢م (٢٠٢) - حيث : وكمل له (عبد المؤمن) الملك بأفريقية ، مسيرة ٤ أشهر من المشرق إلى المغرب ، من طرابلس إلى أقصى السوس (طولا) ومن قرطبة إلى سجلماسة (عرضا).

أما عن حفل «جبل الفتح» الكبير عند عبد الواحد المراكشى فى المعجب ، فهو احتفال الإنتهاء من المدينة بعد سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م بدلا من ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، عندما انتشرت دعوة المصامدة بالمغرب الأقصى وتشوف إليهم أعيان مغرب الأندلس (الغرب) ... فدخل فى ملكهم كثير من جزيرة الأندلس، كالجزيرة الخضراء، ورندة ثم أشبيلية وقرطبة وأغرناطة ، وذلك على يدى الشيخ أبى حفص عمر إينتى ، حيث كان عبور عبد المؤمن من سبتة إلى جبل طارق ، الذى سمّاه «بجبل الفتح». فلقد أقام عبد المؤمن أشهرا هناك ، ابتنى فيها قصورا عظيمة ، وبنى هناك مدينة كانت باقية على أيام عبد الواحد المراكشى ، فى العشرينات من

---

(٢٠٢) روض القرطاس ، ص ١٩٨ - ١٩٩ وقارن الحلل الموشية ص ١٥٥ .

القرن السابع الهجرى / ١٣م ، وهو يدون فى المشرق كتابه المعجب (٢٠٣).

وفى المدينة الجديدة بجبل طارق «وفد على عبد المؤمن وجوه الأندلس للبيعة ... وكان له بهذا الجبل يوم عظيم ... واستدعى الشعراء فى هذا اليوم ابتداء ، ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم».

وفى هذا الحفل أنشد من الشعراء عدد كبير ، منهم :

- أبو عبد الله محمد بن حبوس - الذى كان ينحو منحي ابن هانئ الأندلسى ، والذى كان مقدما فى شعراء لمتونة ثم هرب إلى الأندلس واستخفى إلى نهاية الدولة . ولقد أصبح ابن حبوس حظيا لدى عبد المؤمن ، ونال فى أيامه ثروة ، كذلك فى أيام ابنه يوسف.

- ولد الشريف ابن الطليق المروانى (الذى يورده ابن عذارى فى حفل جبل الفتح سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م).

- ابن سيد (الاشبيلى) الملقب باللص ، وتبدأ قصيدته التى استثقلها عبد المؤمن رغم أنها من خيار ما مدح به (عبد المؤمن) لولا أن كدّر (الشاعر) صفوها بهذه الفاتحة:

غمّض عن الشمس واستقصر مدى زحل وانظر إلى الجبل الراسى على جبل

أنى استقر به ، أنى استقل بـه أنى رأى شخصه العالى فلم يزل

فقد قال له عبد المؤمن ثقلتنا يارجل ، فأمر به فأجلس - والذى نراه أن وصف الرجل العظيم بالجبل وصف مقبول بالنسبة لمعايير النقد الأدبى المتعارف عليها «كلاسيكيا» (٢٠٤).

---

(٢٠٣) المعجب ، ص ٢١٣ .

(٢٠٤) انظر عبد الواحد المراكشى ، ص ٢١٨-٢٢١ ، وعن نفس القصيدة انظر ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ١٥٠-١٥٦ وفيها :

ص ١٥١- خليفة اللـه ماجاء الزمان به إلا ليرفُو قومـا فيه من الخـلل=

- والوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى ، الشهير بالرصافى الرفاء. ومطلع القصيدة التى أنشدها ، وهو شاب لم يكمل العشرين من العمر :

١- لو جئت نار الهدى من جانب الطور   قبست ما شئت من علم ومن نـور

٦- نور طوى الله زند الكون منه على   سقط إلى زمن المهدى مذخور

٨- يادارُ دار أمير المؤمنين بفسح الطـ   ود ، طود الهدى ، بوركت فى الدّور

١٣- وحيث قامت قناة الدين ترفل فى   لواء نصر على البرّين منشور

١٦- تسنم الفلك من سخط المرار وقد   تؤدين ياخير أفلاك العلا سيرى

١٩- لما تسابقن فى بحر الزقاق به   تركن شطيه فى شك وتحيير

٣٠- لله ما جبل الفتحين من جبل   معظم القدر فى الأجيال مذكور

٥٢- مميز الجيش ، ملتفا مواكبه   من كل مشلول عرش الملك مقهور

٥٩- فالبحر قد عاد من ضرب العصا   يبسا والأرض قد غرقت من فورتنور

٦١- فإن يكن من المهدى قائمه   فموضع الحدّ منه حدّ مشهور

٦٢- والشمس إن ذكرت موسى فما نسيت   فتاه يوشع قمّاع الجبابير(٢٠٥).

=ص ١٥٧- ملك اذا تشغل الدنيا أخا شرف   ألفيته بالمعالى جدّ مشتغل

والملك ليس برساة قواعده   مالم يقم بن أيدى الخيل والابل

ص ١٥٨- فدوخ الأرض لم يعتض له ملك   الا وصيره أعفى من الطلل

حتى اذا استوسق الأمر العلى له   فى الشرق كرّ لنصر العرب فى عجل

أبلغ قوى الشرك والإلحاد قاطبة   ان مالهم من جنود الله من قبل

ص ١٥٩- ريعوا إلى السلم والاسلام يحكم   لاتحسبوا دولة التوحيد كالدول

والله يخلد مولانا وسيدنا   حتى يبلّغ فيكم غاية الأمل

ويمثل الجبل كان يمدح بعض أمراء الأيوبيين في رثاء الشاعر له : حيث يقول :

جبل هوي فارتُجّت الدنيا له   فكأنها ركبت جناحي طائر

وهو البيت الذي استعرناه لرثاء استاذنا : أحمد فكري - في كتابه التذكاري.

(٢٠٥) آخر القصيدة - انظر عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢١٨-٢٢١- وصاحب=

ومن المهم الإشارة هنا إلى ما يقرره عبد الواحد المراكشي من القول: «ثم كرّ عبد المؤمن راجعا إلى مراكش ، بعدما ملأ ما ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلا ورجلا من المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند ، الأمر الذى يعنى أن ذلك الاجتماع الكبير فى «جبل الفتح» كان فى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠هـ بعد فتح افريقية ، وليس فى بداية ملك الموحدين للأندلس ، فى مطلع العقد الخامس من القرن السادس الهجرى١٢/م ، كما يسجل عبد الواحد المراكشي فى المعجب.

والحقيقة أنه فى أوائل السنة التالية (٥٥٦هـ/ ١١٦١م) ، وقبل رحيل عبد المؤمن إلى الحضرة مراكش ، كان الموحدون قد ملكوا وقتئذ ، مدن : بطليوس ، وباجة ، ويابورة ، وحصن القصر فولى عليها محمد بن علي بن الحاج ، ورجع إلى مراكش فى ربيع الأول/ فبراير - مارس ١١٦١م (٢٠٦).

ومن الطبيعى أن تكون تظاهرة جبل الفتح الاحتفالية الكبرى هذه فى أواخر سنة ٥٥٥هـ/ ديسمبر ١١٦٠م قد أثارت حب الاستطلاع عند الإسبان المجاورين . وفى ذلك تقول رواية ابن صاحب الصلاة إنه خلال هذه الإقامة المؤيدة وصلت من جهة جيّان سرية من النصارى لتتطلع الأخبار ، وأن الأوامر صدرت من الخليفة باتباعهم، فغزاهم الموحدون وسبوهم ، فكان وعدا بالنصر على الأعاجم. وهكذا كان الرحيل إلى الحضرة مراكش فى أول عام ٥٥٦هـ/ يناير ١١٦١م بعد الأطمئنان «على تمهيد أمره العزيز ، وتألف العرب الذين جلبهم لحماية رعيته ، وأن يكونوا من جملة أجناده وأعوانه ، مما أمله من غزو الكفر وكسر صلبانه» (٢٠٧).

مواصلة الصراع فى الأندلس :

أما عن أخطر الأحداث فى سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م ، بعد مغادرة عبد المؤمن جبل

= المعجب يورد بعد ذلك نماذج من شعره فى موضوعات مختلفة ، مثل: نهر اشبيلية الأعظم - بستان بعض الناس - وصف دولاب - صبى يتباكى - نائم قد تحبب العرق على خده.

(٢٠٦) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٢٠٠ .

(٢٠٧) المن بالإمامة ، ص ١٧٢-١٧٣ .

الفتح إلي مراكش ، فهو مناجزة الغادرين بقرمونة منذ ١٥ ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ/ ٢٥ مارس ١١٦٠م . فبعد أن ودع السيد/ أبو يعقوب يوسف والده وعاد إلى أشبيلة ، بدأ ترتيب حرب أهل قرمونة الناكثين. وتلخص التكتيك فى مواصلة الكفاح الهادئ إذ أخذ الموحدون «يغادونهم ويراوحونهم» حتى أمكنهم الله من الغادر نفسه ، وهو: عبد الله بن شراحيل الذي مكن ابن همشك من قرمونة ، فأخذ ابن شراحيل أسيراً مقيداً فى الحديد الى السيد أبى يعقوب يوسف الذى أنزل به وبأتباعه وأشياعه العقوبة العظمى - الموت قتلا.

وفى تلك الأثناء وصل الجيش الضخم الذى جهزه عبد المؤمن من مراكش ، وكان يقوده يوسف بن سليمان. وبذلك الاهتمام بالأندلس على المستوى العسكرى انتعشت آمال الناس هناك ، وقويت بالموحدين إشبيلية ، كما أمكن إدخال الأقوات والميرة دون عوائق إلى قرطبة (٢٠٨) - التى كانت مهددة من قبل العدو ، وكأنها أرض حرام، كما نرى.

والمهم أن الأحوال غير المستقرة بالأندلس كانت تتطلب المشاورات المتواصلة مع حاضرة الخلافة ، فكان على السيد/ أبى يعقوب يوسف أن يتوجه من إشبيلية إلى مراكش لزيارة الوالد الخليفة عبد المؤمن ، وكان عليه أن يستخلف على قرمونة القائد أبا محمد عبد الله بن أبى حفص (الهنتاتى) ، الذى كان عليه أن يطهرها ممن كان بداخلها من بقايا الثوار أو المتآمرين الأشرار. وسار اليها ابن أبى حفص ، وضيق على من كان بداخلها من الرعية والشرذمة الشرقية (شرذمة ابن مردنيش وابن همشك) . ورغم ماتقوله الرواية من أن المحصورين بقرمونة يئسوا من نصرة ابن مردنيش ، إلا أنهم لم يستسلموا للموحدين إلا بمداخلة رجل من أهل المدينة - اسمه شراحيل - طلب الأمان لنفسه ولأهله نظير فتح باب المدينة التى دخلها الموحدون بعد أن طال حصارها مدة تقرب من سنتين ، وذلك فى يوم الجمعة ١٥ من المحرم سنة ٥٥٧هـ/ ٦ يناير ١١٦٢م (٢٠٩).

---

(٢٠٨) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤٩ ، ابن صاحب الصلاة ، ص ١٨١-١٨٢ .

(٢٠٩) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤٩ ، وقارن ابن صاحب الصلاة ، حيث المزيد من تفاصيل الاحداث ، مثل: عميل الموحدين شراحيل (غير الغادر السابق) والإشادة بالقائد أبى محمد =

سنة الأسطول :

أما عن سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م فهي ، بالنسبة لعبد المؤمن وأمبراطوريته الناشئة: سنة الأسطول. ففيها صدرت أوامر الخليفة بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل بلاد بالمغرب وإفريقية والأندلس ، استعدادا للغزو في سواحل وفي عمق بلاد الروم الإسبانية، سواء في سواحل البرتغال حيث كان مرور أساطيل الفرنج من الصليبيين أو في سواحل الشرق وميورقة اعتباراً من بلنسية ودانية والمرية ، وهي المنطقة التي كانت مسرحاً للعمليات البحرية المضادة من قبل الإيطاليين من الجنويين والبيسانيين (أهل بيزة) . فلقد تم في تلك السنة إنشاء ٨٠٠ (ثمانمائة) قطعة دفعة واحدة ، فكان عام ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م هو عام الأسطول الموحدي - الأمر الذي جعل امبراطورية الموحدين دولة بحرية بفضل جهود خليفة المهدي ابن تومرت (عبد المؤمن) (٢١٠).

= عبد الله بن أبي حفص إينتي الذي يوصف بأنه رجل مجرب، فارس مقدام في الحروب مجرب، حافظ فاضل، درب بالفتنة، سايس ذي ناب في الفتن ومخلب، خطيب باللسان العربي المعرّب.

هذا مع الإشارة إلي أنه سكن أثناء مناجزة قرمونة في قلعة جابر Alcala de Guadoura وصعد سور قرمونة من موضع حصن بني سلام، وفي صحبته الشيخ أبو العلاء بن عزون نصيح الأمر العزيز، ومعه أصحابه الجند الأندلسيون الموسومون في الأمر الكريم... وانحصر الشقي القائد الشرقي: ابن أبي جعفر بالقصبة مع أصحابه ، ثم نزل علي الحكم فيه، وفتحها الله صخوة الجمعة ١٠ المحرم / ٢٦ يناير (٥٥٧ هـ)، وكان غدرها ضحوة الجمعة أيضاً ١٥ ربيع الأول / ٢٢ مارس (٥٥٥ هـ) . ومن المهم الإشارة إلى ما يقوله ابن صاحب الصلاة من أن أبا محمد بن أبي حفص عندما دخل قرمونة غسل جامعها بالماء، كما يقول : " ولقد مشيت إليه وهنيته علي الفتح، وهو في الجامع يغسله وهو جالس مستند إلى الحائط الشرقي من جامع قرمونة" - المن بالإمامة ص ١٨٢ - ١٨٥ .

(٢١٠) انظر روض القرطاس ، ص ٢٠٠ - حيث قائمة باعداد المراكب المنشأة في سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م كالآتي: في حلق المعمورة (مصب وادي سبو- حيث المهدية الحالية وغيرها) : ٤٠٠ قطعة ، منها في مرسا المعمورة : ١٢٠ قطعة ، وفي طنجة وسبتة وبادس ورأس الريف: ١٠٠ قطعة ، وفي إفريقية ووهران وهنين : ١٠٠ قطعة- وأخيراً في بلاد الأندلس: ٨٠ قطعة ، =

العناية بسلاح الفرسان :

والى جانب الأسطول نظر عبد المؤمن فى العناية بسلاح الفرسان الذى كان يمثل القوة الضاربة فى جيوش ذلك الزمان - من حيث كانت الخيالة أشبه بفرق العربات المدرعة ، السريعة الحركة ، فى عصرنا الحديث . هذا ، كما اعتنى بانتاج السلاح وخاصة السهام والنبال ، التى كانت تحقق لجيوش العصور الوسطي ماصارت تحققه المدفعية فى عصورنا الحديثة ، من الضرب عن بعد دون الالتحام . هكذا أمر عبد المؤمن بضرب (صنع) السهام فى جميع البلاد ، فكان ناتج ذلك فى اليوم الواحد ١٠ (عشرة) قناطير ، فجمع من النبال مالا يحصى عداً (٢١١).

ثوار الشرق والغدر بغرناطة :

ومنذ سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م كان الصراع يزداد ضراوة فى البلاد الشرقية مع ابن مردنيش وحليفه وصهره ابن همشك. والحقيقة أنه إذا كان الموحدون قد استرجعوا قرمونة فى أول سنة ٥٥٧هـ/ ٢١ديسمبر ١١٦١م ، وأجهضوا محاولة ابن همشك فى الغدر بها، فإن هذا الأخير عوض تلك الخسارة بصيد سمين آخر ، هو مدينة

= وقارن ابن صاحب الصلاة المن بالأمامة ، ص ٢١٣-٢١٤ - حيث قال الراوية (الذي ربما كان ابن صاحب الصلاة نفسه) : وان أمير المؤمنين - رضه - نصره الله تعالى ... وغزو الروم بجزيرة الأندلس ، واضمر لغزوهم براً وبحراً ... فأمر بانشاء القطائع فى سواحل عدوه الأندلس فصنع منها زهاء ٢٠٠ (مائتى) قطعة أعمد منها فى مرسى المعمورة بحلق البحر على وادى سبو ١٢٠ قطعة وقفت عليها وعددتها بالمرسى المذكور . وأعد باقى العدد فى ارياف المعمورة والأندلس.

وأمر بكتب الرجال والرؤساء والابطال لعمارتها والقيام بحمايتها والنظر فى آلاتها وأعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر ... ماعاينته مكدسا كأمثال الجبال .... بقى إلى عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٦م حتى فنى فى أكداسة وعاد ترابا.

(٢١١) روض القرطاس ، ص ٢٠١ ، وقارن ابن صاحب الصلاة ، الذى ربما كان الأصل ، ص ٢١٥- حيث ونظر - رضه - في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة الإفريقية ، واتخذ الاسلحة من السيوف المحلاة . والرماح الطوال على أجمل الهيئات ، والدروع والبيضات والترسة ، إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس.

غرناطة التي كانت أهميتها تزداد مع مرور الوقت ، منذ بداية الحكم المرابطي للأندلس.

فلقد أنتهز ابن همشك فرصة خروج والى غرناطة السيد/ أبو سعيد عثمان لزيارة والده الخليفة بالحضرة مراكش ، لتدارس أحوال ولايته ، وغدر بغرناطة نفسها. والحقيقة أن ابن همشك كان يهدف إلى أخذ قرطبة ، وكأنه كان ينافس الفونس السابع ملك قشتالة في تحقيق ذلك الهدف. فأثناء حملة عبد المؤمن الافريقية كان ابن همشك يفسد زروع قرطبة في كل صائفة - فكأنها أرض أعداء الإسلام ، كما غدر بقرمونة وأفسد كثيرا من أعمال أشبيلية، الأمر الذي جعل عبد المؤمن يقوم أولا ببناء رباط الفتح في سلا كقاعدة أمامية في مواجهة كل من برغواطة والأندلس ثم بناء مدينة جبل الفتح ليؤمن عبور المجاز عندما يتطلب الأمر.

وهكذا كان عبور عبد المؤمن سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م إلى جبل الفتح واستقباله وفود أهل الأندلس من كل مكان ، عامل استقرار للأمور في الأندلس ، إلى جانب ماقام به من أعمال حربية ألزمت الثوار التحلي بالهدوء والتريث ، وإن ظلت قرمونة فريسة لغدر ابن همشك . وهكذا تفيد رواية ابن عذارى أن مغادرة عبد المؤمن إلى الحضرة مراكش لم تكن السبب في اضطراب ثوار الشرق (الأندلسي) ، بل إن استرجاع الموحدين لقرمونة من أسر ابن همشك كان السبب في اضطرام نيران الفتنة في قلب ابن همشك الذي قرر الغدر بأغرناطة بينما كان يحاصر جيان ، ورأى أن يداخل من كان بمدينة الحمراء من اليهود . فكأنه يقابل المكر بمثيله.

وهكذا كانت مغادرة السيد/ أبي سعيد عثمان لولايته غرناطة من أجل زيارة الوالد في حضرة مراكش ، فرصة انتهزها ابن همشك ليداخل اليهود على تمكينه من مدينة غرناطة ،. دون القصبة التي كانت محصنة بالرجال الأبطال مملوءة بالآلات والأقوات (٢١٢).

---

(٢١٢) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٥٠ .

اليهود الأسلاميون ما بين ابن همشك وابن مردنيش :

وفعلاً مكّن يهود غرناطة ابن همشك من المدينة ، ومن ثم «خاطب أميره ابن مردنيش بمرسية يعلمه بما أتفق عليه ، وأطمعه في أنه إذا وصل بعسكره، ينزل طوعا من بالقصبة من الموحدين». والحقيقة ان ابن همشك لم ينتظر وصول أميره ابن مردنيش بل إنه قاتل من كان بالقصبة من الموحدين ، وتمكن من أسر بعضهم حيث أراد أن يجبرهم على الاستسلام باستخدام وسائل التعذيب الجسدى والإرهاب النفسى ، فكان يرميهم في كفة المنجنيق ، كما يرمى بالحجارة. والحقيقة أن ماكان بالقصبة من الأقوات والآلات ساعد المحصورين على الصمود. وكان من الطبيعى عندما وصلت تلك الأخبار الرهيبة إلى عبد المؤمن بمراكش أن يقرر الحركة على رأس جيوشه للجواز إلى الأندلس ، وبصحبته والى غرناطة السيد/ أبى سعيد عثمان(٢١٣).

وصول الموحدين من مراكش :

ولما وصل عبد المؤمن على رأس قواته إلى سلا سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م ، قرر السيد/ أبى سعيد عثمان والى غرناطة ، أن يتقدم بسرعة ليدخل قصبة المدينة ، لعل ذلك يكون رادعا لابن همشك فينصرف فراراً . وعلى عكس ذلك وجد السيد/ أبو سعيد أن الأمور بغرناطة كانت قد ازدادت تفاقما ، وذلك بتدخل ابن مردنيش الذي وجّه إلى غرناطة عسكراً من الروم (الإسبان) يناهز الألفي فارس وكثير من الرجّالة . وهكذا كان على الأمير أبى سعيد، عندما وصل الي مالقة ، أن يرسل لاستدعاء والى إشبيلية: أبى محمد عبد الله بن أبى حفص ، الذى توجه إليها بعسكره.

---

(٢١٣) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٥٠ - ٥١ .

هزيمة السواقى:

مرج الرقاد:

وهكذا سار السيد/ أبو سعيد بالموحدين والأندلسيين ، إلى فحص غرناطة - حيث السواقى الجارية. وخرج اليهم ابن همشك برجاله الإسبان ودارت الحرب بين الطرفين في موضع مرج الرقاد ، وأسفرت عن أنهزام الموحدين وفرارهم أجمعين ، فكانوا طعما لتلك السواقى التى سقطوا فيها بخيلهم ، فكانت السبب المباشر لهزيمتهم. وإذا كانت الهزيمة قد أسفرت عن مقتل كثير من الموحدين والأندلسيين ، وأستشهاد الشيخ: أبى محمد بن أبى حفص ، فإنه من حسن الطالع أن تخلص السيد/ أبو سعيد ووصل إلى مالقة.

والمهم أن المحاصرين فى قصبة غرناطة صمدوا ، وانصرف ابن همشك مع أصحابه النصارى ، إلى القصبة الحمراء بغرناطة ، وهو يقتل أسرى الموحدين ، ويعبث بهم علي مرأى من إخوانهم فى القصبة (٢١٤). ولما وصل خبر الوقعة إلى رباط الفتح، وكانت العساكر قد تلاحقت بأمير المؤمنين من أجل الغزو فى الأندلس من الموحدين والعرب والمرسومين (المرتزقة) ، فاختار منهم عسكرا ضخما من أعيان كل قبيلة ، وعهد بقيادته إلى ولده السيد/ أبى يعقوب يوسف الذى سار معهم وبرفقته الزعيم الموحدى أبى يعقوب يوسف بن سليمان إلى بحر الزقاق ، من حيث جازوا الى الجزيرة الخضراء ، ومن ثم كان التحرك الى مالقة حيث كان اللقاء بالسيد/ أبى سعيد ، ومن ثم التحرك إلى غرناطة. أما عن عبد المؤمن فبقى محاطا بحرسه الخاص المكون من ٢٠,٠٠٠ (عشرين ألف) رجل من الفرسان والرّجالة.

أما عن الوضع فى منطقة غرناطة فكان ابن مردنيش قد وصل بحملته من المسلمين والإسبان (النصارى) طمعا فى ملك غرناطة ، وكان نزوله فى الجبل المتصل بقصبة المدينة . أما ابن همشك فكان قد عسكر بالحمراء (القصبة) بجبل السبيكة

(٢١٤) ابن عذارى ، الموحدون ، ص٥١ ، وقارن ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ، ص ١٩٢ -١٩٣ .

وفى معيته نحو من ٨ (ثمانية) آلاف فارس من الإسبان ، فضلا عن عسكره الخاص. وكان جملة رجال ابن مردنيش - وهو الأمير - أكثر عددا من عسكر ابن همشك - بطبيعة الحال . وسار الموحدون نحو الخصوم بتؤدة حتى وصلوا إلي وادى شنيل (٢١٥).

انتصار وادى حَذاره :

وفى يوم ٢٧ من رجب ٥٥٧هـ/ ١١ يوليه ١١٦٢م(٢١٦) علف الموحدون خيولهم ، ثم ركبوا بعد صلاة العصر ، عازمين على المسير ليلا ، وأمامهم الأدلاء - خشية من مفاجأة غير متوقعة من خصومهم المدربين على حرب العصابات ، المبنية أصلا على عنصر المفاجأة بفضل آلاتهم الخفيفة ، كما نرى - خاصة وهم يتسنمون الجبل الذى على الوادى ، والمتصل بالقصبة الحمراء حيث محلة ابن همشك. والمهم أن الموحدين هم الذين حققوا مفاجأة العدو، بعد أن مشوا طول ليلهم على شواهق الجبل وأحجاره. وعندما برق نور الفجر أطلعوا على محلة الكفرة أصحاب ابن همشك، فبدروهم بالكفاح فى مضاجعهم ... فظنوا أن الأرض متصلة إلى محلة ابن مردنيش التى كانت بوادى حذاره ، فترددوا فى الوادى ، وتقطعت أجسادهم فى حافاته.

وكان انتصاراً عظيما للموحدين ، وهزيمة أليمة للنصارى الذين قتل قائدهم الأقرع : حفيد البرهانس ، وحُز رأسه ، وسيق بعد أيام إلى قرطبة حيث علق بباب القنطرة. «وتردى فى الوادى صهر ابن مردنيش «أبن عبيد» ، وقواده الأكابر ، وفرسانه المشاهير ، وابن مردنيش يرى ذلك» (٢١٧).

(٢١٥) المن بالإمامة ، ص ١٩٤-١٩٥ ؛ وقارن ابن عذارى ، ص ٥٢ .

(٢١٦) هنا تحسن الإشارة إلى أننا رجحنا الأخذ بتاريخ ابن صاحب الصلاة هذا على أساس النص على أنه يوم الخميس بليلة الجمعة بدلا من ٢٥ رجب / ٩ يوليه عند ابن عذارى.

(٢١٧) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٥٢ ، وقارن الأصل فى ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة، ص ١٩٨-١٩٩ حيث: واتصلت الوقيعة ، الساحقة المطبعة فى الاشقياء والنصارى من كل جانب واستولى الموحدون عليهم يقتلونهم بتحكيم الرماح والسيوف فى السهل وفى الجبل - بنصر الله.

ودخل الموحدون مدينة غرناطة مظفرين ، وسط النهار ، «ونزل المحصورون فى القصبة منهم إلى المدينة يقتلون من كان فيها من الأشقياء ، بينما انهزم ابن مردنيش مع باقى شرذمته ، تاركا أخبيته وأسلابه ، والموحدون يقتفون أثره ويقتلون من أدركوه من قومه». واعتبر ذلك النصر سعادة للسيد/ أبى يعقوب يوسف، واستقر ذلك فى النفوس، «وكان ذلك سببا فى نيله الأمر العزيز» (٢١٨).

حصار ابن همشك فى جيّان ومحاولة إحياء قرطبة :

وسر عبد المؤمن بنبأ ذلك الفتح . وكان على الموحدين بقيادة السيدين/ يوسف وعثمان أن يتحركوا بعد ذلك لحصار ابن همشك بمدينة جيان . ونزل الموحدون بساحل الكدية التى كان قد سبق أخذها ، فلاذ ابن همشك ومن معه من الأشقياء الثوار ببقايا الخرائب ، وبمشابك الأشجار ، فانتسف ماحوالى جيان وخرّب عامرها ، فكان خراب منطقة جيان الثائرة سببا فى عمران قرطبة ، حيث صدرت الأوامر الى السيدين الابنين باستيطانها. وكان ارتحال الأميرين يوسف وعثمان إلى قرطبة فى شهر شوال من سنة ٥٥٧هـ/ سبتمبر - أكتوبر ١١٦٢م ، حيث أقاما فيها مدة ٤ (أربعة) أشهر.

وتدل رواية ابن عذارى على أن محاولة إحياء عاصمة الخلافة العتيدة لم تكن أمراً سهلا فى ذلك الوقت من بداية الهيمنة الموحدية على الأندلس. فقد خرج أهل قرطبة لاستقبال السيدين بجهة باب القنطرة ، «وكان أعيان قرطبة الذين أبقتهم الفتنة على أقدامهم بارزين مع النظارة من العامة ... نحوا من ٨٠ (ثمانين) رجلا

---

(٢١٨) ابن عذارى الموحدون ص٥٣ . وقارن ابن صاحب الصلاة ، ص ١٩٩ . حيث «وتمشت الحال فى ضم أموال المنافقين للمخزن ، بما وجب عليهم من نفاقهم ، وارتدادهم إلى الفتن ثم نظر فى صلاح البلدة بمعنى التسكين والعمارة لجوانبها والتوطين»

... ظهر عليهم البؤس» (٢١٩).

محاولة من جانب عبد المؤمن لإحياء قرطبة :
وابن صاحب الصلاة كاتباً :

وهنا يرجع الفضل لرواية إبن صاحب الصلاة في بيان اهتمام عبد المؤمن بقرطبة في تقديم معلومات طريفة عن محاولة عبد المؤمن أرجاع الشباب إلى العاصمة التى كان قد أكل عليها الدهر وشرب، كما يقال . فقد صدر الأمر الخلافى أثناء حصار جيان للسيدين أبو يوسف يعقوب وأبو سعيد عثمان أن تكون قرطبة مقراً لإدارة الأندلس، كما كانت عليه الحال أيام بنى أمية .. وهكذا وصل واليها أبو اسحق بّرازبن محمد المسوفى مأموراً بولايتها، واستقر داخلها ، واستدعى الكتاب والمشارف من إشبيلية وأنظارها ... وهكذا بادر إليه الكتاب من اشبيلية ، مثل : أبى القاسم بن عساكر ، وأبى بكر المرانى وأبى بكر الحصار، ومعهم العدد الكبار من صغار الكتاب. هذا، كما انتقلت الى قرطبة جماعة كبيرة من مشاهير الأعيان. وهنا يشير ابن صاحب الصلاة الى أنه كان فى جمله من كتب من الكتاب ، ولكنه استعفى والتزم غيره ممن كتب لتقييد أموال المخزن بها وبأنظارها ، وبالبلاد المفتتحة المرتجعة من أيدى المنافقين، ولضمّ الزكوات والفرائض المفروضات. فقربهم عند وصولهم إليه وأدناهم وأنزلهم الديار للسكنى ، وسنّي لهم الخيرات ... ووالاهم بالمبرات واستعملهم على الأشغال وولاهم.

وهكذا . عمرت قرطبة بعد فقرها ، وأمنت من كربها بالفتنة وذعرها ، وتلاحق الناس والكتاب لهذه الآمال ، وشغلوا بالتصرف فى الأعمال . وأظهر أبو أسحق بّراز بن محمد عادته فى النصح لجميع المخازن (الادارات) ، فى داخل قرطبة

---

(٢١٩) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٥٣- حيث يعلق الراوى على ذلك قائلاً: «فلقد ذاقت قرطبة وأهلها من سوء هذه الفتنة الاندلسية ، ما لم يذقه أحد من اوائلهم فى الفتنة الحمودية، بالحاح ابن همشك ،وقسارته العجيبة». ولما استقر السيدان بقرطبة أمرا ببناء قصورها وحماية ثغورها».

وخارجها ، وجميع الأقطار التى للموحدين والمواطن ، واستعمل على أشبيلة من أصحابه من وثقه ، واختصه وصدقه . ولم يزل فى عمله فى من النصح ، وشغله البّين الوضوح كالصبح ، مدة حياته الى أن توفى بقرطبة بعد ذلك فى عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م بعلة النقرس (٢٢٠)...

قرطبة العاصمة الأندلسية العامرة:

عند عودة السيدين يوسف وعثمان من غزوتهم المنصورة ومعهم الشيخ أبو يعقوب ، فى ١٢ شوال سنة ٥٥٧هـ / ٢٤ سبتمبر ١١٦٢م ، خرج جميع أهل قرطبة إلى لقائهم ، وكان ابن صاحب الصلاة أحد من خرج للتبرك بهم مع وفد كتاب أهل اشبيلية إلى باب القنطرة المتصل بالفحص إلى طريق جيان ، وكانوا حوالى ٨٠ رجلا فى حالة رثة بسبب غارات ابن همشك وقساوته . والمهم أن السيدين والشيخ أبو يعقوب استقروا بقرطبة ، فأمروا ببنيان قصورها ، وعمارتها ، وحماية ثغورها. وجلبوا البنائين والعرفاء والفعلة لبنيان القصور والدور من خرائبها ، وإعادتها على رفيع قبابها ، وصرف حالتها من شيبها إلى شبابها.

وتفرد العريف أحمد بن باسة إلى ذلك ، وجدّد ما وهى هنالك ، وانجلب أهلها إليها فى أقرب مدة ، وتجددت آمالهم ، وصلحت أحوالهم أحسن جدة.

ثم انصرف الشيخ أبو يعقوب بمن أمر له من العسكر المؤيد من الموحدين والمجاهدين والعرب الجائزين ، إلى الحضرة مراكش لشرح الحال وأقام السيدان بباقى الموحدين ، فوصلهم من الأقطار الوفود بالتهانى ، وأصبحت بهم قرطبة بعد بؤسها مطمحا للهمم ، ومسرحا لآمال الأمم.

وتراجع أهل قرطبة من البلاد إلى موطنهم ... وأحسن السيدان الأجلان للطلبة من أهل قرطبة المذكورة ماثبت اسماءهم فى زمام العسكرية للمواساة ، ورتبوا الأجناد وجلبوهم من كل بلد للسكنى فيها ، وأظهروا الاغتباط بنواحيها ، فظهر

---

(٢٢٠) ابن صاحب الصلاة ، ص ٢٠٣-٢٠٥ .

العمران ، واتصل الأمن وسكنت الأوطان، وكأن الفتنة لم تكن. وأقام السيدان إلى أول المحرم من عام ٥٥٨هـ/ ١٠ ديسمبر ١١٦٢م ووصل السيد أبو يعقوب الاستدعاء السعيد من الحضرة الجلية فتحرك من قرطبة إلي إشبيلة ١٠ من المحرم / ١٩ ديسمبر١١٦٢م ، وبعد ٥ (خمسة) أيام واصل سيره الى الحضرة ليكون الأمر له بدلا من أخيه محمد المخلوع.

وزاد السيد أبو سعيد قرطبة تمصيراً ، ومهدها تمهيدا وتبشيراً. ومشّى الأوامر العلية بالتسكين والتوطين والإحسان والتأنيس. وانضافت اشبيلة ونظرها في الأشغال السلطانية من الولاية والعزل والتقديم والتأخير في العقد والحل إلى نظر السيد الأجل بقرطبة بمن فيها . وكذلك اشغال المخزن - انماه الله - إلى نظر أبي اسحق برّاز بن محمد المسوفي: فكان باشبيلية على شغل الموحدين: ابو داود يلول بن جلداسن ، وكان على شغل المخزن بها: محمد بن المعلم الإيلاني يجتمعان كل غدوة على المصالح ثم يفترقان إلى النصائح ، داما على هذا إلى أن كانت وفاة الخليفة المرضى - خليفة المهدى (٢٢١).

(٢٢١) نفس المرجع السابق .

سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م : سنة وفاة عبد المؤمن

أبو يعقوب يوسف (أمير أشبيلية) وليا للعهد :

تعتبر سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م من السنوات الفارقة فى تاريخ امبراطورية الموحدين فى شمال افريقية وأيبيرية الجنوبية. فلقد شهدت حدثين جليلين ، أولهما: تحويل عبد المؤمن ولاية العهد من ولده أبى عبد الله محمد ، الذى جُرحت أهليته لولاية الأمر ، نتيجة حتمية لجهره بتعاطى الخمر (أس المنكر) ، إلى ولده المجاهد ، والى اشبيلة :أبو يعقوب يوسف.

فلقد وصلت الأوامر إلى السيد/ أبى يعقوب «بالحركة إلى الحضرة ، فسار من قرطبة إلى اشبيلية ، حيث أقام ٦ (ستة) أيام ، واصل بعدها سيره إلى الحضرة ، بينما أقام السيد/ أبو سعيد عثمان بغرناطة ، فزادها تمصيراً ، «كما انضافت اشبيلية ، ونظرها فى الأشغال إليه».

وتنص رواية ابن عذارى على أن الأمير يوسف ، وهو يلبى دعوة والده ، كان يأمل فى أن يكون مسيره ، من أجل صيرورة الأمر اليه بولاية العهد ، وذلك بخلع أخيه «المخلوع : محمد» ، واتفاق الموحدين على تقديمه (يوسف) للإمامة . هذا ، كما يذكر سبب خلع محمد (أبى عبد الله) من ولاية عهد أبيه ، فيقول: إن عبد المؤمن زار ضريح الإمام المهدى فى فصل الشتاء والبرد ، وإنه فى تلك الحركة «ظهر من جرحه (محمد المخلوع) ... من شرب الخمر وظهور السكر عليه ، إذ تقيأ وهو راكب على فرسه فى المحلة (المعسكر) على مرأى من أشياخ الموحدين ... فأسقط هو بفعله من الأمر نفسه (٢٢٢).

وهنا لابأس من القول انه ربما كان فى الأمر كرامة من خليفة المهدى المعصوم ، الذى ربما شعر بقرب نهاية أجله ، فكان يعد العدة لترتيب أمور الدولة ، قبل أن

(٢٢٢) ابن عذارى الموحدون ، ص ٥٤ ، وانظر الأصل فى ابن صاحب الصلاة ، ص ٢١٥-٢١٧-حيث البرد والبلل وقصة سكر محمد المخلوع.

يلحق بالمعصوم ، تماما كما فعل هذا الأخير ، عندما أكّد خلافة عبد المؤمن له إثر هزيمة البحيرة (الكارثة)، فقال : الأمر باق مابقي عبد المؤمن (ماسبق ، ص٢٦٢).

وإلى جانب استمرار الأمر بولاية العهد التى نقلت إلى السيد/ يوسف، أمير الأندلس المستدعى إلى مراكش ، كان عبد المؤمن يعمل على إقرار الأمور فى الأندلس ، فى الأيام الأخيرة الباقية من عمره. وهكذا قرر وهو يخرج من مراكش فى ١٥ من ربيع الأول سنة ٥٥٨هـ/ ٢١ مارس ١١٦٣م ، أن خروجه على نية الغزو والجهاد ، الأمر الذى كان يتطلب النظر فى الآلات والاستعداد (٢٢٣). واتصل سيره البطئ على عادته - حتي لايرهق الرجال - مع الاستراحة فى المنازل المبنية على طول الطريق ، حتى وصل إلى رباط الفتح من سلا ، بالفحص المتصل بغبولة ، التى تحولت من رباط لجهاد المخالفين فى بلاد برغواطة ، أهل الحرابة ، الى رباط أمامى لجهاد العدو الإسبانى ، صاحب الريكونكيستا ، فيما وراء - المضيق(٢٢٤).

---

(٢٢٣) انظر ابن عذارى، الموحدون ، ص ٢٥٥، روض القرطاس ، ص ٢٠٢- حيث خروج عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ-١١٦٣م من مراكش إلى الأندلس برسم الجهاد يوم الخميس ٥ من ربيع الأول / ٢١ -فبراير ، فوصل رباط الفتح ، من حيث استنفر القبائل إلى الجهاد ، فأجابه خلق كثير، من العسكر النظامى ، ومن الموحدين ، والمرتزقة من قبائل المغرب الأقصى ، ومن زناتة المغرب الاوسط مايزيد على ٣٠٠,٠٠٠ (ثلاثمائة الف) من الفرسان كما تريد الرواية . كما أجابه من المطوعة ٨٠,٠٠٠ (ثمانين الف) فارس ، ومن الرجالة ١٠٠,٠٠٠ (مائة الف) راجل - وهى الأعداد المبالغ فيها من غير شك.

(٢٢٤) انظر ابن عذارى، الموحدون ، ص ٥٥، وقارن روض القرطاس، ص ٢٠٢-حيث: فضاقت بهم الأرض، وانتشرت المحلات والعساكر فى أرض سلا، من عين غبولة إلى عين خميس ، واستدارت راجعة إلى حلق المعمورة ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٣٥- حيث النص على أنه بعد فتح المهدية أقام عبد المؤمن بمراكش بقية سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ و ٥٥٦هـ/ ١١٦١م، و٥٥٧هـ/ ١١٦٢م، وفى أول سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م خرج أمره إلى الناس كافة بالغزو إلى بلاد الروم من جزيرة الأندلس ، وكتبت عنه الكتب إلى سائر الجهات يستنفر الناس، ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه ، فاجتمعت له جموع عظيمة. وخرج يقصد جزيرة=

وفى ذلك تقول رواية ابن صاحب الصلاة أنه بعد ان اجتمعت العساكر فى غبولة، فى عدد أزيد من ٢٠٠,٠٠٠ (مائتى ألف) فارس وراجل ، جمع عبد المؤمن أشياخ الموحدين ، وسألهم الرأى فى غزو العدو الرومى (الإسبانى). وهنا ينص أبو محمد سيد رأى بن وزير ، على أنه عندما قال أشياخ الموحدين إن الرأى الأخير له ، وعندما قال عبد المؤمن : «نقسم العسكر على روم جزيرة الأندلس إلى ٤ (أربع) جهات ، سارع ابن وزير بأن تكون الجهات الأربعة ، هى:

١- وجهة البيوج (مملكة ليون).

٢- وجهة قلمرية (البرتغال).

٣- وجهة اذفونش (قشتالة).

٤- وجهة برشلونة (أرجون) .

فكأن ابن وزير هو المستشار الأول في الشئون العسكرية الأندلسية (٢٢٥).

وفى الوقت الذى كان ينتظر فيه عبد المؤمن وصول المتأخرين من العساكر ، مرض فى أرض الرباط والجهاد (رباط الفتح) مرضه الذى مات فيه - فكأنه كرامة ثالثة تذكر له ، بعد ولايته عهد المهدى ، وولاية العهد لأبى يعقوب يوسف بدلا من أبى عبد الله محمد ، وأخيراً تأتى الوفاة فى أرض الجهاد والرباط ، ومن ثم الدفن فى دار الهجرة: تينملل.

والمهم أنه فى الوقت الذى كان الأطباء يدخلون عليه للعلاج ، لم يفته الأمر بتأكيد نقل ولاية العهد ، وذلك بإسقاط اسم ابنه محمد من الخطبة ، يوم الجمعة ، ٢ جمادى الآخر ٥٥٨هـ / ٨ مايه ١١٦٣م ، والاتفاق مع الشيخ أبى حفص كبير

= الأندلس مظهراً الغزو والاحتساب ، ويتمم مابقى منها بيد محمد بن سعد (ابن مردنيش) ، وسار إلى سلا حيث أقام ينتظر تكامل العساكر، فاعتل علته التى مات فيها - رحمه الله.

(٢٢٥) المن بالامامة ، ص ٢١٨-٢٢١ .

مشيخة المصامدة على تقديم ابنه يوسف (٢٢٦).

وكانت وفاة سراج الموحدين : عبد المؤمن بن على الكومى ، ليلة الخميس ١٠ من جمادى الثانية سنة ٥٥٨هـ/ ١٧مايه ١١٦٣م ، وحمل إلى تينملل ودفن بجنب المهدى (ابن تومرت) - كما كان الحال بالنسبة لأبى بكر ، أول خلفاء الإسلام - وكان له من العمر مابين ٦٣ و ٦٤ سنة.

أما عن مدة خلافته فهي : ٣٣ (ثلاثة وثلاثون) سنة و ٨ (ثمانية) أشهر ، ٢٥ (خمسة وعشرون) يوما وهى من الخميس ١٤ رمضان ٥٢٤هـ/ ٢١ أغسطس ١١٣٠م إلى الثلاثاء ٨ جمادى الثانى ٥٥٨هـ/ ١٥مايه سنة ١١٦٣م (٢٢٧).

هذا ، وينفرد عبد الواحد المراكشى ، وينقل عنه صاحب روض القرطاس بوصف عبد المؤمن وصفا «فوتوغرافيا وبالألوان» ، كما يقال ، من حيث كان : أبيض اللون مشربا بحمرة ، أكحل العينين ، شديد سواد الشعر ، أجعد ... أما عن أوصافة فى السياسة ، فهو «لامثيل له فى ملوك الموحدين» وهو فى الهمة: «لم يخلد إلى الراجات ، ولاركن إلى اللذات» (٢٢٨).

---

(٢٢٦) ابن صاحب الصلاة، ص ٢٢١ .

(٢٢٧) انظر عذارى ، الموحدون ، ص ٥٥ ، ابن صاحب الصلاة ، ص ٢٢١-٢٢٢، وقارن ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٢٠٢- حيث نفس تاريخ الوفاة (١٠ جمادى الثانى) مع الاختلاف فى اسم إليوم ، حيث: فجر الثلاثاء هنا بدلا من ليلة الثلاثاء عند ابن عذارى ، مع النص على ان من حدد عمر عبد المؤمن بـ ٦٣ سنة هو ابن الخشاب ، أما من حدده بـ ٦٤ سنة فهو ابن صاحب الصلاة فى المن بالامامة .

(٢٢٨) انظر عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٧ ، وقارن ابن أبى زرع ، روض القرطاس، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

المصادر والمراجع

□ ابن الأبار ، الحلة السيراء
نشر وتحقيق حسين مؤنس
في ٢ ج - ١٩٦٣ .

□ أحمد مختار العبادي ،
تاريخ المغرب، والاندلس ١٩٦٨ .

□ احمد أبو زيد ،
رؤي العالم : دليل العمل الميداني الانتروبولوجي
(المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية) القاهرة ط ١٩٩٣ .

□ ابن الأثير،
الكامل في التاريخ
ج ١١ (من ٥٢٧ هـ - ٥٨٣ هـ)
(تاريخ المغرب : المرابطون والموحدون) ط أوروبا.

□ احمد عزاوي : رسائل
موحدية:
مجموعة جديدة ، تحقيق ودراسة :
أحمد عزاوي، الطبعة الأولي - ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .
(من منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية القنيطرة - المغرب)

□ الإدريسي، نزهة المشتاق، نشرة كاملة ، في ٢ ج .
القاهرة - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

□ ادريس (هادي روجيه)
Idris Hady Roger
بلاد البربر الشرقية علي عهد الزيريين، من القرن الـ١٠ - ١٢ م.
La Berberie Orientale Sousles Zirides
الجزء الأول باريز - ١٩٦٢ .

□ الاستبصار في عجائب الأمصار (كتاب)
نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد، من منشورات كلية الآداب بجامعة الإسكندرية - ١٩٥٨ .

□ أشباخ (يوسف) .
تاريخ الاندلس في عهد المرابطين

والموحدين ترجمة من الالمانية -
محمد عبد الله عنان .
٢ ج ط . القاهرة - ١٣٦٠ هـ =
١٩٤١ م .
□ البكري المسالك والممالك،
القسم الخاص بالمغرب نشردي سلان
De Slane .
ط الجزائر ١٨٥٧ .
□ بروفنسال .
نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب
الأقصي نشر إ. ليڤي - بروفنسال .
مطبوعات لاروز - باريس - ١٩٤٨
□ بروفنسال :
مجموع رسائل موحدية من انشاء
كتاب الدولة المؤمنية .
اعتنني باصدارها لاڤي بروفنسال،
رباط الفتح ١٩٤١ .
E.Lévi - Provencal , Un Recueil de Lettres officielles Almohades
Etude diplomatique et historique , Paris, 1942.
□ برونشفج (روبير) (R.Brunschvig) دراسات
اسلامية (بالفرنسية) باريز ١٩٧٦
□ ابن بشكوال
كتاب الصلة، مجموعة المكتبة
الاندلسية ،
مدريد ١٨٨٢ .
□ البيدق.
اخبار المهدي محمد بن تومرت.
نشر عبد الحميد حاجيات.
الجزائر ١٩٨٦ .
□ التجاني (أبو محمد عبد الله بن
محمد) الرحلة :رحلة التجاني (من
٧٠٦ - ٧٠٨ هـ) ط تونس
١٣٨٧هـ / ١٩٥٨ م.
□ الحسّن الوزان (ليون الافريقي) ،
وصف افريقيا ، ترجمة عبد الرحمن
حميده ،
نشر السعودية .
□ الحلل الموشية في ذكر الاخبار
المراكشية -
مجهول ، تحقيق سهيل زكّار،
عبدالقادر زمامة.
ط. الدار البيضاء. ١٩٧٩

□ ابن الخطيب،

كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام.

تحقيق وتعليق إ.ليفي - بروفنسال

دار المكشـــوف - لبنان ط ٢ - ١٩٥٦ .

□ ابن خلدون .

كتاب العبر ، ج ٦ ط . بولاق ،

(عن الموحدين) .

□ المقدمة ، ط . التجارية ،

القاهرة بدون تاريخ

□ ابن خلكان ،

وفـيـات الأعـيـان (ترتيـبه في سنة ٦٥٤ هـ / بالقاهرة).

ط . بيروت - ١٩٧٨ .

□ دوزي ، Dozy

ملحق القـوامـيـس العـربيـة

Supplement aux dictionnaires arabes

في ٢ ج. ط. ٣. بريل - ليسدن و باريز ١٩٦٧ .

□ ديفيردان (Deverdun) ،

مراكش - بالفرنسية.

ط - الرباط ١٩٥٩ .

□ رُم لاندو (Rom Landou) ،

القصبات في جنوب مراكش

The Kasbas of Southern Morocco

لندن ١٩٦٩ .

□ رشيد بورويبه.

عبدالمؤمن : سراج الموحدين.

Rachid Baurouiba

Abdel - Mu' men Flambeau des Almohades

ط. الجزائر ١٩٧٤ .

□ ريكار : P. Ricard

مراكش ، المرشد الأزرق ، بالفرنسية

.Maroc. LesGuides Bleus, Paris 1950

□ ابن ابي زرع،

روض القرطاس،

ط - الرباط - ١٩٧٣ .

□ سحر عبد العزيز سالم ،

مدينة الرباط في التاريخ الاسلامي.

الاسكندرية ١٩٩٦ .

□ سيليريبه (Celerier) ،
مراكش (بالفرنسية)
ط - باريس ١٩٤٨ .

□ ابن صاحب الصلاة،
المن بالالمامة علي المستضعفين.
نشر وتحقيق وتعليق د. عبدالهادي التازي بيروت ١٩٦٤ .

□ (أبو بحر) صفوان بن ادريس
(ت ١٦ شوال ٥٩٨ هـ) .
زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر.
بيروت ١٩٧٠ .

□ عبد الواحد المراكشي،
المعجب في تلخيص أخبار المغرب
القاهرة - ١٩٤٩ .

□ عبدالهادي التازي،
التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور الي اليوم.
(ج٦) ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

□ ابن عذاري ،
البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب.
القسم ٣ في تاريخ الموحدين .
نشرة أمبروزيو ويشي ميراندا (هويثي) بمشاركة محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني.
منشورات معهد مولاي الحسن - تطوان). ١٩٦٣ .

□ عنان (محمد عبدالله)،
المرابطون والموحدون - ٢ ج .
ط - القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤م.

□ الغزالي ،
إحياء علوم الدين،
٤ ج. ط - صبيح - الازهر .
بدون تاريخ .

□ فتح الله خلف،
الأحوال والمقامان ،
بحث مخطوط لم يطبع بعد.

□ فيليب حتي،
تاريخ العرب المطول ، ٢ ج
دار الكشاف - ١٩٦٩ .

□ ابن القطان.

نظم الجمال.
تحقيق محمود علي مكي .
(من منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة محمد الخامس - الرباط).

□ كوديرا (د. فرانسيسكو).
Codera (D. Francisco).
اضمحلال وسقوط المرابطين في اسبانيا.
Decadencia y Desaparicion de los Almoravides en Espana.
سرقطة - ١٨٩٩ .

□ لاووست (إميل)Laoust
(Emile) إضافة الي دراسة تسمية جبال أطلس العليا (لدرش) .
Conribution a une étude de la toponomie du Haut Atlas (par Dreich).
مجلة الدراسات الاسلامية (بالفرنسية) ، سنة ١٩٣٩، الكراسة ٣ - ٤، ص ١٩٩-٢١٢ .

الماتريد- كتاب التوحيد، نشر وتحقيق فتح الله خليف .
ط مصر - بدون تاريخ.

□ محمد بن تومرت،
اعز ما يطلب.
نشر وتحقيق عمار الطالبي.
الجزائر ١٩٨٥ .

□ محمد بن شاكر الكتبي،
عيون التواريخ،
تحقيق فيصل السامر، نبيلة عبدالمنعم داود.
ج ١٢ - بغداد - ١٩٧٧ .

□ الشيخ / محمد عبده،
رسالة التوحيد ،
ط . عيسي الحلبي،
مصر - ٨ - ١٣٥٧ هـ .

□ محمد يعلي.
المصادر الاندلسية - ١٠ (٣ نصوص عربية)

□ كتاب الانساب .
لابن عبدالحليم (ق ٨ هـ / ١٤ م).

□ كتاب مفاخر البربر
(المجهول).

□ كتاب شواهد الجلة (ابن العربي ت ٥٤٣ / ١١٤٩).

دراسة وتحقيق محمد يعلي.

(المجلس الاعلي للابحاث العلمية - الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي).

□ المسعودي،

مروج الذهب، ٤ ج ط. بيروت.

□ مصطفي أبو ضيف ،

أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين (٥٢٤ - ٨٧٦ هـ / ١١٣٠ - ١٤٧٢ م).

الدار البيضاء - ١٩٨٢ .

□ المقري.

نفح الطيب، ط بيروت.

□ المؤلف .

تاريخ المغرب العربي ٤ ج.

ط. الاسكندرية.

(منشاة المعارف : جلال حزي).

□ ميشيل أماري Michele Amari

تاريخ المسلمين في صقلية.

Storia dei Musulmani de Sicilia

في ٣ أجزاء بمراجعة كارلو الفونسو نلينّو ط. كاتانيا - ١٩٣٩ (من مكتبة عبد الحميد العبادي).

□ النباهي ،

تاريخ قضاة الأندلس ،

نشر بروفنسال - ١٩٤٨ .

□ النويري .

نهاية الأرب.

الجزء الخاص بالمغرب والاندلس - نشر وتحقيق ابو ضيف -الرباط - الدار البيضاء . بدون تاريخ.

نشر دار الكتب بالقاهرة - المجلد رقم ٢٤ . تحقيق نصار والأهواني ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م.

□ هالفن (لوي).

مجموعة شعوب وحضارات (بالفرنسية).

Peuples et Civilisations

الجزء السادس ، فصل الحروب الصليبية للوي هالفن Louis Halphen ط. ٢ باريس ١٩٤٠ .

□ هويثي ميراندا، (Huici)

التاريخ السياسي لامبراطورية الموحدين
Historia Politica del Imperio Almohade
ج ١ ط - تطوان-مراكش ١٩٥٦ .

□ الوسياني .
كتاب السير : مخطوط دار الكتب، دراسة للمؤلف تونس ١٩٧٥ (وانظر ج٢ للمولف ، ص ٦٠٦)

□ ياقوت الحموي،
معجم البلدان،
مطبعة السعادة - مصر ١٩٠٦م.

□ دائرة المعارف الاسلامية.
دائرة معارف ليكسيكون (Lexicon) الأمريكية.

الكشـاف

أسماء الرجال والقبائل والجماعات

(ت)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ن)

(هـ)

(و)

أسماء المدن والجبال والأنهار

وغيرها من المواضع

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ع)

(غ)

(ف)

(ن)

(هـ)

(و)


A S R


A S R